ايرفنج ستون

ڤنسنت ڤان جوخ

الرواية الكلاسيكية لحياة عاشها بين الشهوة والحرمان

نقله إلى العربية

ناهض منير الريس

دراسات فكرية

"٢٤"

الإشراف الفني :
زهير الحمو
الخطوط :
عبد الرزاق قصيباتي

ڤنسنت ڤان جوخ

الرواية الكلاسيكية لحياة عاشها بين الشهوة والحرمان

دراســات فكريــة
« ٢٤ »

ايرفنج ستون

ڤنسنت ڤان جوخ

الرواية الكلاسيكية لحياة عاشها بين الشهوة والحرمان

نقله إلى العربية
ناهض منير الريس

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

العنوان الأصلي للكتاب:

Vincent Van Gogh
Une vie de désirs et de privations

فنسنت ڤان جوخ: الرواية الكلاسيكية لحياة عاشها بين الشهوة والحرمان =
Vincent van Gogh/ ايرفنج ستون ؛ نقله الى العربية
ناهض منير الريس .- دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٦ .- ٧٦٨ ص؛ ٢٤سم .-
(دراسات فكرية ؛ ٢٤) .

١ - ٨٤٣ س ت و ف ٢ - العنوان ٣ - العنوان الموازي
٤ - ستون ٥ - الريس ٦ - السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ٦٤٦ /٦/١٩٩٦

المقدمة

لنـدن

ـ ١ ـ

ـ مسيو فان جوخ ! انه أوان الاستيقاظ !

كان فنسنت في انتظار ذلك الصوت ، صوت اورسولا ، في اليقظة والمنام ، ولبى نداءها صائحاً :

ـ انا مستيقظ منذ حين يا مدموازيل اورسولا .

فتضاحكت قائلة :

ـ بل استيقظت لتوك .

ثم سمعها تهبط الدرجات وتتجه نحو المطبخ .

وضع فنسنت يديه اسفل جسده ، ودفعه دفعة إلى اعلى ، فاستوى ناهضاً من السرير . كان كتفاه وصدره مكتزين ، وذراعاه غليظين قويين . وانثنى إلى ملابسه فاندس فيها ، وصب بعض الماء البارد من الابريق ، وجعل يشحذ موسى الحلاقة .

كان فنسنت يجد متعة في طقس الحلاقة اليومي ،هابطاً بالموسى من السبلة الحدية اليمنى إلى الوجنة العريضة ، حتى زاوية فمه الشهواني . ثم يحلق الشطر الايمن للشفة العليا مبتدئاً من فتحة المنخر ، فالشطر الايسر ، وبعد ذلك ينحدر إلى الذقن ، وهي عبارة عن كتلة ضخمة مستديرة من الصوان الدافىء .

تناول من فوق خزانة الزينة إكليلاً مصنوعاً من الاعشاب واوراق السنديان التي انبتتها ارض برابلنتين ، وطوق وجهه بالاكليل . هذا ما جمعه شقيقه ثيو من مروج زندرت وارسله اليه في لندن . ونفذ عبير هولندا إلى خياشيم فنسنت ، فكان خير استهلال لهذا النهار .

دقت اورسولا الباب من جديد ، منادية :

ـ مسيو فان جوخ . لقد ترك ساعي البريد هذه الرسالة لك منذ لحظة .

تعرف إلى خط امه وهو يفتح غلاف الرسالة ، وقرأ فيها : « عزيزي فنسنت ، اريد ان افضي لك على الورق بكلمة نهائية . »

سرى في وجهه شعور بالبرد والرطوبة ، فدس الرسالة في جيب بنطاله ، ناوياً ان يقرأها في بعض لحظات الفراغ المتاحة له في محلات جوبيل . ومشط إلى الوراء شعره الطويل الكث ذا اللون الاحمر الضارب إلى الصفرة ، وارتدى قميصاً ابيض متيبساً ، مزوداً بياقة منخفضة ، ورباط عنق طويل اسود ضخم العقدة ، ثم نزل إلى الافطار وإلى ابتسامة اورسولا .

كانت اورسولا لويار تقيم مع امها التي هي ارملة راع سابق

لأبرشيه مقاطعة بروفنسال الفرنسية . وتدير الاثنتان روضة للأطفال في ملحق صغير واقع في الحديقة الخلفية . وكان عمر اورسولا تسعة عشر عاماً . وهي مخلوق باسم واسع العينين ، يزينه وجه بيضاوي لطيف فاتح اللون ، على قوام صغير اهيف . وكان فنسنت مغرماً بالنظر إلى بريق ضحكاتها الذي ينتشر على وجهها المثير كما ينتشر الوهج من خلال مظلة مفعمة بالالوان .

راحت اورسولا تقدم الطعام على المائدة بحركات سريعة لذيذة ، وتثرثر بحيوية وهو يتناول الطعام . انه شاب في الحادية والعشرين ، يعرف الحب لاول مرة . وها هي الحياة تتفتح امامه ، فيخالجه شعور بأنه سيكون محظوظاً بين الرجال اذا اتيح له ان يتناول افطاره قبالة اورسولا طوال ايام عمره الباقي .

جاءت اورسولا بشريحة من لحم الخنزير ، وببيضة ، وبكوب من الشاي الاسود الثقيل . ورفرفت حوله ثم استقرت على كرسي في مواجهته على الجانب الآخر من الطاولة . ومسدت ضفائرها البنية في مؤخر رأسها ، وابتسمت وهي تناوله الملح والفلفل والزبدة والخبز المحمص ، في تتابع سريع .

قالت وهي تبلل شفتيها بلسانها :

– أتعلم ان شتلة الخزامى التي تخصك ترعرعت قليلاً ؟ فهل تلقي نظرة عليها قبل ذهابك إلى المعرض ؟

اجاب :

– نعم . فهل ستقومين ... اعني هل تودين ... ان تريني اياها ؟

قالت :

– يا له من شخص مضحك ! يزرع الخزامى بيده ، ثم ينسى موضعها ...

كان ذلك اسلوبها في الكلام : تتحدث عن الناس كأنهم ليسوا حاضرين في المكان .

وغص فنسنت باللقمة . ذلك ان بديهته الذهنية ثقيلة بعض الشيء ، شأن طابعه الجسماني ، فلم تسعفه برد مناسب على كلام اورسولا . وخرجا إلى الباحة . وكان الصباح من صباحات نيسان الباردة ، الا ان اشجار التفاح مزهرة بنوارها . وهناك حديقة صغيرة واقعة ما بين بيت لويار وبين روضة الاطفال ، زرع فيها فنسنت ، قبل ايام قلائل ، بذور الخشخاش والبسلى . وها هي الخزامى تشق برأسها التربة . واحاط بها فنسنت واورسولا من الجانبين وقد جلسا القرفصاء ، يكاد رأساهما يتلامسان . وكان لشعر اورسولا عطر طبيعي .

قال :

– مدموازيل اورسولا .

تراجعت برأسها ، ولكنها ابتسمت له ابتسامة التساؤل :

– نعم ؟

– انا ... انا ... اعني انني ...

وثبت من موضعها واقفة ، وهي تقول :

– يا رب صبرك . فيم هذه الفأفأة ؟

تبعها إلى باب الروضة ، فقالت :

ــ سيصل اطفالي عما قريب . وانت ؟ ألن تتأخر عن عملك في المعرض ؟

ــ بل لدي متسع من الوقت ، فانني ابلغ ستراند سيراً على القدمين في خمس واربعين دقيقة .

لم يخطر لها ما تقول . فتشاغلت بارسال ذراعيها وراء ظهرها . لتمسك بطرف خصلة هاربة من شعرها . وكانت منحنيات جسدها فسيحة على نحو يدعو إلى العجب ، اذا قيست بهذا القوام النحيل . قالت :

ــ ماذا فعلت يا ترى في امر صورة برابانت ، التي وعدتني بها لتزيين روضة الاطفال ؟

ــ ارسلت نسخة من احدى مخططات قيصر ديكوك إلى باريس . وسوف يذيلها باهداء اليك .

ــ اوه مبهج ! وصفقت بيديها ، ودارت قليلاً على محور الفخذين ، ثم عادت ثانية ، وقالت :

ــ أنت يا مسيو تستطيع في بعض الأحيان ، وفي بعض الأحيان فقط ، أن تغدو ساخراً للغاية .

ابتسمت له بثغرها وبعينيها ، وحاولت ان تنصرف . فأمسك بها من ذراعها ، وقال :

ــ امس فكرت حين أويت إلى سريري في اسم يصلح لك . لقد دعوتك ملاك الاطفال .

فألقت اورسولا رأسها إلى الوراء ، وضحكت من قلبها ، صائحة :

ـ ملاك الاطفال ! ينبغي ان اذهب واروي ذلك لامي !

تملصت من قبضته ، وضحكت له في كبرياء ، وركضت عبر الحديقة ودخلت المنزل .

ـ ٢ ـ

لبس فنسنت قبعته العالية ، وحمل قفازيه ، وخطا خارجا إلى طريق كلافام . كانت البيوت متناثرة في هذه المنطقة البعيدة عن قلب لندن . وفي كل حديقة تبدت براعم البنفسج والزعرور البري والقوطيسوس .

انها الساعة الثامنة والربع ، وليس عليه ان يكون في جوبيل قبل التاسعة . وكان مشّاء قوياً . وكلما تكاثفت البيوت ازداد رجال الاعمال الذين يمر بهم وهم في طريقهم إلى اعمالهم . وغمر قلبه احساس بالود البالغ تجاههم جميعاً ، وذلك لانهم يعلمون بدورهم مبلغ الروعة في أن يكون المرء عاشقاً .

سار على ضفة التايمز ، وقطع قنطرة وست مينيستر ، ومر بكنيسة وست مينيستر وبمجلس البرلمان ، ثم استدار نحو رقم ١٧ شارع ساوثامبتون ستراند ، وهي احياء لندن التي تحتوي على مؤسسة جوبيل وشركاه لتجارة الاعمال الفنية وطبع الكليشيهات .

وأثناء عبوره الصالة الرئيسية ، بسجاجيدها السميكة وستائرها المترفة . شاهد لوحة زيتية تصور نوعاً من السمك أو التنين بطول

ست ياردات ، ورجلاً ضئيلاً يحوم في أعلاه . وكان عنوان اللوحة رئيس الملائكة ميكائيل يصرع الشيطان .

وقال أحد الموظفين لفنسنت ، وهو يمر بقربه« يوجد طرد يخصك على طاولة الطباعة الحجرية . »

كانت الغرفة الثانية من المحل ، بعد صالون اللوحات الذي يعرض رسوماً بريشة ميليه وبوتون وتيرنر ، مخصصة لاعمال الحفر والطباعة الحجرية . على أن معظم البيوع انماكانت تجري في الغرفة الثالثة ، وهي غرفة أقرب في مظهرها إلى محال الصفقات من أية غرفة أخرى ، وضحك فنسنت وهو يتذكر المرأة التي ابتاعت آخر بيع في المساء الماضي .

تذكرها وهي تسأل زوجها لا أستطيع أن أتخيل هذه اللوحة يا هاري ، فهل تستطيع أنت ؟ ان الكلب فيها بعيد الشبه كثيراً عن الكلب الذي عضني في برايتون في الصيف الماضي .

وآنذاك خاطبه هاري قائلاً « قل لي أيها الرجل العجوز ، ألا بد من كلب في اللوحة ؟ انهم كثيراً ما يضعون ربة المنزل في ماخور . »

كان فنسنت على علم بحقيقة أنه يقوم ببيع مادة فقيرة حقاً . وما كان معظم الناس الذين يرتادون المحل ليعلمون أي شيء البتة عما يشترون . فهم يدفعون أسعاراً باهظة لقاء بضاعة رخيصة . ولكن ، أي شأن له بذلك ؟ وكل ما عليه هو أن يجعل غرفة الطباعة ناجحة .

فتح الطرد المرسل من جوبيلز بباريس . وقد بعث به قيصر ديكوك ،

ويتضمن اهداء يقول « إلى فنسنت وأورسولا لويار : ان أصدقاء أصدقائي لهم أصدقائي . »

وتمتم لنفسه « الليلة ، حين أقدم هذا إلى أورسولا ، سأسألها فبعد أيام قلائل أبلغ الثانية والعشرين . وأنا أكسب خمسة جنيهات في الشهر . ولا مبرر لاي مزيد من الانتظار . »

كان الوقت يمر سريعاً جداً في الغرفة الخلفية الهادئة في جوبيلز . وكان فنسنت يبيع بمعدل خمسين صورة في اليوم الواحد لصالح معرض جوبيل وشركاه ، وعلى الرغم من أنه كان يفضل التعامل بلوحات الزيت والحفر فانه كان مغتبطاً لحصوله على قدر كبير من المال لاجل المنزل . وكان يحب زملاءه الموظفين وهم يحبونه ، وكثيراً ما أنفقوا ساعات ممتعة وهم يتحدثون معاً في شؤون أوروبية .

وكان بالمقارنة مع أترابه من الشبان اليافعين كئيباً بعض الشيء وأميل إلى العزلة . وظنه الناس غريب الاطوار وعلى قدر من الشذوذ . غير أن أورسولا غيرت طبيعته تماماً . فقد رغبت اليه أن يصبح اجتماعياً محبوباً ، وأخرجته من نفسه ، وساعدته على رؤية الخير في النمط المعتاد للحياة اليومية .

وفي الساعة السادسة أغلق المخزن أبوابه . وبينما كان فنسنت في طريقه إلى الخارج استوقفه السيد أوباخ ، وقال له « وصلتني رسالة بشأنك من عمك فنسنت فان جوخ . ومبتغاه أن يعرف كيف تجري أمورك . وأسعدني أن أخبره أنك من أفضل الكتبة في المحل . »

ورد فنسنت قائلاً « كان ذلك لطفاً بالغاً منك يا سيدي . »

فقال أوباخ « كلاّ البتة . وأريدك بعد عطلتك الصيفية أن تترك الغرفة الخلفية وتأتي للامام حيث معروضات الحفر والطباعة الحجرية . »

قال فنسنت « هذا يعني الكثير لي في اللحظة الراهنة يا سيدي ، لانني .. لانني مقدم على الزواج . »

فسأل أوباخ « أحقاً ؟ انها لأخبار . فمتى يكون ذلك ؟ »

وأجاب فنسنت « هذا الصيف على ما أظن . » . مع أنه لم يكن قد فكر في الموعد من قبل .

وأنهى أوباخ الحديث « هذا رائع يا بني . وقد سبق لك في مطلع العام أن حصلت على زيادة ، غير أن بوسعي القول أننا سنتدبر أمر زيادة أخرى حالما تعود من رحلة العرس . »

— ٣ —

بعد الغداء دفع فنسنت كرسيه إلى الوراء وقال « سآتيك بالصورة يا مدموازيل أورسولا . »

كانت أورسولا ترتدي ثوباً من قماش الفاي زنجاري اللون على الطراز الحديث . وسألت « وهل كتب الفنان شيئاً ظريفاً من أجلي ؟ »

فقال « نعم . واذا أحضرت مصباحاً فسأعلقها لك في الروضة . »

زمت شفتيها لتصدر بهما انفعالها الصوتي (ممو) ، على هيئة جديرة بالتقبيل ، ونظرت اليه نظرة جانبية وقالت « ينبغي أن أعاون أمي . فهل نقوم بذلك بعد نصف ساعة ؟ »

أسند فنسنت كوعيه على خزانة الزينة في غرفته وجعل يحملق في المرآة . انه نادراً ما اهتم لمظهره من قبل ، فليست هذه الاشياء في هولندا بذات شأن . ولاحظ أن وجهه ورأسه كانا ثقيلين قياساً إلى الملامح الانجليزية . وكانت عيناه مدفونتين في شقوق من الصخور الافقية ، وأنفه عالي القمة عريضاً مستقيماً كأنه عظم الساق الأكبر ، أما جبينه الشبيه بالقبة فمرتفع بقدر المسافة الواقعة ما بين حاجبيه الكثيفين وفمه الشهواني . كذلك كان فكه عريضاً قوياً ورقبته قصيرة ثخينة غليظة . وكانت وجنته الضخمة تمثالاً حياً للشخصية الهولندية .

أدار ظهره للمرآة وجلس على حافة السرير منقبضاً . لقد نشأ في بيت متزمت ، ولم يحب فتاة من قبل ، بل انه لم يتطلع إلى واحدة ، ولا شارك في الممازحات العرضية بين الجنسين . فلم يكن في حبه لاورسولا شيء من العاطفة أو الشهوة . وكل ما في الامر أنه شاب ، وأنه يحب للمرة الاولى .

نظر إلى ساعته . ولما تمر غير خمس دقائق . وبدت له الدقائق الخمس والعشرون مطاطة كأنها لا نهائية . وسحب من رسالة أمه ملحوظة بقلم شقيقه ثيو ، وقرأها للمرة الثانية . كان ثيو يصغر فنسنت بأربع سنوات ، وهو يشغل في الوقت الحاضر مكان فنسنت في فرع جوبيلز في الهاج . وكان بينهما من الاخوة الحميمة مثل ما بين والدهما ثيو دوروس وعمهما فنسنت ، وذلك منذ طفولتهما الباكرة .

تناول فنسنت كتاباً ، وأسند عليه ورقة للكتابة ، وخط ملحوظة إلى ثيو . ثم فتح الدرج الاعلى بخزانة الزينة وأخرج منه رسوماً تخطيطية

فجة رسمها أثناء مروره بضفة التيمز . فأودعها مغلفاً لثيو ، كما أودع نسخة فوتوغرافية للوحة البنت اليافعة ذات السيف بريشة جاكيه .

وإذ انتبه لنفسه صاح عالياً « وشرفي ، لقد نسيت كل شيء عن أورسولا » . ونظر إلى ساعته فاذا به قد تأخر مدة ربع ساعة . فاختطف مشطاً ، وحاول أن يمسد تشوش الشعر الاحمر المتموج ، وأخذ لوحة قيصر ديكوك من فوق الطاولة ، وفتح الباب مندفعاً .

وقالت أورسولا وهو يدخل إلى الردهة « حسبتك نسيتني . » كانت تلصق أوراقاً تصنع منها ألعاباً لصغارها ، وأردفت « هل أحضرت صورتي ؟ أرني اياها . »

فقال « أود أن أعلقها قبل أن تنظري اليها . فهل جهزت المصباح ؟»

قالت « هو عند والدتي . »

وحينما عاد من المطبخ ناولته وشاحاً أزرق اللون طالبة منه أن يعقده حول كتفيها . وارتجف من ملمسه الحريري . وحين بلغا الحديقة طالعتهما رائحة أزهار التفاح . كان الممر معتماً وأورسولا تضع أطراف أصابعها خفيفة على كم معطفه الاسود الخشن . وتعثرت ذات خطوة فتمسكت بذراعه بشدة وهي تضحك من تخبطها . ولم يدر ما وجه الفكاهة لديها في التعثر ، الا أنه طرب لمراقبته جسدها الذي يحمل شحنة الضحك بينما هما يهبطان الممر المعتم . وفتح لها باب الروضة . وحين عبرت من جواره وكان وجهها اللطيف يكاد يحتك بوجهه ، نظرت في عينيه نظرة عميقة ، بدت جواباً على السؤال الذي لم يلقه بعد

أنزل المصباح من يده إلى الطاولة وسألها « أين تحبين أن أعاق الصورة ؟ »

قالت « ما رأيك أن توضع خلف مقعدي ؟ »

كان هناك قرابة خمسة عشر كرسياً وطاولة في تلك الغرفة التي كانت في السابق منزلاً صيفياً . وثمة منصة صغيرة يقوم عليها مقعد أورسولا في أحد طرفي الحجرة . ووقف فنسنت وأورسولا جنباً إلى جنب لاختيار المكان الملائم للصورة . وكان فنسنت متوتراً ، فراحت الدبابيس تتساقط منه حالما بدأ يحاول تثبيتها في الحائط . وضحكت أورسولا منه بنبرة هادئة حميمة .

وقالت « مهلاً يا كسول ، دعني أقم بذلك . »

ثم رفعت ذراعيها أعلى رأسها ، وشرعت تعمل بحركات رشيقة شملت كل عضلة من عضلات جسدها وقد جمعت إلى السرعة الرشاقة . وود فنسنت أن يأخذها بين ذراعيه في ضوء المصباح الشاحب ، وأن يضمها ضمة واحدة مفعمة باليقين الذي يبدد ما يضطرم داخله من عذاب . ولكن أورسولا لم تبد مهيأة لذلك ، على الرغم من الملامسات العديدة التي وقعت منها في الظلام . ورفع لها المصباح عالياً لتقرأ الاهداء. فسرها ما قرأت ، وصفقت بيديها ، وتأرجحت على كعبيها . كانت تتحرك على نحو لا يتيح له مسايرة حركتها .

وتساءلت « معنى هذا أنه صديقي أنا الاخرى . اليس كذلك ؟ ولطالما وددت أن أتعرف إلى فنان . »

وحاول فنسنت أن يقول كلاماً رقيقاً ، كلاماً يمهد السبيل أمام

اعلانه الوشيك . وأدارت أورسولا وجهها اليه بين الضوء والظل . وقد عكست أشعة المصباح بقعاً صغيرة من النور داخل عينيها . ورسمت الظلمة اطاراً حول الشكل البيضاوي لوجهها . وجاش في قلب فنسنت شيء يستعصي على الوصف ، عندما رأى شفتيها الحمراوين النديتين نابقتين وسط بياض بشرتها الناعم .

وحل بينهما صمت حافل بالمعنى .. وواتاه شعور بأنها مقبلة عليه ، تنتظر منه أن يتفوه بكلمات الحب التي لم تعد ضرورية . وبلل شفتيه مرات عديدة . وأدارت أورسولا رأسها ، ونظرت في عينيه عبر كتفها المرتفع قليلاً ، وانطلقت تعدو خارج الباب .

وصعقه الرعب من أن تكون فرصته قد أفلتت ، فتبعها على الاثر . وتوقفت هنيهة تحت شجرة التفاح .

« أورسولا ، من فضلك . »

فاستدارت ونظرت اليه وهي ترتعش قليلاً . كانت النجوم باردة في الخارج ، والليل فاحماً . فقد ترك فنسنت المصباح وراءه ، فلا ضياء الا الشعاع الخافت من شباك المطبخ . وفي خياشيمه رائحة شعر أورسولا .

وأحكمت أورسولا وضع الوشاح حول كتفيها ، وعقدت يديها على صدرها .

وقال « أنت تشعرين بالبرد » .

فقالت « نعم . والافضل أن ندخل إلى البيت . »

فانزرع في طريقها قائلاً « لا ، من فضلك ، فأنا ... »

وخفضت وجنتها نحو دفء الوشاح ، ونظرت اليه بعينين واسعتين متعجبتين ، وقالت « ما بالك يا مسيو فان جوخ ؟ انني لا أفهم . »

فقال « ما أردت الا أن أتحدث اليك . ترين انني .. أعني أنني .. »

« ليس الان لو سمحت ، انني أرتعش . »

« ظننت أنك ينبغي أن تعلمي . لقد رقيت هذا اليوم .. وسأنتقل إلى غرفة الحفر في الامام ... وستكون لي علاوة ثانية خلال عام واحد... »

تراجعت أورسولا خطوة إلى الوراء ، وفكت الوشاح ، ووقفت ثابتة في ذلك الليل . وقد دب فيها دفء مفاجيء ، دون حاجة إلى دثار .

« ما الذي تحاول أن تقوله لي على وجه التحديد يا مسيو فان جوخ ؟ »

أحس في صوتهابالبرود ، ولعن نفسه لافتقاره إلى اللباقة . أما العاطفة فيه فخبت فجأة . وأحس أنه هادىء متمالك الجأش . وعرض في ذهنه عدداً من الاصوات ، ثم اختار الصوت الأحب اليه .

قال « انني أحاول أن أخبرك يا أورسولا شيئاً تعرفينه مقدماً . وذلك أنني أحبك من كل قلبي ، ولن أكون سعيداً الا اذا أصبحت زوجتي . »

ولاحظ مبلغ ذهولها من سيطرته المفاجئة على نفسه . وخطر له أن عليه أن يأخذها بين ذراعيه .

« زوجتك ! » وارتفع صوتها بضع درجات واستطردت « وكيف يكون هذا ، وهو مستحيل ! » .

نظر اليها من تحت أنقاض جبل . وشاهدت عينيه بوضوح رغم العتمة . وقال « أخشى الآن أنني أنا الذي لا ... »

فقاطعته « انه لامر غريب أن تكون غير عالم . انني مخطوبة ومنذ أكثر من عام . »

ولم يدر كم طالت وقفته هناك ، ولا الخواطر والاحاسيس التي انتابته . وسألها ببلادة « ومن هو الرجل ؟ »

« أوه ، ألم تقابل خطيبي ؟ لقد كان يشغل غرفتك قبل قدومك . »

« وكيف كان يمكن أن ألقاه ؟ »

كانت تقف على أطراف أصابعها ، وتحدق ناحية المطبخ ، وأجابت « أنا .. أنا .. حسبت أن أحداً أخبرك . »

قال بصوت خلا من التردد والارتباك في تلك اللحظة « لماذا أخفيت ذلك عني طيلة عام ، وأنت تعلمين انني كنت واقعاً فيهواك ؟

« أكان خطئي أنك وقعت في حبي ؟ في حين لم أقصد أكثر من أن نكون أصدقاء . »

« وهل قام بزيارتك منذ أقمت بينكم ؟ »

« كلا . انه يقيم في ويلز . وسوف يحضر لقضاء عطلته الصيفية معي . »

« أنت لم تشاهديه منذ أكثر من سنة . ؟ لقد نسيتيه اذن . وانما أنا الذي تحبين الآن »

وهنا ألقى إلى الرياح بالعقل والتمييز ، وانتزعها اليه وقبلها بفظاظة على فمها الممتنع . وذاق نداوة شفتيها وحلاوة ثغرها وعبير شعرها ، واضطرمت فيه حدة غرامه بأجمعها .

« أورسولا ، أنت لا تحبينه . وأنا لن أتركك . وستصيرين زوجتي . ولا يمكنني أن أفقدك . ولن أتوقف حتى تنسيه وتتزوجيني »

فصاحت « أتزوجك ! وهل يتحتم علي أن أتزوج كل رجل يقع في غرامي ؟ والان اتركني أذهب ، هل تسمع ، والا صرخت في طلب النجدة . »

والتوت متحررة منه ، وراحت تعدو في الممر المظلم مقطوعة النفس . فلما فازت بدرج المنزل استدارت وتكلمت بهمس خفيض ، قرع سمعه كأنه الصرخة .

« أحمق أشعل الرأس » .

— ٤ —

في الصباح التالي لم يوقظه أحد . قام من الفراش ناعساً . حلق وجهه في ضربات دائرية ، تاركاً نتفاً من الشعر هنا وهناك . ولم تظهر أورسولا عند الافطار . سار على طريق المدينة نحو جوبيلز . وبينما هو يمر بالرجال الذين شاهدهم عينهم في أمسه القريب لاحظ أنهم

تبدلوا . وبدوا أشبه بأرواح منعزلة ، مسرعين إلى أعمال لا طائل من ورائها .

لم ير نبات القوطيسوس في براعمه ، ولا أشجار الكستناء على جانب الطريق . بل ان الشمس اشتعلت بوهج أشد من اليوم السابق ، ولم يدر عن ذلك .

وفي خلال النهار باع في المحل عشرين .

وبيع هذه الصور يشتمل على ربح وفير لصالح جوبيلز ، الا أن فنسنت فقد حاسة البهجة بكسب المال من أجل المعرض . وكان ضيق الصدر بالناس القادمين للشراء . انهم لا يعجزون عن تبين الفرق بين الجيد والرديء وحسب ، وانما بدا له أنهم يملكون موهبة ايجابية في اختيار الزائف والسهل والرخيص .

وكان زملاؤه من الكتبة عالمين أنه ليس بالصبي المرح ، ولكنه فعل أفضل ما في وسعه ليكون مستحباً سائغاً . وتساءل واحد من الكتبة عند آخر « ما هو في رأيك الشيء الذي أزعج سليل أسرة فان جوخ ذائعة الصيت ؟ » .

« أجرؤ على القول انه نهض عن سريره من الجانب المغلوط هذا الصباح . »

« لديه الكثير من الهموم البهيجة . ان عمه فنسنت فان جوخ يملك حصة النصف في معارض جوبل بباريس ، وبرلين ، وبروكسل ، والهاج ، وأمستردام . وان الرجل العجوز مريض ولم يرزق بأطفال ، والجميع يقولون انه سيترك نصف ممتلكاته لهذا الصبي . »

« بعض الخلق يواتيهم الحظ كله . »

« وما رويته لك ليس الا نصف القصة . فعمه هندريك فان جوخ يملك محلات كبيرة للفنون في بروكسل وأمستردام ، ثم ان عما آخر ، هو كورنيليوس فان جوخ هو رئيس أضخم مؤسسة في هولندا . وقصارى القول ان أسرة فان جوخ أعظم الاسر العاملة بتجارة الصور في أوروبا . وصديقنا ذو الشعر الاحمر هذا الجالس في الغرفة التالية سيسيطر عملياً ذات يوم على الفن في عموم القارة » .

حينما دخل فنسنت إلى غرفة الطعام في بيت لويار تلك الليلة ، وجد أورسولا وأمها تتحدثان معاً بصوت خفيض . ثم انهما توقفتا لمجرد دخوله ، وتركتا الجملة التي بينهما معلقة في الهواء .

أسرعت أورسولا إلى المطبخ . وقالت مدام لويار وفي عينيها بريق فاحص « مساء الخير » .

تناول فنسنت عشاءه وحيداً على الطاولة الكبيرة : لقد كانت ضربة أورسولا مذهلة ، ولكنها لم تهزمه . وكان يأبى ببساطة أن يقنع بكلمة « لا » جواباً . ولسوف يطرد الرجل الاخر من ذهن أورسولا .

ومرت قرابة أسبوع قبل أن يتمكن من مشاهدتها ، على انها كانت واقفة على مبعدة لا تتيح له الكلام معها . وخلال ذلك الاسبوع ظل يأكل أقل القليل وينام دون أن يستقر له جنب . وحل التوتر لديه محل التبلد . وانخفضت مبيعاته في المعرض إلى حد ملحوظ . وانسحب اخضرار عينيه مفسحاً مكانه لزرقة أوهنها الالم . ولقي صعوبة لم يلق مثلها قبلاً في العثور على الكلمات حين يهم بالحديث .

وفي نهار الاحد الكبير ، لحق بها إلى الحديقة بعد العشاء . وقال لها « مدموازيل أورسولا ، أنا آسف اذا كنت قد أفزعتك في تلك الليلة . »

نظرت صوبه بعينين كبيرتين باردتين ، كأنما فوجئت لانه سمح لنفسه بملاحقتها .

« أوه ، ما علينا . لا أهمية لما حدث . فدعنا ننساه . هل نفعل ؟ »

« أتمنى كثيراً نسيان ما أبديته من وقاحة معاك . ولكن الاشياء التي قلتها كانت صادقة . »

وخطا خطوة نحوها ، فابتعدت عنه .

وتساءلت « لماذا نتحدث في الامر ثانية ؟ لقد امحت القصة كلها تماماً من ذهني » . وأدارت له ظهرها وسارت هابطة في الممر . ولكنه أسرع وراءها .

« أريد أن أتحدث في الموضوع ثانية يا أورسولا . انك لا تعرفين مبلغ حبي لك . وأنت لا تعامين كم كنت غير سعيد في هذا الاسبوع الاخير . لماذا تواصلين الهروب مني ؟ »

« أريد أن ندخل إلى البيت ، لان أمي تتوقع قدوم بعض الناس . »

« لا يمكن أن تحبي ذلك الرجل الاخر حقاً . فلو أنك تحبينه لرأيت ذلك في عينيك . »

« أخشى أنه لم يعد لدي مزيد من الوقت . متى تسافر إلى بلدك في عطلتك كما سبق أن ذكرت لي ؟ »

فازدرد ريقه قائلاً « في تموز . »

« من حسن الحظ . فخطيبي قادم في عطلته بتموز ليقضيها معي ، وسنحتاج إلى غرفته القديمة . »

« لن أتنازل له عنك يا أورسولا . »

« عليك أن تقلع ببساطة عن مثل هذه الامور ، فاذا لم تفعل ، فان أمي تبلغك أن تبحث لنفسك عن مسكن جديد . »

قضى الشهرين التاليين محاولاً أن يثنيها عن موقفها . وقد عاودته جميع السجايا التي اتصف بها في أيامه المبكرة . فاذا لم يكن في وسعه أن يحيا مع أورسولا ، فقد أراد أن يخلو بنفسه لكي لا يشغله أحد عن التفكير فيها . ثم انه أصبح جافيا مع زبائن المخزن . وسرعان ما غاب عنه ذلك العالم الذي كان غرام أورسولا قد بعثه في أعطافه ، فعاد فنسنت ذلك الصبي القاتم الكئيب الذي عرفه والداه في زندرت .

وحل تموز ومعه العطلة . فلم يرغب في مغادرة لندن والتغيب عنها فترة أسبوعين . اذ خطر له أن أورسولا لا يمكن أن تحب أي رجل آخر ما دام فنسنت ماكثاً في المنزل .

نزل إلى غرفة الاستقبال . وكانت أورسولا وأمها جالستين هناك . وتبادلتا معاً واحدة من نظراتهما الحافلة بالدلالة . فقال :

« سآخذ معي حقيبة واحدة فقط يا مدام لوييار . وسأترك كل شيء في غرفتي على حاله . واليك هذه النقود بدل ايجار الاسبوعين اللذين أتغيب خلالهما . »

قالت مدام لويار « أظن من الافضل أن تأخذ جميع حاجياتك معك يا مسيو فان جوخ . »

« ولكن لماذا ؟ »

« لان غرفتك مؤجرة بدءاً من صباح الاثنين . ونحن نرى من الافضل أن تسكن في مكان آخر :

« تقولين نحن ؟ »

واستدار ناظراً إلى أورسولا ، من تحت حافة حاجبه العميقة . ولم يكن في النظرة تعليق ما ، وانما سؤال ينتظر اجابة .

وردت الأم « نحن ، نعم . فقد كتب الينا خطيب ابنتي قائلاً انه يريدك خارج البيت . وانني أرى يا مسيو فان جوخ أنه كان من الخير كل الخير لو أنك لم تأت إلى هنا على الاطلاق . »

— ٥ —

استقبل ثيو دوروس فان جوخ ولده على محطة بريدا ، ومعه عربة . كان مرتدياً معطفه الكهنوتي الاسود الثقيل ، والصدرة ذات الطية العريضة ، والقميص الابيض المنشى ، ورباط الرقبة الفراشي الاسود الضخم الذي يغطي الياقة العالية بأجمعها الا شريطاً ضيقاً منها . وبنظرة سريعة التقط فنسنت ما في وجه أبيه من خاصتين مميزتين : أولاهما جفنه الايمن عن مستوى الايسر على نحو يغطي نسبة ملحوظة من العين ، وثانيتهما الجانب الايسر من فمه خطاً رفيعاً مشدوداً ، بينما الجانب

الايمن ممتلىء وشهواني . أما عيناه فهما منفعلتان ، والتعبير الصادر عنهما يقول ببساطة « هذا أنا » .

وكثيراً ما تظرف أهالي زندرت بقولهم ان الكاهن ثيود وروس يذهب إلى أعمال الاحسان وهو يلبس قبعة حريرية عالية .

ولقدظل حتى ساعة موته لا يفهم لماذا لم ينل حظاً أفضل من النجاح . وكان يشعر أنه كان من الحق أن يستدعى إلى احدى الكنائس الهامة في أمستردام أو الهاج قبل سنوات عديدة . كان أبناء ابرشيته يطلقون عليه وصف الكاهن الوسيم . وكان وافر الحظ من التعليم ، وكان ودوداً بفطرته ، وكان يتمتع بميزات روحية جيدة ، ثم كان لا يكل ولا يمل في خدمة الرب . ومع ذلك كله ظل مدة خمس وعشرين سنة دفيناً منسياً في زندرت . وهو الوحيد الذي لم يحقق أهمية على الصعيد الوطني ، بين الاشقاء الستة من آل فان جوخ .

وكان بيت الكاهن الذي ولد فيه فنسنت في زندرت ، عبارة عن مبنى خشبي الهيكل على جانب الطريق بين موقع السوق و بين موقع السوق والاستاد الرياضي . وثمة حديقة واقعة خلف المطبخ ، تنمو فيها أشجار الاكاسيا ، وتوجد أزهار معتنى بها اعتناء حسناً ، تفصل بينها ممرات صغيرة . أما الكنيسة فكانت بناء خشبياً ضئيلاً تخفيه الاشجار خلف الحديقة تماماً . وعلى كل جانب من جانبيها نافذة صغيرة على الطراز القوطي . وفوق أرضيتها الخشبية حوالي اثني عشر مقعداً من الخشب الصلب . وفي المؤخرة درج يصعد إلى معزف أرغن عتيق . فهي على وجه الاجمال مكان بسيط متقشف للعبادة ، متأثر بروح كالفن وتعاليمه الاصلاحية .

وقفت آنا كورنيليا ، والدة فنسنت تنتظر في النافذة الامامية ، إلى أن وقفت العربة تماماً . ولقد أحست آنا ، حتى وهي تحتضن ولدها في صدرها الفسيح ، بكل ما في حبها الامومي من رقة ، أنه لم يكن على ما يرام .

وتمتمت — « فنسنت ، ولدي . » .

وكانت عيناها اللتان تبدوان زرقاوين في لحظة ، خضراوين في أخرى ، واسعتين مفتوحتين تنطقان بتساؤل رهيف ، وهما تنفذان عبر الانسان دون أن تحكما عليه بقسوة . وكان لها ما بين منخريها وطرفي الفم اللذين دونهما خطان واهنان يزدادان عمقاً مع الأيام، وكلما عمقا أبديا بوضوح أكبر ندرة الابتسام الذي أتيح لهذا الوجه في حياته .

كانت آنا كورنيليا كاربنتاس من الهاج . وكان والدها هناك يحمل لقب « مجلد الملك » . وقد ازدهرت أعماله ، فلما وقع عليه الاختيار لتجليد أول دستور لهولندا ، ذاعت شهرته في المملكة كلها ، وقد تزوجت احدى بناته من العم فنسنت فان جوخ ، وتزوجت الثالثة من البجل ستريكر بأمستردام ، وعرفن جميعاً بأنهن ربين تربية صالحة .

وكانت أنا كورنيليا امرأة صالحة ، لم تشاهد في العالم أي شر ولا عرفت بوجوده وكل ما كانت تعلم به هو الضعف والاغراء والصعوبة والالم . كذلك كان ثيودوروس فان جوخ رجلاً صالحاً ، ولكنه يفهم الشر فهماً دقيقاً ويدين كل ذرة منه مهما صغرت .

وكانت غرفة الطعام تمثل النقطة المركزية في بيت فان جوخ ، كما كانت الطاولة الكبيرة فيها تمسي مركز الحياة الاسرية ، بعد أن

ترفع صحون العشاء . فهنا يتجمع الشمل حول المصباح الزيتي المألوف وتمضي الاسرة أمسياتها . وقد راع أنا كورنيليا أنها ترى فنسنت نحيفاً عصبياً في مسلكه .

فقالت له في تلك الليلة بعد العشاء — « فنسنت ، هل هناك شيء على غير ما يرام ؟ انك لا تبدو لي في حال حسن . »

نظر فنسنت حول المائدة حيث جلست آنا واليزابيث وويليمين ، الفتيات الثلاث الصغيرات الغريبات اللواتي يصادف أنهن شقيقاته .

قال — « كلا ، ليس هناك شيء . »

وسأل ثيود وروس — « هل تجد لندن ملائمة لك ؟ انني ، اذا كنت لا تحبها ، سأتحدث إلى عمك فنسنت ، وأظن أنه سينقلك إلى أحد محلاته في باريس . »

اهتاج فنسنت اهتياجاً بالغاً — « لا ، لا ، ينبغي أن لا تفعل هذا ! ولست أريد مفارقة لندن . فانني .. » . ثم عمد إلى تهدئة نفسه وقال اذا رغب العم فنسنت في نقلي ، فأنا واثق أنه سيفعل من تلقاء ذاته . »

قال ثيود وروس « كما تشاء » .

وحدثت آنا كورنيليا نفسها — « انها تلك الفتاة . وهكذا أفهم الان ذلك التغير الذي طرأ على رسائله » .

أمضى فنسنت أيامه يسير وحده في غابات الصنوبر وأجمات السنديان في المروج القريبة من زندرت ، محدقاً إلى برك المياه العديدة التي تعج بها المروج . ولم يجد تسلية الا في الرسم . فرسم عدداً من

المخططات للحديقة وللسوق الذي يعقد بعد ظهر السبت ، منظوراً اليه من شباك بيت الكاهن ومن بوابة الدار الامامية . ولقد ساعده الرسم على ابعاد أورسولا عن ذهنه لحظات معدودات بين الحين والحين .

كان ثيود وروس منطوياً على شعور دائم بخيبة الامل ، لان ابنه الاكبر لم يختر السير على أثره في ميدان الكهنوت . وبينما كانا عائدين معاً من زيارة قاما بها لفلاح مريض ، ترجلا من العربة التي أقلتهما وسارا في ذلك المساء عبر المروج . كانت الشمس تغرب بأشعتها الحمراء خلف أشجار الصنوبر ، والسماء المسائية تنعكس فوق مياه البرك ، والمرج والرمال الصفراء مفعمة بالتناغم .

قال الاب « لقد عاش والدي كاهناً يا فنسنت ، ولطالما وددت أن تواصل السير على طريقنا . »

« ماذا يحملك على الظن بأنني راغب في التغيير ؟ »

« انما أقول انك في حال رغبتك في .. فيمكنك الاقامة لدى العم جان بأمستردام ، والالتحاق بالجامعة . وقد عرض المبجل ستريكر أن يقوم على توجيه تعليمك . »

« هل تنصحني بترك جوبيلز ؟ »

« اوه . كلا ، ليس هذا ما أردت . ولكن اذا كنت غير سعيد هناك .. أعني أن المرء قد يغير أحياناً .. »

« أدري . ولكنني لا أنوي ترك جوبيلز . »

قامت أمه وأبوه باصطحابه في العربة إلى بريدا ، عشية سفره إلى لندن . وسألته أنا كورنيليا « هل نكاتبك على العنوان ذاته يا فنسنت ؟ »

« لا ، لانني سأنتقل . »

فقال أبوه « يسرني أن تترك عائلة لويار . فانا لم أحبهم قط . ان لديهم كثيراً من الاسرار . »

تشنج فنسنت . ومدت أمه يداً دافئة نحو يده ، وقالت بصوت هادىء حتى لا يسمع ثيود وروس قولها « لا تكن متكدراً يا عزيزي . فلسوف يكون حالك أفضل مع فتاة هولندية لطيفة ، وذلك فيما بعد ، حين تؤسس نفسك جيداً . أما تلك البنت أورسولا ، فلن تصلح لك . وهي ليست من فصيلتك . »

وتعجب في نفسه ، كيف عرفت أمه .

— ٦ —

لدى عودته إلى لندن استأجر سكناً مفروشاً في نيو روود بكنسنجتون وكانت مالكة المسكن سيدة عجوزاً ضئيلة الجسم تأوي إلى فراشها كل مساء في الثامنة . وعندها يخلو البيت من أي صوت . وتصبح نفسه في كل ليلة مسرحاً لمعركة وحشية بسبب حنينه إلى أن ينطلق ركضاً إلى منزل عائلة لويار . فيعمد إلى اغلاق الباب على نفسه مقسماً بتصميم شديد على أن ينصرف إلى فراشه ، ولكنه ما يلبث ، بعد ربع ساعة أن يجد نفسه مسيراً على نحو غامض إلى الشارع وهو يسرع الخطى باتجاه منزل أورسولا .

فاذا بلغ البيوت المجاورة لبيتها أحس أنه يتنسم شذاها . ويا له من عذاب ممض أن يتملكه هذا الشعور بحضورها، وأن تمتنع عليه هذا

الامتناع . غير أن المكوث في آيفي كوتيج ، وعدم السعي إلى هذه المنطقة بين النور والعتمة كان يكبده ألف ضعف من العذاب .

ولقد فعل فيه الالم أفاعيل غريبة . فجعله أكثر احساساً بآلام الاخرين ، كما جعله أضيق صدراً بكل ما هو سوقي واقترن بالنجاحات الصارخة في العالم الذي يحيط به . ولم تعد له أية جدوى في المعرض . وعندما يسأله الزبائن عن رأيه في لوحة معينة ، يرد عليهم بعبارات لا تحتمل الشك أنها مريعة للغاية ، فيحجمون عن الشراء . ولم يكن يجد الحقيقة والعمق العاطفي الا في الصور التي عبر بها الفنانون عن الالم .

وحدث في تشرين الاول (اكتوبر) أن جاءت إلى المحل إمرأة سمينة من الطبقة المخملية ممن يرتدين الياقات العالية المزركشة ، بصدر عال ، ومعطف من فراء السمور ، وقبعة مخملية مستديرة تعلوها ريشة زرقاء ، وطلبت مشاهدة صور لتزيين بيتها الجديد بالمدينة ، وشاءت الصدفة أن تقع على فنسنت .

قالت له « أريد أفضل شيء في مجموعتكم كلها . وليس عليك أن تهتم للسعر مهما كان . واليك المقاييس : لدينا في غرفة الجلوس جداران بقياس خمسين قدماً ، خاليان من الشبابيك ، وجدار مشتمل على شباكين يفصل بينهما ..

وقضى فنسنت معظم فترة بعد الظهر ، يحاول بيعها بعض النسخ من لوحات الحفر لرمبرانت ولوحة مقلدة ممتازة عن مشهد لمياه فينيسيا بريشة تيرنر ، وبعض أعمال ثايس وماريس المطبوعة على الحجر ،

وصوراً فوتوغرافية للوحات من المتحف بريشة كورو ودوبيني . غير أن المرأة كانت ذات غريزة واثقة تدفعها إلى التشبث بأسوأ ما عبرت عنه رسوم الفنانين على الاطلاق ، في أية مجموعة عرضها فنسنت . ولم يعادل هذه الغريزة الا موهبتها في القدرة على رفض أيما شيء أصيل في تقديره ، وذلك منذ النظرة الاولى ، وعلى نحو متعجرف ومع مرور الساعات ، باتت هذه المرأة بتقاطيعها وأسلوبها الذي يصطنع اللطف والتفوق معاً ، رمزاً أكيداً لتفاهة الطبقة الوسطى والحياة التجارية .

وأخيراً صاحت في هيئة الراضي عن نفسه « تلك لوحاتي . ويخيل لي أنني وفقت في اختياري إلى حد ما .

فقال فنسنت « لو أنك أغمضت عينيك ثم التقطت ما يتصادف تحتها ، لما كانت حصيلة فعلك أسوأ قط » .

انتصبت المرأة على قدميها بجسدها الثقيل ، فانزلقت تنورتها المخملية الواسعة مائلة نحو أحد جانبي الخصر . واستطاع فنسنت أن يرى انتفاخة الدم في وريدها ، تزحف من صدرها إلى عنقها ، من خلال الياقة المزركشة .

وصرخت قائلة « ماذا قلت ؟ ! انك لست الا .. الا . . ريفياً من الاجلاف » .

واندفعت خارجة كالعاصفة ، والريشة فوق قبعتها المخملية تغدو إلى الامام وتروح .

وجاء السيد أوباخ فاقداً صوابه ، وصاح « عزيزي فنسنت ،

ماذا دهاك ؟ لقد أفشلت أكبر صفقة في الاسبوع بأسره ، وقد أهنت تلك المرأة ! » .

« سيد أوباخ ، هل لك أن تجيبني على سؤال واحد ؟ »

« نعم ، ما هو السؤال ؟ لان عندي ، أنا الآخر ، بضعة أسئلة اليك . »

دفع فنسنت لوحات المرأة جانباً ، وأسند يديه كلتيهما إلى حافة الطاولة قائلاً خبرني اذن ، كيف يمكن لرجل أن يجيز لنفسه انفاق حياته الواحدة الوحيدة في بيع رسومات رديئة جداً إلى أناس أغبياء جداً ؟ »

لم يتكلف أوباخ عناء الرد ، وانما قال « اذا استمر الامر على هذا النحو ، فسأكتب إلى عمك وأطلب نقلك إلى فرع آخر . انني لا أستطيع أن أحتفظ عندي بمن يدمر عملي . »

أشاح فنسنت بيده ، كأنه يزيح بها أنفاس أوباخ القوية ، وقال « ثم قل لي يا سيد أوباخ ، كيف يمكننا أن نجني هذه الارباح الفاحشة لقاء قمامة نبيعها ؟ ولماذا لا يأتي الينا الا الناس القادرون ، وهم الذين لا يتحملون مجرد النظر إلى أي شيء أصيل ؟ وهل يكون السبب أن أموالهم رانت على قلوبهم وغلفتها بالفظاظة ؟ ولماذا يكون فقراء الناس القادرون حقاً على تقدير الفن الجيد ، معدمين إلى حد أنهم لا يملكون ربع بنس لشراء صورة يعلقونها على جدرانهم ؟ » .

نظر أوباخ اليه نظرة غريبة ، وتساءل « ما هذا ؟ اشتراكية ؟ »

وحينما وصل إلى البيت تناول مجلد رينان من فوق طاولته ،

وفتحه على صفحة كان قد أشر عليها وقرأ « اذا أراد الانسان أن يحسن صنعاً في هذا العالم ، فعليه أن يموت في سبيل رسالته . فالانسان لم يوجد على الارض ليكون سعيداً وحسب ، ولا ليكون أميناً ليحقق للانسانية أشياء جليلة ، ويمارس النبل ويتجاوز السوقية التي يتردى فيها وجود جميع الناس تقريباً . » .

قبل عيد الميلاد بحوالي أسبوع ، وضع آل لويار في نافذتهم الامامية شجرة جميلة . وبينما كان يمر من هناك بعد يومين شاهد المنزل يشع بالاضواء والجيران يدخلون اليه . وتناهت إلى سمعه من الداخل أصوات ضاحكة . ان آل لويار يقيمون حفل عيد الميلاد . وسرعان ما ركض فنسنت إلى بيته فحلق ذقنه على عجل ، وارتدى قميصاً نظيفاً ورباط عنق ، ثم عاد بأسرع خطو ممكن إلى كلافام . واضطر أن يتأنى بضع دقائق عند أسفل الدرج ، ليلتقط أنفاسه .

ذلك ميلاد المسيح ، وتلك هي روح التعاطف والتسامح تسري في الاجواء . وصعد الدرجات ، وطرق مطرقة الباب . وسمع خطى مألوفة قادمة من القاعة ، وصوتاً مألوفاً يخاطب الحاضرين في غرفة الاستقبال بكلام ما . وانفتح الباب . وسقط ضوء المصباح على وجهه . فنظر إلى أورسولا . وكانت ترتدي معطفاً نسائياً أخضر اللون دون أكمام ، تزينه عقد كبيرة وسلاسل مزركشة . . ولم يرها في هذا الجمال قط قبل هذه الليلة .

قال « أورسولا » .

واذا بوجهها يكفهر بتعبير يعيد بجلاء كل شيء سبق أن قالته في الحديقة . واذا به وهو شاخص اليها يتذكر ذلك كله .

قالت « انصرف بعيداً . »

وصفقت الباب في وجهه .

وفي الصباح التالي أبحر إلى هولندا

كانت أعياد الميلاد أحفل المواسم بالعمل في معارض جوبيل . وكتب السيد أوباخ إلى فنسنت العم يبلغه أن ابن أخيه ارتحل في اجازة دون أن يتجشم عناء التفوه ولو بعبارة « باذنكم يا جماعة . » . وقرر العم فنسنت أن يضع ابن أخيه في المعرض الرئيسي في شارع شابتال بباريس .

غير أن فنسنت أعلن بهدوء انه ضاق ذرعاً بتجارة الفن . فأصيب عمه فنسنت بالذهول ، وأوذي أذى بليغاً . وأبلغ الجميع أنه سيغسل يديه من كل شأن يخص فنسنت في المستقبل . ولكنه بعد الاعياد توقف عن غسلهما برهة من الزمن ، بحيث قام خلالها بتأمين وظيفة من أجل سميه ، وهي وظيفة كاتب في مكتبة بلوسسيه وبرام في مدينة دوردخت . وكان ذلك آخر العهد بأية صلة بين السميين .

مكث في دوردخت حوالي أربعة شهور . ولم يكن فيها سعيداً ولا غير سعيد ، ولا ناجحاً ولا غير ناجح . وانما كان ببساطة منفصلاً عن المكان . وفي ذات ليلة من أمسيات السبت ، استقل آخر قطار من دوردخت إلى أودنبوش ، ثم سار على أقدامه إلى زندرت . كان السير جميلاً في تلك المروج التي تعج بروائح الليل الندية الحادة . وعلى الرغم من العتمة استطاع تمييز غابات الصنوبر والمستنقعات التي تمتد في البعيد . وتذكر نسخة لوحة بودمر المعلقة في مكتبة والده . فالسماء

ملبدة بالغيوم ولكن نجوم الليل تلتمع من خلال الغيوم . وبلغ ساحة الكنيسة في زندرت والوقت ما زال مبكراً ، وسمع عن بعد غناء القبرات في حقول القمح السوداء اليافعة .

أدرك والداه أنه يمر بوقت عصيب . وفي أواخر ذلك الصيف انتقلت الاسرة إلى ايتن ، البلدة الصغيرة التي تعد سوقاً للمنطقة ، وتبعد مسافة كيلو مترات معدودة ، وذلك بسبب تعيين ثيود وروس كاهناً هناك . كانت ايتن تشتمل على ساحة عامة فسيحة تحوطها أشجار الدردار ، وعلى قطار بخاري يربطها بمدينة بريدا الهامة . فكان الانتقال إليها يمثل بالنسبة إلى ثيود وروس تقدماً طفيفاً إلى أعلى .

حلت بواكير الخريف فصار لابد من اتخاذ قرار جديد . فأورسولا لم تتزوج بعد .

قال له والده « أنت يا فنسنت غير مهيأ لهذه الدكاكين كلها . وانما كان قلبك يقودك مباشرة نحو خدمة الرب . »

« أدري يا أبي . »

« فلماذا لا تذهب إلى أمستردام للدراسة . »

« بودي ذلك ، ولكنني .. »

« التردد ما زال في قلبك ؟ »

« نعم . لا أستطيع أن أشرح ذلك الان . فامنحني مزيداً قليلاً من الوقت . »

وصادف في تلك الايام أن مر العم جان بايتن ، وقال لفنسنت « ثمة غرفة في بيتي بأمستردام تنتظرك . »

وأضافت أمه « وقد كتب الينا المبجل ستريكر يقول انه سيوفر لك المشرفين الملائمين . »

غير أنه حينما تلقى من أورسولا منحة الالم ، فقد ورث الذين لا وارث لهم على الارض . انه يعرف ان الجامعة في امستردام يمكن أن تمده بالتدريب الافضل ، وان اسرتي فان جوخ وستريكر تسوف ترعيانه وتساعدانه بالمال والكتب والتشجيع والتعاطف . ولكنه لا يستطيع مع ذلك كله أن يتوقف راضي النفس . فما زالت أورسولا في انكلترا ، لم تتزوج . وهو هنا في هولندا فاقد الاتصال بها . وأرسل في طلب بعض الجرائد الانكليزية ، وكتب مجيباً على بعض الاعلانات ، حتى تمكن في نهاية المطاف من الحصول على موافقة على قبوله في وظيفة معلم في بلدة رامسجيت ، وهي مرفأ بحري يبعد عن لندن مسيرة أربع ساعات ونصف الساعة بالقطار .

— ٧ —

كان مبنى مدرسة السيد ستوكس واقعاً في ساحة تتوسط مرجاً أخضر يشكل قاطعاً بين خطوط السكك الحديدية . وضمت المدرسة أربعة وعشرين تلميذاً تتراوح أعمارهم بين عشر سنوات وأربع عشرة سنة . وأسند اليه تعليم اللغة الفرنسية والالمانية والهولندية ، فضلاً عن مهمة الاشراف على التلاميذ بعد ساعات الدوام المدرسي ، ومساعدتهم أثناء استحمامهم الاسبوعي ليلة السبت . وذلك في مقابل طعامه ومبيته ، دونما أجر نقدي .

كانت رامسجيت بقعة كئيبة ، ولكنها تناسب حالته . وقد أصبح ،

عن غير وعي ، يلازم عذابه كأن العذاب رفيق عزيز . فمن خلاله ظل يحتفظ إلى جانبه بأورسولا احتفاظاً دائماً . وما دام لا يستطيع أن يكون مقيماً مع الفتاة التي يحب ، فان جميع الاماكن سواء . وهو لا يرجو الا أن يترك وشأنه ، فلا يجيء معترض ما بينه وبين ذلك الامتلاء والتشبع الذي حقنت أورسولا به دماغه وجسده كليهما .

سأل فنسنت السيد ستوكس ذات يوم « الا تستطيع يا سيد ستوكس أن تدفع لي مبلغاً يسيراً فحسب ، لشراء التبغ والملابس ؟ »

فأجاب ستوكس « كلا ، أؤكد أنني لن أفعل . وفي وسعي الحصول على ما يكفيني من المعلمين مقابل الطعام والمبيت لا أكثر . » .

في يوم السبت التالي ، صحا فنسنت مبكراً ليبدأ مسيرته من رامسجيت إلى لندن . كانت مسيرة طويلة ، وظل الجو حاراً حتى المساء . وأخيراً وصل إلى كانتيربري . واستراح في ظلال الاشجار العتيقة التي تحيط بكاتدرائيتها القائمة منذ العصور الوسطى . ثم واصل السير بعد قليل حتى وصل عند أشجار ضخمة قليلة العدد ، من الزان والدردار ، قرب بركة صغيرة . ونام هناك حتى الرابعة صباحاً ، حين بدأت الطيور تزقزق وتوقظه من رقاده . ووصل بعد الظهر منطقة شاثام حيث رأى في البعيد نهر التيمز بسفائنه الكثيرة . وفي بواكير المساء بلغ فنسنت أحياء لندن المألوفة ، وهرع مندفعاً إلى منزل آل لويار ، على الرغم من التعب الذي عاناه .

ان الامر الذي حمله على العودة إلى انكلترا ، وهو الاتصال بأورسولا ، قد بلغ الان منتهاه ، واستحوذ على أعصابه في اللحظة

التي أصبح فيها على مرمى النظر من بيتها . وما برحت الفتاة في انكلترا فتاته ، لانه يشعر بها على هذا النحو .

لم يتمكن من تهدئة خفقان قلبه ووجيبه المرتفع . واستند إلى احدى الاشجار ، مثقلاً بأوجاع متبلدة ، يثيرها ألم موجود خارج عالم الكلمات التي تصدر عن الفكر الواضح . ها هو المصباح المعروف في غرفة استقبال أورسولا قيد الحطى ، وذلك هو المصباح الذي يضيء غرفة نومها . ثم غام البيت في عينيه . وانتزع فنسنت نفسه مبتعداً ، وراح يتعثر منهوك القوى هابطاً من طريق كلافام . وحين نأى عن مجال رؤية البيت عرف أنه فقدها مرة أخرى .

كان يصور في الخيال زواجه بأورسولا ، فلا يراها في صورة حرم تاجر الفنون الناجح ، وانما في صورة القرينة الوفية الصبورة لمبشر بروتستنتي يخدم الفقراء في أحيائهم ، وهي إلى جواره تخدم معه .

ودأب في كل أسبوع تقريباً على محاولة الذهاب إلى لندن سيراً على الاقدام ، لكنه وجد من العسير ان يتمكن من العودة في الموعد المفروض صبيحة الاثنين للقيام بواجبه نحو المدرسة . على أنه قام في بعض الاحيان بالرحلة . سائراً على قدميه طوال يومي الجمعة والسبت ، لا لشيء ، الا ليشاهد أورسولا صباح الاثنين وهي تخرج من بيتها في طريقها إلى الكنيسة . ولم يكن يملك مالاً ولا طعاماً ولا مأوى . فاما حل فصل الشتاء زاده البرد عناء على عنائه . فكان يرجع إلى رامسجيت فجر الاثنين مرتجفاً مرهقاً جائعاً . ويحتاج إلى أسبوع كامل حتى يشفى .

وعثر بعد شهور قليلة على وظيفة أفضل في مدرسة السيد جونز

ميثوديست في بلدة آيسلوبرت . وكان السيد جونز كاهناً يرعى أبرشية كبيرة . وقد عين فنسنت معلماً ثم ما لبث أن حوله إلى مساعد خوري في الريف .

وكان لابد لفنسنت أن يغير من جديد تلك الصور التي نسجها في خياله . فلم تعد أورسولا وفقاً للتعديل الجديد امرأة المبشر البروتستنتي الذي يخدم أحياء الفقراء ، وانما أصبحت أقرب إلى زوجة رجل دين قروي ، تساعد زوجها في شؤون رعيته ، مثلما تفعل والدته في مساعدة أبيه . وكان يتخيل أورسولا وهي تنظر نظرة الموافقة ؛ وقد أسعدها أنه هجر الحياة التجارية الضيقة المتمثلة في متجر جوبيلز ، وانطلق للعمل من أجل الانسانية .

لم يسمح لنفسه أن يتبين أن يوم زفاف أورسولا يقترب اقتراباً وشيكاً . ذلك أن الرجل الاخر لم يكن في ذهنه حقيقة واقعة في يوم من الايام . وقد تخيل فنسنت رفض أورسولا ناجماً عن قصور معين من جانبه ، وأن عليه أن يتدارك ذلك القصور بطريقة ما . وأية طريقة هي أفضل من خدمة الرب ؟

وكان تلاميذ السيد جونز البائسون يأتون من لندن . فأوكل هذا إلى فنسنت مهمة جمع الرسوم من أولياء أمورهم ، وأعطاه عناوينهم وأرسله على قدميه إلى أحيائهم . وعثر عليهم فنسنت في قلب حي وايتشابل ، حيث تفوح من الشوارع روائح قذرة ، وتحشر أسر كبيرة في غرف رطبة عارية ، ويطل الجوع والمرض محملقين من جميع العيون . وكان بعض الاباء يتجرون بلحوم فاسدة حظرت الحكومة بيعها في السوق النظامية . فاذا دخل فنسنت بيوت العائلات

ألفاهم يرتعشون في أسمالهم ويأكلون حساءهم المصنوع من المرق وقشر الخبز واللحم المتعفن . وكثيراً ما استمع إلى قصص فقرهم وبؤسهم حتى يخيم الليل .

كان قد تقبل أمر الرحلة إلى لندن بترحاب ، لانها تتيح له الفرصة كيما يمر ببيت أورسولا في طريق العودة . غير أن ما شاهده في بيوت وايتشابل قد أزاح أورسولا من مخيلته حتى نسي أن ينعطف إلى طريق كلافام . بل انه كان يعود إلى آيسلويرث دون أن يحصل للسيد جونز على رسوم ولو بمقدار ربع بنس أصفر .

وفي مساء يوم خميس ، أثناء الصلوات ، انحنى الكاهن على مساعده متظاهراً بالتعب الشديد ، وقال له « أشعر في هذا المساء انني منهك القوى يا فنسنت . وأنت تقوم بكتابة المواعظ منذ عهد بعيد . أليس كذلك ؟ فدعنا نستمع إلى واحدة منها ، لانني أريد أن أرى أي كاهن بين الكهنة سوف تكون .

وارتقى فنسنت المنبر وهو يرتجف . وتضرج وجهه بالحمرة واحتار كيف يصنع بيديه . وتحشرج صوته وتلعثم . وأخذ يبحث في ذاكرته عن العبارات المحبوكة التي سبق أن نمقها ببراعة على الورق . الا أنه أحس بروحه تضطرم في غمار الكلمات المكسرة والاشارات الخرقاء .

وقال السيد جونز « أحسنت صنعاً يا فنسنت . وسوف أبعث بك إلى ريتشموند في الاسبوع المقبل »

وانطلق فنسنت في يوم صافي الاديم من أيام الخريف ، في مسيرة

جميلة على ضفة التيمز قاصداً ريتشموند . وقد انعكست على صفحة الماء السماء الزرقاء وأشجار الكستناء الضخمة بما تحمل من أوراق صفراء . كان أهالي ريتشموند قد كتبوا إلى السيد جونز قائلين انهم أحبوا الواعظ الهولندي الشاب . ولذا قرر الرجل الطيب أن يمنح فنسنت فرصته . وكانت كنيسة جونز في حي تيرنهام جرين ذات أهمية بالنظر إلى أن رعيتها كبيرة العدد وحاسمة بما تقرر . واذا استطاع فنسنت أن يلقي موعظة حسنة هناك ، فقد بات مؤهلاً لارتقاء أي منبر بعد هذا .

اختار فنسنت الاصحاح ١١٩ : ١٩ موضوعاً لموعظته « غريب أنا على الارض ، فلا تحجبوا عني وصاياكم . » . وتكلم بحماس تلقائي . فأحدث في الرعية أثراً هائلاً ، ساعده عليه شبابه ونيرانيته وطاقته غير المشوبة بالصنعة ، كما ساعده مظهر رأسه الضخم وعينيه النفاذتين .

وجاءه كثير من المصلين يشكرونه على رسالته . وراح يصافحهم ويبتسم لهم وسط غشاوة ضبابية اكتنفته . وما كاد آخرهم ينصرف حتى انفلت من الباب الخلفي للكنيسة ويمم وجهه شطر لندن .

وثارت في الطريق عاصفة ، وكان قد نسي قبعته ومعطفه في الكنيسة . واصفر لون التيمز ، ولا سيما قرب الشاطيء . وظهر على الافق خط من الضياء تعلوه غيوم رمادية هائلة تصب على الارض صبيباً من سلاسل مائلة من الامطار . وغمره البلل حتى الجلد ، ولكنه واصل السير بخطوات نشطة متسارعة .

لقد غدا انساناً ناجحاً ولو بعد حين وقد اهتدى إلى ذاته . ولسوف

يضع عند قدمي أورسولا هذا النجاح الذي أحرزه ، ولسوف يشاطرها اياه .

كان المطر يرشق ما على الممر الابيض الصغير من غبار ، ويمايل شجيرات الزعرور البري . وظهرت من بعيد بلدة تشبه نقوش دورر ، بما فيها من أبراج صغيرة وطواحين وسقوف اردوازية وبيوت مبنية على الطراز القوطي .

وجاهد في سيره نحو لندن ، والماء ينهمر على وجهه وينقع داخل حذائه . ولم يبلغ منزل آل لويار الا في ساعة متأخرة بعد الظهر . وشاع في الجو غسق ضبابي رمادي . وسمع على مسافة قريبة صوت الموسيقى وعزف الكمنجات ، فاحتار فيما عساه يجري . وكانت المصابيح تشتعل في كل غرفة من غرف المنزل . وثمة عربات في الخارج تحت المطر . وشاهد فنسنت أناساً يرقصون في غرفة الاستقبال . فاقترب من سائق عربة عجوز جالس على صندوقه تحت مظلة كبيرة تحميه من المطر .

وسأله « ما الذي يجري هنا ؟ »

« عرس على ما أظن .

استند فنسنت إلى العربة ، وعلى وجهه تسيل سيول المياه المنهمرة فوق شعره الاحمر . وبعد برهة من الزمن انفتح الباب الامامي ، وبرزت من اطاره أورسولا برفقة رجل طويل نحيف . واندفع وراءهما الحشد ضاحكاً متصايحاً وهو ينثر الارز في رواق المدخل .

انسل فنسنت خلسة ، واستدار نحو الجانب المعتم من العربة .

وركبت أورسولا وزوجها . وطرقع السائق بكرباجه فوق الخيل فتحركت ببطء وخطا فنسنت إلى الامام بضع خطوات ، وأطل بوجهه من خلال نافذة العربة التي ينهمر عليها الماء كانت أورسولا مضغوطة باحكام بين ذراعي الرجل وفمها بأجمعه في فمه وما لبثت العربة أن ابتعدت عنه .

انقصف شيء دقيق في داخل فنسنت ، كما يكون جرح نظيف مرتب . لقد انكسرت التعويذة السحرية ، ولم يكن يدري من قبل أن الامر سيكون سهلاً إلى هذا الحد .

سار مجهداً في طريق عودته إلى آيساويرث ، والمطر المنهمر يجلده ثم جمع حاجياته ، وغادر انكلترا إلى الابد .

* * *

الكتاب الأول
البورناج

- ١ -

وقف نائب الاميرال جوهانس فان جوخ ، أعلى الضباط رتبة في البحرية الهولندية ، عند عتبة المنزل الفسيح المخصص لاقامته بالمجان والواقع خلف ساحة البحرية . وكان قد ارتدى ، على شرف قدوم ابن أخيه ، زيه الرسمي ، واستقرت على كل من كتفيه كتافية ذهبية وكانت له ، كسائر آل فان جوخ ، ذقن ضخمة ، برز من فوقها أنف قوي يرتع مستقيماً حتى يلتقي بحافة جبينه المحدبة التي تشبه الصخرة .

قال « أنا مغتبط لوجودك هنا . فقد أصبح البيت هادئاً جداً بعد أن تزوج أولادي وغادروه .

ثم صعدا بعض درجات جانبية عريضة ، ودفع العم جان باباً ففتحه . ودخل فنسنت الغرفة وأنزل حقيبته . كانت هناك نافذة كبيرة تطل على الساحة . جلس العم جان على حافة السرير ، وحاول

أن يبدو متحرراً من طابعه الرسمي ، بالقدر الذي تسمح به شرائطه الذهبية .

وتحدث قائلا « اسعدني ما سمعته من أنك قررت الدراسة لتتأهل للكهنوت . فهناك بين أفراد أسرة فان جوخ في كل زمان ، من يقوم بعمل الرب .

تفقد فنسنت غليونه ، وراح يحشو جوفه بالتبغ بعناية ، وتلك عملية يلجأ اليها كلما احتاج إلى مزيد من الوقت للتفكير . ثم قال « أظنك علمت أنني فكرت في أن أصبح مبشراً بروتستنتياً، وأقتحم ميدان العمل مباشرة . »

« ولكن مثلك يافنسنت لا يجدر به أن يختار وظيفة مبشر بروتستنتي فهؤلا القوم غير متعلمين . والله أعلم بصنف اللاهوت المختلط الذي يعظون به الناس . كلا يا بني ان الخوارنة من آل فان جوخ كانوا دائماً خريجي جامعات . على أنك تود الان ، ولا شك ، أن تفرغ أمتعتك . ان العشاء في الثامنة . »

وما كاد ظهره العريض يتوارى من الباب حتى هبطت على فنسنت كآبة رقيقة . ونظر حواليه . ها هو السرير وثير مريح والمكتب كبير ، وطاولة الدرس الناعمة المنخفضة تناديه . الا أنه يشعر بعدم الارتياح إلى حد المرض ، كما هو دأبه في حضور الغرباء . فخطف قبعته وحث خطاه عبر رصيف البحر . وهناك عثر على بائع كتب يعرض للبيع نسخاً مطبوعة من صور جميلة ، موضوعة في صندوق مفتوح . وبعد تدقيق طويل فيها انتقى فنسنت ثلاث عشرة قطعة ، ضمها تحت

ذراعه وسار على طول الواجهة البحرية ، مستنشقاً رائحة القطران القوية .

وبينما هو يلصق الصور برفق ، محاذراً أن يجرح كساء الجدران ؛ سمع طرقة على الباب . واذا بالمبجل ستريكر يدخل الغرفة . وكان ستريكر بدوره من أعمام فنسنت ، ولكنه من غير آل فان جوخ . وانما كانت زوجه خالة فنسنت . وهو من رجال الدين المشهورين في أمستردام ، ومن المشهود لهم بالذكاء . وكان مرتدياً بدلة سوداء مصنوعة من قماش فاخر ، ومحيكة حياكة أنيقة .

وبعد أن فرغا من تبادل التحيات قال الكاهن « لقد اتفقت مع منديس داكوستا ، الذي هو واحد من أفضل معلمينا في اللغات الكلاسيكية ، ليشرف على تعليمك اللغتين اللاتينية والاغريقية . ومنزله واقع في الحي اليهودي ، فعليك أن تذهب إلى هناك في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الاثنين ، لتتلقى درسك الاول . لكنني جئت الان لدعوتك للغداء معنا غداً الاحد . ان خالتك وهامينا وابنة خالتك كاي متلهفتان لرؤيتك » .

« سيسرني ذلك سروراً كبيراً . ففي اية ساعة احضر ؟ »

« نحن نتناول غداءنا ظهراً ، بعد ان افرغ من الخدمة الصباحية المتأخرة .

تناول المبجل ستريكر قبعته السوداء وحافظة اوراقه ، فقال له فنسنت : ارجو ابلاغ تحياتي إلى عائلتك »

فأجابه عمه « في انتظارك غداً » ، وانصرف خارجاً .

كان شارع كيزرزجراخت الذي تقيم فيه عائلة ستريكر ، واحدا من أكثر الشوارع ارستقراطية في أمستردام . وهو رابع الجادات والقنوات التي تتخذ شكل حدوة حصان ، وتمتد من الطرف الجنوبي للميناء ، ثم تدور حول المركز وتعود إلى المرفأ ثانية باتجاه الشمال .

كان القنال نظيفاً صافياً ، وله من الاهمية ما يتنافى مع اكتظاظه في الاحياء الفقيرة بالعشب الذي يدعوه الهولنديون « كروس » ، وهو طحلب اخضر غامض يشكل طبقة قفراء سميكة تكونت منذ مئات السنين .

وكانت المنازل التي تصطف على جانبي الشارع ذات طراز فلمنكي صرف ، وتتميز بأنها ضيقة ، حسنة البناء ، محبوكة العمارة بعضها إلى جانب بعض بصورة محكمة وقد وقف امامها طابور طويل من جنود طائفة البيوريتانيين ، ذوي الملابس الانيقة ، في وضع الانتباه .

استمع فنسنت في اليوم التالي إلى موعظة العم ستريكر ، ثم توجه إلى منزل الكاهن ، وقد سطعت شمس براقة ، ازاحت السحب الرمادية التي تسبح بحركتها الخالدة فوق سماوات هولندا . كما ان الهواء بدا مشعباً لوهلة قصيرة . لقد حضر فنسنت مبكراً ، ولذا سار بمشية تأملية ، وراح يراقب زوارق القنال التي يدفعها البحارة عكس التيار نحو الاعلى

انها زوارق كبيرة مخصصة للشواطىء الرملية ، مستطيلة الشكل فيما عدا اطرافها المستدقة . وقد البسها الماء لوناً اسود . وتوضعت في منتصفها فجوات واسعة تستقر فيها الحمولة . وامتدت من مقدمة

الزوارق إلى مؤخرتها حبال طويلة للغسيل ، علق فوقها غسيل الاسرة . وكان رب الاسرة يدفع بعصاه الطويلة إلى عمق الوحل ، داعما اياها بكتفيه ، مناضلاً في الممرات الضيقة الكائنة بين زوايا ملتوية مرهقة ، بينما الزورق ينزلق من تحته وئيداً . اما الزوجة الضخمة البدينة ذات الوجه المتورد ، فتجلس ثابتة في المؤخرة وتدير الدفة الخشبية الخشنة . واما الاطفال فيلعبون مع الكلب ، ويركضون بين الحين والحين إلى فجوة القمرة التي هي منزلهم .

كان منزل الكاهن ستريكر يمثل المعمار الفلمنكي الاصيل اذ هو ضيق ، ذو طوابق ثلاثة ، يعلوه برج طويل في قمته ، يحتوي على نافذة السقيفة . ويزدان البيت بنقوش عربية الطراز . وقد تدلت من نافذة السقيفة عارضة حديدية تنتهي بخطاف حديدي طويل. رحبت الخالة ولهلمينا بفنسنت ، وقادته إلى غرفة السفرة حيث علقت على جدارها صورة زيتية لكالفن بريشة اري شيفر ، وتوهجت الغرفة ببريق طقم من ادوات المائدة المصنوعة من الفضة وكانت جدران الغرفة مكسوة بألواح خشبية داكنة .

وقبل ان يتاح لفنسنت الاعتياد على الظلمة الاعتيادية للغرفة ، برزت من الظلال فتاة طويلة رشيقة القوام ، وحيته بحرارة .

قالت بصوت زاخر « ما كنت لتعرفني بطبيعة الحال ، ولكنني ابنة خالتك كاي .

تناول فنسنت يدها الممدودة اليه ، واحس لاول مرة منذ عدة شهور بالدفء والنعومة التي تمتاز بها بشرة المرأة الشابة .

واستطردت الفتاة بلهجتها الحميمة ذاتها « نحن لم نلتق من قبل ، واظن ذلك غريباً إلى حد ما ، فانا في السادسة والعشرين من عمري ، ولابد انك في ... ؟ »

حدق فنسنت بها في صمت ، ومرت لحظات عديدة قبل ان يدرك ان الحال يستدعي اجابة منه . واراد ان يعوض عن بلادته فاندفع من غير تفكير يقول في صوت اجش مرتفع « الرابعة والعشرين .. اي انني اصغر منك » .

« نعم . ولا غرابة في حقيقة الامر في عدم لقائنا . فأنت لم تزر أمستردام ، وانا لم اذهب إلى برابانت . ولكن ما بالي اتصرف تصرف المضيفة البائسة . تفضل .. تفضل .. اجلس » .

جلس على حافة كرسي صلب . وانتابته حالة من تلك التحولات الغريبة المفاجئة التي تقع له احياناً ، فتحوله من فلاح ريفي اخرق إلى رجل مهذب صقيل ، فقال « لطالما تمنت الوالدة ان تحضري لزيارتنا ؛ واعتقد ان البرابانت كانت ستروق لك . ان الريف هناك بديع جداً » .

« اعرف ذلك . وقد كتبت لنا الخالة آنا ، ووجهت لنا الدعوة مراراً . ويجب ان اقوم بزيارة إلى هناك في وقت قريب » .

واجاب فنسنت « اجل ، يجب » .

ولم يكن يصغي اليها ويجيبها الا بجزء قصي من عقله . اما بقية جوارحه فكانت تنهل من معين جمالها ، بكل ما لدى الرجل الذي عاقر العزوبية سنوات طوالا ، من ظمأ عاطفي أليم ومع ان تقاطيع وجه كاي ، كانت من فصيلة الملامح القاسية ذاتها التي تختص بها

النساء الهولنديات ، الا انها أكثر نعومة ، كأنها هذبت بمبرد ، ونحتت بازميل ، حتى صيغت بموجب نسب لطيفة . اما شعرها فلم يكن بالاشقر القمحي ولا بالاحمر الفج المنتشر بين بنات بلادها ، وانما هو خليط غريب من اللونين ، امسكت فيه نار احدهما بنور الآخر في حرارة رقيقة مشعة . وكان واضحاً انها صانت بشرتها من اذى الشمس والريح ، فزحف بياض ذقنها على حمرة خديها بكل ما اوتيه فنان هولندي صغير من براعة فنية . اما عيناها فهما زرقاوان عميقتان ، ترقصان طرباً لبهجة الحياة . ولها فم عامر بشفتين مكتنزتين ، منفرجتين قليلاً ، كأنهما تعربان عن قبولهما بهجة الحياة .

انتبهت إلى صمت فنسنت ، فقالت « بم تفكر يا ابن خالتي ؟ انك تبدو شارد الذهن . »

كنت اقول لنفسي ان رمبرانت لو رآك لود ان يرسمك . »

ضحكت كاي ضحكة خافتة ، تفصح عن الطلاوة الناضجة في حنجرتها ، وتساءلت « اليس رمبرانت من كان يحب رسم النساء العجائز الدميمات دون سواهن . »

فأجاب فنسنت « لا . وانما رسم نساء عجائز جميلات ، وجدهن فقيرات او تعيسات على نحو ما ، وقد اكتسبن روحاً من خلال العناء »

وهنا نظرت كاي إلى فنسنت بقصد حقيقي للمرة الاولى . فعندما دخل إلى المنزل لم تجاوز الرؤية العرضية التي تبينت شعره الاحمر الصدىء الكثيف ، ووجهه الاقرب إلى الضخامة ، اما الان ، فانها ترى فمه الكامل ، وعينيه المشتعلتين الغائرتين ، وجبينه المتناسق على غرار

خليقة آل فان جوخ ، وذقنه الراسخة التي تبدو بارزة إلى الخارج نحوها .

وتمتمت بصوت اقرب إلى الهمس « سامحني لغبائي ، فانني افهم ما تعنيه عن رمبرانت . ذلك انه حينما يرسم اولئك العجائز التعساء الذين حفرت المعاناة والهزيمة اثرها في وجوههم فانه ينفذ إلى الجوهر الحقيقي للجمال . »

وأتاهما صوت المبجل ستريكر وهو يدخل الباب ، متسائلاً « ما الذي تتحدثون عنه بهذه الجدية كلها يا اطفال ؟ »

واجابت كاي « اننا نتعارف فيما بيننا . لماذا لم تخبرني ان لي ابن خالة ظريفاً بهذا القدر ؟ »

وجاء إلى الغرفة رجل اخر ، وهو شاب في مقتبل العمر ، نحيف القوام ، سهل الابتسام ، ساحر الطبع . نهضت كاي وقبلته مولعة به وقالت « فنسنت يا ابن خالتي . هذا هو زوجي مجنبر فوس » .

عادت بعد قليل وبصحبتها صبي ذو شعر جعد ، يبلغ الثانية من عمره ، وهو طفل مفعم بالحيوية ، له وجه حزين ، وقد ورث عن امه عينيها الزرقاوين الفاتحتين . وجلست كاي ، ورفعت الصبي إلى حجرها . فلف فوس ذراعيه حولهما .

وقالت الخالة ويلهلمينا « هلا جلست في هذا الجانب من الطاولة إلى جواري يا فنسنت ؟ »

وعلى الجانب الآخر ، قبالة فنسنت ، جلست كاي ، محاطة بفوس من ناحية ، وبالعم جان من الناحية الاخرى . ونسيت في حضور زوجها امر فنسنت . وتضرج لون خديها . وحدث اثناء الطعام

ان تفوه زوجها بكلمات تعمد نطقها بنبرة خفيضة مكتومة ، فمالت عليه وقبلته بحركة سريعة مقصودة .

ولقد بلغت فنسنت بل وغمرته اصطفاقة امواج الحب مابينها وبين زوجها . واذا بوجعه القديم الذي اصابه منذ ذلك الاحد المصيري على يد أورسولا ، يثور لاول مرة ، من مكان غامض في داخله ، فيكتسح في فيضانه ابعد الاستحكامات المنصوبة في جسده وعقله . لقد ادت مشاهدة هذه الاسرة الصغيرة ، وما تجسده من اتحاد وثيق وعاطفة بهيجة ، إلى ان يدرك انه كان طوال هذه الشهور المضنية جائعاً ، وجائعاً إلى حد اليأس ، لتذوق الحب ، وادرك ايضاً ان ذلك الجوع ليس مما يمكن القضاء عليه بسهولة ..

— ٢ —

في كل صباح كان فنسنت يستيقظ قبل الفجر ، ليقرأ في الكتاب المقدس . وعندما تشرق الشمس في حوالي الساعة الخامسة يذهب ناحية النافذة المطلة على ساحة البحرية ويراقب جماعات العمال القادمين عبر البوابة في خط غير منتظم مكون من اشكال سوداء . ويبصر البواخر الصغيرة تذرع جيئة وذهاباً ، كما يرى الاشرعة ذات اللون البني تتحرك ناعمة عن بعد ، بجوار القرية الواقفة عبر الدلتا .

فاذا ارتفعت الشمس بتمامها ومسحت الضباب ، استدار فنسنت عن نافذته وتناول افطارا مكونا من الخبز الجاف وكوب بيرة ، ثم انكب على دراسة اللاتينية واليونانية مدة سبع ساعات تشبه الحصار الصعب .

وكان يحس بعد اربع أو خمس ساعات من التركيز ان رأسه غدا ثقيلاً ، وكثيراً ما شعر به مشتعلاً وشعر ان افكاره مشوشة . ولم يعرف كيف يمكنه المثابرة على دراسة بسيطة منتظمة ، بعد هذه السنوات العاطفية . ولكنه دأب على حشو رأسه بالقواعد حتى تميل الشمس نحو الجانب الآخر من السماء ، ويحل موعد ذهابه إلى منديس داكوستا لحضور درسه . وفي الطريق يسير بمحاذاة بوتنكانت وحول برج اوديزاتيس والكنيسة الجنوبية ، عبر شوارع ملتوية معمورة بدكاكين الحدادين وصانعي البراميل ومحلات الطباعة الحجرية .

وكان وجه منديس يذكر فنسنت بلوحة « تقليد يسوع المسيح » بريشة رايبيريز ، فقد كانت له عينان عميقتان غائرتان ، ووجه نحيف مجوف ، يوحي بالروحانية ، ولحية خفيفة منتصبة . وكان الجو في الحي اليهودي خانقاً شديد الانغلاق في منتصف الظهيرة . وكان فنسنت المتخم بسبع ساعات من اليونانية واللاتينية وبساعات اخرى من التاريخ الهولندي وقواعد اللغة ، يعمد للتحدث إلى منديس عن الطباعة الحجرية. وذات يوم احضر إلى استاذه صورة لوحة « التعميد » بريشة ماريس .

رفع منديس الصورة بين اصابعه النحيفة المستدقة ، ووضعها تحت اشعة الشمس المغبرة الهابطة في تيار حاد .

وقال بصوته الذي يصدر عن حلقه « انها جيدة . فهي تلتقط شيئاً من روح الديانة العالمية » .

وسرعان ما زال التعب الذي كان يثقل فنسنت ، وانهمك في شرح حماسي عن فن ماريس . فأخذ منديس يهز رأسه دون ان يكون

واضحاً ما الذي يعنيه . ان المبجل ستريكر يدفع له اجراً عالياً مقابل تعليم فنسنت اللاتينية واليونانية .

وقال بهدوء « فنسنت ، ان ماريس رائع جداً ، ولكن الوقت يدركنا . ومن الخير لنا ان نمضي في دروسنا . اتوافقني ؟ » .

استوعب فنسنت المقصود . وكان ينصرف إلى المنزل بعد ساعتين من الدرس فيتوقف في طريقه قليلاً امام مداخل البيوت حيث يشاهد اعمال قاطعي الاخشاب والنجارين ووكلاء تموين السفن . وكانت الابواب مفتوحة امام قبو ضخم من اقبية النبيذ . وثمة رجال يغدون ويروحون في السرداب المظلم وبايديهم المصابيح .

وسافر العم جان إلى هيلفوورت مدة اسبوع ، فجاءت كاي وفوس في وقت متأخر من بعد الظهر لدعوة فنسنت إلى العشاء ، نظراً لانه كان وحيداً في البيت الكبير خلف ساحة البحرية .

قالت كاي « يجب ان تأتي الينا كل ليلة ، إلى ان يعود العم جان . وتريد امي تأكيداً منك ، بانك سوف تتناول غداء الاحد معنا كل اسبوع ، بعد انتهاء الصلوات » .

وكانت الاسرة تلعب بعد الفراغ من الغداء ، اما فنسنت الذي لا يعرف لعب الورق ، فيلجأ إلى ركن هادىء ، عاكفاً على قراءة « تاريخ الحروب الصليبية » بقلم اوغست غروسون . وكان قادراً من ركنه هذا على مشاهدة كاي وما يطرأ على ابتسامتها السريعة العذبة من تغيرات . وقد تركت طاولة اللعب وجاءت إلى جواره .

وسألته « ماذا تقرأ يا ابن خالتي فنسنت » .

فأخبرها ، ثم علق قائلاً « انه كتاب صغير رائع . واكاد اقول انه مكتوب بروحية ثايس ماريس .

ابتسمت كاي . فقد كان يتفوه دائماً بمثل هذه التعليقات الادبية المضحكة . وسألته « ولماذا ثايس ماريس على التعيين » .

« اقرأي هذه الفقرة وفكري . الا تذكرك بلوحة من لوحات ماريس ؟ ففي هذه الفقرة يصف الكاتب قلعة قديمة فوق صخرة ، وعلى مسافة منها غابات خريفية تحت حمرة الشفق ، بينما بدت في واجهة المشهد الحقول السوداء وفلاح يحرث الارض بواسطة حصان ابيض » .

وبينما كانت كاي تقرأ ، قرب فنسنت كرسياً لها . وحين نظرت اليه رأى في عينيها تعبيراً مفكراً عينيها الزرقاوين .

وقالت « نعم . انه ليشبه ماريس شبهاً شديداً . وان الكاتب والرسام ليستخدمان واسطتيهما المختلفتين للتعبير عن الفكرة الواحدة » .

واخذ فنسنت الكتاب منها ، ثم جرى باصبعه على الصفحة ، بحماس شديد وقال « هذا السطر مثلاً ، يخيل للمرء انه رفع من ميشيليه أو كارلايل » .

« اتدري يا ابن خالتي فنسنت ، انك على حظ مدهش من الثقافة اذا تذكرنا انك لم تجلس على مقاعد الدرس الا وقتاً يسيراً . اما زلت تقرأ كتباً جيدة عديدة ؟ » .

« كلا . ان بودي ان افعل ، ولكنني لا استطيع . على انني في

حقيقة الامر مستغن عنها ، لان جميع الاشياء موجودة في كلمة المسيح ، وهي اشد دقة واكثر جمالاً من اي كتاب آخر » .

فقفزت كاي على قدميها وصاحت « لا يا فنسنت ، هذا كلام دخيل على شخصيتك ! »

حملق فنسنت فيها محتاراً .

« اعتقد انك تكون اظرف كثيراً ، عندما ترى ثايس ماريس في « تاريخ الحروب الصليبية » ، منك حينما تتكلم كما يتكلم رجل دين ريفي ضيق الافق . هذا ولو ان والدي يقول انك مطالب بالتركيز وعدم التفكير في غير دراستك » .

واقترب منهما فوست قائلاً « لقد حسبنا لك حساباً في توزيع ورق اللعب » .

نظرت كاي هنيهة إلى الجمرات المشتعلة تحت اجفان فنسنت ، ثم تعلقت بذراع زوجها ، وعادت إلى بقية لاعبي الورق .

— ٣ —

كان منديس داكوستا يعلم ان فنسنت يحب التحدث اليه حول شؤون الحياة بجوانبها العامة ولذا فانه اخذ يلفق مبررات لمصاحبته لدى عودته إلى المدينة بعد انتهاء الدرس ، عدة مرات في الاسبوع .

وفي ذات يوم اقتاد فنسنت عبر جزء من اجزاء المدينة مثير للاهتمام ، وهو الضواحي الممتدة من ليدش بوورت قرب فونيك بارك حتى محطة السكك الحديدية الهولندية . وكان ذلك الجزء مكتظاً بمحلات

نشر الاخشاب وبأكواخ العمال المحاطة بحدائق صغيرة ، كما كان ازدحامه شديداً . وهو حي تتخلله بضع قنوات صغيرة تقطعه .

قال فنسنت « لابد ان عمل رجل الدين في حي كهذا الحي شيء رائع » .

فأجاب منديس وهو يملأ غليونه بالتبغ ، ويناول فنسنت علبة مخروطية الشكل « نعم . ان هؤلاء الناس اكثر حاجة إلى الرب وإلى الديانة من اصدقائنا هناك في المدينة العليا » ..

كانا يقطعان قنطرة خشبية صغيرة ، تكاد تكون يابانية الطراز . وتوقف فنسنت قائلاً « ماذا تعني يا سيد » .

فقال منديس باشارة لطيفة من ذراعه « هؤلاء العمال ، يعانون حياة صعبة ، واذا حل بهم المرض ، فلا نقود لديهم لطبيب . وهم يحصلون على قوت غدهم من عمل يومهم ، ويا له من عمل شاق . وبيوتهم كما تراها صغيرة بائسة . ولا يفصلهم عن الوقوع في الحاجة والعوز الا مسافة مرمى حجر . ولقد عقدوا رهاناً بائساً مع الحياة ، فهم في حاجة إلى فكرة الاله كيما تطمئن نفوسهم » .

اشعل فنسنت غليونه ، ورمى عود الكبريت في القناة الصغيرة من تحته ، وتساءل « والناس في المدينة العليا ؟ » .

« لديهم ملابس فاخرة يرتدونها ، ومراكز مضمونة ، ونقود مدخرة ليوم الشدة . فاذا فكروا في الله ، فانهم يتخيلونه سيداً عجوزاً مهذباً ميسور الحال ، منشرحاً من ذاته بالنظر إلى الطريقة البديعة التي تجري بها الامور على الارض » .

فقال فنسنت ، « فهم باختصار ، على شيء من ضيق الافق » .

واستدرك منديس صائحاً « مهلاً يا عزيزي ! انا لم اقل هذا » .

« لا ، انا الذي قال . »

في تلك الليلة نشر كتب الاغريقية امامه ، ثم راح يحدق في الحائط المقابل فترة طويلة . وتذكر احياء الفقراء في لندن ، والفقر المدقع والعناء . وتذكر رغبته في ان يصبح مبشراً بروتستانتيا ويساعد هؤلاء الناس . ثم ومضت في ذهنه صورة كنيسة العم ستريكر ، حيث المصلون من الاثرياء الحاصلين على قسط حسن من التعليم ، المتطلعين دوماً إلى الاشياء الفضلى في الحياة ، القادرين على الحصول عليها . ان مواعظ العم ستريكر جميلة وباعثة على الطمأنينة ، ولكن اي فرد من المصلين عنده يحتاج إلى الطمأنينة ؟

ها قد مرت ستة شهور على قدومه إلى أمستردام . وهاهو قد بدا يدرك اخيراً ان العمل الشاق بديل بائس عن المقدرة الطبيعية . ثم دفع كتب اللغة جانباً وفتح كتاب الجبر . وفي منتصف الليل دخل عليه العم جان .

قال نائب الاميرال « رأيت الضوء اسفل بابك يا فنسنت ، كما ان البواب اخبرني انه رآك تمشي في الساحة عند الساعة الرابعة صباح اليوم ، فكم ساعة تعمل في اليوم ؟ »

« ما بين ثماني عشرة وعشرين . »

فهز العم جان رأسه متعجباً « عشرين ! » وازدادت الريبة ظهوراً على وجهه . اذ كان من العسير على نائب الاميرال ان يوائم نفسه

مع تخيل امكان الفشل عند آل فان جوخ ، وقال « لا ينبغي ان تحتاج إلى ذلك كله . »

« يجب ان اقوم بالعمل المطلوب مني يا عم جان » .

رفع العم جان حاجبيه الكثيفين قائلاً « مهما يكن ما تقول ، فانني وعدت والديك بان ارعاك رعاية جيدة ، ولذا فانك ستتلطف وتأوي إلى فراشك . وستمتنع في المستقبل عن العمل إلى مثل هذه الساعة المتأخرة » .

ازاح فنسنت دفاتره جانباً ، واحس انه غير محتاج إلى النوم ، وغير محتاج إلى الحب والتعاطف أو المسرة . فكل ما يحتاجه هو ان يتعلم دروس اللاتنية واليونانية ، والجبر وقواعد اللغة ، لكي ينجح في امتحاناته ، ويدخل الجامعة ، ويصبح قسيساً ، ويقوم بعمل الرب عملياً على الارض .

— ٤ —

عندما حل شهر ايار مايو ، وانقضى عام كامل على قدومه إلى أمستردام ، بدأ يتحقق ان عدم ملاءمته للتعليم الرسمي ، سوف توقع به الهزيمة في نهاية المطاف . ولم يكن هذا اقراراً بالحقيقة ، وإنما تسليم بالهزيمة ، وكلما ألقى اليه جزء عن عقله بهذا الادراك امامه ، قام بجلد بقية اجزاء عقله لكي تعمل على اغراق ذلك الاعتراف في خضم العمل المضني .

ولو ان الامر كان مجرد صعوبة العمل ، وعدم استعداده الجلي

له ، لما اصابه ذلك بالانزعاج . ولكن السؤال الذي عذبه في الليل والنهار هو التالي « هل هو راغب في ان يصبح رجل دين بارعاً مهذباً كعمه ستريكر » . وما الذي سيجل بمثله الاعلى ، وهو القيام ذاتياً بخدمة الفقراء والمرضى والمسحوقين ، اذا قضى خمس سنوات اخرى ، وهو لا يفكر الا في تصريف المفردات واشتقاق الصيغ ؟

وذات يوم من اواخر ايار ، قال فنسنت لمنديس بعد الانتهاء من الدرس « سيد داكوستا ، هل لديك وقت للذهاب معي في مسيرة ؟ » .

كان منديس متنبهاً للصراع المتعاظم في نفس فنسنت ، وهداه حدسه إلى ان الشاب الذي يصغره سناً قد بلغ النقطة التي اصبح فيها اتخاذ القرار وشيكاً .

« نعم . كنت مزمعاً على الخروج في نزهة قصيرة . ان الهواء صاف للغاية بعد الامطار ، وسوف يسعدني ان ارافقك » . ثم لف وشاحاً صوفياً حول عنقه بعناية ، وارتدى معطفاً اسود ذا ياقة عالية ، وخرج الرجلان إلى الشارع ، وسارا إلى جوار المعبد الذي اصدر قبل اكثر من ثلاثة قرون قرار الحرمان بحق باروخ سبينوزا ، ومرا بعد مبان قليلة ببيت رمبرانت القديم في الزيسترات .

وقال منديس بلهجة عادية ، وهما يمران بجوار البيت القديم « لقد مات فقيراً منبوذاً » .

نظر فنسنت اليه نظرة سريعة . كان دأب منديس ان ينفذ إلى قلب مشكلة ما ، قبل ان يشير اليها المرء بمجرد الذكر . كانت فيه

مرونة عميقة . فاذا قال له المرء شيئاً ، فانه يبدو كأنه يختزنه في جب لا يسبر غوره ، قيد التمعن . اما العم جان والعم ستريكر فان الكلمات التي يقولها المرء في حضورهما تطرق جداراً رقيقاً ثم ترتد فوراً إلى نغمة نعم ! ! ولا ! اما منديس فكان يأخذ الكلمة فيغمرها في بئر عميق من حكمته المعتقة قبل ان يعيدها من جديد .

وقال فنسنت « على انه لم يمت شقياً » .

فاجاب منديس « كلا . فقد عبر عن ذاته تماماً ، وكان يعرف قيمة ما انجز . وهو الوحيد الذي فعل ذلك في زمنه » .

« فهل كان ذلك ، اعني حقيقة علمه بقيمة ما انجز ، مرضياً له ؟ وماذا لو كان مخطئاً ؟ وماذا اذا كان العالم على صواب في اهماله اياه ؟ » .

« ان فكرة العالم عنه لم تكن ذات شأن كبير . فرمبرانت كان مدفوعاً إلى ان يرسم ، وسواء أكان ما يرسمه جيداً أو رديئاً ، فما كان ذلك ليغير شيئاً من الامر ، لان الرسم كان هو المادة التي تحفظ له تماسكه رجلاً بين الرجال . ان القيمة الرئيسية للفن يا فنسنت تكمن في التعبير الذي يمنحه للفنان . ورمبرانت حقق الشيء الذي رأى انه مغزى حياته، والذي برر به وجوده . ولو فرضنا جدلاً ان عمله لم يكن ذا قيمة ، فالرجل انجح الف مرة منه فيما لو نحى رغبته جانباً واصبح التاجر الاغنى في أمستردام كلها » .

« انني اتفهم ذلك » .

وتابع منديس حديثه ، كأنما هو ماض وراءخط تفكيره « اما حقيقة كون اعمال رمبرانت تجلب الفرحة إلى العالم بأسره اليوم ، فان ذلك كله مجاني . لقد اكتملت حياته ونجحت عندما مات ، حتى ولو طورد إلى القبر : فكتاب حياته انطوى آنذاك ، وكان كتاباً مسطوراً على نحوجميل . ان نوع مثابرته وولائه للفكرة التي اعتنقها ، لهو الامر الهام ، وليس نوع العمل الذي اداه » .

توقفا للنظر إلى رجال يعملون في عربات نقل الرمال قرب الدلتا ، ثم مرا خلال العديد من الشوارع الضيقة ذوات الحدائق المليئة بأشجار اللبلاب .

« ولكن كيف لرجل شاب ان يعرف انه على صواب فيما يختار ؟ ولنفرض ان عليه ان يفعل بحياته شيئاً مميزاً ، ثم تبين له فيما بعد انه لم يكن مناسباً لذلك على الاطلاق ؟ »

سحب منديس وجهه خارج ياقة المعطف ، وبرقت عيناه السوداوان وهو يصيح « انظر يا فنسنت إلى الغروب كيف يلقي وهجه الاحمر على هذه السحب الرمادية . »

وبلغا في سيرهما الميناء . وكانت صواري السفن وصف المنازل القديمة والاشجار في مواجهة الماء تقف خارج مجال اللون ، وكان كل شيء منعكساً . وعبأ منديس غليونه بالتبغ ، ومد ظرف التبغ إلى فنسنت .

فقال فنسنت « ان غليوني مشتعل . »

؛ أوه . نعم . هذا صحيح . فهل ترى ان نتمشى عبر السد نحو ريبرج ؟ فهناك مقبرة عائلتي ، ويمكننا ان نجلس قليلاً عندها . »

سارا معاً في صمت ودود ، والريح تحمل الدخان فوق كتفيهما . وقال منديس « ليس في وسعك ان تكون واثقاً من اي شيء طيلة الزمن يا فنسنت، وحسبك ان تؤتى الشجاعة والقوة لفعل ما تعتقد انه الصواب . ولقد ينقلب إلى خطأ ، غير انك فعلته على الاقل ، وهذا هو الشيء الهام . ان علينا أن نتصرف وفقاً لافضل ما يمليه علينا عقلنا، ثم نترك لله ان يحكم على قيمته المطلقة . فاذا كنت متأكداً في هذه اللحظة انك تريد خدمة خالقنا بطريقة أو باخرى فان هذا اليقين هو مرشدك الوحيد نحو المستقبل . وعليك ان لا تخشى وضع ثقتك فيه » .

« هذا مع الافتراض انني مؤهل ؟ »

فقال منديس وهو ينظر اليه بابتسامة خجلى « لخدمة الرب ؟ »

« لا ، وانما اقصد افتراض ان اكون مؤهلاً لاصبح ذلك النوع من رجال الدين الاكاديميين الذين تخرجهم الجامعة » .

لم يكن منديس راغباً في الخوض باي شيء حول مشكلة فنسنت المحددة ، وانما اراد ان يناقش اكثر جوانبها عمومية ، تاركاً للصبي ان يتوصل إلى قراره الخاص . وكانا قد وصلا إلى ساحة المقبرة فجلسا على مقعد حجري جوار البقعة المخصصة لعائلة داكوستا . ونحى فنسنت غليونه جانباً . وكانت ساحة الكنيسة في تلك الساعة من المساء مهجورة ، وما من صوت مسموع .

قال منديس وهو ينظر نحو قبري والده ووالدته المتلاصقين « لكل

شخص كيانه يا فنسنت . وله شخصيته المتمايزة . فاذا هو استبانها ، فان اي شيء يفعله سيكون حسناً في النهاية . ولو انك ظللت بائعاً للفنون ، فان الكيان الذي يجعلك هذا النوع من الرجال الذي هو انت ربما كان قد جعل منك بائعاً جيداً للفنون . وكذلك الامر بالنسبة إلى تعليمك ، ولسوف تعبر عن نفسك ذات يوم بصورة كاملة ، بغض النظر عن الواسطة التي قد تختارها . »

« وماذا اذا لم امكث في أمستردام لاصبح قسيساً محترفاً ؟ »

« هذا لا يهم . ستعود إلى لندن مبشراً بروتستانتيا ، أو تعمل في دكان ، أو تصبح مزارعاً في البرابانت . وايا كان الشيء الذي تفعل ، فإنك ستفعله على نحو جيد . لقد تلمست نوع المادة التي ستجعل منك رجلاً ، وانا اعرف انها جيدة . ولقد تظن مراراً في حياتك انك فاشل ، الا انك سوف تعبر عن ذاتك في نهاية الامر ، وسوف يكون ذلك التعبير مبرر حياتك » .

« شكراً لك يا سيد داكوستا . ان ما تقوله يساعدني » .

ارتعش منديس قليلاً ، فقد كان المقعد الحجري تحته بارداً ، وقد غربت الشمس وراء البحر . فنهض وقال : « هل نذهب يا فنسنت ؟ » .

— ٥ —

في اليوم التالي ، كان فنسنت واقفاً على الشباك المطل على الساحة ، اثناء هبوط الشفق . وكانت الساحة الصغيرة بما فيها من اشجار الجوز

ذات الاشكال النحيلة والاغصان الرفيعة ، تقف برشاقة في مواجهة سماء المساء الرمادية .

قال فنسنت في نفسه « هب انني غير صالح للدراسة الرسمية ، فهل يعني ذلك انني لن اكون ذا جدوى في العالم ؟ وما العلاقة بين اللاتينية واليونانية من ناحية وبين محبة الانسان لاخوانه ابناء البشر من الناحية الاخرى ؟ »

مر العم جان في الساحة السفلية اثناء قيامه بالتفقد اليومي . ورأى فنسنت على مرمى النظر صواري السفن في ارصفة الميناء ، ورأى امامه السوداء اللون ، يحيط بها المؤشران الاحمر والرمادي .

« ان الشيء الذي وددت طيلة الوقت ان افعله ، هو عمل الرب في خدمة الناس ،وليس رسم المثلثات والدوائر . ولم ارغب قط في ان تكون لي كنيسة كبيرة وان القي بمواعظ منمقة. فانا انتمي للمساكين والمكابدين . الآن .. الآن .. وليس بعد خمس سنوات من الآن .. »

في تلك اللحظة قرع الجرس ، واندفع سيل العمال باجمعه إلى البوابة ، وجاء الفرد المكلف باضاءة المصابيح ، ليشعل المنارة في الساحة ، واستدار فنسنت عن الشباك إلى داخل الغرفة .

خطر له ان والده وعمه جان وعمه ستريكر تكلفوا مبلغاً كبيراً من الوقت والمال للانفاق عليه في العام الماضي . وسوف يعدون ذلك كله خسارة لا طائل من ورائها ، اذ هو توقف عن الدراسة . ولكنه حاول بامانة . وما كان له ان يعمل اكثر من عشرين ساعة في اليوم . ان من الواضح انه غير لائق لحياة الدراسة . فقد بدأ متأخراً جداً .

واذا هو خرج في الغد مبشراً بروتستنتيا يعمل من اجل شعبه ، ايكون ذلك من قبيل الفشل ؟ وهل يكون من قبيل الفشل ايضاً ان يشفي المرضى ويريح المتعبين ويواسي الخاطئين ويهدي الضالين ؟

العائلة ستقول انه فشل . سيقولون انه لم يجد سبيلاً للنجاح ، وانه تافه وانه ناكر للجميل وسيقولون انه النعجة السوداء بين آل فان جوخ .

لقد قال له منديس « ايا كان الشيء الذي ستفعله ، فانك ستفعله جيداً . وانت في النهاية سوف تعبر عن نفسك ، وسيكون في ذلك التعبير مبرر حياتك . »

وكاي ، العليمة بكل شيء ، اكتشفت فيه بذور رجل دين ضيق الافق . اجل فذلك ما سيؤول اليه اذا مكث في أمستردام ، حيث يتلاشى الصوت الحق رويداً رويداً في كل يوم . على انه يعرف مكانه في العالم ، ولقد بث فيه منديس الشجاعة كي ينطلق . ولسوف تحتقره اسرته . الا ان ذلك لم يعد امراً ذا بال كما يبدو . ثم ان مركزه جد متواضع ، بحيث لا يترك فراغاً كبيراً اذا هو وهب نفسه لله .

وهكذا حزم حقيبته سريعاً ، وسار خارجاً من المنزل ، دون ان يقول وداعاً .

— ٦ —

افتتحت اللجنة البلجيكية للمبشرين البروتستانت مدرسة جديدة في بروكسل ، يتلقى الطلاب فيها التوجيه الديني دون مقابل ، ولا

يدفعون الا مبلغاً ضئيلاً لقاء الطعام والاقامة . وكانت اللجنة مؤلفة من المبجل فان دين برنك والمبجل دي جونغ والمبجل بيترسين . وقد زار فنسنت هذه اللجنة واجازت قبوله تلميذاً في المدرسة .

وقد قال له المبجل بيترسين « بعد مرور ثلاثة اشهر ، سوف نعينك في وظيفة باحدى انحاء باجيكا » .

واستدرك المبجل دي جونغ بلهجة ثقيلة ، ملتفتاً إلى بيترسين « شريطة ان يكتسب التأهيل اللازم » . وكان دي جونغ في شبابه عاملاً ميكانيكياً ، فقد ابهامه ، فتحول إلى اللاهوت .

وقال المبجل فان دي برنك « ما يحتاج اليه العمل التبشيري يا سيد فان جوخ ، هو الموهبة في مخاطبة الناس بخطب شعبية جذابة » .

ورافقه المبجل بيترسين وهما خارجان من الكنيسة التي عقد فيها هذا الاجتماع ، وتأبط ذراع فنسنت ، تحت شمس بروكسل المتوهجة ، وقال « انني مغتبط بحضورك الينا يا ولدي . وهناك مقدار ضخم من العمل الرائع المطلوب في بلجيكا ، واستطيع ان اقول ، بعدما رأيت حماسك ، انك لائق لياقة عالية لادائه . »

وازاء ذلك لم يدر فنسنت ، ايهما كان ابعث للدفء فيه ، اهي الشمس الحامية ، ام العطف الغامر الذي اسبغه الرجل عليه . وسارا هابطين نحو الشارع بين عدد من البنايات المؤلفة من ستة طوابق ، وفنسنت يجاهد للعثور على ما يجيب به . وتوقف المبجل بيترسين .

وقال « هنا ينبغي ان انعطف . وإليك بطاقتي ، فخذها ، وعندما

يواتيك وقت فراغ في احدى الامسيات تعال لزيارتي . وسوف يسعدني ان نتجاذب اطراف الحديث . »

اقتصر عدد الطلاب في مدرسة التبشير البروتستانتي على ثلاثة طلاب ، بمن فيهم فنسنت . واوكل امرهم إلى المعلم بوكما ، وهو رجل ضئيل مشدود ذو وجه مقعر ، فلو ان خطا مستقياً انزل من حاجبه إلى ذقنه ، لما لامس انفه او شفتيه .

وكان رفيقا فنسنت ولدين ريفيين في التاسعة عشرة من عمرها ، سرعان ما توطدت بينهما اواصر الصداقة على حساب فنسنت ، فقد جعلا من الاستهزاء به مادة لتعزيز ما بينهما من تفاهم .

وكان قد افضى إلى احدهما في بداية تعارفهم ، قبل ان تأتي مرحلة التحفظ قائلاً « ان هدفي هو ان اروض نفسي عن طريق قهرها . وان أفنى في ذاتي وفق التعبير الفرنسي » . وهكذا عمداً — كلما رأياه يجاهد في استذكار محاضرة باللغة الفرنسية ، أو يتجشم الصعوبات في قراءة كتاب اكاديمي — إلى سؤاله « ماذا تفعل يا فان جوخ ؟ أأنت تفنى في ذاتك ؟ »

وانكى من ذلك ما وقع له مع المعلم بوكما . اذ كان المعلم يسعى إلى تعليمهم براعة التكلم . ولذا كلفهم ان يجهزوا محاضرة في كل ليلة ، لالقائها في الصف في اليوم التالي . فاما ذانك الولدان ، فكانا يعدان خطبة سلسة ذات مضمون ساذج ، ويستظهرانها ارتجالاً . واما فنسنت ، فكان يعمل ببطء في اعداد مواعظه ، ويضع جماع قلبه في كل سطر من السطور . وكان يشعر شعوراً عميقاً بكل ما يريد

ان يقوله . ولكنه حينما يقف في غرفة الصف يرتج عليه ولا يجد الكلمات الا بصعوبة بالغة .

وقال له بوكما مقرعاً « كيف تأمل في ان تصبح مبشراً بروتستانتياً يا فان جوخ ، وانت عاجز عن الكلام ؟ ومن الذي سيصغي اليك ؟ »

غير ان حفيظة بوكما تفجرت إلى حدها الاقصى عندما رفض فنسنت ببرود ان يلقي موضوعاته ارتجالاً . كان قد عمل حتى وقت متأخر من الليل ليجعل موضوعاته مليئة بالمعنى ، وحرر كل كلمة فيها بلغة فرنسية مضبوطة بذل فيها جهداً متعباً . وفي اليوم التالي وقف الولدان وتحدثا ببهجة عن يسوع المسيح وعن الخلاص ، ولم ينظر احدهما إلى كراسته الا مرة أو مرتين ، بينما بوكما يهز رأسه مؤيداً . وجاء دور فنسنت ، ففتح خطبته امامه وبدأ يقرأ ، وهنا أبى بوكما مجرد الاستماع اليه .

وقال « اهذه هي الطريقة التي علموك اياها في أمستردام ؟ اعلم يا فان جوخ انه لم يمر بصفي رجل واحد دون ان يستطيع الكلام ارتجالاً ، بعد ان يستوعب المطاوب في لحظة واحدة ، ويحرك قلوب مستمعيه . »

وبذل فنسنت محاولته ، الا انه لم يستطع ان يتذكر جميع الاشياء التي كتبها في الليلة الماضية في سياقها المناسب . ولم يمهله زميلاه في الصف فراحا يضحكان من محاولاته المتعثرة ، ثم تبعهما بوكما في ضحكهما . وكانت اعصاب فنسنت تالفة إلى حد مرير بعد عامه في أمستردام .

فقال « معلم بوكما . سألقي مواعظي على نحوما اراه ملائماً . ان عملي جيد . واني ارفض الرضوخ لاهانتكم . »

وثارت ثائرة بوكما ، وصاح « ستفعل كما آمرك . والا فانني لن اسمح لك بالاستمرار في صفي ! »

ومنذ ذلك الحين باتت الحرب مكشوفة بين الرجلين . ولقد كتب فنسنت اربعة اضعاف ما كان مطلوباً منه من المواعظ ، لانه لم يكن يستطيع النوم في الليل ، وما من جدوى في ايوائه إلى الفراش . وفارقته شهيته للطعام فغدا نحيلاً سريع الاهتياج .

وفي تشرين الثاني نوفمبر استدعي إلى الكنيسة لمقابلة اللجنة والحصول على قرار تعيينه . فاخيراً ازيلت جميع العقبات من طريقه وأحس بعرفان الجميل يخالطه التعب . وعندما وصل إلى هناك ، كان زميلاه قد سبقاه ، ولاحظ ان المبجل بيترسين لم ينظر اليه حين دخل إلى المكان ، اما بوكما ففعل ، وكانت في عينيه ومضة ما .

قدم المبجل دي جونغ التهنئة إلى الغلامين لعملهما الناجح وسلمهما كتابي تعيينهما في هوجستراتت وايتيهوف . وغادر الزميلان الغرفة ذراعاً بذراع .

وقال دي جونغ « يا سيد فان جوخ ، ان اللجنة لم تستطع ان تقنع نفسها بأنك قادر على القيام بعمل الرب تلقاء الناس . ويؤسفني ان اقول لك انه لا وظيفة لك لدينا . »

وسأله فنسنت ، بعد وقت طويل الوقع « واي خطأ كان في عملي ؟ »

« رفضك الاذعان للسلطة . علماً ان القاعدة الاولى في كنيستنا هي الطاعة المطلقة . وفضلاً عن ذلك انك لم تنجح في ارتجال الكلام . ومعلماك يرى انك لست مؤهلاً لوعظ الناس . »

نظر فنسنت إلى المبجل بيترسين ، ولكن هذا الصديق كان يحملق خارج النافذة ، فبدر منه سؤال غير موجه إلى أحد على وجه التعيين « وماذا افعل الآن ؟ »

اجاب فان دين برنك قائلاً « يمكنك ان تعود إلى المدرسة اذا رغبت ، وتمكث ستة شهور اخرى ، ولعلك في ختام تلك الفترة ... »

كان فنسنت يحدق في حذائه الخشن المربع عند موضع الاصابع ، ولاحظ ان الجلد بدأ يتشقق . ثم انه ، وهو لا يجد اية كلمة يقولها على الاطلاق ، لم يجد بدا من ان يستدير ويمضي في صمت .

واخترق شوارع المدينة مسرعاً ، حتى وجد نفسه في منطقة لايكن . وسار على غير هدى فاذا به في شارع دكاكينه تعج بطنين العمل . ثم ترك البيوت وراءه ووصل إلى حقل مفتوح وشاهد حصاناً ابيض عجوزاً يقف هناك . وكان الحصان اعرج مهزولاً تعباً حتى الموت من حياة العمل المضني . والمنطقة خالية ومنعزلة . وشاهد على الارض جمجمة ، وشاهد على مقربة من المكان هيكل حصان عظمياً حائل اللون ، ملقى قرب كوخ رجل يعمل في سلخ الخيول .

وتحرك في قلبه بعض الاحساس الواهن الذي عاد يفيض باللامبالاة ، ومد فنسنت يده إلى غليونه حزيناً مبتئساً . واشعل التبغ بعود ثقاب ، ولكنه وجد طعمه مراً إلى درجة عجيبة . وجلس على جذع مقطوع

في الحقل . وجاء الحصان الابيض العجوز يحاك انفه في ظهر فنسنت . فاستدار هذا وربت على عنقه المهزول .

ولم يلبث زمناً حتى استيقظت في عقله فكرة الرب ، فمنحته الراحة ، وقال لنفسه « كان يسوع هادئاً في العاصفة . وانا لست وحيداً ، لان الرب لم يخذلني ، ولسوف اجد طريقاً لخدمته يوماً ما ، على نحو ما . »

وعندما عاد إلى غرفته وجد المبجل بيترسين ينتظره . وقال له « جئت لادعوك لتناول العشاء في بيتي يا فنسنت . »

وسارا خلال شوارع مزدحمة بالعمال الذاهبين لتناول وجبتهم المسائية . وتحدث بيترسين عن شؤون عرضية ، كأن شيئاً لم يحدث . وسمع فنسنت كل كلماته بوضوح مريع . وقاده بيترسين إلى الغرفة الامامية التي حولها إلى محترف للرسم ، حيث كانت على الجدران بعض الالوان المائية القليلة ، وفي احد الاركان حامل اللوحات .

وقال فنسنت « اوه . انت ترسم . لم اكن اعلم . »

واضطرب بيترسين واجاب « ما انا الا هاو . ارسم قليلاً في وقت فراغي للحصول على الاسترخاء . ولذا فانني لو كنت مكانك ما حدثت غيري عن هذا . »

وجلسا لتناول العشاء . وكانت لبيترسين ابنة خجولة متحفظة تبلغ الخامسة عشرة ، لم ترفع رأسها عن طبقها مرة واحدة . واستمر بيترسين يتحدث في امور غير مترابطة ، بينما ارغم فنسنت نفسه على تناول قليل من الطعام ، لاجل دواعي الادب . وفجأة صار ذهنه

مشدوداً إلى ما كان بيترسين يقوله ، دون ان يدري كيف دخل المبجل في الموضوع .

كان المضيف يقول « البوريناج منطقة تعدين للفحم الحجري . وكل رجل في تلك المنطقة يعمل فعلياً في الهبوط إلى المناجم . وهم يعيشون وسط آلاف الاخطار كثيرة الوقوع ، ويتقاضون أجوراً لا تكاد تكفي بالكاد للابقاء على ارواحهم واجسادهم في كيان واحد . اما بيوتهم فهي اكواخ متداعية تعيش فيها زوجاتهم واطفالهم معظم ايام العالم مرتجفين من البرد والحمى والجوع » .

« ودهش فنسنت لماذا كان ذلك كله يقال له . وسأل « اين هي البوريناج » ؟ »

« في جنوب بلجيكا ، قرب مونز . وقد مكثت بعض الوقت مؤخراً هناك . واذا كان في العالم يا فنسنت شعب هو الاحوج إلى رجل يعظهم ويخفف آلامهم ، فانه شعب البوريناج . »

احس فنسنت بغصة في حلقه ، اعترضت مجرى الطعام . والقى بشوكته امامه . لماذا يا ترى يخصه بيترسين بهذا التعذيب ؟

وقال المبجل « فنسنت ، لماذا لا تذهب إلى البوريناج ؟ حيث تستطيع بما اوتيت من قوة وحماس ان تقوم بقدر عظيم من العمل الرائع . »

« نعم ، اعرف . وقد كتبت إلى والدك قبل ايام ، اشرح له الوضع ووصلني جوابه بعد ظهر اليوم . وهو يعرب عن استعداده لدعمك في البوريناج إلى ان اتمكن من ضمان تعيين نظامي لك . »

وقفز فنسنت من فرحته « اذن فسوف تحصل لي على الوظيفة ! »

« نعم . ولكنك يجب ان تمنحني قليلاً من الوقت . فعندما ترى اللجنة عملك الرائع فسوف تلين . على انها اذا لم تلن .. فلا مناص امام دي جونغ وفان دين برنك من القدوم في يوم من الايام الطيبة ليطلبا مني خدمة معينة ، وعند ذلك اقايضهما واحدة بواحدة ... ان الناس الفقراء في هذا البلد يحتاجون إلى رجال مثلك يا فنسنت . ولما كان الله وحده هو المحكم في امري ، فان اية وسائل اتبعها من اجل تيسيرك لهؤلاء الناس ، تعد وسائل مشروعة ! »

— ٧ —

عندما اقترب القطار من الجنوب ، ظهرت في الافق مجموعة من الجبال . تطلع فنسنت اليها بفرحة وارتياح ، بعدما طال السير وسط ريف الفلاندرز المنبسط الرتيب . وراح يدرس تلك الجبال على مدى دقائق معدودات ، فاكتشف انها كانت جبالاً غريبة . يقف كل منها منفرداً بنفسه ، بارزاً من الارض المنبسطة إلى الأعلى على نحو فظ مفاجيء .

والتفت إلى رجل يجلس بجواره وسأله « هل تستطيع ان تخبرني من اين جاءت هذه الجبال ؟ »

فأجابه جاره « اجل . انها تتألف من ترابة الفحم ، وهي نفاية يؤتى بها من الارض مع الفحم . هل ترى تلك السيارة الصغيرة التي توشك ان تصل إلى نقطة التلة ؟ انظر اليها لحظة . »

ولم يكد يتم قوله حتى استدارت السيارة الصغيرة على جانبها ، وارسلت سحابة سوداء طارت نحو المنحدر . قال الرجل « ارأيت هكذا تنمو الجبال . ولقد مرت علي خمسون سنة وانا اشهدها ترتفع في الفضاء بمقدار كسور من البوصة في كل يوم . »

توقف القطار في وازمس ، وقفز فنسنت . كانت البلدة واقعة في جوف واد اجرد . وعلى الرغم من وجود شمس ضعيفة الحيوية تشرق بزاوية حادة على المكان فان طبقة كثيفة من دخان الفحم حجبت ما بين فنسنت والسماء . وكانت وازمس تجاهد لاتخاذ مكانها على جانب التل ، بواسطة صفين لولبيين من البنايات المسقوفة بقرميد احمر قذر ، وقبل ان تصل المباني إلى القمة ، ينتهي القرميد وتظهر قرية بيتي وازمس .

وحينما سار فنسنت صاعداً التل الطويل ، تعجب لماذا كانت القرية مهجورة إلى ذلك الحد . فلم يكن يظهر اي رجل في اية ناحية ، وانما ظهرت امرأة بالصدفة ، واقفة على باب احد المنازل ، وعلى وجهها تعبير بليد ابله .

ان بتي وازمس هي قرية عمال المناجم . وليس فيها عمارة واحدة مبنية بالقرميد غير منزل الخباز جان بابتست دينيس القائم فوق قمة التل . وإلى ذلك البيت اتجه فنسنت ، نظرا إلى ان دينيس كان قد كتب إلى المبجل بيترسين ، قائلاً انه يتبرع باستضافة المبشر البروتستانتي القادم إلى بلدهم للنزول في بيته .

ورحبت مدام دينيس بفنسنت ترحيباً من القلب ، وقادته عبر المطبخ ــ الخبز الدافىء ، الذي تفوح فيه روائح الخبز الصاعدة ،

وأرته غرفته ، وهي عبارة عن حيز صغير يقع تحت الافريز ، وله نافذة تطل على شارع بيتي وازمس ، وعوارض خشبية مائلة بزاوية حادة في مؤخرة الحيز . الا ان يدي مدام دينيس الخشبيتين المقتدرتين دعكتا هذه الغرفة جيداً . واحبها فنسنت حالما دخل اليها . وبلغ به الانفعال انه لم يستطع تفريغ حاجياته ، وانما اندفع نازلاً الدرجات الخشبية الخشنة إلى المطبخ ، ليبلغ مدام دينيس انه ذاهب إلى الخارج .

وسألته « ألن تنسى الحضور لتناول العشاء ؟ اننا نتناوله في الخامسة .»

شعر فنسنت بالمحبة تجاه مدام دينيس . واحس فيها تلك الفطرة التي تحيط ادراكاً بالامور دون ان تتجشم مؤونة التفكير فيها . وقال « سأكون هنا يا مدام . ولكنني اريد ان اقوم بجولة سريعة حولنا » .

« سيحضر لزيارتنا الليلة صديق ينبغي ان تلتقي به . انه مشرف عمال في منجم ماركاس ، وفي وسعه ان يحدثك بأشياء عديدة ترغب في معرفتها لصالح عملك » .

كانت السماء تثلج بغزارة . ورأى فنسنت ، وهو يهبط الطريق سياجات من شجيرات الزعرور حول الحدائق والحقول التي استحال لونها اسود من دخان مداخن المنجم . ورأى في الجانب الغربي من بيت دينيس وادياً صغير شديد الانحدار ، اقيمت عليه معظم اكواخ عمال المناجم ، اما في الجانب الآخر فكان هناك حقل شاسع مفتوح استقر عليه جبل من الترابة ، وظهرت فيه مداخل منجم ماركاس الذي يهبط اليه معظم عمال المناجم في بيتي وازمس .ويخترق هذا الحقل طريق غائر تتناثر فيه شجيرات الزعرور وتتخلل سطحه جذور اشجار ذات عقد .

ومع ان منجم ماركاس كان واحد من سلسلة من سبعة مناجم مماوكة لشركة المناجم البلجيكية ، فقد كان اقدم هذه الحفر واخطرها . وله سمعة سيئة بالنظر إلى العدد الوافر من الرجال الذين هلكوا فيه ، سواء حال هبوطهم اليه و صعودهم منه ، وسواء بفعل الغاز السام والانفجارات أو طوفان المياه أو انهيار الأنفاق القديمة . وكان على سطح الارض بناءان من القرميد ، يجري فيهما تشغيل الآلات التي تحمل الفحم من الاسفل إلى الأعلى ، حيث يجري فرزه وتصنيفه ومن ثم شحنه في السيارات . اما المداخن الطويلة التي كان لها فيما مضى لون القرميد الاصفر ، فانها تنفث دخاناً اسود حقيقاً ينزل على الجوار طيلة اربع وعشرين ساعة في اليوم . وحول ماركاس تقع اكواخ عمال المنجم التعساء ، يحيط بها القليل من الاشجار الميتة المسودة من الدخان ، وبعض سياجات الزعرور ، واكوام الروث ، ونفايات الرماد ، واكداس الفحم غير الصالح للاستعمال ، وفوق ذلك كله الجبل الأسود . لقد كانت بقعة كئيبة ، بدا كل شيء فيها لأول وهلة موحشاً منعزلاً امام فنسنت .

وتمتم قائلاً « لا عجب انها تدعى البلاد السوداء » ...

وبعد ان استغرق وقوفه بعض الوقت ، بدأ عمال المنجم يتدفقون من البوابة ، يرتدون ملابس رثة خشنة ، ويعتمرون قبعات جلدية فوق رؤوسهم ، لا فرق بين ملابس النساء والرجال ، فالجميع هنا يغمرهم السواد من اعلى الرأس إلى اخمص القدم ، كأنهم منظفو مداخن . وثمة تناقض غريب ما بين بياض عيونهم وبين وجوههم المغطاة بغبار الفحم . فلم يكن اطلاق لقب السود عليهم دون سبب .

وكان وهج اشعة الشمس الواهنة في تلك الساعة من بعد الظهر ، يؤذي عيونهم ، بعدما يستغرقهم العمل في ظلام الارض من قبل الشروق . وهكذا خرجوا من البوابة متعثرين . نصف عميان ، يتحدثون فيما بينهم باهجة عامية سريعة غير مفهومة . انهم بشر صغار ، ذوو اكتاف محدودبة واطراف ناتئة العظام .

ولقد فهم فنسنت الآن لماذا كانت القرية مهجورة بعد ظهر ذلك اليوم . ذلك ان بيتي وازرمس الحقيقية لم تكن ذلك العنقود الصغير من الاكواخ على جنب الوادي ، وانما هي مدينة التيه الحاضرة على عمق سبعمائة متر تحت الارض ، وفيها يقضي السكان باجمعهم تقريباً معظم ساعات يقظتهم .

— ٨ —

قالت مدام دينيس لفنسنت عبر مائدة العشاء جاك فيرني رجل عصامي ، ولكنه ظل صديقاً لعمال المناجم » .

الا يظل الرجال اذا حصلوا على ترقية ، أصدقاء العمال ؟ »

لا يا سيد فنسنت ، انهم في اللحظة التي يغادرون فيها بيتي وازمس إلى وازمس يبدأون في النظر إلى الاشياء نظرة مختلفة . ومن اجل المال ينحازون إلى جانب المالكين . وينسون انهم كدحوا في المناجم كدح العبيد ذات يوم ، اما جاك فهو وفي امين . وعندما نقوم باضرابات فهو الوحيد الذي تكون له كلمة مسموعة لدى العمال . وهم لا يصغون إلى نصيحة احد سواه . غير ان المسكين لن يعيش طويلاً . »

فسألها فنسنت « وما شأنه ؟ »

« الشأن المعتاد . اصابة الرئة . وهي مشكلة كل رجل ينزل إلى المناجم . وقد لا يعيش جاك حتى اخر الشتاء . »

وحضر جاك فيرني بعد قليل . فاذا به رجل قصير القامة محدودب الكتفين ، ذو عينين غائرتين حزينتين كعيون سائر اهل البورين . وكانت له في منخريه شعرات بارزة إلى الخارج كأنها قرون استشعار وكذلك في نهاية حاجبيه وعند محارتي اذنيه . ولكنه اصلع الرأس . وعندما سمع ان فنسنت مبشر بروتستانتي قادم من اجل صالح عمال المناجم ، تنهد بعمق وقال آه يا سيد . كم من اناس حاولوا ان يساعدونا . الا ان الحياة تمضي كما كانت دائماً دون تعديل . »

وسأله فنسنت هل ترى ان الاحوال رديئة في البوريناج ؟ »

فبقي جاك برهة صامتاً ، ثم قال لا ، اذا كان السؤال يتعلق بوضعي الشخصي . اذ علمتني امي قليلاً من القراءة ، وافادني ذلك في ان اصبح مراقب عمال . ولي بيت صغير من القرميد على الطريق النازل إلى وازمس ، ونحن نعاني الفاقة للطعام . وليس هناك ما اشكو منه على الصعيد الشخصي .. »

واضطر ان يتوقف بسبب نوبة سعال حادة انتابته حتى خيل إلى فنسنت ان صدره المسطح سينفجر حتما تحت الضغط . وبعد ان نهض جاك مرات عديدة وسار إلى الباب الأمامي ليبصق في الطريق ، عاد يجلس على مقعده في المطبخ الدافىء ، وينتف بين الحين والحين شعرة من شعرات اذنه أو انفه أو حاجبيه .

هل ترى ايها السيد ؟ لقد كنت في التاسعة والعشرين عندما اصبحت مراقب عمال . وقد فقدت رئتي قبل ذلك ، على ان هذه الاعوام القليلة الماضية لم تكن بالغة السوء بالنسبة إلى شخصي ... اما العمال ... » . ثم نظر إلى مدام دينيس وسألها « ما رأيك ؟ هل آخذه ونتزل لنقابل هنري ديراك ؟ »

« ولم لا ؟ ان استماعه إلى الحقيقة كاملة لن يضره . »

واستدار جاك فيرني نحو فنسنت معتذراً وقال « انني اظل في نهاية المطاف مراقب عمال ، يدين بشيء من الولاء لرؤسائه في الشركة ، اما هنري ، فسوف يبين لك ! »

لحق فنسنت بجاك إلى ذلك الليل البارد وانطلقا على الفور إلى وادي مساكن العمال . وكانت اكواخاً خشبية بسيطة اشبه بالزرائب ، مكونة من غرفة واحدة . ولم تنشأ هذه الأكواخ وفقاً لأية خطة ، وانما هي متناثرة على جانب التل كيفما اتفق ، بزوايا مجنونة ، احدثت متاهة من الممرات الترابية التي لا يتعرف طريقه فيها الا الخبير . وراح فنسنت يتعثر وراء جاك ، ويقع على الصخور وجذوع الاشجار واكوام القاذورات ، وفي منتصف المسافة التي تشغلها الاكواخ على التل ، وصلوا كوخ اسرة ديكراك . وظهر لهم نور من خلال النافذة الصغيرة في المؤخرة . وطرقوا الباب فأجابتهم مدام ديكراك .

كان كوخ آل ديكراك نسخة طبق الاصل عن جميع الاكواخ في الوادي . وهو ذو ارضية ترابية ، وسقف مغطى بالطحالب ، وشرائط من الخيش مدسوسة بين الالواح لصد الريح . وكان في كل

ركن من الركنين الخلفيين سرير . وقد ملىء احد السريرين بثلاثة اطفال نائمين . واما الاثاث فيتكون من موقد بيضاوي ، وطاولة خشبية ومقاعد ، وكرسي واحد ، وصندوق مثبت في الحائط ، يحتوي على قليل من القدور والصحون . وكان آل ديكراك ، شأن معظم البورينيين ، يربون معزى وبعض الارانب ، ليتسنى لهم ان يأكلوا لحماً في المناسبات . وقد نامت المعزى تحت سرير الاولاد ، ونثر قليل من التبن للارانب خلف الموقد .

سحبت مدام ديكراك النصف العلوي من الباب ، لترى من الطارق ، ثم اتاحت للرجلين ان يدخلا انها المرأة التي عملت مع ديكراك في الانفاق نفسها سنوات عديدة قبل ان يتزوجا . وآنذاك كانت تدفع عربات الفحم الصغيرة فوق خط السكة حتى تصل بها إلى لوحة التسجيل واليوم تلاشى من ملامحها معظم ماء الشباب . وبدت ذاوية مرهقة شائخة ، في حين لم تحتفل بعد بيوم ميلادها السادس والعشرين .

وكان ديكراك يتكيء بكرسيه عكس الجزء البارد من الموقد ، وحالما شاهد جاك ، قفز واقفاً وصاح « عال ! لقد مر وقت طويل منذ حضرت آخر مرة إلى بيتنا . اننا سعداء لقدومك . وانني ارحب بصديقك » .

كان مما يفخر به ديكراك ، انه الرجل الوحيد الذي لم تستطع البوريناج ان تقتله . وكثيراً ما يقول « سوف اموت على فراشي بفعل الشيخوخة ، ولن تستطيع المناجم ان تقتلني ، لانني لن ادعها تفعل ! »

وكانت له في الجانب الايمن من رأسه بقعة كبيرة مربعة تكشف عن جلد محترق في رأسه كأنها نافذة مفتوحة في سقف مغطى بالقش .

وهي تذكار من اليوم الذي سقط فيه القفص الهابط إلى اسفل وهوى مسافة مائة متر ، كما يهوي في قرارة بئر ، فقتل رفاقه التسعة والعشرين . وكان بالاضافة إلى هذه البقعة في رأسه ، يجر احدى ساقيه خلفه عندما يسير . فقد كسرت في اربعة مواضع يوم انهيار الدعائم الخشبية في الحلية التي كان يعمل بها ، وبقائه سجيناً مدة خمسة ايام . وآنذاك انحشر قميصه الاسود الخشن في الجهة اليمنى من متراس احدثه انكسار ثلاثة دعامات ظلت معلقة فوقه ، اثر انفجار الغاز المشتعل الذي قذف به حتى ارتطم بعربة من عربات الفحم . لكنه كان رجلاً مقاتلاً ، اشبه بديكة الصراع ، لا يفت في عضده شيء . ولما كان يتحدث ضد الشركة بأعنف العبارات ، فانهم كانوا يوكلون اليه العمل في اسوأ الانفاق ، حيث يصعب استخراج الفحم إلى اقصى حد ، ويجري العمل في اقسى الظروف . وكلما اعطي مزيداً من ذلك ، زادت نيران غضبه اشتعالاً « عليهم » ، هم العدو غير المعلوم وغير المرئي ، والحاضر ابدا في الذهن . وكانت له في ذقنه نقرة اخطأت طريقها إلى مركز الذقن ، فجعلت وجهه المكتنز القصير يبدو منحرفاً بعض الشيء .

قال « يا سيد فان جوخ . انت حضرت إلى المكان الصحيح . اننا هنا في البوريناج لا نتوصل إلى مقام العبيد ، وانما نحن حيوانات نهبط إلى ماركاس في الساعة الثالثة من كل صباح ، ولا نحظى لفترة غذائنا الا بخمس عشرة دقيقة ، ثم نعاود العمل حتى الساعة الرابعة بعد الظهر . وان الجو في الاسفل لحار يا سيدي ، واسود ايضاً . ولذا فاننا نعمل عراة ، غير قادرين على التنفس ، لان الهواء مليء بغبار الفحم وبالغاز السام ! وعندما نستخرج الفحم من المربض ، يضيق ،

المكان فلا نستطيع الوقوف على اقدامنا ، ونضطر إلى العمل جاثين على الركبتين . اننا نبدأ في الهبوط إلى المنجم صغاراً في سن الثامنة أو التاسعة ، لا فرق بين ولد وبنت . فلا يكاد واحدنا يصل إلى عامه العشرين حتى يصاب بالحمى وامراض الرئة . واذا لم يقتلنا ، القفص (ونقر بيده على البقعة الحمراء في رأسه) ، فقد نعيش حتى الاربعين ثم نموت بداء السل ! قل يا فيرني ، هل اتحدث بأكاذيب ؟ ! »

قال ما قاله بلهجة عامية محتدمة إلى درجة لم يستطع فنسنت معها ان يتابعه الا بصعوبة . وقد اكسبت نقرة الذقن وانحراف الوجه شكله مظهراً فكهاً ، على الرغم من عينيه السوداوين الغاضبتين .

واجاب جاك « بل الامر كما وصفت يا ديكراك . »

وكانت مدام ديكراك قد ذهبت لتجلس على سريرها في الركن الاقصى . واصبحت بين الظل وبين الضوء الشاحب المنبعث من مصباح الكاز . واصغت إلى زوجها وهو يتحدث ، على الرغم من انها سمعت تلك العبارات نفسها الف مرة من قبل . ذلك ان السنوات التي قضتها في جر عربات الفحم ، والجهد الذي بذلته في ولادة ثلاثة اطفال ، وتعاقب فصول الشتاء المريرة في ذلك الكوخ المحشو بالخيش ، قد جردتها من كل قدرة على الصراع ، وجر ديكراك ساقه من امام جاك إلى امام فنسنت .

واستطرد يقول « وما الذي نكسبه مقابل هذا كله يا سيدي ؟ كوخاً ذا غرفة واحدة ، وطعاماً كفافاً نظل معه قادرين على هز المعول بيدنا . وما الذي نأكله ؟ الخبز ، والجبن الحامض ، والقهوة السوداء .وربما أكلنا

اللحم مرة أو مرتين في العام ! فاذا هم اقتطعوا من أجورنا خمسين سنتيماً في اليوم لتضورنا جوعاً حتى الموت ! ولما عدنا قادرين على استخراج فحمهم من المنجم ، وذلك هو السبب الوحيد وراء امتناعهم عن اعطائنا أجراً أقل . اننا على حافة الموت يا سيدي ، ونظل كذلك في كل يوم من أيام حياتنا ! وإذا مرضنا فاننا نفصل من العمل دون عطية فرنك واحد ، ثم نموت ميتة الكلاب ، ويقوم الجيران باطعام زوجاتنا وأطفالنا . أجل يا سيدي ، اثنان وثلاثون عاماً ما بين الثامنة وبين الأربعين ، نقضيها في الأرض السوداء ثم ننتهي إلى حفرة ذلك التل بجانب الطريق ، لننسى ذلك وما فيه . »

اكتشف فنسنت أن عمال المناجم كانوا جهلة غير متعلمين ، ومعظمهم لا يستطيع القراءة ، ولكنهم في الوقت ذاته أذكياء سريعون في العمل الصعب الذي يقومون به ، وهم شجعان صريحون ذوو أمزجة بالغة الحساسية . وكانوا نحافاً شاحبين من الحمى ، يدل مظهرهم على التعب والهزال . ولهم جلود مرتخية مصفرة (لا ترى الشمس إلا في أيام الأحد) طبعت عليها آلاف المسامات السوداء . ولهم عيون غائرة حزينة ، شأن المضطهدين الذين لا يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم . ولقد وجدهم فنسنت جذابين . فهم بسطاء طيبو الفطرة ، مثل أهالي برابانت في زندرت وايتن . وزايله الاحساس بالوحشة من الطبيعة حوله أيضاً ، لأنه أدرك أن البوريناج تملك شخصية مميزة ، وان الأشياء فيها شرعت تفصح عن نفسها أمامه .

وعقب أيام قليلة من وصول فنسنت ، عقد أول اجتماع ديني له ، في سقيفة تقع خلف مخبز دينيس . وقام أولاً بتنظيف المكان جيداً ثم نقل

إليه مقاعد خشبية لجلوس الناس . وجاء عمال المنجم في الساعة الخامسة بصحبة عائلاتهم ، وقد تلفعوا بوشاحات حول رقابهم ولبسوا قبعات صغيرة على رؤوسهم للوقاية من البرد . ولم يكن في المكان ضوء غير ضوء مصباح كاز استعاره فنسنت . وجلس العمال في الظلام على المقاعد الصلبة ، ينظرون إلى فنسنت وهو يدور حول انجيله ، واستمعوا إليه باهتمام وقد وضعوا ايديهم تحت آباطهم للمحافظة على دفئها .

وقد فكر فنسنت كثيراً كي يجد الرسالة الأنسب لهذه الموعظة الافتتاحية ، واختار في النهاية الآيات ١٦ : ٩ « وظهرت لبول رؤية في الليل ٢/١ إذ وقف أمامه رجل من مقدونيا وتوسل إليه قائلاً « تعال إلى مقدونيا وساعدنا ») .

وراح فنسنت يشرح النص قائلاً « ينبغي يا أصدقائي أن ننظر إلى المقدوني كأنه عامل . . عامل حفرت على وجهه خطوط الأسى والعناء والتعب . إلا أنه لا يخلو من الروعة والبهاء ، لأنه يملك روحاً خالدة. وهو بحاجة إلى الغذاء الذي لا ينفد ، ألا وهو كلمة الرب . ان الرب يريد من الانسان أن يقتدي بيسوع المسيح ، فيعيش متواضعاً ، ويمضي في حياته وهو لا يرمي إلى الأهداف المتعجرفة . وإنما يوائم نفسه مع الاتضاع متعلماً من الانجيل كيف يكون حليماً نقي القلب ، لكي يدخل إلى ملكوت السموات في اليوم الموعود وهناك يلقى السلام . »

وكان في القرية كثير من المرضى ، فراح يتفقدهم في جولاته اليومية كأنه الطبيب ، ويقدم اليهم قدر استطاعته قليلاً من الحليب ، أو الخبز ، أو زوجاً من الجوارب الدافئة ، أو ملاءة توضع على السرير . وقد اجتاح الأكواخ وباء التيفوئيد ، بالإضافه إلى حمى خبيثة كان العمال يطلقون

عليها اسم الحمى الحمقاء ، جلبت لهم الأحلام المزعجة واسلمتهم إلى الهذيان . وتزايد في كل يوم عدد طريحي الفراش من عمال المناجم المرهقين الضعفاء البؤساء .

وكان جميع الناس في بيتّي وازمس يدعونه سسيد فنسنت بمحبة صادقة ، وان شاب ذلك قدر غير يسير من التحفظ . ولم يبق كوخ واحد في القرية إلا دخل اليه جالباً معه الطعام والطمأنينة ، فاعتنى بالمرضى وصلى مع التعساء ، وحمل نور الرب إلى الخاطئين . وقبل عيد الميلاد بأيام قلائل عثر على اسطبل مهجور قرب ماركاس ، يتسع لحوالي مائة شخص . وكان مكانا أجرد بارداً منعزلا ، ومع ذلك فقد امتلأ بعمال بيتّي وازمس حتى بابه . واستمعوا إلى فنسنت وهو يقص عليهم حكاية بيت لحم والسلام على الأرض . لم يكن قد انقضى على حضوره إلى البوريناج أكثر من ستة أسابيع ، كانت الأحوال خلالها تزداد تعاسة بمرور الأيام ، على مرأى منه ، ولكن ها هو في اسطبل متواضع لا يضيئه إلا نور دخاني صادر عن مصابيح صغيرة معدودة ، يتمكن من استحضار يسوع المسيح وسط هؤلاء الكادحين المرتعشين ، ويدفىء قلوبهم ببشارة الملكوت القادم .

ظل في حياته خلل واحد ، يشكل عنصر ضيق لنفسه ، وذلك انه مازال عالة على والده . ولذا جعل يصلي كل ليلة ، راجياً أن يحين الوقت فيكسب الفرنكات القليلة الكافية لحاجاته المتواضعه .

وانقلب الطقس نكدا . وتكاثفت الغيوم السوداء فوق المنطقة بأسرها . وهطل المطر سيولاً ، وغدا جداول في الطرق المجوفة والأرضيات الترابية داخل الأكواخ في الوادي.وفي يوم رأس السنة الجديدة ذهب جان بابتست

إلى وازمس ركضاً ، وعاد وهو يحمل رسالة لفنسنت . وكان اسم المبجل بيترسين مكتوباً على الركن الأيسر من الغلاف . وجرى فنسنت إلى غرفته تحت الافريز ، مرتعشاً من شدة الانفعال . فلم يسمع صوت المطر الذي يزخ فوق السطح . ومزق الغلاف بأصابع رعناء . وقرأ ما في الرساله :

عزيزي فنسنت

ان لجنة التبشير البروتستنتي وقد سمعت بعملك الرائع ، اقرت تعيينك مؤقتاً لستة شهور ، تبدأ في بداية العام .

فإذا سار كل شيء على ما يرام حتى نهاية حزيران يونيه ، غدا تعيينك دائماً . وسوف يكون راتبك في هذه الاثناء خمسين فرنكاً في الشهر .

اكتب لي بين الحين والآخر . وواصل التطلع إلى العلا . .

المحب كثيراً

بيترسين

ألقى نفسه بطوله على السرير جذلا ، والرسالة مضمومة بشدة في يده. ها هو يدرك النجاح أخيراً ! ها هو يجد مهمته في الحياة ! ولقد كان ذلك ما اراده طيلة الايام ، إلا أنه لم يؤت العزم والشجاعة على التوجه إليه على نحو مباشر ! إنه سوف يتلقى خمسين فرنكاً في الشهر ، وهو مبلغ يزيد على حد الكفاية لطعامه وسكنه ، ولن يكون مضطراً بعد اليوم للاعتماد على أحد .

وجلس إلى الطاولة ، وكتب إلى والده وسالة مهتاجة ظافرة ، يبلغه فيها انه لم يعد في حاجة إلى معونته ، وانه يريد أن يغدو ، بالنسبة لعائلته

مصدراً للفضل والعرفان منذ الآن فصاعداً . وحينما فرغ من رسالته كان الفجر الكاذب قد لمع في الأفق ، والبرق والرعد ينهالان الآن فوق ماركاس . فانطاق يعدو هابطاً الدرجات إلى المطبخ ويقذف بنفسه مبتهجاً تحت الأمطار .

وخرجت مدام دينيس وراءه تصيح « سيد فينسنت ! إلى أين تذهب ؟ لقد نسيت قبعتك ومعطفك ! »

لم يتوقف فنسنت ليجيبها . بل ركض نحو رابية صغيرة في الجوار واستطاع أن يرى من فوقها قسماً كبيراً من البوريناج ، بما فيه من مداخن وأكوام فحم وأكواخ عمال صغيرة . وحركة غدو ورواح عند مداخل المناجم ، تشبه حركة النمل وهي تدخل وتخرج قرب العش . ورأى على مسافة قريبة غابة صنوبر داكنة ، تقابلها بعض الأكواخ الصغيرة البيضاء ، ورأى برج كنيسة يلوح في البعيد ، وطاحونة قديمة. وكان ضباب رقيق يضم هذا المشهد كله . كما كان لبقع الضياء والظلمة التي صنعتها ظلال السحب اثر عجيب . ولأول مرة منذ قدومه إلى البوريناج ، ذكرته هذه المشاهد بلوحات مايكل ورايسادل .

ـ ١٠ ـ

ما دام فنسنت في الوقت الحاضر مبشراً بروتستانتيا معتمداً ، فقد احتاج إلى مكان ثابت لعقد اجتماعاته . واستطاع بعد بحث واسع ان يعثر في قعر الوادي على بيت كبير إلى حد ما ، يقع على طريق صغير في غابة الصنوبر . وكان البيت معروفاً بصاالون الأطفال ، اذ حدث في الماضي ان خصص لتدريب أطفال القرية على الرقص ، وقام فنسنت بتعليق مالديه

من صور في هذا البيت ، فصار مظهره ، جذاباً وغدا فنسنت يجمع الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين أربع سنوات وثماني سنوات ويعلمهم بعد ظهر كل يوم مبادىء القراءة ، ويحكي لهم قصص الانجيل الأولية. وذلك كل ما اتيح لمعظمهم أن يحصل عليه من تعليم في حياته بأسرها .

قال فنسنت يسأل جاك فيرني الذي ساعده في الحصول على الصالون « كيف نحصل على فحم لتدفئة الغرفة ؟ ان علينا أن ندفىء الاطفال ، ثم ان اجتماعاتنا التي تعقد بالليل يمكن ان تمتد فترة أطول اذا كان الموقد مشتعلاً » .

فكر جاك لحظة ثم قال « احضر إلى هنا بعد ظهر الغد وسوف اريك كيف نحصل عليه . »

عندما وصل فنسنت إلى الصالون في الموعد وجد مجموعة من زوجات وبنات العمال في انتظاره ، وقد ارتدين قمصاناً وتنانير سوداء ووضعن على رؤوسهن مناديل زرقاء . وفي يد كل منهن حقيبة .

وصاحت ابنة فيرني « سيد فنسنت . اتيت لك بحقيبة ، عليك أن تملأها أنت الآخر . »

وصعد الجمع عبر متاهة الممرات السركية وسط أكواخ العمال ، واجتاز مخبز دينيس في قمه التل ، ثم سار داخل الحقل الذي يقع في منتصفه منجم ماركاس ، وطاف حول جدران البنايات حتى وصل إلى هرم التربة السوداء في المؤخرة ، وهنا بدأ الجمع ينتشر ، وكل فرد يهاجم الجبل من زاوية مختلفة ، متسلقين جوانبه كما تحتشد حشرات ضئيلة على جذع شجرة ميت .

قالت الآنسة فيرني « عليك أن تصعد إلى القمة لتتمكن من العثور على الفحم يا سيد فنسنت ، اذ سبق لنا ان ثابرنا منذ سنين على التقاطه من المناطق السفلية حتى نظفناها . اتبعني لاريك أين هو الفحم . »

تسلقت المنحدر الأسود كأنها ماعز فتيه ، اما فنسنت فما كان له بد من الزحف على يديه وركبتيه معظم المسيرة ، لأن الأرض من تحت قدميه كانت تزحلقه . وواصلت الآنسة فيرني صعودها ، وهي تجلس القرفصاء على ردفيها بين الحين والحين ، وتعابثه بالقاء قطع من الطين المحترق عليه . كانت صبية عذبة ، يجري ماء النضارة في خديها ، وتتمتع بمزاج حيوي نشيط . وكان فيرني قد رقي إلى رتبة المراقب عندما كان عمرها سبع سنوات ، فلم تعرف ما يكون المنجم من الداخل .

وجعلت تصيح « تعال إلى هنا يا سيد فنسنت ، وإلا صرت آخر من يملأ حقيبته بالفحم ! » . كان هذا العمل بالنسبة اليها نزهة ، وكانت الشركة تمد فيرني بفحم صالح للاستعمال بسعر متخفض .

ولم يستطع الجمع كله ان يتابع صعوده معاً حتى القمة ، لأن السيارات الصغيرة كانت تجيء وتفرغ حمولتها من النفايات ، على هذا الجانب مرة ، وعلى الجانب الآخر مرة أخرى ، بانتظام روتيني . وما كان العثور على الفحم عملاً يسيراً وسط ذلك الهرم . وارشدت الآنسة فيرني فنسنت إلى كيفية غرف التراية بين يديه وترك النفايات من طين وصخر وصلصال وغير ذلك من المواد الغريبة تنزلق من خلال أصابعه . وكانت كميه الفحم التي تتخلف بعد تدقيق الشركة ضئيلة للغاية . فالمادة التي تعثر عليها زوجات العمال هي نوع من مركبات الصلصال التي لا تباع في السوق التجارية . وكانت التراية مبتلة بالثلج والمطر ، واذا بيدي

فنسنت تصاباان سريعاً بخدوش وجروح ، ولكنه تدبر الأمر حتى ملأ ربع الحقيبة بما رجا أن يكون فحماً في حين ملأت النساء حقائبهن كلها تقريباً .

تركت كل امرأة حقيبتها في الصالون ، ومضت إلى بيتها لتجهز لعائلتها وجبة العشاء ، بعد ان وعدت بالحضور إلى الصلوات في ذلك المساء ، واصطحاب أسرتها . ووجهت الآنسة فيرني دعوة إلى فنسنت للعشاء معهم في المنزل . فقبل الدعوة مبتهجاً .وألفى منزل فيرني مكوناً من غرفتين كاملتين ،تشتمل احداهما على الموقد وعدة المطبخ والمائدة، والأخرى على أسرة العائلة .وعلى الرغم من هذا اليسر الذي يتمتع به جاك ، فلم يكن في البيت صابون ، لأن الصابون ،على حد ما بلغ فنسنت من علم ، كان بمثابة ترف مستحيل بالنسبة للبورنيين .فمنذ اليوم الذي يبدأ فيه الصبي نزوله إلى المنجم ،وتبدأ فيه البنات صعودها إلى الترابة ، حتى يوم وفاتهم ،فلن يزول غبار الفحم عن وجوههم بصورة تامة قط .

أتت الآنسة فيرني بوعاء ماء إلى الشارع ليغسل فنسنت يديه ووجهه، ففعل قدر استطاعته،ولم تدرك مدى توفيقه في ذلك،إلا حينما جلس قبالة الصبية الصغيرة،وشاهد على وجهها الطبقة السوداء التي خلفها غبار الفحم والدخان ، واستنتج ان مظهره لابد مشابه لمنظرها . وراحت الآنسة فيرني تثرثر بمرح طوال وجبة العشاء .

وقال جاك « أتدري يا سيد فنسنت أنك وان مضى على وجودك في بيتي وازمس قرابة شهرين ، فانك لا تعرف البورينا حقاً . »

وأجاب فنسنت بمنتهى التواضع « هذا صحيح يا سيد فيرني ، ولكنني أظن أنني مقبل على معرفة الناس تدريجياً . »

فقال جاك ، وهو ينزع شعرة طويلة من شعرات أنفه ويقلبها باهتمام « ما هذا قصدي ، وإنما أردت أنك رأيت حياتنا فوق الأرض وحسب . وذلك ليس بالأمر الهام ، فاذا شئت أن تعرف حياتنا على حقيقتها ، فينبغي أن تهبط إلى واحد من المناجم وترى كيف نعمل من الثالثة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر » .

وقال فنسنت « إنني متشوق جداً للنزول كما تقول ، ولكن هل يمكنني الحصول على اذن من الشركة ؟ »

فقال جاك « لقد طلبت لك اذناً بالفعل . » ثم وضع في فمه قالب سكر وصب من خلاله قهوة مرة فاترة سوداء كالحبر ، أخذت تتنزل في حلقه ، واستطرد « غدا انزل إلى ماركاس في مهمة تفتيش على اجراءات السلامة . فانتظرني أمام بيت دينيس عند الساعة الثالثة إلا ربعاً قبل الفجر ، وسوف اصطحبك إلى المنجم » .

قامت الأسرة جميعها لمرافقة فنسنت إلى الصالون ، غير ان جاك أصيب بنوبة من السعال الحاد الذي هزه هزا في الطريق ، على الرغم من انه كان يبدو في حالة حسنة مسترخية وهو في منزلة الدافىء ، وهكذا كان لابد من رجوعه إلى البيت . وعندما وصل فنسنت إلى الصالون وجد هنرى ديكراك قد سبقه هناك وهو يجر ساقه الميته وراءه ويحاول معالجة الموقد .

وصاح بابتسامة عريضة ، على قدر ما يتيح له وجهه المكتنز « آه.. مساء الخير ياسيد فنسنت . إنني الشخص الوحيد في بيتي وازمس ، القادر على اشعال هذا الموقد . فأنا أعرفه منذ وقت بعيد ، عندما كنا نقيم احتفالات في هذا المكان . انه موقد ولكنني أعرف جميع حيله . »

كانت محتويات الحقائب رطبه ، وليس فيها من الفحم إلا قدر ضئيل . إلا أن ديكراك سرعان ما تدبر أمر ذلك الموقد البيضاوي المنتفخ ، فاذا به ينفث دفئاً حسناً . وإذ راح يعرج في المكان منفعلاً ، سرى الدم في البقعة العارية بجلدة رأسه ، وبعث في جلدها المتغضن لوناً أحمر داكناً كالشوندر .

وقد حضرت في تلك الليلة جميع عائلات بيتّي وازمس إلى الصالون للاستماع إلى فنسنت يلقي اولى مواعظه في كنيسته . وامتلأت المقاعد عن آخرها ، فخفت العائلات ذات البيوت القريبة إلى بيوتها وأحضرت كراسي وصناديق . وازدحم المكان بما ينوف على ثلاثمائة نفس . ونظراً لما استشعره فنسنت من دفء في قلبه جراء العطف الذي لقيه من زوجات العمال عصر ذلك اليوم ، ولاحساسه أيضاً انه يلقي مواعظه في معبده الخاص ، فقد راح يتكلم كلاماً مفعماً بالصدق ، حتى تملكه الاعتقاد بأن النظرة الحزينة قد زالت عن وجوه البورنيين .

خاطب فنسنت جمهوره الكادح بقوله « ان من عقائدنا القديمة الخيرة ، اننا نأتي إلى الأرض عابرين . ومع ذلك فلسنا وحدنا في هذا العالم . لأن ابانا معنا . وإنما نحن حجاج ، وحياتنا رحلة طويلة من الأرض إلى السماء .

« ان الأسى أفضل من الفرح . بل ان القلب لا يسعد إلا وفيه شيء من الحزن . وأقرب إلى البر ان يسير المرء إلى بيت العزاء من أن يذهب إلى بيت الاعياد . لأنه بالحزن تسمو طمأنينة القلب .

« وما من أسى ، لدى أولئك المؤمنين بيسوع المسيح ، لا يخالطه الأمل ، فهم يولدون من جديد في كل حين ، وينتقلون من الظلمة إلى الضياء في كل حين .

« نضرع إليك يا أبانا ان تحفظنا من الشر . وان لا تهبنا الفقر ولا الغنى ، ولكن اعطنا خبزنا كفافنا . آمين . »

فلما انتهى من موعظته ، كانت مدام ديكراك أول الواصلين اليه ، وكان ثمة ضباب في عينيها ورعشة في جانب فمها . وقالت له ــ سيد فنسنت ، لقد كانت حياتي قاسية إلى الحد الذي أضعت معه الرب . ولكنك أعدته إليّ . وانني أشكرك على ذلك . »

وحينما انصرفوا جميعاً ، اغلق فنسنت باب الصالون ، وسار متفكراً يصعد التل إلى منزل دينيس . ان بوسعه القول بعد هذا الاستقبال الذي حظي به تلك الليلة لموعظته الدينية ، ان موقف البورنيين منه تخلص من تحفظه الأول ، وانهم غدوا يثقون به في نهاية المطاف . لقد اعترف به هؤلاء الكادحون كاهناً للرب . فما الذي أدى إلى هذا التغيير ؟ اتراه الكنيسة الجديدة ؟ ولكن مثل هذه الأمور لا تؤثر كثيراً ولا قليلاً في عمال المناجم . كما أنهم لا يعلمون شيئاً عن تعيينه مبشراً بروتستانتياً ، لأنه لم يخبرهم قبلاً انه غير ذي صفة رسمية . ثم ان موعظته ، وان كانت جميلة دافئة ، فقد سبق له ان نطق بمثلها في الأكواخ الحقيرة وفي الاسطبل المهجور . .

كان آل دينيس قد أووا إلى مضاجعهم في حجيرتهم الصغيرة البعيدة عن المطبخ . غير ان المخبز ما زال عابقاً برائحة الخبز الطازج العذب ، ونشل فنسنت بعض الماء من البئر العميقة المغلقة في المطبخ ، وصبها من السطل إلى طاسة ،وذهب إلى الطابق العلوي ليأتي بصابونه ومرآته . وثبت المرآة بالجدار ثم نظر إلى وجهه . وحقاً ، كان حدسه صائباً . فهو لم ينزع في بيت فيرني إلا نسبة قليلة من غبار الفحم . وها هي

رموش عينيه وها هما فكاه في لون السواد . وابتسم في نفسه وهو يتخيل كيف انه دشن المعبد الجديد ووجهه ملىء بغبار الفحم ، وأي رعب سيصيب والده وعمه ستريكر لو شاهداه على ذلك الحال .

غمر يديه في الماء البارد ، وأدار قطعة الصابون التي أحضرها معه من بروكسل حتى صعدت الرغوة ، وأوشك أن يدعك بها وجهه بنشاط ، وإذا بفكرة تطرأ في عقله . فجمدت يداه في منتصف المسافة . ونظر إلى المرآة مرة أخرى ورأى غبار الفحم الترابة في خطوط جبينه وعلى رموش عينيه وأسفل جانبي خديه ، وفوق الكرة الضخمة التي تشكل ذقنه .

فقال بصوت مرتفع « لا عجب ! هذا ما جعلهم يقبلونني . فقد صرت واحداً منهم في نهاية الأمر » .

فرك يديه بالماء ، ومضى إلى سريره دون أن يمس وجهه . ودأب في كل يوم من أيام اقامته في البوريناج على مسح وجهه بغبار الفحم لكي يستوي في مظهره مع جميع الآخرين .

— ١١ —

استيقظ فنسنت في الثانية والنصف ، وأكل قطعة من الخبز الجاف في مطبخ دينيس ، وقابل جاك أمام الباب في الثالثة إلا ربعاً . كانت السماء قد اثلجت بكثافة خلال الليل . فانطمست معالم الطريق المؤدي إلى منجم ماركاس . وبينما هما يذرعان الحقل نحو المداخن السوداء وجبل الترابة ، شاهد فنسنت عمال المناجم يهرعون نحو الثلج من جميع الاتجاهات كأنهم كائنات صغيرة سوداء مسرعة إلى عشها . كانت البرودة قارسة ،

والعمال يضمون معاطفهم السوداء الرقيقة حول ذقونهم ، ويحنون اكتافهم نحو الامام طلباً للدفء .

صحبه جاك في البداية إلى غرفة علقت فيها الكثير من مصابيح الكاز على حوامل تحمل ارقاماً . وقال جاك « في حال وقوع حادث في الأسفل ، فاننا نعرف بواسطة المصابيح المفقودة من هم العمال الذين شملهم الحادث . »

كان العمال يتناولون مصابيحهم ويهرعون على جناح السرعة ، مخترقين ساحة مغطاة بالثلج ، نحو بناية قرميدية تحتوي على الرافعة . وتبعهم فنسنت وجاك . وكان قفص الهبوط مؤلفاً من ست مقاصير بعضها فوق بعض ، تستخدم في رفع شحنات الفحم إلى السطح . وبالكاد تتسع المقصرة في هبوطها لجلوس رجلين على نحو مريح ، وهما في وضع القرفصاء فوق اليتيهما . غير ان الحاصل ان كلا من هذه المقاصير حشر فيها خمسة عمال كأنهم أكوام من الفحم .

لكن لما كان جاك يتمتع بوصف مراقب عمال ، فقد ركب وفنسنت وواحد من المساعدين فقط في المقصورة العليا . وجثموا مزدحمين وقد احنوا هاماتهم ، وانحشرت اصابع اقدامهم في الجوانب ، ورؤوسهم تلامس العارضة العلوية . وقال جاك « انتبه إلى وضع يديك امامك يا سيد فنسنت ، لان يديك اذا لمستا الجدار الجانبي ، فسوف تخسرهما . »

واعطيت الاشارة ، فاندفع القفص إلى اسفل ، على سكتيه الفولاذيتين ولم يكن حجم المسافة الحرة التي يتحرك فيها القفص هابطاً إلى اسفل ، يزيد عن حجم القفص نفسه الا ببعض اجزاء البوصة . واعترت فنسنت

ارتعاشة غير ارادية حين تجلى له ان الظلمة تقبع اسفل منه على امتداد نصف ميل ، وان اي خطأ قد يقع ، سيؤدي إلى دفنه حتى ازهاق روحه . ان ذلك نوع من الرعب الذي لم يعرفه من قبل ، فلم يسبق له ان انطلق كالصاروخ هابطاً في حمرة سوداء نحو المجهول السحيق . ومع انه على علم بان ليس هناك ما يخافه إلى هذا الحد ، اذ لم تحدث طوال الشهرين الماضيين اية حادثة ذات علاقة بالرافعة ، فان هذا الضوء الظلالي الذي يومض ثم يخبو في مصابيح الكاز لم يكن مما يعين على التفكير المنطقي .

وباح بما اعتراه من رعشة غريزية إلى جاك ، الذي ابتسم ابتسامة متعاطفة وقال« كل عامل منجم يستشعر ذلك . »

« فقال فنسنت : ولكن لابد انه يعتاده مع الوقت . »

واجاب جاك « لا ، ابداً ! فالشعور المستعصي بالفزع والخوف من هذا القفص ، يرافقهم حتى يوم مماتهم . »

وسأله فنسنت « وانت يا سيد ... »

واجاب « كنت ارتعد في داخلي ، مثلك تماماً ، على الرغم من انه مضى علي ثلاثة وثلاثون عاماً ، وانا امارس هذا الهبوط يومياً ! »

توقف القفص برهة على عمق ثلاثمائة وخمسين متراً — اي في منتصف المسافة — ثم اندفع من جديد إلى اسفل . ورأى فنسنت جداول من الماء تنز من جانب الحفرة ، فاصابته الرعد ثانية . وحينما نظر إلى اعلى،شاهد ضوء النهار في حجم نجم في السماء . وعلى عمق ستمائة وخمسين متراً ترجلوا من القفص ، في حين واصل العمال هبوطهم .

ووجد فنسنت نفسه في نفق عريض ذي سكاك محفورة في الصخر والصلصال . وظن انه سيتوغل في جحيم من الحرارة ، الا ان الممر كان بارداً على نحو مستطاب .

فصاح « ليس هذا رديئاً على الاطلاق يا سيد فيرني . »

ورد فيرني قائلاً « لا . ولكن الرجال لا يعملون عند هذا المستوى . فالمكامن هنا استنزفت منذ امد بعيد . ونحن هنا نحصل على تهوية من اعلى ، الا ان ذلك لا يفيد العمال الموجودين في الاسفل .

ساروا في النفق مسافة تقرب من ربع ميل . فالتفت جاك قائلاً « اتبعني يا سيد فنسنت ، ولكن رويداً رويداً ، لانك اذ انزلقت مرة واحدة القيت بنا للتهلكة . »

قال هذه العبارة واختفى في الارض امام عيني فنسنت . فتحسس فنسنت طريقه إلى الامام ، ووجد فتحة في الارض ، فجعل يتلمس السلم . وكان حجم الفتحة لا يتسع الا لهبوط رجل نحيف . على ان الامتار الخمسة الاولى لم تكن صعبة ، وانما تغير الامر تماماً في نقطة منتصف المسافة ، اذ بدأ الهبوط في الاتجاه العكسي . وبدأ الماء يقطر من الصخور ، اوحال الطين تغطي درجات السلم . واحس فنسنت بالماء ينصب على جسده .

وبعد قليل وصلوا إلى القاع ، وزحفوا على ايديهم وركبهم عبر ممر طويل قادهم إلى مخابىء بعيدة عن المخرج . هناك كان يمتد صف طويل من الخلايا ، كأنها قواطع في سرداب ، تسندها دعائم خشنة . وكان في كل خلية وحدة من خمسة عمال يعملون ، اثنان منهم يحضران

لاستخراج الفحم بواسطة معوليهما ، والثالث يجر الفحم من تحت اقدامهما ، والرابع يعبئه في عربات صغيرة ، اما الخامس فيجر العربات نازلاً بها إلى سكة ضيقة .

وقد ارتدى عاملا المعاول بدلتين خشنتين قذرتين من قماش الكتان . وكان عامل المجرفة ، وهو صبي يافع ، عارياً تماماً الا من مئزر من الخيش ، وقد تغطى جسده بالسواد البشع . اما العامل الذي يجر العربة على السكة الضيقة التي لا يزيد عرضها على ثلاثة اقدام فلم يكن الا بنتاً تصطبغ بالسواد كالرجال ، وترتدي ثوباً رثاً يغطي الجزء العلوي من جسدها . وكان الماء يقطر من خلال سطوح الخلايا ، فيشكل كهوفاً من الرواسب الكلسية المدلاة ، وليس ثمة ضوء الا النور الصادر عن مصابيح صغيرة انزلت فتائلها إلى ادنى ، بغية التوفير في استهلاك النفط . وما من تهوية للمكان . وكان الهواء ثقيلاً بسبب غبار الفحم . وكانت حرارة الارض الطبيعية تقيم لاجساد العمال حماماً من العرق الاسود الغزير . وشاهد فنسنت العمال في الخلايا الاولى يعملون بالمعاول وقوفاً على اقدامهم ، ولكن كلما سار إلى الامام عبر الممر ، ضاقت الخلايا إلى ان وجد العمال يعملون في وضع الاستلقاء على ظهورهم . ويحركون معاولهم من مفصل الكوع . وبتعاقب الساعات كانت حرارة اجساد العمال ترفع درجة حرارة الخلايا ، والهواء يزداد كثافة فيؤدي بالعمال إلى اللهاث ، وهم يعبون ملء افواههم سخاماً اسود ساخناً .

وقال جاك يحدث فنسنت « هؤلاء الرجال يتقاضون فرنكين ونصف فرنك في اليوم ، وذلك شريطة ان يوافق المفتش في مركز الفحص على

نوعية فحهم . وكانوا قبل خمسة اعوام يتقاضون ثلاثة فرنكات ، ولكن الاجور خفضت على مدى السنوات الماضية . »

وقام جاك بالتفتيش على الدعامات الخشبية التي تحول بين العمال وخطر الموت ، ثم التفت إلى عمال المعاول .

وقال لهم « ان وضع دعاماتكم سيء ، فهي مرتخية . واول خطر كما تعلمون هو خطر هبوط السقف . »

واطلق واحد من عمال المعاول ، وهو رئيس المجموعة ، وابلاً من الشتائم ، بلهجة سريعة ، لم يستطع فنسنت ان يلتقط الا كلمات معدودة منها .

كان الرجل يصيح « اذا دفعوا لنا مقابل تثبيت الدعائم قمنا بتثبيتها ، اما اذا شغلنا انفسنا بها فكيف نستخرج الفحم ؟ وانه ليستوي لدينا ان نموت هنا بسبب الانهيارات او نموت في البيت جوعاً . »

وبعد الحلية الاخيرة ، صادفا حفرة اخرى في الارض ، دون ان يكون هناك حتى سلم للهبوط عليه ، وانما استعيض عن السلم بجذوع شجر مثبتة على مسافات متباعدة ، لكي تمنع التراب من ، الانهيار إلى اسفل ومن دفن العمال هناك . ومد جاك يده فاخذ مصباح فنسنت منه ، وعلقه في حزامه ، وقال « على مهلك يا سيد فنسنت » « كرر قائلاً » احذر ان تدوس على رأسي ، والا اسقطتني وانسحقت . »

ثم نزلا إلى اسفل مسافة خمسة امتار أخرى ، وذلك باسلوب تحسس الجذع بالقدم في العتمة ، مع التشبث بالتراب على الجانبين ، خوفا من السقوط .

كان هناك مكمن آخر عند هذا المستوى التالي ، ولكن للعمال في هذه الورشة ، لا يجدون خلايا ليعملوا فيها ، وانما هم يستخرجون الفحم بانتزاعه من زاوية ضيقة في الجدار ، فكان الرجال راكعين على ركبهم ، وقد انحشرت ظهورهم تحت ضغط سطح الصخور ، وهم يضربون بمعاولهم في الزاوية التي يؤخذ منها الفحم . وهنا تبين لفنسنت ان الخلايا في الاعلى كانت رطبة ومريحة . فالحرارة في هذا العمق الادنى كانت اشبه بحرارة فرن ملتهب . وكان الرجال العاملون في هذا الموقع يلهثون كأنهم حيوانات مصابة بطلقة نارية ، وقد تدلت السنتهم جافة متيبسة ، واكتست أجسادهم العارية بطبقة لصيقة من القذر والسخام والغبار . وشعر فنسنت ، على الرغم من انه لم يكن يقوم باي عمل ، انه لا يستطيع احتمال الحرارة الوحشية والغبار ، ولو دقيقة واحدة . اما العمال فانهم يقومون بعمل يدوي شاق ، ويعانون أكثر مما يعاني الف مرة ، ومع ذلك فانهم لا يستطيعون ان يتوقفوا للراحة او الابتراد ، ولو دقيقة واحدة . لأنهم اذا فعلوا فلن يستخرجوا العدد المطلوب من عربات الفحم ولن يحصلوا على خمسين سنتاً مقابل عمل اليوم .

زحف فنسنت وجاك على ايديهما وركبهما عبر الممر الذي يربط بين هذه الخلايا الشبيهة بخلايا النحل . وبين الحين والآخر كانا يزدادان التصاقاً بالحائط ، لكي تمر عربة من العربات على السكك الضيقة . وكان الممر في هذا الموقع أضيق من الممر في الطابق الذي يعلوه . وكانت البنات اللواتي يدفعن العربات أصغر من لداتهن في الطابق الأعلى ، ولا يزيد عمر الفتاة هنا عن عشر سنوات . وكانت عربات الفحم ثقيلة ، ولا بد للفتيات من جهد لدفعها على السكك .

وفي نهاية الممر كان هناك لوح معدني مائل تهبط عليه العربات وقد شدت إلى أسلاك . وقال جاك تعال يا سيد فنسنت ، سآخذك إلى الطابق الأخير على عمق سبعمائة متر ، وسوف ترى شيئاً لا مثيل له في أي مكان آخر من العالم ! »

انزلقا معاً على المنحدر المعدني مسافة ثلاثين متراً ، ثم وجد فنسنت نفسه في نفق واسع تمتد فيه سكتان . وسارا في هذا النفق حوالي نصف ميل ، حتى وصلا إلى نهايته ، وهناك صعدا إلى افريز ،وزحفا خلال معبر اتصال ، ثم خفضا هامتيهما نحو الجانب الآخر ، إلى حفرة حفرت حديثاً . وقال جاك « هذا مكمن جديد . والمكمن الجديد هو أصعب ما يمكن الحصول منه على الفحم في العالم كله ! »

هناك وصلا إلى سلسلة من الحفر . دس جاك جسده في احداها وصاح « اتبعني . » ولم يكن اتساع الفتحة يزيد على عرض كتفي فنسنت . فاندس فيها وزحف على معدته كالأفعى ، وهو يشق طريقه بأظافر يديه وأصابع قدميه ، وعجز عن رؤية حذاء جاك على مسافة ثلاث بوصات أمامه . وكان ارتفاع هذا النفق في الصخر لا يزيد على قدم ونصف قدم ، وعرضه قدمان ونصف قدم . وكانت الفجوة التي بدأ النفق منها خالية تقريباً من الهواء المتجدد . إلا أنها كانت باردة بالقياس إلى هذا الجحر .

وفي نهاية الزحف نفذ فنسنت إلى تجويف يشبه القبة الصغيرة ، لا يكاد طوله يبلغ طول الرجل واقفاً . وكان المكان فاحم الظلمة ، فلم ير فنسنت شيئاً من حوله . ثم لاحظ اربع ومضات في الجدار . وكان العرق يتصبب من جسده ، وأدى العرق المنهمر من جفنية إلى ادخال غبار الفحم في عينيه ،

فأصابهما ألم فظيع . ووقف فنسنت متعطشاً لنسمة هواء ترد اليه الروح بعد زحفه الطويل على بطنه . فاذا به يتنفس ناراً ملتهبه، سالت داخل رئتيه فأحرقته وعذبته . كانت تلك هي أسوأ الحفر في منجم ماركاس ، وهي أقرب إلى غرفة من غرف التعذيب المأثورة عن القرون الوسطى .

وصاح صوت مألوف « انظر ، انظر ! هذا هو السيد فنسنت . هل جئت يا سيد إلى هنا لكي ترى كيف نكسب الخمسين سنتاً في اليوم ؟ »

اتجه جاك سريعاً إلى المصابيح للتفتيش عليها . وكان قوس الزرقة يأكل الضوء .

وهمس ديكراك في اذن فنسنت ، وسواد عينيه يلتمع « ما كان ينبغي أن ينزل إلى هنا ! إنه سيصاب بالاختناق في ذلك النفق ، ونضطر إلى سحبه بواسطة بكرة وخطاف . »

ودعاه جاك منادياً « ديكراك . هل كانت هذه المصابيح مشتعلة على هذا النحو منذ الصباح ؟ »

فأجاب ديكراك بلا مبالاة « نعم . وذلك الغاز يزداد يوماً بعد يوم. سينفجر ذات مرة ، فتنتهي متاعبنا كلها . »

وقال جاك « لقد سبق تفريغ هذه الخلايا من الغاز يوم الأحد الماضي»

فقال ديكراك وهو يحك البقعة السوداء العارية في جلدة رأسه ، مع شيء من المتعة « ولكنه يعود انه يعود . »

« لابد اذن ان ترتاحوا يوماً خلال هذا الاسبوع ، وتدعونا ننظفه من جديد . »

وثارت ثائرة عمال المنجم « نحن لا نملك الخبز الكافي لأطفالنا ! ومن المستحيل أن يعيش المرء على الأجر الذي يتقاضاه ، فما بالك اذا فقدنا أجر يوم كامل ! فلينظفوا الغاز في وقت غيابنا ، فاننا نريد أن نأكل كسائر الخلق . »

وضحك ديكراك قائلاً « بسيطة . المناجل لا تستطيع أن تقتلني ، فقد حاولت ذلك من قبل . سأموت على فراشي بسبب الشيخوخة . وبمناسبة الحديث عن العام ، كم الساعة الآن يا فيرني ؟ »

ورفع جاك ساعته قرب الضوء الأزرق قائلاً « إنها التاسعة . »

« مليح . يمكننا أن نتلوك غداءنا . »

توقفت الأجساد السوداء الناضحة بالعرق ، ذات محاجر العيون البيضاء عن العمل ، وجثمت تتناول طعامها مسندة مؤخراتها إلى الحائط بعد أن أخرجت طعامها من صندوق العدة . ولم يكن في مقدورهم أن يزحفوا إلى الحفرة التي تتمتع بقدر يسير من البرودة ، وذلك لأنهم حددوا لأنفسهم خمس عشرة دقيقة فقط لاستراحة الغداء . وهي البرهة التي يستغرقها الزحف في النفق ذهاباً وإياباً . وهكذا اقعوا في تلك الحرارة الراكدة وتناول كل منهم قطعتين من الخبز اليابس التخين مع شيء من الجبن الحامض ، وأكلوا بنهم . وكان السخام الأسود يسقط من ايديهم بكميات كبيرة فوق الخبز الأبيض . وكل منهم يصب على الخبز شيئاً من القهوة الفاترة الموضوعة في زجاجة من زجاجات البيرة ، فيغتسل الخبز بالقهوة . وهكذا كانت القهوة والخبز والجبن الحامض هي المكافأة التي يعملون لأجلها ثلاث عشرة ساعة في اليوم .

لقد مضت ست ساعات على وجود فنسنت أسفل المنجم . وكان يحس بالإغماء جراء نقص الهواء ، ويغص بالغبار والحرارة . وخيل إليه أنه لم يعد قادراً على الصمود في مواجهة هذا العذاب دقائق أطول . ولذا فقد سره أن يقول جاك ان عليهما ان يرحلا .

وقبل أن ينحشر جاك في الفجوة قال « انتبه للملك الغاز يا ديكراك . وإذا ساء حاله فمن الأفضل أن تصعد بعصابتك إلى أعلى . »

فضحك ديكراك بخشونة قائلاً « وهل سيدفعون لنا الخمسين سنتاً ، أجرنا اليومي ، اذا لم نستخرج الفحم ؟ » .

لم يحر أحد جواباً على هذا السؤال ، فالجواب معلوم لدى ديكراك كما هو معلوم لدى جاك . وهز الأخير كتفية استنكاراً ، وزحف على بطنه داخل النفق . وتبعه فنسنت وهو أعمى تماماً بفعل العرق الأسود الذي يحرق عينيه .

وسارا مدة نصف ساعة حتى وصلا إلى المنور ، حيث كان القفص يحمل الفحم والرجال إلى السطح . وانعطف جاك نحو كهف في الصخر ، وسعل هناك وبصق بصاقاً أسود .

وحين استقرا في القفص وانطاق بهما كأنهما سطل مسحوب من قرارة بئر . التفت فنسنت إلى صديقه قائلاً « قل لي يا سيد؟ لماذا يواصل الناس ، أعني أنتم ، النزول إلى المناجم ؟ لماذا لا تغادرون جميعاً إلى مكان آخر ، وتعثرون على وظيفة أخرى ؟ »

« آه يا عزيزي السيد فنسنت . ليس لنا من وظيفة أخرى . ونحن لا نستطيع أن نغادر لأننا لا نملك نقوداً للسفر . وما من عائلة من عائلات

العمال في البوريناج بأسره ، تملك عشرة بنسات فائضة من نفقتها . ولكن هب أن في مقدورنا أن نغادر ، فاننا لن نفعل ، لأننا لا نريد . ان البحار يعرف أن جميع صنوف الخطر تترصده في سفينة ، وهو مع ذلك ما ان يرسو على الشاطىء حتى يجتاحه الحنين إلى البحر . وذلك هو شأننا يا سيدي . اننا نحب مناجمنا ، ونفضل أن نكون في الأسفل على أن نكون في الأعلى . غير أن كل ما نطلبه هو أجر يقيم الأود ، وساعات عمل عادلة ، وتأمين من الخطر . »

بلغ القفص سطح الأرض . ومشى فنسنت في الساحة المغطاة بالثلج وقد أعشاه ضوء الشمس الواهن وشاهد وجهه في مرآة غرفة الغسيل أسود فاحماً ، فلم يصطبر حتى يغتسل ، وإنما اندفع نحو الحقل ، في غير وعيه الكامل ، مستنشقاً الهواء النقي ، متسائلاً بينه وبين نفسه هل أصابته الحمى البلهاء فجأة ، وهل هو يعاني كابوساً من الكوابيس . ان من المؤكد ان الرب لا يسمح بأن يعمل أطفاله في مثل هذه العبودية المقيته ، ومن المؤكد أن ما شاهده لم يكن إلا حلماً من الأحلام .

ومر من أمام بيت آل دينيس ، البيت المترف ، الميسور بالقياس إلى الآخرين ، فتجاوزه دونما تفكير وراح يخبط في الممرات القذرة الهابطة في التل ، قاصداً كوخ ديكراك . وطرق الباب فلم يجبه أحد في الحال . وبعد قليل خرج اليه الولد ذو الأعوام الستة . وتأمله فرآه شاحباً ضعيف الدم معوق النمو . إلا أن فيه شيئاً من شجاعة ديكراك وقتاليته . ولن يمر عامان آخران حتى وينزل إلى ماركاس كل صباح في الثالثة ليجمع الفحم كي تحمله العربات .

قال الولد بصوت رفيع عال « أمي ذهبت إلى الترابة ، وأنا موكل برعاية الأطفال ، فعليك أن تنتظر يا سيد فنسنت . »

كان طفلا ديكراك يلعبان ببعض الأعواد وقطعة سلاك ، عاريين إلا من قميصين ضئيلين . وقد ازرقت بشرتهما من البرد . وكان الصبي الأكبر يلقم الموقد شيئاً من الترابة ، ولكنها لم تمنح إلا القليل الشحيح من الدفء تأملهما فنسنت وارتعد . ثم حملهما إلى السرير وغطاهما حتى العنق . وما كان يدري لماذا جاء إلى هذا الكوخ البائس . فكل ما يحس به هو أنه ينبغي ان يفعل شيئاً . . ان يقول شيئاً لعائلة ديكراك . . ان يعينهم بأية طريقة . وينبغي أن يعلموا أنه يفهم على الأقل مبلغ البؤس الذي يحيونه كاملاً .

عادت مدام ديكراك إلى البيت ، بوجه مسود ويدين مسودتين . ولم تتعرف على فنسنت في بداية الأمر ، بسبب قذارته . ثم ركضت إلى الصندوق الصغير الذي يحتوي على مؤنها ، ووضعت قليلاً من القهوة فوق الموقد. وحينما ناولته الفنجان وجد القهوة السوداء مرة خشبية ابرد من أن تكون فاترة ، ولكنه شربها لكي تسر المرأة الطيبة .

وتشكت اليه قائلة: الترابة في هذه الأيام رديئة يا سيد فنسنت ، فالشركة لاتدع فيها شيئاً، ولومثقال ذرة . ولا أدري كيف أدفىء الأطفال . وليس لدي ملابس البسهم اياها ، غير هذه القمصان الصغيرة وبعض الخيش . ان الخيش يقرح جلودهم ويخمش بشرتهم . واذا انا أبقيتهم في السرير طيلة النهار فكيف لأجسادهم أن تنمو ؟ »

وشرق فنسنت بدمع مكتوم ، ولم يستطع أن ينطق بكلمة . انه لم

يشهد في حياته مثل هذا البؤس الشخصي المذل . وتساءل بينه وبين نفسه للمرة الأولى حول جدوى الصلاة والانجيل بالنسبة لهذه المرأة ، عندما يتجمد أطفالها حتى الموت . وأين هو الرب من هذا كله ؟ وكان في جيبه فرنكات معدودة ، فأعطاها إلى مدام ديكراك .

وقال « أرجو أن تشتري للأطفال سراويل داخلية من الصوف .

كانت تلك المبادرة منه ، شيئاً تافه الجدوى . فثمة مئات من الأطفال الآخرين الذين يتجمدون في البوريناج . كما أن اطفال ديكراك سوف » يتجمدون ثانية حالما تبلى سراويلهم الجديدة .

سار صعداً إلى منزل دينيس . فوجد مطبخ الفرن دافئاً مريحاً .وقامت مدام دينيس بتسخين ماء لاغتساله ، وجهزت وجبة طيبة من لحم الأرنب الفائض من الليلة الماضية . ورأت انه متعب مستثار الحساسية جراء التجربة التي تعرض لها ، ولذلك نفحته بقليل من الزبد إلى جانب الخبز .

صعد فنسنت إلى غرفته ، هاهي معدته دافئة مليئة ، و هاالسرير وثير مريح ،وها هي الملاءات ، نظيفة والوسادة داخل كيس أبيض.وعلى الجدران ها هي رسوم سادة الفن في العالم . ثم إنه فتح الخزانة الصغيرة ونشر صفوف القمصان والملابس الداخلية والجوارب والصدريات . وفتح خزانة الثياب ونظر إلى زوجي الأحذية الاضافيين ، وإلى معطفه الدافىء وإلى البذلات المعلقة هناك . ولقد تبين له أخيراً أنه كذاب جبان. ذلك أنه يعظ عمال المناجم بفضائل الفقر ، في حين يعيش في راحة وبحبوحة . وما هو إلا منافق متلاعب بالألفاظ . وما عقيدته إلا محض هراء ، وانه لجدير بالعمال ان يحتقروه ويطردوه من البوريناج ، لأنه

يتظاهر باقتسام أعبائهم ، في حين يتمتع بالملابس الجميلة الدافئة ، وبسرير مريح ، ويأكل في الوجبة الواحدة ما لا يأكله عمال المناجم في اسبوع . بل إنه يحصل على هذا اليسر وهذه الفخفخة دون عمل يقوم به . وحسبه انه يدور ليتكلم بالأكاذيب الفصيحة متخذاً سمات الرجل الصالح — وإنه لجدير بالبورنيين أن لا يصدقوا كلمة مما يقول ، وان لا يحضروا المواعظ التي يلقيها ، ولا يقبلوا قيادته لها . ان حياته السهلة تكذب كلماته. وها هو يسجل فشلاً جديداً ، أشد بوساً من أي فشل سابق !

لم يبق أمامه الآن إلا خياران ، إما أن يغادر البوريناج راكضاً تحت ستار الليل ، قبل أن يكتشفوا أي كلب كذاب ضعيف أمام الشهوات كان ، أو أن يستفيد من المعرفة التي رآها بأم عينه في ذلك اليوم ، ويصبح رجلاً مكرساً للرب حقاً .

سرعان ما أخرج الملابس جميعها من الخزانة الصغيرة ووضعها في حقيبته . ثم وضع فيها البدلات والأحذية والكتب والرسوم ، ثم أغلق الحقيبة . وتركها فوق الكرسي مؤقتاً ، وركض بنشاط خارجاً من الباب الأمامي .

كان في قاع الوادي جدول صغير ، تقع وراءه غابة الصنوبر التي يبدأ منها المرتقى إلى الشطر الآخر للوادي . وفي تلك الغابة كانت تتناثر بعض أكواخ العمال التي عثر فنسنت بينها ، بعد شيء من البحث على كوخ غير مأهول . وكان الكوخ مقاماً فوق أرض شديدة الانحدار ، مصنوعاً من ألواخ خشبية ، ولا شباك له . أما أرضيته فهي التراب الأصلي الذي صار ممهداً لطول الاستعمال . وعندما تذوب الثلوج كان الماء

ينفذ من أسفل الألواح القائمة في الجانب الأعلى . وكان السقف مستنداً إلى أرض خشبية خشنة ، ونظراً لعدم استخدام الكوخ طيلة الشتاء فقد كانت الشقوق والثقوب بين الألواح تدخل هبات ثلجية من الهواء داخل الكوخ .

وسأل فنسنت المرأة التي دلته على الكوخ « من مالك هذا المكان ؟»

« احد رجال الاعمال في وازمس . »

« هل تعرفين قيمة اجرته ؟ »

« خمسة فرنكات في الشهر . »

« حسن جداً . سآخذه . »

« ولكنك يا سيد فنسنت لا تستطيع ان تعيش هنا . »

« ولم لا ؟ »

« لانه ..لانه..مكانحقير. بل انه اسوأ من كوخي انا. وهو اسوأ الاكواخ في بيتي وازمس كلها ! »

« لهذا السبب اريده . »

صعد التل ثانية . وقد دفق قلبه بشعور جديد من السلام . وكانت مدام دينيس قد صعدت اثناء غيابه إلى غرفته لبعض شأنها، وشاهدت حقيبته المجهزة للرحيل .

فلما وصل إلى المنزل صاحت « سيد فنسنت . ما الذي حدث ؟ ولماذا انت عائد إلى هولندا فجأة على هذا النحو ؟ »

« لن اسافر بعيداً يا مدام دينيس . انني باق في البوريناج . »

وحل على وجهها تعبير حائر وتساءلت « لماذا اذن .. ؟ »

وشرح لها فنسنت ما تجهل ، فقالت برقة « صدقني يا سيد فنسنت ، انت لا تستطيع ان تعيش تلك العيشة ، لانك لم تعتدها . والامور تغيرت منذ يسوع المسيح . وعلينا في هذه الايام ان نحيا كافضل ما يمكننا . وان الناس يعرفون من واقع عملك انك انسان طيب . »

الا ان فنسنت ما كان ليتزحزح عن عزمه . فذهب إلى وازمس لمقابلة التاجر ، واستأجر منه الكوخ ، وانتقل اليه . وعندما وصل اليه الشيك بقيمة خمسين فرنكاً ، هي راتبه الاول ، اشترى لنفسه سريراً خشبياً صغيراً ، وموقداً مستعملاً . وتبقت له بعد هذه النفقات فرنكات معدودة لشراء الخبز والجبن الحامض والقهوة طوال الشهر . وقام بعزق ركام من الطين خلف الحائط المرتفع لمنع الماء من التسلل إلى الكوخ ، كما حشا الشقوق والثقوب بقطع الخيش . وهكذا اقام في منزل على طراز منازل عمال المنجم سواء بسواء ، وأكل طعاماً على غرار طعامهم ، ونام في سرير يماثل اسرتهم ، واصبح واحداً منهم . وبذلك اكتسب الحق في ان يحمل اليهم كلمة الرب .

— ١٢ —

عندما توجه فنسنت بغرض مقابلة مدير شركة المناجم البلجيكية التي تسيطر على اربعة مناجم في منطقة وازمس ، كان يظن انه سيلقى وحشاً كاسراً ، ولكن الرجل وان كان والحق يقال على شيء من البدانة فانه كان ذا عينين عطوفتين حنونتين ، وذا طابع في التصرف يدل على انه مر في حياته ببعض العناء .

واستمع إلى فنسنت ، يقص عليه قصة المحنة التي يمر بها عمال المناجم ، فاحسن الاستماع ثم قال « انا اعرف يا سيد فان جوخ ، فهي قصة قديمة . ان الرجال يحسبون اننا نعمل على تجويعهم حتى الموت ، بغية حصولنا على مزيد من الارباح . ولكن صدقني يا سيد ، ان هذا الظن هو ابعد الاشياء عن الحقيقة . وهنا دعني اعرض امام ناظريك بعض الرسوم البيانية الصادرة عن المكتب الدولي للمناجم في باريس .

طرح على الطاولة لوحة بيانية كبيرة . واشار باصبعه إلى خط ازرق في ادناها .

وقال « انظر يا سيد . ان مناجم الفحم البلجيكية هي افقر المناجم في العالم . ونحن نجد صعوبة كبيرة في الوصول اليه ، لدرجة انه يكاد يستحيل علينا بيعه في السوق الحرة مع تحقيق ربح . ان نفقاتنا الانتاجية اعلى من نفقات جميع مناجم الفحم في اوروبا ، وارباحنا هي اقل الارباح ! لاننا ، كما تلاحظ ، ينبغي ان نبيع فحمنا بالسعر نفسه الذي نبيع به المناجم ذات الكلفة الانتاجية الادنى للطن الواحد . اننا على حافة الافلاس في كل يوم من حياتنا . هل انت متابع ما اقول ؟ »

« اعتقد انني متابع . »

« واذا نحن دفعنا لعمال المناجم فرنكاً زائداً واحداً ، فسوف تزداد تكلفة انتاج الفحم فوق سعر السوق . ويتحتم علينا ، تبعاً لذلك ، ان نغلق الشركة ، وحينها يموت العمال حقاً من الجوع » .

« الا يمكن للمالكين ان يتقاضوا ارباحاً ادنى قليلاً مما يتقاضونه حالياً ، وبذلك تتوفر زيادة للعمال ؟ »

هز المدير رأسه باسي « لا يا سيد . لان ما يسير مناجم الفحم ، كما تعلم ، هو رأس المال ، كما هو شأن جميع الصناعات الاخرى . ورأس المال ينتظر عائدات من وراء الاستثمار ، والاتحول نحو مجال آخر ! وليكن في علمنا ان اسهم شركة المناجم البلجيكية لا تعطي في الوقت الحاضر ايراداً الا بنسبة ثلاثة بالمائة . فاذا خفضت بنسبة نصف في المائة قام المالكون بسحب اموالهم . ويتحتم علينا في تلك الحالة ان نغلق مناجمنا ، لاننا لا نستطيع ان نعمل بدون رأس مال ، وهكذا ترى ان النتيجة ستكون تضور العمال جوعاً . ومن هذا العرض يتبين لك ان هذه الاوضاع المفزعة في البوريناج ليست من صنع المالكين ولا المديرين . فالمشكلة هي مشكلة توضع مكامن الفحم . وما من احد يمكن لومه لهذا التوضع ، حسب رأيي ، غير المشيئة . »

كان فنسنت حرياً ان يصاب بصدمة في مواجهة هذا التجديف . ولكنه لم يصب ، وانما راح يفكر فيما قاله المدير .

« ولكنكم تستطيعون ان تفعلوا شيئاً على الاقل في موضوع ساعات العمل . ذلك ان ثلاث عشرة ساعة في اليوم ، هناك تحت الارض ، هي مدة كفيلة بقتل قريتكم كلها ! »

« لا يا سيد ، ليس في وسعنا تخفيض ساعات العمل ، لان ذلك يستوي مع رفع اجورهم . ولان معناه ، ان يتقاضوا الخمسين سنتاً مقابل استخراج فحم اقل . وهكذا تزداد بالتالي كلفة انتاجنا للطن الواحد . »

« هناك شيء واحد يمكن تحسينه حتماً . »

« اتعني «مسألة شروط العمل المحفوفة بالخطر ؟ »

« نعم . انكم تستطيعون على الاقل ان تقللوا عدد الحوادث والوفيات في المناجم . »

هز المدير رأسه متذرعاً بالصبر وقال « لا يا سيد . لا يسعنا أن نفعل . فنحن لا نستطيع بيع اسهم جديدة في السوق ، لان عائداتنا منخفضة جداً . وليس لدينا فائض او ربح يمكن استثماره في تحسينات – آه يا سيد ، انها دائرة قاسية ميؤوس منها . ولطالما درت حولها عدة آلاف من المرات . وكانت النتيجة انني انقلبت من انسان كاثوليكي مؤمن إلى ملحد مرير .

لم يجد فنسنت ما يقوله . فسار إلى البيت مذهولاً .

– ١٣ –

كان شهر شباط فبراير اقسى شهور العام . فقد زحفت رياح عاتية عبر الوادي وفوق التل . جعلت من شبه المستحيل ان يسير الانسان في الشوارع . واصبحت اكواخ العمال احوج للتدفئة من حاجتها في اي شهر آخر ، من اجل التدفئة ، الا ان الرياح الثلجية بلغت من الضراوة حداً لم تعد معه النساء قادرات على الذهاب إلى الجبل الاسود للبحث عن بقايا الفحم . ولم يكن لديهم من الملابس غير القمصان الخشنة والبلوزات والجوارب القطنية والمناديل التي تقيهم لذعة البرد .

وكان لابد لحماية الاطفال من التجمد من ابقائهم في فراشهم

يوماً بعد يوم . وقد تعذر طبخ اي طعام ساخن ، بسبب فقدان الفحم لتشغيل الموقد . اما الرجال فكانوا يخرجون من الحرارة التي تقرح الجلد في اسفل الارض ، إلى البرودة دون درجة الصفر على السطح ، دون ان يمروا بدقيقة استعداد لهذه النقلة ، ثم يجهدون في سيرهم إلى البيوت عبر الحقل المغطى بالثلج ، بينما الريح تجرح الوجوه . وتوالت الوفيات بسبب السل والنزلات الرئوية في كل يوم من ايام الاسبوع . وأقام فنسنت جنازات وقداديس عديدة في ذلك الشهر .

ولقد توقف عن محاولة تعليم الاطفال القراءة وهم زرق الوجوه برداً ، وانفق اوقاته فوق جبل ماركاس يجمع ما يقدر عليه من الفحم ، مهما كان قليلاً ، لتوزيعه على اكثر اكواخ العمال بؤساً . ولم يعد بحاجة في هذه الايام إلى دعك وجهه بغبار الفحم ، لان هذه العلامة التي هي علامة عمال المناجم ، كانت على وجهه كل يوم . ولا يمكن للغريب القادم إلى بيتي وازمس الا ان يقول عنه « انه واحد من ذوي الفلك الاسود . »

وكان يعمل صعوداً وهبوطاً فوق هرم الترابة ، حتى افلح في ملء نصف حقيبته تقريباً ، بعد ان تمزقت يداه بفعل الصخر المغطى بالثلج ، قرر ان يستبق الساعة الرابعة قليلاً . فيحمل ما جمعه إلى القرية ، ليصبح في امكان زوجات معدودات على الاقل ان يهيئن قهوة ساخنة لازواجهن . وسار حتى وصل إلى بوابة ماركاس ، في اللحظة ذاتها التي تدفق فيها العمال خارجين من البوابة ... وقد تعرف بعضهم إلى سحنته ، وتمتموا بالتحية ،ولكن الباقين مضوا في طريقهم ،

وايديهم في جيوبهم ، واكتافهم محنية إلى الامام ، وعيونهم لا ترتفع عن الارض .

وكان آخر الخارجين من البوابة رجلاً عجوزاً ضئيلاً ، ذا سعال فظيع يزعزع جميع حنايا جسده إلى الحد الذي لا يكاد يستطيع معه ان يسير . كانت ركبتاه ترتجفان ، فاذا ضربته الريح المتجمدة القادمة من الحقول المغطاة بالثلج ترنح . كأنما من ضربة قاضية . وسقط على وجهه تقريباً فوق الثلج . ثم كان يستجمع شجاعته بعد لحظة ، ويبدأ في مواصلة الطريق ببطء ، وقد اعطى عصفة الريح جانب جسده . وكان يربط حول كتفيه قطعة من كيس خيش حصل عليها بطريقة ما من احد المخازن في وازمس ولاحظ فنسنت كلمة مطبوعة عليها ، فركز بصره كي يقرأ تلك الكلمة ويتهجأ حروفها . واذا بها كلمة « قابل للكسر » .

قام فنسنت بتوزيع حمولته من الترابة على اكواخ العمال ، ثم ذهب إلى كوخه ، فاخرج جميع ملابسه وفردها على السرير . واحصى ما لديه فاذا به خمسة قمصان ، وثلاثة اطقم من الملابس الداخلية ، واربعة ازواج من الجوارب . وزوجان من الاحذية ، وبدلتان ، ومعطف عسكري فائض عن حاجته . فاستبقى لنفسه فوق السرير قميصاً واحداً ، وزوجاً من الجوارب ، وطقماً من الملابس الداخلية ، وحمل بقية الملابس في الحقيبة .

ثم انه ذهب بها فاعطى بدلة للرجل العجوز الذي شاهد على ظهره عبارة « قابل للكسر » . واعطى الملابس الداخلية والقمصان للاطفال لتصنع منها الامهات ملابس داخلية لهم . ووزع الجوارب على عمال

مرضى بالسل ممن ينزلون إلى ماركاس . واعطى المعطف الدافئ لامرأة حامل توفي زوجها قبل ايام قلائل في حادث انهيار بالمنجم ، وحلت محله في العمل لتعول طفليها .

وقام فنسنت باغلاق صالون الاطفال ، وذلك كيلا يحرم الزوجات من الترابة التي يجمعها ، لا سيما ان العائلات باتت تتجنب بلل اقدامها بالثلج نصف الذائب . وراح فنسنت يقيم صلوات مختصرة في كل كوخ ، اثناء الجولات التي يقوم بها . ووجد من الضروري ، مع مرور الوقت ، ان يكرس نفسه للواجبات العملية ، من تمريض ، وغسيل ، وتدليك ، واعداد مشروبات ساخنة وادوية . وفي النهاية ترك انجيله في البيت ، لانه لم يكن يجد وقتاً لفتحه .

خفت وطأة البرد قليلاً في آذار مارس ، ولكن الحمى جثمت مكان البرد . وقد انفق فنسنت مبلغ اربعين فرنكاً من راتب شهر شباط فبراير لشراء الطعام والادوية للمرضى ، تاركاً لنفسه قدراً من المؤن التي لا تغني من جوع . وازداد نحافة بسبب قلة الطعام ، كما ازدادت اطواره توتراً وعصبية . واستنزف البرد حيويته ، وبدأ يحس بالحمى اينما ذهب . وغدت عيناه حفرتين ناريتين في محجريهما ، وبدا كأن رأسه الكبير الموروث عن آل فان جوخ اخذ يتقلص . وظهرت في خديه وتحت عينيه الفجوات ، غير ان ذقنه ظلت بارزة ثابتة كعهدها .

واصيب اكبر اطفال ديكراك بمرض التيفوئيد ، فاصبح الوضع صعباً في فراش الاسرة . اذ لم يكن لديهم الا سريران ، يشغل احدهما الاب والام ، ويشغل الآخر الاطفال . فلو بقي الطفلان في السرير

ذاته مع اخيهما ، فقد يلتقطان العدوى ، واذا وضعا على الارض فقد يصابان بنزلة رئوية . واذا نام الوالدن على الارض اصبحا عاجزين عن مزاولة اعمالهما في الصباح التالي . ولذلك عرف فنسنت على الفور ما ينبغي له ان يفعل .

جاء إلى ديكراك عند عودته من العمل ، وقال « ديكراك ، هل تساعدني برهة قصيرة ، قبل ان تجلس لتناول عشائك ؟ »

كان ديكراك تعباً متوجعاً من النقرة في فروة رأسه ، ولكنه تبع فنسنت دون سؤال ، وهو يجر ساقه الميتة وراءه ، فلما بلغا كوخ فنسنت ، امسك فنسنت باحدى الملاءتين اللتين كانتا فوق سريره ، والقى بها على الارض ، ثم قال « ارفع اليك طرف السرير ، لاننا سنصعد به إلى بيتك ، لينام عليه الصبي . »

صر ديكراك على اسنانه وقال « ان لدينا ثلاثة اطفال . فاذا كانت تلك مشيئة الله ، فلا مانع من ان نفقد واحداً منهم . ولكن هناك واحد يدعى السيد فنسنت ، يقوم على تمريض القرية بأسرها وانا لن اسمح له بقتل نفسه »

وخرج يعرج منهكاً من الكوخ . فأزاح فنسنت السرير جانباً ، ثم حمله على كتفيه ، حتى وصل إلى بيت ديكراك ، وانزله هناك . ونظر اليه ديكراك وزوجته من مجلسهما امام عشائهما المكون من الخبز الناشف والقهوة . اما هو فنقل الصبي إلى سريره وبادر إلى تمريضه .

وذهب في وقت متأخر من ذلك المساء إلى بيت دينيس ، ليستعير

منهم بعض القش لينام عليه في كوخه . وقفت مدام دينيس مشدوهة حينما سمعت بما فعله .

وصاحت « سيد فنسنت . ان غرفتك القديمة ما تزال شاغرة ، ولابد من عودتك للاقامة فيها . »

« انت طيبة للغاية يا مدام دينيس ، ولكنني لا استطيع . »

« انا فاهمة . انك تحمل هم النقود . ولكن هذا امر غير ذي بال . واني وزوجي جان بابتست نكسب قدراً طيباً من المال . ويمكنك ان تعيش وايانا مجاناً ، بوصفك اخاً لنا . الا تقول لنا دائماً ان جميع اطفال الرب هم اخوة ؟ »

كان فنسنت يحس بالبرد إلى درجة القشعريرة . وكان جائعاً ، يشعر بدوار الحمى التي يحملها منذ اسابيع . وكان ضعيفاً بسبب نقص التغذية ، وبسبب قلة النوم . وكان متكدراً وعلى وشك ان يجن بفعل الاحزان التي تقاسيها القرية . وها هو السرير في الطابق العلوي دافىء وناعم ونظيف . وها هي مدام دينيس مستعدة لتقديم الطعام الكفيل بإزالة الجوع الذي يعض قلب معدته . وهي جاهزة لمشافاته من الحمى ، واسقائه المشروبات الدافئة القوية ، حتى تطرد البرد من نخاع عظامه . واصابته رعشة ، واعتراه ضعف ، وكاد ان ينهار على الارض افرن المكسوة بالآجر الاحمر ، ثم ما لبث ان تدارك نفسه في الوقت المناسب .

أليس ذلك هو الاختبار الالهي الآخير ؟ فلو انه سقط الان ، لحبط كل ما قدمه من عمل . او ليست القرية في اللحظة الحاضرة غارقة في افظع مراحل معاناتها وحرمانها ؟ فهل يتمخض هو عن

انسان ضعيف خسيس جبان ، ويرتمي على الراحة والرفاهية قابضاً عليها حالماً القيت تحت انفه ؟

قال « ان الرب شاهد على برك يا مدام دينيس ، ولسوف يجزيك عنه . ولكنك ينبغي ان لا تثنيني عن طريق الواجب الذي رسمته لنفسي . واذا لم تجدي لي عندكم بعض القش ، فلن يكون أمامي الا النوم على الارض . ولكنني ارجوك ان لا تأتيني باي شيء آخر . »

طرح القش في ركن من اركان كوخه ، فوق الارض المبتلة ، وغطى نفسه بالملأة الرقيقة . الا انه لم ينم طوال الليل ، واصابه في الصباح السعال ، وتراجعت عيناه في داخل رأسه . وازدادت وطأة الحمى عليه حتى بات يتصرف بنصف وعيه . ولم يحتفظ في الكوخ بأي مقدار من الترابة لاشعال الموقد فقد اعجزه ان يستبقي لنفسه قبضة يد واحدة مما يجمعه من الجبل الاسود ، فيحرم منه بيوت عمال المناجم . وروض نفسه على ان يدس في فمه بضع لقيمات من الخبز اليابس ، وينطلق من ثم ، إلى عمله اليومي .

— ١٤ —

شق آذار مارس طريقه متهالكاً نحو نيسان ابريل ، وباتت الاحوال افضل قليلاً ، اذ توارت الرياح ، وتعامد شعاع الشمس إلى حد ما ، ثم جاء ذوبان الثلوج ، فاصبحت الحقول السوداء مرئية ، وسمع صوت القبرات . وبدأت براعم الاشجار الكبرى تتفتح في الغابات . وانتهت الحمى واستطاعت النساء مع حلول الطقس الدافىء أن يصعدن إلى هرم ماركاس لجمع الترابة ، كما تطير خلية النحل من مكان إلى

مكان . وسرعان ما اشتعلت المواقد البيضاوية في الاكواخ فجلبت الدفء والراحة ، وصار الاطفال قادرين على البقاء خارج فراشهم اثناء النهار ، وقام فنسنت باعادة فتح الصالون . وازدحمت القرية بأجمعها داخله للاستماع إلى الموعظة الاولى . وحلت في عيون العمال الحزينة لمسة ابتسام ، وتمكن الناس من رفع رؤوسهم قليلاً . وجاء ديكراك الذي عين نفسه في منصب البواب المسؤول رسمياً عن اشعال الموقد في الصالون ، يلقي بنكات حول الموقد ويفرك النقرة في جلدة رأسه جذلاً .

وصاح فنسنت من فوق منبره مبتهجاً « سوف تحل ايام افضل . فلقد جربكم الرب ووجدكم صادقين . وانتهى الان اسوأ العناء الذي عرفناه . ان السنابل سوف تنضج في الحقول والشمس سوف تطلع عليكم وتدفئكم حين تجلسون امام ابواب بيوتكم بعد عمل نهار طيب ، والاطفال سوف يركضون وراء القبرات ويجمعون الكرز في الغابات . فارفعوا رؤوسكم إلى الرب ، لان مسرات الحياة مخبوءة لكم ما تزال . والرب رحيم . والرب عادل . وسوف يكافئكم جزاء على ايمانكم ويقظتكم ، فارفعوا اليه شكرانكم . ولسوف تحل ايام افضل . »

ولهجت السنة العمال بآيات الشكر الحارة ، وامتلأت الغرفة بالاصوات المستبشرة ، وطفق كل من المصلين يقول لجاره « صدق السيد فنسنت . لقد انتهت معاناتنا . وادبر الشتاء . ولسوف تحل ايام افضل ! »

ومرت ايام قلائل ، وكان فنسنت مع مجموعة من الاطفال يجمعون

الترابة خلف منجم ماركاس ، عندما رأوا هياكل سوداء ضئيلة تهرع من المبنى الذي يحتوي على الرافعة ، وتركض نحو الحقول في كل اتجاه .

وصاح فنسنت « ما الذي حدث ؟ ان الساعة لم تبلغ الثالثة بعد . بل ان الشمس لم تتوسط السماء . »

فصرخ واحد من الاولاد الكبار « لابد ان حادثاً وقع ! فقد سبق ان رأيتهم يتراكضون على هذا النحو من قبل ! لابد ان شيئاً قد تحطم في الاسفل ! »

وتدافعوا نحو اسفل الجبل الاسود بأسرع ما يستطيعون . وكان الحقل المحيط بماركاس يعج بالنمال السوداء المتراكضة نحو البقعة المغطاة ، ووصل فنسنت وجمع الصبية إلى اسفل ، وقد تغير اتجاه الحركة ، اذ كانت النسوة والاطفال يتدفقون بسرعة لاهفة ، قادمين من كل اتجاه في القرية إلى الحقل ، وقد حملت الامهات اطفالهن الرضع على ايديهن ، وجرى خلفهن الاطفال الاكبر قليلاً .

وحينما بلغ فنسنت البوابة سمع اصواتاً مضطربة تصرخ « الغاز ! الغاز ! المكمن الجديد ! لقد اطبق عليهم ! لقد احيط بهم ! »

وجاء جاك فيرني عبر الحقل بالسرعة القصوى ، مغادراً سريره الذي لازمه اثناء حدة البرد . وقد غدا اشد نحافة ، وازداد صدره تقعراً . وامسك فنسنت به وهو قادم وسأله « ما الذي حدث ؟ اخبرني ! »

« انه مكمن ديكراك ! هل تذكر المصابيح الزرقاء ؟ لقد عرفت انها ستنال منهم . »

« كم عددهم ؟ الا نستطيع ان نصل اليهم ؟ »

« اثنتا عشرة خلية ، شاهدتها بعينك ، وفي كل خلية خمسة رجال . »

« الا نستطيع انقاذهم ؟ »

« لا اعرف . وسوف اصحب فريقاً من المتطوعين إلى الاسفل في الحال . »

« دعني اذهب معك ، دعني اساعد . »

« كلا . انني بحاجة إلى رجال مدربين » . ثم راح يعدو في الساحة قاصداً الرافعة .

وصلت إلى المكان العربة الصغيرة ذات الحصان الابيض ، وتقدمت نحو البوابة . وتلك العربة هي ذاتها العربة التي سبق ان حملت العديد من الموتى والجرحى إلى الاكواخ على جانب التل . وبدأ العمال الذين ركضوا من قبل عبر الحقول ، يعودون إلى المكان ومعهم عائلاتهم . وكانت بعض النساء يصرخن صرخات هستيرية ، والاخريات يحملقن في الفضاء امامهن وقد اتسعت عيونهن . اما الاطفال فكانوا يعولون . وراح مراقبو العمال يتراكضون وهم يصيحون بأعلى اصواتهم وينظمون فرق الانقاذ .

وتوقفت الضجة فجأة . فقد خرجت من مبنى الرافعة مجموعة صغيرة من الرجال وسارت ببطء وهي تهبط الدرج ، حاملة شيئاً ما ملفوفاً في ملاءات . وساد السكون التام للحظة واحدة ، ثم بدأ الجميع يصرخون ويبكون في وقت واحد .

« من يكون ؟ هل هم اموات ؟ هل هم احياء ؟ اخبرونا باسمائهم كرمى للرب ! ارونا اياهم ! ان زوجي في الاسفل هناك ! اطفالي ! لي طفلان في ذلك المكمن ! »

توقفت المجموعة عند العربة الصغيرة ذات الحصان الابيض . ونطق احد الرجال قائلاً « لقد امكن انقاذ ثلاثة من العتالين الذين كانوا يفرغون الفحم في الخارج . الا انهم مصابون بحروق بليغة . »

« من هم ؟ اخبرنا عن اسمائهم حباً بيسوع ! ارنا اياهم ! ان طفلي هناك في الاسفل ! طفلي ! طفلي ! »

ازاح الرجل الملاءات عن وجوه فتاتين في نحو التاسعة ، وصبي في العاشرة ، وقد اسودت بسفع النيران . وكان الثلاثة غائبين عن عن وعيهم . وتهالكت عائلات الاطفال فوقهم بصيحات يختلط فيها الاسى بالفرح . ثم وضعت الملاءات في العربة التي يجرها الحصان الابيض وسارت على الطريق الاجرد في الحقل . وجرى فنسنت ، والعائلات إلى جانب العربة كأنهم حيوانات لاهثة . واستمع فنسنت من ورائه إلى عويل الخوف يشتد ويعلو . فادار رأسه وهو يجري ، ونظر خلفه فشاهد الصف الطويل من جبال الترابة تعلو الافق .

كان الاطفال محترقين مشرفين على الموت . وقد تسعفت البشرة والشعر في جميع الاجزاء المكشوفة من اجسادهم . ودخل فنسنت إلى الكوخ الاول فوجد الام تفرك يديها في اسى . فنزع الملابس عن جسد الطفل وصاح « زيت ، زيت ، بسرعة ! » وكان لدى المرأة قليل من الزيت في بيتها ، فدهن به الحروق وصاح « والآن ، رباط ! »

وقفت المرأة تحملق فيه ، والرعب في عينيها . فغضب فنسنت وصرخ « رباط ! ام تريدين لطفلتك ان تموت ؟ »

وانتحبت قائلة « ليس لدينا شيء . ليس لدينا قطعة واحدة من القماش الابيض في المنزل . ولم يكن لدينا طيلة الشتاء ! »

تحركت الطفلة حركة ضليلة ، ثم تأوهت ، وانتزع فنسنت معطفه وقميصه ، ومزق رداءه الداخلي عن جسده ، ثم عاد فارتدى المعطف وراح يقطع الملابس الاخرى ويجعل منها اشرطة ، ثم ضمد الطفلة من رأسها إلى قدمها . وحمل علبة الزيت إلى الطفلة الثانية . فضمدها كما فعل بالاولى . وحين وصل إلى الطفل الثالث ، كان فنسنت قد استنفد القميص والرداء الداخلي . ورأى ان الصبي كان يحتضر ، فخلع فنسنت بنطاله وسرواله الصوفي ، ثم عاد فارتدى البنطال ومزق السروال جاعلاً منه اربطة .

وشد معطفه باحكام فوق صدره العاري ، ثم جرى عبر الحقول إلى ماركاس . وسمع عن بعد تلك الصيحات الحزينة التي لا تنتهي ، صيحات الزوجات والامهات .

كان العمال واقفين قرب البوابة ، نظرا لان المجال لم يتسع في الاسفل الا لفريق واحد من فرق الانقاذ . اذ ان المصطبة التي تتيح الاقتراب من العرق المعدني ضيقة . فكان الرجال ينتظرون دورهم . وتوجه فنسنت إلى احد المراقبين .

« ترى ما نسبة الفرصة ؟

« اعتقد انهم ماتوا الان . »

« الا نستطيع ان نصل اليهم ؟ »

« انهم مدفونون تحت الصخور . »

« وكم ستستغرق الجهود ؟ »

« اسابيع . وربما شهوراً . »

« ولكن لماذا ؟ ولكن لماذا ؟ »

« ذلك ما استغرقته الامور في المرات السابقة . »

« انهم اذا ضائعون ! »

« خمسة وسبعون رجلاً وامرأة ! »

« كلهم راحوا ! »

« ولن نراهم بعد الان ! »

تعاقبت فرق الانقاذ على العمل مدة ست وثلاثين ساعة . ولم يكن في وسع احد ابعاد النساء اللواتي لهن ازواج واطفال في الاسفل . وظل الرجال يقولون لهم ان عملية الانقاذ مضمونة ، على الرغم من انهن كن يعلمن ان الرجال يكذبون . وثابرت زوجات العمال اللواتي لم يفقدن احداً ، على احضار القهوة والخبز إلى الحقل . غير ان المرأة الثاكل لم تكن لتلتمس الطعام . وفي منتصف تلك الليلة جيء بجاك فيرني إلى اعلى في ملاءة ، فقد اصابه احتشاء في رئته ، ومات في اليوم التالي .

وبعد ثمانية واربعين ساعة ، استطاع فنسنت ان يقنع مدام ديكراك ان تعود واطفالها إلى البيت . واستمرت فرق الانقاذ تعمل طيلة اثني عشر يوماً دون انقطاع . اما اعمال المنجم فكانت معطلة . ونظراً لتوقف استخراج الفحم فقد توقف صرف الأجور . ونفد من بين

الايدي ما كان في القرية من فائض لا يتجاوز فرنكات قليلة . واستمرت مدام دينيس بخبز الخبز وتوزيعه ديناً على الناس . وما لبثت ان استنفدت رأس مالها واصبحت مضطرة لاغلاق المخبز . ولم تساهم الشركة بأي شيء . وفي نهاية اليوم الخامس عشر اشاروا على فرق الانقاذ بالتوقف ، وامروا الرجال بالعودة إلى العمل . ولم يكن بين بيتي وازمس والتضور جوعاً ايما سنتيم .

واعلن العمال الاضراب .

ووصل راتب فنسنت عن شهر نيسان ابريل ، فنزل إلى وازمس واشترى طعاماً بمبلغ خمسين فرنكاً ، ووزعها بين العائلات . وعاشت عليه القرية مدة ستة ايام . ثم ان الناس قصدوا الغابات بعد ذلك لجمع الكرز والاوراق الخضراء والاعشاب . وخرج الرجال من بيوتهم باحثين عن اي كائن حي ، فاصطادوا الجرذان والحلزون والسحالي والقطط والكلاب ، واي شيء يمكن حشو المعدة به ووقف ألم الجوع ، حتى لم يعد هناك في نهاية الامر ما يمكن العثور عليه . وكتب فنسنت إلى بروكسل يطلب المساعدة ، فلم تصل اية مساعدة . وقعد الرجال يتفرجون على زوجاتهم واطفالهم يتضورون جوعاً امام اعينيهم .

وطلبوا من فنسنت اقامة الصلوات على ارواح المفقودين الخمسة والسبعين في المنجم الذين سبقوهم إلى المصير . واحتشد في كوخ فنسنت الصغير مائة انسان ، بين رجل وامرأة وطفل صغير . ولم يكن فنسنت قد تناول الا القهوة ، منذ ايام عديدة . بل انه لم يتناول طعاماً صلباً منذ يوم الحادثة . فكان اضعف من أن يقف على قدميه . وقد عاودته الحمى وعاود قلبه اليأس . وغدت عيناه مجرد ثقبين صغيرين

اسودين ، وغار خداه في وجهه ، وبرزت العظام المستديرة حول عينيه ، وغطت وجهه لحية حمراء قذرة . وكان يربط كيساً من الخيش حول جسده بدلاً من الملابس الداخلية . ولم يكن في كوخه الا مصباح واحد مشتعل . وقد استلقى فنسنت فوق القش في ركن الكوخ ، مسنداً رأسه إلى احد كوعيه . وراح المصباح يعكس ظلالاً غريبة مترجرجة على الالواح الخشنة وعلى الارواح المائة التي تعاني في صمت .

وشرع يتكلم بصوت عطشان محموم ، فتملأ كل كلمة من كلماته ذلك الصمت . وظلت عيون هذه الكائنات النحيفة الهزيلة المحطمة بفعل الهزيمة والجوع ، متجهة اليه كأنها تتجه إلى الرب .

وجاءت من خارج الكوخ اصوات غريبة مرتفعة ، تعلوها نبرة السخط . ثم انفتح الباب ، وصاح طفل قائلاً « السيد فنسنت هنا يا سادة . »

توقف فنسنت عن حديثه . وادار البورنيون المائة رؤوسهم نحو الباب . فدخل اليه رجلان ذوا ثياب فاخرة . وومض المصباح لحظة قصيرة . فشاهد فنسنت الرعب والفزع المكتوب على الوجهين الغريبين .

ثم قال دون ان ينهض « اهلاً بكما ايها المبجل دي جونغ والمبجل فان دين برنك . اننا نقوم بصلوات الخباز على ارواح العمال الخمسة والسبعين الذين دفنوا احياء في ماركاس . فهل عساكما توجهان كلمة لتعزية هؤلاء الناس ؟ »

وانقضى وقت طويل قبل ان يعثروا على لسانيهما .

وصاح دي جونغ ، وهو يخبط فوق كرشه بضربة مدوية « شيء يثير الصدمة ! يثير الصدمة حقاً ! »

وقال فان دين برنك « يخيل للمرء انه في ادغال افريقيا ! »

« السماء وحدها تعلم مبلغ الضرر الذي احدثه . »

« قد تنقضي سنوات حتى يمكن اعادة هؤلاء الناس إلى المسيحية . »

وصاح دي جونغ وهو يصالب يديه فوق كرشه « قلت لك منذ البداية انه ما كان جديراً بالتعيين . »

« ادري . ولكن بيترسين .. يا للهول ، من كان يحلم بهذا حتى في المنام ؟ ان هذا الصبي مجنون تماماً . »

« كنت اشك طوال الوقت في قواه العقلية . ولم اثق به ابداً . »

كان المبجل يتحدث بفرنسية سريعة فصحى ، لم يفهم البورنيون كلمة واحدة منها . اما فنسنت فكان من المرض والاعياء بحيث لم يتبين مغزى كلامهما .

وشق دي جونغ طريقه بكرشه ، متجهاً نحو فنسنت ، وقال له بهدوء ، ولكن بلهجة ضارية « ارسل هذه الكلاب القذرة إلى بيوتها »

« ولكن القداس .. نحن لم ننته بعد .. »

« لا تبال بالقداس . اخرجهم وحسب . »

انسحب العمال ببطء ، غير فاهمين . وواجه المبجلان فنسنت « اية عجيبة في العالم فعلتها بنفسك ؟ وما الذي ترمي اليه باقامتك قداساً في حجر كهذا الحجر ؟ وما نوع هذه العبادة البربرية التي شرعت

فيها ؟ أليس لديك حس باللياقة والذوق ؟ وهل هذا سلوك لائق بقسيس ؟ اانت مجنون جنوناً مطبقاً حتّى تصرفت على هذا النحو ؟ ام ان مرادك تحقير كنيستنا ؟ »

وصمت المبجل دي جونغ لحظة ، واجال عينيه في الكوخ الحقير القذر ، وفي فراش القش الذي يستلقي فنسنت فوقه ، وفي الخيش المشدود حول جسده ، وفي عينيه الغائرتين المحمومتين .

وقال « ان من حسن طالع الكنيسة يا سيد فان جوخ ، اننا جعلنا وظيفتك مؤقتة . ويمكنك الان ان تعد ذلك التعيين لاغياً . ولن يكون مسموحاً لك ان تخدم في سلكنا قط ، لانني اجد سلوكك مقززاً غير لائق . اننا لن ندفع لك راتباً بعد اليوم ، وسوف يحل رجل جديد في مكانك على الفور . ولولا الاحسان الذي يحملني على الاعتقاد بانك مجنون تماماً ، لاطلقت عليك لقب الد عدو للمسيحية في تاريخ الكنيسة البروستانتية . »

وساد المكان صمت طويل . وقال دي جونغ « والآن يا سيد فان جوخ . أليس لديك ما تقوله دفاعاً عن نفسك ؟ »

تذكر فنسنت يوم رفضوا تعيينه في بروكسل . ولم يكن لديه في اللحظة الحاضرة ما يشعر به ، فضلاً عن ان ينطبق بكلام .

وقال المبجل فان دين برنك بعد برهة « يمكننا ان نبرح هذا المكان يا أخ دي جونغ . فليس لدينا ما نفعله هنا . انه حالة ميؤوس منها تماماً . وعلينا ان نركب عائدين هذه الليلة إلى مونز ، اذا لم نجد فندقاً جيداً في وازمس . »

حضرت إلى فنسنت في الصباح التالي مجموعة من كبار العمال . وقالوا « ايها السيد ، انت الرجل الوحيد الذي نثق به بعد وفاة جاك فيرني . ونريد منك ان توجهنا إلى ما نفعل . فنحن لا نريد ان نتضور جوعاً اذا لم يكن عن ذلك غنى . وربما امكنك ان تحملهم على الاستجابة لمطالبنا . وسوف نعمل بما تقول بعد ان تلتقي بهم ، فاذا قلت لنا عودوا إلى العمل عدنا ، واذا قلت بل أبقوا جائعين بقينا . اننا سنطيعك انت وان نطيع اي شخص آخر . »

كانت مكاتب شركة المناجم البلجيكية مكتسية بمظهر الحداد . وقد سر المدير لرؤية فنسنت وأصغى إليه باهتمام قائلاً « أنا أعلم يا سيد فان جوخ ان العمال حانقون لأننا لم نقم بحفريات من أجل انتشال الجثث. ولكن أية فائدة كانت ترجى من ذلك ؟ لقد قررت الشركة أن لا تعيد فتح ذلك المكمن ، لأنه لا يحقق عائدات تغطي نفقاته . ولكن هب أننا واصلنا الحفر شهراً كاملاً ، فما النتيجة ! ان ننقل الرجال من قبر لنواريهم قبراً آخر . »

« طيب . دعنا نتحدث عن الأحياء . أليس في مقدورك أن تفعل شيئاً لتحسين شروط العمل في الأسفل ؟ وهل من المحتوم أن يعملوا في مواجهة موت مؤكد ، في كل يوم من أيام حياتهم ؟ »

« نعم يا سيد ، ذلك ما كتب عليهم . فالشركة لا تملك الموارد اللازمة للاستثمار في أجهزة الامان . والعمال يقفون في الطرف الخاسر في هذا النزاع . انهم لا يستطيعون أن يفوزوا لأن القوانين الاقتصادية

الحديدية تعمل ضدهم . وأسوأ من ذلك أنهم ما لم يعودوا للعمل في خلال اسبوع واحد فسوف يغلق ماركاس بصورة دائمة . والرب يعلم عند ذاك ماذا يحدث لهم .»

سار فنسنت صاعداً الطريق القاصف الطويل المؤدي إلى بيتي وازمس وهو يشعر بالقهر . وحدث نفسه بمرارة قائلاً « لعل الرب يعلم . »

لقد بات جلياً أن فنسنت لم يعد ذا نفع للعمال . وهو مضطر لاخبارهم أن عليهم العودة إلى عمل يستغرق ثلاث عشرة ساعة في اليوم داخل حفر السل، مقابل قوت ضئيل ، وهم عرضة لموت مفاجىء يترصد شطراً منهم عن كثب ، وعرضة لموت بطيء بالسعال يترصد الشطر الآخر . إنه جاء إلى البوريناج بغرض ادخال كلمة الرب إلى قلوبهم . ولكن ما الذي يقوله لهم إذا كانت الحقيقة التي جوبه بها هي أن مشكلتهم تستعصي على الحل ؟ .

وحالما يشير عليهم بالعودة إلى العمل ، والتمرغ في عبوديتهم من جديد ، فلن يعود عمله مجدياً على أي وجه . ولن يعود قادراً على إلقاء أية موعظة لهم ، حتى لو أن اللجنة سمحت لهم بذلك ، إذ ما الذي تفيده المواعظ الآن ؟

إنه عالم يعيش في فوضى هائلة . . فوضى البؤس والعناء والقسوة والتعذيب والعمى . . فوضى هائلة بلا نهاية .

— ١٦ —

عاد العمال إلى العمل . وتلقى فنسنت من والده ثيودوروس فان جوخ رسالة تحتوي على بعض المال ، وتطلب منه العودة إلى ايتن ، غير

أن فنسنت عاد إلى بيت دينيس ، بعد أن قام بزيارة وداعية للصالون ، واسترد جميع الرسوم المعلقة على الجدران . ثم علقها من جديد في غرفته.

وها هو يواجه الافلاس ثانية ، ويصبح امام وقت لابد فيه من تقدير الموقف . في حين ليس هناك ما يقدره أصلا . فلا وظيفة ولا مال ولا صحة ولا قوة ولا افكار ولا حماسة ولا رغبات ولا مطامح ولا مثاليات. وانكى من ذلك كله ، عدم وجود محور تتعلق به حياته . فقد بلغ السادسة والعشرين ، وسجل فشله الخامس في حياته ،ولم تعد لديه الشجاعة كي يبدأ من جديد .

نظر إلى نفسه في المرآة . كانت لحيته الحمراء تغطي وجهه في أشكال حلزونية ، وشعره أخف من ذي قبل ، وتضاءل فمه المليء ، فلم يبق منه إلا خط ضيق ، واختفت عيناه في مكان ما داخل تجاويف مظلمة . وبدا ان الشخصية كلها ، التي هي شخصية فنسنت فان جوخ ، قد ذبلت وبهتت حرارتها ، وانها فنيت في ذاتها تقريباً .

استعار من مدام دينيس قطعة صابون صغيرة ، ودعك جسده من أعلى الرأس إلى أخمص القدم ، واقفاً في طست ماء . نظر إلى جسده الذي كان جسداً مكتنزاً قوياً ، فرآه نحيفاً هزيلاً . وحلق ذقنه بعناية ودقة، فتعجب من تلك العظام الغريبة النافرة في وجهه ، من أين تراها برزت فجأة . ومشط شعره على الطراز الذي كان يمشطه به ، وذلك لأول مرة منذ شهور عديدة واحضرت له مدام دينيس قميصاً وطقم ملابس داخلية تخص زوجها . فارتدى الملابس ونزل إلى مطبخ المخبز ومافيه من انشراح. وجلس يتناول طعام الغداء مع الزوجين ، ونعمت شفتاه بمذاق طعام مطبوخ صلب ، لأول مرة منذ كارثة المنجم . وخيل اليه أن رغبته في

الطعام أمر غريب من الأساس . وكان للطعام في فمه طعم لب الخشب الدافىء .

وعلى الرغم من أنه لم ينبىء العمال بأنه ممنوع من إلقاء المواعظ ، فانهم لم يطلبوا منه ان يفعل ، ولم يبد أنهم معنيون بأمر المواعظ . بل ان فنسنت نادراً ما بات يتحدث اليهم . ونادراً ما بات يتحدث إلى أي انسان. وكل ما كان يتبادله مع الآخرين هو عبارة نهارك سعيد ، أثناء مروره بهم . وانقطع عن الدخول إلى بيوتهم أو التدخل في حياتهم اليومية أو في افكارهم . توقفوا بدورهم عن مناقشة أمره ، كأنما بفعل فهم عميق أو اتفاق ضمني فيما بينه وبينهم . وعاملوه بالمثل معاملة شكلية ، ولكنهم لم يدينوا التغير الذي طرأ عليه . لقد فهموه في صمت ، وسارت الحياة سيرها في البوريناج .

وعلم من إحدى الرسائل الواردة اليه من الأسرة أن فوس زوج كاي ، توفي فجأة . غير ان فنسنت ، وهو على حالة من الانحسار العاطفي ، لم يفعل شيئاً أكثر من اختزان تلك الواقعة في ركن قضي من اركان عقله .

ومرت الأسابيع ، وفنسنت لا يقوم بأي عمل خلاف الأكل والنوم والجلوس في دوامة . وانسحبت الحمى من جسده ببطء . واحرز شيئاً من العافية والوزن . ولكن عينيه استحالتا مجرد فتحتين زجاجيتين تطلان على جثة مستقرة في نعش . وحل الصيف ، والتمعت الحقول السوداء والمداخن والترابة تحت الشمس . وغدا فنسنت يتمشى في الضواحي الريفية ، غير قاصد من ذلك الرياضة ولا المتعة . وما كان يدري إلى أين

هو ذاهب ، ولا كان يلاحظ الأشياء التي يمر بها في طريقه وإنما كان يسير لأنه تعب من الاستلقاء والجلوس والوقوف . فاذا تعب من السير جلس أو استلقى أو وقف .

ثم ان نقوده نفذت . واذا به يستلم رسالة بعد ذلك ببرهة قصيرة من شقيقه ثيو في باريس ، يرجوه فيها ان لا يبعثر وقته على غير طائل في البوريناج ، وانما يستخدم النفود المرفقة لاتخاذ خطوة حاسمه في إعادة بناء نفسه . فما كان من فنسنت إلا ان حول النقود إلى مدام دينيس . انه لم يمكث في البوريناج حبا فيها ، بل مكث لأنه لم يكن هناك مكان آخر يقصده ، ولأن الانتقال إلى المكان الآخر يتطلب جهداً كبيراً ليس في طاقته .

لقد فقد ايمانه بالله ، وفقد نفسه . وها هو يفقد أغلى ما لديه في الدنيا ، والشخص الوحيد الذي ما من شخص سواه دائم التعاطف تجاهه بباعث غريزي ، والذي كان يفهمه الفهم الذي يريده . هاهو ثيو يهجر أخاه . ولقد ظل طوال الشتاء يكتب له مرة ومرتين في الاسبوع الواحد رسائل طويلة فياضة بالمحبة ، تقطر بالشغف والاهتمام . إلا أن الرسائل كلها توقفت دفعة واحدة . لقد فقد ثيو هو الآخر ثقته به ، وتخلى عن الأمل . وهكذا أصبح فنسنت وحيداً وحدة مطبقة ، مقطوعاً حتى عن خالقه . فما هو إلا رجل ميت يسير على قدمين في عالم مهجور ، ويتساءل لماذا قدرله أن يظل موجوداً .

— ١٧ —

انسحب الصيف شيئاً فشيئاً حتى أعقبه الخريف . ومع ذبول الخضرة

الضئيلة المتبقية أحس فنسنت بشيء يولد في نفسه . انه لم يتمكن بعد من مواجهة حياته الخاصة ، ولذا التفت إلى حيوات الناس . لقد عاد إلى كتبه . ولطالما كانت القراءة متعته الاجمل والادوم . وهاهو يطالع الآن قصص الانتصارات والاخفاقات ، والعناءات والافراح التي مر بها قوم آخرون ، فيجد في ذلك وقفة قصيرة يتوقفها ، ابان هذه المطاردة المزعجة التي يلاحقه فيها شبح إخفاقه التام .

فاذا اتاح له الطقس ، خرج إلى الحقول وقضى النهار بطوله وهو يقرأ ، واذا امطرت استلقى على سريره تحت الافريز ، او اسند كرسياً إلى الحائط في مطبخ بيت دينيس ، وجلس ساعات بكاملها غارقاً في التفكير . ومع مرور أسابيع عديده استوعب قصص حياة مئات من الناس العاديين أمثاله ، الذين كافحوا ، فنجحوا قليلاً وأخفقوا كثيراً ، وقد ساعده ذلك على أن يرى نفسه تدريجياً من منظور سليم . فقد كانت اللازمة التي يرددها بينه وبين نفسه « انا الفشل . انا الفشل . انا الفشل . » وقد حل محلها الآن « ترى ما الذي ينبغي أن احاوله ؟ وما هو العمل الذي انا مؤهل له ؟ وأين هو مكاني الصحيح في العالم ؟ » وكان يتمعن في الكتب عساها تقول له ما هي الحرفة التي يمكن أن تعطي حياته وجهتها من جديد ؟

وكانت الرسائل الواردة اليه من الأسرة تصف وجوده . فوالده يصر على ان فنسنت يخالف جميع الأعراف الإجتماعية اللائقة ، حين يمضي في حياة البطالة والتراخي . ويتساءل الوالد متى يحزم أمره ثانية فيجد لنفسه وظيفة تعوله ، ويصبح عضواً نافعاً في المجتمع ، ويساهم بنصيب في حياة العالم .

وكان فنسنت بدوره يتمنى لو يعثر على جواب لهذا التساؤل .

ثم انتهى إلى درجة التشبع بالقراءة ، ولم يعد قادراً على فتح أي كتاب فقد كان خلال الأسابيع التي اعقبت انهياره في حالة من الصدمة والمرض ، لم يشعر معها بأي شيء من العواطف الانسانية ، ثم انصرف بعد ذلك إلى الأدب ليغرق فيه احاسيسه ، وقد نجح في مبتغاه . اما الآن فهو على ما يرام تقريباً ، وها هو فيضان من مشاعر المعاناة التي اختزنت شهوراً ينفجر سيلاً متدفقاً ويغمره بالبؤس والقنوط . فكأن المنظور العقلي الذي اكتسبه لم يعد عليه بأي نفع .

لقد بلغ نقطة الحضيض في حياته . وانه ليعرف ذلك .

كان يشعر ان فيه شيئاً من الخير ، وانه على علاته ليس بالأبله ولا بالمتبطل المتشرد ، وان ثمه اسهاماً صغيراً يستطيع أن يضيفه إلى العالم . ولكن ما هو ذلك الاسهام ؟ انه رجل غير مؤهل للعمل النظامي ، وقد سبق وجرب كل ما يتوفر فيه الاستعداد له . فكان الفشل والمعاناة مقدرين عليه ؟ وهل فاته قطار الحياة حقاً ؟

ان الاسئلة تلقي بنفسها ، وما من جواب . ولذلك مضى مع الايام التي راحت تنزلق إلى فصل الشتاء . وخطر له ان والده سيغدو مشمئزاً ، وسيتوقف عن ارسال المال اليه ، وقد يحسن به ان يتوقف عن الاكل مع آل دينيس ، ويوفر النقود لشراء مؤن مختصرة . ولعل ثيو يشعر بشيء من وخز الضمير فيرسل اليه قليلاً من النقود بواسطة الاهل في ايتن . فاذا ما عيل صبر ثيو ، عاد والده إلى الشعور بمسؤوليته . وما بين ثيو والوالد ، عليه ان يتدبر امره ويتناول نصف طعام .

وذات يوم صاف من ايام نوفمبر تشرين الثاني ، كان فنسنت يتجول حول منجم ماركاس فارغ اليدين خالي العقل ، وجلس على دولاب حديدي صدىء إلى جوار الحائط . فشاهد عاملاً عجوزاً يخرج من البوابة ، وقد مالت قبعته السوداء على عينيه ، وتقارب كتفاه ، ووضع يديه في جيبيه ، واهتزت ركبتاه العظميتان . وجذبه إلى الرجل شيء لم يستطع فنسنت ان يتبينه حصراً . فاذا به يمد يده إلى جيبه تلقائياً ، فيخرج منها عقب قلم رصاص ورسالة من الاهل ، ثم راح يرسم على مغلف الرسالة بسرعة تخطيطاً لذلك الهيكل الصغير الذي يخب عبر الحقل الاسود .

ثم فتح فنسنت رسالة والده ، فوجد ان الكتابة لم تقع الا على احد وجهي الورقة . وخرج من البوابة بعد هنيهات قصيرة عامل آخر ، هو فتى شاب في السابعة عشرة ، ذو قامة اطول واكثر انتصاباً ، وثمة طابع من المرح في حركة كتفيه من الخط السفلي للكتفين إلى اعلى ، وهو يمشي مندفعاً بجوار الحائط الحجري العالي الذي يحيط بماركاس ، متجهاً إلى خط السكة الحديدية . وقد اتيحت لفنسنت دقائق عديدة تمكن خلالها من رسم مخطط له قبل ان يختفي .

— ١٨ —

وجد فنسنت في بيت دينيس بضعة الواح من الورق الابيض النظيف ، كما وجد قلم رصاص غليظاً . فوضع المخططين البدائيين اللذين بحوزته على المقعد ، وبدأ ينسخ عنهما . وكانت يده خرقاء متصلبة ، ولم يستطع ان يضع الخط على الورق ، بالطريقة التي يتخيلها

في عقله . فاخذ يستخدم الممحاة اكثر مما يستخدم القلم ، ولكنه ظل يجاهد لكي يعيد رسم الشخصين . وانكب على عمله انكباباً لم يلاحظ معه الظلمة التي زحفت على الغرفة . ولذا ذهل حينما طرقت مدام دينيس الباب .

وصاحت « سيد فنسنت ، العشاء جاهز على الطاولة . »

فعجب فنسنت « العشاء ! هل مضى الوقت إلى هذا الحد ؟ »

وعلى مائدة العشاء جعل يتحدث بحيوية إلى آل دينيس ، وقد سطع بريق خفيف في عينيه . وتبادل الزوجان نظرة خاصة . ثم استأذن فنسنت عقب الوجبة الخفيفة وذهب إلى غرفته في الحال . واشعل المصباح الصغير ، وثبت المخططين بالحائط ، وابتعد عنهما المسافة الكافية ليحصل على منظور لهما .

وقال لنفسه وهو يبتسم ابتسامة غريبة « هما رديئان ، وفي غاية من الرداءة . ولكنني قد أستطيع في الغد ان احسن قليلاً . »

وأوى إلى سريره ، بعد ان وضع مصباح الكاز بجواره على الارض . ثم حدق في المخططين دون ان يفكر في شيء محدد ، ووقعت عيناه على الرسوم الاخرى الملصقة على الجدار . وهي المرة الاولى التي يشاهدها فيها حقاً ، منذ سبعة شهور ، حين انتزعها من فوق جدران الصالون . واحس فجأة انه يشعر بحنين إلى عالم الصور والرسوم كما يحس المرء بالحنين إلى بيته . لقد مر عليه زمن كان يعرف فيه من هو رمبرانت، ومن هم ميليه وجول دوبريه وديلاكروا وماريس . ثم انه راح يسترجع في مخيلته جميع الرسوم البديعة التي ملكها في يوم او في آخر ، ولوحات الحفر والطباعة الحجرية التي بعث بها إلى ثيو

وإلى والديه . وفكر في جميع اللوحات الزيتية الجميلة التي شاهدها في المعارض بلندن وامستردام ، فاذا بهذه الافكار تنسيه همومه ، واذا به يستغرق في نوم عميق مريح وارتعش مصباح الكاز ، ثم ازرق ضياؤه ، ثم انطفأ .

في الصباح التالي ، استيقظ على الساعة الثامنة والنصف ، شاعراً بانتعاش كامل . فقفز خفيفاً من السرير ، وارتدى ملابسه ، واخذ قلمه الكبير والورق ، وعثر على لوح خشبي رفيع في المخبز ، وانطلق إلى ماركاس . فجلس على الدولاب الصدىء ذاته في العتمة ، وجعل ينتظر وصول العمال .

اخذ يرسم مخططاته في عجالة ، على نحو بدائي ، لان غرضه لم يتجاوز تسجيل انطباعه الاولي عن كل شخصية . فلما نزل جميع العمال إلى اسفل ، وقد مرت ساعة من الزمن ، صار لديه خمسة هياكل بلا وجوه . وسار عبر الحقل مندفعاً ، ثم عرج فأخذ في يده فنجاناً من القهوة إلى غرفته ، وانتظر حتى سطع الضوء ، وقام بنسخ مخططاته . وقد حاول ان يضمنها جميع الخاصيات الصغيرة التي تميز مظهر البورنيين ، وهي خاصيات يحفظها عن ظهر قلب ، الا انه لم يتمكن من التقاطها في العتمة ، اثناء سير نماذجه اسفل منه .

كان تشريحه بأسره خطأ ، كما ان النسب كانت متنافرة على نحو بشع . وكان رسمه من الغرابة إلى حد انه اقرب إلى اثارة الهزل . غير ان الشخوص كانت على الرغم من ذلك كله بورينية بمعنى الكلمة ، فلا يمكن لمن يشاهدها ان يختلط عليه امرها مع اية شخوص اخرى . ثم انه انثنى إلى المخططات فمزقها ساخراً من خرقه وعسراويته .

وجلس على حافة السرير . مواجهاً الرسم الذي رسمه آليبيه للمرأة العجوز الضئيلة تحمل ماء ساخناً وفحماً وتسير في شارع ماطر . وحاول أن ينسخها . وتمكن من رسم المرأة على طريقته ولكنه لم يستطع ان يجعل لها علاقة مع الشارع ولا مع البيوت الكائنة في خلفية اللوحة . وكوَّر طباق الورق وقذف به إلى ركن الغرفة ، ووضع كرسيه امام دراسة بوزيووم للشجرة المنفردة والوافقة ضد سماء غائمة . كان كل ما في الدراسة يبدو بسيطاً ، فليس هناك الا شجرة وقطعة من الهضبة وسحاب في الأعلى . إلا أن قيم بوزبووم كانت دقيقة ناعمة ، وقد تعلم فنسنت أن أبسط القطع الفنية هي أوفرها قدراً من الصارمة ، وهي لذلك اصعبها في التقايد .

مر الصباح خارج مملكة الوقت . حتى إذا استخدم فنسنت آخر طبق من الورق هرع إلى حاجياته يقلبها جيداً ليعرف كم لديه من النقود ، فوجد فرنكين . وخطر له أنه يستطيع أن يشتري ورقاً جيداً ، وربما يعثر على قضيب من الفحم النباتي في مونز ، ولذا شرع في السير على الاقدام مسافة اثني عشر كيلومتراً . وبينما كان يجتاز التل الطويل ما بين بتي وازمس ووازمس ، مر ببعض زوجات العمال واقفات أمام أبوابهن ، فأضاف إلى عبارة صباح الخير التي يقولها دائماً بلهجة آلية ، عبارة : كيف الحال . وفي باتوريجس ، التي هي بلدة صغيرة تقع في منتصف المسافة إلى مونز ، شاهد فتاة جميلة في شباك مخبز ، فدخل ليشتري بخمس سنتيمات كعكة ، قاصداً أن ينظر إلى الفتاة .

كانت الحقول ما بين باتوراجس وسيوزمز مكتسية بلون أخضر ساطععلى اثر الأمطار الغزيرة . وعزم فنسنت على العودة ورسم مخططات

هذه الحقول حالما يحصل على قلم تلوين أخضر . وفي مونز وجد كراساً من الورق الأصفر الصقيل وبعض الفحم وقلم رصاص ثقيل . كما وجد على باب المخزن صندوقاً مليئاً برسوم قديمة . فانكب فنسنت على هذه الرسوم ساعات ، على الرغم من علمه بأنه غير قادر على شراء أي شيء. وجاء صاحب المحل ، واشترك الاثنان في التعليق على الصور واحدة بعد واحدة ، كأن الرجلين صديقان مترافقان في معرض .

وقال فنسنت بعد ان انفقا وقتاً طويلاً على ذلك المنوال « ينبغي لي أن أعتذر لأنني لا أملك أي مال فأشتري واحدة من صورك . »

فقال صاحب المحل « لا تعبأ بذلك أيها السيد . بل تعال ثانية ولو لم تملك أية نقود . »

وقطع مسافة الاثني عشر كيلومتراً بسير متمهل . وكانت الشمس تغرب فوق أفق موشوم بالاهرامات ، وتضيء الحواف الخارجية لبعض السحب بلون قرنفلي صدفي . ولاحظ فنسنت كيف يغمر السلام الوادي الأخضر المستلقي إلى الخلف منه ، والذي كان ينظر إليه كلما بلغ قمة أحد التلال . وأحس فنسنت بالسعادة ، فعجب ما سببها .

في اليوم التالي ذهب إلى الترابة خلف ماركاس وجعل يرسم مخططات للبنات والنساء ، وهن متكئات على المنحدر يحفرن ويستخرجن قطعاً من الذهب الأسود من جانب الجبل . وبعد وجبة الغداء قال « سيد دينيس — سيده دينيس ، الرجاء أن لا تغادرا الطاولة برهة ، لأنني سأفعل شيئاً . »

وركض إلى غرفته فاحضر دفتر الرسم والفحم ، وخط بسرعة رسوماً على الورق ذات شبه بصديقيه . وجاءت مدام دينيس لتنظر من خلف كتفه وصاحت « انك لفنان يا سيد فنسنت ! »

فارتبك فنسنت وقال « لا ، وأنما أنا اسلي نفسي ، لا غير . »

وقالت مدام دينيس « ولكنها جميلة ، بل إنها تكاد تشبهني »

وقال فنسنت ضاحكاً « تكاد ، ولكن ليس تماماً . »

لم يكتب إلى الأهل عما يفعل ، لأنه يعلم أنهم سيقولون عن حق « اوه ، ها هو فنسنت في بدعة جديدة . فمتى تستقر اموره ويقوم بعمل مفيد » .

وفضلاً عن ذلك ، كان هذا النشاط الجديد من نوع متمايز خاص . يخصه وحده ولا يخص احداً سواه . فلم يكن في مقدوره ان يحمل نفسه على التحدث او الكتابة عن مخططات الرسم . اذ انه يحس بتحفظ ازاء الحديث عنها ، لم يحس بمثله ازاء اي شيء من قبل ، وهو ينفر من ان ترى العيون الغريبة عمله . لقد كانت هذه الرسوم الاولية مقدسة ، على نحو فظ غير مفهوم ، رغم انها قد تكون في كل خط من خطوطها .

وعاد إلى زيارة اكواخ العمال ، ولكن في هذه المرة يحمل ورق الرسم وقلم التلوين ، بدلاً من الانجيل . ولم يكن سرور العمال بمقدمه اقل من ذي قبل ، ورسم مخططات للاطفال يلعبون على ارض الكوخ ، وللزوجات وهن منحنيات على الموقد البيضاوي ، وللاسرة جميعاً على مائدة العشاء عندما يفرغ عمل النهار . ورسم مخطط ماركاس بمداخنه الطويلة والحقول السوداء وغابات الصنوبر عبر الوادي ، ورسم الفلاحين وهم يحرثون حول باتيبوراجس . وكان يمكث في الغرفة اذا كان الطقس رديئاً ، ويأخذ في نسخ الصور التي الصقت على

الجدران ، وكذلك يعيد رسم المسودات الفجة التي رسمها في اليوم السابق . وعندما يأوي إلى سريره كان يخطر له ان واحدة او اثنتين من تخطيطاته التي رسمها في ذلك اليوم ، ربما لم تكن رديئة . ثم كان يستيقظ في الصباح التالي فيجد انه في رسومه قد غفل عن الجهد الخلاق ، وان الرسوم كانت خطأ كلها . فكان يقذف بها بعيداً دون ان يساوره تأنيب الضمير .

لقد احتبس وحش الالم في داخل ذاته ، فاصبح سعيداً لانه لم يعد يفكر في عدم سعادته . وكان يدري انه خليق ان يشعر بالخجل لاستمراره في تلقي نقود والده واخيه دون ان يبذل جهداً لإعالة نفسه ، ولكنها مسألة لا تبدو ذات بال ، وهكذا ثابر على رسم المخططات .

وبعد مرور اسابيع قليلة ، قام خلالها بنسخ التصاوير الموضوعة على الجدار مرات عديدة ، تبين انه اذا أراد احراز اي تقدم ، فلابد له من مزيد من الصور ، على ان تكون مما رسمه سادة الفن . وعلى الرغم من ان ثيو لم يكتب له منذ عام ، فقد رأى أن يحجب كبرياءه خلف حزمة من الرسوم البائسة ، وكتب إلى شقيقه :

عزيزي ثيو

اذا لم يخطيء ظني فلابد انك ما زلت تحتفظ برسوم « اعمال الحقل » بريشة ميليه . فهل تتعطف وتعيرني اياها وقتاً قصيراً ، فترسلها الي بالبريد ؟

يجب ان اخبرك انني اقوم بنسخ رسوم كبيرة من انتاج بوزبووم وآليبيه . ولعلك تحكم حين تراها انها ليست منفرة .

ارسل الي اي شيء في متناولك ، ولا تكن قلقاً علي . انني إذا استطعت مواصلة العمل فسوف يجعلني ذلك على ما يرام مجدداً .

اكتب اليك اثناء انشغالي بالرسم ، وانا على عجل للعودة اليه ، طابت ليلتك . وارسل الي طبعات الرسومات بالسرعة الممكنة . مع مصافحتي القلبية لك في الوجدان

فنسنت

شيئاً فشيئاً بدأ يهيمن عليه جوع من نوع جديد ، هو الرغبة في التحدث حول عمله إلى احد الفنانين لمجرد ان يعرف اين اصاب وأين اخطأ . فهو يعرف ان رسومه رديئة ، ولكنه كان قريباً اليها إلى درجة يتعذر معها ان يفهم لماذا هي رديئة . وكان في حاجة إلى عين غريبة عديمة الشفقة ، لم يعمها كبرياء الابداع الذي يحمله الوالد .

لمن يذهب ؟ ان جوعه هذا لأقوى من أي جوع كابده في الشتاء الماضي ، اذ كان يعيش اياماً بطولها على الخبز الناشف . وهو الان يمتلك ذلك التوق البسيط ، توق الفنان إلى ان يعلم ويحس ان في العالم فنانين آخرين ، رجالاً على شاكلته ، يواجهون المشكلات الفنية ذاتها ، ويفكرون في السياق نفسه ، رجالاً في وسعهم ان يجيزوا جهوده باظهار اهتمامهم الجاد بالعناصر التي تتجلى فيها براعة الفن . وتذكر ان ثمة اناساً في العالم . رجالاً من طراز ماريس وموف ، يكرسون حياتهم بأسرها للرسم . ومثل هذه الظاهرة تبدو هنا في البوريناج شيئاً لا يصدق .

وفي عصر يوم ماطر ، بينما كان يمارس النسخ في غرفته ،

ومضت في ذهنه صورة المبجل بيترسين ، واقفاً في محترفه الخاص به في بروكسل ، وهو يقول « ولكن عليك ان لا تخبر زملائي بذلك . » فعرف انه اهتدى اخيراً إلى الرجل المطلوب . والقى نظرة على المخططات الاصلية التي رسمها ، واختار منظر عامل ، ومنظر زوجة منحنية على الموقد البيضاوي ، ومنظر امرأة عجوز تجمع الترابة . ثم انطلق سائراً إلى بروكسل .

كان في جيبه مبلغ يزيد قليلاً على ثلاثة فرنكات ، ولذا لم يكن قادراً على دفع ثمن تذكرة القطار . وكانت المسافة تقارب ثمانين كيلو متراً سيراً على الاقدام . فسار فنسنت طوال ما تبقى من بعد ظهر ذلك اليوم ، وطوال الليل ، ومعظم ساعات اليوم التالي ، فاصبح على مسافة ثلاثين كيلو متراً من بروكسل . وكان ينوي المضي في طريقه دون توقف ، لولا ان حذاءه الرقيق قد بلي ، وان اصابع احدى قدميه اخترقت مقدم الحذاء . وكان المعطف الذي استخدمه طوال السنة الماضية في بيتي وازمس مغطى بطبقة من الغبار ، ثم انه لم يتزود في رحلته حتى بمشط او بقميص اضافي. وفي الصباح التالي لم يفعل اكثر من ان القى الماء البارد على وجهه .

واستعان بقطعة من الكرتون وضعها داخل نعل الحذاء ، واستأنف السير في وقت مبكر جداً . وبدأ الجلد يدمى في الموضع الذي نفذت فيه اصابعه ، وسرعان ما تخضبت قدمه بالدم . كذلك اهترأ الكرتون ، وحلت محله فقاقيع جلدية مائية ، تحولت إلى فقاقيع دموية ، ثم انفجرت وكان جائعاً ، وكان عطشان ، وكان تعباً ، ولكنه كان ، سعيداً كأسعد الرجال .

كان في الحقيقة ذاهباً ليلتقي ويتحدث مع فنان آخر !

ووصل إلى ضواحي بروكسل في ساعات بعد الظهر ، خاوي الوفاض لا يملك سنتيماً واحداً . واسعفته ذاكرته بدقة ، بالموضع الذي يقيم فيه بيترسين ، وسار سيراً حثيثاً في شوارع المدينة . وكلما رآه الناس تنحوا جانباً عن طريقه ، ثم اخذوا يحملقون خلفه ، وهم يهزون رؤوسهم . اما فنسنت فلم يلاحظهم اصلا ، وانما شق طريقه بالسرعة التي سمحت بها رجلاه العرجاوتان .

وجاءت بنت المبجل الصغيرة تفتح الباب . وما ان رأت فنسنت حتى ظهر الرعب في نظرتها ، اذ شاهدت وجهه الوسخ المخطط بالعرق والغبار ، وشعره الملبد غير الممشط ، ومطعفه القذر ، وبنطاله المغطى بالوحل ، ورجليه السوداوين الداميتين . فركضت نحو القاعة صارخة . وجاء المبجل بيترسين إلى الباب ، فحدق في فنسنت لحظة دون ان يتعرف اليه ، ثم تهللت اساريره بابتسامة واسعة من القلب ، حين عرف فنسنت .

وصاح « حسن يا فنسنت يا بني . كم هو طيب ان اراك ثانية . ادخل ، دخل . »

وقاد فنسنت إلى المكتبة ، وقرب اليه كرسياً مريحاً . اما فنسنت فانه بعد ان وصل إلى هدفه احس ان سلك الارادة انقطع داخله ، فاذا به يستشعر وطأة الثمانين كيلو مترا التي عبرها في اليومين الماضيين ولا قوت له الا الخبز وقليل من الجبن . وارتخت عضلات ظهره ، وهبط كتفاه ، ووجد صعوبة غريبة في التنفس .

قال بيترسين « لي صديق مجاور توجد لديه غرفة اضافية ، فهل تود يا فنسنت ان تغتسل وترتاح بعد رحلتك ؟ »

« نعم . والواقع انني لم اكن اعرف انني تعب إلى هذا الحد . »

فتناول الميجل قبعته ، وسار في الشارع بصحبة فنسنت ، غير منتبه إلى نظرات جيرانه .

وقال « ربما ترغب ان تنام وترتاح هذه الليلة ، ولكنك ستأتي غداً بالتأكيد لتناول الغداء على الساعة الثانية عشرة ؟ وسيكون لدينا الكثير مما نتحدث عنه . »

واستحم فنسنت وفرك جسده في حوض حديدي ، وعلى الرغم من ان الساعة لم تتجاوز السادسة فقد اوى إلى الفراش طاوياً جوع بطنه . ولم يفتح عينيه الا في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي ، ولم يكن سبب استيقاظه الا الجوع الذي يعض احشاءه دونما هوادة . وجاء الرجل صاحب الغرفة ، فاعار فنسنت موس حلاقة ومشطاً وفرشاة ملابس . وبذل فنسنت كل ما في وسعه لجعل مظهره مقبولاً ، ووجد كل شيء قابلاً للتصليح ، ما عدا الحذاء .

أكل فنسنت بنهم ، وراح يزدرد الطعام بلا خجل ، بينما بيترسين يتحدث حديثاً خفياً عن احدث الاخبار في بروكسل . وبعد الطعام انتقل الرجلان إلى المكتبة .

قال فنسنت « اوه .. لقد قمت بأعمال كثيرة . اليس كذلك ؟ فهذه الرسوم على الحائط كلها جديدة . »

واجاب بيترسين نعم . وقد بدأت اجد في الرسم متعة تفوق كثيراً متعة الوعظ .

وقال فنسنت مبتسماً « وهل يخزك ضميرك احياناً لانك تقتطع وقتاً طويلاً على حساب عملك الحقيقي ؟ »

ضحك بيترسين وقال « هل تعرف الحكاية التي تروى عن روبنز ؟ كان روبنز يعمل سفيراً لهولندا في اسبانيا . واعتاد ان يقضي فترة بعد الظهر كل يوم في الحدائق الملكية امام حامل الرسم . ومر به ذات يوم رجل أنيق من اعضاء البلاط الاسباني فقال معلقاً « ارى الديبلوماسي يسلي نفسه احياناً بالرسم . » ، فما كان من روبنز الا ان اجاب « كلا ، وانما الرسام هو الذي يسلي نفسه احياناً بالديبلوماسية .»

وتبادل بيترسين وفنسنت ضحكة الفهم المشترك . وفتح فنسنت رزمته الصغيرة وقال « كنت اقوم مؤخراً برسم بعض المخططات وقد احضرت معي ثلاثة مناظر كي اريك اياها . ولعلك لا ترى ضيراً في ابلاغي برأيك فيها . »

واجفل بيترسين ، إذ كان يعلم ان انتقاد عمل الفنان المبتدىء ليس بالمهمة المشكورة . ومع ذلك فقد وضع الرسومات الثلاثة على الحامل، ووقف على مسافة بعيدة ينظر إليها . وفجأة شاهد فنسنت رسوماته من خلال عيني صديقه،واستبان كم كان مستواها بدائياً شأن أعمال الهواة .

قال بيترسين بعد شيء من الامعان « انطباعي الأول أنك كنت تعمل وأنت قريب جداً من نماذجك . فهل ذلك صحيح ؟ »

« نعم . انني مضطر لذلك ، لأن معظم عملي يكون في أكواخ العمال المزدحمة . »

« مفهوم . وهو ما يفسر فقدان المنظور في عملك . ألا يمكنك تدبر امرك للعثور على مكان تستطيع فيه ان تنظر لموضوعاتك عن بعد ؟ فاذ ذاك تراها بوضوح أكبر . إنني واثق من ذلك . »

« توجد أكواخ عمال كبيرة ، يمكنني أن أستأجر آحدها في مقابل مبلغ ضئيل واحوله إلى استوديو . »

« فكرة ممتازة »

ثم صمت ثانية ، وقال بدون تكلف « هل سبق لك أن تعلمت الرسم ؟ هل تضع الخطوط العامة للوجوه مستعيناً بورق مخطط بالمربعات؟ هل تأخذ قياسات لرسمك ؟ »

تضرج فنسنت خجلاً وقال « أنا لا أعرف كيف أصنع هذه الأمور ، فلم يسبق لي أن تلقيت درساً واحداً في الرسم . وقد حسبت أن المرء ينخرط في الرسم مباشرة دون مقدمات . »

فقال بيترسين بجدية « آه . . لا . . ينبغي أن تتعلم الاصول الابتدائية أولاً وبعد ذلك يزاتيك اسلوبك في الرسم شيئاً فشيئاً . انظر . . فانني سأوضح لك خطأك في رسم هذه المرأة »

تناول مسطرة ،ووضع اطاراً حول الرأس واطارا حول الهيكل كله ، ثم أوضح لفنسنت كم كانت النسب عنده سيئة ، ثم مضى فأعاد تركيب الرأس ،مصاحباً رسمه بالشرح . وبعد حوالي ساعة من العمل ،خطا إلى الخلف ، ونظر إلى المخطط وقال « اليك. اعتقد الآن اننا رسمنا هذا الهيكل على النحو الصحيح . »

فتبعه فنسنت إلى الناحية الأخرى من الغرفة ونظر إلى الورقة . فلم يكن هناك مجال للشك في النتيجة . ان المرأة مرسومة الآن ، بموجب النسب الصحيحة . ولكنها لم تعد زوجة عامل منجم ، ولا امرأة بورينية تلتقط الفحم على سفح جبل الترابة . بل غدت مجرد امرأة مرسومة باتقان في هذا العالم ، وهي تتخذ وضعاً منحنياً . ودون أن يتفوه بكلمة ، ذهب فنسنت إلى الحامل ، ووضع المرأة التي رسمها منحنية على موقدها البيضاوي ، إلى جوار الرسم الجديد المعدل ، ثم رجع إلى الوراء عند بيترسين .

بدرت من المبجل بيترسين همهمة ، ثم قال « نعم ، انني ارى ما تعنيه . انني أعطيت المرأة نسباً صحيحة ، وانتزعت منها الشخصية . »

وقف الاثنان هناك وقتاً طويلاً ينظران إلى الحامل . ثم ان بيترسين قال بلهجة لا ارادية « اتعرف يا فنسنت . . ان هذه المرأة المنحنية على موقدها ليست رديئة . . ليست رديئة بالمرة . ان الرسم مفزع ، ومقاييسك كلها خاطئة ، ووجه المرأة لا أمل فيه . بل الحقيقة انه لا وجه له على الاطلاق . إلا أن ذلك الرسم استطاع أن يلتقط شيئاً ما . انك أمسكت بشيء لا أقدر ان اشير إليه باصبعي فما هو يا فنسنت ؟ »

« أنا متأكد انني لا أعرف . لقد وضعتها على الورق كما رأيتها تماماً . »

وفي هذه المرة كان بيترسين هو من سار بسرعة إلى الحامل . وإذا به يقذف بالرسم الذي رسمه مصححاً إلى سلة المهملات قائلاً « انت لن تلقي بالاً إلى ذلك ، فقد كان تالفاً على كل حال . » ثم انه وضع المرأة

الثانية وحدها . وعاد إلى فنسنت ، وجلسا معاً . وشرع المبجل يحاول الكلام عدة مرات ،إلا أن الكلمات لم تواته . وأخيراً قال « فنسنت . إنني أكره أن أعترف بما سأقول . ولكنني في الحقيقة أعتقد انني أكاد احب تلك المراة . لقد حسبتها في البداية مرعبة ، غير ان شيئاً فيها يظل يتفاعل داخل المرء . »

فسأله فنسنت « ولماذا تكره ان تعترف بذلك ؟ »

« لأنه لا يجوز لي ان أحبها . فالعمل كله خطأ ، بل خطأ فاحش ! ولو أنك عرضتها في أي صف ابتدائي في إحدى مدارس الفن لطلبوا منك ان تمزقها وان تعيد العمل فيها من جديد . ومع علمي بذلك كله، فان شيئاً معيناً فيها قد وصل إلى قلبي . وأكاد أقسم انني رأيت تلك المرأة سابقاً في مكان ما . »

وقال فنسنت بسذاجة « لعلك رأيتها في البوريناج . »

نظر إليه بيترسين سريعاً ، ليتحقق من مدى ذكائه ، ثم قال « اظنك على صواب . فهي لا تملك وجهاً ، وهي ليست شخصاً معيناً بالذات . وحسبها تجسيد لجميع زوجات عمال المناجم ، إذا مزجن معاً . اما ذلك الشيء الذي التقطته انت يا فنسنت ، فهو روح زوجة عامل المنجم ، وهذا الشيء أهم ألف مرة من أي رسم روعيت فيه الأصول الفنية . نعم. انني أحب رسمك لهذه المرأة ، لأنه يقول لي شيئاً معيناً بصورة مباشرة.»

ارتعد فنسنت ، ولكنه خاف أن يتكلم . ان بيترسين فنان خبير ، محترف ، فاذا طلب منه الرسم ، واحبه إلى درجة . .

« هل يمكنك أن تستغني عنها يا فنسنت ؟ إنني أود كثيراً لو علقتها على جداري . واظنني واياها سنغدو نعم الأصدقاء . »

– ١٩ –

عندما قرر فنسنت ان من الأفضل أن يعود إلى بيتي وازمس ، قدم إليه المبجل بيترسين حذاء قديماً بدلاً من الحذاء المهترىء ، وأعطاه أجرة العودة بالقطار إلى البوريناج . فقبلهما فنسنت بروح الصداقة الكاملة التي تعرف ان الفرق بين العطاء والأخذ فرق دنيوي مؤقت .

وفي القطار تبين لفنسنت امران هامان ، اولهما ان المبجل بيترسين لم يتطرق مرة واحدة إلى فشل فنسنت في مهمه المبشر البروتستانتي ، والثاني انه قبله زميلاً فناناً على قدم المساواة . وهو قد أحب رسماً من رسوماته إلى درجة انه أراد أن يقتنيه لنفسه ، وذلك هو الاختبار الحاسم .

وحدث فنسنت نفسه قائلاً « لقد منحني هذا الرجل بدايتي . فما دام أحب عملي ، فسوف يحبه أناس آخرون . »

وعند وصوله إلى بيت دينيس وجد بانتظاره « أعمال الحقل » وقد وردت في مغلف من ثيو ، ولو أنها غير مصحوبة برسالة . لقد أنعشه اتصاله ببيترسين ، ولذا انهمك في نسخ أعمال الأب ميليه بشغف كبير . كما ارفق بالمغلف عدداً من أوراق الرسم كبيرة الحجم ، وهكذا قام فنسنت في غضون أيام قلائل بنسخ عشر صفحات من « أعمال الحقل » وبذلك فرغ من المجلد الأول . ثم رأى من بعد ذلك انه يحتاج إلى رسم الجسد عارياً ، ولما كان متأكداً انه لن يجد في البوريناج كله من يرضى

بالمثول أمامه في ذلك الوضع ، فقد كتب إلى صديقه القديم ترستيج ، مدير معارض جوبل في الهاج ، يطلب منه أن يعيره — اذا امكن — « تمارين رسم الجسد » لواضعها بارج .

وفي الوقت نفسه استذكر نصيحة بيترسين ، فاستأجر كوخاً من أكواخ العمال قرب قمة شارع بيتي وازمس ، وذلك لقاء تسعة فرنكات شهرية . وفي هذه المرة ، كان الكوخ أفضل الأكواخ التي يمكن العثور عليها ، وليس أسوأها . وهو مبلط بأرضية من الواح الخشب الخشن ، وله شباكان كبيران يسمحان بدخول الضياء ، وفيه سرير وطاولة وكرسي وموقد . وكان اتساعه كافياً لكي يضع فنسنت نموذجه في أحد الطرفين على مسافة تتيح له فرصة المنظور الكامل . ولم يتخلف عن الحضور والوقوف أمامه أحد من زوجات العمال ولا أطفالهم الذين سبق لهم ان أسدى اليهم يد المساعدة خلال الشتاء الماضي ، بل ولم يستنكف عنه أحد ممن طلب منهم المثول أمامه من جميع أهالي بيتي وازمس . وكان العمال يأتون في أيام الآحاد ، فيحتشدون في كوخه ، ويدعونه يرسم مخططات سريعة لهم . وقد عدوا ذلك تسلية عظيمة . وظل المكان يعج دائماً بأناس ينظرون من وراء كتفي فنسنت بينما هو يعمل ، فيستشعرون السرور والحيرة .

ووصلت « تمارين رسم الجسد » من الهاج ، وقضى فنسنت الاسبوعين التاليين في نسخ ستين دراسة ، عاكفاً على العمل من الصباح الباكر حتى الليل . وقد قام فنسنت بهذا المجهود بحيوية هائلة .

وتلاشت من ذهنه تلاشياً تاماً ذكريات الاخفاقات الخمسة السابقة . فلقد منحه الابداع الفني من القناعة الراسخة الثابتة والنشوة الشفافة ما لم

تمنحه اياه حتى خدمة الرب في الكنيسة . ولذا فانه حين عاش طوال أحد عشر يوماً دون سنتيم واحد في جيبه ، واضطر إلى الاكتفاء بالأرغفة القليلة التي كان يقترضها من مدام دينييس ، لم يتذمر مرة واحدة ، حتى بينه وبين نفسه ، من الجوع . فأية أهمية لجوع البطن ، إذا كانت روحه تتلقى هذا الغذاء الموفور .

وثابر طوال أسبوع ، على الذهاب إلى بوابة ماركاس في الساعة الثانية والنصف صباحاً ، والقيام برسم لوحة كبيرة للعمال ، رجالاً ونساء ، وهم يقصدون البوابة عبر الثلج ، ويسيرون في ممر يوازي سياجاً من الشوك ، وهم ظلال تمر في غبشة الفجر ولا تظهر تفاصيلها . أما في خلفية اللوحة فرسم المباني الضخمة بالمنجم ، وكتل الطوب واقفة بغموض في مواجهة السماء . وعندما فرغ من المخطط ، رسم نسخة عنه ، وبعث بها في رسالة إلى ثيو .

وعلى هذا النحو مر شهران كاملان ، وهو يرسم من الفجر حتى الظلام ، ثم ينسخ ما رسمه على ضوء المصباح . وراودته من جديد رغبة الالتقاء بفنان آخر والتحدث اليه ، لكي يعرف كيف سارت أموره . ذلك انه على الرغم من اعتقاده انه احرز بعض التقدم ، وحقق قليلاً من المرونة في يديه وفي قدرته على المحاكمة ، فلم يسعه أن يكون واثقاً . إلا انه في هذه المرة اراد فنانا من الكبار ، فنانا يضعه تحت جناحه ويعلمه أصول الحرفة باناة واهتمام . وفي سبيل هذا التوجيه ما كان ليدخر أي شيء في حوزته . وما كان ليستنكف حتى عن تلميع حذائه ، وغسل بلاط محترفه ، عشر مرات في اليوم .

وكان يعيش في كوريير ، الواقعة على مسافة مائة وسبعين كيلومتراً ،

الفنان جولز بريتون ، وهو فنان أعجب فنسنت بأعماله منذ أيامه المبكرة. وركب فنسنت القطار في اتجاه كورييرو ، على قدر نقوده ، ثم سار خمسة أيام ، ينام اذا نعس بين أكوام التبن ، ويتسول خبزه اذا جاع مقابل رسم أو رسمين. وعندما أصبح بين أشجار كورييرو واتضح له ان بريتون فرغ لتوه من انشاء مرسم جديد رائع ، مبني بالطوب الأحمر ، وفقاً لأفخر المواصفات ، عندئذ خذلته شجاعته . ودار في البلدة يومين ، غير ان مظهر المرسم ، وما ينطوي عليه من برود وقلة ترحيب ، قد صده في نهاية الأمر. وهكذا بدأ رحلة المائة وسبعين كيلومتراً ، سيراً على الاقدام، عائداً إلى البوريناج ، وهو منهك يعاني أشد الجوع ، وليس في جيبه سنتيم واحد ، اضف إلى ذلك ان حذاء المبجل بيترسين ، كان يهترىء تحت قدميه منذراً بسوء العاقبة .

وصل في نهاية المسيرة إلى كوخه المستأجر عليلاً قانطاً . ولم يجد في انتظاره نقوداً ولا رسائل . فآوى إلى فراشه . وقامت نسوة العمال على تمريضه ، وقدمن اليه ما استطعن من مقادير زهيدة من الطعام وفرنها من أفواه ازواجهن وأطفالهن .

لقد فقدمن وزنه بضعة ارطال في الرحلة، وظهرت التجاويف في خديه من جديد ، وأدت الحمى إلى اشعال الاغوار غير ذات القاع في عينيه الخضراوين — السوداوين . إلا ان ذهنه احتفظ بصفائه على الرغم من المرض ، وعرف انه بلغ النقطة التي يتحتم عليه فيها اتخاذ قرار ما .

ماذا يفعل بحياته ؟ هل يصبح معلم مدرسة ، أو بائع كتب ، أو متعاملاً بالفن أو كاتباً تجارياً ؛ وأين يسكن ؟ افي باريس مع ثيو ؟ أم في

امستردام مع أعمامه ؟ أم في اللامكان حيث تلقي به الصدفة ، فيعمل في المهنة التي املاها عليه الحظ ؟

وذات يوم ، وقد عادت إليه عافيته قليلاً ، وجلس متكئاً في سريره ينسخ لوحة « الأتون في الأراضي البور » للرسام ثيودور روسو ، متسائلاً في نفسه إلى متى سيظل منغمساً في هذه التسلية الصغيرة غير المؤذية ، تسلية الرسم ، فتح الباب شخص ما ، دون ان يطرقه ، وخطا إلى الداخل.

وإذا به شقيقه ثيو !

— ٢٠ —

ان درب السنوات قد دفع ثيو إلى الامام . فهو اليوم . وان لم يتجاوز الثانية والعشرين ، أحد المتعاملين الناجحين بالفن في باريس ، يحظى باحترام زملائه وأسرته . ويمارس جميع اللياقات الاجتماعية في لباسه وطلاقته ومحادثته . وكان يرتدي معطفاً أسود فاخراً ، سابغاً إلى أعلى فوق صدره ، تزين حوافه أشرطة من قماش الساتان ، ويرتدي ياقة عالية صلبة ، وربطة عنق بيضاء ذات عقدة ضخمة .

وكانت جبهته هائلة ، شأن آل فان جوخ ، وشعره بنياً غامقاً ، وملامحه أنيقة أقرب إلى ملامح النساء . وكانت عيناه دقيقتين حزينتين ، ووجهه مستدقاً بشكل بيضاوي جميل .

استند ثيو إلى باب الكوخ وحدق في فنسنت مرتعباً . لقد غادر باريس قبل ساعات قليلة . وهناك ترك وراءه شقته المؤثثة بأثاث بديع من طراز لويس فيليب ، وطست اغتسال مع الفوط والصابون ، وستائر على

الشبابيك ، وسجاجيد على الأرض ، ومقعداً للكتابة ، وصناديق للكتب ، ومصابيح ذات اضاءة هادئة ، وورق جدران بهيجا . وها هو فنسنت يرتمي فوق حشية عارية ، تغطيه ملاءة عتيقة ، وحوله جدران وأرضية من ألواح الخشب الثخين،ولا أثاث هناك إلا طاولة باليه وكرسي. وكان اشعث اغبر ، يتناثر على وجهه ورقبته شعر لحيته الحمراء .

وقال فنسنت « حسناً يا ثيو . »

فتقدم ثيو غبر الغرفة متعجلاً ، وانحنى فوق السرير وقال « فنسنت ما الذي أصابك بحق الاله ؟ ماذا فعلت بنفسك ؟ »

« لا شيء . أنا الآن على ما يرام . لكنني كنت مريضاً لبرهة .»

« ولكن هذا . . هذا . . الجحر ! مؤكد انك لا تقيم هنا . . وهذا ليس منزلك ؟ »

« نعم . ما شأنه ؟ إنني استخدمه بمثابة محترف . »

فتحسس بيده شعر أخيه. وقال « اوه . . يا فنسنت ! » ولم يتمكن من الكلام بسبب الغصة في حلقه .

« شيء طيب أن تكون هنا يا ثيو . »

« فنسنت ،اخبرني – ارجوك – ماذا جرى لك ؟ولماذا كنت مريضاً؟ وما الحكاية ؟ » فروى له قصة رحلته إلى كورييز .

« لقد ارهقت نفسك . هذه هي الحكاية . هل كنت تأكل جيداً منذ ان عدت ؟ هل كنت تعتني بنفسك ؟ »

« كانت نسوة عدال المنجم يقمن على تمريضي . »

« طيب . ولكن ماذا كنت تأكل ؟ » ونظر ثيو حوله واستطرد «اين تضع مؤونة طعامك ؟ انني لا أرى شيئاً . »

« النساء يحضرن لي بعض الأشياء كل يوم ، مما يوفرنه في بيوتهن ، من خبز وقهوة وقليل من الجبن أو لحم الأرنب . »

« ولكن يا فنسنت ، أنت لابد تعلم انك لا تستطيع أن تسترد قواك بالخبز والقهوة . فلماذا لا تشتري لنفسك بعض البيض والخضار واللحم؟» في البوريناج ، كما في كل مكان آخر . »

جلس ثيو على السرير .

« فنسنت . سامحني بحق الاله ! فانني لم أكن اعلم : ولم اكن افهم».

« لا بأس يا غلام ، فقد فعلت ما في وسعك . وانني آخذ في التحسن ، وان هي إلا أيام قلائل فاذا بي انهض وانشط ثانية . »

مسح ثيو على عينيه بيديه ، كأنه ينفض عنهما غشاوة عنكبوت ، وقال « لا . لم أكن أعلم . لم أكن افهم يا فنسنت . »

« اوه انتهينا . ولا بأس . اخبرني عن الأحوال في باريس . إلى أين تمضي امورك ؟ هل ذهبت إلى ايتن ؟ »

قفز ثيو من مجلسه وقال « هل هناك متاجر في هذه البلدة المهجورة ؟ هل استطيع ان اشترى بعض الحاجيات هنا ؟ »

« نعم . هناك دكاكين في وازمس أسفل التل . ولكن دعنا من هذا ،

واسحب ذلك الكرسي وحدثني . فانني اريد ان اتحدث معك . يا إلهي .. لقد مرت علينا قرابة عامين يا ثيو ! »

ربت ثيو بأصابعه متحسساً وجه احيه وقال « سأزودك قبل كل شيء بمؤونة كاملة من أفضل الطعام الموجود في بلجيكا . فلقد برح بك الجوع ، وهذا هو ما جرى لك . ثم سأعالجك بجرعة من دواء لتلك الحمى ، وادعك تنام على وسادة ناعمة . ومن الخير انني جئت إلى هنا في الوقت اللازم . ولو كانت لدي أدنى فكرة . . ابق بلا حراك حتى أعود إليك.»

خرج يجري من الباب . وأمسك فنسنت بقلم الرصاص ، ونظر إلى « الأتون في الأراضي البور » ، وواصل النسخ . وعاد ثيو بعد نصف ساعة يتبعه صبيان صغيران ، وقد حمل معه ملاءتين ووسادة ورزماً من الأواني والصحون ولفائف من الطعام . ثم وضع فنسنت بين الملاءتين البيضاويتين الرطبتين وحمله على الاستلقاء .

وسأله « والآن ، كيف تقوم بتشغيل هذا الموقد ؟ » وعمد إلى خلع معطفه الجميل ، والتشمير عن كميه .

« ائت بقليل من الورق والأغصان الدقيقة ، فأشعلها اولاً ، ثم ضع الفحم . »

حدق ثيو في التر ابة وقال « فحم ! اتدعو هذا الشيء فحماً ؟ »

« هذا ما نستخدمه . دعني ارك كيف توقده .»

وحاول أن ينهض من سريره ، ولكن ثيو أدركه بقفزة واحدة .

وصاح « استلق أيها الابله ! ولا تتحرك ثانيه ، والا اضطررت لضربك . »

ابتسم فنسنت لأول مرة منذ شهور عديدة . فأوشكت هذه الابتسامة في عينيه ان تطرد الحمى ووضع ثيو بيضتين في اناء من اوانيه الجديدة ، وقطع بعض قرون البازلاء في اناء آخر ، وقام بتسخين حليب طازج في وعاء ثالث ، وعرض للنار صفيحة تحميص الخبز ، وفوقها شرائح من الخبز الابيض . وراح فنسنت يرمق ثيو وهو يحوم حول الموقد مشمراً عن كميه ، فأفاده مرأى أخيه إلى جواره أكثر مما أفاده أي طعام .

وصارت الوجبة جاهزة بعد قليل . فقرب ثيو الطاولة إلى جانب السرير ، ونشر فوطة نظيفة كانت في حقيبته ، ووضع قدراً جيداً من الزبد فوق البازلاء ، وقشر البيضتين المساوقتين في طبق ، وامسك بملعقة . وقال « كله تمام يا صبي . افتح فمك ، فانك ستنال وجبة متوازنة لأول مرة منذ زمن لا يعلمه إلا الله . »

وقال فنسنت « اوه . دعنا من ذلك يا ثيو . إنني أستطيع أن أطعم نفسي . »

لكن ثيو ملأ الملعقة بالبيض ، ورفعها إلى فم فنسنت قائلاً « افتح فمك أيها الفتى الصغير ، وإلا وضعت البيض في عينك . »

وحينما فرغ فنسنت من الطعام ، وضع رأسه على الوسادة ثانية ، . متنهداً تنهيدة عميقة ، تعبر عن رضاء نفسه ، وقال « ما ألذ الطعام . لقد نسيت ذلك . »

« عليك ألا تنسى ذلك مرة أخرى في غمرة الاستعجال . »

« اخبرني الآن يا ثيو عن سير جميع الأمور . كيف هي أحوال محلات جوبيل ؟ انني متعطش لانباء العالم الخارجي . »

« ابق متعطشاً اذن ، برهة قصيرة أخرى . وإليك هذا الشيء الذي . يساعد على النوم ، فأنا اريدك هادئاً ، وان تتيح لذلك الطعام فرصة كي يحدث مفعوله . »

« ولكنني لا أريد أن أنام يا ثيو . بل أريد التحدث . وفي وسعي أن أنام في أي وقت . »

« لم يسألك أحد عما تريد أنت . انك تتلقى الأوامر وكفى . فاشرب هذا الشيء كما يفعل الصبي الطيب . وعندما تصحو من النوم سأمدك بشريحة من لحم البقر والبطاطس ، تقيمك على قدميك فوراً . »

نام فنسنت حتى غروب الشمس ، واستيقظ شاعراً بانتعاش عظيم . وكان ثيو جالساً تحت إحدى النوافذ ، ينظر في رسوم فنسنت . وراقبه فنسنت وقتاً طويلاً قبل أن يند عنه صوت ، وكان يشعر في قلبه بالسكينة. فلما انتبه ثيو إلى صحوته ، قفز إليه بابتسامة عريضة .

« والآن . . كيف تراك تشعر ؟ أفضل ؟ لقد نمت نوماً مؤكداً . »

« ما رأيك في الرسومات ؟ هل أحببت أياً منها ؟ »

فأشار إلى آنية موضوعة فوق الموقد قائلاً « انتظر حتى أضع شرائح اللحم البقري . لقد قشرت البطاطس وأعددتها للطبخ . » ثم جاء بطست من الماء الدافيء إلى جانب السرير وقال « هل أستخدم الموسى الخاص بي أم ذلك الخاص بك ؟ »

« ألا أستطيع أكل اللحم دون أن تحلق ذقني ؟ »

« لا يا سيدي ، وليس قبل أن أغسل لك رقبتك واذنيك ، وأمشط لك شعرك كما ينبغي . اليك هذه الفوطة ، فضعها تحت ذقنك . »

وقام بحلاقة ذقن فنسنت ، وغسله بعناية ، ومشط شعره ، وألبسه قميصاً من القمصان الجديدة التي كانت في حقيبته .

ثم تراجع إلى الخلف ليعاين المهمة التي انجزها ، وصاح « هذا هو الشغل ! انت تبدو الآن في مظهر فان جوخ . »

« ثيو ، اسرع ! ان شرائح اللحم تحترق ! »

جهز ثيو المائدة ، ووضع البطاطس المسلوقة بالزبدة ، وشرائح من اللحم البقري الثخين الطري ، وبعض الحليب .

« بالله عليك يا ثيو ، هل تظنني قادراً على أكل هذا اللحم كله ؟ »

« لا ، بالتأكيد . فان نصفه سيكون من نصيبي . فلنبدأ بالشغل الجاد. وكل ما ينبغي أن نفعله هو أن نغلق عيوننا ونتخيل اننا في البيت بايتن .»

وبعد الغداء ملأ ثيو غليون فنسنت بشيء من التبغ الوارد من باريس، وقال له « دخن . ولو أنني كنت حريا ان امنعك من التدخين ، على انني أظن ان التبغ الحقيقي سيعود عليك بنفع أكبر مما يعود بضرر . »

دخن فنسنت قرير النفس ، وبين الحين والحين كان يمسح على خده الناعم بساق الغليون الرطب . وراح ثيو ينظر من خلال موقد الغليون ، وعبر الألواح الخشبية الخشنة التي يقوم عليها الكوخ ، مستذكراً طفولته في البرابانت . لقد كان فنسنت دوماً أهم شخص في العالم بالنسبة اليه ، وكان أهم حتى من امه وابنه ، وفنسنت هو الذي جعل طفولته حلوة طيبة . غير أنه نسي هذا خلال عامه الأخير في باريس ، ولا يجوز له أن ينسى مرة أخرى . فالحياة بدون فنسنت تغدو غير مكتملة بصورة ما. إذ انه يشعر انه جزء من فنسنت ، وان فنسنت جزء منه . ولقد قدر لهما

دائماً أن يفهما العالم معاً ، فاذا ظل ثيو وحيداً ، كأنه يصاب بنوع من الارتباك . انهما معاً قد اكتشفا معنى الحياة وهدفها ، ومعاً قدرا قيمتها . فاذا ظل وحيداً فانه لا ينفك عن التساؤل حول السبب الذي من أجله يعمل ويحرز النجاح . ولا بد من وجود فنسنت لتصبح حياته مكتملة . كما أن فنسنت في حاجة اليه ، لأنه في حقيقته ليس إلا طفلاً . وينبغي انتشاله من هذا الجحر ، وانهاضه على قدميه من جديد . وينبغي حمله على الادراك بأنه يضيع نفسه ، ودفعه نحو عمل يعيد اليه الفتوة .

قال « فنسنت . انني سأمهلك يوماً أو يومين حتى تستعيد عافيتك ، ثم سآخذك إلى البيت في ايتن . »

بقي فنسنت على صمته بضع دقائق ، لا يصدر عنه إلا صوت لهاثه، فهو يعلم انه لا مندوحة من تقليب الرأي في هذا الأمر كله ، وانه لا واسطة لفعل ذلك ، مع الأسف ، إلا واسطة الكلمات . نعم ، ان عليه ان يجلب ثيو إلى دائرة الفهم . وبعدها سيصبح كل شيء على ما يرام.

« ثيو ، قل لي ما هو جدوى ذهابي إلى البيت ؟ بعد أن أصبحت على غير ارادة مني ، شخصاً مشكوكاً فيه مستعصياً على الفهم من قبل الأسرة ، أو قل على الأقل شخصاً لا يثقون به . ولهذا فانني أعتقد ان . افضل ما أفعله هو أن اجعل ما بيني وبينهم مسافة ما ، حتى أصبح بالنسبة اليهم انساناً غير موجود .

« انني رجل عواطف ، غير مستعبد عليه القيام بتصرفات خرقاء. فقد اتكلم او اتصرف على عجل ، في حين يستدعي الأمر اناة وصبرا . فاذا كان الحال كذلك ، فهل معناه ان اعد نفسي رجلاً خطراً ، غير قادر

على فعل أي شيء ؟ انني لا أرى ذلك . ولكن المسألة هي أن أحاول وضع عواطفي الذاتية في استخدام جيد . انني على سبيل المثال املك ميلاً لا يقاوم نحو الصور والكتب . وأريد أن أثقف نفسي تثقيفاً مستمراً ، كما آكل خبزي اليومي . انت تفهم ذلك حتماً .»

« انني أفهم ذلك يا فنسنت ، إلا أن النظر إلى الصور وقراءة الكتب في مثل سنك ، ليس أكثر من تسلية . وليس الذلك علاقة بالعمل الأساسي في الحياة . وقد مرت عليك قرابة خمس سنوات حتى الآن ، وانت لا تمارس وظيفة ، وإنما تتجول هنا وهناك ، وفي غضون ذلك الوقت كنت تنحدر إلى أسفل وكنت تتدهور . »

افرغ فنسنت شيئاً من التبغ في يده ، وفركه بين راحتيه ليجعله رطباً ، وحشاه في غليونه ، ثم نسي ان يشعله .

وقال « صحيح انني كنت بين الحين والآخر اكسب بنفسي كسرة الخبز التي آكلها ، وأحياناً احصل عليها من صديق محسن . وصحيح انني فقدت ثقة الكثيرين لأن أحوالي المالية في حالة محزنة ، ولأن مستقبلي يبدو كئيباً . ولكن هل يعني ذلك بالضرورة التدهور ؟ ان واجبي يا ثيو هو أن أحافظ على الطريق الذي سلكته . اما إذا توقفت عن الدراسة وعن البحث ، فعند ذلك أكون قد وضعت .»

« من الواضح أيها الغلام العجوز انك تريد أن تخبرني بشيء معين . ولكن لتحل علي البركة اذا انا استطعت أن اجمعه . »

اشعل فنسنت غليونه ، واستغرق في لهب الكبريت ، ثم قال « مازلت أذكر الزمن الذي مشينا فيه معاً قرب الطاحونه القديمة في رايزويك . ويومها اتفقنا سوياً على أشياء عديدة . »

« ولكنك يا فنسنت تغيرت كثيراً . »

« ليس هذا صحيحاً تماماً . نعم ان حياتي كانت أقل صعوبة في ذلك الحين ، ولكن طريقتي في النظر إلى الأشياء وفي التفكير لم تتغير »

« أود أن أصدق ذلك ، من أجل خاطرك . »

« ثيو ، لا تحسب انني اتنصل من مسؤولياتي عن الأشياء . انني وفي في عدم وفائي ، غير ان حيرتي الوحيدة هي كيف أغدو ذا نفع في هذا العالم ؟ ألا أستطيع أن أخدم هدفاً ما وان أكون ذا جدوى ؟ »

نهض ثيو ، وجاهد حتى استطاع اشعال مصباح الكاز . ثم صب كوباً من الحليب وقال « خذ اشرب هذا . فأنا لا أريدك أن تجهد نفسك. »

جرعه فنسنت بسرعة كبيرة ، وهو يكاد يغص بدسامته . واستطرد قائلاً ، دون أن يتمهل ليجفف الفشدة من فوق شفتيه المشتهيتين « قل لي : هل تفصح أفكارنا الداخلية ابدا عن نفسها في العالم الخارجي ؟ انني ارى ان روح المرء قد تحتوي على نار عظيمة ، دون أن يأتي انسان ليستدفىء بها . فاما عابرو السبيل فلا يرون إلا شيئاً من الدخان يتصاعد من المدخنة ، ثم يستمرون في سيرهم والآن قل لي : ما الذي ينبغي أن يفعل ؟ أليس من واجب المرء أن يرعى تلك النار الباطنية ، وان تكون له ثقة في نفسه ، وان يصابر حتى تحين الساعة التي يأتي فيها شخص ما ، فيجلس إلى جوارها ؟ »

نهض ثيو . ثم جلس على السرير وسأل « هل تعرف ما هي الصورة التي ومضت في ذهني هذه اللحظة ؟ »

« لا . »

« الطاحونة القديمة في رايزويك . »

« كانت طاحونة قديمة بديعة . اليس كذلك ؟ »

« بلى . »

« وطفولتنا ايضاً كانت بديعة . »

« انت جعلت طفولتي ممتعة يا فنسنت . ان ذكرياتي الاولى كلها تدور حولك . »

ثم حل بينهما صمت طويل .

« فنسنت . انني آمل أن تكون قد ادركت ان الاتهامات التي وجهتها اليك صدرت عن الاهل وليس عني . لقد اقنعوني ان آتي إلى هنا وان اخجلك من نفسك حتى تعود إلى هولندا وتجد لنفسك عملاً . »

« لابأس يا ثيو . فالكلام الذي يقولونه صحيح تماماً . وكل ما في الامر انهم لا يتفهمون دوافعي ولا يرون حاضري في علاقته مع حياتي بمجموعها . ولكن اذا كنت اناقد انحدرت في هذا العالم ، فانت – على العكس – قد ارتفعت ، وهذا يسعدني جداً . وانني لاقولها بكامل الاخلاص ، وسأظل كذلك دائماً . على انني سأكون مغتبطاً للغاية اذا كان في وسعك ان ترى في شخصي شيئاً اخر ، وليس رجلاً متبطلاً من اسوأ الاصناف . »

« دعنا نسى هذه الكلمات . والحقيقة ان انقطاعي عن الكتابة اليك طيلة سنة مضت ، كان مرده الاهمال ، لا الاستنكاف فلقد آمنت بك ، ووثقت بك ثقة مطلقة منذ ايامنا الباكرة ، عندما كنت امسك بيدك ونحن سائران في الحقول العالية المشوبة في زندرت .

وهي ثقة لم يتعورها اي نقص الان . ولست اريد الا ان اكون قريباً منك ليتسنى لي ان اعرف ان اي شيء تفعله سوف يؤول إلى التوفيق .

ابتسم فنسنت ابتسامة عريضة سعيدة ، تنتمي إلى عالم برابانت وقال « هذا جميل منك يا ثيو . »

وفجأة تحول ثيو إلى رجل الافعال .

« انتبه إليَّ يا فنسنت . دعنا نرتب هذا الامر في هذا المكان وهذه اللحظة . انني اظن ان وراء جميع هذه الصيغ المطلقة التي تستخدمها شيئاً معيناً تريد ان تفعله .. شيئاً تحس به يطابق ميولك وسوف يجلب لك السعادة والنجاح في نهاية المطاف . اذن قل لي ايها الغلام العجوز ما هو ؟ واعلم ان جويل وشركاه رفعوا اجري مرتين خلال العام ونصف العام الماضيين وانني املك من النقود اكثر مما اجد له ابواباً للانفاق . فاذا كان ثمة ما تريد ان تفعله ، وكنت محتاجاً إلى المساعدة في بداية الامر فقل لي ببساطة انك وجدت في النهاية العمل الحقيقي لحياتك ، وهنا اشكل واياك شركة فتقوم انت من جانبك بتقديم جهدك ،واقوم أنا بتقديم المال اللازم،وعندما تصبح قادراً على الايفاء بالتزامات مالية ، تعيد لي المال الذي استثمرته ، مع ربح الاسهم . والان اعترف لي : ما الذي يدور في خلدك ؟ الم تتوصل منذ وقت طويل إلى ان هناك شيئاً معيناً تريد ان تحققه فيما تبقى من حياتك ؟ »

نظر فنسنت إلى رزمة الرسومات التي كان ثيو يدرسها تحت النافذة . وانتشرت على وجهه ابتسامة حملت في البداية ظل الحيرة وعدم التصديق ، ثم عبرت عن انه فطن إلى الحقيقة . فانفتحت عيناه

على اتساعهما وانفغر فوه ، وتراءى ان شخصيته باسرها انفجرت كما ينفجر في الشمس .

وهمهم يقول « مباركاً سوف اكون اذن .. هذا ما كنت احاول ان اقوله منذ البداية ، الا انني لم اكن اعرفه . »

واتجهت عينا ثيو وراء عيني فنسنت نحو الرسومات وقال « هذا ما فكرت فيه . »

كان فنسنت يرتعش اضطراباً وفرحاً ، وبدا كأنه افاق فجأة من سبات عميق .

« ثيو ، انت عرفت ذلك قبل ان اعرفه ! اما انا فما كنت لاطلق لنفسي العنان للتفكير فيه . نعم ! ان هناك ما يجب علي ان اقوم به . وهو الشيء الذي توجهت اليه طيلة حياتي ، ولم يساورني الشك فيه . اذ شعرت دائماً بدافع قوي للرسم ، ولتصوير ماأراه على الورق عندما كنت ادرس في امستردام وبروكسل . ولكنني لا اسمح لنفسي بممارسته لأنني خشيت ان يتعارض مع ما ظننته عملي الحقيقي . عملي الحقيقي ؟ كم كنت أعمى ! فطوال هذه السنوات كان ثمة شيء يحاول ان يندفق من داخلي ، وانا لا اكف عن كبحه وقمعه . وها انا ذا الان في السابعة والعشرين لم احقق انجازاً ، فيالي من ابله .. يا لي من ابله مطبق العمى والغباوة اذ اقترفت ذلك . »

« ليس هذا أمراً ذا بال يا فنسنت ، انك بما تملك من قوة وتصيم قادر على ان تنجز اكثر الف مرة مما ينجزه أي مبتدىء . ثم ان حياتك ما زالت يطولها امامك . »

« امامي عشر سنوات على كل حال . وسوف أتمكن من انجاز شيء من العمل الجيد في هذا الوقت . »

« سوف تتمكن طبعاً ! ويمكنك ان تقيم في اي مكان شئت . سواء في باريس او بروكسل او امستردام او الهاج . وما عليك الا ان تحدد اختيارك فأرسل لك النقود شهرياً إلى المكان الذي ترغبه . ولا يهمني لو استغرق الامر سنوات يا فنسنت ، وان افقد الامل ما دامت انت مستمسكاً به . »

« اوه يا ثيو . طوال هذه الشهور المريرة وانا اعمل في اتجاه شيء ما ، محاولاً ان اهتدي إلى الهدف والمغزى من حياتي . فلا اهتدي ! اما الان وقد عرفته فانني لن اصاب بالاحباط ثانية . هل تعرف يا ثيو معنى ذلك ؟ معناه انني وجدت نفسي بعد هذه السنوات الضائعة كلها . سأغدو فناناً . نعم ، بالطبع ، سأغدو فناناً . وليس امامي إلاّ ان أغدو فناناً . وهذا هو السبب في انني اخفقت في جميع اعمالي الاخرى اذ لم اكن مقدراً لها . اما الان ، فقد وقفت امام العمل الذي لا يمكن ان يفشل . اوه يا ثيو . لقد انفتح السجن المؤصد اخيراً ، وكنت انت الذي ازاح قضبان ابوابه ! »

« لا شيء في الوجود يمكن ان يفرقنا ! اننا معاً من جديد ، السنا معاً يا فنسنت ؟ »

« نعم يا ثيو ، مدى الحياة . »

« والان ، ما عليك الاّ ان ترتاح وتتماثل للشفاء . وسوف آخذك

بعد ان تتحسن صحتك خلال ايام قليلة إلى هولندا او باريس اواي مكان يروق لك . »

وثب فنسنت من السرير وثبة حملته إلى منتصف الكوخ .

وصاح « تقول خلال ايام قليلة ! يالجهنم ! نحن ذاهبان الآن فوراً . هناك قطار يتجه إلى بروكسل على الساعة التاسعة . »

وشرع ينتزع ملابسه بسرعة هائلة .

« ولكنك لا تستطيع ان تسافر ليلاً يا فنسنت . فانت مريض . »

« مريض ! هذا تاريخ غابر . انني لم اشعر في حياتي انني افضل حالاً من هذ اللحظة . هلم يا ولد يا ثيو ، ان امامنا حوالي عشر دقائق لبلوغ محطة القطار ، فألق بتلك الملاءات البيضاء الظريفة في حقيبتك، ودعنا نمض في طريقنا ! »

* * *

الكتاب الثاني
ايتن

ـ ١ ـ

قضى ثيو وفنسنت في بروكسل يوماً واحداً ، ثم عاد ثيو إلى باريس . كان الربع قادماً ، وريف البرابانتيين يرسل نداءاته . وبات يخيل لفنسنت ان البيت مرفأ سحري . وابتاع لنفسه بدلة عامل مصنوعة من قماش المخمل الاسود الشهير باسم فيلوتين . كما اشترى للرسم اوراق انجريز ملونة بداخلها نسيج قطني رقيق غير مبيض ، ثم ركب اول قطار ذاهب إلى ايتن ، حيث بيت والده القسيس في حرم الكنيسة .

وكانت انا كورنيليا تعارض حياة فنسنت ، لانها شعرت انها تعود عليه بالشقاء لا بالسعادة . اما ثيو دوروس فكان يعارضها على اسس موضوعية ، فلو ان فنسنت كان ابن شخص سواه ، لما عناه الامر . وكان يعتقد ان الرب لا يحب هذه الطريقة الشريرة التي اختطها فنسنت لحياته ، ولكنه يخشى في ظنونه ان يكون الرب في الوقت نفسه اقل حباً لنبذ الوالد ولده .

ولاحظ فنسنت ان شعر والده ازداد شيباً ، وان جفنه الأيمن

ازداد ارتخاء وهبوطاً فوق عينه . وبدا كأن التقدم في العمر اخذ يقلص ملامحه ، في حين لم يطلق لحيته فتعوض النقص ، وهكذا تحول التعبير الماثل على وجهه من « هذا هو انا » إلى « اهذا هو انا ؟ ! »

اما فيما يخص الوالدة ، فقد وجدها فنسنت اعظم قوة وجاذبية من ذي قبل . فالتقدم في العمر ارتقى بها صعداً ، ولم ينحدر بها هبوطاً . وكانت الابتسامة المطبوعة بخطوط منحنية ما بين منخريها وذقنها تعبر عن صفحها عن اخطاء الانسان من قبل ان يرتكبها . وكان وجهها العريض الواسع الطيب ناطقاً بالثناء على ما في الحياة من جمالات .

ظلت الاسرة طوال ايام عديدة تكلأ فنسنت بالطعام المغذي وبالحنان ، متناسية انه في الحقيقة لا يملك ثروة ولا مستقبلاً . وكان يسير في المراعي بين الاكواخ المسقوفة بالقش ، ويشاهد قاطعي الاخشاب المنهمكين في عملهم عند قطعة من الارض استؤصلت من فوقها غابة صنوبر ، ويتمشى متمهلاً على طريق روزندال بعد الحظيرة البروتستنتية ذات الطاحونة الواقعة في مواجهة المرج واشجار الدردار في الكنيسة . وهكذا تراجعت ذكريات البوريناج ، وعادت اليه صحته وعافيته في فورة عاجلة ، فلم يمض وقت قصير حتى اصبح متشوقاً ليبدأ عمله .

وفي ذات صباح ممطر نزلت انا كورنيليا إلى المطبخ في ساعة مبكرة ، فوجدت الموقد مشتعلاً يتوهج ، وفنسنت جالساً امامه وقد اسند رجليه إلى خزان الوقود ، وفي حجره ورقة يرسم عليها نسخة لم تتم بعد من احدى رسوم « ساعات الرحلة » .

وهتفت به « مرحباً ولدي . صباح الخير . »

فقال وهو يقبل خدها العريض بشغف « صباح الخير يا امي . »

« ما الذي يوقظك في هذه الساعة الباكرة ؟ »

« اردت ان اشتغل يا امي . »

« تشتغل ؟ »

نظرت انا كورنيليا إلى الرسم التخطيطي في حجره ، ثم نظرت اليه على ضوء الموقد المتوهج ، وقالت « اوه . انت تقصد انك اردت ايقاد النار . ولكنك لا ينبغي ان تستيقظ لتفعل ذلك . »

« لا ، وانما اردت ان ارسم . »

ومن جديد نظرت انا كورنيليا من وراء كتف فنسنت لترى الرسم . فبدا لها اشبه بجهود طفل يحاول تقليد شيء في احدى المجلات ، اثناء ساعة من ساعات لعبه .

« هل تريد ان تشتغل برسم الاشياء يا فنسنت ؟ »

« نعم . »

وشرح لها قراره ، واستعداد ثيو لمساعدته . فسرت أنا كورنيليا بذلك ، على عكس ما توقع . وذهبت إلى غرفة الجلوس سريعاً ، ثم رجعت ومعها رسالة .

وقالت « ان قريبنا انطون موف رسام . وهو يجني قدراً كبيراً من المال . وقد وصلتني هذه الرسالة البارحة من شقيقتي ، تخبرني فيها ان

موف تزوج ابنتها (جت) ، وهي تقول ان الخواجة تيرستيج في محلات جوبلز ، يبيع كل قطعة يرسمها انطون بمبلغ ستمائة أو سبعمائة جلدر .»

« صحيح . ان موف صار يعد واحداً من فنانينا المهمين . »

« كم يستغرق رسم الواحدة من تلك الصور يا فنسنت ؟ »

« يتوقف هذا على أمور عديدة يا أمي . فبعض اللوحات يستغرق أياماً معدودة ، وبعضها سنوات عديدة . »

« سنوات عديدة . اوه . . يا لي ! »

وفكرت أنا كورنيليا هنيهة ، ثم سألت « هل تستطيع أن ترسم الناس ، فيجيء الرسم شبيهاً بهم ؟ »

« لست أدري .ان عندي في الطابق العلوي بعض التخطيطات . وسوف اريك اياها . »

وعندما رجع وجد أمه ترتدي قبعة المطبخ البيضاء ، وتضع أواني تسخين الماء فوق الموقد العريض . وكان منظر الغرفة بهيجاً ، اذ انعكست الأضواء الزرقاء على آخر الحائط الأبيض .

وقالت آنا كورنيليا « انني اجهز لك فطيرة الجبن الاثيرة عندك يا فنسنت . فهل تذكر ؟ »

فقال لها وهو يشد ذراعيه حول كتفيها بخشونة « هل اتذكر ! آه يا أمي ! » فصعدت نظرها فيه بابتسامة حزينة . لقد كان فنسنت طفلها الأول والأحب . وكان شقاؤه هو الشيء الوحيد الذي يؤسفها في حياتها.

وسألته « هل أنت مسرور بوجودك مع أمك في البيت ؟ »

فقرص وجنتها المتجعدة عابثاً ، وأجابها « نعم أيتها الحبيبة . »

تناولت رسوم البورينيين ، وتأملتها بامعان .

« ولكن ماذا جرى لوجوههم يا فنسنت ؟ »

« لا شيء . لماذا تسألين ؟ »

« لأنهم ليست لهم أية وجوه . »

« أعرف ذلك ، ولكن الذي كان يعنيني هو أشكالهم . »

« ولكنك قادر على رسم وجوه الناس . ام انك لا تستطيع ؟ إنني متأكدة ان عديداً من النساء هنا في ايتن يسرهن أن تكون لهن لوحات مرسومة . . وفي ذلك مصدر رزق .

« نعم ، كما أظن . ولكنني يجب أن أصبر حتى يصبح رسمي صحيحاً . »

كانت أمه تكسر البيض في مقلاة تحتوي على جبن حامض صنعته في اليوم السابق . فتوقفت وهي تحمل قشر البيض المكسور في يديها ، واستدارت من أمام الموقد .

« هل تعني انك تريد أن يصبح رسمك صحيحاً ، لكي يكون من الجودة بحيث يمكن بيعه ؟ »

فقال فنسنت وهو يخطط بقلم الرصاص متعجلا « لا . أريد أن أجعل رسمي صحيحاً لكي يصبح رسمي صحيحاً . »

خفقت انا كورنيليا صفار البيض مع الجبنة البيضاء ، وهي تفكر في كلامه ، وقالت بعد ذلك « أخشى يا ولدي انني لا أفهم ذلك » .

وقال فنسنت « ولا انا افهمه . ولكن الأمر كذلك على كل حال . »

وعندما تحلقوا حول فطائر الجبن الذهبية الرقيقة على مائدة الافطار، نقلت انا كورنيليا الانباء إلى زوجها . وكانا قد قاما في السر بنشاطات استطلاعية غير هينة ، لمعرفة أحوال فنسنت :

وسأله أبوه « هل في الرسم مستقبل يا فنسنت ؟ هل ستغدو قادراً على إعالة نفسك ؟ »

— « ليس في مرحلة البداية . إنما سيقوم ثيو بمساعدتي حتى أقف على قدمي . وعندما تصبح رسوماتي مضبوطة ، سأغدو قادراً على كسب المال . علماً بأن المحترفين في لندن وباريس يكسبون ما بين عشرة إلى خمسة عشر فرنكاً في اليوم ، كما ان الرجال الذين يرسمون للمجلات يكسبون مبالغ طائلة . »

وشعر ثيودوروس بالخلاص اذ عرف ان في رأس فنسنت مشروعاً ما ، اياً كان ذلك المشروع ، وانه لن يقضي الوقت متبطلاً ، كما فعل خلال هذه السنوات كلها .

— « آمل يا فنسنت ، انك ان بدأت هذا العمل ، سوف تستمر فيه ، وان حليمة لن تعود لعادتها القديمة . »

— « هذه هي الخاتمة يا والدي . ولن أتغير ثانية . »

— ٢ —

أيام مضت ، ثم توقف المطر وحل الطقس الدافىء . وحمل فنسنت أدوات الرسم والمسند خارج البيت ، ومضى يستكشف الريف . وكان

أحب المواضيع لعمله هو المرج الواقع بجوار سب ، ولو انه كان كثيراً ما يذهب إلى مستنقع كبير في الباسيفارت ليرسم زنابق الماء . وكانت ايتن بلدة صغيرة متشابكة النسيج ، نظر إليه اهلها بازدراء ، فقد كانت حلته القطيفية السوداء أول حلة من نوعها تشاهد في القرية ، ثم إن السكان المحليين لم يعهدوا قط رؤية رجل مكتمل النمو ، لا عمل له الا قضاء أيامه في الحقول المفتوحة ، وليس في يده إلا قلم رصاص وأوراق للرسم . ولقد أبدى التجلة والاحترام لرعية والده ، وان فعل ذلك على نحو خشن خال من الاهتمام ، واما هم فقد تجنبوه من ناحيتهم . فأمثاله في هذه المستوطنة المحلية الصغيرة يقعون من الناس موقع الغريب الاستثنائي ، وكل شيء يخصه يعد شاذا ، بما في ذلك ملابسه وتصرفاته ولحيته الحمراء ، وتاريخه ، وبطالته ، وجلوسه المتواصل في الحقول وهو يتطلع إلى الأشياء. وهكذا غذوا فيأنفسهم شعوراً بعدم الثقة به وبالخوف منه لمجرد كونه مختلفاً عنهم ، على الرغم من انه لميوجه اليهم أذى ، وان كل ما كان يبغيه هو ان يترك وحيداً . على ان فنسنت لم يدر ان الناس لا يحبونه .

وكان منهمكاً في رسم دراسة أولية كبيرة لمنظر غابة الصنوبر المقصوصة ، جاعلاً تركيزه على شجرة منفردة على حافة جدول . وكان أحد العمال الذين يشتغلون بتجريف المكان يقترب منه ويأخذ في مراقبته وهو يرسم ، ناظراً من فوق كتفه بابتسامة فارغة ، ثم يطلق بين الحين والحين ضحكة نصف مكبوتة . واستغرق رسم الدراسة بعض الوقت وفي كل يوم تزداد قهقهة الفلاح ارتفاعاً . فقرر فنسنت ان يكتشف ما الذي يحمل الرجل على ذلك .

وسأله فنسنت بلهجة مهذبة — « هل ترى في قيامي برسم شجرة امراً مضحكاً ؟ »

فجلجل الرجل قائلاً – « نعم ، نعم ، انه مضحك جداً . ولابد انك معتوه ! »

فتمهل فنسنت لحظة ، ثم سأله – « لنفرض اني زرعت شجرة، فهل أكون عند ذلك معتوهاً ؟ »

فاكتسى وجه الفلاح بالجد فوراً وأجاب – « اوه . لا . مؤكد ان لا.»

– « فهل أكون معتوهاً اذا اعتنيت بالشجرة وتعهدتها بالرعاية .»

– « لا . بالطبع لا . »

– « فهل أكون معتوهاً إذا قطفت الثمار من فوقها ؟ »

– « إنك تسخر مني ! »

– « واذن ، فهل أكون معتوهاً إذا قطعت الشجرة وكسرتها اجزاء مثلما فعلوا هنا ؟ »

– « اوه ، لا ، فالأشجار ينبغي أن تقطع . »

– « واذن ، فانني أستطيع أن ازرع شجرة ، وان ارعاها ، وان اقطفها ، وان اقطعها . اما اذا انا رسمت شجرة فانني أغدو معتوهاً . هل هذا سليم ؟ »

وانفتح شدق الفلاح بابتسامته الواسعة ثانية ،وقال – « نعم . لابد أنك معتوه فتجلس هنا هذه الجلسة . ان القرية كلها تقول ذلك . »

وفي الأمسيات كان فنسنت يجلس مع بقية العائلة في غرفة الجلوس . وتتحلق الأسرة بكاملها حول الطاولة الخشبية الضخمة ، تخيط وتقرأ وتكتب الرسائل . وبينهم أخوه الأصغر كور الذي كان طفلاً هادئاً ،

لا يتكلم إلا نادراً . اما شقيقته انا فتزوجت وانتقلت إلى بيت الزوجية ، واما اليزابيث فكانت تكرهه كراهية مستعصية ، حتى انها بذلت وسعها لتتصرف كما لو أنه لم يحضر للبيت ، بينما كانت ويلمين متعاطفة ، وعلى استعداد للمثول أمامه ليرسمها كلما طلب ذلك منها ، وقد محضته صداقتها غير المشوبة بالانتقاد ، الا أن علاقتهما كانت مرتبطة بأشياء أرضية .

وكان دأب فنسنت ان يعمل فوق الطاولة أيضاً ، مرتاحاً في ضوء المصباح الأصفر الكبير الموضوع في منتصف الطاولة . فيقوم بنسخ التمارين أو الدراسات التي رسمها في الحقول في ذلك اليوم . وكان ثيودوروس يرقبه وهو يرسم الشكل الواحد أكثر من اثنتي عشرة مرة ، ويقذف دائماً بما انجز ، غير راض عنه . وأخيراً ضاق الخوري ذرعاً .

وقال وهو يستند على الطاولة العريضة – « فنسنت . ألا تتقن ما ترسمه ولو مرة واحدة ؟ »

فأجاب فنسنت – « كلا . »

– « إنني في هذه الحالة أتساءل ألست ترتكب خطأ ؟ »

– « بل أقع في أخطاء عديدة جداً يا أبي ، فالى أيها تشير ؟ »

– « يبدو لي أنك لو كنت تتمتع بأية موهبة ، ولو كنت مطبوعاً على الفن لجاءت هذه الرسوم مضبوطة من أول مرة . »

نظر فنسنت إلى دراسته التي تمثل فلاحاً راكعاً أمام حقيبة يضع فيها حبات البطاطس ، وكان يبدو له ان خط الذراع مستعص على التصوير . »

وقال – « ذلك جائز يا أبي . »

– « ما أعنيه هو انه لا ينبغي لك أن ترسم هذه الأشياء مائة مرة ، دون أن توفق إلى رسمها الرسم الصحيح مرة واحدة . فلو كنت تملك القدرة الطبيعية ، لو أتاك الرسم دونما حاجة لهذه المحاولات كلها . »

فقال دون أن يلقي بالقلم من يده – « ان الطبيعة تبدأ دائماً بمقاومة الفنان يا أبي ، ولكنني اذا حملت عملي على محمل الجد حقاً ، فلا يجوز لي أن أسمح لنفسي بالتقهقر أمام هذه المقاومة . وإنما على العكس ، ينبغي لها أن تشكل حافزاً لي على الجهاد من أجل النصر . »

وقال ثيودوروس – « لا أرى ذلك . فالخير لا يمكن أبداً ان ينبت من الشر . والعمل الجيد لا يتأتى من العمل الفاسد . »

– « قد يكون هذا صحيحاً في اللاهوت ، أما في الفن فالقاعدة معكوسة . »

– « أنت مخطىء يا ولدي ، لأن عمل الفنان اما ان يكون جيداً أو رديئاً . فاذا كان رديئاً لم يكن صانعه فناناً . وكان من واجبه أن يكتشف ذلك بنفسه منذ البداية ، فلا يضيع وقته وجهوده سدى . »

– « ولكن هب انه وهو يصنع ذلك الفن الرديء يعيش حياة سعيدة ؟ كيف ترى حاله اذن ؟ »

حاول ثيودوروس ان يعثر على حجة مستمدة من تدريبه اللاهوتي ، إلا انه لم يسعفه باجابة على هذا السؤال .

وقال فنسنت ، وهو يمحو حقيبة البطاطس ، ويدع الذراع الأيسر للرجل في الرسم معلقاً في وضع جامد – « بلى . ان الطبيعة والفنان الأصيل هما في العمق متفقان . ولقد يستغرقني الصراع والكفاح سنوات قبل

أن تلين لي وتصبح طيعة. ولكن في النهاية سيحول العمل الردىء بل والرديء جداً إلى عمل جيد ، وهكذا يبرر نفسه بنفسه . »

— « فماذا لو ظل العمل في نهاية المطاف تعيساً ؟ لقد مضت عليك أيام بكاملها وأنت ترسم ذلك الشخص في حالة الركوع ، وما زال مغلوطاً . فهب أنك ثابرت على رسمه سنوات وسنوات وظل بعد ذلك على عيبه . »

هز فنسنت كتفيه لا مبالياً وقال — « ان الفنان يتعاطى تلك المقامرة يا أبي . »

— « وهل الجوائز جديرة بتلك المقامرة ؟ »

— « الجوائز ؟ أية جوائز ؟ »

— « النقود التي يجنيها المرء . والمركز في الهيئة الاجتماعية . »

رفع فنسنت نظره عن الرسم لأول مرة منذ بداية حديثهما ، وتأمل وجه أبيه ، ملمحاً اثر ملمح ، كأنه ينظر إلى كائن غريب . وقال

— « حسبت اننا كنا نناقش الفن الجيد والرديء . »

— ٣ —

استغرقه العمل في حرفته ليلاً ونهاراً ، حتى لم يخطر له المستقبل — اذا خطر اصلاً — إلا ليقرب في خياله اليوم الذي يكف فيه عن ان يكون عبئاً على ثيو ، ويغدو فيه انتاجه الناجز قريباً عن الكمال . وكان ينتقل إلى القراءة كلما ارهقه الرسم . فاذا تعب من الاثنين ذهب إلى النوم .

وبعث له ثيو مددا من ورق أنجريز ، وصوراً تشريحية للحصان وللبقرة وللضأن ، صادرة عن إحدى مدارس البيطرة ، وكذا بعض تمارين الفنان هولبينز بعنوان « نماذج الفنانين » وارسل له أيضاً أقلام رصاص للرسم وبعض ريش الطيور للغرض ذاته ، ورسماً لهيكل عظمي وشيئاً من حبر السبيدج ، وأودع الرسالة ما استطاع توفيره من الفرنكات ، كما أوصاه بالعمل الشاق حتى لا يصبح مجرد فنان متوسط الجودة . وقد أجاب فنسنت على هذه النصيحة بقوله « سأبذل كل ما في وسعي . ولكن التوسط بمعناه البسيط ليس مما آنف منه اطلاقاً . والمرء لا يرتفع فوق ذلك المستوى باحتقاره لما هو متوسط . على ان ما تقوله عن العمل الشاق صحيح تماماً . وانني أتمثل في ذلك بما يوصينا به جافارني : لا يمرن يوم دون ان تخط خطا ! »

وبمداومة العمل ، ازداد شعوراً بأن رسم الأشكال أمر جيد ، وانه يؤثر ، على نحو غير مباشر ، تأثيراً حسناً في رسم الطبيعة الصامتة . فاذا رسم شجرة صفصاف مثلاً ، على أساس أنها كائن حي — وهي كائن حي بعد كل حساب — انتقل ذلك إلى الطبيعة المحيطة بها على الأثر ، علماً بأنه ركز انتباهه كله على تلك الشجرة نفسها ولم يتوقف إلا بعد أن بث فيها شيئاً من الحياة . وكان يحمل للطبيعة حبا جماً . ولكنه حمل حباً يفوق عشرة اضعافه ، لتلك الدراسات التي اتخذت موضوعاً من الحياة ، وعبرت عنها أحياناً بواقعية مذهلة ، وهي الدراسات التي قدمها أمثال جافارني ودوميه ودوريه ودوجرو وفيليسيان روبس . وكان يعمل في رسم نماذج مختلفة من العمال ، آملاً أن يغدو بالتالي قادراً على عمل رسومات للمجلات والجرائد . وكان مراده أن يعول نفسه بنفسه خلال

السنوات الطويلة الشاقة التي يحتاجها لاتقان تقنيته والارتقاء نحو أشكال ارفع في مجال التعبير .

وذات مرة جاءه أبوه الذي كان يحسبه يقرأ لغرض التسلية وقال – « فنسنت ، أنت تتكلم دائماً عن مبلغ الجد الذي ينبغي ان يتدم به جهدك . فلماذا اذن تبدد وقتك في قراءة تلك الكتب الفرنسية السخيفة كلها ؟ »

فوضع فنسنت أحد أصابعه على الكلمة التي انتهى اليها في كتاب « الأب جوريو » ، والتفت إلى أعلى . انه ما انفك يأمل أن يأتي يوم يصادف فيه تفهماً لدى أبيه اذا تحدث واياه في الشؤون الجدية .

وقال ببطء – « ان رسم الأشكال والمناظر لا يتطلب المعرفة بحرفة الرسم وحدها ، وإنما يقتضي المرء دراسات عميقة في الأدب أيضاً . »

– « ينبغي ان اقول انني لا أستجمع ما تقول . فليس علي اذا اردت ان القي موعظة جيدة ان اقضي وقتي في المطبخ ، اراقب أمك وهي تضع الالسنة في اناء المخلل . »

وقالت انا كورنيليا – « تذكرت بمناسبة حديثكما ، انني يجب أن أجهز هذه الألسن الطازجة من أجل افطار الغد . »

ولم يشأ فنسنت أن يفند المثل الذي جاء به أبوه .

ولكنه قال – « لا أستطيع أن أرسم شكلاً ، دون أن أعرف كل شيء عن العظام والعضلات والأوتار الكائنه في داخله . ولا أستطيع أن أرسم رأساً دون أن أعرف ماذا يدور في دماغ ذلك الشخص وفي روحه .

وعلى من يريد أن يرسم الحياة أن لا يقتصر على فهم التشريح ، وإنما يفهم مشاعر الناس وأفكارهم عن العالم الذي يعيشون فيه . أما الرسام الذي يعرف حرفته ولا يعرف شيئاً غيرها فسوف يغدو فناناً زائفاً للغاية . »

فقال أبوه وهو يتنهد بعمق — « آه يا فنسنت ، أخشى أنك سوف تتحول إلى رجل نظريات . »

فرجع فنسنت إلى « الأب جوريو . »

وحدث في مرة أخرى أن وصلته بعض كتب من وضع كاسانيي ، أرسلها ثيو بقصد مساعدة فنسنت على تصحيح مشكلته في صدد المنظور ، فتملكه الانفعال ، وراح يقلب الكتب مشغوفاً بها ، ويريها لأخته ويليمين قائلاً — لا علاج لدائي أفضل من هذه الكتب ، فاذا أنا شفيت من مشكلة المنظور كنت مديناً لهذه الكتب بالشكر . »

فسأله ثيودوروس ، الذي كان دأبه ان يسيء الظن بكل شيء يصل من باريس — » هل تريد ان تخبرني يا فنسنت ، انك تستطيع ان تتقن الرسم بواسطة قراءة ما تحتويه الكتب من أفكار حول الفن ؟ »

— « نعم . »

— « يا له من قول شاذ . »

— « المقصود بذلك انني أضع النظرية التي تحتويها الكتب موضع التطبيق . فالمرء لا يستطيع على كل حال ان يشتري الخبرة مع الكتب . ولو أن الخبرة تشترى لكثر البيع . »

مرت الأيام حافلة بالعمل ، مفعمة بالسعادة ، حتى حل الصيف .

فصار الحر ، لا المطر ، هو الذي يحول بينه وبين المروج . وقام برسم أخته ويلمين امام آلة الخياطة ، كما اعاد للمرة الثالثة نسخ التمارين التي وضعها بارج ، ورسم خمس مرات رجلاً يعمل بمجرفته ، ورجلاً يعزق التربة في أوضاع مختلفة ، ورسم مرتين عامل بذار ، ومرتين فتاة تحمل مكنسة ، ثم رسم امرأة ذات قبعة بيضاء تقشر البطاطس ، وراعياً يستند على عصاه ، ورسم أخيراً فلاحاً عجوزاً مريضاً يجلس على كرسي بجوار المدفأة وهو يضع رأسه بين يديه ويسند كوعيه إلى ركبتيه . لقد كان يشعر دائماً بالميل إلى رسم أعمال الحفر والبذر والحرث ، ذكوراً واناثاً ، وكان ينكب على ملاحظة وتسجيل كل شيء ينتمي إلى الحياة الريفية . وهو لم يعد يقف أمام الطبيعة عاجزاً بالمرة ، مما منحه شعوراً بالبهجة الغامرة التي لم يشعر بمثلها من قبل .

أما أهالي البلدة فظلوا يحسبونه انساناً شاذاً ويتباعدون عنه . وعلى الرغم من المحبة والعطف اللذين كانت والدته ويلمين بل وحتى والده بطريقته الخاصة يغمرونه بهما داخل ذلك المعتزل الذي عاش فيه ، فانه كان وحيداً بشكل مخيف .

ومع مرور الوقت بدأ الفلاحون يحبونه ويثقون به ، وهو بدوره وجد في بساطتهم قرابة من الأرض التي كانوا يكدحون فيها . وحاول ان يودع ذلك المعنى في محاولاته ، حتى كان افراد اسرته يحارون اين ينتهي الفلاح وأين تبدأ الأرض في رسوماته . وكان فنسنت يجهل كيف تجيء رسومه على هذا النحو ، ولكنه يشعر أنها صائبة ، كما هي .

قال لأمه حينما سألته عن هذا الأمر ذات مساء – « يجب أن لا يكون

هناك خط صارم بين الاثنين ، فما هما الا نوعان من التراب يصب كل منهما في الآخر وينتمي اليه ، وما هما إلا شكلان من الشيء ذاته ، لا يمكن تمييزهما في الجوهر . »

وقررت امه انه ما دام عطلاً من الزوجة ، فمن الخير ان تأخذ بيده وتساعده على النجاح .

فقالت له ذات صباح – « فنسنت ، أريد منك ان ترجع إلى المنزل في الساعة الثانية ، فهل تفعل هذا من أجلي . »

– « نعم يا أمي . فما الذي تريدينه ؟ »

– « اريدك أن ترافقني إلى حفلة شاي . »

اصيب فنسنت بالذعر ، « ولكنني لا أستطيع يا أمي ان اضيع وقتي على هذا النحو ؟ »

– « ولماذا يكون في هذا ضياع لوقتك ؟ »

– « لأنه ليس هناك ما يرسمه المرء في حفلة شاي . »

– « هنا بالضبط يكمن خطأك . لأن جميع النساء البارزات في ايتن سوف يحضرن هناك . »

اتجهت عينا فنسنت نحو باب المطبخ ، وكاد ان يطلق ساقيه للريح ، ولكنه تمالك نفسه بعد جهد وحاول ان يفسر موقفه ، فجاءت كلماته بطيئة مؤلمة .

قال – « ما أرمي اليه يا أمي هو ان النساء في حفلة الشاي لا يملكن شخصية . »

– « هراء ! إنهن جميعاً ذوات شخصيات رائعة . وما من كلمة نبست بها شفة حول سيرة أي منهن . »

– « لا أيتها العزيزة ، لا طبعاً . وانما اردت انهن جميعاً متشابهات . ذلك ان نمط حياتهن قد صبهن في قالب معين . »

– « وكيف ؟ انني واثقة من انني استطيع ان اميز واحدتهن من الاخرى دون اية صعوبة . »

– « نعم يا حبيبتي ، ولكنك قد ترين انهن جميعاً من اصحاب الحياة السهلة ، وما من شيء منحوت على قسمات وجوههن يثير الاهتمام . »

– « اخشى انني لا افهم هذا يا بني . انك ترسم كل مزارع وكل عامل تلقاه في الحقول . »

– « آه .. نعم . »

– « ولكن اي طائل يعود عليك من وراء ذلك ؟ وكلهم فقراء ، لا يستطيعون شراء شيء . في حين تستطيع نساء البلدة ان يدفعن مالاً لقاء رسم لوحات لهن . »

عند ذلك طوقها فنسنت بذراعيه وامسك بخدها في يده . كانت عيناها الزرقاوان مفعمتين بالصفاء وبالعمق وبالعطف وبالمحبة . فما بالهما لا تتفهمان .

وقال بهدوء – « ايتها العزيزة ، ارجوك ان تثقي بي قليلاً . انني اعرف كيفية القيام بهذا العمل . فاذا منحتني وقتاً وحسب ، فانني ساحرز النجاح . واذا انا ثابرت على العمل الشاق فيما يبدو

لك الان غير مفيد ، فسوف اتمكن في نهاية المطاف من بيع رسوماتي وتحقيق رفاهيتي . »

كانت انا كورنيليا راغبة في الفهم بقوة تعادل رغبة فنسنت في ان يكون مفهوماً . ومست شفتاها لحية ولدها الخشنة الحمراء ، بينما هي تعود بخيالها القهقرى إلى يوم ولدته . آنذاك كان هذا الجسد القوي المتين الذي تضمه الان جنيناً صغيراً ، وكانت متخوفة من لحظة ميلاده لان طفلها الاول نزل ميتاً . فلما جاء فنسنت يعلن عن مقدمه بالصراخ الطويل المنهوم ، عندئذ شعرت وهي في بيت زوجها الكاهن في زندرت بغبطة وشكران لا حدود لهما . وكان في حبها لفنسنت دوماً مزيج من لمسة الاسف لفقد الطفل الذي لم يقدر له ان يفتح عينيه ، ومن الامتنان لجميع اولئك الذين تبعوه .

قالت — « انت ولد طيب يا فنسنت . سر في طريقك . انك تعرف ما هو الافضل . وكل ما في الامر انني رغبت في مساعدتك . »

في ذلك اليوم رأى فنسنت ان يطلب من بيت كوفمان الحدائقي ان يمثل امامه ليرسمه ، بدلاً من الذهاب إلى الحقول . وبعد شيء من الاقناع قبل بيت اخيراً .

وقال موافقاً — « بعد الغداء ، في الحديقة . »

فلما خرج فنسنت إلى الحديقة فيما بعد ، اذا به يجد بيت مرتدياً بزة الاحد المكوية ، وقد غسل يديه ووجهه ، وقال لفنسنت — « لحظة واحدة ، حتى احضر كرسياً ، ثم اكون على هبة الاستعداد . »

ثم جلس على كرسي صغير ، وجمد كأنه عمود خشبي ، في

هيئة المتأهب ليصوره بآلة التصوير القديمة . فلم يتمالك فنسنت نفسه من الضحك .

وقال — « لكن يا بيت ، لا يمكنني ان ارسمك بهذه الملابس . »

فنظر بيت إلى بزته مندهشاً وتساءل — « ما بال ملابسي ؟ انها جديدة . ولم البسها الا في المناسبات صبيحة بعض ايام الاحاد . »

وقال فنسنت — « انني اعلم . وذلك حصراً هو السبب . فانني اريد ان أرسمك في ثياب العمل القديمة فوق منحط الزراعة ، وفي ذلك الوضع تتحدد خطوطك ، وفيه ارى كوعيك وركبتيك واما الان فلا ارى شيئاً غير بزتك . »

قال — « ملابسي القديمة قذرة وممزقة . فاذا اردتني ان اقف امامك لترسمني ، فيجب ان ترسمني كما انا . »

وهكذا عاد فنسنت إلى الحقول ورسم عمال الحفر وهم ينحنون على الارض . ومر الصيف فادرك انه استنفد ، ولو في اللحظة الراهنة ، جميع الامكانيات التي يتيحها له قسطه من التعليم . وراودته من جديد تلك الرغبة الحادة في عقد علاقة مع احد الفنانين واتمام عاومه في محترف تصوير جيد . لقد بدأ يشعر بالاهمية المطلقة للانفتاح على عالم الفنون التي رسمت بحذق ، ولمشاهدة الفنانين وهم يعملون ، وبذلك يغدو قادراً على معرفة ما ينقصه ، ويتعلم كيف يرتقي بعمله .

وكتب اليه ثيو داعياً اياه للقدوم إلى باريس ، ولكن فنسنت كان يعرف انه لم يصبح ناضجاً بعد لتلك المغامرة العظيمة ، اذ ما زال انتاجه بالغ الفجاجة والخشونة والبدائية . على ان لاهاي لا تبعد عنه

الا ساعات قليلة ، وفي وسعه هناك ان يلتمس المساعدة من صديقه الخواجة تيرستيج ، مدير معرض جوبل وشركاه ، ومن ابن عمومته انطوان موف . ولعل من الخير له ان يقيم في لاهاي خلال مرحلة التدريب البطيء التالية . وكتب إلى ثيو سائلاً اياه النصيحة ، فارسل اليه اخوه الجواب مصحوباً بأجرة القطار .

وقبل ان ينتقل إلى هناك بصورة دائمة ، اراد فنسنت ان يعرف هل سيكون تيرستيج وموف متجاوبين معه راغبين في مساعدته . فاذا كان الجواب نفياً ، فان عليه ان يقصد مكاناً اخر . وهكذا حزم جميع رسوماته بعناية ، وحمل معها في هذه المرة طقماً احتياطياً من الملابس الكتانية ، وانطلق إلى عاصمة مقاطعته ، كما هي التقاليد الصحيحة التي يتبعها سائر الفنانين الريفيين الشباب .

— ٤ —

كان الخواجة هيرومان جيجسبرت تيرستيج هو مؤسس مدرسة لاهاي للرسم ، كما كان اهم وسيط لبيع الفنون في هولندا ، يقصده الناس من جميع انحاء البلاد ليستشيروه في شأن الرسوم التي يريدون شراءها ، فاذا قال الخواجة تيرستيج عن لوحة من اللوحات انها جيدة ، رأوا في قوله فصل الخطاب .

جاء الخواجة تيرستيج خلفاً لفنسنت فان جوخ العم في ادارة جوبل وشركاه . وآنذاك كان الفنانون الهولنديون الشباب الصاعدون مبعثرين في ارجاء البلاد . فنذاك موف وجوزيف في امستردام ، وجاكوب ووليم ماريس في الاقاليم ، وجوهانس بوزبوم وبلومرز

يتجولان من بلدة إلى بلدة دون ان يكون لهما مقر دائم . فكتب تيرستيج إلى كل واحد منهم على حدة ، قائلاً :

– « لماذا لا نعسكر جميعاً هنا في لاهاي ونجعل منها عاصمة الفن الهولندي ؟ فيساعد بعضنا بعضاً ويتعلم بعضنا من بعض ، ونتمكن بفضل جهودنا المنسقة من اعادة فن الرسم الهولندي إلى القمم العالمية التي بلغها في عصر فرانز هالز ورمبرانت . »

وجاءت استجابة الرسامين بطيئة ، ولكن ما حدث بمرور السنين هو ان جميع الفنانين الشبان الذين توسم فيهم تيرستيج مقدرة الفن حضروا واستقروا في لاهاي . ولم يكن ثمة طلب على لوحاتهم اطلاقاً في ذلك الوقت . وتيرستيج لم ينتخبهم اصلاً لان اوحاتهم تباع ، وانما لانه رأى في اعمالهم ما ينبيء عن العظمة في المستقبل . واشترى لوحات من ازرائيلز ومن موف ومن جاكوب ماريس قبل ست سنوات من نجاحه في اقناع الجمهور ان يرى فيهم شيئاً ما .

وراح يشتري اعمال بوزبوم وماريس ونوهايز سنة بعد سنة ، متذرعاً بالصبر ، ثم يدير لوحاتهم إلى الحائط في مؤخرة المحل . وقد علم ان هؤلاء يحتاجون إلى الدعم اثناء نضالهم لبلوغ النضج . فاشترى لوحاتهم ، وقام بنقد اعمالهم ، واقام الاتصال فيما بينهم ، وشجعهم في السنوات الصعبة .

وعندما جاء فنسنت لزيارته في لاهاي ، كان تيرستيج قد احرز النجاح . ولم يقتصر امر موف ونوهايز وايزرائيلز وجاكوت ووليم ماريس وبوزبوم وبلومرز على بيع كل مارسموه بأسعار عالية في

جوبل وشركاه ، بل تعدى ذلك إلى حد انهم قطعوا شوطاً هاماً نحو بلوغ مرتبة الكلاسيكيين .

وكان الخواجة تيرستيج رجلاً وسيماً على النمط الهولندي ، فله ملامح قوية ناتئة ، وجبهة مرتفعة ، وشعر بني ممشط إلى الوراء ، ولحية منبسطة جميلة الاستدارة حول كامل الوجه ، وعينان صافيتان صفاء بحيرة السماء الهولندية . وكان يرتدي سترة سوداء من طراز برنس البرت وبنطالاً عريضاً ذا اشرطة ، ينزل حتى حذائه ، وياقة منفردة عالية ، وربطة عنق سوداء جاهزة على شكل الفراشة ، تكويها له زوجته كل صباح .

وكان تيرستيج محباً لفنسنت منذ تعارفا ، وعندما نقل فنسنت إلى فرع جوبل وشركاه في لندن كتب رسالة توصية دافئة بحقه إلى المدير الانجليزي . وسبق ايضاً ان ارسل من اجل فنسنت كراس « تمارين فوزن » إلى البوريناج ، وارفق به كراس « تمارين رسم الجسد ، لواضعها بارج » نظراً لتقديره انه سيكون مفيداً . واذا كان صحيحاً ان جوبل وشركاه في لاهاي مملوكة للعم فنسنت فان جوخ ، فان فنسنت كان واثقاً عن حق بان تيرستيج كان محباً لشخصه لا لسبب اخر ، لانه لم يكن من الرجال الذين يمارون في عواطفهم .

كانت مؤسسة جوبل وشركاه واقعة في رقم ٢٠ بميدان بلاتس الذي هو اكثر احياء الهاج ارستقراطية واعلاها سعراً . وعلى مرمى حجر منها كانت قلعة سجافن التي هي اول ما انشيء في المدينة ، وامامها ساحتها على طراز العصور الوسطى ، وكذلك خندقها المائي

الذي تحول إلى بحيرة جميلة وفي نهايتها القصوى التي تدعى الموريشيوس علقت لوحات روبنز وهالز ورمبرانت وسائر سادة الفن ، الهولنديين.

سار فنسنت من المحطة ، عبر طريق واجنسترات الضيق المزدحم المنحوت عبر القلعة ، فوجد نفسه في ساحة بلاتس . ولقد مرت ثماني سنوات منذ غادر جوبل آخر مرة ، وها هو يعود حاملاً في جسده وعقله اثاراً مدمدمة جراء عاصفة المعاناة التي تعرض لها في تلك البرهة القصيرة من الزمن .

قبل ثماني سنوات كان الجميع يحبونه ويفخرون به . فقد كان ابن الاخ المفضل لدى عمه فنسنت ، وشاع على كل لسان انه لم يكن خليفته المنتظر وحسب ، بل وريثه ايضاً . وكان في وسعه ، لو اراد ، ان يصبح رجلاً قوياً ميسوراً يحترمه الجميع ويعجب به الجميع ، ومع مرور الوقت يملك اهم سلسلة من معارض الفن في اوروبا .

فماذا دهاه ؟

لم يتوقف للاجابة على هذا السؤال ، وانما عبر ساحة بلاتس ودخل إلى جوبل وشركاه . وعاد اليه ما كان قد نسيه من جمال التصميم والاثاث في المكان . فاذا به يحس فجأة انه مزيف وبخس وهو يرتدي بزة العمال السوداء المصنوعة من القطيفة . وكان القسم الواقع على سوية الشارع عبارة عن ردهة طويلة تزينها ستائر فاخرة ذات لون بهيج ، وعلى ارتفاع ثلاث درجات فوقه كانت هناك ردهة اصغر حجماً ، يعلوها سقف زجاجي . وفي مؤخرة هذه الردهة بضع درجات اخرى تؤدي إلى غرفة عرض خاصة صغيرة ، يرتادها الخبيرون . اما الطابق الثاني الذي يشتمل على مكتب تيرختيج ومسكنه ، فيقود اليه سلم عريض . وكانت الجدران جميعاً مغطاة باهرامات من الرسوم .

كانت رائحة الثراء العظيم والثقافة تعمر المكان ، والموظفون رجالاً مصقولين ذوي سلوك مرسوم . وقد تدلت اللوحات من الجدران داخل أطر ثمينة مثبتة في حوامل غالية . وغاصت قدما فنسنت في السجاد السميك اللين ، ونظر إلى الكراسي الموضوعة في الزوايا المتواضعة ، فتذكر أنها من التحف الأثرية التي لا تقدر بثمن . ثم فكر في أمر رسوماته التي تصور عمال المناجم بأسمالهم الرثة وهم يخرجون من الظلال ، وزوجاتهم المنحنيات فوق الترابة ، وكذا رسومه التي تصور عمال العزق وعمال البذار في البرابانت . وتساءل بينه وبين نفسه هل سيقيض لرسومه البسيطة التي تصور الناس الفقراء المتواضعين ان تباع في هذا القصر العظيم من قصور الفن .

لم يكن ذلك احتمالاً قريباً للذهن .

وقف يحدق باعجاب أخرق في رأس ضأن من رسم موف . أما الموظفون الجالسون يثرثرون بصوت خفيض خلف طاولة أعمال الحفر ، فاكتفوا بنظرة واحدة إلى ملابسه وحالته ، ثم لم يتجشموا عناء سؤاله عما يريد . ونزل تيرستيج من غرفة العرض الخاصة ، حيث كان يعد لأحد المعارض ، وهبط الدرجات المؤدية إلى الردهة الأساسية ، ثم دخل دون ان يراه فنسنت .

وقف تيرستيج عند أسفل الدرجات ، وتأمل عامله السابق ، فاستوعب شعر رأسه القصير ، وشعر ذقنه غير الحليق ، وحذاءه الفلاحي ، ومعطف العامل المزرر حول الرقبة ، دونما رباط عنق تحته ، ولاحظ الرزمة غير الانيقة التي حملها تحت ذراعه . وبالاجمال كان ثمة شيء نافر في منظره ، ساعد على ظهوره بقسوة ووضوح هذا المعرض الأنيق.

وقال تيرستيج وهو يخطو بهدوء فوق السجاد اللين – « حسناً يا فنسنت ، أراك معجباً باوحاتنا . »

واستدار فنسنت نحوه – « نعم . إنها رائعة . أليس كذلك ؟ كيف حالك يا خواجة تيرستيج ؟ إنني أحمل إليك تحيات من الوالدة والوالد .»

تصافح الرجلان من فوق هوة الأعوام الثمانية التي فرقت بينهما.

– « آه . . نعم . ان الحياة تواتيني يا فنسنت . إنها تبقيني شاباً . ألا تصعد إلى مكتبي ؟ » تبعه فنسنت وهو يصعد الدرجات العريضة ، غير متمالك نفسه من التعثر ، لأنه لم يستطع ان يرفع عينيه عن الرسوم التي تملأ الجدار . إنها المرة الأولى التي يشاهد فيها أعمالاً جيدة ، منذ تلك الساعة القصيرة في بروكسل بصحبة ثيو . وأحس أنه في دوار ، وفتح تيرستيج باب مكتبه ودعا فنسنت للدخول .

وقال – « هل تجلس يا فنسنت ؟ »

كان فنسنت يحدق بانبهار في لوحة بريشة فايزنبروخ الذي لم يسبق له رؤية أعماله . ثم جلس وأنزل رزمته ، ثم عاد فحملها وقام إلى مكتب تيرستيج اللامع الأنيق .

– « أحضرت الكتب التي تكرمت بارسالها إليّ ياخواجة تيرستيج . »

فك رباط الرزمة ، ونحى جانباً القميص وزوج الجوارب ، ثم أخرج سلسلة « تمارين فوزين » ووضعها على الطاولة .

وقال – « لقد بذلت جهداً كبيراً في التمرين على الرسوم . وافدت فائدة عظيمة من اعارتي اياها . »

وقال تيرستيج والجاً إلى لب الموضوع –«دعني ارالنسخ التي نسختها.»

راح فنسنت يقلب رزمة الورق ، ثم أطلق سراح السلسلة الأولى التي رسمها في البوريناج . واحتفظ تيرستيج بصمت حجري . واراه فنسنت بعد ذلك مسرعاً النسخ الثانية التي رسمها أثناء اقامته في إيتن . وحظيت هذه المجموعة بكلمة « همممممم » بين الحين والحين ، لا أكثر . ثم اراه فنسنت النسخ الثالثة التي فرغ من رسمها قبل قدومة بفترة وجيزة ، فابدى تيرستيج اهتماماً بها .

وقال ذات مرة – « هذا خط جيد . لقد أحببت التظليل » وقال في مُرة أخرى – « آه . . لقد استطعت ان تلتقط ذلك تقريباً ! »

وعقب فنسنت – « أنا أيضاً شعرت انه ليس بالرديء . »

وعندما فرغ من عرض اوراق الرزمة ، اتجه إلى تيرستيج ليستمع إلى حكمه .

قال الرجل الأكبر سناً ، وهو يرخي يديه الطويلتين النحيفتين فوق المكتب ، متلاعباً بأصابعه في حركة رأسية – « وبعد يا فنسنت ، رأيي أنك حققت تقدماً طفيفاً ، ليس بالكثير ، وإنما هو طفيف . لقد خفت حينما نظرت إلى نسخك الأولى . . . إلا أن عملك يثبت على الأقل انك كنت تناضل . »

– « أهذا كل ما لديك ؟ إنني أناضل ؟ الا ترى عندي قدرة ؟»

وكان يعلم انه من الأفضل ان لا يلقي بذلك السؤال ، ولكنه لم يستطع أن يكبحه .

– « أليس من السابق لأوانه أن نتحدث عن ذلك يا فنسنت ؟ »

— « هذا جائز . على انني أحضرت بعضاً من رسومي الخاصة المبتكرة ، فهل يمكن أن تراها ؟ »

— « بكل سرور . »

اخرج فنسنت شيئاً من دراساته المرسومة عن عمال المنجم وعن الفلاحين ، واذا بذلك الصمت الموجع يخيم فوراً ، وهو الصمت المعهود في جميع أنحاء هولندا ، حين تكون مهمته ابلاغ مئات الفنانين الناشئين ان عملهم رديء ، دونما جدال . وقلب تيرستيج المجموعة كلها أمام ناظريه دون ان ينبس ولو بهمهمة استحسان . فشعر فنسنت بالإعياء . ثم ان تيرستيج استند إلى ظهر كرسيه وراح ينظر خارج النافذة ومن خلال ساحة بلاتس نحو الاوز السابح في البحيرة . وكان فنسنت يدرك من واقع خبرته انه اذا لم يكن البادىء بالحديث ، فان الصمت سيخيم إلى ما شاء الله .

والقى بسؤاله — « الا ترى أي تقدم على الاطلاق يا خواجه تيرستيج؟ ألا تعتقد أن رسوماتي حول البرابانت أفضل من رسوماتي في البوريناج؟ »

فأجاب تيرستيج وهو يتحول عن المشهد الذي كان ناظراً إليه — « بلى ، هي أفضل . ولكنها ليست بالجيدة . ففيها شيء يشتمل على خطأ منذ الأساس . أما ما هو ذلك الخطأ ، فلا يمكنني ان اقول ارتجالاً . وأعتقد أنه كان من الخير لك أن تثابر على نسخ النماذج زمناً أطول . لأنك غير . مؤهل للقيام بعمل أصيل ويتعين عليك ان تحرز تمكناً أفضل فيما يتصل بالعناصر الأساسية ، قبل أن تتناول الحياة . »

— « بودي أن آتي إلى لاهاي للدراسة . فهل ترى ذلك فكرة جيدة يا خواجة ؟ »

وأجاب تيرستيج اجابة تدل على عدم الرغبة في التعهد بأي التزام نحو فنسنت ، فقد رأى الوضع كله غريباً .

وقال – « لاهاي مكان ظريف ، توجد فيه معارض جيدة كما يوجد عدد من الرسامين الناشئين . إلا أنني غير واثق مما إذا كان أفضل من انتويرب أو باريس أو بروكسل . »

وغادره فنسنت غير محبط تماماً . ذلك ان تيرستيج ابصر شيئاً من التقدم ، علماً بأن عينه هي أشد العيون انتقاداً في جميع أنحاء هولندا . إنّ فنسنت لا يقف على الأقل جامداً . وانه ليعلم ان دراساته المرسومة من الحياة ليست كما ينبغي لها ان تكون ، ولكنه كان واثقاً انها سوف تستقيم له في النهاية بفضل العمل الشاق الطويل .

– ٥ –

ربما كانت لاهاي أنظف المدن وأوفرها تهذيباً في اوروبا . إنها مدينة بسيطة متقشفة جميلة ذات طابع هولندي أصيل . فالشوارع النقية فيها محاطة من الجانبين بأشجار متفتحة البراعم ، والبيوت مبنية بالطوب الأنيق المرتب ، وقد زرعت أمامها حدائق منزلية صغيرة معتنى بها ، مليئة بالورد ونبات ابرة الراعي . ومامن أحياء فقيرة ولا مناطق مسحوقة بالفقر ، ولا مناظر تؤذي العين ، ذلك أن حسن التدبير المأثور عن الهولنديين يسبغ رعايته على كل شيء .

ومند عهد بعيد اتخذت لاهاي من اللقلق شعاراً رسمياً لها ، وعلى غرار ذلك تكاثر سكانها بالقفزات والوثبات .

تمهل فنسنت حتى اليوم التالي ، قبل أن يقوم بزيارة موف في منزله الكائن برقم١٩٨ شارع ايلبومن. وكانت حماة موف من عائلة كاربنتس، وهي شقيقة انا كورنيليا ، ولما كانت العلاقات العائلية متينة في هذه الأوساط فانه استقبل فنسنت استقبالاً دافئاً .

كان موف رجلاً متين البنية ، ذا كتفين هابطين وان كانا ضخمين، وذا صدر عريض . وكان رأسه عنصراً أكثر أهمية بالنسبة للمظهر العام من أي ملمح آخر من ملامح الوجه ، كما هو حال تيرستيج وحال معظم أفراد أسرة فان جوخ . وكانت له عينان براقتان عاطفيتان إلى حد ما ، و وانف مستقيم الحواف تمتد عظامه بارزة من الحاجب إلى أسفل دون أي انحدار ، وجبهة عالية مربعة ، واذنان منبسطتان ، ولحية رمادية ملحية تحجب شكل وجهه البيضاوي الكامل . وكان شعره ممشطاً على أقصى الجانب الأيمن من الرأس ، وقد تكاثفت خصل غزيرة منه عبر الجمجمة، موازية جبينه .

كان موف رجلاً مفعماً بطاقة لم يحاول تجزئتها . فهو ينصرف إلى الرسم ، فاذا تعب منه رسم المزيد ، واذا ابهظه ذلك رسم مزيداً ومزيداً ، وعند ذلك يدركه الانتعاش فيعود إلى الرسم من جديد .

قال موف – « جت ليست في المنزل يا فنسنت ، فهل نخرج إلى المرسم ؟ اظن اننا سنكون اكثر ارتياحاً هناك . »

فقال فنسنت وهو شديد التوق لرؤية المرسم – « نعم ، انذهب . »

قاده موف إلى مرسمه الخشبي الكبير في الحديقة . وكان المدخل يقع في الجانب المجاور للمنزل ، على مسافة قصيرة منه . وقد احيطت الحديقة والاسيجة ، فاتاحت لموف خلوة كاملة تلائم عمله .

وحالما خطا فنسنت داخل المكان صافحت انفه رائحة دخان تبغ زكية ، وغلايين قديمة ، مع روائح الورنيش . انه مرسم كبير الحجم فيه عدة حوامل ناهضة فوق سجادة كثيفة من صنع ديفنتر ، وعلى كل حامل رسم من الرسوم قيد العمل . وقد غطيت الجدران بالدراسات الاولية التي بعثت الالفة في المكان ، ووضعت في احد الاركان طاولة اثرية تتقدمها سجادة فارسية صغيرة . وبني الحائط الشمالي بحيث يكون نصفه عبارة عن شباك طويل . وقد تناثرت الكتب هنا وهناك ، وتوفرت ادوات الفنان في كل بوصة متاحة في رقعة المرسم . وعلى الرغم من أكتظاظه وايقاع الحياة فيه استطاع فنسنت ان يستشعر النظام الحاسم المنبعث من شخصية موف ، وهو النظام المهيمن على المكان .

لم تستغرقهما المجاملات العائلية الا ثواني قليلة ، ثم انخرطا على الفور في الموضوع الوحيد الذي لا يعبأ احدهما بسواه ولو مثقال ذرة في هذا العالم . وكان موف يتجنب الرسامين الاخرين باصرار منذ زمن (وقد دأب على القول دائماً ان الرجل اما ان يرسم او يتحدث عن الرسم ، اما الجمع بين الامرين فغير ممكن) . وكان ممتلئاً بمشروعه الجديد وهو عبارة عن منظر طبيعي ضبابي يتخلله شفق واهن . فلم يناقشه مع فنسنت مناقشة ، وانما تدفق بالحديث عنه تدفقاً .

وحضرت مدام موف إلى المنزل ، فاصرت على بقاء فنسنت للعشاء . وجلس امام المدفأة يتحدث مع الاطفال عقب الوجبة الطيبة ، فتراءى له كم يكون امراً رائعاً لو انه ملك مجرد بيت صغير يخصه ، مع زوجة تحبه وتؤمن به ، واطفال من حوله ينصبونه امبراطوراً وسيداً كلما نادوه بلقب « ابي » . افلا يحل ذلك اليوم السعيد قط ؟

ولم يطل الوقت حتى عاد الرجلان إلى المرسم ثانية ، وهرعا إلى غليونيهما في احساس بالرضا واخرج فنسنت تمارينه . فنظر اليها موف بالعين السريعة التي تحسن التمييز ، عين الفنان المحترف .

وقال — « مرسومة على نحو غير رديء ، بقصد التمرين ، ولكن اية جدوى من ورائها ؟ »

— « جدوى ؟ انني لا ... »

— « انت لم تفعل غير النسخ يا فنسنت ، شأن اولاد المدارس . اما الابداع الحقيقي فقام به رجال آخرون . »

— « حسبت ان التمارين تمنحني الاحساس بالاشياء . »

— « كلام فارغ ، اذا اردت الابداع فاذهب إلى الحياة ولا تقلد احداً . اليست لديك رسوم من ابداعك الخاص ؟ »

تذكر فنسنت ما قاله تيرستيج حول رسوماته الاصلية . واحتار هل يريها ام لا يريها لموف . انه قادم إلى لاهاي ليطلب من موف ان يغدو استاذاً له . فاذا كان كل ما يستطيع ان يعرضه عليه عملاً منقوصاً ..

ثم انه اجاب — « بلى . لقد قمت بدراسات لبعض الشخصيات منذ البداية . »

— « مليح ! . »

— « ومعي بعض الرسوم عن عمال المناجم البورنيين وعن الفلاحين في البرابانت . وهي ليست مرسومة على نحو جيد جداً ، ولكن ... »

فقال موف – « لا تبال بهذا كله . دعني اراها . فلابد انك ظفرت هناك بشيء من الروح الحقيقية . »

أخرج فنسنت رسوماته ليعرضها ، وقد احس بخفقان وحشي في حلقه . وجلس موف وهو يمسد براحة يده اليسرى كتلة شعره في حركة لا شعورية ، وتسللت ضحكات خافتة من خلف لحيته الرمادية الملحية . وضغط بيده مرة فوق كتلة الشعر ضغطة نكشته ، وارفق تلك الحركة بنظرة سريعة نحو فنسنت ، تحمل معنى عدم الموافقة على شيء معين . ثم اذا به ينهض بعد لحظة واحدة ، ممسكاً برسم يصور احد العمال ، فيرفعه بجوار شكل فظ رسمه رسماً اولياً ضمن لوحته الجديدة .

وصاح – « الان اتضح لي موضع الخطأ الذي وقعت فيه . »

ثم امسك بقلم رصاص ، فضبط الضوء ، واجرى لمسات سريعة ، بينما عيناه لا تفارقان رسم فنسنت . وقال وهو يتراجع إلى الخلف – « هكذا افضل . فالشحاذ في لوحتي صار يبدو منتمياً إلى الارض . » وتقدم نحو فنسنت ، ووضع يده على كتفه .

وقال – « هذا مليح . انك سائر على الدرب . نعم ان رسوماتك لم تصقل بعد ، الا انها اصيلة . وفيها حيوية مؤكدة كما ان فيها ايقاعاً لم اصادفه كثيراً . اقذف جانباً بكراسات التمرين يا فنسنت ، واشتري علبة الوان . فكلما بكرت في العمل بالالوان ، كان ذلك خيراً لك . ان عملك الآن نصف رديء وحسب ، وفي وسعك ان ترتقي به وانت في خضم العمل . »

واغتنم فنسنت هذه اللحظة التي قدر انها تبشر بالنجاح .

وقال — « انني قادم إلى الهاج يا ابن العم موف ، واريد ان اكمل عملي . فهل تتعطف وتقبل ان تساعدني في بعض الاوقات ؟ ذلك انني بحاجة إلى مساعدة رجل مثلك ، في امور صغيرة لا اكثر ، على غرار ما اريتني في رسوماتك الاولية بعد ظهر اليوم . ان كل فنان ناشىء يحتاج إلى استاذ يا ابن العم موف ، وسوف اكون ممتناً اذا سمحت لي ان اعمل تحت اشرافك . »

نظر موف بعناية إلى جميع اللوحات غير التامة في مرسمه . انه يحب ان يقضي كل وقت فائض عن حاجة عمله ، في الجلوس مع عائلته . وهنا تبخر عطر الثناء الذي اسبغه على فنسنت ، وحل محله الانسحاب . وسرعان ما ادرك فنسنت هذا التغير ، اذ كان دائماً شديد الحساسية تجاه التغيرات التي تحدث في مواقف الناس .

وقال موف — « انني رجل مشغول يا فنسنت . وفرصتي في مساعدة الاخرين ضئيلة . ان الفنان ينبغي ان يكون انانياً ، وان يحرس كل ثانية من وقت عمله . وانا اشك في استطاعتي ان اعلمك الشيء الكثير . »

فقال فنسنت — « انا لا اطلب الكثير . وكل ما ارجوه هو ان تدعني اعمل هنا بصحبتك في بعض الاحيان ، وانظر اليك وانت تنشىء لوحة من اللوحات . وتحدثني عن عملك كما فعلت هذا اليوم ، وبذلك اتعلم كيف يجري انجاز مشروع كامل . وبين الحين والحين ، اثناء فترات استراحتك ، قد تنظر في رسوماتي وتشرح لي اخطائي . وهذا كل ما اطلبه . »

— « انت تظن ان ما تطلبه قليل ، ولكن صدقني ان قبول متدرب لدى المرء امر كبير . »

— « لن اكون عبئاً عليك . انني اعاهدك على ذلك . »

وتفكر موف قليلاً . انه من ناحية اولى لم يرغب ابداً في رعاية احد المتدربين ، وهو لا يرتاح إلى وجود الناس بجواره اثناء عمله . وهو غالباً ما لا يحب الافصاح حول ابداعاته الخاصة ، ثم انه لم يجن من وراء النصائح التي قدمها لمبتدئين يوماً الا الشتائم . ولكن فنسنت من الناحية الاخرى قريب له ، ثم ان فنسنت فان جوخ العم ومؤسسة جوبل يشتريان لوحاته ، أخيراً ان في الغلام عاطفة جامحة متوترة ، وهي عينها العاطفة الجامحة المتوترة التي يستشعرها المرء في رسوماته ، وذلك شيء يروق لموف .

وقال — « حسن جداً يا فنسنت . سنفعلها على سبيل التجربة . »

— « اوه .. يا ابن العم موف .. ! »

— « على ان تفهم انني لا اعد بشيء . وقد ينقلب الأمر على نحو سيء جداً . ولكن عندما تقيم في الهاج ، تعال إلى المرسم وسوف نرى هل يستطيع واحدنا ان يساعد الاخر . انني مسافر إلى درنيث لقضاء الخريف هناك . وارى ان تأتي في بداية الشتاء . »

— « انه الموعد نفسه الذي أردت المجيء فيه . فمازلت في حاجة إلى مزيد من العمل في البرابانت . »

— « اتفقنا اذن . »

فلما ركب فنسنت القطار عائداً إلى البيت ، طفق صوت في

داخله يدندن منشداً « اصبح لي استاذ . أصبح لي استاذ . وخلال شهور قلائل سوف اتلقى العلم على رسام عظيم . وهكذا اتعلم بدوري براعة الرسم . واذن فاني ساعكف على العمل ، ويا للجهد الذي سأبذله خلال هذه الشهور القليلة القادمة ، حتى يرى استاذي اي تقدم احرزت . »

ووصل إلى البيت في ايتن ، فاذا به يجد كاي فوس هناك .

– ٦ –

ان ما لقيته كاي من حزن أليم ، قد مسها بروحانية خاصة . فلقد أحبت زوجها حباً متفانياً ، فأدت وفاته إلى قتل شيء ما في أعماقها . وتلاشى تماماً ما كان فيها من حيوية فائقة وروح معنوية عالية وحماسة ونشاط . بل بدا كأن شعرها الدافىء الحي فقد بريقه ، وتقلص وجهها حتى أصبح بيضاوياً زاهداً ، واستوطنت عينيها الزرقاوين برك عميقة من السواد المتفكر ، وخبا بهاء بشرتها الفاتنة حتى تحول إلى لون شاحب رتيب . لكنها اذا كانت قد فقدت جزءاً من حيويتها التي عهدها فنسنت في أيام امستردام ، فقد ملكت بدلاً منها جمالاً أرق ، وحزناً شفيفا اكسبها العمق والجوهر .

قال لها فنسنت – « جميل ان نلقاك هنا أخيراً يا كاي . »

– « شكراً لك يا فنسنت . »

إنها المرة الأولى التي يتخاطبان فيها بأسمائهما الأولى دون اقرانها بكلمة « ابن خالتي » أو « ابنة خالتي » . ولم يدر أيهما كيف حدث ذلك ، ولا فكر أي منهما في هذه النقطة .

ـ « لقد جلبت جان معك طبعاً ؟ »

ـ « نعم . وهو في الحديقة . »

ـ « هذه هي المرة الأولى التي تقومين فيها بزيارة البرابانت . إنني مسرور لكوني هنا ، حتى اريك اياها . يجب أن نقوم بمسيرات طويلة عبر المروج . »

ـ « سوف أحب ذلك يا فنسنت . »

كانت تتكلم بلطف ، ولكن دون حماس . ولاحظ أن صوتها غدا أعمق وأكثر تموجاً . وتذكر كيف كانت ودودة حياله في البيت بكيزارزجراخت . ترى هل يتكلم إليها في شأن وفاة زوجها ويقدم إليها التعازي ؟ ان مبلغ علمه هو أن من واجبه أن يقول شيئاً ، ولكنه شعر ان من الأليق أن لا ينكت حزنها في وجهها ثانية .

وقدرت كاي لباقته . ذلك ان زوجها كان بالنسبة إليها انساناً مقدساً ، وهي لا تستطيع ان تتحدث عنه مع الناس . وقد تذكرت بدورها تلك الأمسيات الشتائية البهيجة في كيزرزجراخت حيث كانت تلعب الورق بصحبة فوس وصحبة والديها بجوار النار ، بينما فنسنت يجلس تحت مصباح في ركن قصي . وتفجر في داخلها ألم مكتوم ، ورانت الغشاوة على عينيها المسودتين . ووضع فنسنت يده في رقة فوق يديها ، ونظرت اليها بعرفان جياش . واسترعى انتباهه مبلغ الرقة التي اورثتها إياها المعاناة ، ففي السابق لم تكن إلا فتاة سعيدة ، أما الآن فهي امرأة ذات مكابدة عاطفية ، مشحونة بكل ما تثيره المكابدة العاطفية من غنى في الشخصية . وومض في ذهنه من جديد المثل القديم القائل « من معاناة الحزن يجيء الحسن . »

وقال بهدوء — « سوف تحبين المنطقة هنا يا كاي . انني أقضي سحابة نهاري كله ارسم في الحقول . وينبغي عليك أن تأتي معي وتحضري جان»

— « أخشى أن أثقل عليك . »

— « اوه . كلا . انني أحب الرفقة . وفي وسعي ان اريك أثناء سيرنا أشياء عديدة تثير الاهتمام . »

— « اذن يسعدني أن أذهب . »

— « سيكون ذلك مفيداً لجان . فالهواء سوف يكسبه قوة .»

فضغطت على يده ضغطاً رفيقاً .

— « وسوف نكون أصدقاء ، أليس كذلك يا فنسنت ؟ »

— « بلى يا كاي »

فتركت يده وحدقت عبر الشارع نحو الكنيسة البروتسنتية ، دون أن تراها .

وخرج فنسنت إلى الحديقة ، ووضع مقعداً لتجلس عليه كاي ، وساعد جان في بناء بيت صغير من الرمال . وقد نسي الأخبار العظيمة التي حملها معه من الهاج .

وعلى مائدة العشاء في تلك الليلة أبلغ العائلة ان موف وافق على قبوله تلميذاً لديه . ولو أنه تصرف على سجيته المعهودة لما أعاد كلمات الثناء التي قالها له تيرستيج أو موف ، غير أن وجود كاي على المائدة جعله أميل إلى الظهور بأفضل بريق . وقد سرت والدته سروراً عظيماً .

وقالت — « يجب أن تفعل كل ما يرشدك اليه ابن العم موف . فهو رجل ناجح . »

في الصباح التالي انطلقت كاي وجان وفنسنت مبكرين للغابة نحو ليزبوخ ، حيث كان فنسنت يود أن يرسم . وعلى الرغم من انه لم يلق بالاً إلى التزود بشيء للأكل في وقت الظهيرة ، فان امهلم تنس أن تلف لثلاثتهم وجبة غداء خفيفة . إذ خطر لها ان رحلتهم كانت نوعاً من الفسحة . وفي طريقهم مروا في ساحة الكنيسة بشجرة أكاسيا عالية رأوا بين أغصانها عشاً من أعشاش الغراب . ووعدفنسنت جان المنبهر بما رأى ان يأتيه ببيضة من بيضات العش . وساروا خلال غابات الصنوبر وهم يسمعون أصوات أقدامهم على الأوراق الابرية المفروشة تحتها ، ثم ساروا عبر الرمال الصفراء والبيضاء والرمادية في المروج. وشاهد فنسنت عند أحد المواضع محراثاً مهجوراً وعربة تقف في الحقل . فانزل حامل الرسم الصغير من يده ، ورفع جان إلى العربة ، وقام برسم المنظر سريعاً ، بينماوقفت كاي على مقربة جانباً ، ترقب جان وهو يلهو صاخباً . وظلت صامتة . ولم يشأ فنسنت أن يتطفل عليها ، فقد كفاه سروراً ان يكون برفقتها . وما كان يدري من قبل ان وجود امرأة إلى جانبه وهو يعمل ، كفيل بادخال مثل هذا السرور على قلبه .

ومروّا بعدد من الأكواخ المسقوفة بالقش ، ثم بلغوا الطريق الذي يتجه إلى روزندال . وتكلمت كاي بعد طول صمتها .

قالت « أتدري يا فنسنت ، ان رؤيتك أمام مسند لوحاتك ذكرتني بشيء كنت أفكر فيه خاص بك في امستردام . »

— « وما هو يا كاي ؟ »

— « هل أنت متأكد أنك لن تتأثر ؟ »

— « كلا . اطلاقاً . »

— « اذن سأقول لك بصراحة انني لم أكن مقتنعة بأنك خلقت لتكون من رجال الكهنوت . وكنت أشعر انك كنت تضيع وقتك باستمرار . »

— « ولماذا لم تحدثيني بذلك ؟ »

— « لم يكن لي الحق أن أفعل ذلك يا فنسنت . »

ودست بضع جدائل متناثرة من شعرها الأحمر الذهبي تحت قلنسوتها السوداء . ثم إن اخدوداً ملتوياً في الطريق القاها نحو كتف فنسنت . فوضع يده تحت ذراعها ليساعدها على استعادة توازنها ، ونسي بعد ذلك ان يسترد اليد .

وقالت — « لقد قدرت أنك سوف تتصرف من ذاتك ، وان أي قدر من الكلام ما كان يجديك فتيلاً .

وقال فنسنت — « نعم . أتذكر الآن انك حذرتني من أن أغدو رجل دين ضيق الأفق . وكان صدور ذلك من ابنة كاهن امراً غريباً . »

وابتسم لها مفتوناً ، ولكن الحزن في عينيها .

— « هذا صحيح . ولكن فوس علمني في الحقيقة أشياء كثيرة ما كنت لأفهمها لولاه . »

فسحب فنسنت يده إلى جنبه . وقد اقام ذكر اسم فوس حاجزاً غريباً غير مرئي بينهما .

ووصلوا ليزبوخ بعد مسيرة ساعة ، ونصب فنسنت مسند الرسم من جديد . وأراد أن يلتقط رسم مستنقع صغير هناك . وراح جان يلعب

في الرمال ، وجلست كاي خلف فنسنت فوق مقعد صغير كان قد أحضره من أجلها . وكانت تحمل كتاباً في يدها ولكنها لا تقرأ . وشرع فنسنت يرسم بسرعة وهو يشعر تحفزاً معيناً . كان المخطط ينبثق تحت يده بنشاط أعظم من كل ما مر به سابقاً . ولم يدر أكان ذلك بتأثير ثناء موف أو بتأثير وجود كاي ، إلا أن قامه اكتسب ثقة في لمساته وقام برسم عدة مخططات في تتابع سريع . ولم يلتفت لينظر إلى كاي ولا هي تكلمت وقاطعته ، إلا ان قربها منحه وهجاً من الغبطة . ولقد أراد أن يأتي عمله في ذلك اليوم جيداً على نحو خاص ، حتى تعجب به كاي .

وحل وقت الغداء فساروا مسافة قصيرة إلى أشجار البلوط . ونشر فنسنت محتويات السلة تحت إحدى الأشجار الظليلة . وكان الهواء ساكناً تماماً ، واختلطت رائحة زنابق الماء بشذى البلوط الخفيف من فوقهم . وجلست كاي وجان في احد جانبي السلة ، وفنسنت في الجانب الآخر . وقامت كاي بالخدمة . فتراءت له صورة موف وعائلته وهم يجلسون حول مائدة العشاء المنزلي .

وحانت منه نظرة إلى كاي ، فخطر له انه لم ير انسانة في حياته على مثل هذا الجمال . ومع ان الجبنة الصفراء الدسمة كانت لذيذة وخبز امه عذب النكهة شأنه دائماً ، فانه لم يستطع ان يأكل ، اذ استيقظ بين أعطافه جوع هائل جديد . ولم يستطع أن ينتزع نظره عن بشرة كاي الناعمة ووجهها البيضاوي المنحوت ، والعينين المتأملتين كأنهما بحيرة الليل ، والفم المكتنز العذب الذي سلب نضجه مؤقتاً ، ولكنه سوف يبرعم من جديد.

بعد الغداء استلقى جان للنوم مسنداً رأسه إلى حضن أمه . وراقبها فنسنت ترتب شعر طفلها الناعم ، وهي تبحث عن شيء في سيماء الوجه

البريء . وفهم فنسنت أنها ترى إلى وجه زوجها منعكساً على الطفل ، وأنها كانت تتخيل بيتهم في كيزرزجراخت وهي مع الرجل الذي أحبته ، وليست في مروج البرابانت بصحبة ابن خالتها فنسنت .

واستمر في الرسم طوال فترة بعد الظهر ، وأثناء ذلك تحول جان اليه ونام في حجره . اذ ان الصبي أحبه . وتركه فنسنت يملأ عدة أطباق من ورق انجريز باللطخات السوداء . وراح الطفل يضحك ويصرخ ويركض حولهما فوق الرمال الصفراء ، ثم يعود إلى فنسنت بأسئلة أو بأشياء عثر عليها أو بطلبات تجلب له التسلية . ولم يستثقل فنسنت ذلك ، بل انه سر بوجود هذا الحيوان الدافيء الصغير الحي يتسلق فوقه محباً .

كان الخريف على الأبواب ، والشمس تغرب في ساعة مبكرة . وفي طريقهم إلى المنزل توقفوا أمام العديد من برك المياه ليشاهدوا ألوان الغروب تستقر فوق الماء بأجنحة الفراش . ثم يحل الظلام رويداً ، ثم تغيب الألوان في الغسق . وعرض فنسنت رسوماته على كاي . ورأتها دونما تركيز ، ووجدت ما شاهدته قاسياً غير مصقول . إلا أن فنسنت كان لطيفاً حيال جان ، وهي امرأة تفهم جيداً طبيعة الألم .

فقالت — « لقد أحببتها يا فنسنت . »

— « أحقاً يا كاي ؟ »

ان ثناءها على عمله فتح في داخله بوابة مغلقة كانت تحجز الفيضان . ومن قبل كانت شديدة التعاطف معه في امستردام ، واذن فانها سوف تفهم جميع ما كان يحاول ان يفعله . وبدا له على نحو ما انها الانسانة الوحيدة في العالم التي قد تفهمه . فهو لا يستطيع أن يتحدث لأهله عن

مشروعاته لأنهم لا يميزون حتى المفردات التي يستخدمها ، وهو اذا تحدث إلى أمثال تيرستيج وموف فعليه ان يتخذ مظهر المبتدىء المتواضع الذي لا يشعر به دائماً .

اندفع يفرغ مكنونات قلبه أمامها بعبارات متعجلة غير مترابطة . وحمي وطيس حماسه فأسرع خطاه ، وتابعت كاي السير معه بصعوبة. وقد كان من طبعه إذا تأثر بشيء من الأشياء تأثراً عميقاً ان يفقد توازنه ، ويحل محل التوازن ذلك المزاج العنيف المتشنج . لقد اختفى الرجل المهذب المنضبط الذي كان في فترة بعد الظهر ، وظهر أمامها الريفي القروي فأذهلها وأفزعها . وشعرت ان تفجره كان خلواً من التهذيب والنضج . ولم يدر في خلدها أنه إنما كان يمنحها أندر وأثمن الهدايا التي قد يمنحها رجل لامرأة .

لقد أفرغ أمامها جميع تلك الأحاسيس المختزنة في قلبه منذ سافر تيو إلى باريس . وحدثها عن أهدافه وطموحاته ، وعن الروح التي يحاول أن يشحن عمله بها . وعجبت كاي لماذا تملكه الاهتياج ، ولم تقاطعه . ولكنها لم تكن تصغي إليه ، ذلك أنها كانت تعيش في الماضي ، وفي الماضي دائماً ، حتى أنها كانت ترى أن من المقيت ان يحيا المرء وهو يعلق على المستقبل آمال الفرح والفعالية على هذا النحو . أما فنسنت فكان مستغرقاً في غليانه بحماس إلى الحد الذي لم يشعر معه بانسحابها . ومضى في حديثه وهو يستعين بيديه في التعبير ، حتى ورد على لسانه اسم استرعى انتباه كاي ، فقالت :

— « نوهايز ؟ هل تعني الرسام الذي يعيش في امستردام ؟ »

— « كان هناك فيما مضى . ولكنه الآن في لاهاي . »

« نعم . كان فوس صديقاً له ، وقد أحضره إلى المنزل عدة مرات .»

فأوقفها فنسنت باشارة من يده .

فوس ! فوس دائماً ! لماذا ؟ ألم يمت ؟ بل مات قبل أكثر من سنة وقد آن الاوان لأن تنساه . انه ينتمي إلى الماضي ، كما هو شأن اورسولا بالنسبة إليه . فلماذا تعمد دائماً إلى تحويل المحادثة نحو ذكر فوس ؟ ان فنسنت لم يهضم زوج كاي حتى في أيام امستردام .

تغلغل الخريف في الجو ، وتحول لون سجادة الاوراق الابرية المفروشة في الغابات إلى لون بني صدىء متجعد . وظلت كاي وجان يصحبان فنسنت إلى الحقول كل يوم أثناء عمله . ودبت في خديها لمسة من اللون جراء المسيرات الطويلة عبر المروج وأصبحت خطوتها أكثر ثباتاً وثقة . وكانت تأخذ معها سلة خياطتها وتشغل أصابعها شأن فنسنت. وبدأت تتحدث بحرية وتحرر أشد حول طفولتها وحول الكتب التي قرأتها وحول البشر المتميزين الذين عرفتهم في امستردام .

ونظرت العائلة إلى ما يربط الاثنين نظرة الموافقة . ذلك ان رفقة فنسنت منحتها الاهتمام بالحياة . كما ان وجودها في البيت جعل فنسنت أكثر بشاشة . وهكذا شكرت آنا كورنيليا وثيودوروس ربهما على هذا الترتيب اللقائي ، وفعلا كل ما في وسعهما لاتاحة الفرصة للشابين كي يكونا معاً .

أحب فنسنت كل ما يمت إلى كاي بصلة ، فأحب قامتها النحيلة الهشة داخل ثوبها الأسود الطويل الصارم . وأحب قلنسوتها السوداء التي كانت ترتديهاعندما تذهب إلى الحقول ، وأحب الشذى الطبيعي الذي يفرزه

جسدها فيدخل في خياشيمه كلما انحنت أمامه ، وأحب الطريقة التي بها فمها عندما تتحدث بسرعة ، وأحب النظرة المتفحصة التي تنطلق من عينيها الزرقاوين العميقتين ، وأحب اللمسة المرتعشة التي يحسها في يدها فوق كتفه أو يده حينما تأخذ جان منه ، وأحب صوتها الحلقي الموسيقي الذي كان يهزه إلى أعمق أعماق طبيعته ، وكان يسمعه يغني داخل دماغه حينما يأوي إلى النوم ، وأحب الرونق الحي لبشرتها التي كان يتحرق لأن يدفن فيها شفتيه الجائعتين .

لقد عرف الآن انه عاش سنوات عديدة حياة غير كاملة ، وان مصادر العاطفة والرقة فيه كانت قد نضبت لأن جوفه الظمآن حرم من مياه الحب المنعشة . وهو الآن لا يغدو سعيداً إلا قرب كاي ، وهو يحس ان وجودها يطوقه ويعانقه بلطف . فاذا ذهبت معه إلى الحقول أخذ يرسم سريعاً بشهية مفتوحة ، اما اذا بقيت في المنزل فكان كل خط يغدو كدحاً وجهاداً . وكان يجلس في الامسيات مقابلاً لها على الطاولة الخشبية الكبيرة في غرفة الجلوس ، ومع انه كان يقوم بنسخ رسوماته التي خططها في النهار ، فان وجهها العذب كان ماثلاً بينه وبين أوراقه . فاذا حدث ان نظر اليها ليراها تجلس في الضوء الشاحب المنبعث من المصباح الأصفر الكبير ، فالتقت نظراتهما ، ابتسمت اليه بحزن عذب مذعن . وكثيراً ما انتابه شعور بأنه لا يستطيع أن يبقى بعيداً عنها لحظة واحدة أخرى ، وانه موشك على ان يثب امام العائلة كلها ، فيضمها اليه بوحشية ،ويدفن شفتيه الحارتين الجافتين في بئر فمها البارد .

لم يكن مغرماً بجمالها وحسب ، وإنما بوجودها وبخصائصها كلها ،

بمشيتها الرزينة ، وبتوازنهاوتحملها القويين ، وبتربيتها الطيبة التي كانت كل بادرة من بوادرها مفصحة عنها .

لم يكن يعتريه شك أبداً في انه كان طوال السنوات السبع التي أعقبت فقده اورسولا يعيش في وحدة لا تطاق . بل انه طوال حياته لم يسمع إمرأة تقول له كلمة ملاطفة واحدة ، أو تنظر إليه بعينين غائمتين بالعاطفة الرقيقة ،أو تمسح على وجهه بأصابعها مسحاً رقيقاً ثم تعقب على آثارها بالقبلات .

لا امرأة احبته يوماً . ولم تكن حياته حياة ، وانما موت . ولم يكن حاله سيئاً حين أحب اورسولاً ، فاذ ذاك كان — وهو في مراهقته — لا لا يريد إلا أن يعطي ، وقد حرم من العطاء . اما الآن ، في هذا الحب الناضج ، فهو يريد أن يعطي وان يأخذ على حد سواء ، عالماً ان الحياة تغدو مستحيلة إذا لم يشبع جوعه باستجابة دافئة من لدن كاي .

وذات ليلة كان يقرأ ميشيليه ، وجرت عيناه فوق عبارة تقول « ينبغي لك ، لكي تصبح رجلاً ان . . . . امرأة » .

لقد كان ميشيليه على حق دائماً . ففنسنت لم يبلغ مبلغ الرجال . وعلى الرغم من انه بلغ عامه الثامن والعشرين ، فانه لم يولد بعد . إلا أنه منذ هب عليه شذى الجمال والحب من جانب كاي ، غدا رجلاً في نهاية الأمر .

هو يريدها كما يريد الرجل المرأة . ويحبها حباً جياشاً إلى حد التفاني . وهو يحب جان أيضاً ، لأن الطفل جزء من المرأة التي أحب . ولكنه يكره فوس وبكل قواه ، لأنه لا يستطيع ، مهما فعل ، ان يبعد ذلك الرجل

الميت عن موقعه القوي في عقل كاي . ان فنسنت لا يمكن أن يؤاخذها على حبها السابق وعلى زواجها إلا اذا آخذ نفسه على سنوات المكابدة التي نجمت عن حبه لاورسولا . لقد سحقت كاي كما سحق فنسنت تحت مطرقة الالم وسندانه ، وسوف يكون حبهما شافياً لهما من ذلك الالم .

انه عليم بأن في وسعه ان ينسى كاي ذلك الرجل الذي ينتمي للماضي ، وذلك بأن يجعل من حبه في الحاضر ناراً متأججة لا تبقي للماضي على أثر انه ذاهب قريباً إلى لاهاي ايدرس على موف . وسوف يصحب كاي ، وهناك يقيمان . انه يريد كاي زوجة له ، لتبقى إلى جواره دائماً . انه يريد زوجة ويريد أطفالاً تحمل وجوههم طابع ملامحه . انه الآن رجل مكتمل ، وقد آن الأوان لأن يتوقف عن التجوال هنا وهناك . انه يحتاج إلى الحب في حياته ، وبالحب يتخلص عمله من الخشونة ، وتستدير الزوايا الحادة في رسوماته ، وينجزها بسرعة بعد ان امتلك الوعي بالحقيقة التي كانت تعوزه . انه لم يدر من قبل كم تساقطت فيه من اجزاء ميته بسبب حرمانه من الحب ، وهو لو كان يعرف ، لأ قبل على أول امرأة يصادفها ، ولأ حبها وتعشقها . ان الحب هو ملح الحياة ، والانسان في حاجة اليه كيما يتذوق نكهة العالم . .

انه الآن منشرح لأن اررسولا لم تحبه . فلكم كان حبه اذ ذاك زائفاً وكم هو الآن عميق ونفيس . ولو تزوج اورسولا لما عرف معنى الحب الحقيقي ، ولما استطاع أن يحب كاي ! ولقد ادرك للمرة الأولى ان اورسولا كانت طفلة ضحلة فارغة الرأس ، خالية من الروعة والتمايز . وانه قضى سنوات يكابد من أجل دمية ! ان ساعة واحدة بصحبة كاي تساوي عمراً كاملاً بصحبة اورسولا . لقد كان طريقه عسيراً ، ولكنه

قاده إلى كاي ؛ فأصبح له تبريره . وسوف تغدو الحياة طيبة منذ الآن فصاعداً ، وسوف يعمل وسوف يحب ، وسوف يبيع رسوماته . وسوف يكونان سعيدين معاً . وان لكل حياة انسانية نمطاً يحفر مجراه ببطء حتى يبلغ مغزاه المحدد .

كان التهور في طبيعته ، وكان عقله واقعاً تحت تأثير الاهتياج . ومع ذلك عمل على ضبط نفسه . فحين كان يخلو إلى كاي في الحقول ، وكانا يتحدثان حول أمور غير ذات أهمية على الاطلاق ، راودته نفسه ألف مرة ان يصيح بها قائلاً « اسمعيني يا أنت . . دعينا نلق جانباً بهذا التكلف وهذه الرسميات . فأنا أريد أن أضمك بين ذراعي وأقبلك ، ثم أقبلك ، ثم أقبلك ثانية ! وأريد أن تصبحي زوجتي وأن تمكثي معي إلى الأبد ! أنت لي ، وأنا لك ، وكل منا يحتاج إلى الآخر في هذه العزلة التي يعيشها ! »

لكنه تمكن بأعجوبة من أن يضبط نفسه . فليس في مقدوره أن يتكلم عن الحب فجأة ، حين يكون الأفق خالياً من المقدمات ، لأن في ذلك فظاظة بالغة . وكاي من ناحيتها لم تفتح له أية ثغرة . بل إنها اجتنبت دائماً حديث الحب والزواج . فكيف اذن يتحدث ومتى ؟ لقد أحس انه ينبغي ان يقدم على ذلك سريعاً ، لأن الشتاء يقترب ، وهو يزمع الذهاب إلى لاهاي .

ثم إذ به أخيراً يعجز عن تحمل المزيد ، وإذا بارادته تنفرط . حدث ذلك في يوم خارجاً فيه كعادتهما وسلكا طريق بريدا . وقضى فنسنت فترة الصباح يرسم عمال العزق أثناء عملهم ، وبعد ذلك اويا إلى ظل شجرة دردار بجوار أحد الغدران ليتناولا وجبتهما الخفيفة . وكان جان نائماً

على العشب ، وكاي تجلس بجوار السلة . وركع فنسنت إلى جوارها ليريها بعض الرسوم . وبينما كان يتحدث دون أن يعي كلمة واحدة مما يقول ، أحس احساساً سريعاً بكتف كاي الدافىء يستقر في جنبه ، فاذا بهذا الاحتكاك يضرم ناراً لم يستطع أن يخمدها . وسقطت الرسوم من يده ، وشد كاي اليه فجأة بضراوة ، وتدافعت من بين شفتيه موجة عارمة من الكلمات الخشنة المحمومة حباً . »

— « كاي ، لا أستطيع تحمل عدم البوح لك ولو لحظة واحدة ! يجب أن تعلمي انني أحبك يا كاي ، أكثر مما أحب نفسي ! لقد أحببتك دائماً ، منذ المرة الأولى التي رأيتك فيها بامستردام ! لابد أن تكوني إلى جانبي دائماً ! قولي يا كاي أنك تحبينني ولو قليلاً . نحن سنذهب إلى الهاج ونقيم هناك وحدنا . وسيكون لنا بيتنا ، وسنغدو سعيدين . انك تحبينني . أليس كذلك يا كاي ؟ قولي انك ستتزوجينني يا كاي العزيزة.»

لم تبذل كاي جهداً لتحرر نفسها ، وقد التوى فمها بفعل الرعب ورد الفعل . ولم تسمع الكلمات التي قالها ، ولكنها ألمت بفحواها ، وصعد في داخلها ذعر فظيع . وحدقت عيناها الزرقاوان المسودتان به بقسوة ، ورفعت يدها إلى شفتيها لتكتم الصرخة التي أوشكت أن تفلت منهما .

وقالت بضراوه وهي تلهث — « لا . أبداً ، أبداً . »

وانتزعت نفسها وانفلتت من قبضته ، واختطفت الطفل الغافي ، واندفعت تجري كالوحش في الحقول . وركض فنسنت خلفها . إلا أن الذعر قد زود ساقيها بسرعة إضافية ، وهربت من أمامه ، وهو لا يفهم ما الذي حدث .

وناداها ــ « كاي ! كاي ! لا تهربي . »

غير ان صوت ندائه حملها على مزيد من السرعة ، وظل فنسنت يعدو وهو يلوح بيديه كالمجنون ، ورأسه يتمايل على كتفيه . وتعثرت كاي ووقعت فوق رمل اخدود ناعم في الحقل. وكان جان متشكياً . وقذف فنسنت بنفسه على ركبتيه في التراب وقبض على يدها .

ــ كاي ، لماذا تفرين مني وأنا أحبك هذا الحب كله ؟ ألا ترين أنني أبغيك لي . انك تحبينني بدورك يا كاي . لا تخافي . فانني لم أقل إلا أنني أحبك . سوف ننسى الماضي يا كاي ، ونبدأ حياة جديدة . »

انقلبت نظرة الرعب في عيني كاي إلى نظرة بغض . وانتزعت يدها منه . وقد صحا جان تماماً عند هذا الحد . وأفزعته تلك النظرة الوحشية المحمومة في وجه فنسنت كما أرعبه سيل الكلمات العنيفة المتدفقة من شفتي الرجل الغريب . فلف ذراعيه حول رقبه أمه وشرع يبكي .

ــ كاي . عزيزتي . ألا يمكنك أن تقولي انك تحبينني ولو أقل الحب . »

ــ « لا . أبداً . أبداً . »

وركضت عبر الحقول ثانية نحو الطريق . فجلس فنسنت هناك فوق الرمل الناعم مذهولاً . وبلغت كاي الطريق ، ثم اختفت . فتحامل فنسنت على نفسه واندفع يتبعها هاتفاً باسمها بأعلى صوته . وعندما وصل إلى الطريق أبصرها بعيداً وهي ما زالت تجري والطفل مضموم إلى صدرها . فتوقف وشاهدهما يختفيان في أحد المنعطفات . وبقي واقفاً هناك بهدوء فترة طويلة ، ثم عاد إلى الحقل والتقط رسوماته عن الأرض ، ووجدها

مغبرة قليلاً ، ووضع حاجيات الطعام في السلة ، وثبت حامل الرسم على ظهره ، وسار مجهداً نحو المنزل .

كان بيت الكاهن زاخراً بالتوتر ، وقد أحس فنسنت بذلك في اللحظة عينها التي دخل فيها من الباب . وعرف أن كاي اوت إلى غرفتها وأغلقت الباب عليها وعلى جان . بينما جلست أمه وأبوه وحدهما في غرفةالجلوس وكانا يتبادلان حديثاً ما لبثا أن قطعاه فوراً لدى دخوله . وكاد أن يحس بنصف جملة معلقة في الهواء . وأغلق الباب وراءه . وأدرك ان والده لابد غاضب إلى درجة مخيفة ، لأن جفن عينه اليمنى كاد مغلقاً تقريباً.

وولولت أمه تقول : « فنسنت ، كيف خطر لك ؟ »

ولم يكن يدري أي شيء حصراً هو ما يوبخونه عليه فتساءل — «خطر لي ماذا ؟ »

— « ان تهين ابنة خالتك على هذا النحو ! »

ولم يستطع فنسنت ان يفكر في إجابة على هذا السؤال . وفك سيور المسند عن ظهره ، ووضعه في زاوية . وكان والده ما زال منفعلاً إلى درجة تعجزة عن الكلام .

وسألهما فنسنت — « هل أخبرتكما كاي عما حدث تحديداً ؟ »

وأرخى والده الياقة العالية التي تضغط على جلد رقبته الحمراء ، وتشنجت يده اليمنى على حافة الطاولة .

— أخبرتنا أنك أطبقت بذراعيك عليها ، ورحت تهذي كالرجل المجنون . »

فقالت فنسنت بهدوء – لقد قلت لها أنني أحبها . ولا أفهم كيف يكون في ذلك اهانه » .

وسأله أبوه بصوت ثلجي « – أكان ذلك كل ما قلته لها ؟ »

– « كلا . بل طلبت منها أن تغدو زوجة لي . »

– « زوجة لك ! »

– « نعم . ما المذهل في ذلك ؟ »

وقالت أمه – « اوه ، فنسنت ، كيف يمكنك أصلاً أن تفكر في شيء كهذا ؟ »

– « إنني متأكد أنك أنت نفسك فكرت فيه أيضاً . . . »

– « وكيف لي أن أحلم ، ولو حلماً ، انك قد تقع في حبها ؟ »

وقال والده – « فنسنت . هل أنت مدرك ان كاي احدى بنات عمومتك من الدرجة الأولى ؟ »

– « نعم ، وماذا في ذلك ؟ »

– « لا يمكنك الزواج بقريبة من الدرجة الأولى . . فذلك يدعى.. يدعى . . . »

ولم يستطع الكاهن أن يحمل نفسه على النطق بالكلمة . وسار فنسنت نحو النافذة وراح ينظر نحو الحديقة .

– « ماذا يدعى ؟ »

– « سفاح محارم . »

وكبح فنسنت ثورته بجهد بالغ ، ترى كيف يجرؤون على قذف حبه بكلمات ابلاها الاستعمال !

— « هذا محض هراء يا أبي . ولا يليق بك اطلاقاً . »

فصاح به ثيودوروس — « أنا أقول لك انه سفاح محارم ! ولن أسمح بهذه العلاقة القائمة على الخطيئة في عائلة فان جوخ . »

— « آمل يا أبي انك لا تتخيل ان ما تقوله نص من الكتاب المقدس . فقد أجيز زواج أبناء العمومة والخؤولة دائماً . »

وقالت أمه — « اوه ، فنسنت ، يا عزيزي ، إذا كنت قد أحببتها فلماذا لم تتمهل ؟ زوجها لم يمض على وفاته إلا عام ، وهي مازالت تحبه وتدين له بالوفاء . وأنت تعرف انك لا تملك مالاً لإعالة زوجة . »

وقال أبوه — « إنني أعد ما فعلته أمراً دالاً بوضوح على قلة النضج وعدم اللياقة . »

وتراجع فنسنت إلى الخلف ، وتحسس غليونه مرتبكاً ، وحمله بيده لحظة ، ثم أعاده ثانية .

— « أبي ، يجب أن أطلب منك بثبات وحسم ، ان لا تعود إلى استخدام مثل هذه التعابير . ان حبي لكاي هو أروع ما حدث في حياتي . ويسوؤني ان تدعوه قلة نضج وانعدام لياقة . »

وانتش مسندد وذهب إلى غرفته . وجلس على السرير وسأل نفسه « ماذا حدث ؟ ما الذي فعلته ؟ لقد أبلغت كاي انني أحبها ، فركضت هاربة . لماذا ؟ أهي لا تريدني ؟ »

« لا . أبداً ، أبداً . »

وقضى الليل وهو يعذب نفسه باسترجاع المشهد مراراً ، وينتهي . دائماً عند النقطة ذاتها . وصوت ايقاع تلك الجملة الصغيرة يرن في أذنيه رنين الناقوس الذي يعلن الادانة والموت .

وفي الصباح التالي أضحى عليه النهار قبل أن يحمل نفسه على النزول إلى الطابق السفلي . وأحس أن جو التوتر قد انقشع . ووجد أمه في المطبخ. وعندما دخل اليها طبعت على خده قبلة وربتت عليه لحظة .

وسألته — « هل نمت يا عزيزي ؟ »

— « أين كاي ؟ »

— « ذهب أبوك يوصلها إلى بريدا . »

— « لماذا ؟ »

— « لتستقل قطارا ، فانها مغادرة إلى بيتها . »

— « إلى امستردام ؟ »

— « نعم . »

— « طيب . »

— « رأت ان ذلك أفضل يا فنسنت . »

— « هل تركت رسالة إليّ ؟ »

— « لا يا عزيزي . ألا تجلس لتتناول افطارك ؟ »

— « لا كلمة بالمرة ؟ حول أمس ؟ أكانت غاضبة مني ؟ »

ـ « كلا . وكل ما في الأمر انها رأت من الخبر أن ترجع إلى والديها في بيتهم . »

لقد قررت آنا كورنيليا ان من الأفضل أن لا تعيد على مسمعيه الأشياء التي تفوهت بها كاي . وهكذا شغلت نفسها بوضع بيضة فوق الموقد .

ـ « في أية ساعة يغادر ذلك القطار بريدا ؟ »

ـ « في العاشرة وعشرين دقيقة . »

نظر فنسنت نحو ساعة المطبخ الزرقاء .

وقال ـ « أي الآن . »

ـ « نعم . »

ـ « اذن ليس لي ما أفعله . »

ـ « تعال واجلس هنا يا عزيزي . ان عندي هذا الصباح لساناً طازجاً ظريفاً . »

وأفسحت حيزاً على طاولة المطبخ ، ووضعت فوطة ونشرت أطباق الافطار أمامه . وجعلت تحوم حواليه وتحثه على الأكل . وتملكها شعور بأنه اذا ملأ معدته كما ينبغي ، فسوف يصبح كل شيء على ما يرام .

ورأى فنسنت أن ذلك يسرها ، فابتلع كل ما وضعته على المائدة ، إلا أن طعم « ابداً ، لن يكون ، لن يكون . » استقر في فمه وجعل لكل لقمة حلوة يمضغها طعماً مراً .

كان يعرف انه يحب، عمله أكثر كثيراً مما يحب كاي . فلو الزم بالاختيار بينهما ، فليس في ذهنه أدنى شك في أي الخيارين يقرر . ومع ذلك فقد دب في رسمه البرود فجأة ، ولم يعد قادراً على العمل بأقل الاهتمام . ونظر إلى رسومه في مرحلة البرابانت وهي معلقة على الحائط ، فرأى انه حقق تقدماً منذ شعر بالحب تجاه كاي . وكان يعرف أن شيئاً من الخشونة والقسوة ما زال موجوداً في رسومه ، إلا أنه أحس ان حب كاي سوف يصقلها . وكان حبه يبلغ من الجدية والقوة ما يجعل من المحال ان تقضي عليه كلمات من قبيل « ابداً ، لن يكون ، لن يكون . » مهما كان عددها ، وهكذا عد رفضها بمثابة كتلة من الجليد ، ما تلبث أن تذوب حالما يفركها بدفء فؤاده .

غير أن جرثومة الشك في عقله هي التي حالت بينه وبين العمل . فماذا لو لم يتمكن من حملها على تغيير قرارها ؟ والظاهر أن لديها شيئاً من حيرة الضمير أمام مجرد فكرة الحب الجديد . وهو يريدأن يشفيها من ذلك المرض القاتل ، فلا تدفن نفسها في الماضي على هذا النحو المبالغ فيه . وهو يريد أن يصل إلى قبضة الفنان التي هي قبضته باليد الانثوية التي هي يدها ، ويعمل في سبيل خبزهما اليومي وسعادتهما .

وأمضى أوقاته في غرفته ، يكتب إلى كاي رسائل عاطفية مليئة بالتوسل . ومرت أسابيع عديدة قبل أن يعلم انها لم تعبأ حتى بقراءتها . وكان يكتب رسائل شبه يوميه إلى ثيو ، موضع سره ، يستقوي بها على الشك في قلبه وعلى الحملات المنسقة التي يشنها عليه ابواه والمبجل ستريكر .

وأضنته المكابدة المريرة ، ولم يستطع أن يخفيها عن الأعين دائماً . وجاءته أمه بوجه مليء بالشفقة والكلمات المريحة .

قالت له — « فنسنت ، انك انما تحطم دماغك على صخرة حائط . فالعم ستريكر يقول إن رفضها قاطع ونهائي . »

— « إنني لا أشتري كلمته بأرخص الاثمان . »

— « ولكنها هي التي أخبرته يا عزيزي . »

— « إنها لا تحبني ؟ »

— « نعم ، وأنها لن تغير رأيها قط . »

— « سنرى بأنفسنا جلية الأمر . »

— « إنها مسألة ميؤوس منها تماماً يا فنسنت . ان العم ستريكر يقول انه حتى على افتراض ان كاي تحبك ، فهو لن يوافق على الزواج ما لم يكن دخلك السنوي ألف فرنك على الأقل . وأنت تعلم أنك ما زلت بعيداً عن ذلك . »

— « حسناً يا أمي . ان من يحب يعيش ، ومن يعش يعمل ، ومن يعمل يحصل على الخبز . »

— « جميل جداً يا عزيزي ، لولا أن كاي نشأت في ظل الترف ، وامتلكت الأشياء الثمينة دائماً . »

— « ولكن أشياءها الثمينة لم تحقق لها السعادة في هذه الأيام . »

— « إذا اعتمدتما أنتما الاثنان على العاطفة وتزوجتما ، كانت النتيجة

بؤساً كبيراً ، وفقراً ، وجوعاً ، وبرداً ، ومرضاً ، لأنك تعلم ان العائلة لن تساعدكما بفرنك واحد . »

— « لقد مررت بجميع هذه المشكلات يا أمي ، وهي لا تخيفني ، ومازال من الأفضل لي ولها ان نكون معاً على أن لا نكون . »

— « ولكن يا طفلي . . هب أن كاي لا تحبك . »

— « انني واثق من انني لو تمكنت من الذهاب إلى امستردام ، فانني قادر على تحويل تلك الـ « لا » إلى « نعم » .

وبعد ذلك خطر له أن من مظاهر البؤس الصغيرة في الحياة الانسانية على حد قوله ، ان لا يكون قادراً على الذهاب لرؤية المرأة التي أحب ، وانه غير قادر على كسب فرنك واحد لدفع أجرة القطار . وتماقم غضبه بسبب هذا العجز . فهو رجل يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً . وقد سلخ اثني عشر عاماً منها وهو يكدح منكراً على نفسه كل شيء غير الضروريات الأساسية للحياة ، وها هو بعد ذلك كله ، لا يملك في العالم بأسره سبيلاً للحصول على مبلغ صغير محزن ، لشراء تذكرة إلى امستردام .

وقد فكر في قطع الكيلومترات المائة سيراً على الاقدام ، ولكنه كان يعرف أنه سوف يصل في حالة من القذارة والجوع والانهاك ، ولم يكن عابئاً بالاجهاد الذي سيحل به . اما ان يدخل إلى بيت المبجل ستريكر بالحالة التي دخل بها إلى بيت المبجل بيترسين . . . ! فجلس في المساء وكتب إلى ثيو رسالة ثانية بعد الرسالة الأولى المطولة التي ارسلها في الصباح .

« عزيزي ثيو

إنني في مسيس الحاجة إلى المال لأقوم بالرحلة إلى امستردام حالما يصلني المبلغ الكافي . ارفق لك بعض الرسومات . وأرجو ان تخبرني لماذا لا تباع ، وماذا أفعل لأجعلها مرغوبة للمشترين،لأنني يجب أن أكسب بعض المال لشراء تذكرة القطار ، كي أذهب وأفهم جيداً تلك ال « لا . أبداً ، أبداً . » .

وكلما مرت الأيام أحس أنه شخص جديد وان قواه تتنامى وان صحته بخير . لقد حقنه حبه بالتصميم . وقد ازاح جرثومة الشك ، ووقر في خلده الآن انه لو استطاع أن يرى كاي وحسب ، ويساعدها على أن تفهم أي نوع من الرجال هو في قرارته ، لتمكن من تغيير تلك ال« لا. أبداً،أبداً « إلى » نعم إلى الأبد إلى الأبد ». وهكذا عاد إلى عمله بنشاط جديد ، وعلى الرغم من علمه ان قبضته المهنية ما زالت متصلبة فقد أحس إحساساً تحدوه الثقة القوية ، ان الزمن هو الكفيل بانهاء هذه المشكلة مثلما سينهي رفض كاي .

وفي المساء التالي أرسل رسالة إلى المبجل ستريكر يوضح له فيها حالته بجلاء . ولم يتكلف في الرسالة كلماته ، ولذلك ابتسم وهو يتخيل ألفاظ السخط التي سيتفوه بها عمه لاوياً شفتيه . وقد أبدى أبوه ممانعة في كتابة الرسالة . وكانت هنا معركة حقيقية تتلبد غيومها في منزل الكاهن . ذلك ان ثيودوروس كان ينظر إلى الحياة من خلال لغة الطاعة الصارمة والسلوك الصارم . وكان خالي الذهن من تقلب المزاج الانساني . فاذا لم يتكيف ولده مع القالب ، فمعنى ذلك ان ولده هو الملوم وليس القالب .

قال ثيودوروس عبر طاولة المساء — « ان الخطأ كله هو خطأ هذه الكتب الفرنسية التي تقرأها . وعندما تواظب على مصاحبة اللصوص والقتلة ، فكيف يمكن لانسان أن ينتظر منك تصرف الابن المطيع والرجل المهذب ؟ »

— « لصوص وقتلة ؟ هل تسمي فيكتور هيجو وميشيليه لصوصاً؟»

— « كلا . ولكن ذلك ما يكتبون عنه . ان كتبهم مليئة بالشر .»

— « هراء يا أبي . ان ميشيليه نقي نقاء الكتاب المقدس نفسه . »

فصرخ ثيودوروس في غضب مجاجل—« لا أريد ان أسمع أي حرف من تجديفك هنا أيها الشاب ! إن تلك الكتب غير أخلاقية . وان أفكارك الفرنسية هي التي دمرتك . »

نهض فنسنت ، وسار حول الطاولة ، ثم وضع كتاب « الحب والمرأة أمام ثيودوروس .

وقال — « هناك طريقة واحدة لاقناعك ، وحسبك أن تقرأ صفحات قليلة بنفسك . وسوف تتأثر . ان ميشيليه لا يبغي إلا مساعدتنا في حل مشكلاتنا ومظاهر بؤسنا الصغيرة . »

عند ذلك كنس ثيودوروس « الحب والمرأة » من فوق الطاولة ملقياً به إلى الأرض ، في هيئة الرجل الصالح الذي ينبذ الخطيئة بعيداً عنه .

وقال وهو يستشيط غضباً — « لست في حاجة إلى قراءته ! لقد كان لنا في أسرة فان جوخ عم عظيم ، ابتلي بقراءة الكتب الفرنسية ، فقاده ذلك إلى إدمان الخمر . »

وتمتم فنسنت ، رافعاً الكتاب عن الأرض – « ألف عفواً يا ابانا ميشيليه . »

وقال ثيودوروس بلهجة ثلجية – « هل أستطيع أن أسألك لماذا استخدمت لفظة ابانا ميشيليه ؟ أأنت تحاول تحقيري ؟ »

وقال فنسنت – « لم يخطر ذلك لي ببال ، ولكنني يجب أن أخبرك بصراحة انني حين أكون محتاجاً إلى النصيحة فانني سرعان ما أتوجه إلى ميشيليه لا إليك . وبذلك أكون أكثر مسايرة للعصر . »

وقالت أمه متوسلة – « اوه يا فنسنت ، لماذا تقول مثل هذه الأشياء؟ لماذا تدمر الروابط العائلية ؟ »

وصاح ثيودوروس – « أجل . هذا هو ما تفعله . انك تدمر الروابط العائلية . وسلوكك لا يمكن غفرانه . وخير لك أن تغادر البيت هذا وتحيا في مكان آخر . »

سار فنسنت إلى غرفة مرسمه وجلس على السرير . وتعجب شارداً كيف أنه كلما تلقى ضربة هائلة جلس على السرير وليس على كرسي . وراح ينظر حوله في الرسوم الملصقة على جدران غرفته ، وتمثل الحفارين والبذارين والعمال والخياطات وفتيات النظافة وقاطعي الأخشاب ، وبينها أيضاً الرسوم التي نسخها عن كراس هايك . نعم . لقد حقق تقدماً. وهو ماض إلى الامام ،الا ان عمله هنا لم يتم بعد . اضف إلى ذلك ان موف ماكث في درينث ، ولن يعود قبل مضي شهر . وهو لا يرغب على كل حال في مغادرة ايتن . فهو مرتاح هنا ، والحياة في مكان آخر سوف تكون أكثر كلفة . وهو بعد ذلك محتاج إلى الوقت لكي يذلل مشكلة

تعبيره الخام ويلتقط الروح الحقيقية للأنماط البرابانتية قبل أن يغادر المغادرة النهائية . وقد طلب منه والده ترك البيت . وصب عليه في حقيقة الأمر لعنته . إلا أن ذلك كله قبل في حال الغضب . فلو أنهم قالوا «اذهب» وهم يقصدونها . . أفلا يعني ذلك انه انسان رديء إلى الحد الذي يحتم طرده من بيت أبيه ؟

وفي صباح اليوم التالي استلم رسالتين بالبريد . وكانت الأولى من المبجل ستريكر ، جواباً على رسالته المسجلة . وقد ارفقت بها ملاحظة من زوجة المبجل . وقد لخصا عمل فنسنت بعبارات لا تحتمل التأويل ، وابلغاه ان كاي تحب شخصاً آخر ، من الاثرياء ، وأنهما يرغبان ان تتوقف هجماته البربرية على ابنتهما حالاً .

فلما فرغ من القراءة ، سحق الرسالة في يده مستشعراً لذة وحشية كأنما الرسالة هي المبجل نفسه ، وقال فنسنت في نفسه معقباً « ليس ثمة بين الناس الأحياء من هو دنيوي عديم الايمان قاسي القلب أكثر من رجال الكهنوت . »

اما الرسالة الثانية فكانت من ثيو .

« الرسوم جيدة التعبير . وسأفعل ما في وسعي لبيعها . وفي تلك الأثناء ارفق لك عشرين فرنكاً لتقوم بتلك الرحلة إلى امستردام ، فحظاً سعيداً أيها الغلام العجوز . »

— ٨ —

عندما غادر فنسنت محطة القطارات المركزية ، كان الليل قد بدأ يخيم على المدينة . وسار مسرعاً يصعد الدامرك نحو الدام ، وخلف وراءه

قصر الملك ومكتب البريد ، ثم دخل إلى حي الكيرزجراخت . وفي تلك الساعة كانت جميع الحوانيت والمكاتب تخاو من الكتبة والبائعين .

واخترق منطقة سنجل ، وتوقف لحظة على قنطرة هيرنجراخت ليشاهد رجال أحد زوارق المهرجات المزينة بالزهور ، يتناولون غداءهم المكون من الخبز وسمك الرنجة على طاولة في الهواء الطلق . واستدار يساراً في حي الكيزرزجراخت ، ومر بالصف الطويل من المنازل الرفيعة الفلمنكية ، ووجد نفسه أمام الدرجات الحجرية القصيرة والدرابزين الأسود المفضيين إلى منزل المبجل ستريكر . وتذكر المرة الأولى التي وقف فيها بذلك الباب ، أيام بداية مغامرته في امستردام ، وأدرك ان ثمة مدناً لا تجلب للرجال إلا سوء الطالع .

كان قد قطع الطريق منذ صعوده نحو الدامرك والمركز مندفعاً بالسرعة القصوى . فلما وصل إلى مقصده الآن ، شعر بشيء من الخوف والتردد بشأن الدخول . ونظر إلى أعلى فرأى الخطاف الحديدي المتدلي من شباك السقف . وخطر له ان ذلك الخطاف يتيح فرصة ممتازة لمن يرغب في شنق نفسه .

واجتاز الممر العريض المبلط بالطوب الأحمر ووقف عند المنحنى ناظراً إلى القناة . كان على علم بأن الساعة القادمة قد يتقرر فيها مصير حياته بأسرها بين الناس . فاذا تمكن من مقابلة كاي والحديث معها وافهامها ما يريد ، فان الأمور كلها سوف تنجلي . غير ان الوالد هو من يملك مفتاح البيت الامامي حيث توجد الفتاة الشابة . فماذا اذا رفض المبجل ستريكر ان يسمح له بالدخول .

ظهر من القناة زورق من ناقلات الرمل ، يتقدم ببطء ، مدفوعاً نحو مرساه الليلي . وكان ثمة اثر من الرمل الاصفر الندي فوق الحافة السوداء التي أفرغت الحمولة من خلال الفجوة الملاصقة لها . ولاحظ فنسنت عدم وجود حبل غسيل ما بين مؤخرة الزورق ومقدمته ، وتساءل شارداً في نفسه عن السبب . ورأى رجلاً نحيفاً بارز العظام يدفع بصدره عموداً مغروزاً في الماء ، ضاغطاً بثقله عليه ، والزورق ينزلق من تحته في سير متعرج عبر الماء ، وشاهد امرأة ترتدي مئزراً قذراً تجلس في مؤخرة الزورق كأنها قطعة منحوتة من حجر ، ويدها من خلفها تحرك الدفة الخشنة . وعلى ظهر القمرة شاهد صبياً وبنتاً وكلباً أبيض قذراً ينظرون إلى بيوت حي الكيزرزجراخت بكآبة .

صعد فنسنت الدرجات الحجرية الخمس ورن الجرس . فجاءت الخادمة بعد هنيهة . وحدقت في فنسنت الواقف في الظل ، وحالما عرفته اعترضت طريقه وسدت البوابة بجسدها الضخم .

وسألها فنسنت – « هل المبجل ستريكر موجود ؟ »

واتضح أنها كانت قد لقنت التعليمات ، اذ قالت – « لا ، انه في الخارج . » وتناهت إلى مسمعه أصوات بالداخل ، فازاح المرأة جانباً بعنف . وقال – « انصرفي عن طريقي . »

ولحقت به الخادمة وحاولت ان تسد عليه المدخل .

وقالت محتجة – « الأسرة تتناول غداءها ، ولا يمكنك أن تدخل. »

سار فنسنت عبر القاعة الطويلة وتقدم داخل غرفة الطعام . واذا به يرى بأم عينه ذيل ثوب أسود مألوفاً يختفي عبر الباب الآخر . وقد جلس

المبجل ستريكر والخالة ولهلمينا والطفلين الصغيرين على المائدة . ورأى ان المائدة كانت معدة لخمسة أشخاص . وكان الكرسي الفارغ مسحوباً إلى الخلف بزاوية منفرجة وأمامه طبق من لحم العجل المشوي والبطاطس والفاصولياء .

وقالت الخادمة — « لم أستطع يا سيدي أن أمنعه . لقد دخل عنوة .»

وكان على المائدة حاملان فضيان للشموع ، يحملان قنديلين طويلين ابيضين ، هما اللذان يضيئان الغرفة . وظهرت صورة كالفن على الجدار مخيفة بفعل الوهج الاصفر . والتمع في العتمة طقم اواني الفضة المصفوف في الخوان ، ولاحظ فنسنت الشباك الصغير المرتفع الذي تحدث تحته اول مرة فيما مضى إلى كاي .

وقال العم — « وبعد يا فنسنت ، يبدو انك تغدو اقل تهذيباً يوماً بعد يوم . »

— « اريد ان اتحدث إلى كاي . »

— « كاي غير موجودة ، لقد ذهبت في زيارة مع بعض اصدقائها.»

— « بل كانت جالسة في هذا الموضع حين قرعت الجرس . وقد بدت تتناول غداءها . »

والتفت ستريكر إلى زوجته قائلاً — « خذي الاطفال خارج الحجرة . »

وقال — « والآن يا فنسنت . ارى انك تحدث لنا المتاعب الكبيرة . ولست وحدي من عيل صبره منك ، وانما جميع افراد العائلة . انك انسان متشرد متبطل وفلاح جلف . بل انك كما اتضح لي شخصية

شريرة ناكرة للجميل . فكيف ابحت لنفسك ان تتجاسر على حب ابنتي ؟ ان في ذلك تحقيراً لي . »

— « دعني اقابل كاي يا عم ستريكر . انني اريد ان اتحدث واياها . »

— « ولكنها لا تريد ان تتحدث واياك ، ولا تريد قط ان تقع عيناها عليك مرة اخرى ! »

— « هل قالت كاي هذا الكلام ؟ »

— « نعم . »

— « لا اصدق . »

اصيب ستريكر بالذهول . فقد كانت هذه اول مرة يتهم فيها بالكذب منذ رسامته قسيساً .

— « كيف تتجرأ على القول بانني لا اتكلم الحقيقة ؟ »

— « لن اصدق ذلك حتى اسمعه من شفتيها هي ذاتها . بل انني لن اصدقه ، ولو قالته . »

— « عندما اتذكر مقدار الوقت الثمين ومبلغ المال اللذين اضعتهما عليك هنا في امستردام . »

جلس فنسنت غاطساً في الكرسي الذي اخلته كاي ، وارخى ذراعيه كليهما على الطاولة .

وقال — « يا عمي ، استمع الي لحظة . برهن لي على ان البشر في العالم ، بمن فيهم حتى رجال الدين ، يملكون قلباً انسانياً تحت

درعهم الفولاذي ذي الطبقات الثلاث . انني احب ابنتك . واحبها إلى آخر مدى . وافكر فيها واشتاق اليها في كل ساعة من ساعات الليل والنهار . وانت رجل يعمل في خدمة الرب ، فبحق الرب اشفق علي قليلاً ، ولا تكن قاسياً معي إلى هذا الحد . انني اعرف انني لست ناجحاً بعد ، ولكنني سأغدو اذا منحتموني شيئاً من الوقت . هبني فرصة لاثبت لها حبي . دعني اساعدها حتى تفهم لماذا ينبغي لها ان تحبني . وانت لابد وقعت في الحب ذات مرة يا عم ، وتعرف مبلغ العذاب الذي يكابده المرء . انني كابدت ما يكفي ، فدعني اشعر بالسعادة مرة . وحسبك ان تمنحني فرصة لأكسب حبها ، فهذا كل ما اطلبه . وانا لا استطيع ان اتحمل هذه الوحدة وهذا الشقاء يوماً آخر ! »

حدجه المبجل ستريكر بنظرة فوقية ، ثم قال بعد لحظة — « هل انت جبان ضعيف الشخصية إلى حد انك لا تستطيع تحمل شيء من الألم ؟ وهل لابد لك ان تظل إلى الابد تشكو وتتذمر مما اصابك ؟ »

قفز فنسنت ناهضاً على قدميه بعنف ، وقد تلاشى منه كل اثر للين . ولم يحل بينه وبين ان يضرب الكاهن الا انهما يجلسان متقابلين على جانبي الطاولة ، يفصل بينهما قنديلان طويلان فوق حامل شموع فضي . وران على الغرفة صمت جارح ، ووقف كل من الرجلين يحدق في ومضات الضوء المنعكسة في عين الاخر .

ولم يدر فنسنت مقدار الوقت الذي مر عليهما كذلك ، ولكنه رفع يده ووضعها قرب القنديل .

وقال — « دعني اتحدث اليها على قدر الوقت الذي استطيع ان اتحمل خلاله بقاء يدي في هذا اللهب . »

ثم ادار يده ووضع ظهرها فوق اللهب فاظلم نور المكان . ثم استحال خلال ثوان قليلة إلى لون احمر دموي مشتعل . ووقف فنسنت دون ان يجفل او يرفع عينيه عن عمه . ومرت خمس ثوان ، فعشر ، وبدأت البشرة في ظاهر يده تخرج دخاناً . واتسعت حدقتا المبجل ستريكر رعباً . وبدا كأنما اصابه الشلل . وحاول اكثر من مرة ان يتكلم او يتحرك ، ولكنه لم يستطع . بل ظل مشدوداً إلى قبضة عيني فنسنت القاسيتين النفاذتين . ومرت خمس عشرة ثانية ، وتشققت اليد التي تصاعد دخانها ، الا ان الذراع لم تصب حتى بارتعاشة . واستجمع المبجل ستريكر وعيه اخيراً ، واهتز هزة عنيفة .

وصاح بأعلى صوته — « انت يا مجنون ! انت ايها الابله المأفون ! »

ثم قذف بنفسه عبر الطاولة ، وازاح القنديل من تحت يد فنسنت ، واطفأ النور بقبضته . وانحنى نحو القنديل الاقرب اليه فاطفأه بنفخة قوية من فمه .

واغرقت الغرفة في ظلام دامس . ووقف الرجلان مستندين على راحتي ايديهما ، محدقين في الظلمة ، لا يريان شيئاً حولهما ، ولكن كلا منهما يشاهد الآخر وحده بوضوح .

وصرخ المبجل — « انت مجنون ! وكاي تحتقرك من صميم قلبها ! انصرف من هذا المنزل ولا تتجاسر على العودة اليه ! »

وتحسس فنسنت طريقه ببطء عبر الشارع المظلم ، ووجد نفسه

بكيفية ما في الضواحي خارج المدينة . وداهمت منخريه رائحة الماء الراكد التي كانت من قبل مألوفة مستحبة على الرغم من نتانتها ، وراح يحدق الان في القناة فيراها ميتة تبعث على الغثيان . وألقى مصباح كاز جانبي شعاعاً على يده اليسرى — ولابد ان غريزة عميقة صانت يده اليمنى التي يرسم بها فأبقتها بعيدة عن اللهب — وتبين له ان ثمة فجوة سوداء داخل الجلد . ومر بسلسلة من القنوات المائية الصغيرة وهو يشم من بعيد رائحة بحر طال نسيانه . ووجد نفسه في النهاية قرب منزل منديس داكوستا . فتربع على ضفة القناة ، والقى بحصاة فوق بساط حشائش الكروس الثقلية . وغطست الحصاة دون ان تنبيء حتى بأن ثمة ماء تحتها .

لقد خرجت كاي من حياته . لقد جلجلت عبارة « لا . ابداً، ابداً . » من اعماق روحها . وانتقلت صرختها اليه وصارت ارثاً له . وضرب صداها في رأسه مردداً « لا ، ابداً لن تراها بعد اليوم . ولن تسمع الدندنة الجذلة من صوتها ، ولن ترى الابتسامة في عينيها الزرقاوين العميقتين ولن تحس ملمس بشرتها الدافيء على خدك ، ولن تعرف الحب ، لان الحب لا يمكن ان يدوم ، كلا ، ولو مقدار ما تتحمل بقاء جلدك في عذاب بوتقة الاختبار المستعرة . »

وانبجس في حلقه تيار هائل من الاسى الذي لا يوصف ، فرفع يده اليسرى إلى فمه ليكبح الصيحة التي توشك ان تفلت ، وذلك كي لا تعلم امستردام والعالم بأسره ان الحكم صدر في حقه ، وانه وصم بعدم الجدارة . واحس في شفتيه بطعم الرماد المر ، رماد الشهوة التي لم تفز بالاشباع .

* * *

الكتـاب الثالـث
لاهـاي

ـ ١ ـ

ما برح موف في درينت . وقد فتش فنسنت في ضواحي إيلبوءمين ، وعثر على مكان صغير خلف محطة راين ، بإيجار قدره أربعة عشر فرنكاً في الشهر . وكان المرسم – الذي لم يحظ بهذه التسمية إلا منذ استأجره فنسنت – عبارة عن غرفة حسنة الاتساع ذات فجوة في أحد جدرانها ، مخصصة للطهو . وللغرفة شباك كبير يفتح على الناحية الجنوبية . كما كان فيها موقد يحتل الجزء السفلي في ركن من أركانها ، ويتصل به أنبوب أسود طويل يختفي في الجدار عند السقف . وكان ورق الجدران ماوناً بلون نظيف محايد . وكان فنسنت حين يطل خارج الشباك يرى ساحة لأكوام المهملات خاصة بمالك المنزل ، ومن ورائها مرجة خضراء ، يحدها حزام شاسع من الكثبان الرملية . ويقع المنزل في شارع شنكويغ ، آخر الشوارع بين لاهاي وبين المروج في الناحية الجنوبية الشرقية . وقد اكتسى الشارع بالسناج الاسود الناجم عن دخان القاطرات وهي ذاهبة آيبة من محطة راين وإليها .

جلب فنسنت إلى الغرفة طاولة مطبخ متينة ، وكرسيين للمائدة . وجلب بطانية ليتدثر بها وهو ينام على الأرض . وقد أرهقت هذه النفقات ميزانيته الصغيرة ، إلا أن أول الشهر لم يكن عنه ببعيد ، ولابد أن يرسل ثيو مبلغ المائة فرنك المتفق عليها راتباً شهرياً لفنسنت . ثم إن طقس كانون الثاني البارد سيحول بينه وبين العمل خارج المنزل ، وخلو يديه من المال اللازم لاستئجار النماذج البشرية سيحتم عليه أن يقعد منتظراً عودة موف .

رجع موف إلى إيلبومين ، فذهب فنسنت فوراً إلى مرسم قريبه ، ووجده يجهز قماشه للوحة كبيرة ، وقد استولى عليه الانفعال وتدلت موجة الشعر من فوق جبينه وغطت عينيه . كان على وشك البدء بمشروعه الكبير في ذاك العام ، وهو عبارة عن لوحة من لوحات الصالون ، اختار موضوعاً لها مركب صيد شراعياً يسحبه البحارة على ساحل شيفننجن بواسطة الخيل . وكان موف وزوجته جت . يستبعدان تماماً مجرد مجيء فنسنت إلى لاهاي ثانية ، إذ هما يعلمان أن كل إنسان تقريباً ينتابه ميل غامض ذات حين في حياته إلى أن يصبح فناناً .

– أراك قد حضرت إلى لاهاي فعلاً . فليكن يا فنسنت . سنجعل منك رساماً . ترى هل وجدت مكاناً للسكنى ؟

– نعم . إنني اقيم في ١٣٨ شارع شنكويغ ، خلف محطة راين بالضبط .

– هذا قريب منا . وكيف دبرت أمورك المالية ؟

– ليس معي مال يسمح بالكثير ، على أنني اشتريت طاولة وكرسيين .

وشاركت جت في الحديث قائلة « وسريراً . »

– لا . إنني أنام على الارض .

وهنا همس موف إلى جت بكلمات قامت على اثرها إلى البيت ثم عادت من فورها بمحفظة ، تناولها موف وأخرج منها ورقة نقدية بمائة جلدر وقال – خذ هذه ديناً يا فنسنت ، تشتري به سريراً . إن عليك أن ترتاح جيداً في الليل . وهل دفعت أجرة المنزل ؟

– ليس بعد .

– لا تشغل دماغك بها إذن . وكيف حال الاضاءة ؟

– متوفرة ، ولكن الشباك الوحيد يفتح في اتجاه الجنوب .

– هذا سيء . عليك أن تجد له تدبيراً . ذلك أن الشمس سوف تغير الضوء الواقع على نماذجك كل عشر دقائق . إن عليك أن تشتري بعض الستائر .

– لا أحب أن أقترض المال منك يا ابن العم موف . فحسبي منك أنك راغب في تعليمي .

– هراء يا فنسنت . ففي حياة كل رجل مرة يعنى فيها بشؤون المنزل بنفسه . ومن الأرخص على المدى الطويل أن يمتلك المرء أشياءه الخاصة . »

– نعم . إن الأمر كما تقول . وأنا آمل أن أتمكن من بيع بعض رسومي قريباً ، فأسدد لك دينك .

– سيساعدك تيرستيج . وقد سبق له أن اشترى أعمالي حينما كنت في سن أصغر من سنك ، وفي مرحلة التعليم . ولكن ينبغي لك أن تبدأ في الرسم ، بالألوان المائية والزيتية . لأنه لا سوق هناك للرسوم المرسومة بقلم الرصاص البسيط .

كانت لموف طريقة عصبية يذرع بها المكان من حوله ، وذلك على الرغم من ضخامة جسمه . فاذا ما وقعت عيناه على شيء يبحث عنه ، دفع بأحد كتفيه أمامه ، وقذف بنفسه في اتجاه ذلك الشيء .

وقال لفنسنت : – إليك يا فنسنت ، خذ هذا الصندوق ، فيه بعض الألوان المائية ، وهذه الفرشايات ، وهذه الصفيحة وسكين المزج وبعض الزيت والتربانتين . ودعني أريك كيف تحمل تلك الصفيحة وتقف أمام الحامل الذي ترسم عليه .

أوضح لفنسنت قليلاً من عناصر التقنية . فالتقطها فنسنت بسرعة عظيمة .

وقال موف : – جيد ! لقد ظننتك أبله ، ولكنك لست كذلك . إن في وسعك أن تأتي إلى هنا كل صباح وتعمل بالألوان المائية . سوف أرشحك لعضوية خاصة في نادي باشري ، فيتاح لك أن ترسم نماذج حية عدة مرات في أمسيات الاسبوع . وتتواصل ، بالإضافة إلى ذلك،مع غيرك من الرسامين ، وحين تبدأ بيع رسوماتك تحصل على عضوية كاملة .

– صح إنني أريد أن أرسم نماذج حيه . وسأحاول استئجار واحدة تحضر عندي كل يوم لأنني إذا تمكنت من رسم الجسد الإنساني ، فسوف يواتيني كل شيء آخر من تلقاء نفسه .

ووافقه موف قائلاً : — هذا صحيح . إن الجسد هو أصعب الموضوعات . فاذا ملكته صارت الأشجار والأبقار والشموس الغاربة كلها بسيطة . إن الفنانين الذين يهملون الجسد إنما يفعلون ذلك لأنهم يرونه صعباً للغاية .

اشترى فنسنت سريراً وستائر للنافذة ، ودفع أجرة منزلة ، وثبت رسوم البرابانت على الجدار . وكان يعلم أنها غير قابلة للبيع ، كما كان يرى بسهولة ما فيها من أخطاء ، ولكنها كانت تتضمن شيئاً مما في الطبيعة. وقد رسمها بعاطفة معينة ، لا يستطيع تحديد موضعها ولا كيف حلت فيه ، بل إنه لم يكن يدري بقيمتها الكاملة حتى قامت عرى الصداقة بينه وبين دي بوك .

كان دي بوك رجلاً ذا سحر ، يتمتع بتربية عالية ، وطباع لينة ، ودخل ثابت . وقد تلقى تعليمه في انجلترا ، وسبق أن لقيه فنسنت في محلات جوبل . وكان دي بوك هو النقيض لفنسنت من جميع الوجوه ، إذ كان يحمل الحياة على محمل اللامبالاة ، فلا يكدره شيء ولا يثيره شيء ، كما أن تكوينه بأسره دقيق . وكان اتساع فمه يطابق عرض منخريه دونما زيادة أو نقصان .

قال لفنسنت ذات يوم : — ألا تأتي لتشرب عندي قدحاً من الشاي؟ إنني أود أن أريك بعض أعمالي الحديثة . وأحسب أنني ازددت قدرة على التمييز منذ بدأ تيرستيج ببيع أعمالي .

كان مرسمه يقع في ويليمسبارك ، الذي هو الجزء الأرستقراطي من لاهاي . وقد غطى جدرانه بستائر من المخمل ذات لون حيادي . وامتلأ كل ركن من أركانه بارائك وثيرة عليها وسائد فاخرة . وثمة

طرابيزات للتدخين ، ورفوف مكتظة بالكتب ، وسجاجيد شرقية . فلما تذكر فنسنت مرسمه الخاص ، أحس كأنه ناسك من النساك .

أشعل دي بوك موقد الغاز أسفل سماور روسي ، وأرسل مدبرة المنزل لشراء بعض الكعك . ثم أخرج لوحة زيتيه من خزانة ، ووضعها على الحامل .

وقال هذه آخر لوحاتي . أتأخذ سيجاراً أثناء اطلاعك عليها ؟ فلعل ذلك في مصلحةاللوحة من يدري .

كان يتكلم بلهجة خفيفة مبتهجة . ذلك أن ثقته بنفسه ارتفعت إلى عنان السماء منذ اكتشفه تيرستيج . وكان عارفاً أن فنسنت سيعجب باللوحة . وسحب سيجارة من السجاير الروسية الطويلة التي اشتهر بها في لاهاي ، وجعل يتفحص وجه فنسنت ليحكم على انطباعه العابر .

تمعن فنسنت في اللوحة من خلال الدخان الأزرق الناجم عن سيجار دي بوك الثمين . وشعر في موقف دي بوك بتلك اللحظة من الانفعال المرعب ، حين يعرض الفنان شيئاً من أعماله على الأعين الغريبة لأول مرة .

وتساءل في نفسه : ماذا يقول ؟ فالمنظر الطبيعي لم يكن شيئاً ، ولم يكن جيداً . وإنما كان أشبه شيء بشخصية دي بوك : غير مبال . وتذكر فنسنت كيف استبد به الغضب والكدر عندماتجرأ بعض الشبان المبتدئين على الغض من شأن عمله . وعلى الرغم من أن اللوحة كانت من النوع الذي يمكن رؤيته بأكمله من خلال نظرة واحده ، فقد استمر يدرسها .

وقال : – إن لديك حساً بالمنظر الطبيعي يا دي بوك . ومن الثابت أنك تعرف كيف تودع فيه السحر .

فقال دي بوك ، وهو مغتبط بما ظنه مديحاً : — أوه . . شكراً . ألا تود فنجاناً من الشاي ؟

أمسك فنسنت فنجان الشاي بكلتا يديه ، حذار من أن يدلقها فوق السجادة الثمينة . وسار دي بوك نحو السماور وصب لنفسه فنجاناً . وتمنى فنسنت في ذهنه أن لا يتفوه بأية كلمة ضد لوحة دي بوك . فقد أحب الرجل وأراده صديقاً له . غير أن صاحب الحرفة الكامن في داخله ما لبث أن نهض مزوداً بالحكم الموضوعي ، فلم يستطع فنسنت أن يطرح النقد جانباً .

— إلا أن هناك شيئاً واحداً في هذه اللوحة ، لست متأكداً من إعجابي به .

تناول دي بوك الصينية من مدبرة منزله وقال — « خذ لك قطعة كعك أيها الزميل العجوز . »

امتنع فنسنت عن ذلك ، لأنه لم يدر كيف سيأكل الكعك ويحمل فنجان الشاي في حجره في وقت واحد .

وتساءل دي بوك بلهجة خفيفة — ما هو الشيء الذي لم يثر اهتمامك؟

— أشخاصك . فهي لا تبدو مقنعة .

فاضطجع دي بوك مترفاً على أريكة مريحة ، وتحدث إلى فنسنت مفضياً : — أتدري ؟ لقد أردت مراراً أن أعالج رسم الأشخاص ، ولكنني لم أتمكن من الاحاطة به . إنني أجلب نموذجاً من النماذج وأعمل عليه أياماً قليلة ، ثم أجدني فجأة مشدوداً إلى منظر من المناظر الطبيعية .

إن المناظر الطبيعية حصراً هي واسطتي بعد كل حساب ، ولهذا لا حاجة بي إلى أن أشغل نفسي كثيراً بأمر الأشخاص . أم تراني بحاجة ؟

فقال فنسنت : — أما أنا فانني حتى لو رسمت المناظر الطبيعية ، فانني أميل إلى ادخال بعض الأشخاص فيها . إن عملك يتقدم عملي بعدة سنين . وأنت بالإضافة إلى ذلك فنان معترف به . ولكن هل تسمح لي أن أتقدم إليك بكلمة من النقد المنبعث من الصداقة ؟

— أحب أن أسمعك .

— اذن ، يجب أن أقول إن رسمك يفتقد العاطفة .

فحدج دي بوك فنسنت باحدى عينيه وهو ينحني على السماور وقال مستفهماً : — العاطفة ؟ إلى أية عاطفة من العواطف العديدة تشير ؟

— ذلك شيء يصعب بيانه ، ولكن عاطفتك تبدو مبهمة سطحية . ويمكن تبعاً لرأيي أن تكون أكثر كثافة .

فقال دي بوك وهو يعتدل وينظر إلى لوحاته عن كثب : — ولكن انظر هنا أيها الشاب العجوز ، إنني لا أستطيع أن أنز عاطفة فوق اللوحة لمجرد أن الناس يطلبون ذلك مني . أم تراني أستطيع ؟ إنني أرسم ما أراه وأحسه . فاذا لم أشعر بأية عاطفة غليظة فكيف أجعلها في ثنايا فرشاتي؟ والمرء لا يستطيع أن يشتريها من عند بائع الخضار بالرطل ، أم تراه يستطيع ؟

كان مرسم فنسنت يبدو وضيعاً قميئاً بالقياس إلى مرسم دي بوك ، ولكنه عرف أن لديه ما يعوضه عن تقشف المكان . وسحب السرير إلى الخلف نحو ركن من الأركان ، وأخفى وراءه عدة الطبخ . فقد أراد

المكان مرسم فنان لا غرفة معيشة . ولم تكن نقود ثيو لذلك الشهر قد وصلته . ولكنه ما زال يحتفظ بفرنكات قليلة مما تبقى من قرض موف . واستخدمها لاستئجار النماذج البشرية ، ولم يمض عليه وهو في المرسم وقت طويل حتى جاء موف لزيارته .

وقال وهو يتفحص المكان — استغرقتني المسافة عشر دقائق وحسب سيراً على الاقدام . أجل . هذا يفي بالغرض . وكان الأفضل لو توفر لك ضوء من اتجاه الشمال، إلا أن هذا يفي بالغرض . وسيكون له أثره الحسن على الذين حسبوك هاوياً متعطلاً . ألاحظ أنك كنت ترسم اليوم عن نموذج بشري .

— نعم . كل يوم . ولكنه باهظ الثمن .

— وهو في نهاية المطاف أرخص الوسائل . هل تعوزك الموارد يا فنسنت ؟

— شكراً لك يا بن العم موف . إنني أتدبر أموري .

لم يجد فنسنت من الحكمة أن يجعل نفسه عبئاً مالياً على موف . ومازال في جيبه فرنك واحد ، يكفي لإطعامه يوماً كاملاً . ولكنه كان يريد من موف أن يقدم له التوجيهات بكل طلاقة ، فالنقود ليست في الحقيقة هامة .

وقضى موف ساعة وهو يبين له كيف يستخدم الألوان المائية وكيف يغسلها ثانية . غير أن محاولات فنسنت جاءت خلطاً وفوضى .

فقال موف في مرح : — لا تدع هذا يزعجك . إنك سوف تتلف

عشرة رسوم على الأقل ، قبل أن تتمكن من الامساك بالفرشاة جيداً . والآن ، أرني بعض رسوماتك الأخيرة التي رسمتها في البرابانت .

أخرج فنسنت الرسوم . وكان موف واحداً من سادة التقنية الفنية ، بحيث يمكنه النفاذ بكلمات معدودات إلى الضعف الأساسي في القطعة التي يراها . ولم يكن من أولئك الذين يكتفون بالقول :

— هذا خطأ ، وإنما كان يضيف دائماً : — جربها على هذا النحو . وراح فنسنت يستمع اليه عن قرب ، لأنه يدرك أن موف يتحدث إليه كما يتحدث إلى نفسه تماماً فيما لو أخطأ في رسم لوحة من لوحاته .

وقال موف : — أنت تملك القدرة على الرسم . وسوف تكون تلك السنة التي مارست فيها الرسم بقلم الرصاص ذات جدوى عظيمة لك . ولن يكون أمراً مفاجئاً لي أن يقبل تيرستيج على شراء لوحاتك المائية خلال وقت قصير .

إن هذه التعزية الرائعة أفادت فنسنت بعض الفائدة بعد يومين ، حين خلا جيبه من أي سنتيم . وقد مرت على بداية الشهر عدة أيام ، ولم يصل بعد مبلغ المائة فرنك من طرف ثيو . فما الذي حدث ؟ هل كان ثيو غاضباً منه ؟ وهل يمكن أن يكون ثيو قد خذله الآن ، بعد أن أصبح على عتبة عمل في الحياة ؟لقد عثر في جيب معطفه على طابع بريد ، فاستطاع أن يكتب إلى أخيه متوسلاً إليه أن يرسل جزءاً من الراتب على الأقل ، حتى يجد ما يقتاته وما يدفعه أجراً للنموذج البشري بين الحين والآخر .

ومرت عليه ثلاثة أيام ، دون كسرة خبز ، يذهب إلى مرسم موف في الصباح ، ويعمل بالألوان المائية ، ثم يقصد المطابخ الرخيصة التي تقدم

الحساء في فترة بعد الظهر ، فيرسم الدراسات الأولية . فاذا حل المساء ذهب إلى نادي البلشري أو إلى مرسم موف ليرسم ثانية . وساورته خشية من أن يكتشف موف حالته ، فيفارقه الحماس الذي يكنه نحوه . فقد تبين فنسنت أن موف كان حرياً أن ينبذه على الفور ، إذا أصبحت مشكلاته ذات تأثير على عمل موف ، وذلك على الرغم من المحبة التي أخذ موف يكنها له . ولذا فانه رفض دعوة جت إلى الغداء حين جاءت تدعوه .

وراح ينتابه في فم معدته ألم بليد خفيض ، أعاد إلى ذهنه عهد البوريناج . أقدر عليه أن يبقى جائعاً طيلة حياته ؟ ألن تحل لحظة من الراحة أو السلام لنفسه في أي مكان ؟

في اليوم التالي ازدرد كبرياءه وذهب لمقابلة تيرستيج . لعله يستطيع أن يقترض عشر فرنكات من الرجل الذي كان يعين نصف رسامي لاهاي.

ولكن تيرستيج كان مسافراً في عمل إلى باريس .

وما لبث فنسنت أن أصيب بحمى ، ولم يعد قادراً على حمل قلم الرصاص . فأوى إلى الفراش . وفي اليوم التالي جر قدميه إلى البلاتس ، ووجد الرجل هناك . وكان تيرستيج قد وعد ثيو برعاية فنسنت . وهكذا أقرضه خمسة وعشرين فرنكاً .

وقال : — كنت أنوي أن أمر على مرسمك منذ بعض الوقت يا فنسنت . وسوف أفعل قريباً .

فتحامل فنسنت على نفسه ورد عليه بأدب ، فقد كان راغباً في الانصراف ليأكل طعاماً . وكان يقول لنفسه وهو قادم إلى جوبل — لو

اني أحصل على بعض النقود وحسب ، لصرت على ما يرام . ولكنه الآن ، بعد حصوله على النقود ، أحس بتعاسة تربو على تعاسته الأولى ، وشعر أنه وحيد بصورة مطلقة شديدة الوحشة .

وقال لنفسه « لسوف يشفيني الطعام من هذا كله . »

والحق أن الطعام أزال ألم معدته ، ولم يزل ألم الرحدة الذي أقام في موضع غير مرئي داخل نفسه . ثم إنه ابتاع شيئاً من التبغ الرخيص ،وذهب إلى المنزل ، واستلقى على سريره ، وراح يدخن غليونه . لقد عاوده العطش إلى كاي على نحومفزع قوي . وشعر ببؤس يبلغ مبلغ اليأس الذي يحول بينه وبين التنفس . وقفز من فوق السرير ، وفتح النافذة ، وأخرج رأسه إلى الثلج الذي يغطي ليل كانون الثاني . وخطر بباله المبجل ستريكر ، فسرت في جسده قشعريرة ، كأنه أطال الوقوف مستنداً إلى جدار كنيسه من الحجر البارد . وأغلق النافذة ، وتناول قبعته ومعطفه ، وخرج يجري نحو مقهى نبيذ سبقت له رؤيته في محطة راين .

— ٢ —

كان في مقهى النبيذ مصباح يتدلى عند المدخل وآخر فوق البار . أما الجزء الأوسط من المحل فهو في نصف ظلمة . وثمة مقاعد قليلة مرصوصة إلى الجدران ، وأمامها طاولات ذات سطوح حجرية مرقشة . كان المقهى مما يرتاده العمال ، وقد حال لون جدرانه واكنست أرضه بالإسمنت ، وهو أقرب إلى أن يكون ملاذاً من الوحدة ، لا مجلبة للسرور .

جلس فنسنت على إحدى الطاولات . وأسند ظهره إلى الحائط متعباً. لم يكن أمره على هذا النحو من السوء حينما كان منهمكاً في العمل ، ولديه

تقود تكفيه للطعام واستئجار النماذج ولكن إلى من يتوجه من أجل الرفقة البسيطة والكاملة العرضية الودودة خلال سحابة النهار ؟ لقد كان موف سيداً له ، وتيرستيج وسيط فنون هام ومشغول، ودي بوك رجل ثري ينتمي إلى المجتمع . فلعل كوباً من النبيذ يعينه في هذه البقعة السوداء . ولعله يصبح في الغد قادراً على العمل ، وتغدو الأمور أفضل مما هي عليه.

احتسى النبيذ الأحمر الحامض ببطء . ولم يكن في المحل إلا قليل من الناس . وقد جلس في مقابله عامل من طراز ما ، وفي الركن القريب من البار جلس رجل وبصحبته امرأة ترتدي ثياباً مبهرجة ، وعلى الطاولة المجاورة له جلست امرأة وحيدة ، لم ينظر إليها .

اقترب النادل من المرأة وقال لها بخشونة — مزيد من النبيذ ؟

وأجابت : — ليس معي ولو مقدار سو .

واستدار فنسنت نحوها وسألها : — ألا تأخذين كأساً معي ؟

ونظرت إليه المرأة هنيهة — بلى ، طبعاً .

أحضر النادل كوب النبيذ ، وأخذ العشرين سنتيماً ، وابتعد ، وكانت الطاولتان متلاصقتين .

وقالت المرأة : — شكراً .

تفحصها فنسنت عن كثب . إنها ليست بالشابة ، ولا بالجميلة ، وهي قد ذبلت قليلاً ، وهي من الذين تجاوزتهم الحياة . وكان جسدها نحيلاً ، ولكنه حسن التكوين . ولاحظ يدها وهي تقبض على كوب النبيذ ، ورآها يداً لا تشبه أيدي النساء ، كما هي يد كاي ، ولكنها يد امرأة كدحت كثيراً . وذكرته ، وهو يراها في نصف ضوء ، باحدى

الشخصيات الغريبة في رسوم شاردان أوجان ستين . وكان لها أنف معقوف بارز عند وسطه، وظلال شارب فوق شفتها العليا . ولها عينان حزينتان، إلا أنهما خاليتان خلاء تاماً من أدنى لمسة وجدانية .

وأجابها قائلاً : — العفو . وإنني شاكر رفقتك .

قالت : اسمي كريستين . فما اسمك ؟

— فنسنت

— هل تعمل هنا في لاهاي ؟

— نعم .

— وما عملك ؟

— أنا رسام .

— أوه حياة جحيم أيضاً . صحيح ؟

— أحياناً .

— إنني غسالة في مصبغة ، وذلك حينما أملك العافية للعمل ، إلا أن ذلك لا يكون دائماً .

— فماذا تفعلين حينئذ ؟

— كنت في الشوارع زمناً طويلاً ، وإليها أعود حينما أحس بالمرض إلى درجة تقعدني عن العمل . »

— هل العمل في المصبغة شاق ؟

— نعم . إنهم يشغلوننا اثنتي عشرة ساعة ، وهم يدفعون أقل

شيء . وأحياناً بعد أن أغسل الثياب طيلة النهار ، اضطر إلى البحث عن رجل اكسب قوت العيال .

– كم طفلاً تعولين يا كريستين ؟

– خمسة . وأنا حامل بطفل آخر الآن.

– هل مات زوجك ؟

– بل حملت بهم جميعاً من غرباء ..

– وهذا ما جعل الأمر شاقاً . أليس كذلك ؟

هزت كتفيها وهي تقول : – يا يسوع المسيح . إنّ عامل المنجم لا يمكنه رفض النزول إليه لأنه معرض للموت . أم ترى يمكنه ؟

– لا . هل تعرفين أباً من آباء الأطفال ؟

– أعرف أول ابن مومس منهم فقط . أما الآخرون فلم أعرف حتى أسماءهم .

– وما شأن الجنين الذي تحملينه الآن ؟

– لست متأكدة ، فقد كنت مريضة إلى حد منعني من الغسيل ، وهكذا نزلت إلى الشوارع كثيراً . ولكن هذا لا يهم .

– هل تريدين كأساً آخر من النبيذ ؟

– ليكن كأساً من الجن والبترز .

وفتحت محفظتها ، وأخرجت منها عقب سيجار أسود خشن ، وأشعلته . ثم قالت : – لا تبدو ميسور الحال . أأنت تبيع شيئاً من رسوماتك . ؟

– لا . إنني ما زلت مبتدئاً .

– ولكنك تبدو أكبر كثيراً من مبتدىء .

– أبلغ الثلاثين .

– تبدو في الأربعين . وكيف تعتاش إذن ؟

– أخي يرسل لي بعض المال .

– حسناً . ليس هناك لعنه من السماء أسوأ من أن بكون المرء غسالة.

– مع من تقيمين يا كريستين ؟

– نحن جميعاً عند أمي .

– هل تعرف أمك أنك تذهبين إلى الشوارع .

ضحكت ضحكة مجلجلة ، ولكنها خالية من السرور : – « نعم وحق المسيح ! وهي التي أرسلتني إلى هناك . وقد سبقتني فيه طيلة حياتها . وبذلك ولدتني وولدت أخي .

– وما عمل أخيك ؟

– لديه امرأة في المنزل ، وهو يقود لها .

– ليس ذلك بالشيء الحسن من أجل اطفالك الخمسة .

– هذا لا يهم . لأنهم جميعاً سيفعلون الشيء ذاته في يوم من الأيام .

– أي أنه قدح روم يدور على الجميع ، أليس كذلك يا كريستين ؟

– لا ينفع البكاء بسبب ذلك . هل أستطع الحصول على قدح

آخر من الجن والبتر ز ؟ ماذا فعلت في يدك ؟ إن فيها حفرة سوداء كبيرة .

— أحرقتها .

أمسكت يده برقة وقالت : — أوه . لابد أنه كان مريعاً .

— لا يا كريستين ، لم يكن بذلك بأس . لقد أردت ذلك عن قصد .

وتركت يده وقالت : — لماذا حضرت إلى هذا المحل وحيداً ؟ أليس لك أصحاب .

— صاحبي الوحيد هو أخي ، ولكنه في باريس .

— ذلك يجعل الانسان يحس بالغربة . أليس كذلك ؟

— بلى يا كريستين . بصورة مرعبة .

— أنا أيضاً أمر بذلك . في البيت جمع الاولاد ، وفيه أمي وأخي ، وفي حياتي جميع الرجال الذين ألتقطهم ، لكن المرء يعيش وحيداً . أليس كذلك ؟ فليس المعول على كثرة الناس ، بل على إنسان واحد تميل اليه حقاً .

— ألم يكن هناك قط أي شخص قريب إلى نفسك يا كريستين ؟

— الشخص الاول . كنت آنذاك في السادسة عشرة . وكان غنياً . ولم يستطع الزواج بي بسبب أسرته . ولكنه دفع لي من أجل الطفل . ثم مات ، وبقيت دون أي سنتيم .

— وكم تبلغين من العمر ؟

— اثنين وثلاثين . وهو سن متأخر كثيراً بالنسبة للإنجاب . إن طبيب الجناح المجاني قال لي إن هذا الاخير سوف يقتلني .

ـ لن يقتلك إذا حظيت بالرعاية الطبية المناسبة .

ـ وأين أحصل عليها بحق الجحيم ؟ إنني لا أملك أية مدخرات ، والاطباء في الجناح المجاني لايبالون ، إذ لديهم نساء كثيرات مريضات .

ـ أليس لديك أي سبيل للحصول على قليل من المال ؟

ـ بلى طبعاً . إذا بقيت في الشوارع طوال الليل برهة شهرين من الزمن . ولكن ذلك سيقتلني بأسرع مما سيقتلني الطفل .

ظلا صامتين بضع لحظات : ـ إلى أين تذهبين حينما تغادرين هذا المكان يا كريستين ؟

ـ كنت في المغاسل طوال النهار ، وأتيت إلى هنا لأشرب كأساً لأنني كنت ميتة . وكان المفروض أن يدفعوا لي فرنكاً ونصف فرنك . ولكنهم زحلقوني حتى نهار السبت . وكان علي أن أكسب فرنكين من أجل الطعام . وقلت لنفسي : خذي راحة قبل تجوالك للعثور على رجل .

ـ هل تدعيني أذهب وإياك يا كريستين ؟ ؟ إنني في وحدة شديدة ، وبودي أن نبقى معاً .

ـ طبعاً . إن هذا يوفر علي التعب ، وفضلاً عن ذلك أنت من نوع لطيف .

ـ أنا أيضاً أميل إليك يا كريستين . وعندما أمسكت بيدي ، المحترقة ... كان ذلك أول كلام حنون تقوله لي امرأة منذ وقت لا أعلمه .

ـ هذا عجيب . فأنت لابأس بمظهرك . وتتمتع بأسلوب ظريف .

ـ كل ما في الأمر أنني غير محظوظ في الحب .

ـ نعم . هكذا تسير الأمور . أليس كذلك ؟ هل أستطيع أن أحصل على كأس آخر من الجن والبترز .

ـ اسمعي . لسنا بحاجة ـ أنت وأنا ـ للوصول إلى حد السكركي يحس واحدنا ببعض المشاعر تجاه الآخر . فخذي إلى جيبك ما أستطيع توفيره . وإنني لآسف إذا لم أملك المزيد .

ـ يبدو أنك في حاجة إليه أكثر مني . ويمكنك أن تأتي معي على كل حال ، وعندما تنصرف أخرج وأعثر على ولد آخر من أجل الفرنكين .

ـ كلا . خذي النقود . إنني استطيع توفيرها . فقد اقترضت خمسة وعشرين فرنكاً من أحد الأصدقاء .

ـ فليكن . ولنخرج من هنا .

شقا طريقهما إلى المنزل عبر الشوارع المظلمة ، وهما يتحدثان بطلاقة كما يتحدث الأصدقاء القدامى . وأخبرته عن حياتها دونما شفقة على الذات أو شكوى .

وسألها فنسنت ـ هل سبق لك أن مثلت نموذجاً أمام الرسامين ؟

ـ عندما كنت شابة .

ـ فلماذا لا تمثلين أمامي ؟ إنني لا أستطيع أن أدفع لك الكثير . ولو مقدار فرنك في اليوم . ولكن عندما أبدأ بيع لوحاتي سأدفع لك فرنكين . وهذا أفضل من غسل الثياب .

ـ طيب . سوف أحب هذا . وسأحضر ولدي ، فترسمه بلا مقابل . وعندما تتعب من رسمي أجلب لك أمي التي يسرها ان تكسب فرنكاً إضافياً بين الحين والحين . إنها تعمل خادمة نهارية في المنازل .

ولم يطل بهما السير حتى وصلا إلى بيتها . وهو بناء حجري قمىء مؤلف من طابق واحد وساحة . وقالت كريستين ـ لا حاجة بك لأن ترى أحداً ، فإن غرفتي في المقدمة .

كانت الغرفة التي تعيش فيها بسيطة متواضعة صغيرة الحجم ، يغطيها ورق جدران بسيط ، يمنحها ايقاعاً رمادياً هادئاً ، خطر لفنسنت أنه يشبه رسماً من رسوم شاردان . وعلى الارضية الخشبية حصير وبساط قرمزي قديم . وفي أحد الأركان موقد عادي مما يوضع في المطبخ ، وفي الركن المقابل خزانة ذات أدراج ، وفي وسط الغرفة سرير كبير . كان ذلك هو المحتوى الداخلي لبيت امرأة عاملة حقاً .

عندما استيقظ فنسنت في الصباح ، فوجد نفسه غير وحيد ، ورأى إلى جواره تحت أشعة الشفق مخلوقاً صديقاً ، أحس أن العالم يبدو أكثر وداً من ذي قبل . وزايله الألم والعزلة ، وحل محلها شعور عميق بالسلام .

ـ ٢ ـ

استلم في بريد الصباح رسالة من ثيو تتضمن مائة فرنك ، لم يتمكن ثيو من إرسالها إلا بعد أيام عديدة على انقضاء أول الشهر . وهرع فنسنت إلى الخارج ، فوجد امرأة عجوزاً ضئيلة الجسم تعنى

بأرض حديقة منزلها في الجوار ، وعرض عليها أن تأتي لتمثل أمامه للرسم مقابل خمسين سنتيماً . فوافقت المرأة بسرور .

وفي المرسم وضع المرأة أمام خلفية ناعسة ، جالسة إلى جوار المدخنة والموقد الذي يحمل إبريق شاي صغيراً مائلاً على أحد جانبيه . كان همه في ذلك إيجاد نغم مميز . فقد كان رأس المرأة العجوز مفعماً بالضياء والحياة . ولذلك جعل ثلاثة أرباع اللون المائي من لون صابوني أخضر ، وعامَلَ الركن الذي جلست المرأة فيه برقة ونعومة وعاطفة . وبدأ العمل بمشقة وجفاف وهشاشة بعض الوقت ، ثم إنه تدفق تدفقاً . وراح يضرب بقلمه في تشكيل الدراسة الأولية على الورق ، ويعبر عن فكرته بصورة جيدة . وأحس بالامتنان نحو كريستين لما أحدثته فيه . إن افتقاده الحب في حياته يمكن أن يورثه ألماً غير محدود ، غير أن الحرمان من الجنس يمكن أن يجفف عيون الينابيع في فنه ويؤدي إلى قتله .

وهمهم لنفسه وهو يعمل بانسياب ويسر – الجنس يزيت الآلات فليت شعري لماذا لم يتحدث البابا ميشيليه عن ذلك .

سمع طرقاً على الباب . وأذن للخواجة تيرستيج بالدخول . كان بنطاله ذو الأشرطة مكويا على أفضل ما يكون . وحذاوءه البني المستدير يلمع كالمرآة ، وذقنه حليقة بعناية ، وشعره ممشطاً بإتقان على أحد جانبيه ، وياقته بيضاء ناصعة البياض .

وسر تيرستيج سروراً خالصاً إذ وجد فنسنت في مرسم حقيقي يعمل عملاً شاقاً . وكان من دواعي غبطته أن يرى الفنانين الصغار

وقد أصبحوا ناجحين ، فتلك هي هوايته وهي مهنته أيضاً . غير أنه كان يريد وصولهم إلى ذلك النجاح عبر قنوات منهجية معد لها سلفاً . وكان خيراً للرجل في نظره أن يعمل من خلال الوسائط التقليدية ثم يفشل ، من أن يعمل خارجاً عن القواعد المقررة ثم ينجح . لقد كانت قواعد اللعبة أهم بكثير من مسألة الفوز في نظره . كان تيرستيج رجلاً طيباً وشريفاً ، يتوقع أن يكون جميع الناس في مثل طيبته وشرفه. وهو لا يعترف بأية ظروف تجعل من الشرير خيراً أو تقلب الخطيئة إلى التوبة . وكان الرسامون الذين يبيعون لوحاتهم إلى جوبيل يعرفون انهم ملزمون بهذه الدمغة ، وانهم اذا ما خالفوا قواعد السلوك الراقي فان تيرستيج سيمتنع عن عرض لوحاتهم حتى او كانت من الاعمال الفضلى .

قال : — حسناً يا فنسنت . إنني مغتبط لمفاجأتي إياك أثناء عملك . فهذه طريقتي في زيارة الفنانين الذين أتعامل معهم .

— جميل منك أن تقطع هذه المسافة كلها لتراني يا خواجة تيرستيج

— لا عناء في ذلك أبداً ، وكان في نيتي ان أرى مرسمك منذ انتقلت إلى هنا .

أجال فنسنت نظره في السرير والطاولة والكرسيين والموقد والحامل وقال — ليس هناك ما يستأهل النظر كثيراً .

— لابأس . انهمك في عملك وسوف تصبح قادراً على اقتناء شيء افضل قريباً . يقول لي موف إنك بدأت في استخدام الألوان المائية . وهناك سوق جيد لهذه الرسوم . وسوف أتمكن من بيع بعض رسوماتك وكذلك سيفعل شقيقك .

ـ هذا ما أعمل من أجله يا خواجة .

ـ تبدو في حالة معنوية أفضل من تلك التي رأيتك فيها بالأمس .

ـ نعم . كنت مريضاً . ولكنني شفيت في الليلة الماضية .

واستذكر النبيذ والجن والبترز وكريستين ، فساورته رعشة لما يمكن أن يقوله تيرستيج عن ذلك لو عرف به .

ـ هل ستشاهد بعض رسوماتي يا خواجة ؟ إن انطباعك عنها ذو قيمة بالنسبة إليّ .

وقف تيرستيج أمام المرأة العجوز ذات المريلة البيضاء ، التي تبرز على خلفية اللون الأخضر الصابوني . ولم يكن صمته في هذه المرة يشبه صمته الأول في البلاتس . استند على عصاه بضع لحظات ، ثم تناولها وعلقها على ذراعه .

وقال : ـ اجل . أجل . إنك تتقدم . وسوف يصنع منك موف رسام ألوان مائية . إنني أرى هذا . سوف يستغرق ذلك بعض الوقت ، ولكنك ستبلغ المطلوب . وعليك أن تسير حثيثاً يا فنسنت ، لكي تصبح قادراً على إعالة نفسك . فان مبلغ المائة فرنك التي يرسلها لك ثيو كل شهر تبهظ كاهله تماماً . وقد رأيت ذلك حينما كنت في باريس . إن عليك أن تعول نفسك بأسرع وقت ممكن ، وسوف أتمكن من شراء بعض رسوماتك الصغيرة خلال برهة قصيرة .

ـ أشكرك يا خواجة . إنه لطف منك أن تهتم بي هذا الاهتمام.

ـ بودي أن أجعل منك ناجحاً يا فنسنت . وفي ذلك كسب لجوبل . وحالما أبدأ في بيع أعمالك سيغدو بوسعك أن تستأجر مرسماً أفضل من

هذا ، وأن تشتري ملابس جيدة ، وأن تختلط بالمجتمع قليلاً ، فهذا ضروري لك حينما تبدأ في بيع لوحاتك الزيتية فيما بعد . حسناً ، إنني ذاهب الآن إلى موف ، لرغبتي في مشاهدة تلك اللوحة عن شيفننجن التي يرسمها للصالون .

— هل تزورني ثانية يا خواجة ؟

— نعم . طبعاً . خلال اسبوع أو اسبوعين . وعليك أن تهتم بالعمل الدائب ، لتريني بعض التقدم . يجب أن يكون لزياراتي عائد كما تعلم.

صافح فنسنت وانصرف . وعاد فنسنت للانهماك في عمله . يا ليته يصبح قادراً على كسب عيشه ، ولو كان أدنى عيش يتيحه له عمله . فلم يكن ليطلب شيئاً يزيد عن ذلك . وحينئذ يغدو مستقلاً ، ولا يحتاج أن يكون عبئاً على أي إنسان . والأمر الأفضل من ذلك كله أنه لن يشعر بأنه في عجلة وإنما يدع نفسه يتلمس طريقه على مهل ، نحو النضج والتعبير ، بالأسلوب الذي يريده .

وجاءته في بريد بعد الظهر رسالة من دي بوك مكتوبة على ورق قرمزي :

عزيزي فان جوخ :

سوف آتي إلى مرسمك غداً صباحاً بالموديل آرتز ، لنرسمها سوياً .

دي . ب

وتبين أن الموديل آرتز عبارة عن فتاة شابة جميلة جداً ، تتقاضى فرنكاً وخمسين سنتيماً مقابل مثولها للرسم . وابتهج فنسنت غاية الابتهاج ، لأنه لم يكن ليستطيع استئجارها . كان الموقد الصغير يضطرم بنار مدمدمة

خلعت الموديل ثيابها إلى جوارها من أجل الدفء . إن الموديلات المحترفات وحدهن هن اللواتي يمثلن أمام الرسامين عاريات في لاهاي . وأحس فنسنت بالحنق ، لأن الأجساد التي كان يرغب في رسمها كانت أجساد رجال ونساء عجائز ، تملك إيقاعاً وشخصية .

قال دي بوك — جابت معي كيس التبغ ، وغداء خفيفاً أعدته مدبرة منزلي ، حتى لا نزعج أنفسنا بالخروج إلى الخارج .

— سأجرب شيئاً من تبغك ، لأن تبغي ثقيل بالنسبة إلى فترة الصباح.

وأعلنت الموديل قائلة — أنا جاهزة . فهل تبدأون ؟

— في وضع الجلوس أم وضع الوقوف يا دي بوك ؟

— دعنا نجرب وضع الوقوف أولاً . إن في لوحتي الجديدة بعض الشخصيات الواقفة داخل المنظر الطبيعي .

وطفقا يرسمان لمدة ساعة ونصف الساعة ، ثم إن الموديل تعبت .

وقال فنسنت — دعنا نرسمها جالسة ، فيجيء الشكل مرتاحاً .

وعملا حتى الظهر ، وكل منهما منحن على لوحته، لا يتبادلان إلا تمتمة عرضية عن الضوء أو عن التبغ . وبعد ذلك فتح دي بوك لفافة الطعام ، واجتمع ثلاثتهم حول المائدة ليأكلوا . والتهموا رقائق الخبز الرفيعة واللحم البارد والجبن ، ودرسوا الرسوم التي خططوها في الصباح.

وعلق دي بوك قائلاً : — غريب كيف يتزود المرء بنظرة موضوعية نحو عمله الخاص ، بمجرد أن يبدأ في الأكل .

— هل يمكنني أن أرى ما فعلت ؟

– بسرور .

كان دي بوك قد سجل في رسمه شبهاً جيداً فيما يختص بوجه الفتاة. ولكن لم يكن في الرسم أدنى وجهة نظر حول الطبيعة الفردية لجسدها . وإنما كان مجرد جسد سليم .

وقال دي بوك متعجباً وهو ينظر إلى رسم فنسنت – أقول ، ما هو ذلك الشيء الذي وضعته بدلاً من وجهها ؟ أهذا هو ما تقصده بوضع العاطفة في الرسم ؟

وأجاب فنسنت – نحن لم نكن نرسم لوحة ، وإنما جسداً .

– هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها إن الوجه لا ينتمي إلى الجسد.

قال فنسنت – طيب . انظر إلى المعدة التي رسمتها .

– ما بالها ؟

– إنها تبدو كما لو كانت مليئة بالهواء الساخن ، ولا أرى فيها بوصة من الامعاء .

– وكيف لك أن ترى ذلك ؟ إنني لم ألاحظ أيّا من أحشاءِ الفتاة تتدلى إلى الخارج .

استمرت الفتاة تأكل دون مجرد ابتسامة . كانت تعتقد على كل حال أن جميع الرسامين مجانين . ووضع فنسنت رسمه إلى جانب رسم دي بوك .

وقال–إذا أنت لاحظت،فإنّ المعدةالتي هي من رسمي مليئة بالأمعاء.

وبمجرد النظر إليها تعرف أن أطناناً كثيرة من الطعام شقت طريقها الضيق من خلال شبكة الاقنية .

وتساءل دي بوك ــ وما شأن ذلك بالرسم ؟ نحن لسنا أخصائيين في القنوات الهضمية . أم أننا أخصائيون ؟ إنني أريد الناس حينما ينظرون إلى لوحاتي أن يروا الضباب في الأشجار والشمس محمرة في غروبها خلف السحب . ولا أريدهم أن يروا أمعاء .

دأب فنسنت على الخروج مبكراً كل صباح مع سطوع الشمس ليبحث عن نموذج يرسمه خلال النهار . فمرة يكون النموذج صبي حداد ، ومرة امرأة عجوزاً من مصحة الأمراض العقلية في منطقة جيست ،وأخرى رجلاً من سوق الخث ، ورابعة جدة مع حفيدها من منطقة باديموس . وقد كلفته النماذج مبالغ طائلة من المال الذي يعلم أنه كان ينبغي له أن يوفره من أجل الطعام في نهاية الشهر . ولكن أية جدوى في وجوده بلاهاي دارساً تحت إشراف موف ، إذا هو لم ينطلق بأقصى سرعة إلى الأمام ؟ إنه سيأكل فيما بعد ، حينما يفرغ من تأسيس نفسه .

وثابر موف على توجيهه بأناة . وكان فنسنت يذهب في كل مساء للعمل في المرسم الدافىء الحافل بالنشاط في إيلبومين . وقد يصيبه الإحباط أحياناً لأن ألوانه المائية تأتي كثيفة وموحلة وبشعة . إلا أن موف يقابل ذلك بالضحك .

ويقول ــ طبعاً إنها لم تصبح بعد على ما يرام . ولو أن عملك كان منذ الآن سوياً فان ذلك سيكون راجعاً إلى توفر عنصر واحد أنيق فيه ، وربما غدا ثقيلاً فيما بعد . ولكنك الآن في مرحلة دق أوتادك في العمل ، فهو ثقيل عليك ، إلا أنه سيغدو سريعاً وخفيفاً فيما بعد .

ـ هذا صحيح يا بن العم موف ، ولكن ماذا يفعل الرجل إذا كان عليه أن يكسب مالاً من الرسم ؟

ـ صدقني يا فنسنت ، إنك إذا حاولت أن تصل بسرعة كبيرة ، فلن يعود عليك من وراء ذلك إلا أن تقتل نفسك فناناً . ان رجل اليوم ليس إلا رجل يوم واحد . وفي مسائل الفن يصدق المثل القديم القائل « إن الأمانة أفضل السياسات ! » ، وخير للمرء أن يتجشم المشقة الكبيرة في عمل دراسة جادة ، من آن يلفق نوعاً من الأناقة التي تتملق الجمهور .

ـ أريد أن أكون صادقاً مع نفسي يا ابن العم موف ،وأن أعبر عن أشياء حقيقية قاسية بأسلوب خشن . ولكن ضرورة كسب العيش . . . لقد رسمت أعمالاً قليلة خطر لي أن تيرستيج سوف . . . وبالطبع إنني أدرك . . .

قال موف : ـ دعني أرها .

ونظر إلى الرسوم المائية التي قدمها إليه فنسنت ، فاذا به يمزقها ألف مزقة ويقول ـ اثبت عند خشونتك يا فنسنت ، ولا تركض وراء الهواة ووسطاء الفن . وليأتِ إليك من يرغب في المجيء . ولسوف تجني ما زرعت في الوقت المناسب .

رفع فنسنت عينيه عن مزق الأوراق وقال ـ شكراً لك يا بن العم موف . لقد كنت محتاجاً إلى هذه الركلة .

كان موف يقيم حفلة صغيرة في تلك الليلة ، وتقاطر عدد من الفنانين بينهم فايزنبروخ الملقب بالسيف الذي لا يرحم ، نسبة إلى نقده الوحشي لأعمال الفنانين الآخرين ، وبينهم برتينر ودي بوك وجول باخوزين ولوهايز صديق فوس .

كان فايزنبروخ رجلاً ضئيلاً يتمتع بروح هائلة . وما من شيء يتغلب عليه . فاذا كره شيئاً — وهو يكره كل شيء تقريباً — أطلق عليه سوط لسانهفدمره تدميراً بضربة واحدة . وكان يرسم ما يحلو له كما يحلو له ، ويتوصل به إلى إعجاب الجمهور . حتى ان تيرستيج اعترض ذات مرة على شيء معين في إحدى لوحاته فكانت النتيجة أن فايزنبروخ رفض أن يبيع أي شيء بعد ذلك عن طريق جوبل . ومع ذلك كان يبيع كل ما ينتج ، دون أن يدري أحد كيف باعه ولا لمن باعه . وكان وجهه حاداً حدة لسانه ، بما في ذلك شكل الرأس والأنف والذقن . والجميع يخشونه ويخطبون وده . حتى أصبح شخصية معروفة على صعيد البلاد ، لمجرد مزاجه الذاتي في احتقار الأشياء .

وقد انفرد بفنسنت في الركن بجوار النار ، وبصق عدة مرات على ألسنة اللهب ليمتع نفسه بصوت الهسهسة . وراح يربت على نعله المطاطي. وقال — سمعت أنك من آل فان جوخ فهل ترسم بنجاح يضاهي نجاح أعمامك في بيع الرسومات ؟

— كلا . إنني لا أنجح في فعل أي شيء .

— تلك لعنة مباركة بالنسبة إليك . إن على كل فنان أن يتضور جوعاً حتى يبلغ الستين ، وبعد ذلك ربما يتوصل إلى إنتاج بضع لوحات جيدة.

— طظ ! ولكنك لا تتجاوز الأربعين كثيراً ، وأنت مع ذلك تنتج أعمالاً جيدة .

وأحب فايزنبروخ منه تلك الـ « طظ » ! . اذ كانت هذه هي المرة الأولى التي يتجاسر فيها شخص على قولها له منذ سنوات . وقد عبر عن استحسانه بالهجوم على فنسنت .

— إذا خامرك الظن بأن رسوماتي جيدة بأي شكل ، فالأفضل لك أن تنسحب وتعمل بواباً . أتدري لماذا أبيعها للجمهور المغفل ؟ لأنها من سقط المتاع ! ولو كانت لها أية قيمة لاحتفظت بها لنفسي . لا يا بني ، إنني الآن مجرد متمرن . وعندما أبلغ الستين سوف أبدأ الرسم حقاً . وساعتها سأحتفظ لنفسي بجميع ما أرسم ، وعندما أموت سوف يدفن معي . وما من فنان يفرط في أيما شيء يراه جيداً يا فان جوخ . وإنما هو يبيع زبالته إلى الجمهور .

غمز دي بوك بعينه إلى فنسنت من الجهة الأخرى في الغرفة ، ولذلك قال فنسنت — لقد أخطأت اختيار المهنة يا فايز نبروخ ، وأحرى بك أن تعمل ناقداً فنياً .

ضحك فايزنبروخ وصاح بصوت عال — إن قريبك هذا يا موف ليس رديئاً بقدر نصف ما يوحي به شكله . وإن له في رأسه لساناً . ثم استدار نحو فنسنت وقال بقسوة — لماذا تدور بهذه الأسمال القذرة بحق الجحيم ؟ ولماذا لا تشتري لنفسك بعض الملابس اللائقة ؛ ؟

كان فنسنت يرتدي حلة قديمة تخص ثيو ، ثم عدلت لتناسبه . غير أن التعديل لم يكن ناجحاً ، كما أن فنسنت كان يرتديها أثناء عمله بالألوان المائية كل يوم .

— إن أعمامك يملكون من المال ما يكفي كسوة جميع سكان هولنده . أفلا يعطونك شيئاً ؟

— ولماذا يعطونني ؟ إنهم متفقون معك على أن الفنان يجب أن يتضور جوعاً .

– إذا لم يكونوا مؤمنين بك ، فان معهم الحق . والمفترض في آل فان جوخ قدرتهم على تنسم رائحة الرسام من مسافة مائة كيلومتر . فلعلك شخص منتن .

– وأنت اذهب إلى الجحيم .

استدار فنسنت غاضباً ، ولكن فايزنبروخ أمسكه من ذراعه . وكان يبتسم ابتسامة عريضة .

وصاح قائلاً – هذه هي الروح ! إنني لم أرد إلا أن أرى مبلغ احتمالك للإهانة . فاحتفظ بشجاعتك يابني . فانك تملك الجوهر .

وكان موف يحب أن يقوم أمام ضيوفه بتقليد الأشخاص . ومع أنه ابن كاهن، فان عقيدته الوحيدة في الحياة إنما هي الرسم . وبينما كانت جت تقدم الشاي وأنواع الكعك وفطائر الجبن على الحاضرين ، راح يلقي موعظة بطرس عن مركب الصيد . هل استلم بطرس ذلك المركب أم ورثه ؟ هل اشتراه مستفيداً من نظام الدفع بالتقسيط ؟ هل قام ، ويا للهول ، بسرقته ؟ طفق الرسامون يملأون الحجرة بدخانهم وضحكاتهم وهم يزدزردون فطائر الجبن وفناجين الشاي بسرعة عجيبة .

وقال فنسنت في نفسه – لقد تغير موف .

ولم يكن يدري أن موف يقوم بعملية انسلاخ يمارسها الفنانون المبدعون أحياناً . كان موف ، حين يبدأ رسم لوحة من لوحاته ، يبدؤها ناعساً بليداً ، ويكاد يعمل دون مبالاة . ثم إن قواه كانت تبدأ في التوفز ببطء ، مع الأفكار التي تبدأ في الزحف على عقله والتشكل هناك . وعندها يعمل لساعات أطول قليلاً ، عملاً أشق قليلاً كل يوم . فاذا ظهرت

الموضوعات واضحة فوق اللوحة غدت طلباته من نفسه أكثر حدة . وعندها يهرب عقله من عائلته ومن أصدقائه ومن جميع الاهتمامات الأخرى . وتفارقه شهيته . ويستلقي ليالي طوالاً وهو يقظان يفكر في الأشياء التي ينبغي عملها . وكلما انخفضت قواه إلى أسفل ، ارتفع توتره إلى أعلى ، وسرعان ما يعيش معتمداً على طاقته العصبية ، وينكمش حجمه داخل إطاره الفسيح المعتاد ، وتضيع عيناه العاطفيتان في ضباب غائم . وكلما ازداد ارهاقاً جعل يعمل بقدر أكبر من الحماسة التي تبلغ حد اليأس . ثم إن العاطفة العصبية التي تتملكه ترتفع أعلى فأعلى . وهو يدرك في عقله مدى الوقت الذي سيستغرقه إنجاز العمل . ويشحذ إرادته حتى ذلك اليوم ، ويصبح كأنه رجل مركوب بأنف عفريت ، وعلى الرغم من أن السنوات تمتد أمامه ، وأنه يستطيع إتمام اللوحة على مهل، فان شيئاً ما يأخذ في تمزيقه في كل ساعة من ساعات اليوم الأربعة والعشرين وفي النهاية يمسي في حالةعاطفية مفرطة وتوتر عصبي شديد ، حتى إن اعتراض طريقه من قبل أي انسان قد يؤدي إلى نشوء مشهد فظيع . إن الفنان ما يفتأ ينكب على اللوحة بآخر رمق من طاقته . ولا يهمه كم يستغرق إنجازها من وقت ، لأن لديه الإرادة دائماً كي يواصل العمل حتى آخر نقطة من اللون . ولا يمكن لشيء أن يقتله قبل أن تصبح اللوحة تامة .

فاذا انتهى منها وسلمها ، تهالك كما يتهالك الركام ، وغدا ضعيفاً مريضاً هاذياً . وراحت جت تسهر عليه أياماً عديدة حتى يسترد صحته وعافيته . وفي تلك المرحلة يبلغ به التوتر المطبق عليه أياماً عديدة إنه يصاب بالغثيان لمجرد أن يشاهد أو يشم الألوان . ثم إن قواه تبدأ في العودة إليه رويداً رويداً . فاذا استيقظت هذه القوى عادت إليه اهتماماته . فيبدأ

في التسكع داخل المرسم ، ويقوم بتنظيف الأشياء . وقد يذهب للسير في الحقول ، وهو لا يرى في البداية شيئاً مما تقع عليه عيناه . ولكنه في النهاية قد يشاهد منظراً يشد اهتمامه ، وهكذا تبدأ الدائرة دورانها من جديد.

عندما جاء فنسنت إلى لاهاي أول مرة ، كان موف قد بدأ لتوه لوحة شيفننجن ، أما الآن فان نبضه يرتفع يوماً بعد يوم ، وعما قريب سوف يبدأ أفظع الهذيانات اطلاقاً ، هذيان الجنون والروعة الذي يرافق الإبداع الفني .

— ٤ —

جاءت كريستين بعد ليال قليلة تطرق باب فنسنت . وقد ارتدت تنورة سوداء وسترة زرقاء غامقة ، ووضعت على شعرها قبعة سوداء. وكانت طيلة نهارها تعمل واقفة أمام حوض الغسيل . وانفرج فمها عن فتحة صغيرة ، شأنها حين يبلغ بها التعب مبلغ الارهاق . ولاحظ فنسنت أن بثور وجهها صارت أكبر وأعمق مما كانت في المرة الأولى .

وقالت — مرحباً فنسنت . فكرت أن آتي لأرى أين تسكن .

— أنت أول امرأة تأتي لزيارتي يا كريستين ، فأهلاً بك . هل آخذ عنك شالك ؟

جلست إلى جوار النار وأدفأت نفسها . ونظرت تتفحص الغرفة بعد لحظة .

وقالت : — ليست رديئة ، فيما عدا أنها فارغة .

— أعرف . ولكنني لا أملك أية نقود لشراء أثاث.

– عموماً ، فيها كل ما تحتاج إليه .

– كنت على وشك إعداد العشاء يا كريستين ، فهل تأكلين معي ؟

– لماذا لا تدعوني سين ؟ إن الجميع يفعلون .

– طيب يا سين .

– ماذا كان لديك للعشاء ؟

– بطاطس وشاي .

– أنا كسبت اليوم فرنكين . سأذهب وأشتري قليلاً من اللحم البقري .

– اسمعي . إن معي نقوداً . أخي أرسل شيئاً من المال . كم تريدين ؟

– أظن أن خمسين سنتمياً تكفينا .

عادت بعد لحظات معدودات ومعها ورقة اللحم . فتناولها فنسنت منها ، وحاول أن يجهز وجبة الطعام .

– انتظر . ما عليك إلا أن تجلس . أنت لا تعرف أي شيء عن الطبخ . أما أنا فامرأة

انحنت على الموقد تطهو ، وبعثت الحرارة وهجاً دافئاً في خديها ورآها أقرب إلى الجمال . وكان مشهدها وهي تقطع البطاطس في الإناء ، وتضع اللحم كي يطبخ ويغلي ، مشهداً بيتياً طبيعياً ! وأمال فنسنت كرسياً على الحائط وجلس ينظر إليها ، وقد غمر قلبه إحساس بالدفء . هذا هو بيته ، وتلك هي امرأة تجهز له العشاء بيدين محبتين وكم حلم بهذه الصورة وتخيل كاي شريكة له فيها . ونظرت سين نحوه ، ورأت الكرسي مستنداً على الجدار بزاوية خطرة .

قالت — أنت ، أيها الأحمق اللعين . اجلس معتدلاً . أتريد أن تكسر رقبتك ؟

ابتسم فنسنت . وتذكر أن جميع النساء اللواتي عاش معهن في منزل واحد ، من والدته إلى أخواته وعماته وخالاته وبنات عمومته كلهن قلن له ذات يوم : — اجلس معتدلاً لئلا تكسر رقبتك

وقال — فليكن يا سين . سوف أغدو طيباً .

وحالما أدارت ظهرها ، عاد يسند الكرسي على الحائط ، ويدخن غليونه مطمئناً . ثم وضعت سين الطعام على المائدة . كانت قد اشترت وهي في الخارج لفافتين من اللحم ، فلما أتيا عليهما وعلى البطاطس غمسا المرق بالخبز .

وقالت سين — أترى ، أراهن أنك لا تستطيع أن تطبخ كهذا

— لا يا سين . عندما أطبخ لا أدري بالضبط هل آكل سمكاً أم دجاجاً أم عفريتاً .

ودخنت سين على الشاي سيجاراً أسود من تبغها . وجعلا يتحدثان بألفة . وشعر فنسنت وهو معها بألفة منزلية تزيد على ألفته بصحبة موف أودي بوك . إن هناك نوعاً من الإخاء بينهما لم يحاول أن يفهمه . وقد تحدثا عن أشياء بسيطة ، دونما تظاهر أو تنافس . وكانت تصغي إليه إذا تحدث ، فليست هي بالمغرمة به فتقاطعه للحديث عن نفسها ، ولا هي تملك ذاتاً ترغب في توكيدها . ولم يكن أي منهما راغباً في إثارة إعجاب الآخر . وإذا هي تحدثت عن حياتها ، حكت قصة المصاعب والعذابات . وإذا تحدث فنسنت ، فما كان عليه إلا أن

يحدث بعض التعديلات فتجيء قصصها مطابقة لقصصه . ولم يكن في كلماتهما شيء من التحدي ، كما لم يكن في صمتهما شيء من العاطفة . لقد كان لقاؤهما لقاء نفسين لا ترتديان الأقنعة ، مجردتين من جميع حيل الحواجز الطبقية والتعالي .

ونهض فنسنت فسألته — ماذا تريد أن تفعل ؟

— الصحون .

— اجلس . أنت لا تعرف كيف تنظفها . أما أنا فامرأة .

سحب كرسيه نحو الموقد ، وحشا غليونه ، وراح يدخن راضياً وهي تنحني على الحوض . كانت يداها حسنة المنظر وهما مغمورتان بفقاعات الصابون ، وقد نفرت عروقهما ، ووشت شبكة التجاعيد المعقدة فيهما بالعمل الذي قامتا به . فأحضر فنسنت قلماً وورقة وشرع يرسمهما .

وفرغت من الصحون وقالت — المكان هنا ظريف ، ولو كان لدينا بعض الجن والبِرّز ..

وقضيا المساء يحتسيان البِرّز ، بينما فنسنت يرسم مخططاً لسين . وظهر عليها الرضا وهي تجلس هادئة بجوار الموقد الدافىء واضعة يديها في حجرها . وأكسبها وهج الحرارة كما أكسبتها غبطة الحديث إلى إنسان يفهمها شيئاً من الحيوية واليقظة .

وسألها : — متى تفرغين من عملك في الغسيل ؟

— غداً . وذلك شيء حسن . لأنني لا أستطيع أن أصمد كثيراً .

— هل أحسست أثناء العمل أنك على غير ما يرام ؟

– لا ، ولكن ذلك في الطريق . فالولد اللعين يرفس في داخلي مرة بعد مرة .

– إذن ، هل تمثلين أمامي للرسم في الأسبوع القادم ؟

– هل سيكون المطلوب مني مجرد الجلوس كما أفعل الآن ؟

– نعم . هذا كل ما في الأمر . وقد يكون عليك أحياناً أن تقفي أو تتعري .

– لابأس . ستقوم أنت بالعمل كله ، في حين أتقاضى أنا المال .

نظرت خارج النافذة . كانت السماء تثلج .

وقالت – أتمنى لو كنت في المنزل . إن الجو بارد ، وليس معي شيء إلا الشال .

– هل يفترض فيك أن تحضري إلى هذه المنطقة ثانية في صباح الغد ؟

– في تمام السادسة . حين يكون الظلام ما زال مخيماً .

– يمكنك أن تمكثي هنا إذا أحببت يا سين . ورفقتك تسرني .

– ألن تضيق بذلك ؟

– إطلاقاً . إن السرير واسع .

– أيمكن لاثنين أن يناما عليه ؟

– بسهولة .

– سأبقى اذن .

– مليح .

ـ ظريف منك أن دعوتني يا فنسنت .

ـ ظريف منك أن تمكثي .

وفي الصباح أعدت له القهوة ، ورتبت السرير ، وغسلت المرسم ، ثم غادرته إلى المغاسل ، وإذا بالمكان يبدو فارغاً في غيابها .

ـ ٥ ـ

حضر تيرستيج في زيارة ثانية له بعد ظهر ذلك اليوم . وكانت عيناه تبرقان وخداه محمرين بسبب سيره في البرد القارس .

ـ كيف تسير أمورك يا فنسنت ؟

ـ بشكل جيد جداً يا خواجة تيرستيج . جميل منك أن تزورني ثانية .

ـ آمل أن تريني أشياء تثير اهتمامي ، فلهذا جئت .

ـ نعم . لدي أشياء جديدة . ألا تجلس ؟

نظر تيرستيج نحو الكرسي ، ومد يده إلى منديله لينظف الكرسي قبل الجلوس عليه ، ثم خطر له أن ذلك ينافي التهذيب . وجلس . وأحضر فنسنت له ثلاثة أو اربعة رسوم صغيرة بالألوان المائية . استعرضها تيرستيج جميعاً بسرعة ، كما لو كان يستخلص زبدة رسالة طويلة ثم عاد إلى الرسم الأول وشرع يدرسه .

وقال بعد حين ـ إنك تتقدم . وهذه الرسومات لم تضبح سليمة بعد ، ففيها شيء من الخشونة ، إلا أنك تبدي تقدماً . ينبغي أن يصبح لديك شيء أبتاعه منك في القريب العاجل يا فنسنت .

ـ نعم يا خواجة .

ـ عليك أن تفكر في كسب عيشك يا بني . فلا يصح أن تعيش على مال رجل آخر .

تناول فنسنت الرسوم المائية، ونظر إليها . لقد توقع أن تكون خشنة ، ولكنه غير قادر ، شأن كل فنان آخر ، على رؤية ما في عمله من شوائب .

ـ ليس أحب إليّ من أن أعول نفسي يا خواجة .

ـ عليك إذن أن تعمل بمشقة أكبر . يجب أن تسرع في جهودك . وأود ان تنتج في القريب أشياء يمكنني شراؤها .

ـ نعم يا خواجة .

ـ أنا مسرور على كل حال لرؤيتي إياك سعيداً ومنكباً على العمل . لقد طلب مني ثيو أن أعتني بأمرك . ارسم أشياء جيدة يا فنسنت فإنني أريد أن أجعل لك وضعاً في البلاتس .

ـ إنني أحاول أن أقوم بأعمال جيدة . ولكن يديّ لا تطيعان إرادتي دائماً . على أن موف أثنى على واحدة من هذه الرسومات .

ـ ماذا قال ؟

ـقال انها تكاد توشك أن تبدو مثل اللوحات المائية .

ضحك تيرستيج ، وأحكم وضع وشاحه الصوفي حول رقبته وقال ـ اجتهد يا فنسنت ، اجتهد فهكذا ينتج الفنان الصور العظيمة . ثم انصرف خارجاً .

كان فنسنت قد كتب إلى عمه كور ، وأبلغه أنه مقيم في لاهاي ، ودعاه لزيارته . وكان العم كور كثيراً ما يأتي إلى لاهاي ليتزود ببضاعة من الصور لمتجره الفني الذي كان أهم متجر في امستردام . وفي عصر يوم من أيام الآحاد ، كان فنسنت يقيم حفلاً لبعض الاطفال الذين تعرف إليهم . وجعل يسليهم بينما يقوم برسمهم ، فاشترى لهم حقيبة من الحلويات وروى لهم الحكايات وهو منحن على لوحة الرسم ، وإذا به يسمع طرقاً قوياً على الباب وصوتاً عميقاً مدوياً ، فعرف أن عمه قد وصل .

كان كورنيليوس مارينوس فان جوخ شخصية معروفة وناجحة وثرية . وعلى هذا كانت في عينيه الواسعتين الغامقتين لمسة من الحزن . وكان فمه أقل امتلاء مما هو شائع لدى بقية آل فان جوخ . وكان شكل رأسه هو الشكل السائد في الاسرة ، مربعاً عند الحاجب العريض المرتفع ، وعند عظمتي الفك القويتين ، وله وجنتان ضخمتان مستديرتان وأنف قوي .

وقد التقط كورنيليوس مارينوس أدق تفاصيل المرسم ، في حين لم يبد عليه أنه شاهده مجرد مشاهدة . ولطالما دخل إلى مراسم الفنانين ، وأتيح له أن يرى داخلها أكثر من أي رجل آخر في هولندا .

ناول فنسنت الأطفال ما تبقى من الحلوى ، وأرسلهم إلى بيوتهم .

– أتشرب فنجاناً من الشاي معي يا عمي كور ؟ فلابد أن الجو بارد في الخارج .

– شكراً يا فنسنت .

قدم إليه فنسنت الشاي ، وتعجب من قدرة عمه على حفظ توازن الفنجان فوق ركبته وهو يتحدث حديثاً خفيفاً عن أخبار اليوم .

قال ـ اذن ، فأنت ستصبح فناناً يا فنسنت . لقد حان الوقت ليغدو واحد من أسرة فان جوخ فناناً . إن هاين وفنسنت وأنا ، نشتري اللوحات من الأغراب منذ ثلاثين سنة مضت . أما الآن ، فسوف يظل قليل من مال العائلة في العائلة !

ابتسم فنسنت وقال ـ بوجود ثلاثة من الأعمام وشقيق كلهم يعملون في بيع الرسوم ، سوف تكون بداياتي راكضة . أترغب في تناول شيء من الجبن والخبز يا عمي كور ؟ ربما كنت جائعاً .

كان ك . م . يعرف أن الامتناع عن طعام الفنان الفقير هو أيسر سبيل إلى اهانته ، ولهذا قال ـ نعم ، شكراً لك ، لقد كان إفطاري مبكراً .

وضع فنسنت عدة شرائح من الخبز الأسود السميك في صحن مكسور عند حافته ، ثم أخرج بعض الجبن الرديء الملفوف بورقة . وبذل ك . م . بعض الجهد حتى أكل قليلاً .

ـ أخبرني تيرستيج إن ثيو يرسل إليك مائة فرنك شهرياً .

ـ نعم .

ـ ثيو ما زال شاباً ، وينبغي أن يوفر نقوده ، وأن تكسب أنت خبزك بنفسك .

كانت روح فنسنت ما برحت في حلقومه جراء كلام تيرستيج في الموضوع في اليوم السابق فأجاب سريعاً ، دون تفكير .

ـ أكسب خبزي يا عمي كور ؟ كيف تعني بذلك ؟ أكسب خبزي .. أو أستحق خبزي ؟ فاذا كان المرء لا يستحق خبزه ، أي أنه لا يستأهل خبزه ، فإن تلك جريمة حقاً ، لأن كل رجل شريف يستأهل خبزه . أما أن يكون غير قادر لسوء الحظ أن يكسب خبزه على الرغم من استحقاقه إياه ، فإن ذلك من سوء الطالع ، وإنه لسوء طالع كبير .

وجعل يعبث بأصابعه في الخبز الأسود أمامه ، ويكور قطعة من لبابه فيجعلها على هيئة كرة صغيرة صلبة .

ـ ولهذا ، فإنك إذا كنت تقول لي يا عمي كور (أنت لا تستأهل الخبز الذي تأكله) فإنك تهينني . أما إذا كنت تقرر على مسمعي الملاحظة الحقيقية وفحواها أنني لا أكسب عيشي دائماً فإنها ملاحظة صحيحة . ولكن ما الفائدة من ذكر الملاحظة ؟ إنها لا تدفعني إلى الأمام مؤكداً ، إذا أنت اكتفيت بهذا الذكر .

لم يعد ك . م . إلى الحديث عن كسب العيش . ومضيا يتحدثان وهما يستشعران غبطة في الحديث ، إلى أن ذكر فنسنت اسم دي جرو في معرض الكلام على التعبير .

فقال ك . م . ولكن ألا تعلم يا فنسنت أن دي جرو ليس حسن الصيت في حياته الخاصة ؟

حينذاك لم يستطع فنسنت أن يجلس مستمعاً إلى ما قيل عن الأب الشجاع دي جرو . وكان يدري أن من الأفضل له كثيراً أن يقول

لعمه « نعم » . ولكن يبدو أنه لم يكن يستطيع أن يعثر على تلك الـ « نعم » ، عندما يتحدث إلى عائلة فان جوخ .

ـ لقد خطر لي دائماً يا عمي كور ، أن الفنان حينما يعرض أعماله على الجمهور ، فان له الحق في أن يحتفظ لنفسه بما في حياته الخاصة من صراع داخلي ، يرتبط مباشرة وعلى نحو مميت بالصعوبات المميزة التي يتضمنها انتاج العمل الفني .

فقال ك . م . وهو يحتسي الشاي الذي لم يقدم له فنسنت ما يلزمه من السكر : ـ إنما في الوقت نفسه ، لا يملك الرجل أيَّ حق في العيش عيشة الفاسقين ، لمجرد كونه يعمل بواسطة فرشاة اللون بدلاً من عمله بواسطة محراث أو متجر كتب . وإنني أعتقد أننا لا يجوز أن نشتري الرسوم من الفنانين الذين لا يتصرفون وفق قواعد السلوك .

ـ أعتقد أن ما هو أكثر خروجاً على قواعد السلوك ، أن ينبش الناقد الحياة الشخصية للإنسان ، في حين أن عمل ذلك الانسان أسمى من التجريح . إن مثل الفنان وحياته الخاصة كمثل المرأة عند الولادة وطفلها الوليد . إن لك أن تنظر إلى ذلك الوليد ، ولكن ليس لك أن ترفع ثوبها لترى إذا كان مبقعاً بالدم . فذلك مسلك غير لائق أبداً .

كان ك . م . قد وضع لتوه قطعة صغيرة من الخبز والجبن في فمه . فتفلها بسرعة في الفنجان الذي يحمله ، ونهض ، ووضع الفنجان على الموقد .

وقال معلقاً ـ مليح ، مليح . ثم كررها ـ مليح ، مليح ، مليح ، مليح .

وخشي فنسنت أن يكون ك . م . قد غضب ، إلا أن الأمور تحولت إلى الأفضل لحسن الحظ . جاء فنسنت بمحفظته التي تشتمل على الرسومات والدراسات الصغيرة . ووضع كرسياً قرب الضوء لجلوس عمه ، وفي بادىء الأمر لم يعلق ك . م . على ما يراه ، ولكنه توقف عندما وصل إلى صورة صغيرة للباديموس كما يشاهد من سوق الحث ، وهي صورة رسمها فنسنت في الساعة الثانية عشرة ليلاً ، بينما كان يتسكع بصحبة برتيير .

وعلق قائلاً — هذه جيدة نوعاً . هل يمكنك أن ترسم المزيد من مناظر المدينة ؟

— نعم . إنني أرسمها رغبة في التغيير عندما أكون تعباً من الرسم نقلاً عن الموديل . إن لديَّ صوراً غيرها . هل تحب أن تطلع عليها ؟

انحنى من وراء كتف عمه ، وراح يبحث في أوراقه غير المرتبة ويقول — هذا هو الفليرستيج .. وهذا هو الجيست ، وهذا الرسم رسم سوق السمك .

— هل ترسم اثنتي عشرة واحدة منها لأجلي ؟

— نعم ، ولكن ذلك يدخل في نطاق العمل . ولذا يجب أن نقرر سعراً .

— حسن جداً . كم تطلب ؟

— لقد حددت سعراً للصورة الصغيرة من هذا الحجم ، سواء رسمت بقلم الرصاص أو بالحبر ، بمبلغ فرنكين ونصف الفرنك . هل ترى ذلك كثيراً ؟

ابتسم ك . م . في سره ، فقد كان السعر بخساً للغاية .

– كلا . ولكن إذا جاءت الرسوم جيدة ، فسأطلب منك أن ترسم اثنتي عشرة صورة لامستردام . وحينذاك سأحدد لها السعر بنفسي ، فتحظى بقدر أكبر قليلاً من هذا .

– عمي كور ، هذه هي الطلبية الاولى في حياتي ! إنني لا أستطيع ان أصف لك مبلغ سعادتي بها !

– نحن جميعاً راغبون في مساعدتك يا فنسنت . وما عليك إلا أن ترتقي بعملك إلى المستوى المطلوب ، وسوف نشتري ، وهذا كلام بيننا ، جميع انتاجك . ثم إنه تناول قبعته وقفازيه وقال :

– ابلغ ثيو تحياتي حين تكتب له .

احس فنسنت بالنشوة ، فاختطف لوحته المائية الجديدة ، وركض بها ركضاً طيلة الطريق إلى ابابومن . وفتحت له جت الباب ، وقد بدا عليها شيء من الانزعاج .

– لو كنت مكانك يا فنسنت لما دخلت إلى المرسم ، لأن انطون يعاني حالة .

– ما المشكلة ؟ هل هو مريض ؟

تنهدت جت قائلة – بل الشيء المعتاد .

– يجوز إذن أنه لا يرغب في رؤيتي ؟

– الأفضل أن تنتظر يا فنسنت حتى وقت آخر . إنني سأبلغه أنك حضرت إلى هنا . وعندما تهدأ أطواره قليلاً سيأتي لزيارتك .

— ألن تنسي إبلاغه بحضوري ؟

— لن أنسى .

انتظر فنسنت أياماً عديدة ، ولكن موف لم يحضر . وإنما جاء تيرستيج مرتين لا مرة واحدة . وفي كل مرة كان يكرر التقرير ذاته .

— نعم ، نعم . لعلك أحرزت تقدماً طفيفاً . ولكنها ليست كما يجب حتى الآن . ولا يمكنني بيعها في البلاتس بعد . أخشى أنك لا تعمل يا فنسنت بالمشقة اللازمة أو بالسرعة المطلوبة .

— يا عزيزي الخواجة . إنني أستيقظ من نومي الساعة الخامسة صباحاً ، وأعمل حتى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة ليلاً ، ولا أتوقف عن العمل إلا لأتناول لقمة من الزاد بين الحين والحين .

هز تيرستيج رأسه هزة الانكار ، ونظر إلى الرسوم المائية ثانية .

— إنني لا أفهمها . فمازال في عملك ذلك العنصر من الخشونة والفجاجة الذي رأيته فيه حينما أتيتني أول مرة في البلاتس . وكان ينبغي لك وقد مر هذا الوقت أن تتخلص منه . إن العمل الشاق كفيل بذلك ، إذا كان لدى المرء أدنى قدر من الموهبة .

وقال فنسنت — العمل الشاق !

— الله يعلم إنني أريد أن أشتري أشياءك يا فنسنت . وأريد أن أراك تكسب عيشك . ولا أرى من الصواب أن يقوم ثيو ب .. ولكنني لا أستطيع أن أشتري حتى يصبح عملك سليماً . هل أستطيع ؟ !

إنك لا تتطلع إلى صدقة .

ـ لا .

ـ عليك أن تسرع . هذا كل ما في الأمر . عليك أن تسرع . يجب ان تبدأ في البيع وأن تكسب عيشك .

عندما كرر تيرستيج هذه الصيغة بعينها أربع مرات ، تساءل فنسنت بينه وبين نفسه عما إذا كان الرجل يلعب عليه لعبة ما . ـ يجب أن تكسب عيشك .. ولكنني لا أستطيع أن أشتري شيئاً ! فكيف بحق الشيطان سيكسب عيشه إذا لم يشتر منه أحد ؟

وصادف موف في الشارع يوماً ، وكان موف يسير بخطوة غاضبة منكساً رأسه إلى الأرض ، يمضي في غير اتجاه ، مقارباً كتفه إلى الأمام . وقد بدا كأنه لم يتعرف على فنسنت .

ـ لم أرك منذ وقت طويل يا بن العم موف .

فقال موف بصوت بارد لا مبالاة فيه ـ كنت مشغولاً .

ـ أعرف ذلك . إنها اللوحة الجديدة . ترى كيف جاء شكلها ؟

فأشار إشارة غامضة بيده وهو يقول ـ أوه ...

ـ هل أستطيع أن آمر على مرسمك في أي وقت ولو لحظة واحدة؟ أخشى أنني لا أحرز تقدماً في الرسم بالألوان المائية .

ـ قلت لك ليس الآن ! إنني مشغول ، ولا أستطيع أن أضيع وقتي .

ـ طيب ، الا تأتي أنت لزيارتي ذات حين عندما تخرج للسير على الأقدام ؟

– ربما ، ربما ، ولكنني الآن مشغول ، يجب أن أذهب .

اندفع كالسهم إلى الأمام ، قاذفاً بجسده قدماً ، يحث خطاه بعصبية وهو يهبط الشارع – ووقف فنسنت يحملق من ورائه .

ما الذي حدث في العالم ؟ هل تراه أهان ابن عمه ؟ هل نفره منه على نحو ما ؟

واحتار في أمره تماماً بعد أيام ، اذ جاءه فايزنبروخ في مرسمه . ولم يكن من دأب فايزنبروخ أن يعنى بأمر الرسامين الناشئين ، ولا حتى بالمعترف بهم من الرسامين الاصغر سناً ، إلا أن يصب على أعمالهم لعناته القابية بين الحين والحين .

وقال وهو ينظر حوله – يا سلام ، يا سلام . هذا قصر بديع بلا ريب . إنك سوف ترسم صور الملك والملكة هنا في القريب العاجل .

ودمدم فنسنت – إذا لم يعجبك ، يمكنك أن تنصرف .

– لماذا لا تقلع عن الرسم يا فان جوخ ؟ إن الفنان يحيا حياة الكلاب

– ولكن أمورك في الحياة مزدهرة .

– نعم . غير أنني ناجح ، أما أنت فلن تنجح أبداً .

– ربما لن أنجح ، ولكنني سأرسم رسومات أفضل بكثير من جميع ما سترسمه أنت .

وضحك فايزنبروخ قائلاً – لن تفعل ، ولكنك قد تكون مؤهلاً ، أكثر من أي شخص آخر في لاهاي ، للاقتراب من فني ، وذلك إذا كان في عملك شبه ، ولو طفيف ، من شخصيتك .

وقال فنسنت — لماذا لم تقل ذلك من بادىء الأمر ؟ واخرج محفظة رسوماته وقال — أتريد ان تجلس ؟

— لا أستطيع أن أرى وأنا جالس .

ثم إنه أزاح الرسومات المائية جانباً وهو يقول : — الألوان المائية ليست واسطتك المناسبة . إنها أكثر حياداً من أن تعبر عن الأشياء التي تريد قولها . وتركز اهتمامه على رسوم الرصاص التي صورت البوريبنيين وأهالي البرابانتين والأشخاص العجائز الذين رسمهم منذ حضر إلى لاهاي . وكان يقهقه مرحاً وهو يحملق في هذه الشخوص واحدة بعد الاخرى . وجهز فنسنت نفسه لسيل جامد من الاهانات .

ولكن فايزنبروخ قال وقد التمعت عيناه الحادتان — أنت ترسم جيداً بطريقة مذهلة يا فنسنت . إنني أنا نفسي يمكن أن أعمل من واقع هذه الرسوم !

هكذا هيأ فنسنت نفسه لتلقي حمل ثقيل ، فإذا بكلمات فايزنبروخ تأتي خفيفة إلى حد يكسر الظهر . ولذا جلس فنسنت بغتة .

— قيل لي إنك تدعى السيف الذي لا يرحم .

— وإنني لكذلك . ولو أنني لم أر خيراً في رسوماتك لقلت لك .

— لقد وبخني تيرستيج على هذه الرسوم . وقال إنها شديدة الخشونة والفجاجة .

— كلام فارغ . فذلك مكمن قوتها .

— إنني راغب في المضي مع رسوم القلم ، ولكن تيرستيج يقول إنني يجب ان أتعلم أشياء من قبيل الألوان المائية .

ـ من أجل أن تبيع ، إيه ؟ لا يا بني ، إذا رأيت أن شيئاً ما يحتاج رسمه إلى القلم . فارسمه بالقلم . ويمكنك فوق كل شيء أن لا تستمع إلى أحد ، بمن فيهم أنا . واسلك طريقك بنفسك .

ـ يبدو لي أنني مضطر إلى ذلك .

ـ عندما قال موف إنك ولدت رساماً قال تيرستيج لا . ووقف موف إلى جانبك في مواجهته . وقد كنت ساعتها حاضراً . واذا حدث ذلك ثانية فسأقف بدوري إلى جانبك بعدما شاهدت أعمالك .

ـ هل قال موف إنني ولدت رساماً ؟

ـ لا تجعل هذا الكلام يدير رأسك . إنك ستكون محظوظاً إذا مت رساماً .

ـ لماذا إذن كان شديد البرود نحوي ؟

ـ عندما يكون في صدد إنجاز لوحة من لوحاته ، فإنه يعامل الجميع هذه المعاملة يا فنسنت . فلا تدع ذلك يزعجك . وإذا هو أنهى لوحة شيفننجن ، فسوف يأتي إليك . وفي هذه الأثناء تستطيع أن تمر بمرسمي إذا احتجت إلى أية مساعدة .

ـ هل يمكنني أن أوجه إليك سؤالاً يا فايزنبروخ ؟

ـ نعم .

ـ هل موف هو الذي أرسلك إلى هنا ؟

ـ نعم .

ـ لماذا فعل ذلك ؟

– أراد أن يستمع إلى رأيي في عملك .

– ولكن لماذا أراد ذلك إذا كان يعتقد بأنني ولدت ...

– لا أعرف . وربما ملأ تيرستيج رأس موف بالشك من ناحيتك .

– ٦ –

لئن استمر تيرستيج في فقدان الإيمان به ، وازداد موف برودا نحوه في كل يوم ، فإن كريستين كانت البديل الذي أدخل إلى حياته الرفقة البسيطة التي كان يفتقدها ! وصارت تدأب على الحضور الى المرسم كل يوم في الصباح الباكر ، حاملة معها سلة الخياطة الخاصة بها ، لتظل يداها مشغولتين طيلة اشتغال يديه . ولقد كان صوتها خشناً كما كان اختيارها الكلمات التي تجري على لسانها غير موفق ، ولكنها تتحدث بهدوء ، ولا يصعب على فنسنت أن يعيرها اذناً غير واعية حينما يريد التركيز . وقضت معظم وقتها قانعة بالجلوس إلى جوار الموقد في هدوء ، تتطلع خارج النافذة ، أو تحيك ملابس صغيرة للوليد . أما في مثولها نموذجاً للرسم فكانت خرقاء بطيئة التعلم ، الا أنها تواقة لإرضائه . وسرعان ما صار تجهيز غدائه قبل أن تعود إلى بيتها عادة من عاداتها .

وقد قال لها – لا تتجشمي هذه المشقة يا سين .

– لا مشقة في ذلك . وأنا أستطيع أن أؤديه خيراً منك .

– إذن لابد أن تأكلي معي .

– أكيد . إن أمي تعتني بالأولاد ، وأنا أحب أن أبقى هنا .

دأب فنسنت على إعطائها فرنكاً كل يوم . وكان يعلم أن هذا المبلغ أكثر من طاقته ، ولكنه أحب رفقتها . وأحس بالغبطة لأنه أراحها من الوقوف أمام المغاسل . وعندما كان يضطر أحياناً للخروج في فترة بعد الظهر ، فإنه يعود مساء ويأخذ في رسمها حتى وقت متأخر من الليل ، وهكذا تبقى معه ولا تعود إلى بيتها تلك الليلة . ووجد متعة في الاستيقاظ على رائحة القهوة الطازجة ومشهد امرأة ودودة تحوم حول الموقد . لقد كانت هذه هي المرة الاولى التي تصبح له فيها رفيقة في المنزل ، وأحس لذلك بارتياح كبير .

وربما باتت كريستين عنده أحياناً ، لا لسبب على الإطلاق ، وحسبها أن تقول — أظن أنني سأبيت هنا الليلة يا فنسنت ، فهل أستطيع ؟

— طبعاً يا سين . امكثي متى شئت . وأنت تعرفين أن ذلك يسرني . .

وعلى الرغم من أنه لم يطلب منها أن تفعل أي شيء ، فقد اكتسبت عادة غسل ملابسه الداخلية ورتق أرديته ، وشراء حاجياته القليلة من السوق .

وهي لم تكن تلك المرأة التي تجيد تدبير المنزل ، ذلك أن سنوات كسلها الطويلة في بيت أمها قضت على معظم ما فيها من إرادة نحو النظافة والنظام . وإنما هي تعتني بالأشياء لماما في اندفاعات مفاجئة صادرة عن قوتها وتصميمها . وهذه هي المرة الأولى التي تقوم فيها بشؤون تدبير المنزل من أجل شخص تحمل له الود ، وقد أمتعها أن تؤدي هذه الأعمال .. كلما طرأ ذلك على بالها . أما فنسنت فقد أبهجه كثيراً مجرد قيامها بأيما شيء على الإطلاق ، ولم يخطر له أبداً

أن يلومها على شيء . وإذ هي لم تعد تشقى في العمل ليلاً ونهاراً إلى حد الموت ، تخلص صوتها من شيء من خشونته ، وانسحبت الكلمات الخسيسة من أحاديثها واحدة اثر واحدة ، وتعلمت أن تمارس شيئاً من السيطرة على عواطفها ، ولكنها إذا أغاظها أمر من الأمور ركبتها سورة الغضب الانفعالي وعادت إلى صوتها الخشن ، مستخدمة ألفاظاً فاحشة لم يسمعها فنسنت منذ كان تلميذاً صغيراً في المدرسة .

في تلك اللحظات كان يرى في كريستين صورة كاريكاتورية من نفسه . فيجلس هادئاً حتى تتراجع العاصفة . كما أبدت كريستين تسامحاً مماثلاً . وكلما انفجر في نوبة من نوبات الهياج ، حين يخطىء في الرسم خطأ شاملاً ، أو تغفل كريستين عن تعليماته وتمثل أمامه للرسم بطريقة سيئة ، فتشتد حدة غضبه حتى تهتز جدران الغرفة ، كانت تدعه حتى يفرغ من قول القطعة التي يقولها ، ثم يعود الهدوء بعد هنيهات قليلة جداً .

ولما رسمها عدة مرات كافية ، وأصبحت خطوط جسدها مألوفة لديه ، قرر أن يرسم دراسة حقيقية . وقد أوحت إليه بهذه الفكرة جملة من كتاب لميشليه تقول — « كيف يصنع من كانت له في الأرض امرأة وحيدة يائسة ؟ ». لذلك وضع كريستين عارية فوق كتلة منخفضة من الخشب قرب الموقد . وجعل من كتلة الخشب جذع شجرة يشتمل على شيء من الخضرة ، ورتب المنظر كأنه في الخلاء لا في الغرفة . ثم إنه رسم كريستين ويداها معقودتان على ركبتيها ، ووجهها مدفون بين ذراعيها المهزولين ، وشعرها الخفيف يغطي شيئاً من عمودها الفقري ، وثدياها البصليان متدليان حتى مسند الساقين ، وقدماها

المنبسطتان غير مستقرتين على الأرض . وأطلق على هذا الرسم « الندم » وهو رسم امرأة اعتصر منها ماء الحياة ، وقد كتب تحته عبارة ميشيليه .

استغرقت هذه الدراسة أسبوعاً ، وأبهظت مخزونه المالي ، فما زالت هناك عشرة أيام على حلول الأول من آذار مارس . ولديه من الخبز الأسود في البيت ما يقوم بأوده يومين أو ثلاثة أيام . وإذا هو توقف تماماً عن الرسم نقلاً عن النموذج البشري ، فسوف يوفر له ذلك قدراً آخر .

وقال : — سين ، أخشى أنني لن أكون في حاجة إليك هنا حتى حلول الأول من آذار .

— ما الأمر ؟

— ليس معي مزيد من المال .

— تعني المال من أجلي ؟

— نعم .

— ليس لدي عمل آخر أقوم به ، وسوف آتي على كل حال .

— ولكن يجب أن تكون معك نقود يا سين .

— أستطيع ان احصل على شيء منها .

— لا يمكنك القيام بالغسيل إذا ظللت هنا طيلة النهار .

— طيب .. لا تهتم .. سأحصل على شيء منها .

تركها تأتي ثلاثة أيام اخرى ، حتى نفد ما لديه من الخبز . وما زال بينه وبين أول الشهر أسبوع . فقال لسين إنه مسافر إلى أمستردام

لزيارة عمه ، وإنه سوف يقصد بيتها حينما يعود . وقام في الأيام الثلاثة التالية بأعمال نسخ في المرسم ، دون أن يضع في فمه شيئاً غير الماء ، ولم يحس لذلك بألم شديد . وبعد ظهيرة اليوم الثالث ذهب إلى مرسم دي بوك ، على أمل أن يتبلغ بفنجان شاي وقطعة كعك .

ورحب به دي بوك ، وهو يقف أمام الحامل : — مرحباً أيها الزميل العجوز ، خذ راحتك . أما أنا فسأظل أعمل حتى موعد غدائي . هناك بعض المجلات على الطاولة ، فانغمس في تصفحها .

ولكنه لم ينطق بكلمة عن الشاي .

وكان فنسنت يعلم أن موف لن يقابله ، وكان خجلاً من أن يستعطي جت . وكان يؤثر الموت جوعاً على أن يطلب من تيرستيج أي شيء بعد ما قاله تيرستيج في حقه . وعلى الرغم من الحالة اليائسة التي بلغها ، لم يخطر له قط أن يكسب بضعة فرنكات من مهنة اخرى غير مهنته . وعاودته الحمى ، عدوته القديمة ، ودب الوهن في ركبتيه ومكث في السرير . وعلى الرغم من علمه باستحالة وصول النقود إليه قبل موعدها ، ظل يأمل أن تحدث المعجزة ، فيرسل له ثيو مبلغ المائة فرنك مبكراً . ولكن ثيو لا يتقاضى راتبه قبل أول الشهر .

دخلت كريستين إليه بعد ظهر اليوم الخامس دون أن تطرق الباب ، وكان نائماً . ووقفت إلى جانبه تنظر نحو خطوط التجاعيد في وجهه ، وشحوب بشرته تحت اللحية الحمراء ، وخشونة شفتيه المتشققتين . ثم وضعت يدها برفق على جبينه وأحست بالحمى . وبحثت في الرف الذي يحفظ المؤونة عادة ، ووجدت أنه لا أثر لكسرة سوداء يابسة من الخبز الأسود ولا لحبة من البن فخرجت على الأثر .

وبدأ فنسنت بعد ساعة من الزمن يرى في الحلم مطبخ أمه في ايتن ، وطبيخ الفاصولياء الذي كانت تعده له . وصحا من نومه ، فإذا به يجد كريستين تطبخ الأشياء في القدر فوق الموقد .

قال : — سين .

فاتجهت نحوه إلى السرير ، ووضعت يدها الباردة على خده ، فوجدت لحيته الحمراء في أشد درجات الحرارة ، وقالت : — لا تكن متكبراً ، ولا تقل لي أكاذيب بعد الآن . ليس خطأنا أن نكون فقراء . وينبغي أن يساعد واحدنا الآخر . ألم تساعدني أنت حينما التقينا في الليلة الأولى في قبو الخمر ؟

قال — سين .

— ابق مستلقياً الآن . لقد ذهبت إلى البيت وأحضرت بعض البطاطس والفاصولياء ، وهي جاهزة .

هرست بعض البطاطس في الطبق ، ووضعت إلى جوارها بعض حبات الفاصولياء ، وجلست على سريره وأخذت تطعمه : — لماذا كنت تعطيني نقودك كل يوم إذا لم يكن لديك ما يكفيك؟ ليس حسناً أن تغدو جائعاً .

كان في وسعه ان يصمد للحرمان حتى تصله نقود ثيو ، ولو استغرق الأمر أسابيع . اما تلك اللفتة من الحنان غير المتوقع فكان من شأنها دائماً أن تكسر ظهره . قرر أن يقابل تيرستيج .. وغسلت له كريستين قميصه ولكن لم تكن هناك مكوى لتمسيده . وفي الصباح التالي قدمت إليه إفطاراً خفيفاً من الخبز والقهوة . وانطلق سائراً على

اقدامه إلى البلاتس ، وقد خرج احد كعبيه من حذائه المغطى بالوحل، وكان بنطاله مرقعاً قذراً ، كما ان معطف ثيو الذي يرتديه كان أصغر، من حجمه كثيراً . وارتدى ربطة عنق قديمة مائلة على جانب رقبته الايسر . ووضع على راسه طاقية عجيبة من تلك الأصناف التي كانت لديه موهبة فظيعة في التقاطها من حيث لا يدري احد .

سار بمحاذاة سكة حديد راين ، وطاف حول طرف الغابات والمحطة التي تنطلق منها السيارات البخارية إلى شيفننجن ، وشق طريقه إلى البلدة . ورأى في الشمس الواهنة ما أثار حساسيته نحو فقر دمه . وفي شارع بلين وقعت عينه على منظره في زجاج شباك احد المتاجر . وهكذا شاهد نفسه في تلك اللحظة النادرة من لحظات الصفاء بالعين التي يراه بها أهل لاهاي : متشرداً ، اشعث قذراً ، لا ينتمي إلى مكان ، ولا يرغب فيه احد ، مريضاً ، ضعيفاً ، أخرق ، وضيع القدر .

كان الموظفون في محل جوبل ينفضون غبار الليل ، وحملقوا فيه مستطلعين دون حياء . إن عائلة هذا الرجل تسيطر على عالم الفن في اوروبا بأسرها ، فلماذا يدور على هذا النحو ويلطخ سمعة الجميع ؟

وكان تيرستيج في مكتبه بالطابق العلوي ، يفتح البريد بواسطة سكين للورق ذات قبضة من الخشب . وانتبه إلى اذني فنسنت الصغيرتين المستديرتين تحت خط حاجبيه ، وإلى هيكل وجهه البيضاوي الذي يستدق عبر الفكين ثم ينبسط نحو الخدين المربعين ، وإلى رأسه الذي كان شعره يخف فوق العين اليسرى ، وإلى عينيه الخضراوين الزرقاوين

اللتين تحدقان فيه وتسبران اغواره دون ان تحملا اي تعليق ، وإلى فمه الممتلىء الأحمر الذي تزيده اللحية والشاربان حمرة لإحاطتهما به . ولم يكن يجزم أهو يحسب وجه فنسنت قبيحاً ام جميلاً .

وقال : — أنت أول زبون في المحل هذا الصباح يا فنسنت . ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك ؟

فشرح فنسنت حالته .

— وماذا صنعت براتبك ؟

— انفقته .

— إذا كنت مبذراً فانك لا تتوقع مني أن أشجعك . إن الشهر يتألف من ثلاثين يوماً . وينبغي أن لا تنفق أكثر مما هو مخصص لكل يوم .

— لم أكن مبذراً ، فقد ذهبت معظم النقود للنماذج التي رسمتها .

— ينبغي إذن أن لا تستأجرهم . وتستطيع أن تعمل بكلفة أقل إذا شئت .

— إن الرسم بدون موديل يدمر الرسام الذي تخصص في الأشخاص

— لا ترسم أشخاصاً . ارسم أبقاراً واغناماً ، فلا تدفع لها مالاً .

— لا أستطيع أن أرسم بقراً وغنماً يا خواجة . لأنني لا أحسها .

— ينبغي أن لا ترسم بشراً في جميع الأحوال ، فإن تلك الصور لا تباع ، وينبغي أن ترسم رسوماً مائية ، ولا شيء غيرها .

— الألوان المائية ليست واسطتي .

– أعتقد أن رسومك هي بمثابة مخدر تتعاطاه لأنك تشعر بالألم جراء عجزك عن الرسم بالألوان المائية .

وران على المكان صمت . ولم يستطع فنسنت أن يفكر بجواب ممكن على ذلك .

– إن دي بوك ثري، وهو مع ذلك لا يستخدم النماذج البشرية ، وأظن انك توافقني على ان لوحاته رائعة ، واسعارها ترتفع ارتفاعاً مستمراً . فقد توقعت منك ان تقتبس منه في عملك شيئاً من سحره . ولكن ذلك لا يحدث ، ولا ادري لماذا . الحق انني خائب الظن يا فنسنت . إن عملك ما يزال اخرق فجاً . وإنني متأكد من شيء واحد ، هو انك لست فناناً .

وفجأة أحس فنسنت ان الجوع الضاري الذي عاناه في الأيام الخمسة الماضية قد انهك أعصاب ركبتيه . فجلس واهناً على كرسي إيطالي من الطراز المشغول باليد . وضاع صوته في مكان ما من احشائه الفارغة ، فلم يتمكن من العثور عليه .

سأل بعد برهة : – لماذا تقول لي هذا الكلام يا خواجة ؟

تناول تيرستيج منديلاً نظيفاً ، وجفف أنفه وزاويتي فمه ولحية خده ثم قال : – لأنني مطالب به من أجلك ومن أجل أسرتك . يجب أن تعرف الحقيقة . وما يزال أمامك وقت لتنقذ نفسك يا فنسنت ، إذا تصرفت بسرعة . إنك غير مطبوع على الفن . وينبغي لك أن تهتدي إلى مكانك اللائق في الحياة . إنني لا أخطىء في حكمي على الفنانين .

قال فنسنت ـ أعرف ذلك .

ـ من أكبر اعتراضاتي في حالتك أنك بدأت في وقت متأخر جداً . فلو أنك بدأت صبياً ، لاستطعت الآن أن تطور لنفسك طابعاً ما ، ولكنك في الثلاثين يا فنسنت ، ويجب أن تكون ناجحاً . ولقد مررت قبلك بهذا السن . كيف تأمل مجرد أمل في النجاح إذا لم تكن لك موهبة ؟ بل أسوأ من ذلك ، أنك ترضى لنفسك أن تتلقى إحساناً من ثيو .

ـ لقد قال لي موف ذات مرة : فنسنت ، عندما ترسم فأنت رسام .

ـ موف قريب من أقربائك . وقد كان عطوفاً معك . أما أنا فصديقك ، وصدقني إن عطفي هو من أفضل الأنواع . أقلع عن الرسم قبل أن تجد حياتك كلها قد انزلقت من تحتك . وعندما تكتشف عملك الحقيقي وتصبح ناجحاً ذات يوم ، فسوف تأتي إليّ وتشكرني .

ـ خواجة تيرستيج ، إنني منذ خمسة أيام لا أملك سنتيماً واحداً في جيبي أشتري به قطعة خبز . ولكنني ما كنت لأطلب منك نقوداً لو كان الأمر متوقفاً عليّ . إن هناك امرأة فقيرة مريضة استخدمتها موديلاً ، ولم أستطع أن أفي لها بما أدين لها به ، علماً بأنها في حاجة إليه . إنني أرجوك ان تقرضني عشرة جلدرات إلى حين تصل النقود من ثيو . وسوف أعيدها لك .

نهض تيرستيج ، ونظر من الشباك إلى الاوز في البركة ، الذي كان كل ما تبقى من ساحة السماء الاصلية . وتساءل في ذهنه لماذا

جاء فنسنت وأقام في لاهاي ، بينما يملك أعمامه متاجر فن في أمستردام وروتردام وبروكسل وباريس .

وقال دونما التفات ، ويداه معقودتان خلف سترته المفصلة على طراز البرنس البرت : — أنت تعتقد أنني أسدي لك معروفاً اذا أقرضتك عشرة جلدرات ، ولكنني على العكس ، أعتقد أن المعروف قد يكون أعظم ، اذا رفضت ذلك .

كان فنسنت على علم كيف دبرت سين أمورها لكسب المال الذي اشترت به البطاطس والفاصولياء. وما كان في وسعه أن يدعها تعوله .

— يا خواجة تيرستيج ، لا شك أنك على صواب . وأنا لست فناناً ، ولم أوت مقدرة الفن . وسيكون أمراً خارجاً عن الحكمة بشدة أن تشجعني وتمدني بالمال . وإن من واجبي ان أبدأ في كسب عيشي على الفور وأجد مكاني اللائق في الحياة . ولكنني أسألك بحق صداقتنا القديمة أن تقرضني عشرة جلدرات .

أخرج تيرستيج محفظة من داخل سترته وفتش فيها عن ورقة نقدية بقيمة عشرة جلدرات ، وأعطاها لفنسنت دونما كلمة .

قال فنسنت — أشكرك . إنك عطوف جداً .

فلما سار نحو المنزل ، عبر الشوارع المعتنى بها ، ذات المنازل المبنية بالطوب الأحمر الصغير ، والتي تتحدث بطلاقة عن الأمان والراحة والسلام ، تمتم لنفسه : — لا يستطيع المرء ان يبقى ودوداً بصورة دائمة . وإنما ينبغي له أن يخاصم الناس أحياناً . إنني لن اذهب

لرؤية تيرستيج ثانية ، طيلة ستة شهور قادمة ، ولن أكلمه ، ولن أريه عملي .

ومر في طريقه بمرسم دي بوك، خصيصاً ليرى ما هو هذا الشيء المرغوب لدى المشترين ، وما هو ذلك السحر الذي يملكه دي بوك دون فنسنت . كان دي بوك جالساً وقد رفع ساقيه فوق أحد الكراسي ، يقرأ في رواية إنجليزية .

ورحب بفنسنت قائلاً — مرحباً . إنني في حالة فتور همة ، ولا أستطيع أن أرسم خطاً واحداً . اسحب كرسياً وتعال كي تسليني . أما زال الوقت مبكراً على شرب سيجار ؟ هل سمعت قصصاً ظريفة في البرهة الأخيرة ؟

— دعني أر بعضاً من لوحاتك ثانية ، هل تسمح يا دي بوك ؟ إنني اريد ان اعرف لماذا تبيع أعمالك ولا تبيع أعمالي .

ونهض دي بوك متكاسلاً وهو يقول — الموهبة أيها الزميل العجوز، الموهبة . إنها منحة ، إما أن يملكها المرء أو لا يملكها . إنني لا استطيع — أنا نفسي — أن أقول لك ما هي ، علماً بأنني أرسم اشياء لعينة .

أحضر نصف دستة من اللوحات وهي في إطاراتها ، وراح يثرثر ثرثرة خفيفة عنها ، بينما جلس فنسنت هناك يكاد يثقب بعينيه الملتهبتين ما يرى من رسوم خفيفة وأحاسيس خفيفة .

قال لنفسه — لوحاتي أحسن . لوحاتي أصح وأعمق . إنني أقول بواسطة قلم النجار أكثر مما يقوله دي بوك بواسطة علبة ألوان كاملة .

إنّ ما يعبر عنه واضح . وهو عندما ينهي العمل فكأنه لم يقل شيئاً . لماذا يسبغون عليه الثناء والمال وينكرون علي ثمن الخبز الاسود والقهوة ؟

وتمتم لنفسه بعد أن انصرف مفلتاً — إن في هذا المنزل جواً استهلاكياً وإن في شخصية دي بوك شيئاً متخماً غير مخلص يثير غمي . وما أصدَقَ ميليه حين قال — أفضل أن لا أقول شيئاً على أن أعبر عن نفسي تعبيراً زائفاً .

فليحتفظ دي بوك لنفسه بسحره وبنقوده ، أما أنا فستكون حياتي حياة الحقيقة والمشقة ، وليس ذلك بالسبيل الذي يخسر فيه الانسان نفسه .

وجد كريستين تمسح أرض المرسم الخشبية بخرقة مبلولة . وقد ربطت شعرها بمنديل أسود ورشح وجهها بحبات العرق الخفيفة التي تخللت مسام وجهها .

وسألته وهي تنظر اليه من الارض — هل جلبت النقود ؟

— نعم . عشرة فرنكات .

— أليس ظريفاً أن يكون للانسان أصدقاء أثرياء ؟

— نعم . خذي ستة فرنكات التي أدين لك بها .

نهضت سين وجففت وجهها بالإزار الاسود .

وقالت : — لا عليك أن تعطيني شيئاً الآن ، إلى أن يبعث إليك أخوك بتلك النقود . إن أربعة فرنكات لا تفيدك كثيراً .

— أستطيع أن أتدبر أمري يا سين . وأنت بحاجة إلى هذه النقود .

– وأنت أيضاً بحاجة إليها . سأقول لك ما نفعل . سأمكث هنا حتى تصلك رسالة من أخيك . وسنأكل – كلانا – الفرنكات العشرة ما دامت تخصنا معاً . وأستطيع أن أجعلها تدوم أكثر مما تستطيع أنت .

– وماذا عن وقوفك لي بغرض الرسم ؟ إنني لن أكون قادراً على دفع أي شيء لك مقابل ذلك .

– إنك تقدم لي السرير والطعام . أليس ذلك كافياً ؟ بل يكفيني رضا أن أبقى هنا في الدفء ، ولا أضطر للذهاب إلى العمل والتعرض للمرض .

أخذها فنسنت بين ذراعيه ومسد شعرها الخفيف المجعد عن جبينها نحو الوراء .

– سين . إنك في بعض الأحيان تكادين تجترحين معجزة ، حتى توشكي أن تحمليني على الإيمان أن الخير موجود .

– ٧ –

ذهب بعد قرابة أسبوع لزيارة موف . وأذن له قريبه بالدخول إلى المرسم ، ولكنه أسرع بإلقاء خرقة على لوحة شيفننجن قبل أن يتاح لفنسنت ان يراها .

وقال يسأله – « ما الذي تريده مني » ؟ كأنه لا يعلم شيئاً .

– لقد أحضرت شيئاً من أعمالي المائية ، آملاً أن تمنحني قليلاً من وقت فراغك .

كان موف يقوم بتنظيف مجموعة من الفرشايات بحركات عصبية تنم عن الانهماك . وقد مضت عليه ثلاثة أيام كاملة ، لم يدخل خلالها حجرة نومه ، وكان يكتفي باغفاءات خاطفة فوق أريكة المرسم ، لم تجلب إليه الانتعاش .

— لست في وضع يتيح لي دائماً أن أوجهك يا فنسنت . إنني اكون في بعض الأحيان منهكاً ، وحينذاك يجب عليك بحق الله أن تنتظر برهة أفضل .

فقال فنسنت متجهاً إلى باب الخروج — أنا آسف يا بن العم موف . لم أقصد إزعاجك ، فهل آتي اليك غدا مساء ؟

كان موف قد رفع خرقة القماش عن حامل اللوحة ، فلم يستمع إليه وهو يقول ما قاله .

وحين عاد فنسنت في المساء التالي ، وجد فايزنبروخ هناك . وموف على حافة التوتر العصبي . وإذا به يجعل من دخول فنسنت موضوعاً لتسلية نفسه وتسلية صديقه .

صاح : — فايزنبروخ ، انظر كيف هو شكله .

ومضى يقلد فنسنت ، بأسلوب بارع في التشخيص ، فيلوي وجهه بحيث يتشكل عليه خطوط خشنة ، يبرز خده إلى الأمام في إقبال ، ليبدو شبيهاً بفنسنت . وخلاصة الأمر انه قدم لوحة كاريكاتورية متقنة . ثم مشى باتجاه فايزنبروخ ، وحدق فيه من خلال عينين نصف مغمضتين وقال :— « وهكذا يتكلم . » وجعل يتأتئ بعصبية بكلمات متدافعة وصوت خشن يشبه صوت فنسنت . فقهقه فايزنبروخ ساخراً .

وصاح : — أوه .. بالضبط .. بالضبط . هكذا يراك الآخرون يا فان جوخ . هل كنت تعلم أنك حيوان جميل على هذا النحو ؟ موف ، أبرز خدك إلى الأمام ثانية بتلك الطريقة وحك ذقنك . إنه ساحق حقاً .

أصيب فنسنت بالذهول . وانسحب إلى أحد الاركان . وصدر عنه صوت ، لم يكد يعرف فيه صوته : — لو أنك قضيت ليالي ممطرة في شوارع لندن ، أو ليالي باردة في برية البوريناج ، وأنت جائع محموم دون مأوى ، لكانت لك في وجهك خطوط قبيحة ، ولكان لك صوت أجش .

وغادر فايزنبروخ المكان بعد لحظات قليلة ، وحالما انصرف من الغرفة تعثر موف بأحد الكراسي ، فقد أضعفه الجهد الذي بذله في ذلك الهذر . ووقف فنسنت ثابتاً تماماً في الزاوية ، فلاحظه موف أخيراً .

وقال — أوه ، أما برحت هنا ؟

فقال فنسنت بتهور ،وهو يلوي وجهه على النحو الذي مثله موف قبل قليل : — ما الذي حدث بيننا ؟ قل لي فقط ما الذي جنيته . لماذا تعاملني بهذا الشكل ؟

نهض موف في وهن ، ودفع كتلة شعره إلى اعلى .

— أنا غير موافق عليك يا فنسنت . كان ينبغي أن تعتمد في حياتك على نفسك . فلا تدور هنا وهناك تحقر اسم فان جوخ وتشحذ النقود من كل إنسان .

ففكر فنسنت لحظة ثم قال — هل حضر تيرستيج إليك ؟

— لا .

إذن فأنت غير راغب في تعليمي بعد الآن .

— لا .

— حسن جداً . دعنا نتصافح بالأيدي ، ولا بأية مرارة أو حقد فيما بيننا . وما يمكنه أن يغير من إحساسي بالعرفان والولاء لك .

ظل موف مدة طويلة لا يجيب ، ثم قال : — لا تجعل ذلك يدخل إلى قلبك يا فنسنت . إنني تعب ومريض . وسوف أساعدك بكل ما أستطيع . هل معك شيء من رسوماتك ؟

— نعم ، ولكن هذا الوقت ليس ..

— دعني أرها .

جعل يدرسها بعينين محمرتين ، وعلق قائلاً — رسمك خطأ . خطأ مطلق . وإنني أستغرب كيف لم ألاحظ ذلك من قبل .

— قلت لي مرة إنني حين أرسم فإنني رسام .

— إنما اخطأت فحملت الفجاجة على محمل القوة . إذا كنت تريد حقاً أن تتعلم ، فعليك أن تبدأ كل شيء من جديد . إن عندي في ذلك الركن قرب صندوق الفحم بعض قوالب الجبس ، وفي وسعك أن ترسم نقلاً عنها الآن إذا أحببت .

سار فنسنت نحو الركن دائخاً . وجلس أمام قدم مصنوعة من الجبس . وظل وقتاً طويلاً لا يقدر على التفكير أو الحركة . ثم أخرج

بعض أوراق الرسم من جيبه ، ولم يستطع أن يرسم خطاً واحدا . ثم استدار ونظر ناحية موف الواقف أمام حامل لوحته .

— كيف جاءت لوحتك يابن العم موف ؟

ألقى موف بنفسه على الأريكة الصغيرة ، وعيناه المحمرتان كالدم مغلقتان : — قال تيرستيج اليوم إنها أفضل ما انتجت .

ومرت بضع لحظات ، وعلق فنسنت قائلاً — إذن هو تيرستيج .

وكان موف يغفو اغفاءة خفيفة ، فلم يسمعه .

ولم يلبث الألم أن ركد بعد زمن . فبدأ يرسم القدم الجبس . وحينما استيقظ قريبه بعد ساعات قلائل ، كان فنسنت قد رسم سبع دراسات كاملة.وقفز موف كالقطة؛ كما لو لم ينم أبداً،وانقض الى جوار فنسنت وقال — دعني أر ، دعني أر .

ونظر إلى الدراسات السبع وظل يكرر — لا ! لا ! لا ! لا !

مزقها جميعاً وقذف بقصاصاتها على الأرض : — الفجاجة ذاتها ، وعمل الهواة ذاته ! ألا تستطيع أن ترسم ذلك القالب كما هو ؟ ألا تستطيع أن تقوم بدراسة واقعية للخط ؟ ألا تستطيع أن تقلد الشيء تقليداً دقيقاً ولو مرة في حياتك ؟

— أنت تتحدث كما يتحدث المعلم في أكاديمية الرسم يا بن العم موف .

— لو أنك ذهبت إلى الاكاديميات لعرفت كيف ترسم الآن . ارسم تلك القدم مرة اخرى ، وحاول أن تجعلها قدماً .

وذهب خلال الحديقة إلى المطبخ ليأتي بشيء يأكله ، وعاد يعمل في لوحته على ضوء المصباح . ومرت ساعات الليل ، وفنسنت يرسم قدماً بعد قدم ، وكلما أمعن في الرسم إزداد مقتاً لقطعة الجبس الماثلة أمامه . وعندما تسلل الفجر بكآبة من النافذة الشمالية ، كان أمامه عدد كبير من النسخ . ونهض متشنجاً مريض القلب ، وإذا بموف ينظر إلى رسومه ثم يدعكها في يده مرة اخرى .

— ليست جيدة . ليست جيدة على الاطلاق . إنك تخالف كل مبدأ أساسي من مبادىء الرسم . اسمع . اذهب إلى بيتك وخذ هذه القدم معك . وارسمها مرة ومرتين وثلاثاً ، ولا تأت إلى هنا الا حين ترسمها صحيحة .

فصاح فنسنت — لتحل علي اللعنة إذا فعلت !

وقذف بالقدم في صندوق الفحم ، محطماً اياها إلى الف قطعة — لا تحدثني ثانية عن الجبس ، لانني لا اطيقه . انني لن ارسم نقلاً عن القوالب الا حين يفقد العالم جميع ما فيه من ايد واقدام حية .

وقال موف بصوت جليدي — هذا شأنك ان كنت تحس بالأمور على هذا النحو .

— يا بن عمي موف ، انني لن اسمح لنفسي ان ابيت محكوماً لنظام بارد ، سواء كان نظامك او نظام اي شخص آخر . ان علي ان اعبر عن نفسي طبقاً لمزاجي وشخصيتي ، وان ارسم الاشياء كما اراها ، لا كما تراها انت !

وقال موف في لهجة الطبيب الذي يتحدث إلى جثة – لم اعد معنياً بأي شيء يخصك .

حين استيقظ فنسنت عند الظهر ، وجد كريستين في المرسم ومعها ابنها الاكبر هيرمان . وهو طفل شاحب الوجه يبلغ العاشرة من عمره ذو عينين خضراوين سميكتين خائفتين ، وذقن ضئيلة . وقد اعطته كريستين قطعة من الورق وقلما كيما يظل هادئاً . ولم يعلموه القراءة ولا الكتابة . واقترب من فنسنت بخجل نظراً لحذره من الغرباء . وارشده فنسنت كيف يمسك بالقلم ويرسم بقرة ، فاغتبط واصبح ودوداً بسرعة . ثم وضعت كريستين شيئاً من الخبز والجبن وتناول ثلاثتهم وجبة خفيفة .

وتذكر فنسنت كاي وصغيرها الجميل جان . فصعدت إلى حلقومه غصة .

– لا اشعر اليوم انني على ما يرام ، ولذا يمكنك ان ترسم هيرمان بدلاً من رسمي .

– ما بالك يا سين ؟

– لا اعرف . ان جميع احشائي ملتفة .

– هل سبق ان احسست بمثل ذلك ايام حملك بالاطفال الآخرين؟

– كنت امرض ، ولكن ليس هكذا . ان هذا اسوأ .

– يجب ان ترى طبيباً .

– لا فائدة من رؤية طبيب في الجناح المجاني ، فهو يعطيني دواء . والدواء لا ينفع بشيء .

— يجب ان تذهبي إلى مستشفى الدولة في ليدن .

— ... اظن انني يجب ان افعل ..

— انه لا يبعد الا مسافة قصيرة بالقطار . سوف آخذك إلى هناك غداً صباحاً . ان الناس يقصدون ذلك المستشفى من جميع انحاء هولندا .

— يقال انه جيد .

مكثت كريستين في السرير طيلة اليوم . ورسم فنسنت الصبي : وعندما حل وقت العشاء اصطحب هيرمان إلى بيت ام كريستين ، وتركه هناك . وفي الصباح الباكر استقلا القطار إلى ليدن .

قال الطبيب بعد ان فحص كريستين ووجه اليها اسئلة لا تحصى

— بديهي ان تشعري بالمرض ، لان الجنين ليس في وضعه الطبيعي .

وسأله فنسنت — هل يمكن عمل شيء يا دكتور ؟

— اوه ، نعم . يمكننا ان نجري عملية .

— وهل في ذلك خطر ؟

— لا خطر هذه المرة ، اذ ان الجنين يجب ببساطة ان يقلب بواسطة الكلابات . على ان ذلك يكلف شيئاً من المال ، ليس من أجل العملية ، ولكن من أجل نفقات المستشفى . والتفت إلى كريستين سائلاً — هل لديك اي مبلغ مدخر ؟

— لا فرنكاً واحداً .

فأتاح الطبيب للتنهيدة ان تفلت منه وقال — هذا ما يحدث عادة .

وسأله فنسنت — كم تكلف يا دكتور ؟

— ما لا يزيد على خمسين فرنكاً .

— هب انها لم تجر العملية .

— لا فرصة أمامها ابداً للقيام سالمة .

تفكر فنسنت للحظة . أن الرسوم المائية الاثنتي عشرة التي طلبها عمه كور جاهزة تقريباً . فتالك ثلاثون فرنكاً . وسوف يقتطع العشرين الباقية من راتب ثيو لشهر نيسان ابريل .

قال — سأدبر امر النقود يا دكتور .

— مليح . احضرها إلى هنا صباح السبت وسوف اجري لها العملية بنفسي . وبقي الآن شيء آخر : انني لا اعرف العلاقة القائمة بينكما ولا يهمني ان اعرف . فليس ذلك جزءاً من عمل الطبيب . ولكنني يجب ان اخبركما ان هذه السيدة الصغيرة اذا عادت ثانية تدور في الشوارع ، فسوف تموت خلال ستة أشهر .

— لن تعود إلى تلك الحياة يا دكتور . انني اعطيك عهداً على ذلك .

— رائع . سأراكما اذن صباح السبت .

وبعد ايام قلائل جاء تيرستيج وقال — ارى انك مازلت فيه .

— نعم ، انني في العمل .

— استلمت الفرنكات العشرة التي اعدتها لي في البريد . وكان ينبغي ان تأتي على الأقل لتشكرني بنفسك على اقراضي اياك .

— ان المسافة طويلة يا خواجة ، والطقس رديء .

– لم تكن المسافة طويلة جداً عندما كنت في حاجة إلى المال ، ايه ؟

امتنع فنسنت عن الاجابة .

– ان ما يحولني ضدك يا فنسنت هو مثل هذا السلوك الذي تعوزه اللياقة . ولذلك فانني لا اثق بك ولا استطيع ان اشتري اعمالك .

اجلس فنسنت نفسه على حافة الطاولة واستعد لصراع جديد . وقال – لي الحق في ان اعتقد ان ابتياعك الاعمال الفنية امر منفصل تماماً عن النزاع الشخصي والخلاف . لي الحق في الاعتقاد بأنه لا ينبغي ان يعتمد على ذاتي وانما على عملي . فليس من العدل تماماً ان تدع بغضك الشخصي يؤثر على حكمك .

– لا ، بالتأكيد . ولو انك استطعت ان تنتج شيئاً بياعاً ، يشتمل على قليل من السحر ، لسرني ان ابيعه في البلاتس .

– اسمع يا خواجة تيرستيج . ان عملاً قد كدح فيه صاحبه كدحاً شاقاً ، واودع فيه شيئاً من الشخصية والاحساس ، ليس عملاً غير جذاب ولا غير بياع . وانني اظن انه قد يكون من الخير لعملي ان لا احاول ارضاء احد في بداية الامر .

جلس تيرستيج دون ان يفك ازرار معطفه العلوي او يخلع قفازيه ، وقد وضع كلتا يديه على مقبض عكازه .

– اتدري يا فنسنت . انني اشك احياناً انك تفضل ان لا تبيع ، وانك تستمرىء العيش على حساب شخص آخر .

– بل يسرني جداً ان ابيع رسماً لي ، ولكنني اغدو اكثر سروراً عندما يقول فنان حقيقي مثل فايزنبروخ معلقاً على قطعة من عملي الذي تعده انت غير قابل للبيع « هذا عمل صادق مع الطبيعة ، وقد آخذ منه ما ارسمه بنفسي » . وعلى الرغم من ان المال ذو اهمية عظيمة عندي ، ولا سيما الآن ، فان الامر الرئيسي بالنسبة لي هو ان اقوم بعمل جدي .

– ان هذا قد يلائم رجلاً غنياً مثل دي بوك ، ولكنه لا يلائمك .

– ان ما هو أساسي في الفن يا عزيزي الخواجة ، لا يتوقف الا قليلاً على دخل الانسان .

وضع تيرستيج عصاه على ركبيته واستند إلى الخلف في كرسيه وقال – لقد كتب لي والداك يا فنسنت ، وطلبا مني ان افعل ما في وسعي لمساعدتك . مليح جداً . انني اذا لم استطع وفقاً لاقتناعي الكامل ان اشتري رسوماتك ، فانني يجب على الاقل ان اقدم اليك نصيحة عملية صغيرة . انك تدمر نفسك وانت تنتقل بهذه الاسمال التي هي في غنى عن الوصف . يجب ان تشتري لنفسك ملابس جديدة وان تحافظ على المظاهر . انك تنسى انك فرد من اسرة فان جوخ . واقول مرة اخرى انك ينبغي ان تحاول الاختلاط بمجتمع الناس الارقى في لاهاي ، ولا ترافق الناس العاملين والطبقات الادنى دائماً . ان لك ولعاً معيناً بما هو خسيس وقبيح . وقد شوهدت في أكثر الاماكن مدعاة للشبهة ، ومع اكثر الرفقاء مجلبة للشبهة . فكيف لك ان تأمل يوماً في بلوغ النجاح اذا كنت تتصرف على هذا النحو ؟

نهض فنسنت عن حافة الطاولة ، ووقف امام تيرستيج . لئن كانت هناك ادنى فرصة لاعادة كسب صداقة الرجل ، فقد كان ذلك هو الوقت والمكان المناسبين . وفتش في داخله ليجد صوتاً رقيقاً عطوفاً .

– جميل منك يا خواجة ان تحاول مساعدتي . وسوف اجيبك بأخلاص وصدق كما اعرف . كيف استطيع يا ترى ان البس ملابس افضل ، اذا لم يكن في مقدوري ان اوفر فرنكاً واحداً من أجل الملابس وليست لدي وسيلة اكسب بها ذلك الفرنك ؟

– اما التسكع على ارصفة الموانىء وفي الممرات والاسواق وغرف الانتظار بل وحتى صالات الليل ، فليس من التسليات السارة ، اللهم الا للفنان ! ولما كان الامر كذلك ، فان المرء يفضل ان يتواجد في اقذر الاماكن ، حيث يجد ما يرسمه ، على ان يتواجد في حفلة شاي بصحبة نساء فاتنات . ان البحث عن موضوع للرسم ، والعيش بين البشر العاملين ، والرسم من الطبيعة في البقعة المعينة ، كل ذلك يعد عملاً خشناً ، بل وقذراً في بعض الاحيان . وان اخلاق وملابس التجار لا تلائم رجلاً مثلي ، او اي رجل آخر غير معني بالتحدث الى النساء الجميلات والرجال الاغنياء بقصد بيعهم اشياء غالية ، وتحقيق الربح من هذه الصفقات .

– ان مكاني هو حيث ارسم عمال الحفر في جحر فياجيست ، كما فعلت طيلة هذا النهار . فهناك ينسجم وجهي القبيح ومعطفي البالي انسجاماً تاماً مع تلك البيئة ، واشعر بنفسي على سجيتي ، وأعمل

وانا سعيد . اما حين البس معطفاً فاخراً فان البشر العاملين الذين اود ان ارسمهم يخافون مني ولا يثقون بي . ان الهدف من رسومي هو ان ادفع الناس إلى رؤية الاشياء الجديرة بالملاحظة التي لا يعرفها كل انسان . فاذا كنت في بعض الاحيان مضطراً لتجاوز قواعد السلوك الاجتماعي من أجل ان انجز عملي ، اليس في ذلك ما يبرر التجاوز ؟ وهل يحط من قدري ان اذهب إلى بيوت العمال والناس الفقراء أو استقبلهم في بيتي ؟ انني اعتقد ان مهنتي تتطلب ذلك . فهل هذا ما تدعوه انت تدميراً لنفسي ؟

— انت عنيد الرأس جداً يا فنسنت ، ولن تستمع إلى من هو أكبر منك سناً ، وفي وسعه مساعدتك . لقد اخفقت في السابق ، وسوف تخفق من جديد . انها القصة ذاتها معاك .

— ان لي قبضة رجل صاحب حرفة يا خواجة تيرستيج . ولا استطيع ان اتوقف عن الرسم مهما نصحتني ! وانني لاسألك : هل رأيتني اتشكك او اتردد او اتذبذب منذ بدأت ارسم ؟ اعتقد انك تعرف جيداً انني اندفعت إلى الأمام ، وانني اصبحت اقوى رويداً رويداً في هذه المعركة .

— ربما ، ولكنك تحارب من أجل قضية خاسرة .

نهض وثبت ازرار القفاز على معصمه ، ووضع القبعة الحريرية العالية فوق رأسه، وقال — سوف نعمل ، موف وانا ، على ان لا تتلقى مزيداً من المال من ثيو . وهذه هي الطريقة الوحيدة لاعادتك إلى صوابك

شعر فنسنت ان شيئاً في داخل صدره انسحق . فاذا ما هاجموه من جانب ثيو . أمسى ضائعاً .

وصاح قائلاً – يا ألهي ! لماذا تصنعون ذلك بي ؟ ما الذي فعلته بكم حتى تدمروني ؟ امن النزاهة ان تقتلوا رجلاً لمجرد انه يخالف افكاركم ؟ الا تتركوني اسلك طريقي ؟ انني اعد بان لا ازعجكم ثانية . ولكن شقيقي هو الروح الوحيدة التي بقيت لي في هذا العالم كيف تأخذونه مني ؟

فقال تيرستيج وهو ينصرف خارجاً – هذا من أجل صالحك يا فنسنت .

تناول فنسنت محفظة نقوده ، وخرج يركض طوال الطريق إلى المدينة ، ليشتري قدماً من الجبس . وردت جت على جرس الباب في ايلبومين ، ودهشت حينما رأته .

وقالت – انطون ليس في البيت ، وهو غاضب عليك إلى درجة مخيفة . وقد قال انه لا يرغب قط في رؤيتك ثانية . اوه يا فنسنت ، انني حزينة جداً لحدوث ذلك .

وضع فنسنت قدم الجبس في يدها وقال – ارجو ان تعطي هذه إلى انطون وتبلغيه انني آسف من الاعماق .

واستدار وصار على وشك هبوط الدرجات ، واذا بجت تضع على كتفه يداً متعاطفة .

– لقد فرغ العمل في لوحة شيفننجن . فهل تحب ان تراها ؟

وقف أمام لوحة موف صامتاً . انها صورة كبيرة تمثل مركب صيد تسحبه الجياد على الشاطىء . وكان يعلم انه ينظر إلى قطعة من افضل الاعمال الفنية . ان الجياد عبارة عن افراس بائسة ، افراس

عوملت بقسوة ، فيها البيضاء والسوداء والبنية ، وهي واقفة هناك وعليها سيماء الصبر والاذعان والرغبة والاستسلام والهدوء . وما زالت ملزمة بسحب القارب الثقيل حتى آخر جزء من الطريق ، وقد اوشكت ان تنجز عملها . وها هي لاهثة ، يغطيها العرق ، الا انها لا تشكو . فقد سبق لها اداء ذلك العمل طويلاً ، منذ اعوام خلت . وقدر لها ان تعيش وتعمل وتمتد بها الايام ، اما اذا قدر لها غداً ان تذهب إلى تاجر الجلود ليسلخها ، فليكن ، فهي جاهزة لذلك .

وجد فنسنت في الصورة فلسفة عملية عميقة . خاطبته قائلة « انما الحزم في المعاناة دونما شكوى ، وذلك هو العلم العظيم والدرس المستفاد والحل لمشكلة الحياة » .

سار مبتعداً عن البيت ، وقد انتعش وتعزى بالمفارقة الساخرة التي وضعت الرجل الذي وجه اليه اقسى ضربة في حياته ، في موقع من يعلمه كيف يتحملها صابراً عليها .

— ٨ —

نجحت عملية كريستين ، ولكن اجرة العملية لم تدفع بعد . وارسل فنسنت إلى عمه كور الاثنتي عشرة صورة مائية ، وجعل ينتظر مبلغ الثلاثين فرنكاً . وطال انتظاره اياماً عديدة ، إلى ان ارسلها العم كور في وقت من اوقات فراغه . ولما كان الطبيب في ليدن هو من سيقوم بتوليد كريستين فيما بعد ، فقد حرصا على حفظ جميله . وارسل اليه فنسنت الفرنكات العشرين الباقية قبل اول الشهر بأيام عديدة . وهكذا دارت القصة القديمة دورتها من جديد ، من اعتماد

على الخبز الاسود والقهوة في البداية . إلى الاكتفاء بالخبز الأسود . ثم بعد ذلك الماء صرفا . فالحمى والانهاك والهذيان . وكانت كريستين تأكل في بيتها ، ولكنها لا تجد ما تحمله إلى فنسنت . وحينما بلغ نهاية المطاف زحف من سريره ، وتحامل على نفسه بشكل او بآخر ، وسار وسط غشاوة مشتعلة نحو مرسم فايزنبروخ .

كان فايزنبروخ رجلاً ميسوراً ، ولكنه يؤمن بالمعيشة المتقشفة . وكان مرسمه في الطابق الرابع ، يدخله ضوء الشمس قوياً من ناحية الشمال ، وليس في هذا المكان المخصص للعمل اي شيء من شأنه صرف انتباه صاحبه عن العمل ، فلا كتب ، ولا مجلات ، ولا اريكة ، ولا كرسي مريح ، ولا صور على الجدران ، ولا نافذة تطل على الخارج ، ولا شيء الا الاحتياجات الصرفة التي تستلزمها مهنته . بل ولم يكن هناك مقعد اضافي لضيف زائر ، وذلك ما ابقى الناس بعيداً عنه .

وسلّم على فنسنت، دون ان يطرح فرشاته جانباً — اوه . انه انت . اهو انت ؟ . ومع انه كان لا يحسب حساباً للناس حين يقاطع خلواتهم في مراسمهم ، فقد كان لا يعطي من حفاوته اذا جاءه احد ، الا ما يعطيه اسد جبيس .

ووقف فنسنت ، فأوضح السبب الذي جاء من أجله .

وصاح فايزنبروخ — اوه ، لا يا بني ! لقد قصدت الرجل الذي لا يقصد ، والذي هو آخر من يمكن أن يستجيب لطلبك في العالم . انني لن اقرضك ولو عشرة سنتيمات .

ـ الا يمكنك ان تدبر لي مبلغاً بسيطاً ؟

ـ بل استطيع مؤكداً ! ام تحسبني هاوياً ملعوناً مثلك لا يستطيع ان يبيع شيئاً ؟ انني املك من المال في البنك هذه اللحظة أكثر مما استطيع انفاقه لو عشت ثلاث حيوات .

ـ لماذا اذن لا تقرضني خمسة وعشرين فرنكاً ؟ انني يائس ! ولا املك حتى لقمة خبز بائتة في بيتي .

فرك فايزنبروخ يديه طرباً ، وقال ـ بديع ! بديع ! هذا ما انت بحاجة اليه تماماً ! هذا شيء رائع لصالحك . وهكذا قد تصبح رساماً .

استند فنسنت على الحائط العاري ، ولم يكن لديه من القوة ما يسمح له بالوقوف دون سند ، وقال ـ ما وجه الروعة في ان يغدو المرء جائعاً ؟

ـ ذلك انفع شيء في العالم لك ، لانه يعلمك المعاناة يا فان جوخ .

ـ ولماذا انت شديد الاهتمام لرؤيتي أعاني ؟

جلس فايزنبروخ على المقعد الوحيد ، ووضع رجلاً على رجل ، وتحدث وهو يشير نحو وجه فنسنت بفرشاة مغموسة باللون الاحمر .

ـ لان ذلك يجعل منك فناناً حقيقاً . وينبغي لك ان تزداد امتناناً كلما ازدادت معاناتك . هذا هو العنصر الذي يصنع الرسامين من الطبقة الاولى . ان المعدة الخاوية خير من المليئة يا فان جوخ ، وان القلب الكسير ، افضل من السعادة . فلا تنس هذه التعاليم !

– انها قطعة من العفن يا فايزنبروخ ، وانت تعرف ذلك .

سدد فايزنبروخ فرشاته بضع مرات مشيراً نحو فنسنت ، وقال
– ان الرجل الذي لم يذق البؤس في حياته لا يملك شيئاً يرسمه يا فان جوخ . وما السعادة الا ثور يصلح للابقار ولرجال الاعمال وحدهم . اما الفنانون فيترعرعون بالالم . فاذا انت كنت جائعاً ، محبطاً ، بائساً فكن حامداً لان الله انعم عليك !

– ان الفقر يقضي على الانسان .

– نعم . يقضي على الضعيف ، وليس على القوى ! فاذا استطاع الفقر ان يدمرك ، فهذا يعني انك متهالك ، وتستحق ان تهوي .

– دون ان ترفع انت اصبعاً لانقاذي ؟

– كلا ، ولو حسبتك اعظم فنان في جميع العصور . فاذا استطاع الفقر والالم ان يقضيا على رجل ، فانه يكون غير جدير بالانقاذ . ان الفنانين الوحيدين الذين ينتمون لهذه الارض هم الذين لا يقتلهم إله ولا شيطان قبل ان يقولوا كل ما يريدون قوله .

– ولكنني عانيت الجوع سنوات يا فايزنبروخ . وسرت دونما سقف يظل رأسي في المطر والثلج ، ودون ان ارتدي ملابس تذكر ، وعرفت المرض والحمى والهجران . فلا ينقصني ما اتعلمه من هذا النوع .

– انت لم تخمش سطح المعاناة بعد ، وما انت الا مبتدىء . انني اقول لك ان الالم هو الشيء الوحيد اللانهائي في هذا العالم . فاركض

إلى بيتك الآن ، وامسك بالقلم . وكلما كنت أكثر جوعاً وبؤساً ، كنت افضل رسماً .

– وجاء رفض رسومي اسرع .

ضحك فايزنبروخ من قلبه – طبعاً ، انها ستكون مرفوضة ! ولابد من رفضها ، وذلك خير لك ايضاً ، لانه سيجعلك أكثر بؤساً ، وهكذا تصبح لوحتك التالية افضل من سابقتها . واذا جعت وقاسيت وواجهت اعمالك التحقير والاهمال سنوات كافية،فربما ترسم في نهاية الامر – ولاحظ انني اقول ربما ولا اقول سوف – ربما ترسم في نهاية الامر لوحة واحدة جديرة بان يعلقوها إلى جوار لوحات جان ستين او ...

– او فايزنبروخ !

– تماماً . او فايزنبروخ . اما اذا انا اعطيتك الآن اي مبلغ من المال فانني اسلبك فرصة الخلود .

– إلى الجحيم بهذا الخلود ! انني اريد ان ارسم الآن وان ارسم هنا . ولا استطيع ان افعل ذلك بمعدة فارغة .

– هراء يا بني . ان جميع الرسومات ذات الشأن رسمت بمعدة فارغة . واذا امتلأت امعاؤك فانت تبدع من الطرف الخطأ .

– اظن انني لم اسمعك تعاني ذلك العناء الفظيع .

– انا املك خيالاً خلاقاً . واستطيع ان افهم الالم دون ان اخوض في غماره .

– ايها الدجال العجوز !

– لا ابداً . وثق انني لو رأيت عملي تافهاً كما هو عمل دي بوك ، لقذفت بمالي وعشت عيشة المتشردين . ولكن الذي يحدث معي هو انني استطيع ان ابدع صورة الالم الكاملة دون ان تحضرني ذكراه الكاملة . وهذا هو السبب في كوني فناناً عظيماً .

– هذا هو السبب في انك دجال عظيم . دعك من هذا يا فايزنبروخ كن رجلاً طيباً وهلم اقرضني خمسة وعشرين فرنكاً .

– ولا حتى خمسة وعشرين سنتيماً ! لقد قلت لك ، وكنت مخلصاً في قولي . ان فكرتي عنك سامية ، ولن اضعف من خليقتك باقراضك مالاً . انك ستقوم بعمل باهر ذات يوم يا فنسنت ، وذلك اذا اصررت على نحت قدرك الخاص ، ولقد اقنعتني بذلك قدم الجبس عند موف . والآن ، هلم اركض وقف عند مطبخ الحساء ، حيث يقدمون لك اناء من المرق مجاناً .

حملق فنسنت في فايزنبروخ لحظة ، ثم استدار وفتح الباب .

– انتظر دقيقة !

فقال له فنسنت بخشونة – لا أظنك تريد ان تصبح جباناً وضعيفاً .

– انظر الي يا فان جوخ . انا لست بخيلاً . ولكنني اتصرف وفق المبدأ . ولو انني نظرت اليك نظرتي إلى انسان بليد لاعطيتك خمسة وعشرين فرنكاً لاتخلص منك . الا انني اقدرك زميلاً من زملاء المهنة . وسوف اعطيك شيئاً معيناً لا تستطيع ان تشتريه مقابل

جميع ما في العالم من مال . وما كنت لاعطيه لرجل آخر في لاهاي ، باستثناء موف . تعال إلى هنا . ضع تلك الستارة دون ضوء السماء . هذا افضل . الق نظرة على هذه الدراسة . سأريك كيف اضع التصميم واوزع المادة . ولكن بحق المسيح ، كيف تأمل ان تراها اذا وقفت في الضوء ؟

خرج فنسنت بعد ساعة من الزمن منهوك القوى . لقد تعلم في ذلك الوقت القصير أكثر مما يتعلمه المرء خلال سنة في مدرسة الفنون . وسار مسافة معينة قبل ان يتذكر انه كان جائعاً ، محموماً ، مريضاً ، وانه لا يملك سنتيماً في جيبه .

— ٩ —

صادف فنسنت موف بعد ايام قلائل ، وهو يتجول في الكثبان ، فخاب امله فيما كان يرجوه من المصالحة معه

— اريد يا بن العم موف ان اعتذر اليك عما حدث في مرسمك . لقد كان ذلك حمقاً مني . الا تجد السبيل واضحاً للعفو عني ؟ الن تأتي يوماً وتنظر إلى عملي وتدعنا نتحدث في مختلف الشؤون ؟

الا ان موف رفض الامر مباشرة — لن آتي ابداً لزيارتك ، وهذه مسألة منتهية .

— هل فقدت الثقة بي على هذا النحو ؟

— نعم . ان لك شخصية شريرة .

— اذا قلت لي ما هو الشر الذي فعلته ، فانني سأصلح نفسي .

– لم يعد يهمني ما تفعله .

– انني لم افعل شيئاً أكثر من انني كنت آكل وانام واعمل كما يفعل الفنان ، فهل ذلك شر ؟

– هل تدعو نفسك فناناً ؟

– نعم .

– ما اسخف ذلك . انك لم تبع صورة واحدة في حياتك .

– هل هذا ما يعنيه كون المرء فناناً – ان يبيع ؟ لقد كنت احسب معناه ان يظل المرء في حالة بحث مستمرة ، دون ان يجد الجواب النهائي . كنت احسب ان معناه هو النقيض لعبارة « انني اعرف الامر ، لقد اكتشفت الامر » . وان من يقول انه فنان فانما يعني بذلك « انني ابحث ، انني اكافح ، انني منغمس في الامر من كل قلبي » .

– ومع ذلك ، فان لك شخصية شريرة .

– انت تشك في انني فعلت شيئاً ما – ان ذلك واضح في الجو – ، وتظن انني اخفي شيئاً معيناً . وتقول في نفسك « فنسنت يخفي شيئاً لا يستطيع ان يصمد للضوء » . فما هو يا موف – قل لي بصراحة .

انصرف موف إلى حامله ، وبدأ يمزج الالوان . فاستدار فنسنت بعيداً ، وسار ببطء فوق الرمال .

وكان محقاً . وكان في الجو شيء معين . لقد علمت لاهاي بعلاقته بكريستين . وجاءته الانباء على لسان دي بوك ، اذ جاءه على غير انتظار مبتسماً ابتسامة سمجة بفمه الذي يشبه البرعم ، وكانت كريستين تمثل امامه وهو يرسمها ، فتكلم دي بوك بالانجليزية .

قال وهو يلقي بمعطفه الاسود الثقيل ويشعل سيجارة طويلة — حسناً ، حسناً فان جوخ . الخبر يعم انحاء البلدة ، بأنك اتخذت عشيقة . وقد سمعته من فايزنبروخ وموف وتيرستيج . ولاهاي كلها في هياج بسبب ذلك .

فقال فنسنت — اوه ، هذا هو مدار الامور اذن ؟

— يجب ان تكون أكثر تحفظاً أيها الزميل العجوز . هل هي احدى الموديلات المقيمات في ضواحي البلدة ؟ ذلك انني اعرف موديلات البلدة كلهن كما اظن .

نظر فنسنت إلى كريستين وهي تغزل قرب النار . كانت لها جاذبية منزلية وهي تجلس تلك الجلسة ، تخيط في نسيجها الصوفي ومئزرها ، وعيناها منحصرتان في القطعة الصغيرة التي تعمل فيها . والقى دي بوك بسيجارته على الارض وقفز واقفاً .

وصاح — يا الهي ! لا اظنك ستقول لي ان هذه هي عشيقتك ؟

— ليست لي عشيقة يا دي بوك . ولكنني استنتج ان هذه هي المرأة التي يتحدثون عنها .

جفف دي بوك عرقاً وهمياً عن جبينه ، وتفحص كريستين بدقة — كيف تستطيع بحق الشيطان ان تحمل نفسك على النوم معها ؟

— لماذا تسأل هذا السؤال ؟

— يا عزيزي الفتى العجوز ، انها شمطاء ! ومن صنف الشمطاوات الأكثر عمومية ! فما الذي تفكر فيه يا ترى ؟ لا عجب ان اصيب

تيرستيج بصدمة . واذا كنت تريد عشيقة ، لماذا لا تلتقط واحدة من الموديلات الصغيرات الظريفات من حول البلدة ؟ ان هناك كثيرات منهن حولنا .

– لقد قلت لك من قبل يا دي بوك ، هذه المرأة ليست عشيقتي .

– فما هي اذن .. ؟

– زوجتي !

اطبق دي بوك شفتيه الرفيعتين فوق فمه في هيئة من يطبق عروة حول زرار .

– زوجتك ؟ !

– نعم . انوي ان اتزوجها .

– يا الهي !

القى دي بوك على كريستين نظرة اخيرة من نظرات الرعب والاشمئزاز ، ولاذ بالفرار دون ان يتوقف حتى ليرتدي معطفه .

وسألت كريستين – ماذا كنتم تقولون عني ؟

تقدم فنسنت نحوها ، ونظر اليها لحظة – قلت لدي بوك انك ستصبحين زوجتي .

ظلت كريستين صامتة برهة طويلة ، ويداها تعملان في انهماك وقد تعلقت على فمها انفتاحة خفيفة ، وشرع لسانها يخرج ويدخل سريعاً كلسان الافعى ، وذلك لتبلل شفتيها اللتين جفتا على الفور .

– هل تتزوجني حقاً يا فنسنت ؟ ولاي سبب ؟

– اذا لم اتزوجك ، فان التصرف الأكثر عطفاً عليك من قبلي في تلك الحالة يتمثل في ان ادعك وشأنك . غير انني اريد ان امارس مباهج الحياة المنزلية وخيباتها لأرسمها من واقع خبرتي بها . لقد احببت امرأة ذات مرة يا كريستين . وعندما ذهبت إلى بيتها لخطبتها ، قالوا لي انني حقرتها ، مع ان حبي كان صادقاً وقوياً وحقيقياً يا كريستين . فلما خرجت من البيت عرفت ان ذلك الحب امسى مقتولاً . ولكن بعد الموت بعث ، وقد كنت انت ذلك البعث .

– ولكنك لا تستطيع ان تتزوجني ! فهناك موضوع اطفالي ، ثم ان شقيقك قد يتوقف عن ارسال النقود .

– انني احترم المرأة الام يا كريستين . سوف يبقى الطفل الوليد واخوه هيرمان معنا هنا ، ويظل الاطفال الباقون عند امك . اما عن ثيو ... نعم ... انه قد يقطع رأسي . ولكنني حين اكتب له الحقيقة كاملة ، لا اظن انه سيقاطعني .

جلس على الارض عند قدميها . وكان منظرها افضل بكثير من يوم قابلها اول مرة . فثمة لمسة خفيفة من السعادة في عينيها البنيتين الحزينتين . كما دبت روح جديدة من الحياة في شخصيتها بأسرها . ولم يكن مثولها للرسم سهلاً عليها ، الا انها عملت عملاً شاقاً صبوراً . وعندما قابلها اول مرة كانت فظة مريضة تعسة ، في حين خيم الهدوء الآن على جميع تصرفاتها . فقد عثرت على حياة جديدة وصحة جديدة . وبينما هو يجلس وينظر إلى وجهها الفج الموسوم بالشقاء ، والذي داخلته بارقة صغيرة من الحلاوة ، تذكر ثانية ذلك السطر من كتاب ميشيليه

– كيف يصنع من كانت له في الارض امرأة حزينة يائسة ؟

– سين ، سوف نقتر ونقتصد قدر الامكان ، اليس كذلك ؟ انني اتوجس من وقت يحل علينا ، لا يكون لي فيه اي مورد . وسوف استمر في مساعدتك حتى تذهبي إلى ليدن ، ولكنني لا ادري على اي حال اكون حين تعودين من هناك ، وهل يتوفر لي الخبز ام لا . على انني سأقتسم معك ومع الطفل ما قد يكون لدي .

انزلقت كريستين عن الكرسي وجلست إلى جواره على الارض ، وطوقت عنقه بذراعيها ، واسندت رأسها إلى كتفه .

– يكفي ان تدعني ابقى معك يا فنسنت ، ولست اطلب الكثير . ولن اشكو اذا لم يتوفر لنا الا الخبز والقهوة . انني احبك يا فنسنت . فانت اول رجل احسن الي . ولا حاجة بك للزواج مني اذا لم تكن تريد . سوف امثل للرسم واعمل بجد وافعل كل ما تريد . ويكفيني ان تبقيني معك ! انني سعيدة لاول مرة في حياتي يا فنسنت . ولا حاجة بي إلى اي شيء . سوف اقتسم واياك ما لديك ، واكون سعيدة .

كان يحس الجنين البارز في بطنها ، دافئاً حياً . واجرى اطراف اصابعه برقة على وجهها المنزلي وهو يقبل ندباته واحدة واحدة . وترك شعرها ينسدل على ظهرها ، وهو يمسد تموجاته الخفيفة بيد حانية . والقت خدها المتوهج السعيد على لحيته وخلته بلطف في شعرها .

– تحبينني يا كريستين ؟

– نعم يا فنسنت احبك .

– شيء جميل ان يكون المرء محبوباً . وليقل العالم عن ذلك ما يشاء .

– وقالت كريستين ببساطة – ليذهب العالم إلى الجحيم .

– سوف اعيش عاملاً ، فهذا يلائمني . ان كلا منا يفهم الاخر ، ولا حاجة بنا للاهتمام بما قد يقوله اي انسان . ولسنا مضطرين للتظاهر بمراعاة المواضعات الاجتماعية . ان طبقتي نبذتني منذ وقت بعيد ، وخير لي ان اعيش على كسرة خبز من كدي ، مهما كانت بائسة ، من ان اعيش دون ان اتزوج بك .

جلسا على الارض ، مستدفئين بالوهج الاحمر الصادر عن الموقد، مضفورين باذرعهما المتعانقة. ولم يفك هذا السحر الذي ران عليهما الا ساعي البريد . فقد سلم فنسنت رسالة من امستردام تقول :

فنسنت

سمعت لتوي بسلوكك المشين . الرجاء الغاء طلبيتي على الستة رسوم . لن اهتم بعد اليوم بانتاجك .

وهكذا تعلق مصيره بثيو وحده . وما لم يستطع أن يفهم ثيو الطبيعة الكاملة لعلاقته بكريستين ، فسوف يكون ثيو بدوره معذورا في قطع مبلغ المائة فرنك شهرياً . ان فنسنت قادر على المضي دون معلمه موف ، ودون عميله ترستيج ، ودون أسرته وأصدقائه وزملائه ، مادام محتفظاً بعمله وبكريستين . ولكنه لا يستطيع ان يمضي دون مبلغ المائة فرنك في الشهر !

وأخذ يكتب إلى شقيقه رسائل طويلة حارة ، يشرح فيها كل شيء، ويتوسل إلى ثيو ان يفهمه ولا يقاطعه . وعاش يوماً بعد يوم تحت وطأة الخوف القاتم من حدوث الأسوأ . ولم يجرؤ على طلب مواد للرسم تزيد

على ما يستطيع تسديد ثمنه نقداً ، ولم يعد يشتري الألوان المائية ، ولم يعد مندفعاً في عمله .

وجاء رد ثيو ، حاملاً اعتراضاته – وما أكثرها – ولكنه لم يقف موقف الادانة . كذلك قدم لأخيه النصيحة ، ولكنه لم يشر مرة واحدة إلى انه اذا لم تستجب نصيحته فسوف يعمد إلى قطع المدد المالي . ثم إنه أكد لفنسنت انه وان كان غير موافق ، فان معونته مستمرة كالسابق تماماً .

كان الوقت آنذاك بواكير أيار مايو . وكان الطبيب في ليدن قد حدد لكريستين موعد ولادتهافي غضون حزيران يونيو . ورأى فنسنت ان من الأفضل أن لا تنتقل كريستين إلى بيته إلا بعد الولادة ، لأنه كان يأمل في استئجار بيت شاغر قريب من بيته في شنكويغ . وظلت كريستين تقضي معظم أوقاتها في المرسم ، ولكن حاجياتها بقيت عند أمها. وقررا ان يتزوجا رسمياً بعد شفائها .

ذهب إلى ليدن لحضور ولادة كريستين . ولم يتحرك الطفل منذ التاسعة مساء حتى الواحدة والنصف.فكان لابد من اخراجه بالكلابات ، وتمت الولادة دون اصابته بأي جرح . وقد عانت كريستين آلاماً شديدة ، إلا أنها نسيتها جميعاً حينما رأت فنسنت .

وقالت – سوف نعود قريباً لنبدأ بالرسم .

وقف فنسنت ينظر إليها في سريرها ، والدموع في عينيه . ولم يبال بكون الطفل من صلب رجل آخر ، فتلك هي امرأته وذلك طفله ، وكان سعيداً على الرغم من توتر أليم في صدره .

وعندما عاد إلى شنكويغ وجد المالك صاحب ساحة المهملات واقفاً أمام المنزل —.

— — ماذا قررت بخصوص استئجار البيت الآخر يا خواجة فان جوخ ؟ ان ايجاره ثماني فرنكات في الاسبوع لا غير . وسوف أقوم بدهنه لأجلك ، وإذا اخترت نوع ورق الجدران المرغوب ، فسوف ألصقه أيضاً .

فقال فنسنت — ليس بهذه السرعة . إنني أريد البيت حين ترجع زوجتي ، ولابد أن أكتب لأخي أولاً .

— طيب ، يجب أن ألصق ورق الجدران على كل حال ، فاختر النوع الذي يعجبك ، واذا لم تستطع أن تأخذ البيت ، فلا بأس.

كان ثيو قد تلقى رسائل من فنسنت تتحدث عن موضوع البيت الآخر ، وذلك منذ عدة شهور . وهو بيت أوسع من الأول بكثير ، فيه صالة وغرفة جلوس وفجوة في الحائط للمطبخ ، وسدة تستخدم للنوم وأجرة هذا البيت تزيد عن أجرة السابق بمبلغ أربعة فرنكات في الاسبوع الواحد ، إلا أن الحاجة كانت ماسة للبيت الأوسع ، نظراً لقرب مجيء كريستين والوليد وهيرمان جميعاً إلى شنكويغ . وكانت اجابة ثيو انه حصل على زيادة جديدة في أجره ، وان في وسع فنسنت أن يبني حساباته على أساس أنه سيتلقى مائة وخمسين فرنكاً في الشهر ، منذ الآن فصاعداً . واستأجر فنسنت البيت الجديد في الحال ، لأن كريستين كانت قادمة خلال اسبوع . وقد رغب أن تحضر فتجد لدى وصولها عشاً دافئاً . واعاره المالك عاملين من عمال الساحة ، ليحملا الاثاث إلى المرسم الجديد القريب. وحضرت أم كريستين لترتيب الأمور .

— ١٠ —

كان للمرسم الجديد مظهر مرسم حقيقي ، يغطي جدرانه ورق ذو لون وسط بين البني والرمادي ، وله أرضية خشبية نظيفة ، وقد زينت الجدران بالرسوم ، ووضع في كل جانب من جانبيه حامل للرسم ، كما اشتمل على طاولة عمل كبيرة ذات ألواح بيضاء ، وقامت ام كريستين بوضع ستائر من الموسلين الأبيض على النوافد ، وكانت في محاذاةالمرسم فجوة في الجدار خصصها فنسنت لحفظ ألواح الرسم ، والحقائب والكليشيهات الخشبية . وكانت في أحد الأركان خزانة صغيرة وضع فيها زجاجاته وأوانيه وكتبه . واما غرفة الجلوس فكان فيها طاولة وبضعة كراسي للسفرة وموقد زيتي كبير من القش لجلوس كريستين إلى جانب الشباك . وقد وضع إلى جواره سريراً حديدياً صغيراً له غطاء أخضر ، وفوقه نسخة بالحفر عن لوحة رمبرانت التي تصور الامرأتين بجوار المهد ، احداهما تقرأ في الكتاب المقدس على ضوء شمعدان .

وقام بتوفير جميع المستلزمات الضرورية للمطبخ ، ليصير في مقدور كريستين عندما تحضر أن تجهز الغداء خلال عشر دقائق . واشترى سكيناً إضافية ، وشوكة وملعقة وصحناً ، في انتظار اليوم الذي يجيء فيه ثيو لزيارتهم . ووضع في السقيفة العليا سريراً كبيراً لنفسه وزوجته ، كما خصص السرير القديم بما عليه من فراش جيد لهيرمان . وتعاون مع أم كريستين في إحضار قش وأعشاب بحرية وقماش أغلفة الفرش والوسائد وقاما بحشو الفراش في السدة .

وعندما غادرت كريستين المستشفى ، جاء اليها الطبيب المعالج

وممرضة الجناح ورئيسةالممرضات لوداعها ، وأدرك فنسنت أكثر من ذي قبل أنها كانت شخصاً قد يحظى بتعاطف الناس الجادين وبمحبتهم . وقال في نفسه – انها لم تر في السابق ما هو خير . فكيف يمكن أن تصبح خيرة؟

وكانت أم كريستين وولدها هيرمان في شنكويغ لاستقبالها . وأبهجتها هذه العودة المنزلية كثيراً ، لاسيما وان فنسنت لم يخبرها بشيء عن العش الجديد . فراحت تجري هنا وهناك وهي تتحسس الأشياء ، من المهد إلى الكرسي المريح فاناء الزهور الذي وضعه على الافريز خارج نافذتها. وقد ارتفعت معنوياتها إلى الذروة .

وقالت أثناء هياجها – كان الدكتور مضحكاً بشكل فظيع . اذ قال لي « أقول : هل أنت مغرمة بالجن والبترز ؟ وهل تستطيعين تدخين السيجار ؟ » وأجبته « نعم » فقال « سألتك ذلك لأجل أن تعلمي فقط أنك لست في حاجة للاقلاع عنها . ولكن يجب أن لا تستعملي الخل والفلفل الأسود والمستاردة . ويجب أن تأكلي اللحم مرة واحدة على الأقل في الاسبوع . »

كانت غرفة نومهما أشبه بعنبر في سفينة ، لأنها مكسوة بألواح خشبية . وكان على فنسنت أن يحمل المهد الحديدي إلى أعلى كل ليلة ، وأن ينزله في الصباح إلى غرفة الجلوس . كما كان عليه أن يقوم بجميع الأعمال المنزلية التي لا تتحملها صحة كريستين بعد ، من ترتيب الأسرة ، واشعال النار ، ورفع الأشياء وحملها وتنظيفها . وقد أحس كأنما عاش وكريستين والطفل الوليد منذ أمد بعيد ، وأنه كان على سجيته . ومع أنها كانت ما تزال في طور النقاهة ، فقد أحست بالتجدد والحيوية .

وعاد فنسنت إلى العمل مزوداً باحساس جديد بالسلام في قلبه . فمن المفيد أن يكون للانسان بيت يخصه ، وأن يشعر بصخب العائلة ونظامها من حوله . لقد منحته معيشته مع كريستين شجاعة وطاقة على المضي في عمله ، وبات واثقاً أنه سوف يتطور ويصبح رساماً عظيماً ، بشرط واحد وهو أن لا يخذله ثيو .

وبينما كان قادماً من الكثبان بعد ظهر يوم من الايام ، لقي تيرستيبج أمام البيت في شنكويغ . قال تيرستيبج — انني مسرور لرؤيتك يا فنسنت ، وخطر لي أن آتي وأستفهم كيف تسير أمورك .

فزع فنسنت من العاصفة التي كانت ستندلع في حال صعود تيرستيبج إلى المنزل . فوقف يتحدث إليه بضع لحظات في الشارع ، كي يستجمع قواه . وكان تيرستيبج ودوداً ومنشرحاً ، وكان فنسنت يرتعش .

وعندما دخل الرجلان ، كانت كريستين ترعى الطفل وهي في كرسي القش ، وهيرمان يلعب بجوار الموقد . وحملق تيرستيبج فيهما برهة طويلة ، فلما نطق تكلم بالانجليزية .

— ما معنى تلك المرأة والطفل ؟

— كريستين زوجتي ، والطفل طفلنا .

— أتزوجتها فعلاً ؟

— إذا كنت تقصد حفل الزواج ، فنحن لم نقم به بعد .

— كيف يمكنك أن تعيش مع امرأة . . . وأطفال لا . .

— الرجال يتزوجون عادة . أم تراهم لا يفعلون ؟

— ولكنك لا تملك مالاً . وأنت تعيش بمعونة أخيك .

– لا ، اطلاقاً . ان ثيو يدفع لي راتباً ، وله جميع انتاجي ، وسوف يستّرد ماله ذات يوم .

– هل جننت يا فنسنت ؟ إن هذا لا يمكن أن يصدر إلا عن عقل وعن مزاج غير متزن .

– السلوك الانساني يا خواجة ، يشبه الرسم شبهاً كبيراً ، ان المنظر كله يتغير حسب اتجاه العين الناظرة ، وحسب الانسان الناظر ، لا حسب الموضوع .

– سأكتب إلى والدك يا فنسنت . سأكتب إليه وأخبره عن المسأله كلها .

– ولكن ألا ترى مضحكاً أن تصلهم منك رسالة مليئة بالتحامل ، ثم تصلهم دعوة مني بعد فترة وجيزة ، لزيارتي هنا على نفقتي ؟

– هل تنوي أن تكتب إليهم بنفسك ؟

– وهل هذا سؤال ؟ طبعاً ، سأكتب . ولكنك ستوافقني حتماً على ان اللحظة الحاضرة غير مناسبة . فالوالد انتقل إلى ابرشية نيونن . كما ان أي اضطراب أو اجهاد في مثل حالة زوجتي الراهنة ، يقتلها قتلاً .

– اذن لن أكتب بطبيعة الحال . ولكنك يا بني ترتكب حماقة أشبه بحماقة من يلقي بنفسه إلى الغرق . وكل ما اردته هو أن أنقذك .

– أنا لا أشك في حسن نواياك يا خواجة تيرستيبج ، ولهذا السبب أحاول أن لا أغضب من كلامك . ولكن هذا الجدل لا يسرني أبداً.

انصرف تيرستيبج ، وعلى وجهه نظرة حائرة . غير أن الضربة الحقيقية الأولى التي وجهت إلى فنسنت من العالم الخارجي ، كانت تلك

التي كللها له فايزنبروخ ، فقد جاءه بعد ظهر أحد الأيام مداهماً اياه بلا مبالاة ، لرؤية ما إذا كان مازال على قيد الحياة .

قال — مرحباً ، ألاحظ انك تدبرت أمرك بدون تلك الخمسة والعشرين فرنكاً .

— نعم .

— ألست مسروراً الآن لأنني لم أدللك ؟

— رأيي هو ما سبق ان قلته لك أول مرة في تلك الليلة في بيت موف ، وهو « اذهب إلى الجحيم » وانني الآن أكرر لك تلك الاجابة .

— إذا ثابرت على هذا الاسلوب فسوف تصبح فايزنبروخ آخر . إنك تشتمل على مادة الرجل الحقيقي . لماذا لا تعرفني إلى عشيقتك .إذ لم أتشرف بها بعد .

— هاجمني كما تريد يا فايزنبروخ ، ولكن دعها وشأنها .

كانت كريستين تؤرجح المهد الحديدي بغطائه الأخضر . وقد عرفت أنها موضع هزء . فنظرت إلى فنسنت وعلى وجهها سيماء الألم . وتحرك فنسنت ناحية الأم والوليد ، ووقف إلى جانبهماحامياً . ونظر فايزنبروخ إلى ثلاثتهم ثم إلى لوحة رمبرانت فوق المهد .

وصاح — أقول ، انكم تشكلون موضوعاً بديعاً أحب أن أرسمه وأطلق عليه « العائلة المقدسة » .

وثب فنسنت نحو فايزنبروخ موجهاً إليه أقذع الشتائم ، ولكن فايزنبروخ خرج من الباب في امان . وعاد فنسنت إلى عائلته . وصادف وجود قطعة من بقايا مرآة معلقة على الجدار بجوار لوحة رمبرانت. وحانت

من فنسنت لفته اليها ، وشاهد صورتهم هم الثلاثة منعكسة عليها ، وإذا به يرى في تلك اللحظة من الوضوح المرعب المدمر ما رآه فايزنبروخ .

وسألت كريستين — ماذا أطلق علينا ؟

— العائلة المقدسة .

— وما تلك ؟

— مريم ويسوع ويوسف .

انهمرت الدموع من عينيها ، ودفنت وجهها في ملابس الطفل . وأقعى فنسنت على ركبتيه إلى جوار المهد الحديدي كي يهدئها . وكان الغسق يزحف على النافذة الشمالية ويلقي ظلاً هادئاً فوق الغرفة واستطاع فنسنت ثانيه أن ينتزع نفسه وان يرى ثلاثتهم كأنه ليس فرداً من المجموعة ولكنه في هذه المرة رأى المشهد بعيني قلبه .

— لا تبكي يا سين ، لا تبكي يا حبيبتي . ارفعي رأسك وجففي دموعك . لقد كان فايزنبروخ على حق !

— ١١ —

اكتشف فنسنت منطقة شيفننجن كما اكتشف الرسم بالزيت في وقت واحد تقريباً . كانت شيفننجن قرية صغيرة من قرى الصيد ، تستلقي في واد تحفه الكثبان الرملية من جانبيه عند بحر الشمال . وثمة صفوف من زوارق الصيد المربعة ، ذات صار واحد ، وأشرعة غامقة الألوان ملوحة بالشمس والرياح ، تصطف عند الشاطىء .وقد زودت هذه الزوارق في مؤخرتها بدفات خشنة مربعة ، وانتشرت فوقها شباك

الصيد جاهزة للابحار ، وفوقها رايات صغيرة مثلثة ذات ألوان حمراء صدئة أو زرقاء بحرية . كما كانت هناك عربات زرقاء فوق عجلات حمراء ، تحمل السمك إلى القرية . وتشاهد نسوة الصيادين يلبسن على رؤوسهن طاقيات من المشمع الأبيض ، مثبتة من الامام بدبوسين مستديرين ذهبيين ، وهناك أيضاً حشود عائلية عند طرف الموج ، جاءت للترحيب بالمراكب التي رست قبل قليل . وثمة بيت مخصص لمتعة الزوار الذين يحبون طعم الملح على شفاههم شريطة ان لا يتسرب إلى حلوقهم ، ويدعى هذا المكان الكورزال ، وترفرف من فوقه الاعلام الزاهية . ويضرب لون البحر عند الشاطىء إلى اللون الرمادي بسبب تكسر الأمواج عليه واستحالة الدرجات اللونية الخضراء الداكنه إلى لون أزرق حائل ، اما السماء فهي رمادية فاتحة ، تتشكل فيها الغيوم أشكالاً ، وقد تتاون بزرقة عارضة ، تقول للصيادين أن الشمس ما زالت تشرق فوق هولندا .

والخلاصة ان شيفننجن مكان عمل تمتزج فطرة الناس فيه بالتراب والبحر .

قام فنسنت برسم مشاهد عديدة من مناظر الشوارع بالألوان المائية ، ووجدها واسطة ملائمة لنقل الانطباع السريع . ولكن الألوان المائية ، لا تشتمل على العمق أو الكثافة أو الشخصية للتعبير عن الأشياء التي كان فنسنت يريد أن يفصح عنها . وهكذا كان يتوق إلى الزيت ، ولكنه يخشى الامساك به لأنه سمع عن كثير من الرسامين الذين خسروا أنفسهم بسبب استخدامهم الزيت قبل أن يتعلموا الرسم .

ثم جاء ثيو إلى لاهاي .

كان ثيو الآن يبلغ السادسة والعشرين ، وقد أصبح وسيط فنون

حاذق ، وله أسفار كثيرة من أجل مصالح العمل ، وشهرة واسعة بوصفه واحداً من أفضل الشبان الذين يمارسون هذه التجارة . وكانت مؤسسة جوبيل وشركاه في باريس قد بيعت إلى بوسو وفالادون (المعروفين بلقب السادة) ، ومع أنهما ابقيا على ثيو في وظيفته فان تجارة الفن لم تعد كما كانت في عهد جوبيل وفنسنت العم . لقد غدت الصور الآن تباع بأعلى الأسعار – وذلك بصرف النظر عن استحقاقها – ، وأصبح التعامل مقتصراً على الرسامين الناجحين . وقبل ذلك كان فنسنت العم وتيرستيبج وجوبيل يرون ان من أولى مهام وسيط الفنون ان يكتشف ويشجع الفنانين الجدد والناشئين . اما الآن فلا يلقى التشجيع إلا الرسامون الكبار المعترف بهم . وقد ظهر في الميدان فنانون جدد من أمثال مانيه ومونيه وبيسارو وسيسلي ورينوار وبيرث وسيزان وديجا وجويومون ، بل وظهر من هم أصغر سناً من أمثال تولوز – اوتريك وجوجان وسوارت وسينياك ، وكلهم يحاول ان يقول شيئاً جديداً يختلف عما كان بوجورو والاكاديميون يكررونه إلى ما لا نهاية ، إلا أن الجدد لم يجدوا من يستمع اليهم . ولم يحظ أي واحد من هؤلاء الثوريين بتقديم لوحة واحدة من لوحاته للعرض أو البيع تحت سقف « السادة » . وكان ثيو قد انتهى إلى كره عميق تجاه بوجورو والاكاديميين ، في حين اضمر التعاطف للمبدعين الشباب . وكان في كل يوم يحاول ، بكل ما أوتي من وسائل ، ان يقنع السادة بعرض الرسوم الجديدة وتشجيع الجمهور على شرائها . اما السادة فنظروا إلى المبدعين نظرتهم إلى أناس مجانين طفوليين يفتقدون الحد الأدنى من براعة الصنعة . وكان ثيو يعتقد أنهم أسياد المستقبل .

مكثت كريستين في غرفة النوم بالسقيفة ، اثناء لقاء الشقيقين في المرسم . وبعدما انتهيا من تبادل التحيات الأولية قال ثيو – من أسباب

حضوري إلى لاهاي شؤون تخص أعمالي . ولكنني يجب أن أعترف أن غرضي الرئيسي من هذا القدوم هو ان اثنيك عن اقامة أية علاقة دائمة مع هذه المرأة . ولكن ترى ما شكلها أولاً ؟

– هل تتذكر مربيتنا العجوز في زندرت ، لين فيرمان ؟

– نعم .

– سين هي من ذلك النوع . إنها مجرد امرأة عادية من الناس ، ولكنها بالنسبة لي ذات تمايز معين . وكل من أحب امرأة عادية من عامة الناس وأحبته ، فقد تحققت له السعادة بغض النظر عن الجانب المظلم من الحياة . ان ماردني إلى نفسي ثانية وبعث في الحياة إنما هو شعوري بأنني إنسان ذو جدوى . والواقع انني لم أسع إلى ذلك الشعور ، بل هو الذي اكتشفني . ان سين مستعدة لتحمل جميع المتاعب والمشكلات التي تمتلىء بها حياة الرسام ، وهي جد راغبة أيضاً في المثول أمامي لأرسمها ، حتى بت أعتقد أنني سأغدو معها رساماً أفضل مما لو كنت تزوجت كاي .

إنني لم أقع تحت سلطان الحب يا ثيو ، ولم أنجرف مع عاطفة جامحة. ولكن إذا كانت كاي قد أطاحت بي . فهل يعني ذلك أن تخمد جميع عواطفي الانسانية ؟ ها انت قد حضرت إلى هنا ، فلم تجدني محبطاً حزيناً ، وإنما تراني في مرسم جديد ، وفي بيت له ايقاعه المنزلي الكامل . ومرسمي ليس مرسماً سحرياً ، وإنما هو مرسم متجذر في الحياة الحقيقية ، مرسم يوجد فيه مهد وكرسي عال للوليد . وليس حولي جو يبعث على الركود ، بل جو يؤدي بكل ما فيه إلى دفع الانسان وحثه وتحريضه على النشاط . ان من الواضح لي وضوح النهار ان الرسام ينبغي أن يحس ما

يرسمه ، وانه ينبغي ان يحيا حقيقة الحياة العائلية اذا شاء أن يعبر عنها بشكل حميم .

— انت تعرف يا فنسنت انني لا أهتم بالفوارق الطبقية ، ولكن هل ترى من الحكمة . . . ؟

فقاطعه — كلا . لا اعتقد انني انحدرت بنفسي او حقرتها . وانما انا اشعر ان عملي يختص بما يكمن في قلب الناس ، وينبغي لذلك ان اظل ملتصقاً بالارض ، وان اشد حياتي إلى تيار الحياة الجاري ، واحقق التقدم من خلال الهموم والمتاعب الكثيرة .

نهض ثيو بخفة ووقف ينظر إلى اخيه الجالس قائلاً — انا لا اختلف معك في شيء من ذلك كله . ولكن لماذا يستلزم ذلك زواجاً ؟

— لان هناك وعداً بالزواج بيني وبينها . انني لا اريدك ان تنظر اليها نظرتك إلى عشيقة او إلى انسانة اقيم معها اتصالاً عابراً دون ان تعنيني العواقب . فذلك الوعد بالزواج يتكون من شقين ، اولهما وعد بزواج مدني يتم بأسرع ما تسمح به الظروف ، اما الثاني فهو وعد بان يعين كل منا الآخر ، وان يحب كل منا الاخر كأننا متزوجان قبلاً ، وان نقتسم معاً كل ما لدينا .

— ولكنك سوف تنتظر قليلاً بالتأكيد ، قبل ان تعقد زواجاً مدنياً .

— نعم يا ثيو ، اذا طلبت ذلك مني . فعندئذ نؤجله حتى اكسب مائة وخمسين فرنكاً في الشهر من بيع اعمالي ، ولا تعود مساعدتك ضرورية . انني اعدك بان لا اتزوجها حتى يحرز رسمي تقدماً ييسر

لي سبيل الاستقلال . وسوف تبدأ انت بالتدريج ، ترسل لي مبلغاً يتناقص كل شهر مع ازدياد كسبي ، حتى أصبح في غنى عن نقودك في نهاية الامر . وبعد ذلك سنتحدث في موضوع الزواج المدني .

– يبدو ان ذلك عين العقل .

– ها هي قادمة يا ثيو . فحاول كرمى لخاطري ان لا تفكر فيها الا زوجة واما ! لان تلك هي حقيقتها فعلاً .

نزلت كريستين على الدرج في مؤخرة المرسم . وقد ارتدت ثوباً اسود مرتباً ، ومشطت شعرها بعناية إلى الخلف ، وكادت لمسة النضارة في وجهها ان تطمس آثار البثور . وغدت مليحة على نحو منزلي معين . لقد احاطها حب فنسنت بجو من الثقة والرفاه . فمدت يدها وصافحت ثيو بهدوء ، وسألته ان كان يود ان يشرب فنجان شاي ، واصرت ان يمكث لتناول العشاء . ثم جلست على كرسيها المريح بجوار النافذة ، تحيك وتهز المهد . وجعل فنسنت يذرع المرسم جيئة وذهاباً ، ويعرض على اخيه ، وهو منفعل ، رسوم شخصيات معمولة بالفحم ، ومناظر شوارع بالالوان المائية ، ودراسات على المجموعات مرسومة بقلم النجارين ، واراد لثيو ان يرى تقدمه في العمل .

كان ثيو واثقاً من ان فنسنت سيغدو رساماً عظيماً ذات يوم ، ولكنه لم يكن واثقاً تماماً من حبه الاشياء التي رسمها فسنت حتى ذلك الوقت . لقد كان ثيو هاوياً مميزاً، مدرباً تدريباً حسناً على فن الحكم ،الا انه لم يستطع ابداً ان يقطع برأي في عمل اخيه . وكان فنسنت بالنسبة اليه في حالة صيرورة ، لا في حالة وصول .

وقال بعد ان اراه فنسنت جميع دراساته وتحدث عن رغباته — اذا بدأت تحس بالحاجة إلى العمل بالزيت ، فلم لا تشرع ؟ وما الذي تنتظره ؟

— انتظر تأكيداً بأن رسمي أصبح جيداً بدرجة كافية . ان موف وتيرستيج يقولان انني لا اعرف ان ...

— وفايزنبروخ يقول انك تعرف . على انك الوحيد الذي يصلح حكماً نهائياً . فاذا شعرت انك في حاجة إلى التعبير عن نفسك بالوان اعمق في اللحظة الراهنة ، فمعنى ذلك ان الوقت قد حان ، فعليك بالوثوب .

— ولكن يا ثيو ، التكاليف ! فهذه الانابيب اللعينة تكلف مقدار وزنها ذهباً .

— وافني في فندقي غداً صباحاً في الساعة العاشرة . فكلما اسرعت في البدء بارسال لوحات زيتية الي ، كان ذلك ادعى إلى استردادي ما انفقته في هذا الاستثمار في وقت اقصر .

واثناء العشاء تحدث ثيو وكريستين بحيوية . وعندما انصرف ثيو التفت إلى فنسنت عند الدرج ، وقال بالفرنسية — انها ظريفة ، حقاً ظريفة . ولم تكن لدي فكرة .

في الصباح التالي سارا معاً صاعدين الواجنسترات ، وقد تجلى التناقض الغريب في مظهريهما . فالاخ الاصغر مصقول بعناية ، حذاوءه لامع ، وقميصه منشى ، وبدلته مكوية ، ورباط عنقه مرتب في وضعه ، وقبعته المستديرة السوداء مائلة بزاوية مرحة ، ولحيته

البنية الناعمة مشذبة جيداً ، وهو يسير بخطوة متوازنة راسخة ، اما الاخ الثاني ، فذو حذاء بال ، وبنطال مرقع لايناسب المعطف الضيق ، وقد خلا عنقه من اي رباط ، ووضع على اعلى رأسه طاقية غريبة الشكل ، وتشعثت لحيته في خصل حمراء ثائرة ، وهو يسير بخطوة مهزوزة غير ثابتة ،يحرك ذراعيه ويقوم بايماءات مضربة خلال حديثه.

ولم يكن الشقيقان واعيين لهذه الصورة التي يمثلانها .

اصطحب ثيو فنسنت إلى جوبيل لشراء انابيب الالوان والفرشايات واقمشة اللوحات . وكان تيرستيبج يحترم ثيو ويعجب به ، وكان بوده ان يحب فنسنت وان يفهمه . وعندما عرف الغرض من قدومهما اصر على ان يأتي لهما بنفسه بالمواد المطلوبة ،وان يبين لفنسنت مزايا الالوان المختلفة .

وتمشى ثيو وفنسنت مسافة الكيلومترات الستة عبر الكثبان حتى بلغا شيفننجن . وصادف في تلك اللحظة رسو مركب من مراكب الصيد الكبيرة على الشاطىء . وكان يجلس إلى جوار النصب التذكاري رجل عجوز يقبع في عريشة خشبية . وحالما ظهر المركب في الماء ، خرج الرجل يلوح بعلم كبير . ثم تبعه حشد من الاطفال ، وبعد دقائق قليلة جاء رجل على حصان عجوز ليحمل المرساة . وتبع هذه المجموعة عدد من الرجال والنساء الذين قدموا يتدفقون من القرية إلى تل الرمال للترحيب بالبحارة . فلما أصبح القارب على مسافة قريبة ، دخل الرجل على ظهر الحصان إلى الماء وعاد بالمرساة . ثم جيء بالصيادين على ظهور زملاء يرتدون احذية مطاطية عالية ، وكان يرافق وصول كل واحد منهم هتاف الترحيب . فلما وصلوا جميعاً

إلى الشاطىء وقامت الخيول بجر المراكب إلى الشاطىء ، سار الحشد كله عبرتلة الرمال نحو البيوت ، على شكل قافلة ، يقودها الرجل راكب الحصان الذي يعلوها كأنه الشبح المنتصب .

قال فنسنت — أريد ان اعالج برسومي مثل هذا المنظر .

— ارسل الي بعض اللوحات حالما تصبح راضياًعن عملك . فقد استطيع ان اجد مشترين لها في بارس .

— اوه يا ثيو . يجب ان تبدأ في تسويقي !

— ١٢ —

بدأ فنسنت بعد مغادرة ثيو يقوم بتجاربه مع الالوان . ورسم ثلاث دراسات زيتية ، الاولى عبارة عن صف من اشجار الصفصاف المقصوصة خلف قنطرة جيست ، والثانية ممر رمادي ، والثالثة هي بساتين الخضار في ميرديرفورت حيث يقوم رجل يرتدي ثوباً ازرق فضفاضاً بجمع البطاطس . كان البستان ذا تربة بيضاء ، وقد حفر جزء منه ، وما زال مغطى بصفوف من سويقات البطاطس الجافة ، تتخللها بعض الاعشاب الخضراء . وظهرت في البعيد اشجار خضراء داكنة ، وقليل من سطوح المنازل . وعندما نظر إلى عمله في المرسم احس بالاعتداد . وكان واثقاً من ان اي مشاهد للعمل لن يستطيع ان يكتشف انه انما كان محاولته الاولى . ذلك ان جميع العناصر ، بما فيها الرسم والتلوين الاساسي والهيكل الذي تستند عليه بقية التفاصيل كانت جميعها دقيقة قريبة إلى الحياة . وقد فوجيء إلى حد ما ، لانه كان يظن ان اعماله الاولى ستمنى بالفشل .

وانهمك في رسم ارض منحدرة في الغابة ، تغطيها اوراق اشجار الزان الجافة المتفسخة . وكانت الارض ذات لون بني محمر فاتح او داكن، تزداد فيها هذه الخصائص اللونية بفعل ظلال الاشجار التي تلقي فوقها حزماً من الضوء ، وقد تمحوها في بعض الاحيان بنسبة النصف . وكان شاغله ان يصور عمق اللون وما في الارض من صلابة وقوة هائلة . وادرك للمرة الاولى اثناء رسمه ، كم من الضوء ما زال مستقراً في تلك الظلمة . وكان عليه ان يحافظ على ذلك الضوء ، ويحافظ في الوقت ذاته على عمق اللون الغني .

كانت الارض بساطاً بنياً محمراً عميق اللون تحت وهج شمس خريفية في المساء ، تمتزج بالاشجار . وتبرز اغصان البتولا النامية هنا وهناك ، تتلقى الشعاع على احد جانبيها فتتألق خضرتها في تلك المواضع ، في حين تكون الجوانب الظليلة دافئة ذات لون اخضر مسود . ومن وراء الشجيرات ومن وراء التربة الحمراء الضاربة إلى البنية ، هناك سماء بالغة الرقة ، ذات لون رمادي مزرق دافىء لا يكاد يكون ازرق ، يغمرها الوهج في جميع انحائها . ويقابل هذه السماء حد اخضر ضبابي ، وشبكة من الاغصان الصغيرة والاوراق المصفرة . وكانت هناك بضعة اشكال لرجال يجمعون الحطب ، ويتجولون كأنهم كتل داكنة من الظلال الغامضة . وثمة امرأة منحنية لتقبض على غصن من الاغصان الجافة ، وهي ترتدي طاقية بيضاء ذات حافة تقابل لون الارض الحمراء البنية مقابلة فظة . وهناك ايضاً شبح ظلي داكن ، يمثل رجلاً يقف فوق الشجيرات الصغيرة تحت الشمس ، وقد ظهر شكله كبيراً حافلاً بالايحاءات الشعرية .

وقال فنسنت لنفسه وهو يرسم — يجب ان افرغ من العمل قبل ان يتسلل اليه شعور بالمساء الخريفي ، فيغدو شيئاً غامضاً وخطيراً . الا ان الضوء كان يخفت ، ويحتم عليه ان يعمل بسرعة . فقام برسم الاشخاص فوراً ، بواسطة ضربات قوية من فرشاة ثابتة العزيمة . ولكنه ذهل امام سيقان الاشجار الصغيرة ، وكيف تتجذر في الارض . وحاول ان يرسمها ، فوجد الارض شديدة الصلابة إلى درجة ان ضربة الفرشاة كانت تتلاشى فيها . وبذل محاولات يائسة ، مرة تلو مرة ، تحت وطأة الظلام الزاحف . ورأى في النهاية انه عجز ، فما من فرشاة امكنها ان تصور شيئاً من ذلك البني الطفلي الذي هو لون الارض . وما لبث ان قذف بالفرشاة بعيداً ، وقد حركه نوع من الحدس الاعمى ، واعتصر انابيب الالوان فوق اللوحة مباشرة ، ضاغطاً باللون لابراز الجذور والجذوع ، ثم تناول فرشاة اخرى ووزع اللون الزيتي بواسطة مقبض الفرشاة .

صاح قائلاً وقد خيم الليل على الغابة — نعم . ها هي الآن واقفة ، مرتفعة من الارض ، ومتجذرة في قلبها بثبات . وها قد قلت ما كنت اريد ان اقول .

في ذلك المساء جاء فايزنبروخ لزيارته وقال — تعال معي إلى البلشري ، حيث تعرض لوحات حية وتمثيليات تحزيرية .

الا ان فنسنت لم ينس زيارته الاخيرة ، فقال — لا شكراً ، لا اود ان اترك زوجتي وحدها .

واذا بفايزنبروخ يتجه نحو كريستين ، فيقبل يدها ، ويسألها

عن صحتها ، ويداعب الطفل مداعبة جذلة للغاية . وكان من الواضح انه لم يعد يذكر اي شيء عما سبق له ان تفوه به نحوهم .

وقال — ارني شيئاً من رسوماتك الجديدة يا فنسنت .

فاستجاب له فنسنت بسرور خالص . وتناول فايزنبروخ دراسة عن سوق الاثنين في لحظة فك المعضات بعد انتهاء اليوم ، ودراسة اخرى عن صف من الناس يقف امام مطبخ الحساء ، وثالثة عن ثلاثة رجال عجائز في مصحة الامراض العقلية ، واخرى عن مركب صيد في شيفننجن ، وقد رفع المرساة ، ودراسة خامسة رسمها فنسنت جاثياً على ركبتيه في وحل الكثبان اثناء عاصفة مطرية جامحة .

— هل هذه الرسومات للبيع ؟ إنني راغب في شرائها .

— أهي نكتة جديدة من نكاتك السخيفة يا فايزنبروخ ؟

— أنا لا أهزل في موضوع الرسم . ان هذه الرسوم ممتازة . فكم تريد ثمنها ؟

فقال فنسنت بلا مبالاة ،خائفاً من أن يتعرض للسخرية في أية لحظة

— حدد السعر الذي يناسبك .

— حسن جداً . ما قولك في خمسة فرنكات مقابل كل قطعة ، أي خمسة وعشرين فرنكاً للمجموعة .

فجحظت عينا فنسنت وقال — هذا كثير جداً ! إن عمي كور لم يدفع لي إلافرنكين ونصف الفرنك .

— لقد غشك يا بني . وجميع الوسطاء يغشونك . وسوف تباع هذه الرسوم ذات يوم بمبلغ خمسة آلاف فرنك . فماذا تقول ؟ هل اتفقنا ؟

ــ أنت يا فايزنبروخ في بعض الأحيان ملاك ، وفي أحيان أخرى شيطان !

ــ أتعمد ذلك لأحداث تنويع ، لئلا يمل مني أصدقائي .

وأخرج محفظته ، وأعطى فنسنت خمسة وعشرين فرنكاً ، وقال
ــ والآن تعال معي إلى البلشري فأنت في حاجة إلى شيء من الترويح .
سنشاهد تمثيلية فكاهية لتوني اوفرمانز . ومن المفيد لك أن تضحك.

وهكذا ذهب فنسنت . وكانت قاعة النادي مكتظة برجال كلهم يدخنون تبغاً رخيصاً قوياً . وكانت اللوحة الأولى لوحة حفرية لنيكولاوس مايس بعنوان « اصطبل بيت لحم » ، وهي جيدة جداً من ناحية الايقاع واللون ، ولكنها ضعيفة من حيث التعبير . أما اللوحة الثانية فكانت لوحة « اسحق يبارك يعقوب » لرمبرانت ، وتبدو ربيكا فيها رائعة وهي تنظر هل ستنجح حيلتها . وقد أصيب فنسنت بالصداع بسبب سوء التهوية ، فانصرف قبل التمثيلية الفكاهية ، عائداً إلى المنزل ، وفي الطريق انصرف ذهنه إلى انشاء رسالة أثناء السير .

تحدث إلى والده عن قصة كريستين بالقدر الذي رآه ملائماً . وأودع الرسالة مبلغ الخمسة وعشرين فرنكاً التي قبضها ما فايزنبروخ ، ودعا ثيودوروس للقدوم إلى الهاج ضيفاً عليه .

ووصل والده بعد اسبوع . وكانت زرقة عينيه قد بهتت ، وأصبحت خطوته أبطأ . ان المرة الأخيرة التي كانا فيها معاً ،شهدت قيام ثيودوروس بطرد ولده الأكبر من البيت . على أنهما تبادلا فيما بعد رسائل ودية . وقد أرسل ثيودوروس وأنا كورنيليا عدة طرود من الاردية الداخلية ،

والملابس الخارجية والسيجار والكعك المصنوع في المنزل وأوراقاً نقدية من فئة العشرة فرنكات بين الحين والآخر . ولم يدر فنسنت كيف سيكون موقف والده من كريستين . فالرجال يتصفون في بعض الأحيان بالتفهم والاريحية ، وفي أحيان أخرى بالعدى والشر .

غير أنه تخيل أن والده لا يمكن أن يظل لا مبالياً ، أو أن يجعل همه اثارة الاعتراضات حينما يكون في مواجهة مهد طفل . فالمهد لايشبه أي شيء آخر ، ولا سبيل للتعامل معه بضيق صدر . ولابد أن يغفر والده كل شيء في ماضي كريستين .

حمل ثيودوروس تحت ذراعه طردا كبيرا ، فتحه فنسنت ، وإذا في داخله معطف دافيء لكريستين . فعرف فنسنت أن الأمور على مايرام. وانتظر ثيودوروس حتى صعدت كريستين إلى غرفة النوم في السقيفة، وجلس ثيودوروس وفنسنت معاً في المرسم .

وقال والده ــ فنسنت ، ثمة أمر واحد لم تذكره في رسالتك ، هل الوليد ابنك ؟

ــ لا ، وإنما كانت حاملاً به حين لقيتها .

ــ وأين والده ؟

ــ هجرها واكتفى بهذا الجواب ، ولم ير ضرورة ليشرح وضع الطفل .

ــ لكنك ستتزوج بها يا فنسنت . أليس كذلك ؟ فليس من الصواب أن تعيش على هذا النحو .

ــ إنني أتفق معك . وأريد أن أقوم بالاحتفال القانوني في أسرع وقت

ممكن . ولكنني وثيو رأينا من الأفضل أن أنتظر حتى أكسب مائة وخمسين فرنكاً في الشهر من عائدات رسمي .

تنهد ثيودوروس وقال — نعم . لعل ذلك أفضل حل يا فنسنت . إن والدتك تريدك أن تأتي لزيارتنا ذات حين ، وكذلك أنا ، وسوف تعجبك نيونن يا ولدي . فهي من ألطف القرى في البارابانت . وكنيستها الصغيرة ضئيلة الحجم أشبه بكوخ من أكواخ الاسكيمو . وهي لا تتسع إلا لأقل من مائة مصل ، فتخيل ! وهناك سور من الزعرور البري حول البيت الملحق بها يا فنسنت ، ويوجد خلف الكنيسة ساحة مقبرة مليئة بالزهور والأكوام الرملية والصلبان الخشبية القديمة .

قال فنسنت — صلبان خشبية ! أهي بيضاء اللون ؟

— نعم . وقد كتبت أسماء الموتى بالأسود ، ولكن المطر يزيل الكتابة عنها .

— وهل للكنيسة برج طويل ظريف يا أبتي ؟

— برج لطيف رقيق البناء ، ولكنه يرتفع عالياً عالياً إلى عنان السماء ، حتى يخيل لي أحياناً أنه يكاد يصل إلى الرب .

قال فنسنت وقد برقت عيناه — أظنه يلقي ظلاً ناحلاً فوق المقبرة . بودي أن أرسم ذلك .

— وثمة حزام من الخلنج وغابات الصنوبر في الجوار ، وفلاحون يعزقون في الحقول . يجب أن تأتي لزيارتنا في القريب العاجل يا بني .

— نعم . يجب أن أرى نيونن ، والصلبان الصغيرة والبرج وعمال العزق في الحقل . أعتقد أنني سأظل منطوياً على شيء من البرابانت في داخلي .

عاد ثيودوروس إلى منزله ، وأكد لزوجته أن أمور ولدهما لم تكن سيئة إلى الدرجة التي توهماها . وأقبل فنسنت على عمله بحماسة أعظم . وكثيراً ما استذكر قول ميليه « ان الفن معركة . ولابد في الفن من ان يودع المرء زبدة نفسه » . وكان يحس بالرضا ، فان ثيو يؤمن به ، ووالده ووالدته لم يعارضا ارتباطه بكريستين ، ولم يعد أي انسان في لاهاي يضايقه .

ولذا فهو مطلق الطرية في مواصله عمله كما يشتهي .

ودأب مالك ساحة المهملات على أن يرسل اليه جميع الرجال الذين جاؤوا بحثاً عن العمل ولم يوفقوا في الحصول عليه ، ليقوموا بعمل النموذج البشري أمام فنسنت . وهكذا راحت أضابيره تمتلىء بالصور ، وجيوبه تفرغ من الملل . كما قام برسم الطفل في مهده قرب الموقد مرات عديدة . وعندما بدأت أمطار الخريف تسقط ، ذهب للعمل في الخارج يرسم على الكتان الزيتي ، ووفق في التقاط الانطباعات التي ارادها . وتعلم على جناح السرعة ان من يرسم الألوان ما يلبث حين يرى اللون في الطبيعة أن يقوم بتحليله فوراً ، فيقول – ان ذلك الرمادي الأخضر يتكون من الأصفر والأسود ، ولا يكاد يتحمل القليل من الأزرق .

لقد أراد في رسوماته ، سواء كان موضوعها الأجساد أو المناظر الطبيعية ، أن يعبر عن الأسى العميق لا عن الحزن العاطفي . وأراد أن يبلغ شأوا بعيدا ، حتى يقول الناس عن عمله – انه يحس الأشياء بعمق ، ويحسها برقة .

وكان يعلم انه في نظر الناس انسان غريب الأطوار لا يصلح لشيء ، ورجل غير مستساغ ، وليس له مركز في الحياة . وأراد أن يبين في عمله ما الذي ينطوي عليه قلب مثل هذا الرجل الشاذ وهذا الانسان النكرة.

لقد كان يجد في أقفر الأكواخ وأقذر الزوايا مادة للرسوم والصور . وكلما ازداد رسماً تضاءلت أهمية بقية النشاطات . وكلما تخلص منها أسرعت عيناه إلى الوقوف عند الخصائص ذات العلاقة بالصورة في الحياة. والفن يتطلب عملاً دائباً وجهداً على الرغم من جميع المعوقات ، كما يتطلب ملاحظة مستمرة .

أما الصعوبة الوحيدة التي أبهظت كاهله فهي الكلفة المخيفة لألوان الزيت . علماً بأنه كان يضع بكثافة . وكان وهو يعتصر من الانبوب ليضعه على اللوحة في كتل عميقة غنية ، أشبه برجل يصب فرنكاته ، وكان يرسم كثيراً وسريعاً فتجيء فاتورة حساب لوحاته هائلة . فهويرسم في جلسة واحدة لوحة زيتية قد تستغرق موف مدة شهرين . ولكن ذلك شيء لا محيص عنه ، لأن شأنه أن لا يستطيع رسماً خفيفاً ، ولا يعمل عملاً بطيئاً . وهكذا تبخرت نقوده واكتظ مرسمه بالصور . وكلما أرسل إليه ثيو شيئاً من الراتب — الذي وضع ثيو ترتيبه بحيث تصل دفعة من خمسين فرنكاً في الأول من الشهر ، ومثلها في العاشر ، والدفعة الثالثة في العشرين — هرع فنسنت إلى التاجر ، واشترى أنابيب كبيرة من ألوان المعرة الصفراء ، والأزرق الكوبالتي المخضر ،والأزرقالبروسي الداكن ، وأنابيب أصغر حجماً بينها الأصفر النابولي ، والتراني ، واللازوردي والأصفر الفاقع . ثم إنه يظل يعمل سعيداً حتى يستنفد الألوان والنقود في خلال خمسة أو ستة أيام من وصول المال من باريس ، ثم تبدأ متاعبه من جديد .

وقد أدهشه مبلغ ما يحتاجه الطفل من أشياء ، وان كريستين يجب أن تتناول أدوية ثابته ، وتحصل على ملابس جديدة ، وتأكل أطعمةخاصة

وان هيرمان في حاجة اشراء كتب وقرطاسية للمدرسة التي أرسلوه اليها ، وان شؤون المنزل كانت أشبه بحفرة غير ذات قاع ، يصب فيها بصورة لا تنقطع حاجيات من قبيل المصابيح الكهربية وأواني المطبخ وأغطية الأسرة والفحم والخشب والستائر والبسط والقناديل والملاءات والفضيات والصحون والاثاث ، وسيل لا نهاية له من الأطعمة . وأصبح عسيراً عليه أن يعرف كيف يقسم الخمسين فرنكاً بين رسوماته وبين الافراد الثلاثة الذين يعولهم .

قالت له كريستين مرة ، وهو يخطف الخمسين فرنكاً من مغلف ثيو ، ويبدأ في جمع أنابيب الألوان الفارغة — شكلك يشبه عاملاً لا يكاد يستلم أجره حتى يهرع إلى الخمارة .

وقدصنع أداة للمنظور لها ساقان طويلتان ، تنغرسان في رمل الكثبان وأوصى الحداد بعمل الزوايا الحديدية الخاصة بالاطار . وكانت شيفننجن ببحرها وكثبان رمالها وصياديها ومراكبها وخيولها وشباكها ، أشد الأماكن اغراء له . فكان يخوض في الكثبان كل يوم ، يثقل كاهله الحامل الثقيل وأداة المنظور ، لكي يلتقط الطبيعة المتغيرة في البحر والسماء ويسجلها بالرسم . وعندما توغل الخريف ، وبدأ الفنانون الآخرون يشعلون المدافىء في مراسمهم ، ظل فنسنت يخرج ليرسم الريح والمطر والضباب والعاصفة . وكانت رسومه التي تغدو مبللة في أردأ أحوال الطقس تمتلىء غالباً بالرمال العاصفة والماء المالح . وكان المطر ينقعه ، والضباب والريح يجمده ، والرمل يحشو عينيه وأنفه . . . وهو سادر في حبها إلى آخر دقيقة من دقائقها . وما من شيء كان قادراً على وقفه الآن إلا الموت .

وذات ليلة أطلع كريستين على لوحة جديدة له فصاحت — ولكن كيف استطعت يا فنسنت أن تجعلها تبدو حقيقية إلى هذا الحد ؟

ونسي فنسنت أنه كان يتحدث إلى امرأة أمية من العامة ، فخاطبها كأنه يخاطب فايزنبروخ أو موف .

قال — ذلك مالا أدريه انا نفسي . انني أجلس وأمامي اللوحة البيضاء ، انظر إلى المشهد الذي يهزني ، ثم أقول — هذه اللوحة البيضاء ينبغي أن تصبح شيئاً ما ! وأروح أعمل وقتاً طويلاً ، وأعود إلى البيت غير قانع ، فأضعها في الخزانة . وعندما أحصل على قليل من الراحة اذهب لأنظر إليها في شيء من الخوف . وأظل غير قانع بها لأنني ما زلت أحتفظ في ذهني بالمنظر الأصلي الرائع واضحاً كل الوضوح ، وشتان بينه وبين ما نقلته منه . ولكنني في نهاية الأمر أجد في عملي صدى لما هزني في الطبيعة . واكتشف ان الطبيعة قد أفضت إلي بشيء ، وتكلمت معي واني دونت ذلك بطريقة الاختزال . وقد يكون في اختزالي كلمات لا تبين ، وقد يكون فيه أخطاء أو فجوات ، ولكن فيه شيئاً مما قالته لي الغابات أو الشاطىء أو الشخصيات التي أرسمها . هل تفهمينني ؟

— لا .

— ١٣ —

لم تكن كريستين تفهم عن عمله الا قليلاً جدا . وظنت ان تعطشه إلى رسم الاشياء كان نوعاً من النزوة المكلفة . على انها كانت تعلم ان الرسم هو الصخرة التي قامت حياته عليها ، ولم تحاول ابدا ان تثنيه عنها ، اما فيما يتصل بالغاية وبالتقدم البطيء وبالتعبير الاليم في عمله ،

فكانت كلها امورا غائبة عنها . كانت كريستين رفيقاً جيداً في الحياة المنزلية العادية ، ولكن هذا الجانب من حياة فنسنت كان ضئيلاً للغاية . اما اذا اراد التعبير عن نفسه بالكلمات ، فيضطر للكتابة إلى ثيو . وكان يتدفق كل ليلة تقريباً برسالة عاطفية طويلة اليه يتحدث فيها عن كل ما رآه وكل ما رسمه وفكر فيه خلال نهاره . فاذا اراد ان يستمتع بما يعبر عنه الاخرون ، اتجه إلى الروايات : الفرنسية ، والانجليزية ، والالمانية ، والهولندية . فلم تكن كريستين تشاركه الا جزءاً من حياته . ومع ذلك كان قانعاً ، ولم يأسف على قراره بالزواج منها ، ولم يحاول ان يقسرها على الارتقاء إلى المستوى الثقافي الذي كان واضحاً انها غير مؤهلة له .

سارت الأمور سيراً طيباً طوال شهور الصيف والخريف وبداية الشتاء ، إذ كان يغادر البيت في الساعة الخامسة أو السادسة صباحاً ، ويظل في الخارج حتى تغيب آخر أضواء النهار ، فيعود عبر الكثبان مجهداً في الغسق البارد . إلا أن الحفاظ على صلة مرضية بينهما بات أصعب كثيراً حينما هبت عاصفة ثلجية مخيفة في الذكرى الأولى للقائهما في الخمارة الواقعة مقابل محطة راين ، واضطر فنسنت إلى العمل في المنزل من الصباح حتى المساء .

لقد عاد إلى الرسم ، ووفر المال لشراء الألوان ، إلا أن النماذج البشرية التي كان يستأجرها أكلت نصيب المنزل . ومن العجب أن الناس الذين كانوا يفرحون بأجر تافه لقاء عملهم في أشق الأعمال ، كانوا يطلبون منه مبلغاً كبيراً لقاء مثولهم وجلوسهم أمامه ليرسمهم . وقد تقدم بطلب اذن للرسم في مصحة الأمراض العقلية ، ولكن السلطات أعلنت

أن هذا الأمر لا سابقة له ، وأنهم فضلاً عن ذلك يقومون بمد بلاط جديد في المصحة، ولذا فليس أمامه إذا رغب في الرسم هناك إلا أيام الزيارة.

وتعلق أمله الوحيد بكريستين . وانتظر منها المثول أمامه للرسم حالما تشفى وتسترد عافيتها ، وان تبذل من الجهد مثل ما كانت تبذل قبل ولادة الطفل . إلا أن كريستين كانت لها أفكار أخرى . ففي البداية كانت تقول — لست قوية بما فيه الكفاية بعد ، انتظر قليلاً . انك لست في عجلة أبداً. فلما تعافت تماماً ، صارت ترى نفسها مشغولة للغاية .

فتقول له — لم يعد الأمر كما كان يا فنسنت . اذ علي أن اعتني . بالطفل ، وان اعمل لنظافة البيت بكامله ، وان أطبخ لأربعة أشخاص.

ويستيقظ فنسنت في الخامسة صباحاً للقيام بأعمال المنزل ، حتى لا تشغلها عن المثول له خلال النهار . فاذا بها تحتج بقولها — لم أعد موديلاً الآن . إنني زوجتك .

— سين ، يجب عليك المثول ! فلا قدرة لي على استئجار النماذج في كل يوم . وهذا سبب من أسباب وجودك هنا .

فاذا بلغ هذا القول ، انفجرت في نوبة جامحة من نوبات المزاجية ، التي كانت مألوفة أيام بداية لقائها بفنسنت — انت لم تأخذني إلا لهذا السبب ! كي توفر المال على ظهري ! وأنا بالنسبة اليك خادمة لعينة ! فاذا امتنعت عن المثول قذفت بي إلى الخارج ثانية !

وفكر فنسنت لحظة ، ثم قال — لقد سمعت هذه الأشياء كلها في بيت أمك . ولم تأت بها من عندك .

– طيب ، وماذا في ذلك ؟ إنها أشياء صحيحة . أم هي غير ذلك ؟

– سين ، يجب أن تتوقفي عن الذهاب إلى هناك .

– لماذا ؟ ألا أحب أمي ؟ أم تراني لا أحبها ؟

– ولكنهم يفسدون الأمور فيما بيني وبينك وأول الأشياء التي تعرفينها هي أنهم سيعودون بك إلى طريقتهم في التفكير .وعندئذ أين يصبح زواجنا ؟

– ألست أنت من يقول لي أن أذهب إلى هناك عندما لا يتوفر طعام في البيت ؟ أكسب مزيداً من المال ، فلا أذهب اليهم .

وعندما حملها أخيراً على المثول أمامه للرسم ، لم تكن ذات جدوى. إذ راحت ترتكب جميع الأخطاء التي جهد في استئصالها في العام الماضي . وراوده الشك أحياناً في أنها كانت تتذبذب وتقوم بحركات سيئة عن قصد ، حتى يمل منها ولا يشغلها بالمثول أمامه ثانية . وازداد انفاقه على النماذج التي استأجرها من الخارج . ورافق ذلك ازدياد عدد الأيام التي خلا بيتهم فيها من الطعام ، وازدياد الأوقات التي غدت كريستين مضطرة لقضائها في بيت أمها . وكلما عادت مرة من هناك لاحظ في هيئتها وفي موقعها تغيراً طفيفاً . وهكذا وقع في دائرة مفرغة . فاذا هو استخدم نقوده كلها للمعيشة ابتعدت كريستين عن تأثير أمها ، واستطاع أن يحافظ على علاقتهما واستوائها التام ، ولكنه ان فعل ذلك انقطع عن عمله . فهل انقذ حياتها من أجل ان يقتل نفسه ؟ وإذا هي لم تذهب إلى بيت أمها عدة مرات في الشهر ، فسوف تتضور ويتضور أولادها جوعاً . أما إذا ذهبت فسوف يؤدي ذلك إلى أن تدمر بيتهما . فماذا يفعل اذن ؟

حينما كانت كريستين مريضة مثقلة بالجنين الذي تحمله ، وحينما كانت كريستين في المستشفى ، وحينما كانت كريستين في نقاهة الولادة ، كانت شخصية معينة ، امرأة منبوذة ، يائسة ، على حافة موت بائس ، شديدة الامتنان لكلمة عطف واحدة أو لبادرة عون . امرأة تحمل كل ما في العالم من ألم ، وهي مستعدة لفعل أي شيء من أجل أن توقف ذلك الألم لحظة واحدة ، ومستعدة لأن تأخذ على نفسها جميع أنواع العهود الحماسية البطولية أمام ذاتها الخاصة وأمام الحياة . أما حينما غدت كريستين في صحة جيدة ، وجرى في جسدها وفي وجهها ماء العافية ، بفضل الطعام المغذي والدواء والرعاية ، فقد باتت صنفاً آخر من النساء. فتلك ذكريات الألم تتراجع ، والعهود المقطوعة بأن تصبح زوجة وأماً صالحة تضعف ، والأفكار والعادات التي صاحبتها في بواكير حياتها تعاودها الآن شيئاً فشيئاً . لقد عاشت منفلتة طيلة أربعة عشر عاماً ، تسرح فوق أرصفة الشوارع ، وسط الشراب ولفافات السيجار الأسود واللغة السوقية والرجال غير المهذبين ، وحين استرد جسدها عافيته الآن رجحت كفة أعوام الوخم الأربع عشرة على عام الرعاية والحب الرقيق . وهكذا بدأ يهيمن عليها التغير الداخلي الذي يجيش فيها . ولم يستطع فنسنت ان يفهمه في بادىء الأمر . ثم أنه أخذ يعي بالتدرج ما كان يجري .

وفي ذلك الوقت تقريباً ، أي في بداية العام الجديد ، استلم رسالة غريبة من ثيو ، فحواها ان أخاه التقى في شوارع باريس بامرأة وحيدة مريضة يائسة ، كانت تشكو من علة في قدمها ولا تقدر على العمل . وكانت تفكر في قتل نفسها . ولما كان فنسنت قد ضرب المثل لثيو ، فان التلميذ سار على خطى معلمه . فوجد لها مأوى في منزل بعض الأصدقاء

القدامى ، وأتى لها بطبيب ، وأجرى لها الفحوص اللازمة . وقام بتسديد جميع نفقات معيشتها . وقد دعاها في رسالته بلقب « مريضته » .

— هل ينبغي أن أتزوج مريضتي يا فنسنت ؟ وهل هذه هي الطريقة الفضلى لخدمتها ؟ هل أجري زواجاً وفق الطقوس الرسمية ؟ إنها تعاني عناء شديداً ، وهي تحس بالتعاسة ، وقد هجرها الانسان الوحيد الذي أحبته . فماذا أفعل كي أنقذ حياتها ؟

تأثر فنسنت تأثراً عميقاً ، وكتب إلى أخيه مبدياً تعاطفه . ولكن حالة كريستين كانت تتفاقم يوماً بعد يوم . فاذا خلا البيت مما عدا الخبز والقهوة راحت تتذمر ، وتلح عليه ان يتوقف عن استئجار النماذج وان ينفق على البيت . واذا لم تستطع الحصول على ثوب جديد اهملت القديم وتركت الطعام والوسخ يتساقطان عليه . ثم إنها امتنعت عن رفو ثيابه وملابسه الداخلية . ووقعت ثانية تحت سيطرة أمها التي أقنعتها ان فنسنت سيقدم اما على الفرار بنفسه أو على طردها . وتساءل فنسنت : ترى ما جدوى الاهتمام الصميمي بعلاقة مؤقته مع انسانة يستحيل ان تقام معها علاقة دائمة ؟

هل يستطيع أن ينصح ثيو بالزواج من مريضته ؟ وهل الزواج النظامي هو الطريقة المثلى لانقاذ هاته النسوة ؟ أم ان الشيء الأهم هو سقف يظلهن وطعام بيتي يحسن صحتهن وحنان يعيد اليهن حب الحياة ؟

كتب إلى أخيه يقول — انتظر ! افعل من أجلها كل ما في وسعك ، قضية نبيلة . ولكن حفل الزواج لن يجديك نفعاً . واذا نما حب وترعرع بينكما ، فسوف ينمو الزواج تبعاً لذلك . ولكن تدبر اولا ، هل تستطيع انقاذها .

كان ثيو يرسل خمسين فرنكاً ، ثلاث مرات في الشهر . لكن لما كانت كريستين قد ازدادت اهمالاً في تدبير المنزل ، فان النقود لم تعد لتصمد كما في السابق . وأصبح فنسنت حريصاً على استئجار النماذج ليجمع دراسات كافية استعداداً لبعض اللوحات الحقيقية . وصار يأسف لكل فرنك يقتطعه من الرسم ويلقي به في المنزل . أما هي فكانت تضن بكل فرنك يقتطعه من المنزل ويلقي به في الرسم . وهكذا نشب بينهما صراع من أجل حياتيهما . وكان مبلغ المائة وخمسين فرنكاً في الشهر ، يكفيه بالكاد لطعامه وسكنه والمواد المطلوبه لرسمه، أما محاولة جعل هذا المبلغ يسد حاجة أربعة أشخاص ، فقد تكون محاولة بطولية ، ولكنها مستحيلة على كل حال . ومالبث أن صار مديناً للمالك ولبائع الأحذية وللبقال وللخباز ولبائع الألوان . ثم وقع اعسار ثيو ، فتجاوزت المحنة كل حد .

وراح فنسنت يكتب رسائل طافحة بالتوسل . إذا استطعت من فضلك أن ترسل المبلغ قبل حلول العشرين من الشهر ، او أن لا يتأخر على الأقل عن موعده . ذلك انه لم يبق عندي في البيت إلا طبقان من الورق وعقباً واحداً أخيراً من القلم . وليس معي فرنك واحد أو دفعة للنماذج أو لشراء الطعام . وكان يكتب مثل هذه الرسالة ثلاث مرات في الشهر ، فاذا وصل مبلغ الخمسين فرنكاً ، وزعه فوراً على الدائنين ولم يبق معه ما يعتاش به خلال الأيام العشرة التالية .

وفي باريس ، تقرر إجراء عملية ! « المريضة » لاستئصال ورم في قدمها ، وأدخلها ثيو مستشفى جيداً ، وكان — في الوقت ذاته — يرسل مدداً مالياً إلى البيت في نيونن ، لأن رعية الأبرشية الجديدة كانت ضئيلة

العدد ، وكان دخل ثيودوروس دوماً غير كاف لمواجهة حاجات الأسرة. وهكذا كان ثيو يعول نفسه ومريضته وفنسنت وكريستين وهرمان وانطون وكذلك الأسرة في نيونن . فكان مستنزفاً حتى آخر سنتيم من راتبه ،وليس في وسعه أن يبعث إلى فنسنت بأي فرنك اضافي .

وأخيراً ، حدث في أوائل آذار مارس ان كان مع فنسنت فرنك واحد لا غير ، وهو ورقة ممزقة رفض أحد التجار ان يتقاضاها . ولم يكن في البيت لقمة واحدة . وكان لابد من مرور تسعة أيام على الأقل حتى يبعث ثيو مبلغاً جديداً . وكان فنسنت خائفاً إلى أبعد حد من مغبة وضع كريستين تحت يدي أمها طوال ذلك الوقت .

فقال — سين ، نحن لا نستطيع أن نجوع الأطفال ، فمن الأفضل أن تأخذيهم إلى بيت أمك حتى تصلنا رسالة ثيو.

نظر كل منهما إلى الآخر للحظة ، وقد دارت في ذهنيهما الأفكار ذاتها ، دون أن يؤتيا الشجاعة للافضاء بها .

وقالت — نعم ، أظن أنني يجب أن أفعل .

وأعطاه البقال في مقابل ورقة النقد الممزقة رغيف خبز السود مع بعض القهوة . وبات يأتي بالنماذج إلى البيت ، ويدين لهم بأجورهم . وازدادت أعصابه توتراً . وأصيب عمله بالجفاف والصعوبة ، فقد كان جسده يتضور جوعاً ، وصارت أزماته المالية المستديمة ظاهرة عليه . ولم يكن في مقدوره أن يبقى بلا عمل ، ومع ذلك كانت كل ساعة من ساعات العمل تبرهن له أنه يفقد الأرض تحت أقدامه .

ثم وصلته رسالة ثيو متضمنة الخمسين فرنكاً ، وذلك في نهاية

الايام التسعة ، وفي اليوم الثلاثين على وجه التحديد . لقد شفيت مريضته من العملية ، وقد نقلها إلى منزل خاص . وظهر الاجهاد المالي في عبارات رسالته ، وأصبح في حالة من القنوط . وكتب قائلاً — أخشى ان اكون غير قادر على التعهد لك بأي شيء في المستقبل .

هذه الجملة كادت ان تخرج فنسنت عن عقله . هل قصد ثيو ببساطة انه لن يكون قادراً على ارسال مزيد من المال؟ فاذا كان الامر كذلك ، فليس فيه بأس شديد . ولكن هل كان معناه ان ثيو قد توصل إلى استنتاج مفاده ان لا خير في جميع تلك الرسوم التي كان فنسنت دائباً على ارسالها كل يوم تقريباً ، والتي اراد من ورائها ان يوضح لاخيه مدى تقدمه في العمل ؟ وهل حكم اخوه ان فنسنت خلو من الموهبة ، ولا امل يرجى منه في المستقبل ؟

استلقى على فراشه في الليل دون ان ينام . وكتب إلى ثيو رسائل متواصلة يتوسل اليه فيها ان يوضح الموقف . كما راح يفكر ويخمن جاهداً ، في طريقة يمكنه بها ان يكسب عيشه . فلم يتوصل إلى شيء .

— ١٤ —

عندما ذهب إلى كريستين وجدها في صحبة امها واخيها وعشيقة اخيها ورجل غريب . وكانت تدخن سيجارا اسود ، وتشرب الجن . ولم يبد عليها السرور قط لفكرة العودة إلى الشنكويغ .

لقد اعادت اليها الايام التسعة التي قضتها في بيت امها عاداتها القديمة ، واسلوبها المدمر في الحياة .

وصاحت – عندما اريد تدخين السيجار ، فهذا شأني ، ولا حق لك في منعي اذا انا حصلت على السيجار بنفسي . والدكتور في المستشفى قال انني استطيع ان اشرب ما اريد من الجن والبترز .

– تشربينه دواء .. لزيادة شهيتك .

فاطلقت ضحكة خشنة – دواء ! يا لك من – ! ونطقت بعبارة لم تستخدمها منذ الايام الاولى في علاقتهما .

اصابته حالة من الحساسية المرهقة ، واندفع في نوبات غضب خرجت عن سيطرته ، وصنعت كريستين كما صنع ، وصاحت تقول – لم تعد تعتني بي بل انك لا تعطيني ما اقتات به . لماذا لا تكسب مزيداً من المال ؟ اي صنف انت من الرجال بحق الجحيم ؟

عندما انزلق الشتاء القاسي مخلفاً ربيعاً ضنيناً ، تفاقمت حالة فنسنت من سيء إلى أسوأ ، فقد ازدادت ديونه ، وعاد عليه الطعام الرديء الذي يحشو به معدته بعواقب سيئة ، فلم يعد قادراً على وضع لقمة في فمه ، ثم انتقلت اوجاع معدته إلى اسنانه . وصار يستلقي ساهراً مع الالم . وامتد صداع الاسنان إلى اذنه اليمنى ، واشتد عليه باضطراد طوال النهار .

وبدأت ام كريستين تأتي إلى البيت فتدخن وتشرب مع ابنتها . ولم تعد ترى ان كريستين محظوظة بزواجها. وجاء فنسنت إلى البيت ذات مرة فوجد اخاها هناك ، الا انه راح خارجاً من الباب حالما دخل فنسنت .

وسألها فنسنت – لماذا جاء إلى هنا ؟ وماذا يريد منك ؟

– هم يقولون انك سوف تطردني .

– انت تعرفين انني لا افعل ذلك يا سين ، مادمت راغبة في البقاء .

– امي تريد ان افارق . وهي تقول انه ليس من الخير ان ابقى هنا بلا طعام .

– وإلى اين ذهابك ؟

– إلى البيت طبعاً .

– وتأخذين الاطفال إلى ذلك البيت ؟

– ذلك افضل من مقاساة الجوع هنا . انني استطيع ان اعمل وان اكسب عيشي .

– وما العمل الذي ستمارسينه ؟

– .. عمل ما

– غسالة في محلات الغسيل ؟

– ... اظن ذلك .

وأدرك على الفور انها تكذب .

– هذا اذن ما يحاولون اقناعك ان تفعليه .

– حسناً ... انه ليس بالامر الرديء .. فالمرء يكسب عيشه .

– اصغي الي يا سين . اذا ذهبت إلى ذلك البيت فسوف تضيعين . انك تعرفين ان امك سوف ترسلك إلى الشوارع ثانية . فتذكري ما

قاله لك الطبيب في ليدن . انك اذا عدت إلى تلك الحياة كان في ذلك مقتلك !

– لن يقتلني ذلك . واشعر انني على ما يرام الان .

– انت تشعرين أنك على ما يرام لانك تعيشين باعتدال ، اما اذا عدت ... !

– يا يسوع المسيح ، من ذا الذي يريد العودة ؟ الا اذا ارسلتني انت .

جلس على ذراع كرسيها القش ووضع يده حول كتفها . وكان شعرها منكوشاً – اذن صدقيني يا سين انني لن اهجرك ، وسوف ابقيك معي مادمت راغبة في مشاركتي ما لدي . ولكنك يجب ان تظلي بعيدة عن امك واخيك ، لانهما ينويان تدميرك ! عديني من أجل صالحك ان لا تذهبي اليهما ثانية .

– اعدك .

لكنه كان عائداً بعد يومين اثنين من حيث كان يرسم في ملجأ الفقراء ، فالفى الدار مهجورة . وليس فيها ما يدل على اعداد عشاء . ثم انه وجد كريستين في منزل امها تشرب .

وعندما عادا إلى البيت قالت محتجة – قلت لك انني احب امي . واظن انني استطيع ان اراها كلما اردت . انك لا تملكني . وان لي الحق في ان افعل ما يحلو لي .

وهكذا سقطت في حمأة العادات القذرة المألوفة في حياتها السابقة . وكلما حاول فنسنت ان يقومها وان يوضح لها انها صارت تغترب

عنه ، كانت تجيب ــ نعم ، انني اعرف نواياك جيداً . انت لا تريدني ان ابقى معك . واراها كم أصبح البيت قذراً ومهملاً . فقالت ــ طيب . انا كسولة لا اصلح لشيء ، وذلك حالي دائماً ، ولا سبيل إلى تعديله . وعندما ابان لها النهاية المحتومة التي يقودها اليها كسلها ، ردت عليه قائلة ــ ما انا الا متشردة . هذا صحيح . وسوف ينتهي أمري بالقاء نفسي في النهر !

وأصبحت الأم تجيء إلى المرسم كل يوم تقريباً ، فاستأثرت لنفسها بالرفقة التي كان فنسنت يقدرها في كريستين . وأصحى البيت في حالة تشوش كامل ، ولم تعد تقدم في البيت إلا الوجبات الجاهزة . وترك حبل هيرمان على غاربه يسرح بملابس مهلهلة قذرة ، ويتغيب عن المدرسة ، وكلما قل العمل الذي تقوم به كريستين ازدادت اقبالاً على التدخين وشرب الجن . وقد امتنعت عن أخبار فنسنت كيف تحصل على المال لشراء هذه الأشياء .

حل الصيف ، وصار فنسنت يخرج من البيت ليرسم ثانية . وهذا معناه نفقات جديدة من أجل الألوان والفرشايات وقماش اللوحات والأطر والحاملات الأكبر حجماً . وقد أفاد تيو ان أحوال مريضته تحسنت ، إلا أن ثمة مشكلات عويصة في علاقته معها . فما الذي سيفعله بها بعد أن تحسنت صحتها ؟

أغلق فنسنت عينيه عن كل شيء في حياته الشخصية ، واستمر في الرسم . وكان يعلم أن بيته يتحطم على مسمع منه ، وانه وقع في هوة الكسل السحيق الذي استولى على كريستين . وحاول ان يدفن يأسه في العمل .

وكان يأمل في كل صباح ، عندما يبادر إلى مشروع جديد ، ان تبلغ هذه اللوحة من الجمال والاتقان ما يجعلها تباع على الفور وتعلي من شأنه في الوسط الفني . ولكنه يعود في كل مساء مثقلاً بادراك حزين أنه ما زال بعيداً عن مرتبة الفنان المجيد التي كان يتوق اليها، ولابد من سنوات وسنوات حتى يبلغ تلك المرتبة .

وكان الطفل انطون هو عزاؤه الوحيد . فهو اعجوبة في حيويته ، يلتهم جميع المآكل وهو يضحك ويناغي . وكثيراً ما جلس مع فنسنت في المرسم وانتحى ركناً على الأرض . وقد يصيح وهو يرى رسوم فنسنت. ثم يجلس في هدوء، ينظر إلى الرسوم على الجدران . وكان يبشر بأن يغدو طفلاً عذباً مفعماً بالحيوية . وكلما أهملت كريستين أمر العناية بالطفل ازداد فنسنت حباً له . فقد رأى في انطون المغزى والمكافأة الحقيقية لصنيعه في الشتاء الماضي .

ولم يأت فايزنبروخ لزيارة فنسنت إلا مرة واحدة . وأراه فنسنت بعض رسومات العام الماضي ، وهو يبدي حيالها أشد الانكار .

فقال فايزنبروخ — لا يكن هذا شعورك . فبعد مرور سنوات عديدة، سوف تنظر إلى هذه القطع التي رسمتها في هذه المرحلة المبكرة من مراحل عملك ، وتدرك أنها مخلصة ومؤثرة . وما عليك الآن إلا أن تنغمس في العمل ولا تسمح لشيء أن يعوقك يا بني .

أما الذي أعاقه حقاً في نهاية المطاف ، فكان ضربة ساحقة تلقاها على الوجه . وذلك أنه في أيام الربيع حمل مصباحاً معطلاً إلى صانع الفخار ليقوم باصلاحه . وأصر الرجل على بيعه صحوناً جديدة للمنزل.

ـ ولكنني لا أملك مالاً لشرائها .

ـ لا تهتم للامر . فلسنا في عجلة . خذ الصحون وادفع لي عندما يتيسر المال لك .

وجاء بعد شهرين يطرق باب المرسم بعنف ، وكان شاباً مكتنزاً ذا رقبة غليظة غلظة رأسه .

قال في لهجة الأمر ـ ماذا تقصد بكذبك علي ؟ لماذا تأخذ بضاعتي ولا تدفع ثمنها ، في حين أن المال في حوزتك دائماً ؟

ـ انني في اللحظة الحاضرة مفلس تماماً . وسوف أسدد حسابك حالما يصلني مال .

ـ هذا كذب ! ومنذ قليل دفعت مالاً إلى جاري صانع الأحذية.

فقال فنسنت ـ أنا مشغول بعملي ، ولا أرغب في الازعاج . سأدفع لك عندما تتيسر النقود . فانصرف من فضلك .

ـ سأخرج بعد أن تدفع لي تلك النقود ، وليس قبل ذلك !

دفع فنسنت الرجل نحو الباب بطيش وأمره قائلاً ـ اخرج من منزلي.

ولم يكن الرجل ينتظر إلا ذلك . فما كاد فنسنت يلمسه حتى وجه الرجل ضربة قوية بقبضة يده اليمنى إلى وجه فنسنت ، فارتطم بالحائط. وضرب فنسنت ضربة أخرى فأسقطه على الأرض ، ثم خرج دونما كلام.

كانت كريستين عند أمها في ذلك الحين . وزحف انطون على الأرض وجعل يربت على وجه فنسنت باكياً . وعاد فنسنت إلى وعيه بعد دقائق قليلة ، وتحامل على نفسه وصعد إلى السقيفة واستلقى على السرير.

لم تحدث الضربتان أذى في وجهه ، ولم يشعر بألم . ولم يصب بجراح عندما سقط بثقله على الأرض . غير ان هاتين الضربتين حطمتا شيئاً في داخله وقهرتاه . وقد عرف ذلك في نفسه .

وعادت كريستين . وصعدت إلى السقيفة . وكان المنزل خلوا من الطعام ومن المال معاً . ولطالما عجبت كيف تدبر امر بقائه على قيد الحياة . ورأته مستلقياً على السرير وقد تدلى رأسه ويداه من احد الجانبين ، وتدلت رجلاه من الجانب الاخر .

وسألته – ماذا حدث ؟

ومر وقت طويل قبل ان يستجمع قواه فيستدير ويضع رأسه فوق المخدة . وقال – سين ، لابد ان ارحل عن لاهاي .

– نعم ... ادري .

– يجب ان اغادر هذا المكان ، واذهب إلى مكان ما في الريف . وربما إلى درينث ، حيث يمكننا ان نعيش عيشة رخيصة .

– وتريدني ان اذهب معك ؟ ان درينث هذه جحر فظيع . وماذا افعل هناك ونحن لا نملك مالاً ولا نجد الطعام ؟

– لا اعرف يا سين . ويخيل لي فعلاً انك ستجوعين .

– هل تعدني ان لا تنفق مبلغ المائة والخمسين فرنكاً الا على شؤون المعيشة ؟ فلا تصرفها على النماذج وعلى الالوان .

– لا استطيع يا سين ، فهذه الاشياء لها الاولوية .

– نعم . بالنسبة اليك .

– وليس بالنسبة اليك . فما الذي يهمك من امرها ؟

– ينبغي ان اعيش بدوري يا فنسنت . ولا يمكنني ان اعيش دون ان آكل .

– وانا لا يمكنني ان اعيش دون ان ارسم .

– حسناً . انها نقودك انت ... ولك الرأي الاول .. انني افهم . ذلك . هل معك بضعة سنتيمات ؟ دعنا نذهب إلى الخمارة مقابل محطة راين .

كانت رائحة النبيذ الحامض تفوح في المكان . والوقت ساعة متأخرة من بعد الظهر ، ولكن المصابيح لم توقد بعد . وكانت الطاولتان اللتان جلسا عليهما متجاورين اول مرة فارغتين . واتجهت كريستين اليهما . وطلب كل منهما قدحاً من النبيذ الحامض . وراحت كريستين تلعب بساق القدح . وتذكر فنسنت كيف اعجب بيديها ، عندما قامت بهذه الحركة المميزة على هذه الطاولة قبل حوالي عامين ، ورأى فيهما يدي امرأة عاملة .

وقالت في صوت خفيض – لقد قالوا لي انك ستتركني ، وكنت اعلم بذلك بنفسي .

– لا اريد ان اهجرك يا سين .

– هذا ليس هجراً يا فنسنت . انك لم تفعل معي الا خيراً .

– اذا كنت ما تزالين راغبة في مشاركتي حياتي فسوف آخذك إلى درينث .

هزت رأسها بلا عاطفة وقالت ــ لا . ليس هناك ما يكفي كلينا .

ــ انت تتفهمين . اليس كذلك يا سين ؟ لو كان معي مزيد لأعطيتك اي شيء . ولكن اذا كان علي ان اختار بين اطعامك واطعام عملي ...

القت يدها على يده ، واحس بملمس جلدها الخشن ، وقالت ــ لابأس . لا تشعر بالأسف لذلك ، فقد فعلت كل ما في وسعك لأجلي . واظن ان الوقت كان قد حان لافتراقنا ... وهذا كل ما في الامر .

ــ هل تريدين ان نفترق يا سين ؟ اذا كنت ستشعرين بالسعادة فسأتزوجك وآخذك معي .

اني انتمي إلى امي . وعلينا جميعاً ان نعيش حياتنا . سيكون كل شيء على ما يرام . وسوف يستأجر اخي منزلاً جديداً لفتاته ولي .

افرغ فنسنت قدحه ، وذاق مرارة الثمالة في قاعه .

ــ سين ، لقد حاولت ان اساعدك . وقد احببتك واعطيتك كل ما في داخلي من حنان واريدك في المقابل ان تفعلي شيئاً واحداً من أجلي ، شيئاً واحداً فقط .

فسألته ببلادة ــ ماذا ؟

ــ لا تعودي إلى الشوارع ، فان ذلك سيقتلك ! لا تعودي إلى تلك الحياة حرصاً على انطون .

— هل بقي معنا ما يكفي لطلب قدح آخر من النبيذ ؟

— نعم .

جرعت نصف القدح بشربة واحدة ، ثم قالت — لا اعرف الا انني غير قادرة على كسب ما يكفي ، لا سيما للانفاق على جميع الاطفال . ولذا فانني اذا نزلت إلى الشوارع فانما لان ذلك يلزمني ، لا لأنني اريده .

— هل تعدينني انك اذا حصلت على عمل مجز ، لا تعودين إلى ذلك ؟

— مؤكد . انني اعد .

— سأرسل اليك نقوداً كل شهر يا سين . وسوف انفق على الطفل دائماً . واتمنى ان تمنحي ذلك الصغير فرصة .

— سيكون على ما يرام ... تماماً كالآخرين .

كتب فنسنت إلى ثيو عن عزمه على الذهاب إلى الريف وقطع علاقته بكريستين . ورد عليه ثيو برجوع البريد ، مرفقاً برسالته مبلغ مائة فرنك اضافية لتسديد الديون ، مع كلمات تأييد قوية . وكتب يقول — اختفت مريضتي في الليلة الماضية . وقد شفيت تماماً ، ولكننا لم نجد اية علاقة تجمعنا سوية . لقد اخذت معها كل شيء ولم تترك لي عنوانها . وهذا افضل . وهكذا اصبحت واياك متخففين من الاحمال.

جمع فنسنت الاثاث كله في السقيفة ، فقد اراد ان يعود إلى لاهاي ذات يوم . وقبل ان يسافر قاصداً درينث بيوم واحد وصلته رسالة

وطرد من نيونن . اشتمل الطرد على شيء من التبغ وعلى كعكة جبن من صنع امه ، ملفوفة في ورق زيت .

وكان والده يستفسر في الرسالة — متى تجيء إلى المنزل لترسم تلك الصلبان الخشبية في ساحة الكنيسة ؟

وعرف على الفور انه راغب في الذهاب إلى البيت . فقد كان مريضاً جائعاً عصبي المزاج إلى الحد الاقصى ، مرهقاً ، محبط المعنويات . فليسافر إلى البيت عند والدته وليمكث بضعة اسابيع ، وليستعد صحته ومعنوياته . وما ان توصل إلى هذا القرار حتى خيم عليه شعور بالسكينة لم يعرفه منذ شهور عديدة ، اذ جعل يفكر في ريف برابانت الذي نشأ في كنفه ، ويتذكر الاسيجة والكثبان وعمال العزق في الحقل .

رافقته كريستين والطفلان إلى المحطة . ووقفوا جميعاً على الرصيف عاجزين عن الكلام . وجاء القطار وصعد فنسنت اليه . كانت كريستين تحمل الوليد على صدرها وهي واقفة هناك ، وقد امسك هيرمان بيدها. وظل فنسنت ينظر اليهم حتى انطلق القطار إلى ضياء الشمس المتوهج ، وغابت المرأة إلى الابد في سواد المحطة المجلل بالدخان .

* * *

الكتاب الرابع

نيونن

ــ ١ ــ

كان بيت الكاهن الملحق بكنيسة نيونن مبنى حجرياً مؤلفا من طابقين مبيضين بالكلس ، ومن ورائه حديقة فسيحة الارجاء ، فيها اشجار دردار ، واسيجة ، واحواض زهور ، وبركة ، وثلاث سنديانات مقصوصة . وعلى الرغم من ان تعداد السكان في نيونن بلغ الفين وستمائة نسمة ، فلم يكن بينهم الا مائة من البروتستانت . فكانت كنيسة ثيو دوروس صغيرة ، وكان تعيينه فيها خطوة إلى اسفل ، قياساً إلى بلدة ايتن التي تعد سوقاً صغيرة غنية .

وكانت نيونن في واقع الحال مجرد عنقود صغير من المنازل . تشكل صفين على جانبي الطريق القادم من ايندهوفن عاصمة المقاطعة . ومعظم سكان القرية نساجون وفلاحون تتناثر بيوتهم في المرج . وهم قوم يخافون الله ويدأبون على العمل ، ويعيشون وفق القواعد والعادات التي عاش عليها اسلافهم .

تعلو باب منزل الكاهن عند المدخل حروف حديدية سوداء تبين تاريخ اقامة البناء ١٧٦٤ . ويقع باب المدخل مقابل الطريق مباشرة ، وهو يؤدي إلى قاعة واسعة تشطر المنزل قسمين ، توجد في الايسر منهما غرفتا السفرة والمطبخ اللتان يفصل بينهما درج بدائي يؤدي إلى غرف النوم في الطابق الاعلى . وقد شغل فنسنت مع شقيقه كور الغرفة التي تعلو غرفة المعيشة . وكان يستيقظ في الصباح ، فيرى من غرفته شروق الشمس فوق البرج الرقيق الذي يعلو كنيسة ابيه ، ويلقي ظلالاً لطيفة فاتحة على بركة الماء . اما في ساعة الغروب ، حين تصبح درجات اللون اغمق منها في الصباح ، فكان يجلس على كرسي عند النافذة، ويرقب اللون وهو يرتمي على البركة كأنه ملاءة ثقيلة من الزيت ثم يتلاشى رويداً رويداً في الغسق .

كان فنسنت يحب والديه كما يحبانه . وقد صمم ثلاثتهم تصميماً مستميتاً على ان يصونوا هذه العلاقة ويجعلوها ودية طيبة ، واقبل فنسنت على الطعام يأكل كثيراً وينام كثيراً ويسير في المروج لماما ، ولكنه انقطع تماماً عن الكلام وعن الرسم وعن القراءة . وقد احاطه جميع من في المنزل بحفاوة بالغة كما احاطهم . وراقب كل من الطرفين نفسه في ممارسة هذه العلاقة ، فكان اي منهم يقول في نفسه قبل ان يتحدث إلى الاخر — يجب ان اكون حريصاً ! ولا اريد ان اسيء إلى الانسجام .

استمر الانسجام طيلة مرض فنسنت . غير انه لم يكن يستطيع ان يكون مرتاحاً وهو في غرفة واحدة مع من لا يفكر مثل تفكيره . وحدث ذات مرة ان قال ابوه — سوف اقرأ فاوست لجوته ، بعد ان

قام بترجمته المبجل تن كيت ، ولابد انه خفف ما فيه من خروج على الاخلاق . وهنا شعر فنسنت ان حلقومه يصعد إلى اعلى .

لقد حضر إلى المنزل في اجازة لا تزيد على اسبوعين ، ولكنه كان يحب البرابانت ويتمنى ان يمكث فيها . ورغب في ان يرسم ببساطة وهدوء من الطبيعة ويحاول ان لا يقول الا ما يراه . ولم تكن لديه اية رغبة سوى العيش بعمق في قلب الريف ورسم الحياة الريفية . واراد ان يتبع خطى الاب الطيب ميليه فيعيش مع الفلاحين ويفهمهم ويرسمهم . وكان على اقتناع راسخ بأن هناك قلة من الناس ، دفعتهم الظروف إلى المدينة وتقيدوا بحياتها ، ولكنهم يحتفظون للريف بذكريات لا تمحى ، ويشعرون طيلة حياتهم بالحنين إلى ايامهم في الحقول ومع الفلاحين .

وكان يحس دائماً انه سيعود إلى البرابانت ذات يوم ، فيستقر فيها نهائياً . ولكنه لم يكن يزمع البقاء في نيونن اذا لم يكن ابواه راغبين في بقائه .

وقال لابيه – المثل يقول : اي باب مطلقاً ، اما ان يكون مفتوحاً او مغلقاً . فدعنا نفتح باب التفاهم .

– نعم يا فنسنت . انا راغب في هذا كثيراً . وقد لاحظت ان رسوماتك ستغدو شيئاً ذا بال في نهاية المطاف . وذلك يسرني .

– حسناً جداً . قل لي بصراحة هل تعتقد اننا نستطيع جميعاً ان نعيش هنا في سلام . وهل ترغب في بقائي ؟

ـ نعم .

ـ إلى متى ؟

ـ إلى المدى الذي تريده ، فهذا بيتك ، ومن البداهة ان يكون مكانك بيننا .

ـ فاذا دب بيننا خلاف ؟

ـ عندئذ لا نترك للخلاف ان يكدرنا . يجب ان نعيش بهدوء ويتحمل بعضنا بعضا .

ـ ولكنني في حاجة إلى مرسم ، فماذا افعل ؟ لا اظنك تريدني ان اعمل داخل المنزل .

ـ لقد فكرت في هذا الامر . لم لا تأخذ حظيرة الخيل الكائنة في الحديقة خارجاً ؟ ان في امكانك ان تختص بها لنفسك . ولا حاجة لان يزعجك فيها احد .

كانت حظيرة الخيل واقعة خلف المطبخ ، ولكن لم يكن بينهما باب . وكانت عبارة عن غرفة على هيئة مهجع صغير ، لها شباك ضيق مرتفع يطل على الحديقة . ومدت ارضيتها بالصلصال ، وكانت دائمة الرطوبة في الشتاء .

ـ سنوقد ناراً كبيرة هنا يا فنسنت ، ونجفف المكان . ثم نمد فوق الارضية الواحاً خشبية ، فتصبح في غاية من الراحة . .ما قولك ؟

نظر فنسنت حوله . فرآها غرفة متواضعة ، ذات شبه كبير بأكواخ الفلاحين في المرج . وفي وسعه ان يحولها إلى مرسم ريفي حقيقي .

وقال ثيو دوروس – اذا كانت هذه النافذة اصغر مما ينبغي ، فان لدي في الوقت الحاضر شيئاً من المال الاحتياطي،ونستطيع توسيعها .

– لا . لا . انها ممتازة على حالها . فهي توفر لي قدراً من الاضاءة على النموذج الذي اقوم برسمه ، يماثل ما يتوفر في كوخه لو انني رسمته هناك .

جاؤوا ببرميل مثقب ، اشعلوا فيه ناراً كبيرة . ولما جفت جميع الرطوبة من الجدران والسقف وصارت الارضية صلبة ، مدوا الالواح الخشبية فوقها . وحمل فنسنت إلى الغرفة سريره الصغير ، وطاولة ، وكرسياً ، وحاملات الرسم . والصق رسومه بالجدران ، وكتب بالفرشاة حروف كلمة جوخ على الحائط الابيض الذي يفصل الغرفة عن المطبخ، واستقر هناك وفي نيته ان يصبح ميليه الهولندي .

– ٢ –

كان النساجون الذين يعيشون حول نيونن هم أكثر فئات الناس مدعاة للاهتمام . وهم يقيمون في اكواخ صغيرة مبنية بالصلصال والقصل ومسقوفة بالقش . وتتألف عادة من حجرتين ، تقيم الاسرة في احداهما ، وتتوفر في هذه الحجرة نافذة ضئيلة تسمح بمرور شعاع صغير من الضياء . كما تتوفر في جدرانها فجوات مربعة ترتفع عن مستوى الارض حوالي ثلاثة اقدام ، وفي هذه الفجوات توضع الأسرَّة والطاولة وبعض الكراسي ، وموقد الخث ، وخزانة فظة الصنع تحتوي على الصحون والاواني . وتتكون ارض الغرفة من صلصال غير مستو ، وتبنى الجدران من الطين . اما الغرفة المحاذية ، التي يبلغ حجمها ثلث

حجم الاولى ، وتعترض ارتفاعها عند منتصفه افاريز البناء المائلة ، فتلك هي غرفة نول النسيج .

يستطيع النساج الذي يعمل دون توقف ، ان ينتج في الاسبوع ثوباً طوله ستون ياردة . ويحتاج اثناء نسجه إلى امرأة لتقوم بتسليك الخيوط . ويجني النساج من انتاج هذه القطعة من القماش ربحاً صافياً مقداره اربعة فرنكات ونصف الفرنك في الاسبوع . ولكنه حينما يأخذها إلى صاحب المعمل يتلقى في الغالب رسالة تبلغه ان ليس في الوسع ان يأخذ معه إلى البيت قطعة اخرى قبل مضي اسبوع او اسبوعين وقد وجد فنسنت انهم هنا مختلفون على الصعيد المعنوي عن عمال المناجم في البوريناج ، فهم هادئون ، لا يسمع احد في اكنافهم كلاماً من قبيل الخطب الثورية . بيد ان ما يبدو عليهم من حبور ، لا يختلف عن حبور خيول العربات او الاغنام المنقولة بالمراكب البخارية إلى انجلترا . وعقد فنسنت معهم اواصر الصداقة فوراً . فقد وجد في فئة النساجين ارواحاً بسيطة ، لا تطلب أكثر من عمل يوفر لها كسب قوتها من البطاطس والقهوة ، وشريحة من لحم الخنزير احياناً . ولم يروا بأساً في رسمه اياهم وهم يعملون ، كما انه لم يجيء اليهم مرة الا وفي يده قطعة من الحلوى لطفل الاسرة ، او شيء من التبغ للجد العجوز .

واكتشف نولاً مصنوعاً من خشب السنديان القديم ذي لون بني مخضر . يحمل حفراً يدل على تاريخ صنعه وهو عام ١٧٣٠ . وإلى جوار هذا النول كان هناك كرسي طفل امام نافذة صغيرة تطل على بقعة خضراء . وعلى ذلك الكرسي يجلس الطفل ساعات طويلة ، يحدق

في المكوك وحركته الطيارة . وكانت الغرفة صغيرة بائسة ذات ارض من الصلصال ، الا ان فنسنت اكتشف فيها نوعاً من السكينة والجمال ، اراد ان يأسره في لوحته .

وكان ينهض باكراً في الصباح ، ويقضي اليوم بطوله في الحقول ، في اكواخ الفلاحين والنساجين . ومعهم كان يشعر انه على سجيته . فلم تكن عبثاً تلك الامسيات الطويلة التي قضاها من قبل مع عمال المناجم وعمال التنقيب عن جذور الخث والفلاحين وهم يسمرون قرب النار . ونظرا لشهوده حياة الفلاحين على نحو مستمر ، في جميع ساعات النهار ، فقد اصبح مستغرقاً فيها إلى حد عدم التفكير فيما عداها . وكان يبحث عن ذلك الذي لا يزول ، في ذلك الزائل العابر .

وعاوده شغفه بالرسم نقلاً عن الاشخاص ، ولكن ذلك كان مصحوباً الآن بشغف آخر موضوعه اللون . كان لحقول الحنطة التي نضجت نصف نضج لون ذهبي داكن ضارب إلى الحمرة وإلى صفرة البرونز ، يضاعف من اثره تناقضه مع لون السماء الازرق الكوبالتي الواهن . وثمة في خلفية المشهد اشكال نساء بالغات الخشونة بالغات القوة ، ذوات وجوه وسواعد لوحتها الشمس البرونزية ، وملابس مغبرة خشنة زرقاء نيلية ، وقلنسوات سوداء في شكل البيريه تغطي شعورهن القصيرة .

وكان يعود على الطريق الرئيسي قوياً ، يتأرجح في مشيته وقد ربط حامل اللوحات على ظهره وحمل اللوحة التي لم تجف تحت ذراعه ، وعند ذلك كانت مصاريع جميع البيوت تنشق شقاً صغيراً عند اسفلها ،

فيفر بنفسه من تحدي العيون النسائية المستطلعة الخائفة من الفضيحة . وقد اكتشف في المنزل ان المثل القديم القائل « اي باب مطلقا ، اما ان يكون مفتوحاً او مغلقاً » لم يكن ينطبق تماماً على العلاقات السائدة في الاسرة . ذلك ان باب الوفاق العائلي في بيت الكاهن كان من عاداته ان يظل في موضع غامض لا هو بالمفتوح ولا بالمغلاق . اما اخته اليزابيث فكانت تكرهه ، وتخشى ان تؤدي غرابة اطواره إلى تدمير فرص زواجها في نيونن . واما ويلمين فكانت تعزه ولكنها تراه مضجراً . واما اخوه الاصغر كور فلم يصادقه الا بعد حين .

وكان فنسنت يتناول طعام العشاء لا على مائدة الاسرة ، وانما في ركن من الاركان وهو يضع صحنه في حجره ؛ وقد نثر الرسوم التي رسمها خلال النهار على كرسي امامه . وراح يتفحص عمله بعينين ثاقبتين، فيمزقها ارباً اذا رأى فيها عيباً او وجدها تتضمن قيماً تافهة . ولم يكن يتحدث إلى الاسرة . وكانوا بدورهم لا يخاطبونه الا نادراً . وكان يأكل خبزه دون غموس ،لئلا يقع في عادة اتراف نفسه . وقد يلتفت اليهم ويشترك في الحديث عرضاً ، اذا ذكر على المائدة اسم كاتب من الكتاب الذين يحبهم. على انه وجد بصورة عامة انه كلما قل الخطاب بينه وبينهم كان ذلك ادعى إلى راحة الجميع .

— ٣ —

بعد مضي قرابة شهر على خروجه إلى الحقول للرسم، بدأ يخالجه شعور غريب مؤداه تحديداً انه مراقب . وقد عرف من قبل ان اهالي نيونن يحدقون نحوه في غدوه ورواحه، وان الفلاحين في الحقول

يتوقفون عن العمل لحظات ، وهم مستندون إلى معاولهم ، ليحملقوا فيه عندما يمر . غير ان ما خالجه الآن امر مختلف . فهو لا يحس انه مراقب وحسب ، وانما ملاحق أيضاً . وقد حاول في برهة الأيام القليلة الاولى ان يتخلص من هذا الاحساس متبرماً به ، ولكنه لم يستطع ان يلغي شعوره بأن ثمة زوجين من العيون تثقبان ظهره تحديقاً . وعمد إلى تفتيش الحقل بواسطة النظر عدة مرات لكنه لم يشاهد شيئاً . وخيل اليه ذات مرة ، وهو يلتفت فجأة ، انه شاهد تنورة نسائية بيضاء اللون تختفي خلف احدى الأشجار . وشاهد في مرة اخرى وهو خارج من بيت أحد النساجين ، جسماً يهبط مسرعاً نحو الطريق . بل وحدث في مرة ثالثة ، وهو يرسم في الغابة ، ان ترك حامل اللوحة وذهب يشرب من البركة ، فلما عاد وجد آثار اصابع على الألوان الرطبة .

واستغرقه الأمر اسبوعين تقريباً حتى أمسك بالمرأة . كان في ذلك اليوم يرسم عمال العزق في المرج ، وثمة عربة قديمة مهجورة على مسافة غير بعيدة . وقفت المرأة خلفها أثناء عمله . فتناول لوحته والحامل فجأة ، متظاهراً انه ينوي العودة إلى البيت ، واذا بالمرأة تركض من طرف آخر حتى أصبحت تسبقه . فتبعها دون ان يثير شكوكها ، وشاهدها تنعطف وتدخل البيت المجاور لسكن الكاهن .

في تلك الليلة سأل أمه عند جلوسهم جميعاً إلى مائدة العشاء — من يقيم في البيت الواقع إلى يسار بيتنا ياامي ؟

— اسرة بيجمان ؟

— ومن يكونون ؟

– لا نعرف عنهم الكثير . انهن خمس بنات وأمهن ، ومن الواضح أن والدهن توفي .

– ومن أي صنف من الناس هم ؟

– يصعب الكلام عنهم . فهم متكتمون نوعاً .

– هل هم كاثوليك ؟

– لا بل بروتستانت . وكان الوالد كاهناً .

– هل بين البنات بنت غير متزوجة ؟

– نعم . كلهن . لماذا تسأل ؟

– لا شيء إلا أنه خطر لي أن أتساءل . ومن يعول الأسرة ؟

– لا أحد . ويبدو أنهم أغنياء .

– أظن أنك لا تعرفين اسم أي من البنات .

نظرت أمه إليه مستطلعة وقالت – لا .

ذهب في اليوم التالي إلى البقعة ذاتها في الحقول ومقصده أن يلتقط بريشته اللون الأزرق الذي يرتديه الفلاحون ، أما في غمار الحنطة الناضجة أو على خلفية الأوراق الذابلة في سياج من شجر الزان . فقد كان الأهالي يرتدون أثواباً خشنة ينسجونها بأنفسهم من سداة سوداء ولحمة زرقاء ، فتكون النتيجة نقشاً مخططاً بالأسود والأزرق . وعندما يبهت هذا اللون بفعل الطقس والريح ، فانه يكتسب درجة لونية لطيفة رائقة ، تظهر معها ألوان البشرة على نحو واضح .

وفي حوالي منتصف الفترة الصباحية أحس بوجود المرأة وراءه

من جديد . ولمح بطرف عينه مرأى ثوبها بين غيضة من الشجيرات خلف العربة المهجورة .

وتمتم لنفسه قائلاً — سأقبض عليها هذا اليوم ، ولو اضطررت للتوقف في منتصف هذه الدراسة .

كان في البرهة الاخيرة قد ازداد اعتيادا على سرعة الانجاز ، فهو يعبر عن انطباعه عن المشهد الذي يراه امامه بافراغ طاقته العاطفية في دفقة واحدة كبرى . وقد كان مما اذهله في امر الرسوم الهولندية القديمة انها رسمت على عجل ، وان سادة الفن العظماء كانوا يقتحمون موضوعهم منذ الضربة الاولى بالريشة ، ثم لا يعودون اليها ولو بلمسة واحدة : لقد رسموا ما رسموه باندفاع عظيم ليحافظوا على بكارة انطباعهم الاول النقي ، وعلى الحالة التي تخيلوا الموضوع فيها .

وغفل عن امر المرأة في معرض حرارة عاطفته الابداعية . وعندما حانت منه التفاته إلى ما حوله بعد ساعة من الزمن ، لاحظ انها غادرت الغابة ووقفت الآن خلف العربة . وخطر له ان يقفز اليها ويمسك بها ويسألها لماذا دأبت على ملاحقته طوال هذا الوقت . ولكنه لم يستطع ان ينسلخ عن عمله . وبعد برهة عاد ينظر حوله فلاحظ في دهشة انها كانت واقفة امام العربة ، تنظر اليه بثبات . وتلك هي المرة الاولى التي تخرج فيها على هذا النحو المكشوف .

واصل العمل وهو في ذروة الحمى . وبدا له ان المرأة اخذت تزداد اقتراباً كلما ازداد انكباباً على العمل . وان العينين اللتين تحدقان في ظهره تزدادان حرارة كلما فاضت عاطفته التي يصبها في اللوحة . وادار الحامل قليلاً ليحصل على الاضاءة ، فرآها تقف في وسط الحقل

اي في منتصف المسافة بينه وبين العربة ، وهي اشبه بامرأة منومة مغناطيسيا ، تسير اثناء نومها . وراحت تقترب منه خطوة خطوة ، وتتوقف في كل مرة قليلاً ، تريد ان تعود القهقرى ، ولكنها ما تلبث ان تتقدم بثبات إلى الامام ، مسوقة اليه بقوة لا طاقة لها على كبحها ثم شعر بها في ظهره ، فدار على عقبيه سريعاً وسدد نظره إلى عينيها . وتجلى فوق وجهها تعبير خائف محموم ، كأنها رهن عاطفة محيرة لا قبل لها بالسيطرة عليها . ولم تنظر إلى فنسنت بل نظرت إلى لوحته ، وانتظر ان تتكلم ، ولكنها ظلت صامتة . فاستدار إلى عمله ، واوتي دفقة اخيرة من الطاقة انهى بها اللوحة ، ولم تتحرك المرأة . وكان يحس بثوبها يلامس معطفه .

كان الوقت ساعة متأخرة بعد الظهر . وقد مضت على المرأة وهي واقفة في الحقل ساعات عديدة . واحس فنسنت بالانهاك ، وبأن اعصابه بلغت شفير حافة حادة بسبب الاهتياج الذي يرافق الابداع . فانثنى واتجه إلى المرأة .

لقد جف ريقها ، فرطبت شفتها العليا بلسانها ، ثم رطبت السفلى بالعليا . ثم ما اسرع ما تلاشت الرطوبة عنهما وعاودهما الجفاف . وكانت تضع يدا على حلقومها ويبدو انها تجد صعوبة في التنفس . وحاولت ان تنطق ولكن النطق اعياها .

قال — انا جاركم فنسنت فان جوخ . واظن انك تعرفين دلك .

وندت عنها همسة واهنة ، لم يسمعها الا بالكاد — نعم .

— اية شقيقة انت من بنات بيجمان ؟

ترنحت قليلاً . ثم امسكت بكمه واسندت نفسها . وحاولت ثانية

ان ترطب شفتيها بلسانها الجاف ، وبذلت محاولات عديدة لتتكلم ، حتى نجحت .

– مارجو .

– ولماذا ثابرت على ملاحقتي يا مارجو بيجمان ؟ لقد عرفت بذلك منذ عدة اسابيع .

افلتت صرخة بكماء من شفتيها . وغرزت اظافرها في ذراعيه لتقي نفسها من السقوط ، ولكنها وقعت مغشياً عليها .

جثا فنسنت على ركبتيه . ووضع ذراعه تحت رأسها ، وجعل يمسح شعرها عن جبينها . كانت الشمس في لحظة غروبها ، ترسل اشعتها الحمراء فوق الحقول ، والفلاحون يسحبون اقدامهم المتعبة إلى منازلهم . وظل فنسنت ومارجو وحيدين . ونظر اليها متفحصاً . انها ليست بالجميلة ، ويبدو انها قطعت شوطاً جيداً في ثلاثيناتها . وكان فمها ينتهي نهاية حادة في الجانب الايسر ، اما في الجانب الايمن فهو موصول بخط رفيع يستمر حتى يبلغ الفلك . وكانت تحت العينين دوائر زرقاء وقليل من النمش . اما بشرتها فتوحي بأنها على وشك ان تصاب بالتجاعيد .

كان فنسنت يحتفظ بشيء من الماء في زمزمية . فمسح وجه مارجو بخرقة مما يستعمل لتجفيف الطلاء . وانفتحت عيناها فجأة ، فرآهما طيبتين ذواتي لون بني عميق ، تمتازان بالرقة التي توشك ان توحي بالروحانية . وبلل اطراف اصابعه بقليل من الماء وجرى به على وجه مارجو ، فارتعشت في ذراعه .

وسألها — اتشعرين بالتحسن يا مارجو ؟

ظلت مستلقية هناك للحظة وجيزة ، تنظر داخل عينيه الخضراوين الزرقاوين ، الفياضتين بالحنان والشفافية والفهم ، ثم اذا بها تلف ذراعيها حول رقبته ، وتدفن شفتيها في لحيته ، وهي تنشج نشيجاً وحشياً ، كأنما هو منتزع من سويداء قلبها .

— ٤ —

في اليوم التالي التقيا في مكان تواعدا عليه يبعد مسافة قصيرة خارج القرية . وقد لبست مارجو فستاناً رائعاً من قماش قطني ناعم ، له ياقة عالية ، وحملت في يدها قبعة صيفية . وكانت على شيء من التوتر في صحبته ، الا انها بدت اكثر تمالكاً لنفسها من اليوم السابق . لم يكن فيها اي نصيب من الجمال الذي يزين كاي ، ولكنها كانت بالقياس إلى كريستين امرأة فاتنة جداً .

نهض عن كرسي خفيف كان يجلس عليه ، وهو لا يدري ماذا يفعل . كان ينفر في العادة من النساء اللواتي يرتدين الفساتين ، اذ نشأ في بيئة ترتدي النساء فيها غالباً السترة والتنورة . ولم يكن في النساء الهولنديات اللواتي يطلق عليهن الطبقة المحترمة جاذبية تحمله على رسمهن او النظر اليهن . وانما كان يؤثر الفتيات الخادمات العاديات ، فهن اقرب إليه .

شبت مارجو على قدميها وقبلته ببساطة وتملك ، كأنهما عاشقان منذ زمن طويل ، ثم ضمت نفسها اليه برهة وهي ترتعش . وفوش

معطفه على الارض لجلوسها . وجلس على كرسيه الخفيف ، واستندت مارجو على ركبتيه ونظرت اليه نظرة جياشة لم يرها في عيني امرأة من قبل .

قالت — فنسنت . ولم تزد ، مكتفية بالغبطة الصافية التي يثيرها فيها التلفظ باسمه .

— نعم يا مارجو . ولم يعرف ماذا يفعل او يقول .

— هل خطرت ببالك اشياء سيئة عني في الليلة الماضية ؟

— اشياء سيئة ؟ لا ، ولماذا يجوز لي ذلك ؟

— ربما يصعب عليك ان تصدقني . ولكن صدقني يا فنسنت انني حينما قبلتك بالامس ، كانت تلك المرة الاولى التي اقبل فيها رجلاً .

— لكن لماذا ؟ الم تقعي في الحب يوماً ؟

— لا .

— يا له من امر يبعث على الشفقة .

قالت — اليس كذلك ؟ وظلت صامتة برهة من الوقت . ثم قالت — اما انت فأحببت نساء أخريات . ام تراك لم تفعل ؟

— بلى .

— هل هن كثيرات .

— لا . ثلاث ... فقط .

— وهل احببنك ؟

— لا يا مارجو ، لم يحببني .

– بل لابد انهن احببنك .

– كنت سيء الحظ في الحب دائماً .

تحركت مارجو اقرب نحوه ، ووضعت ذراعها على حجره . ومشت بأصابع يدها الاخرى تلعب فوق وجهه ، متحسسة انفه القوي بحافتيه العاليتين ، وفمه الممتلىء المفتوح ، وذقنه الصلبة المستديرة . وراودتها ارتعاشة غريبة ، فسحبت أصابعها عنه .

تمتمت – يا القوة الكامنة في كل ما فيك ، من ذراعين وذقن ولحية . انني لم اعرف رجلاً مثلك من قبل .

امسك بوجهها بين يديه بقوة . كان الحب والانفعال الذي يختلج في ذلك الوجه مثيراً للفتنة .

وسألته في قلق – هل تعزني قليلاً ؟

– نعم .

– وهل ستقبلني ؟

فقبلها .

– ارجوك ، لا تحمل فكرة سيئة عني يا فنسنت . لم استطع ان اضبط نفسي . اتفهمني ؟ لقد وقعت في حبك ... ولم اقدر على البقاء بعيدة .

– تقولين انك وقعت في حبي ؟ أحقاً وقعت في حبي ؟ لكن لماذا ؟

فاستندت إلى الاعلى ، وقبلته على جانب فمه ، وقالت — لأجل هذا .

جلسا هادئين ، وغير بعيد عنهما كانت تبدو مدافن الفلاحين . ذلك انهم كانوا منذ اجيال بعيدة يرقدون في الحقول ذاتها التي كانوا يعرقون بها ابان حياتهم . وكان فنسنت يحاول ان يقول في أوحته ان الموت مسألة بسيطة ، بسيطة بساطة سقوط اوراق الخريف ، وليس الموت بأكثر من حفرة صغيرة في الارض وصليب خشبي فوقها . وكانت الحقول التي تحيط بهما ، حيث ينتهي العشب الكائن في ساحة الكنيسة خلف الحائط الصغير ، تقيم خطاً اخيراً في مقابل السماء ، يشبه خط الافق في البحر .

وسألته بصوت ناعم — هل تعرف شيئاً عني يا فنسنت ؟

— قليلاً جداً .

— هل قالوا لك ... اعني هل قال لك احد ... كم ابلغ من العمر ؟

— لا .

— طيب . انا أبلغ التاسعة والثلاثين ، وسوف ابلغ الاربعين بعد شهور معدودة . وقد كنت في الاعوام الخمسة الاخيرة اقول لنفسي انني اذا لم احب شخصاً ما قبل ان ابرح ثلاثينياتي ، فسوف اقتل نفسي .

— ولكن من السهل على المرء ان يحب يا مارجو .

— آه .. اتعتقد هذا ؟

— نعم ، وانما الصعب هو ان يصبح في المقابل محبوباً .

ـ لا . انه في نيويورك عسير جداً . وقد كنت مستميتة طوال أكثر من عشرين سنة لان احب احداً . فلم استطع ابداً .

ـ بالمرة ؟

ـ نظرت نحو البعيد وقالت ـ مرة واحدة ... عندما كنت بنتاً ... احببت صبياً .

ـ ثم ؟

ـ كان كاثوليكياً . فطردوه .

ـ من هم ؟

ـ امي واخواتي .

جثت على ركبتيها في طين الحقل العميق ، فتغير ثوبها الابيض الانيق بالتراب . ووضعت كوعيها فوق فخذيه واراحت وجهها بين كفيها .

ـ اذا لم تملأ المرأة حياتها بالحب ، فان حياتها فارغة يا فنسنت .

ـ ادري .

ـ كنت استيقظ كل صباح واقول لنفسي « لابد ان أعثر اليوم على شخص احبه ! ان النساء الاخريات يحببن ، فلم لا احب مثلهن ؟ » فاذا حل الليل وجدتني وحيدة تعسة . لقد مرت علي طوابير لا نهاية لها من الايام الفارغة يا فنسنت ، ولم يكن امامي في بيتنا ما اصنعه ـ لان لدينا خادمات يخدمننا ـ وهكذا كانت كل ساعة من الساعات مليئة بالتشوق إلى الحب . وكنت في كل ليلة اخاطب نفسي بالقول « حياتك في هذا اليوم لا تختلف عن موتك ، لانك لم تحققي شيئاً اسمى

من الموت » . وظللت اعلل نفسي بأن رجلاً لابد ان يأتي يوماً ما ، على نحو ما ، واستطيع ان احبه . ولكن اعياد ميلادي مرت ، وآخرها السابع والثلاثون والثامن والثلاثون ثم التاسع والثلاثون . فلو حل عيد ميلادي الاربعون دون ان احب ، لما كنت قادرة على مواجهته . واذا بلك تهل يا فنسنت . وها انا ذا الان قد عرفت الحب في نهاية المطاف .

نطقت بالعبارة الاخيرة كأنها صيحة انتصار ، وكأن مارجو حررت نصراً عظيماً . واستندت إلى اعلى رافعة فمها للتقبيل . فازاح شعرها الناعم عند اذنيها إلى الوراء . وطوقت عنقه بذراعيها وجالت على وجهه تطبع فوق تقاطيعه الف قبلة حنون . كان جالساً على كرسي الرسم الخفيف وإلى جواره لوح مزج الالوان ، وامام ناظريه مدافن الفلاحين ، وهو يضم اليه المرأة الراكعة ، منجرفاً مع دفق عاطفتها الفوارة . واحس لاول مرة في حياته بحلاوة طعم البلسم الشافي الذي يفيضه حب المرأة العاشقة . وسرت رعدة في جسده ، اذ عرف انه كان يقف فوق أرض مقدسة .

جلست مارجو بين قدميه على الارض ، وقد استندت مؤخرة رأسها على ركبته . ودب لون النضارة في خديها ، والبريق في عينيها ، وراحت تتنفس بعمق وجهد . وبدت في فورة حبها وكأن عمرها لم يتجاوز الثلاثين . اما فنسنت فقد تعطلت احاسيسه تماماً ، فجعل يجري بأصابعه على بشرة وجهها الرقيقة ، حتى امسكت بيده ، وقبلتها ، ووضعت كفه على خدها المشتعل . وتحدثت بعد برهة .

قالت بهدوء — اعرف انك لا تحبني . ولو طلبت حبك لكنت اطلب الكثير . انما كنت اصلي لله ان يتيح لي ان اقع في الحب . ولم احلم قط ان يحبني احد . فالامر الهام هو ان يحب المرء . لا ان يغدو محبوباً ، اليس كذلك يا فنسنت ؟

وفكر فنسنت في اورسولا وفي كاي ، ثم اجاب — بلى .

وجعلت تحك مؤخر رأسها في ركبته ، وهي تنظر نحو السماء الزرقاء . وقالت — وهل ستسمح لي بالمجيء معك ؟ انني حين اجدك غير راغب في الكلام سأجلس بجوارك هادئة ، ولا انبس ببنت شفة . وحسبي ان تتركني ابقى بجانبك . واعدك ان لا ازعجك ولا اتدخل في عملك .

— يمكنك طبعاً ان تجيئي . ولكن حدثيني يا مارجو ، لماذا لم تذهبي إلى مكان آخر اذ قل الرجال في نيونن ؟ ولو في زيارة . الم تتوفر لك النقود ؟

— اوه .. بلى . وعندي مال كثير . فقد خلف لي جدي دخلاً جيداً .

— لماذا اذن لم تذهبي إلى امستردام او إلى لاهاي ؟ لكنت التقيت برجال يثيرون الاهتمام .

— لم يسمحن لي بذلك .

— اظن انه ليس بين اخواتك من تزوجت . اليس كذلك ؟

— بلى يا عزيزي . نحن الخمس جميعاً عزباوات .

سرى فيه طارق من الالم . انها المرة الاولى التي تخاطبه امرأة فيها

بكلمة عزيزي . وقد عرف من قبل مبلغ التعاسة في ان يحب الانسان ولا يبادله الطرف الاخر حباً بحب . ولكنه لم يشك ابداً فيما ينطوي عليه حب هذه المرأة الطيبة ، النابع من كيانها بأسره ، من عذوبة مطلقة . لقد نظر إلى حب مارجو له ، نظرته إلى نوع من الحادث الغريب الذي لم يشارك في صنعه . الا ان تلك الكلمة الواحدة البسيطة ، التي تفوهت بها مارجو بهدوء وبشغف ، قد غيرت حالته العقلية كلها . فأخذ مارجو اليه ، وضم جسدها المرتعش إلى جسده .

وغمغمت تقول — فنسنت ، فنسنت ، أحبك إلى أبعد مدى .

— كم هو غريب على سمعي ، ان اسمعك تقولين انك تحبينني إلى هذا الحد .

— لا آسف الآن على أنني قضيت هذه الأعوام كلها دون حب . فأنت تستأهل هذا الانتظار الطويل ياعزيزي ويا أخص ما أمتلك . إنني لم أتخيل في جميع أحلامي عن الحب أنني سأشعر تجاه أي إنسان بمثل ما أشعر به تجاهك .

قال — وأنا أيضاً أحبك يا مارجو .

ابتعدت عنه بلطف وقالت — لا حاجة بك إلى أن تقول هذا يا فنسنت انك قد تستلطفني قليلاً ، بعد حين . أما الآن ، فكل ما أطلبه منك هو أن تدعني أحبك !

انسحبت من بين ذراعيه ، وطوت معطفه جانباً ، وجلست عليه قائلة — هيا إلى عملك يا عزيزي . يجب أن لا أكون عقبة في طريقك . ثم إنني أحب أن أراك وأنت ترسم .

لم يمر يوم تقريباً ، دون أن ترافقه مارجو في خروجه إلى الرسم. وقد يسير عشرة كيلومترات في غالب الأحيان حتى يبلغ البقعة التي أراد أن يعمل فيها في المرج ، فيصل كلاهما متعبين منهكين من الحر . إلا أن مارجو لم تتذمر يوماً . وتعرضت هيئتها لتحولات مذهلة . كان شعرها قبلاً ذا لون بني فتراني ، فاكتسب مسحة من الشقرة الحية . وكانت شفتاها رفيعتين جافتين ، فغدا فيهما ممتلئاً مشبعاً بالحمرة . وكانت بشرتها جافة موشكة على التجعد ، فأصبحت رقيقة ناعمة دافئة . ولقد بدت عيناها أوسع ، وقد نهد ثدياها ، وقد صار لصوتها ايقاع جديد ، وقد غدت خطوتها قوية نشطة . ان الحب فتح في داخلها ينبوعاً غريباً ، ما انفكت تستحم في اكسيره كل يوم . ودابت على مفاجأته أحياناً بوجبة جاهزة تقدمها له لتدخل عليه السرور ، وقد تجلب من باريس بعض الرسوم التي ذكرها في أحاديثه باعجاب . كذلك اجتنبت التدخل في عمله . وكانت تجلس إلى جواره وهو يرسم ، وهي في تمام الهدوء ، تستحم في العاطفة الغامرة ذاتها التي تتدفق منه على لوحاته .

ولم تكن مارجو تعرف شيئاً عن الرسم ، لكنها كانت تملك ذكاء لماحاً يتسم بالحساسية ، وقدرة على قول الشيء السديد في اللحظة الصحيحة. وأدرك فنسنت أنها تفهم الرسم ولو كانت لا تعلم عنه وقد أوحى اليه حالها بحال قيثارة من قيثارات كريمونا ، أفسدها المرممون الجاهلون .

وقال لنفسه — لو أنني لقيتها قبل عشر سنوات !

سألته ذات يوم وهو يعد العده لاجتياح لوحة جديدة — كيف

تستطيع أن تتأكد أن البقعة التي تختارها ، سوف ترسم في لوحتك بالشكل الصحيح ؟

وتفكر فنسنت لحظة ثم أجاب – اذا أردت أن أكون فعالاً ، ينبغي أن لا أفزع من السقطات انني حين أبصر قماش اللوحة يحدق بي ببلاهة فانني أطرطش عليه ما يخطر لي ولا أبالي .

– انك تطرطش حقاً . فأنا لم أشاهد قط شيئاً ينمو بالسرعة التي تنمو بها لوحاتك .

– حسناً ، إنني مضطر إلى ذلك . لأن قماش اللوحة اذ يحدق بي يقول أنت لا تعرف شيئاً ، وهدفه من ذلك أن يشلني .

– اتعني أن في ذلك نوعاً من التحدي ؟

– تماماً . ان قماش اللوحة يحدق بي كأنه أبله . ولكنني أعرف أنه يخاف الرسام قوي العاطفة الذي أوتي الجرأة ، والذي حطم حروف عبارة أنت لا تقدر تحطيماً حاسماً نهائياً . بل ان الحياة نفسها يامارجو تضع أمام الانسان صفحة بيضاء ناصعة فارغة إلى أبعد الحدود ، تثير في النفس الوحشة ، وهي خالية من أي خط ، خلو قماشة اللوحة لا أكثر .

– نعم . أليس ذلك شأنها ؟

– غير أن رجل الايمان والعزيمة لا يخاف ذلك البياض . فهو يخطو ويتصرف ، وينشيء . وإذا باللوحة في نهاية الأمر ليست قماشة بيضاء وإنما هي مغطاة بما في الحياة من إيقاع غني .

لقد تمتع فنسنت بما تحمله مارجو من حب له . إنها لم تنظر اليه قط بعينين ناقدتين ، فكل ما يفعله صحيح في نظرها . ولم تقل له أن طباعه

فجة،وان صوته خشن،وان وجهه يحمل خطوطاً قاسية . وهي لم تدنه لعدم كسبه المال ، ولم تقترح عليه أن يقوم بعمل غير الرسم ، وطالما حدثها أثناء مسيراتهما عائدين إلى البيت في الغسق الهادىء ، وذراعه حول خصرها ، وصوته يرق تحت تأثير حنانها ، وابان لها لماذا يفضل رسم فلاح في ثوب الحداد على رسم العمدة ، ولماذا يرى البنت الفلاحة ذات الصدار والتنورة الزرقاء المغبرة الممزقة أجمل من سيدة المجتمع . فلم تسأله عما يقول وإنما وافقته على كل شيء . لقد أحبته حباً كاملاً ، على جميع علاته .

ولم يستطع فنسنت أن يعتاد وضعه الجديد . بل توقع في كل يوم أن تنتهي هذه العلاقة ، وان تنقلب مارجو قاسية غير حنون ، وتجابهه باخفاقاته . إلا أن حبها ازداد مع نضج الصيف ، وجعلت تمحضه كمال العطف والتفاني اللذين لا تهبهما إلا المرأة البكر . فلما أعياه أن يراها منقلبة عليه من تلقاء ذاتها ، جعل ينخسها نخساً لكي تدينه ، بتصوير اخفاقاته تصويراً أسود قدر الاستطاعة . إلا أنها لم تتصورها اخفاقات ، وإنما حسابات بسيطة لما فعله وكان ينبغي أن يفعله .

وروى لها قصة اخفاقه التام في امستردام والبوريناج . ويقال — من المؤكد أن ذلك كان فشلاً . فكل ما فعلته كان خطأ . هل تنكرين هذا بعد ؟

فابتسمت له متسامحة وقالت — الملك لا يمكن أن يفعل ماهو خطأ . وانحنى عليها يقبلها .

وفي ذات يوم آخر قالت له — تقول أمي أنك رجل شرير . فقد

سمعت أنك كنت تعيش مع نساء ساقطات في لاهاي.لكنني أفهمتهم أن تلك شائعات فاسدة .

وهنا قص عليها حديث كريستين. وأصغت إليه مارجو وفي عينيها شيء من الحزن الكئيب الذي كان مقيماً فيهما قبل أن يبدده الحب .

وقالت – أتدري يا فنسنت ،ان فيك شيئاً من المسيح . وأنا واثقة أن والدي لو كان حياً لرأى ذلك أيضاً .

– أهذا كل ما يحضرك قوله ، بعدما أخبرتك أنني عشت سنتين مع امرأة مومس .

– هي لم تكن مومساً ، وإنما كانت زوجتك . أما عجزك عن انقاذها فلم يكن غلطتك ، مثلما أن عجزك عن انقاذالبورينيين لا يعيبك فما أقل ما يستطيع رجل واحد أن يفعله في مواجهة حضارة كاملة .

– أصبت . ولقد كانت كريستين زوجتي . وأذكر أنني قلت لأخي ثيو حين كنت أصغر سناً إذا لم أوفق إلى زوجة جيدة ، فسوف أقترن بزوجة رديئة . لأن ذلك أفضل من لا شيء » .

حل بينهما صمت يشوبه توتر طفيف. فلم يسبق ان تداولا موضوع الزواج قبل اليوم . وقالت مارجو – ثمة شيء واحد آسف له في مسألة كريستين ، وهو أنني تمنيت لو أن ذينك العامين من حبك كانا من نصيبي .

توقف بعد ذلك عن محاولاته أن يثنيها عن حبه ، واتخذ حبها أمراً مقبولاً . وقال لها – عندما كنت أصغر سناً يا مارجو ، ظننت أن الأمور تعتمد على الحظ وعلى المصادفات الصغيرة أو المفارقات غير ذات المنطق.

ولكنني وقد تقدمت في السن ، بدأت أتبين دوافع أعمق. ان هناك موثقاً مكتوباً على معظم الناس ، يدفعهم دفعاً ، بواسطة ضرب من القضاء والقدر ، إلى أن يبحثوا زمناً طويلاً عن النور .

-- كما دفعني إلى البحث عنك !

كانا قد وصلا باباً سفلياً يخص منزل أحد النساجين . وضغط فنسنت على يدها بدفء . فمنحته ابتسامة تحمل خضوعاً من أعذب ما يكون، حتى تساءل بينه وبين نفسه ترى لماذا حكم عليه القدر ان يظل محروماً من الحب طوال هذه السنين . ودخلا إلى الكوخ الأشعث . وكان الصيف قد انقضى وحل بعده الخريف ، وبدأ النهار يغدو معتماً . فكان في المنسج مصباح معلق يتدلى على النول وكان العمل جارياً في نسج قطعة قماش حمراء ، والنساج وزوجته يرتبان الخيوط ،وهما في هيئةهيكلين داكنين منحنيين عكس الضوء . يقفان على حدة ، في مقابل لون القماش ، ويعكسان ظلين ضخمين على الجدران الخشبية وعلى وشائع النول . وتبادل فنسنت ومارجو ابتسامة الفهم المشترك ، فقد علمها أن تلتقط الجمال الكامن في الأماكن القبيحة .

ومع حلول تشرين الثاني نوفمبر ، وسقوط أوراق الأشجار خلال بضعة أيام ، كانت نيونن بأسرها تتحدث عن فنسنت ومارجو . ان القرية تحب مارجو ، ولكنها تخاف فنسنت ولا تثق به . وحاولت والدة مارجو وإخوتها الأربع أن يضعن حداً لهذا الموضوع ، ولكن مارجو أصرت على أن الأمر لم يتعد حدود الصداقة ، وتساءلت ما وجه الضرر في السير مع فنسنت في الحقول ؟ وكانت أسرة بيجمان تعرف أن فنسنت عابر سبيل ،

وتوقعت توقع الواثق أن يغادر المنطقة في أي يوم، مما خفف من قلقهم. أما القرية فكان أمرها مختلفاً ، إذ جعلت تردد مرة بعد مرة انه لا خير يرجى في ذلك الفنان جوخ الشاذ ، وان أسرة بيجمان سوف تحصد الندم إذا لم يبعدوا البنت من بين يديه .

ولم يستطع فنسنت قط أن يفهم لماذا ينفر منه أهل البلدة هكذا ، فهو لم يتدخل مع أحد ولم يؤذ أحداً . انه لم يدرك ما كان يجسده من صورة غريبة في هذه القرية الصغيرة الساكنة ،حيث ظلت الحياة على حالها لا تتغير فيها كلمة ولا عادة من العادات طوال مئات السنين . وهو لم يفقد الأمل في حملهم على أن يصبحوا مثله ،إلى أن اكتشف أنهم يرون فيه انساناً متبطلاً . إذ بينما كان يسير في طريقه ذات يوم، مر بصاحب دكان صغير يدعى ديبن فان دين بيك ، فحياه الرجل ، والقى في وجهه بالقفاز نيابة عن القرية .

قال — لقد حل الخريف الآن ، وانتهى الطقس الظريف . ايه ؟

— نعم .

— والمرء يتوقع أن تغادر إلى عملك قريباً . ايه ؟

نقل فنسنت الحامل فوق ظهره إلى وضع أكثر راحة ، وقال — نعم ، إنني في الطريق إلى المروج في البرية .

فقال ديبن — لا . أنا أقصد العمل . أي العمل الحقيقي الذي تشتغل به طوال العام.

وقال فنسنت بهدوء — صنعتي هي الرسم .

— المرء يقصد عملاً تتقاضى عنه المال ، أي وظيفة .

– يا خواجة فان دين بياك . ان الذهاب إلى الحقول كما تراني أفعل الآن هو وظيفتي ، مثلما أن بيع البضائع هو وظيفتك .

– نعم ، ولكنني أبيع البضائع ، فهل تبيع أنت ما تصنع ؟

لقد سأله هذا السؤال نفسه كل انسان تحدث إليه في القرية . وقد بدأ يسأمه من صميم قلبه .

– نعم ، إنني أبيع أحياناً ، ذلك أن أخي وسيط فنون ، وهو يشتري مني .

– يجب أن تذهب للعمل يا خواجة . فليس من صالحك أن تظل متبطلاً على هذا النحو . فالمرء لن يجد لديه شيئاً حينما يكبر في السن .

– متبطل ؟ إنني أعمل قدر ضعف ما تعمل أنت بفتحك هذا الدكان . .

– هل تسمي جلوسك وتلطيخك القماش عملاً ؟ إن ذلك ليس إلا لعب أطفال . فافتح مخزناً . أو احرث في الحقول . فان ذلك هو عمل الرجل الحقيقي . لقد أصبحت في سن لا يجيز لك أن تضيع وقتك .

عرف فنسنت ان ديين فان دين بياك لم يكن إلا صوت الفكرة التي تشاركه اياها القرية كلها ، وان كلمتي فنان وعامل كانتا في عرف الذهن القروي لا تلتقيان أبداً . فلم يعد يعبأ بما يفكر فيه الناس . كما انقطع عن التحدث إليهم حينما يمر في الشارع .وعندما بلغ انعدام (ثقتهم به ذروة مؤثرة وقعت حادثة اعادت اليه العطف .

أصيبت انا كورنيليا بكسر في ساقها أثناء النزول من القطار في هيلموند . وأعيدت إلى البيت فوراً على عجل. وعلى الرغم من أن الطبيب

لم يفض إلى الأسرة بمخاوفه ، فقد كان يخشى على حياتها . وهنا ألقى فنسنت بعمله جانباً دون لحظة تردد. وكانت تجربته في البوريناج قد جعلت منه ممرضاً ممتازاً . حتى ان الطبيب راقبه خلال نصف ساعة ثم قال — انك أفضل من امرأة . وسوف تكون والدتك بين أيد ممتازة .

وتقاطر أهالي نيونن على بيت الكاهن يحملون الأطعمة اللذيذة والكتب والخواطر المطمئنة، ذلك أنهم يبدون من العطف في أوقات الأزمات قدر ما يبدون من القسوة في أوقات التبرم. وجعلوا يحملقون في فنسنت حائرين في أمره كل حيرة. انه يغير ملاءات السرير دون أن يحرك أمه من موضعها، وهو يقوم بما تحتاجه من استحمام ، ويطعمها بيده، ويعتني بجبيرة ساقها . ومضى في ذلك اسبوعان من الزمن ، فاذا بالقرية تغير فكرتها عنه تماماً . إذ أنه كان حين يأتون زائرين يكلمهم بلغتهم . وكانوا يناقشون أفضل الطرق لتجنب القروح التي تنجم عن لزوم السرير . وما الأطعمة التي يجب أن يتناولها المريض ، وفي أية حرارة يجب أن تكون الغرفة . فلما تبادلوا واياه مثل هذه الأحاديث ، وتفاهموا معه ، خلصوا إلى أنه كائن بشري بعد كل حساب . وعندما شعرت والدته بتحسن طفيف ، فأصبح قادراً على الخروج للرسم وقتاً يسيراً كل يوم ، تحدثوا إليه بابتسام ، وخاطبوه باسمه . ولم يعد يرى المصاريع تنشق عند أسفلها شقاً صغيراً ، باباً اثر باب ، أثناء سيره عبر البلدة .

ولزمت مارجو جانبه في جميع الأوقات . وهي الوحيدة التي لم تفاجأ بلطافته . وبينما كانا يتحدثان همساً في حجرة المريضة ذات يوم ، قال فنسنت عرضاً — ان مفتاح كثير من الأمور هو المعرفة المحكمة بالجسد الانساني . ولكن تعلمه يكلف مالاً طائلاً دون شك. وهناك كتاب شيق

عنوانه التشريح لفائدة الفنانين بقلم جون مارشال . ولكنه باهظ الثمن .

— أليس معك مال متوفر ؟

— لا . ولن يتوفر لي إلا بعد أن أبيع شيئاً .

— فنسنت ، سوف يسعدني غاية السعادة أن تتيح لي اقراضك بعض المال . انت تعلم أن لي دخلاً منتظماً ،وانني لا أعرف كيف انفقه قط .

— هذا فضل منك يا مارجو ، ولكنني لا أستطيع .

فلم تلح على ما قالت ، ولكنها قدمت إليه بعد مرور اسبوعين طرداً من لاهاي ، سألها — ماهو ؟

— افتحه وانظر .

وكانت قد شبكت بخيط الطرد ورقة كتبت عليها : من أجل أسعد أعياد الميلاد .

وعجب من ذلك قائلاً — ولكن هذا ليس عيد ميلادي !

فضحكت مارجو وقالت — لا ، انه عيدي أنا ! الأربعون يا فنسنت ، لقد قدمت لي هدية حياتي . فتلطف أيها العزيز وخذ هديتي . انني اليوم سعيدة جداً ، وأتمنى أن تكون بدورك سعيداً.

كانا موجودين في مرسمه بالحديقة ، وما من أحد حولهما . وكانت ويلمين وحدها تجلس بصحبة أمها في المنزل . والوقت ساعة متأخرة بعد الظهر . والشمس الغاربة تلقي رقعة ضئيلة من الضوء على الحائط المبيض بالجير . وأخذ فنسنت يقلب الكتاب بأصابعه برقة . انها المرة الأولى التي

يمد أحد فيها — غير ثيو — يد العون اليه بهذه السعادة كلها . فألقى بالكتاب على السرير ، وأخذ مارجو بين ذراعيه . كانت عيناها غائمتين نوعاً ، بما تحملان من حبه . وكان فنسنت ومارجو خلال الشهور الماضية لا يتبادلان العناق في الحقول إلا قليلاً نادراً ، لخشيتهما أن يراهما أحد . وكانت مارجو طوع العناق له دائماً ، من كل قلبها، في خضوع بالغ السخاء . وقد مرت عليه خمسة شهور حتى اللحظة ، منذ ترك كريستين، فكان يشعر بشيء من التوتر اذ ائتمن نفسه أمانة صعبة . وكان حريصاً على أن لا يفعل شيئاً يؤذي مارجو أو يسيء إلى حبها اياه .

نظر إلى عينيها البنيتين العطوفتين وهو يقبلها . فابتسمت له ، ثم أغمضت عينيها وفتحت شفتيها لتتلقيا شفتيه. وتعانقا عناقاً وثيقاً ، وقد التصق جسداهما بدءاً من الفم حتى اصبع القدم . ولم يكن السرير بعيداً عنهما إلا مقدار خطوة واحدة ، فجلسا عليه . وانساهما هذا العناق الموصود جميع السنوات الخالية من الحب ، التي جعلت حياتيهما مقفرتين.

ثم ان الشمس غابت ، وزالت عن الجدار تلك البقعة من الضوء التي كانت تتربع عليه . واستحمت الغرفة ، التي كانت حظيرة خيل ،بغسق رقيق . وحركت مارجو أصابعها فوق وجه فنسنت، وهي تبعث من حنجرتها أصواتاً غريبة تتحدث بلغة الحب. وأحس فنسنت انه يغرق في هاوية لا مخرج منها إلا التصرف السريع. فانتزع نفسه من بين ذراعي مارجو وقفز واقفاً . وذهب إلى حامل لوحاته فتناول عنه ورقة كان يعمل بها ، ودعكها بين يديه. ولم يكن هناك صوت مسموع إلا نداء العقعق فوق أشجار السنط ،وإلا رنين أجراس الأبقار العائدة إلى البيوت. وبعد هنيهة تكلمت مارجو بهدوء وبساطة .

قالت — إن كنت تريد أيها العزيز ، فذلك لك .

وسأل دون أن يلتفت — لماذا ؟

— لأنني أحبك .

— لن يكون ذلك تصرفاً سليماً .

— قلت لك من قبل يا فنسنت ان الملك لا يمكن أن يفعل ما هو خطأ.

ركع على إحدى ركبتيه . كان رأسها يستلقي على الوسادة ، ولاحظ من جديد الخط الذي يقع على الجانب الايمن من فمها ، ويمتد حتى فكها ، وطبع عليه قبلة . كذلك قبل قنطرة أنفها الضيقة ، ومنخريها الممتلئين ، وجرى بشفتيه فوق بشرة وجهها التي أصبحت . أنضر من ذي قبل بعشر سنوات . وفي هذه الحال التي هي عليها الآن ، وسط الغسق ، مستلقية منفتحة العاطفة وذراعاها حول عنقه ، تجلى في هيئتها ما كانت عليه حتماً من الجمال وهي ابنة عشرين سنة .

قال — انني أحبك أيضاً يا مارجو ، ولم أكن أعرف ذلك قبلاً ، ولكنني أمسيت أعرفه الآن .

إنه لم يحبها كما أحب أورسولا وكاي ، بل انه لم يحبها كما أحب كريستين . ولكنه أحس بشيء بالغ الرقة تجاه هذه المرأة التي تستلقي بهذا التسليم كله بين ذراعيه.وكان يعلم أن الحب يشتمل على كل علاقة انسانية تقريباً . وقد آلمه في الصميم أن يخطر له أنه لم يشعر إلا أقل الشعور تجاه المرأة الوحيدة التي أحبته في هذا العالم دون أي تحفظ ، وتذكر الأسى الذي أصابه لأن أورسولا وكاي لم تبادلاه حباً بحب. إنه يجل حب مارجو الكاسح . ولكنه من ناحية يصعب شرحها ،رأى فيه تفاهة تثير الاشمئزاز .

وبينما هو راكع على الأرض الخشبية ، في غرفة الحظيرة المظلمة، وذراعاه تحت رأس المرأة التي أحبته كما أحب أورسولا وكاي، فهم أخيراً لماذا هربت منه المرأتان .

لكنه قال — مارجو . ان حياتي حياة بائسة ، لكنني سأكون سعيداً جداً إذا شاركتني إياها .

— أريد أن أشاركك إياها أيها العزيز .

— في وسعنا البقاء هنا في نيونن ، أم هل تفضلين ان تذهبي إلى مكان آخر بعد الزواج ؟

مسحت رأسها في ذراعه بدلال وقالت — ماذا قالت روث ؟ « سأذهب حيث تذهب » .

— ٦ —

لم يكونا مستعدين بأي شكل من الأشكال للعاصفة التي اندلعت في الصباح التالي ، حينما افضيا لأسرتيهما بالانباء . أما بالنسبة لأسرة فان جوخ ، فكانت المشكلة ببساطة مشكلة المال . كيف يجوز له أن يتخذ لنفسه زوجة ، في حين أن ثيو هو الذي يعوله ؟

قال أبوه — ينبغي أن تكسب المال وان تضبط أمور حياتك **أولاً** ، وبعد ذلك تتزوج .

وأجاب فنسنت — اذا ضبطت حياتي بالمجاهدة في أمر الحقيقة العارية المتعلقة بمهنتي ، فان كسب المال سيأتي في وقته المناسب .

— عليك ، من باب أولى ، أن تتزوج في الوقت المناسب ، وليس الآن !

على ان الأشكال في بيت الكاهن كان زوبعة صغيرة بالقياس إلى ما يحدث في البيت المجاور ، بيت النساء . فلما كانت الأخوات الخمس كلهن غير متزوجات ، فان أسرة بيجمان كانت مؤهلة لمواجهة العالم كله في جبهة متراصة . فزواج مارجو ، لو حدث ، لكان دليلاً حياً على فشل البنات الأخريات . وقد خطر لمدام بيجمان ان من الأفضل تجنيب اربع من بناتها عاقبة تعاسة تضاف إلى تعاستهن على تحقيق السعادة لابنة واحدة .

في ذلك اليوم امتنعت مارجو عن الذهاب معه الى النساجين . لكنها جاءت إلى المرسم في وقت متأخر بعد الظهر . وقد انتفخت عيناها وتورمتا وظهرت عليها سنواتها الأربعون أكثر من أي وقت آخر . وصمت فسننت اليها لحظة ، بنوع من العناق اليائس .

وقالت :

– لقد كن يحقرنك بشكل مخيف طيلة النهار . وانني لا أعرف كيف يمكن أن يشتمل رجل على هذه المساوىء كلها ، ثم يظل على قيد الحياة .

– كان عليك ان تتوقعي ذلك .

– توقعته . ولكن لم يخطر لي انهن قد يهاجمنك هذا الهجوم الوضيع .

طوقها بذراعه في رقة وقبل خدها وقال :

– لا عليك ، واتركيهن لي . سأحضر إلى بيتك الليلة بعد العشاء ، عساي اقنعهن بانني لست الشخص الفظيع الذي تخيلنه .

وحالما وطأت قدمه بيت بيجمان عرف انه أصبح في منطقة غريبة

معادية . وكان ثمة شيء مشؤوم في ذلك المناخ الذي يشكله وجود ست نساء ، وما من ذكر يصدر صوتاً أو يخطو خطوة تحرك هذا الجو الانثوي .

واقتيد إلى غرفة الاستقبال . وهي باردة ذات عفونة ، لم يحل بها الناس منذ شهور مضت . وكان فنسنت يعرف اسماء الشقيقات الاربع ، ولكنه لم يتكلف مؤونة توزيع الاسماء على الوجوه . وكانت كل واحدة منهن نسخة كاريكاتورية من مارجو . وقد اضطلعت الشقيقة الكبرى التي تدير شؤون البيت بمهمة اجراء الاستجواب .

– تقول لنا مارجو انك راغب في الزواج منها . فهل يمكن للمرء ان يسأل ماذا حدث لزوجتك في لاهاي .

فأوضح لها فنسنت موضوع كريستين . وهبطت درجة حرارة غرفة الاستقبال بضع درجات .

– وكم عمرك يا خواجة فان جوخ ؟

– احدى وثلاثون .

– هل اخبرتك مارجو انها تبلغ الا ...

– اعرف سن مارجو .

– هل يمكن للمرء ان يسأل كم تكسب في الشهر ؟

– مائة وخمسون فرنكاً في الشهر .

– وما مصدر ذلك الدخل ؟

– يرسله لي اخي .

– اتعني ان اخاك يعولك ؟

– لا . انه يدفع لي اجراً شهرياً ، ويحصل في المقابل على جميع ما ارسم .

– كم يبيع من رسومك ؟

– لا استطيع حقاً ان اعرف .

– ولكنني استطيع . لان والدك اخبرني ان اخاك لم يبع اية صورة من صورك حتى اليوم .

– سيبيعها فيما بعد . وسوف تعود عليه حينذاك باضعاف ما يمكن ان تعود عليه الان .

– اقل ما يقال في هذا انه مشكل ، ما دمنا نناقش الوقائع .

كان فنسنت يدرس وجهها الصعب العاطل عن الجمال . وما كان له ان يتوقع عطفاً من هذه الجهة .

واستطردت تقول :

– ما دمت لا تكسب اي شيء ، فهل يمكن ان يسمح للمرء بالسؤال كيف تستطيع ان تعيل زوجة ؟

– ان اخي اختار ان يقامر علي بمبلغ مائة وخمسين فرنكاً في الشهر . وهذا شأن يخصه ولا يخصك . فالمبلغ يظل من وجهة نظري راتباً لي ، اعمل عملاً شاقاً لنواله . ويمكن لي ولمارجو ان نعيش على ذلك الراتب اذا احسنا التدبير .

وصرخت مارجو :

– لكننا غير مضطرين ! فان لدي ما استطيع ان ارعى به اموري .

وقالت شقيقتها الكبرى آمرة :

– الزمي الهدوء يا مارجو !

وقالت امها :

– تذكري يا مارجو انني املك صلاحية وقف ذلك الدخل اذا فعلت شيئاً يشين اسم العائلة .

وابتسم فنسنت سائلاً :

– وهل في الزواج مني ما يشين ؟

– نحن لا نعرف عنك الا القليل يا خواجة فان جوخ . وذلك القليل لا يبشر بخير . منذ متى تعمل رساماً ؟

– منذ ثلاث سنوات .

– وانت غير ناجح بعد . فكم سيستغرق الامر حتى تغدو ناجحاً ؟

– لا اعرف .

– وماذا كان عملك قبل ان تشرع في الرسم ؟

– وسيط فنون ، ومعلم ، وبائع كتب ، وطالب لا هوت ، ومبشر بروتستانتي .

– وفشلت فيها جميعاً ؟

– بل تركتها من تلقاء نفسي .

– لماذا ؟

– لانني لم اكن ملائماً لها .

– وكم سيطول امرك حتى تترك الرسم ؟

فصاحت مارجو :

– لن يفعل ابداً !

وقالت الاخت الكبرى :

– يبدو لي يا خواجة فان جوخ انك تتطاول اذ تمد عينك إلى الزواج بمارجو . فانت انسان متواضع القدر لا امل فيه . وانت لا تملك فرنكاً باسمك ، ولا حيلة لك في كسب فرنك واحد . وانت عاجز عن المثابرة على اي نوع من العمل ، وانما تتسكع هنا وهناك كالمتبطل المتسول . فكيف نغامر بالسماح لاختنا ان تقترن بك ؟

مد فنسنت يده وتناول غليونه ، ثم تركه ثانية .

– مارجو تحبني ، وانا احبها . وفي وسعي ان اسعدها . وسوف نعيش هنا سنة أو أكثر ثم نسافر إلى الخارج . ولن يكون مني تجاهها الا الحنان والحب .

وصرخت واحدة من الشقيقات الاخريات ، ذات صوت أكثر حدة :

– سوف تهجرها ! سوف تملها وتهجرها من أجل امرأة وضيعة كتلك المرأة التي عرفتها في لاهاي .

وقالت شقيقة اخرى :

– انك انما تريد زواجها طمعاً بمالها !

واعلنت الثالثة :

– ولكنك لن تحظى به ، فالوالدة ستعيده إلى القيم .

ترقرقت الدموع في عيني مارجو . وادرك ان لا جدوى من

اضاعة الوقت مع هؤلاء النساء المشاكسات . فما عليه الا ان يقدم ببساطة على الزواج من مارجو في بلدة ايندهوفن ، ثم يغادران فوراً إلى باريس . واذا كان غير راغب بعد في مفارقة البرابانت ، لانه لم ينجز عمله هناك ، فانه كان يرتعد عندما يتخيل مارجو متروكة وحدها في منزل النساء العقيمات .

ووقعت مارجو في الايام التالية تحت طائلة المقاساة . فقد شرع الثلج يسقط لاول مرة ، واضطر للعمل داخل مرسمه . وعمدت اسرة بيجمان إلى منع مارجو من زيارته . وكن يقرعن اذنها بالخطب المسهبة ضد فنسنت طيلة النهار ، منذ نهوضها من فراشها حتى اللحظة التي يتركنها فيها حين تتظاهر بالنوم . لقد عاشت مع عائلتها منذ اربعين عاماً ، ولم تتعرف إلى فنسنت الا منذ شهور قليلة . وكانت تكره شقيقاتها ، لانها تعرف انهن دمرن حياتها ، غير ان الكراهية ليست الا نوعاً من اشد انواع الحب غموضاً ، وهي في بعض الاحيان تستولد احساساً قوياً بالواجب .

وحدثها فنسنت قائلاً :

– لا افهم لماذا لا تفرين معي ، أو تتزوجينني على الأقل حيث نحن ، دون موافقتهم .

– لن يسمحوا لي .

– اهي امك ؟

– بل اخواتي . فامي لا تفعل غير ان تقعد وتوافق .

– وهل يهمك ما تقوله اخواتك ؟

— هل تتذكر كيف حدثتك اني حين كنت صبية يافعة وقعت في هوى احد الاولاد ؟

— نعم .

— وكيف منعن ذلك . اعني شقيقاتي . اني لا اعرف لماذا . فقد كان دأبهن طيلة حياتي ان يمنعنني مما أريد . فاذا قررت الذهاب في زيارة لبعض اقاربنا في المدينة وقفن دون سفري ، واذا اشتهيت القراءة منعن عني افضل الكتب في البيت . وكلما دعوت رجلاً إلى المنزل لم يلبثن بعد انصرافه من الزيارة حتى يقطعن لحمه ارباً بما يغتبنه ، لكي لا انظر في وجهه بعد ذلك . ولقد اردت ان اصنع من حياتي شيئاً ما ، فاغدو ممرضة ، أو ادرس الموسيقى ، لكن هيهات . انما ينبغي لي ان افكر فيما يفكرن فيه وان اعيش كما يعشن ، حذوك النعل بالنعل .

— والان ؟

— والان لن يسمحن لي بالزواج منك .

كان صوتها خلوا من الحياة الجديدة التي دبت فيه قبلا . كذلك جفت شفتاها ، وبرزت التجاعيد الصغيرة على بشرتها تحت العينين .

— لا تبالي بهم يا مارجو . سوف نتزوج ونضع بزواجنا نهاية لكل شيء . ولطالما اقترح علي اخي ان اذهب إلى باريس . فلنذهب ولنقم هناك .

قالت بصوت خال من القوة والايمان .

— لا . إنني سأقتل نفسي يا فنسنت إذا حلن بيني وبينك . لأنني

لا أقوى على تحمل ذلك بعد ما صرت مغرمة بك . سأقتل نفسي . وهذا كل شيء .

– لا حاجة بنا الى اطلاعهن مقدماً . فلنتزوج أولاً ، ثم نخبرهن بزواجنا فيما بعد .

– لا أستطيع ان اضادهن ، فهن أكثر مني بكثير ، ولا أستطيع ان أحاربهن جميعاً .

– حسناً ، لا تتكلفي أمر حربهن . وإنما تزوجي مني ، فتكون في ذلك نهاية الأمور .

– لن تكون النهاية وإنما البداية . انك لا تعرف شقيقاتي .

– ولا أريد أن أعرفهن ! على أنني سأقوم بمحاولة أخرى معهن هذه الليلة .

وأدرك بمجرد دخوله قاعة الاستقبال أن الأمر عبث . فقد كان ناسياً هذا الجو الجليدي الذي يسود المكان .

وقالت الشقيقة :

– سمعنا هذا الكلام سابقاً يا خواجة فان جوخ ، وهو كلام لا يقنعنا ولا يؤثر فينا . ان لنا حكمنا في هذا الموضوع . اننا نريد أن تكون مارجو سعيدة ، ولكننا لا نريدها أن تفرط بحياتها وقد قررنا أننا مستعدات لسحب اعتراضاتنا في حالة مرور عامين كاملين ، تثبتان في أعقابهما على رغبتكما في الزواج .

– عامان !

وقالت مارجو :

ـ لن أكون هنا بعد عامين .

ـ أين ستكونين اذن ؟

ـ سأكون ميتة . سأقتل نفسي إذا لم تسمحن لي بالزواج منه .

وهبت الشقيقات إلى لومها بسيل من العبارات من مثل « كيف تجرؤين على قول شيء كهذا ؟ و « هل ترين مبلغ تأثيره عليها » فاغتنم فنسنت الفرصة ولاذ بالفرار . اذ استنفد كل ما يمكنه أن يفعل ولم يبق مزيد .

لقد ظهرت على مارجو آثار السنوات الحافلة بسوء الانسجام مع بيئتها . فجهازها العصبي غير قوي ، كما أن صحتها ليست على ما يرام وأخذت روحها المعنوية تهبط شيئاً فشيئاً كل يوم ، تحت وطأة الهجوم الكاسح الذي شنته عليها النساء الخمس المليئات بالتصميم . ولو أنها كانت من بنات العشرين لشقت طريقها بالقوة دون أن يصيبها أذى ، ولكن مارجو أصيبت بهزيمة في عزيمتها وقدرتها على المقاومة . وظهرت التجاعيد على وجهها ، وعاود الحزن القديم عينيها ، وأصبحت بشرتها شاحبة خشنة . وازداد الخط الكائن فوق جانب فمها الأيمن غوراً وعمقاً .

وتبخرت عاطفة فنسنت نحوها بقدر ما فقدت من جمالها . والحقيقة انه لم يحبها من ناحيته ، ولا كانت مشيئته أن يتزوجها ، وقد غدا الآن أقل رغبة فيها من قبل . فأحس بالخجل من قساوة قلبه التي جعلته على الرغم من ذلك متحمساً لمبادلتها الحب ، ولم يدر هل تراها حدست حقيقة . مشاعره .

سألها وقد استطاعت يوماً أن تفر إلى مرسمه بضع دقائق :

– هل تحبينهن يا مارجو أكثر مما تحبينني ؟

فصوبت نحوه نظرة دهشة وتأنيب ، وقالت :

– أوه ، فنسنت .

– لماذا تريدين اذن أن تعدلي عني ؟

ارتمت في ذراعيه كأنها طفل تعب . وكان صوتها خفيضاً ضائعاً. قالت :

– لو إنني أعتقد أنك تحبني قدر ما أحبك ، لوقفت في وجه العالم كله . ولكن الأمر لايعني لك إلا القليل . . . وهو يعني لهن الكثير . . .

– مارجو ، أنت مخطئة . إنني أحبك . . .

وضعت اصبعها برقة على شفتيه وقالت :

– لا أيها العزيز ، أنت تود ذلك . ولكن هذا ليس واقع الحال . لا يكن في ذلك ما يثقل على ضميرك ، فأنا أريد أن أكون أشد حباً لك.

– لماذا لا تخلعين نفسك منهن ، وتكونين سيدة نفسك ؟

– هين عليك أن تقول هذا ، فأنت قوي وتستطيع أن تحارب ايما انسان . اما انا فانني في الأربعين من عمري . . . وقد ولدت في نيونن... ولم أخرج في حياتي إلى أبعد من ايندهوفن . ألا ترى أيها العزيز أنني لم أخلع نفسي من أي انسان أو أي شيء طيلة حياتي .

– بل أرى .

– لو أن هذا شيء تريده أنت يا فنسنت ، لحاربت من أجلك بكل قواي ، ولكنني أنا من يريد هذا الشيء ، وقد جاء بعد فوات الأوان على كل حال . . . لأن حياتي ولت وانتهت . . .

تهافت صوتها حتى انقلب همساً . فرفع فنسنت ذقنها بسبابته ، وأسندها بابهامه . ورأى في عينيها دموعاً مكتومة . فقال لها :

— يا فتاتي العزيزة ، يا مارجو الغالية . ان في وسعنا أن نحيا حياة طويلة معاً . وكل ما هو مطلوب منك أن تنطقي بكلمة واحدة . احزمي ملابسك الليلة أثناء نوم أسرتك ، وناوليني اياها من الشباك . وسوف نمضي إلى ايندهوفن ونلحق بقطار الصباح الباكر .

— لا فائدة من ذلك أيها العزيز . إنني جزء منهن ، وهن جزء مني . على أنني سأجد لي طريقاً في نهاية الأمر .

— مارجو ، أنا لا أستطيع احتمال رؤيتك تعيسة بهذا الشكل .

التفتت بوجهها اليه . وقد انقشعت الدموع ، وابتسمت تقول :

— لا يا يافنسنت . أنا سعيدة . لقد نلت ما أردت . وقد كان رائعاً أن أحبك . قبلها ، ووجد على شفتيها طعم الملح من الدموع التي سالت على خدها .

وقالت بعد هنيهة :

— السماء لم تعد تثلج . فهل ستخرج للرسم في الحقول غداً ؛ ؟

— نعم . أظن هذا .

— أين ستكون ؟ إنني قادمة إليك بعد الظهر .

بدأ عمله متأخراً في النهار التالي ، وقد اعتمر قبعة من الفراء فوق رأسه ، وأحكم شد كنزته القطنية حول رقبته . كانت شمس الأصيل في لون البنفسج الموشى بالذهب ، يعلو هياكل الأكواخ الداكنة المترامية وسط

كتل الأدغال المتوردة . وكانت أشجار الجوز تنهض في العلاء مكتسبة سواداً زائداً ، أما في الواجهة فكان يغلب اللون الأخضر الفاتح بدرجاته المختلفة ، تتخلله شرائط التربة السوداء وأعواد القصب الجاف الشاحب على أطراف قنوات المياه .

جاءت مارجو تسير مسرعة عبر الحقل ، وقد ارتدت الثوب الأبيض ذاته الذي رآها ترتديه في لقائهما الأول ، وألقت وشاحاً على كتفيها . ولاحظ لمسة خفيفة من اللون في خديها. فبدت شبيهة بالمرأة التي تفتحت في ظلال الحب اروع تفتح قبل أسابيع قليلة . وكانت تحمل سلة صغيرة من سلال العمل في يديها .

وألقت ذراعيها حول عنقه فأحس بقلبها الملتصق بصدرة يدق دقات وحشية . وأمال رأسها إلي الخلف ونظر داخل حدقتيها البنيتين فاذا بالحزن قد انقشع .

سألها :

– ما الأمر ؟ هل حدث شيء ؟

فصاحت :

– لا ، لا ، كل ما هناك أنني . . . انني سعيدة . . . لأنني معاك ثانية .

– ولكن لماذا خرجت بهذا الثوب الخفيف ؟

صمتت لحظة ثم قالت :

– فنسنت ، مهما ابتعدت عني فثمة شيء واحد أريدك أن تظل دائماً تتذكره عني .

ـ ما هو يا مارجو ؟

ـ انني أحببتك ! تذكر دائماً أنني أحببتك أكثر ما أحببتك أية امرأة أخرى في حياتك كلها .

ـ لكن لماذا ترتجفين هكذا ؟

ـ لا شيء إلا أنهن احتجزنني ، ولذا تأخرت عليك . هل أوشكت أن تفرغ ؟

ـ خلال لحظات قليلة .

ـ دعني اذن أجلس خلفك وأنت تعمل ، كما اعتدت من قبل . انك تعرف أيها العزيز انني لم أشأ يوماً أن أعترض عملك أو أن أعوقك. وكل ما أردته هو أن تدعني أحبك .

ـ نعم يا مارجو .!

ولم يجد شيئاً آخر يضيفه .

ـ انصرف إلى عملك اذن يا حبيبي ، وافرغ منه . . . ليتسنى لنا الذهاب إلى بيوتنا معاً .

ارتعشت قليلاً ، فتدثرت بالوشاح وقالت :

ـ قبل أن تبدأ يا فنسنت قبلني قبلة أخرى فقط ، مثلما قبلتني .. تلك المرة . . في مرسمك . .عندما كنا في غاية السعادة وكل منا بين ذراعي الآخر .

قبلها برقة . وقربت ثوبها حول جسدها وجلست خلفه . وغربت الشمس،وخيم الغسق الذي ينهي نهار الشتاء القصير ، فوق المدى المنبسط. وشملهما هدوء المساء الريفي .

سمع صوت صلصلة قنينة . ونهضت مارجو على ركبتيها وصرخت صرخة نصف مكتومة ، ثم انهارت على الأرض في تشنجة عنيفة. وقفز فنسنت والقى بنفسه أمامها . كانت عيناها مغمضتين ، وعلى وجهها ابتسامة ساخرة . وتوالت عليها سلسلة من النوبات التشنجية السريعة . ثم تصلب جسدها وتقوس إلى الخلف، والتوى ذراعاها . وشاهد فنسنت داخل فم القنينة فضلة بيضاء بللورية ، ولم يشم لها رائحة.

التقط مارجو بين ذراعيه وركض بين الحقول في جنون . كان يبعد عن نيونن مسافة كيلو متر واحد . وخشيء أن تموت قبل أن يتمكن من اعادتها إلى القرية . وكان الوقت يتقدم ساعة العشاء بساعة واحدة ، والناس جالسون خارجاً أمام أبواب بيوتهم . وكان طريق فنسنت يمر بالطرف الأقصى للبلدة ، فلابدله من الركض عبر القرية بطولها ، وهو يحمل مارجو بين ذراعيه . ووصل منزل بيجمان ، فركل الباب وفتحه بضربة من حذائه ، وسجى مارجو في غرفة الاستقبال فوق الأريكة . وجاءت الأم والشقيقات يركضن على عجل.

صاح :

– مارجو تناولت السم ! سآتي بالطبيب !

خرج يعدو إلى طبيب القرية ، وانتزعه من فوق طاولة عشائه ، وسأله الطبيب :

– هل أنت متأكد انه الاستركنين ؟

– هذا ما بدا لي .

– وكانت حية عندما وضعتها في البيت ؟

— نعم .

وحين دخلا إلى البيت كانت مارجو تتلوى على الأريكة. وانحنى عليها الطبيب . وقال :

— صحيح أنها تناولت الاستركنين ، ولكنها أخذت شيئاً آخر معه لتلافي الألم ، ويبدو لي من رائحته أنه صبغة الافيون .ولم تدرك أنه يفعل فعل ترياق ضد الاستركنين .

فسألته أمها :

— فهل ستعيش يا دكتور ؟

— ثمة فرصة أمامها . يجب أن ننقلها إلى اوترخت فوراً لأن الحالة تستدعي وضعها تحت مراقبة مستمرة .

— هل توصي بمستشفى معين في اوترخت ؟

— لا أنصح بمستشفى . وإنما الأفضل ادخالها إلى مصحة لبعض الوقت . انني أعرف مصحة جيدة . عليكم بتجهيز عربتكم الآن ، لكي نلحق بالقطار الأخير الذي يغادر ايندهوفن .

وقف فنسنت صامتاً في ركن معتم . وجيء بالعربة أمام البيت . ولف الطبيب مارجو ببطانية ثم حملها إلى الخارج . وتبعته أمها والشقيقات الخمس . وسار فنسنت في المؤخرة . وكانت عائلته واقفة على باب البيت المجاور عند المدخل . وقد تجمعت القرية كلها أمام بيت بيجمان . وساد الصمت الرهيب حينما خرج الطبيب يحمل مارجو بين ذراعية . ورفعها إلى العربة . وركبت النسوة وراءه . ووقف فنسنت بجوار العربة . وأمسك الطبيب بأعنة الخيل . والتفتت أم مارجو ورأت فنست وصاحت :

— انت الذي فعل ذلك ! انت الذي قتل ابنتي .

نظر الجميع نحو فنسنت . وهمز الطبيب الخيل بالسوط. ثم اختفت العربة أسفل الطريق .

— ٧ —

قبل أن تكسر أم فنسنت ساقها ، كان أهل القرية نافرين من فنسنت لأنهم لم يثقوا به ولم يستطيعوا فهم أسلوبه في الحياة . إلا أن هذا النفور لم يتخذ مظهراً نشطاً . أما الآن فقد انقلبوا عليه انقلاباً عنيفاً ، وصار يحس بكراهيتهم تحدق به من جميع الجهات . فما أن يقترب حتى تدار له الظهور ، ولا يكلمه أحد ولا ينظر اليه أحد . وهكذا أصبح منبوذاً.

ولم يحمل هم ذلك من أجل شخصه – فما زال النساجون والمزارعون في أكواخهم يقبلون صداقته– ولكن حين امتنع الناس عن القدوم لزيارة والديه في منزل الكاهن ، أدرك فنسنت انه يجب الرحيل .

وعرف أن أفضل ما يمكنه القيام به هو مغادرة البرابانت أصلاً وترك والديه في سلام . ولكن إلى أن يذهب ؟ ان البرابانت موطنه . وانه ليرغب في العيش فيها عيشاً دائماً . وهو يرغب في رسم الفلاحين والنساجين ، ويجد في ذلك المبرر الحق لعمله . وهو يستطيب التغلغل في الثلوج شتاء، والتغلغل في الأوراق الصفراء خريفاً،والتجول بين سنابل القمح الناضجة صيفاً ، وبين الأعشاب الخضراء في الربيع . وهو يستطيب العيش بين الحصادين وفتيات المزارع ، تظله السماء الزرقاء الفسيحة في الصيف، ويصطلي جانب النار في الشتاء ؛ ويحس أن الأمور جرت على هذا المنوال منذ القديم ، وأنها ستجري على هذا المنوال مادامت الحياة .

لقد رأى في شخصية انجيلوس ، التي ابدعها خيال ميليه ، اقرب شخصية في الوجود إلى المخلوق السماوي . ورأى في بساطة الحياة الريفية الحقيقة الوحيدة الدائمة . وأحب الرسم في موقع المنظر ، خارج الابواب المغلقة . وربما اضطره ذلك إلى تكلف ابادة مئات الذباب ومصارعة الغبار والتراب ، وحمل اللوحات على مدى ساعات عديدة عبر المروج والسياجات ، مما يعرضها للخدوش ، ولكنه اذ يعود إلى مأواه ، يحس انه كان مع الحقيقة وجهاً لوجه وانه ظفر بشيء من بساطتها الاولية . وما ضر اذ فاحت من رسوماته الفلاحية روائح اللحم والدخان وبخار البطاطس ! ان من طبيعة الاسطبل ان يفوح برائحة الروث . ولا ضير في ان تتأرج الحقول بعبير القمح الناضج أو ذرق الطيور أو السماد ، فان في ذلك صحة ، ولا سيما للقادمين من المدن .

وتمكن من حل مشكلته في القرية بطريقة بسيطة جداً . فقد كانت كنيسة الكاثوليك واقعة على مسافة قريبة اسفل طريق القرية ، وإلى جوارها منزل الوكيل جوهانوس شافراث الذي كان قبل توليه شؤون الكنيسة يعمل حائكاً . وكانت زوجته ادريانا انسانة طيبة ، عمدت إلى تأجير غرفتين من منزلها إلى فنسنت ، يخالجها نوع من الغبطة لأنها استطاعت ان تمد يداً للرجل الذي انقلبت القرية بأسرها ضده .

كان منزل شافراث مؤلفاً من شطرين يفصل بينهما مدخل كبير في المنتصف ، فالى يمين الداخل يقع مسكن العائلة ، وإلى اليسار غرفة جلوس واسعة تطل على الطريق ، وإلى الخلف منها غرفة أصغر حجماً . وقد أصبحت غرفة الجلوس مرسماً لفنسنت ، والغرفة الخلفية مخزناً

لحاجياته . واستخدم جزءاً من السقيفة العلوية المشمسة لنومه . وكان نصفها الاخر يستخدم لنشر الغسيل . اما النصف الذي شغله فنسنت فكان فيه سرير معلق وكرسي . فاذا حل الليل القى فنسنت ملابسه فوق الكرسي ، وقفز إلى السرير ، ودخن حشوة غليون وهو يتأمل الغسق المتلاشي في الظلمة ، حتى يغلبه النعاس فينام .

علق على جدران المرسم لوحاته المائية والطباشيرية ، التي تمثل رؤوس رجال ونساء ذوي تقاطيع شديدة البروز اشبه بتقاطيع الزنوج وما تتسم به من انوف فطساء وعظام فك بارزة ، وآذان كبيرة . وثمة رسوم تصور نساجين وانوالاً ، ونساء يدفعن مكوك الخيوط في النول ، وفلاحين يزرعون البطاطس . ونشأت الصداقة بينه وبين اخيه كور فصنعا خزانة معاً ، وجمعا فيها ثلاثين عشاً على الأقل من اعشاش الطيور المختلفة ، كما جمعا سائر اصناف الطحالب والاعشاب من المروج ، وجمعا وشائع خيوط ، وعجلات مغازل ، ومدافىء اسرة ، وادوات فلاحة ، وقبعات وقلنسوات قديمة ، واحذية خشبية ، وصحوناً ، وكل ما يتصل بالحياة الريفية . بل انهما وضعا في الركن الخلفي شجرة صغيرة .

وانكب على العمل ، واكتشف ان حبر البستر والبتلومين اللذين هجرهما معظم الرسامين ، كانت لهما ميزة في اكساب تلوينه نضجاً وطراوة ، واكتشف في معرض تجاربه اللونية انه يستطيع باضافة قليل من الأصفر إلى لون ما ان يجعله أصفر جداً ، وذلك اذا وضعه تاليا للبنفسجي أو الليلكي .

وتعلم أيضاً ان العزلة نوع من السجن .

وفي آذار مارس ، وبينما كان والده عائداً من مسيرة طويلة في المروج زار خلالها فرداً مريضاً من رعيته ، اذا به يتعثر في كومة من الركام على الدرجات الخلفية للمنزل فيؤدي سقوطه إلى الوفاة . وحينما هرعت اليه انا كورنيليا كان قد فارق الحياة . ودفن في الحديقة قرب الكنيسة القديمة . وحضر ثيو مراسم الدفن . وفي تلك الليلة جلسا في مرسم فنسنت ، يتحدثان اولاً في شؤون الاسرة،ثم في شؤون اعمالهما .

قال ثيو :

– تلقيت عرضاً للعمل بأجر قدره الف فرنك شهرياً ، اذا انا تركت جوبل والتحقت ببيت آخر للفنون .

– هل ستقبل العرض ؟

– لا اعتقد . لان فكرتي عنهم ان سياستهم تجارية صرفة .

– ولكنك كتبت لي ان جوبل ...

– اعرف ذلك . (السادة) أيضاً يسعون إلى الربح الكبير ، غير انني عملت معهم مدة اثني عشر عاماً . فلماذا استبدل عملاً بعمل لقاء حفنة من الفرنكات ؟ ان ارباب عملي الحاليين قد يعينونني مديراً لأحد فروعهم يوماً ، فاذا فعلوا ، تمكنت في البدء من بيع انتاج الانطباعيين .

– الانطباعيون ؟ اذكر انني رأيت هذا الاسم في مطبوعة ما . فمن يكونون ؟

– اوه . ما هم الا الرسامون الشبان الذين يعيشون حول باريس مثل ادوار مانيه ، وديجا ، ورينوار ، وكلود مونيه ، وسيسلي ، . وكوبريه ، ولوتريك ، وجوجان ، وسيزان ، وسوارت .

– ومن أين جاؤوا باسمهم ؟

– جاؤوا به منذ ايام معرض ١٨٧٤ في نادار ، ففي ذلك المعرض قدم كلود مونيه لوحة جعل عنوانها : انطباع – الشمس تشرق . واذا بناقد فني في احدى الجرائد ، يدعى لويس لوروى ، يطلق على المعرض وصف معرض الانطباعيين ، واذا بالتسمية تلصق بهم .

– هل يعملون بألوان فاتحة أم غامقة ؟

– اوه ، فاتحة ! انهم يحتقرون الألوان الغامقة .

– اذن لا اعتقد انني استطيع ان اعمل معهم . ذلك انني اود ان اغير ألواني ، ولكن إلى الاغمق لا إلى الأفتح .

– قد تفكر على نحو مختلف اذا جئت إلى باريس .

– ربما . وهل بينهم من يبيع ؟

– بيعت بعض لوحات مانيه عرضاً في محل دوران – ريل .

– وكيف يعيشون ما دام الامر هكذا ؟

– الله وحده العليم . يعتمدون على الالعبانيات غالباً . ان روسو يعطي دروساً في الموسيقى للاطفال . وجوجان يقترض من اصدقائه السابقين في سوق البورصة ، وسوارت تعوله امه ، وسيزان يعوله ابوه . ولا افهم من أين يحصل الباقون على المال .

– اتعرفهم جميعاً يا ثيو ؟

– نعم ، اتعرف اليهم شيئاً فشيئاً. وقد حاونت اقناع (السادة) باعطائهم ركناً صغيراً للعرض في جوبل ، الا انهم يأبون ان يلمسوا اية لوحة لاي انطباعي ، ولو بعازل طوله عشرة اقدام .

— يخيل لي ان هؤلاء الفنانين هم الفئة التي ينبغي ان التقي بها . اسمع يا ثيو ، انك لا تفعل شيئاً على الاطلاق في سبيل تعريفي بفنانين آخرين يكون لهم شأن في خض افكاري واثارة خيالي .

مشى ثيو حتى نافذة المرسم الامامية ، وأخذ ينظر إلى الخارج نحو بقعة الحشائش الصغيرة التي تفصل بيت وكيل الكنيسة عن طريق اندهوفن .

وقال : — تعال اذن إلى باريس واقم معي . إني متأكد انك ستأتي حتماً في نهاية الأمر .

— لست جاهزاً بعد . ما زال هنا عمل يجب ان افرغ منه اولاً .

— حسناً ، ولكنك اذا ظللت في الاقاليم فلا تأمل في الاجتماع برفاق الفن .

— قد يكون هذا صحيحاً . ولكن هناك شيئاً واحداً لا استطيع ان افهمه يا ثيو.وهو انك لم تبع حتى اليوم ولو رسماً واحداً من رسومي أو لوحة من لوحاتي . والحقيقة انك لم تحاول مجرد محاولة قل لي هل حاولت ؟

— لا .

— لم لا ؟

— عرضت اعمالك على خبراء . وهم يقولون ...

هز فنسنت كتفيه قائلاً :

— اوه ، الخبراء ! انني على علم جيد بالتوافه التي تهيمن على

اذواقهم . وينبغي لك حتماً يا ثيو ان تعلم ان وجهات نظرهم لا تكاد تعي الخصائص الاصيلة لاية قطعة من الاعمال الفنية .

– حسناً ، لا استطيع ان اقول هذا . ان عملك يوشك ان يكون قابلاً للبيع ولكن ...

– ثيو ، ثيو ، ان هذه الكلمات بعينها هي ما كتبته لي تعليقاً على اول رسومات ارسلتها لك من ايتن .

– انها كلمات صحيحة يا فنسنت ، اذ يبدو دائماً انك على شفا الوصول إلى النضج الممتاز . انني اتلقى كل رسم جديد منك بلهفة ، على امل ان يكون ذلك قد حدث اخيراً ، ولكنها حتى الآن ...

وقاطعه فنسنت وهو يطرق غليونه فوق الموقد قائلاً :

– حين يتعلق الأمر بمسألة ما اذا كانت اعمالي قابلة أو غير قابلة للبيع ، فانني اراها اشبه بمجلخ قديم ليس في نيتي ان اثلم به اسناني .

– انت تقول ان لديك عملاً هنا . واذن ، ما عليك الا ان تنكب عليه وتفرغ منه . وكلما بكرت في قدومك إلى باريس ، كان ذلك أفضل لك ، ولكن اذا شئت أن أبيع أعمالك في هذه الأثناء فارسل لي لوحات بدلاً من الدراسات الاولية . لان الدراسات لا يرغب فيها أحد .

– حسناً ، ان من العسير نوعاً ان يحكم المرء أين تنتهي الدراسة حصراً ، وتبدأ اللوحة . دعنا نرسم قدر ما تستطيع يا ثيو ، ونكن انفسنا بكل ما فينا من اخطاء وخصائص . انني اقول « نا » لان النقود التي ترسلها الي ، والتي اعرف انك تتكلف عناء في تدبيرها من أجلي ، تعطيك الحق في ان تحسب نصف اعمالي من ابداعك الخاص .

— اوه ... اما هذا ...

ولم يتم قوله . بل سار نحو مؤخرة الغرفة ، وجعل يلعب بطاقية قديمة معلقة فوق الشجرة .

— ٨ —

كان فنسنت قبل وفاة ابيه يزور منزل الكاهن زيارات عرضية للعشاء أو قضاء ساعة برفقة الأهل . فلما انتهت مراسيم الغداء اوضحت شقيقته اليزابيث بجلاء انه شخص غير مرغوب فيه اطلاقاً ، لان الاسرة تريد ان تحافظ على مركز معين . ورأت امه انه مسؤول عن حياته الخاصة ، وان واجبها يقضي عليها بالوقوف إلى جانب بناتها .

وهكذا غدا وحيداً في نيونن ، وحدة مطلقة . واتجه إلى اجراء دراساته في الطبيعة بدلاً من دراساته في البشر . وبدأ بصراع يائس من أجل اللحاق بالطبيعة ، ولكن كل شيء في رسومه جاء خطأ . فانتهى إلى القناعة بأن يرسم من لوح المزج ، فاذا بالطبيعة توافقه وتلحق به . وكثيراً ما فكر وهو شقي بوحدته بمنظر مرسم فايزنبروخ ، وبما ابداه ذلك الرسام سليط اللسان من تأييد للالم . ولقد وجد في كتابات كاتبه الوفي ميليه تعبيراً عن فلسفة فايزنبروخ ، بعبارات ارسخ منطقاً اذ يقول :

« انني لا ارغب حتى في وضع حد للالم ، لانه هو الذي يحمل الفنانين غالباً على التعبير عن انفسهم بقوة . »

انعقدت اواصر صداقة بينه وبين اسرة من الفلاحين تدعى اسرة

دي جروت . وهي تتألف من الام ، والاب ، والابن ، وابنتين اثنتين ، وكلهم يعمل في الحقول . وكانت هذه الاسرة — شأن معظم فلاحي البرابانت — تستحق عن جدارة لقب (الاشداق السوداء) الذي يطلق على عمال المناجم في البوريناج . فلهم وجره تحمل قدراً من ملامح الزنوج ، وتتميز بالمنخرين الواسعين ، والانوف الفطساء والشفاه الضخمة المتدلية والاذان الطويلة البارزة . وفي حين تتقدم الملامح بارزة بروزاً حاداً عن مستوى الجبين ، فان الرأس صغيرة مدببة . وكانوا يعيشون في كوخ يتألف من غرفة واحدة ، ينامون في فجوات محفورة في الجدران ، وثمة طاولة في منتصف الغرفة ، وكرسيان ، وعدد من الصناديق ، ومصباح معلق يتدلى من السقف الرث الذي تنفذ أشعة الشمس منه .

وأسرة دي جروت هي من طبقة آكلي البطاطس ، وهم يتناولون مع عشائهم اليومي فنجاناً من القهوة السوداء ، وربما اتيحت لهم شريحة من لحم الخنزير مرة واحدة في الاسبوع . وكانوا يعملون في زراعة البطاطس ، ويستخرجون البطاطس من التربة ، ويأكلون البطاطس ، وتلك حياتهم كلها .

وكانت ستين دي جروت طفلة عذبة في حوالي السابعة عشرة من عمرها ، تضع على رأسها أثناء العمل قلنسوة بيضاء واسعة وترتدي سترة سوداء ذات رقبة بيضاء . وصار من عادة فنسنت أن يذهب لزيارتهم كل مساء . فاذا تحادث وستين ، ضحكا ضحكاً طويلاً .

ومن ذلك أنها قد تصيح قائلة :

– انظروا يا أولاد ! أنا سيدة من طراز رفيع ، مرسومة على الورق. هل البس قلنسوتي الجديدة لتظهر في الصورة يا خواجة ؟

– لا يا ستين ، أنت جميلة على حالك .

– أنا ، جميلة !

وتنخرط في نوبات من الضحك . وكانت لها عينان واسعتان فياضتان بالمرح ، وتعبير تلقائي عذب . ولها وجه مفطور على الحياة . وعندما كانت تنحني نحو الأرض لتنقب عن البطاطس في الحقل كان يرى في خطوط جسدها رشاقة أصيلة تفوق حتى رشاقة كاي . وقد عرف من قبل أن النقطة الجوهرية في رسم الأجسام إنما هي الحركة ، وان الغلطة الكبرى فيما رسمه المعلمون الأوائل في لوحاتهم من أجسام انها رسمت في غير وضع العمل . واقبل على آل دي جروت يرسمهم وهم يحفرون في الحقل أو يجلسون إلى مائدتهم في البيت وهم يأكلون البطاطس المسلوقة ، فتقفز ستين دائماً تنظر من وراء كتفه إلى الرسم ، وتبادله النكات . وربما عمدت في يوم من أيام الآحاد إلى ارتداء قلنسوة وياقة نظيفتين ، ثم سارت معه إلى المرج . ذلك ان السير في المرج كان التسلية الوحيدة التي يعرفها الفلاحون .

وسألته مرة :

– هل أحبتك مارجو بيجمان ؟

– نعم .

– لماذا حاولت اذن ان تقتل نفسها ؟

– لأن عائلتها لم تأذن لها بالزواج مني .

ـ هذه حماقة منها . هل تعرف ماذا كنت أفعل بدلاً من قتل نفسي ؟ كنت أحببتك !

وضحكت في وجهه ، ثم ركضت نحو اجمة في غابة الصنوبر . وظلا طوال نهارهما يضحكان ويلعبان بين الأشجار . وشاهدهما متنزهون آخرون في الغابة . وكانت ذات ستين موهبة طبيعية في الضحك، فما ان ينطق فنسنت بأقل كلمة أو يفعل أقل شيء حتى تنطلق الصيحات من شفتيها دون ضابط. وقد تلاعبه لعبة المصارعة وتحاول القاءه على الأرض . واذا لم تعجبها الأشياء التي كان يرسمها في بيتها ، لم تتورع عن صب القهوة فوقها أو القائها في النار. وكثيراً ما كانت تأتي إلى مرسمه للمثول أمامه للرسم ، فاذا غادرت المرسم خلفته وراءها في فوضى شاملة.

وعلى ذلك النحو مر للصيف ومر الخريف وحل الشتاء من جديد. واضطر فنسنت إلى العمل في مرسمه طوال الوقت بسبب الثلج. ولم يكن أهالي نيونن يحبون المثول للرسم، ولولا النقود ماجاءه منهم أحد. وكان من جملة العادات التي مارسها أيام لاهاي انه على سبيل المثال يرسم تسعين امرأة حائكة، قبل أن يرسم لوحة جماعية يصور فيها ثلاث حائكات. واراد أن يرسم عائلة دي جروت أثناء عشاء البطاطس والقهوة ، فلكي يفعل ذلك على النحو الصحيح ، شعر انه يجب أولاً ان يرسم كل فلاح في المنطقة .

لم يحبذ قسيس الكاثوليك في البلدة ، منذ الوهلة الأولى ، تأجير غرفة في بيت وكيل الكنيسة للرجل الذي اجتمعت فيه مثلبتان، أولاهما انه من أهل المرج ، وثانيهما انه فنان . ولكن لما كان فنسنت انساناً هادئاً دمث الاخلاق ، فان القسيس لم يجد ذريعة لطرده . وفي ذات يوم دخلت ادريانا شافرات إلى المرسم وهي في غاية من الاضطراب، وقالت :

– الأب باويلز يرغب في مقابلتك حالاً !

كان الأب اندرياس باويلز رجلاً ضخماً أحمر الوجه . القى على المرسم نظرة عاجلة ، جعلته على يقين من انه لم ير مثل هذه الفوضى الجنونية قبل اليوم .

وسأله فنسنت بأدب :

– ماذا أستطيع أن أفعل لك يا أبانا ؟

– لا تستطع ان تفعل شيئاً من أجلي ! إنما أنا من يستطيع أن يفعل شيئاً من أجلك ! سوف أقف معك حتى النهاية في ذلك الموضوع ،شريطة ان تفعل ما تؤمر .

– ما الموضوع الذي تقصد اليه يا أبانا ؟

– هي كاثوليكية وأنت بروتستنتي ، إلا أنني سأستصدر ترخيصاً خاصاً من المطران . فكن جاهزاً للزواج خلال أيام قلائل !

تقدم فنسنت إلى الامام ليعاين الأب باويلز تحت ضوء النافذة الغامر. وقال :

– أخشى أنني لا أفهم يا ابانا .

– بل تفهم . ولن يجديك هذا التظاهر كله فتيلاً . ان ستين حامل! وينبغي أن يصان عرض تلك العائلة .

– يا لها من شيطانة !

– اذهب إلى الشيطان وقل له ذلك . فان هذا العمل عمل الشيطان حقاً .

– هل أنت متأكد من ذلك يا ابانا ؟ ألا يجوز أن تكون تكون مخطئاً ؟

– ليس من شيمتي ان ادور في الارجاء متهماً الناس دون ان يكون معي دليل الاثبات .

– هل ستين . . هل قالت . . انني الفاعل ؟

– كلا . لقد رفضت ان تخبرنا باسمه .

– فلماذا تنسب هذا الشرف لي أنا ؟

– لأنكما شوهدتما معاً عدة مرات . ألا تأتي اليك مراراً في المرسم؟

– بلى .

– ألم تذهب واياها يوم الأحد للنزهة في الحقول ؟

– بل ذهبت .

– حسناً ، وأي برهان أبلغ من ذلك أمامي ؟

ظل فنسنت صامتاً للحظة ، ثم قال بهدوء :

– يؤسفني ان اسمع هذا يا أبانا ، لاسيما اذا كان سيجلب المتاعب لصديقتي ستين . ولكنني أؤكد لك أن علاقاتي بها كانت فوق مستوى الشبهات .

– هل تتوقع ان اصدق هذا الكلام ؟

– لا ، لا أتوقع .

في ذلك المساء وقف فنسنت ينتظر ستين على عتبة كوخها حتى عادت من الحقول . وانصرف باقي أفراد الاسرة إلى عشائهم ، وجلست ستين إلى جواره غائصة في جلستها . وقالت :

ـ سيكون عندي في القريب شخص جديد ترسمه .

ـ اذن فالأمر صحيح يا ستين .

ـ طبعاً ، هل تود أن تحسه ؟

أخذت يده ووضعتها على بطنها . فأحس بالبروز المتنامي . وقال:

ـ أبلغني الأب باويلز للتو أنني الوالد .

ضحكت قائلة :

ـ تمنيت لو كان انت . ولكنك لم تشأ أن تفعل . أم كنت تريد ؟

نظر اليها ، ورأى في بشرتها ما خبزته الشمس من حلاوة الحقول ، وتأمل تقاطيعها الخشنة الثقيلة الملتوية ، والأنف والشفتين الغليظتين . فابتسمت له ، وقال لها:

ـ أنا أيضاً تمنيت ذلك يا ستين .

ـ اذن فان الأب باويلز قال انه انت . ان ذلك مضحك .

ـ وما المضحك فيه ؟

ـ هل تكتم سري ؟

ـ أعدك بذلك .

ـ إنما كان قندلفت كنيسته .

صفر فنسنت عجباً وسألها :

ـ هل تعرف عائلتك ؟

ـ لا ، بالطبع . ولن أخبرهم . على أنهم يعرفون انه ليس أنت.

دخل فنسنت إلى قلب الكوخ ، ولم يكن هناك اختلاف في الجو . لقد تقبل آل دي جروت حمل ستين بالروح ذاتها التي يتقبلون بها حمل البقرة في الحقل . وعاملوا فنسنت كما في السابق ، وتأكد انهم واثقون من براءته .

وعلى خلاف هذا كانت القرية . فقد كانت ادريانا شافرات تتسمع خلف الباب ، وسرعان ما نقلت الانباء إلى جيرانها . فلم يلبث سكان نيونن الالفان والستمائة نسمة ان عرفوا خلال ساعة من الزمن ان ستين دي جروت موشكة على أن تضع طفلاً حملت به من فنسنت ، وان الأب باويلز سوف يجبرهما على الزواج .

ولما كان تشرين الثاني نوفمبر قد حل وحل معه الشتاء ، فقد كان ذلك اوان الانتقال ، اذ لا جدوى من المكوث في نيونن بعد هذا . لاسيما وانه قام برسم كل ما يمكن رسمه وتعلم كل ما يمكنهعن حياة الكلاحين . ولم ير ان في وسعه مواصلة العيش وسط الكراهية التي انفجرت ضده من جديد في القرية . لقد وضح له ان الأوان قد آن لرحيله . ولكن إلى أين يذهب ؟

جاءته ادريانا حزينة بعد ان دقت على بابه ، وقالت :

– خواجه فان جوخ ، يقول الأب باويلز انك يجب أن تغادر هذا البيت على الفور ، وتقيم في مكان آخر .

– حسن جداً . كما يريد .

راح يذرع غرفته وهو يعيد النظر في رسوماته . لقد مضت عليه سنتان صلبتان من كدح العبيد . وهاهو قد أنجز مئات الدراسات التي تصور النساجين وزوجاتهم وأنوالهم ، وتصور الفلاحين في الحقول ،

وتصور الأشجار المقصوصة وأغصانها الجديدة النامية في أسفل حديقة الكنيسة ، وتصور برج الكنيسة القديم ، وتصور المروج ، وتصور السياجات في وقدة الشمس وفي برد الغسق الشتائي .

لقد أناخ عليه ثقل شديد. فعمله لم يكن إلا شظايا، تضم نتفاً من كل جانب من جوانب الحياة الريفية في البرابانت ، دونما عمل واحد يلخص الفلاح ، ويلتقط روح كوخه ووجبة البطاطس المسلوقة التي يأكلها . أين هو فلاحه البرابانتي الذي يصارع شخصية انجيلوس عند ميليه ؛وكيف يسعه أن يغادر المنطقة قبل أن يبدعه ؟

نظر إلى المفكرة . مازال بين يومه وبين أول الشهر اثنا عشر يوماً ثم إنه نادى ادريانا .

– قولي للأب باويلز انني دفعت الاجرة حتى يوم الأول من الشهر القادم ، ولن أغادر قبل ذلك .

وجمع حامله والوانه وقماشه وفراشيه وسار جاهداً إلى كوخ دي جروت . ولم يجد أحداً هناك . فشرع يرسم دراسة بقلم الرصاص لداخل الغرفة . وحين عادت الاسرة من الحقول مرق الورقة . وجلس افراد اسرة دي جروت حول بطاطسهم المسلوقة وقهوتهم السوداء وشرائح الخنزير . فركز فنسنت لوحته وانكب عليها حتى أوت الاسرة إلى فراشها . وعمل في الصورة طيلة تلك الليلة في مرسمه . ونام خلال النهار . وعندما صحا أحرق لوحته باشمئزاز وحشي ، وانطلق ثانية إلى كوخ دي جروت .

لقد تعلم من سادة الفن الهولنديين ان الرسم والتلوين شيء واحد .

وها قد جلس آل دي جروت على المائدة بالوضع ذاته الذي اعتادوا عليه طوال حياتهم . وكانت بغية فنسنت ان يجعل من الواضح ، ان هؤلاء القوم آكلي البطاطس تحت ضوء المصباح ، هم الذين حفروا الارض ، بهذه الايدي ذاتها التي يضعونها في الصحن ، وارادها ان تحكي حكاية العمل اليدوي ، وكيف كسبوا عيشهم بجدارة .

وأسعفه الآن ما اعتاد عليه قديماً من قذف نفسه بكليته في اللوحة التي يقوم برسمها ، فأخذ يعمل بسرعة وحيوية هائلتين ، دون حاجة إلى التفكير في العمل الذي يؤديه . فقد سبق له ان رسم مئات الفلاحين والاكواخ والعائلات التي تجلس أمام وجبة البطاطس المسلوقة .

قالت الأم : — كان ابونا باويلز هنا اليوم .

وسألها فنسنت : — ماذا كان يريد ؟

— عرض علينا نقوداً مقابل عدم مثولنا أمامك لترسمنا .

— وماذا قلتم له ؟

قلنا إنك صديقنا .

واضافت ستين : — لقد زار جميع البيوت في المنطقة . ولكنهم قالوا له انهم يفضلون القرش الذي يتقاضونه لقاء المثول أمامك ، على الصدقة التي يعرضها .

في الصباح التالي اتلف لوحته مرة اخرى . وتملكه احساس مزيج من الغضب ونفاد الصبر . لم يبق أمامه الا عشرة أيام . وعليه من ثم ان يرحل عن نيونن لانها صارت لا تطاق . ولكنه يأبى الرحيل قبل ان يفي بنذره لميليه .

وكان يذهب كل ليلة إلى آل دي جروت ، ويعمل حتى يغلبهم النعاس فلا تبقى لهم طاقة على الجلوس. وفي كل ليلة يجرب تركيبة جديدة من الالوان ، وقيماً مختلفة ونسباً متغايرة . وفي كل يوم يترأى له انه قد جانب التوفيق وان عمله مشوب بالنقص .

وحل اليوم الاخير من الشهر . وكان فنسنت قد انغمس في العمل حتى الحبال . فهو يعمل بلا نوم ، ولا يكاد يقرب الطعام . بل يعيش على طاقته العصبية . وكلما ازداد اخفاقاً تفاقم اضطرابه . فلما عاد آل دي جروت من الحقول وجدوه في انتظارهم . وقد نصب حامله ، ومزج الوانه ، وشد قماشته إلى الاطار . وكانت تلك هي فرصته الاخيرة النهائية . ففي الصباح سوف يغادر البرابانت إلى الأبد .

وعمل ساعات وساعات . وتفهم آل دي جروت موقفه فلزموا المائدة بعد الانتهاء من العشاء ، وراحوا يتحدثون بصوت خافت بلهجة فلاحي الحقول . ولم يدر فنسنت ما الذي كان يرسمه ، وانما راح يسكب مادته دون ان تقف اية فكرة أو أي وعي ما بين يده وبين الحامل. وعندما بلغت الساعة العاشرة كان آل دي جروت قد خروا نياماً ، وكان الارهاق قد بلغ من فنسنت كل مبلغ . لقد فعل كل ما يستطيع في اللوحة . فجمع اشياءه ، وقبل ستين ، والقى عليهم جميعاً تحية الوداع . ثم سار مجهداً إلى البيت في ذلك الليل ، وهو لا يدري انه يسير .

وفي المرسم وضع اللوحة على كرسي ، واشعل غليونه ، ووقف يتأمل عمله . وترأى له ان العمل كله خطأ . وانه جانب الصواب .

وان الروح المطلوبة لم تكن هناك . وها قد فشل مرة اخرى ، وها قد ضاعت هباء هاتان السنتان اللتان قضاهما في البرابانت .

دخن غليونه حتى الحثالة الساخنة . ثم حزم حقيبته ، وجمع سائر دراساته من فوق الجدار ومن ادراج الخزانة ، ووضعها في صندوق كبير ، والقى بنفسه على الاريكة .

ولم يعرف مدى الوقت الذي مر ، الا انه نهض وانتزع اللوحة من الاطار وقذف بها في زاوية ، ووضع قماشة جديدة . ومزج بعض الالوان ، وجلس ثم بدأ يعمل .

ان المرء في البدء يدخل في صراع يائس ليلحق بالطبيعة ، فتكون النتيجة ان تتخبط الأمور كلها . ثم ينتهي المرء إلى الهدوء والعمل من قلب لوح المزج ، فاذا بالطبيعة توافقه وتتبع ريشته .

وقال ميليه : « الناس تعتقد انني اتخيل ما ابدع — وهذا ليس صحيحاً — فالصحيح انني اتذكر. لقد كان الأمر كما قال له بيترسين لماما في بروكسل . انه يعمل وهو اقرب مما ينبغي من نماذجه ، ولذلك لم يستطع ان يتخذ لنفسه منظوراً . لقد كان يصب نفسه في قالب الطبيعة ، أما الآن فأخذ يصب الطبيعة في قالب نفسه .

واستخدم في تلوين اللوحة كلها لون بطاطس نضرة مغبرة غير مقشرة . فها هو قماش الطاولة الكتاني المعفر ، وها هو الجدار الموشح بالدخان ، والمصباح المتدلي من العارضة الخشبية الخشنة ، وها هي ستين تقدم إلى أبيها البطاطس المسلوقة ، بينما الأم تصب القهوة السوداء

والاخ يرفع فنجاناً إلى شفتيه ، وعلى وجوههم جميعاً سيماء القبول الهادئ الصبور بنظام الاشياء السرمدي .

اشرقت الشمس ، وشخصت نتفة من الضياء في شباك المخزن . ونهض فنسنت عن مقعده . وشعر انه هادىء ومفعم بالسكينة تماماً . وزايله الاضطراب الذي تلبسه مدة اثني عشر يوماً . ونظر إلى عمله فألفاه يعبق برائحة اللحم والدخان والبطاطس المسلوقة . وانفرج فمه عن ابتسامة . لقد رسم انجيلوس من ابداعه الخاص . واستطاع أن يقبض على ما لا يمر ، بين سائر الاشياء التي تمر . وبهذا لن يقدر لفلاح البرابانت ان يموت .

غسل اللوحة ببياض بيضة . وحمل صندوق الرسوم واللوحات إلى مقر الكاهن ، وتركه عند أمه وحياها تحية الوداع . وعاد إلى مرسمه وكتب على لوحته « آكلو البطاطس » ، وارفق معها بعضاً من أفضل دراساته ، وانطلق نحو باريس .

* * *

الكتاب الخامس

باريس

ـ ١ ـ

بينما كان فنسنت وثيو يجلسان صبيحة وصول فسنت ،وأمامهما الفطائر الملفوفة التي حملها معه ، والقهوة ، سأل ثيو :

ـ انك اذن لم تستلم رسالتي الاخيرة ؟

وأجاب فنسنت :

ـ لا اظن ، وماذا كانت تقول ؟

ـ اخبار ترقيتي فى مؤسسة جوبل .

ـ باه .. وانت لم تحدثني بكلمة عن ذلك يا ثيو أمس !

ـ رأيتك شديد الانفعال ويصعب ان تصغي . لقد أصبحت مديراً للمعرض الواقع في بوليفار مونمارتر .

ـ هذا رائع يا ثيو ! معرض للفنون تحت تصرفك !

ليس تحت تصرفي في حقيقة الأمر يا فنسنت ! فمن الضروري ان اتبع سياسة جوبل بشكل وثيق ولكنهم سيتيحون لي ان اعلق لوحات الانطباعيين في الملحق ، وانذا . . .

-- ولمن سنعرض منهم ؟

— مونيه وديجا وبيسا ومانيه .

— لم اسمع بهم قط .

— من الخير اذن ان تأتي إلى المعرض وتلقي نظرة طويلة شافية .

— وما معنى هذه الابتسامة الخفيفة على وجهك يا ثيو ؟

— اوه .. لا شيء . هل تريد مزيداً من القهوة ؟ ان علينا أن نذهب في غضون دقائق قليلة . فقد اعتدت ان اذهب سيراً على الاقدام كل صباح .

— شكراً . لا ، لا ، يكفيني نصف فنجان . لتتخطف العفاريت هذه الدنيا يا ولد يا ثيو ، ولكن هل تعلم انه شيء المذيذ ان اتناول افطاري وانت من يجلس قبالتي ، كما في الأيام الخالية ؟

— انتظرت قدومك إلى باريس منذ زمن طويل . وكان لابد من مجيئك في نهاية الأمر طبعاً ، ولكنني اعتقد ان كان من الخير لو انتظرت حتى حزيران يونيو ، وهو موعد انتقالي إلى شارع ليبيك . فهناك ستكون لنا ثلاث غرف كبيرة . أما هنا فلا يساعد المكان على قيامك بكثير من العمل كما ترى .

استدار فنسنت في مجلسه على كرسيه ، وتطلع حوله . كانت شقة ثيو تتألف من غرفة واحدة ومطبخ صغير ، وقد اثثت الغرفة على نحو بهيج بقطع اثاث أصيلة من طراز لويس فيليب . ولكن الفراغ المتاح فيها لم يعد يسمح بحرية الحركة .

قال فنسنت — لو أردت ان اركز حاملاً هنا ، فلابد لي من اخراج بعض اثاثك المحبوب إلى الفناء الخارجي .

— اعرف ان المكان مزدحم ، ولكن ما حدث هو انني حظيت بفرصة في احدى الصفقات،فوقعت على هذه القطع،التي كانت عين ماالريده للشقة الجديدة . هيا بنا يافنسنت، فسوف نذهب إلى مسيرتي المفضلة هنا بطين التل نحو البوليفار . ان المرء لا يعرف باريس حتى يستنشق روائحها في الصباح الباكر .

ارتدى ثيو معطفه الاسود الثقيل الذي ينطبق عالياً اسفل رباط رقبته الناصع المعقود على هيئة الفراشة ، واجرى لمسة اخيرة بالفرشاة على تجعيدتي شعره الصغيرتين اللتين يتوسطهما الفرق في منتصف الرأس، ثم مسد شاربه وشعر ذقنه الناعم . ولبس قبعته المستديرة السوداء ، وتناول قفازيه وعصاه ، واتجه إلى الباب الأمامي .

— هيا بنا يافنسنت . هل أنت جاهز . ياإلهي ، لا شك انك منظر من المناظر ! ولو لبست هذا الزي في أي مكان عدا باريس لألقوا القبض عليك !

نظر فنسنت إلى نفسه وقال — وما عيبه ؟ نقد ظللت ارتديه حوالي سنتين ، ولم يقل عنه أحد شيئاً !

وضحك ثيو قائلاً — لاتبال . فالباريسيون معتادون على رؤية أمثالك . على انني سأشترى لك بعض الملابس بعد ان يغلق المعرض ابوابه هذه الليلة .

نزلا درجاً متعرجاً ، ومرا في طريقهما بشقة البواب ، ثم انطلقا

خارجين إلى شارع لافال . وهو شارع عريض واسع ، ينم عن الثراء والجلال ، وفيه مخازن كبيرة تبيع العقاقير واطارات الصور والتحف الفنية .

قال ثيو — انق بالا إلى السيدات الثلاث الجميلات في الطابق الثالث من بنايتنا .

صعد فنسنت نظره فرأى ثلاثة تماثيل باريسية نصفية ذوات رؤوس من الجص ، وقد كتبت تحت التمثال الاول كلمة النحت وتحت الثاني كلمة العمارة وتحت الاخير كلمة الرسم .

— وما الذي جعلهم يصورون الرسم في هيئة هذه البغي القبيحة ؟

واجاب ثيو — لا اعرف ،ولكنك على كل حال لم تخطىء الوصف .

مرا في طريقهما بمحل روين القديم ، ومحلات التحف التي اشترى منها ثيو الاثاث من طراز لويس فيليب . وما انقضت لحظة واحدة حتى بلغا شارع مونماتر الذي ينعطف انعطافة رشيقة في أعلى التل ، نحو جادة كليشيه وبوت مونماتر ، ثم يؤدي في أسفل التل من الناحية المقابلة إلى قلب المدينة . وكان الشارع متألقاً بشمس الصباح ، ورائحة الصباح ، ورائحة باريس وهي تستيقظ من نومها ، وبالناس الذين يتناولون القهوة مع خبز الكرواسان في المقاهي ، وبالخضراوات واللحوم ودكاكين الجبن التي تفتح أبوابها لتستهل نهار العمل .

ذلك حي برجوازي مزدحم ، مكتظ بالمخازن الصغيرة . وهاهم رجال الأعمال يسيرون في منتصف الشارع ، وربات البيوت يشرن بأصابعهن إلى البضائع في صناديق العرض أمام الدكاكين ، ويساومن التجار مساومة عسيرة .

استنشق فنسنت الهواء ملء رئتيه وقال – إنها باريس ، بعد هذه الأعو كلها .

– أجل ، باريس . عاصمة اوروبا ، لاسيما بالنسبة إلى الفنان .

راح فنسنت يتشرب دفق الحياة المفعم بالحركة ، صاعدة هابطة على هذا التل ، بمن فيها من ندل المقاهي بستراتهم ذات الأشرطة الحمراء والسوداء ، وربات البيوت يحملن أرغفة طويلة من الخبز تحت أذرعتهن ، و عربات اليد عند الناصية ، وعاملات الفنادق اللواتي يرتدين اخفافاً ناعمة ، ورجال الأعمال الأثرياء في طريقهم إلى أعمالهم . وبعد المرور بعدد لا يحصى من محلات الجزارين والحلوانيين والخبازين والغسالين والمقاهي الصغيرة انعطف بهما شارع مونمارتر إلى أسفل التلة ، ودار متجهاً إلى مستديرة شاتودآن ، وهي ساحة هائجة تشكلت من لقاء ستة شوارع . واخترقا المستديرة ومرا بكنيسة نوتردام دي لوريت التي تتميز بشكلها المربع وحجارتها السوداء المغبرة ، وبثلاثة تماثيل تعلو سقفها ، تمثل ملائكة سابحين نحو السموات الزرقاء بابتهال قدسي ، فنظر فنسنت عن كثب إلى الكتابة المسطورة على الباب وسأل أخاه :

– هل يقصدون بهذه الثلاثة السابحة الحرية والمساواة والاخاءيا ثيو؟

– أعتقد أنهم يقصدون ذلك . ان الجمهورية الثالثة قد تدوم . فالملكيون أصبحوا في خبر كان ، والاشتراكيون يتقدمون نحو السلطة . وقبل بضع ليال كان اميل زولا يقول لي إن الثورة القادمة ستكون ضد الرأسمالية بدلاً من الملكية ؟

– زولا ، ما أبدع أن تعرفه يا ثيو .

– قدمني اليه بول سيزان . اننا نلتقي مرة كل اسبوع في مقهى با تينول . وسوف أصحبك إلى هناك في المرة القادمة .

وحين خلفا مستديرة شاتودان وراءهما ، فقد شارع مونمارتر طابعه البرجوازي ، واتخذ مظهراً أكثر فخامة . غدت الحوانيت أكبر ، والمقاهي أهيب ، والبشر أفضل زيا ، والبنايات أغنى منظراً . واصطفت في الممرات الجانبية قاعات الموسيقى والمطاعم ،وبدأت الفنادق تلوح هنا وهناك ، وظهرت العربات عوضاً عن الشاحنات التجارية .

سار الشقيقان بخطى نشطة . وأخذت أشعة الشمس الباردة تحمى ، كما أخذت نكهة الجو تنم عن حياة المدينة ومافيها من ثراء وتنوع .

قال ثيو – ما دمت لا تستطيع العمل في المنزل ، فانني أقترح عليك أن تتردد على مرسم كورمان .

– وكيف هو هذا المرسم ؟

– حسناً ، ان كورمان رجل أكاديمي ، شأن معظم سادة الفن ، ولكن اذا لم تكن راغباً في نقده ، فانه يدعك وشأنك .

– هل يكلف كثيراً ؟

خبط ثيو بعصاه على فخذ فنسنت ، وقال – ألم أخبرك انني حصلت على ترقية ؟ وانني في الطريق إلى أن أصبح واحداً من أولئك الاثرياء. المتنفذين الذين سيمحوهم زولا بثورته القادمة !

بلغ شارع مونمارتر منتهاه ، فاذا به يصب في بوليفار مونمارتر الفسيح الفخم ، وما فيه من مخازن كبرى تبيع صنوفاً شتى ، ومن اروقة مقنطرة ، ومن دكاكين غالية الأسعار ، ولم يلبث البوليفار بعد مسافة

معينة . ان صار يدعى بوليفار الطليان،وهو يؤدي إلى دار الاوبرا ، يعد أهم شارع عام في المدينة كلها . وعلى الرغم من أنه كان خالياً في تلك الساعة من الصباح ، فان موظفي المخازن كانوا يعدون العدة ليومهم الحافل بالعمل .

كان فرع معرض جوبل الذي يديره ثيو ، واقعاً في رقم ١٩ ، أي في الكتلة الأولى من المباني الاخيرة على يمين شارع مونمارتر . وعبر فنسنت وثيو البوليفار الواسع ، وتوقفا عند مصباح غاز في وسط البوليفار ، ريثما تمر إحدى العربات ، ثم واصلا سيرهما إلى المعرض .

وحالما دخل ثيو بهو معرضه ، انحنى له الموظفون بهندامهم الانيق إجلالاً . فتذكر فنسنت كيف كان ينحني لتيرستيج ولاوباخ عندما كان موظفاً . وتنسم في الجو ما كان يتنسمه اذ ذاك من عبق الثقافة والتهذيب . وقد كان يحسب ان خياشيمه نسيت تلك الرائحة . ورأى على جدران البهو رسوماً بريشة بوجرو وهينر وديلاروش . وكان ثمة شرفة صغيرة تعلو البهو الرئيسي ، تؤدي اليها بضع درجات خلفية .

قال ثيو — الصور التي تهمك رؤيتها موجودة في الملحق العلوي . فاذهب اليها ، ومتى فرغت منها ، فاهبط وحدثني عما تراه في شأنها .

— ثيو ، قل لي علام تتلمظ بشفتيك هكذا ؟

اتسعت ابتسامة ثيو ، ولم يزد على ان قال — إلى اللقاء . ثم اختفى في مكتبه .

— هل أنا في دار مجانين ؟

اتجه فنسنت نحو الكرسي الوحيد الموجود في الملحق ، وهو الأشبه بالأعمى الذي يتخبط في سيره . وجلس على الكرسي ، وراح يفرك عينيه . لقد اعتاد منذ سن الثانية عشرة على مشاهدة رسومات داكنة معتمة ، رسومات لا يبدو فيها عمل الفرشاة أبداً ، وجميع تفاصيل اللوحة صحيحة كاملة ،والألوان المطفأة مظللة بعضها نحو بعض برفق وهوادة .

أما هذه الرسومات التي تضحك عليه في جذل من فوق الجدران ، فلم تكن تشبه أي شيء رآه ، بل ولا أي شيء حلم به من قبل . لقد انجاب عنها كل أثر للاتزان العاطفي ، وانجاب عنها اللون البني الشبيه بصلصة مرق اللحم ، الذي دأبت اوروبا منذ قرون عديدة على اغراق رسوماتها به . وما كان أمامه هنا هو رسومات تشتمل على جنون صاخب مع الشمس . . مع الضياء والهواء والحيوية النابضة . رسومات تصور فتيات باليه وراء كواليس المسرح ، وقد رسمن بألوان حمراء بدائية وألوان خضراء وألوان زرقاء ألقي بعضها إلى جانب بعض دون وقار ، ونظر إلى توقيع الفنان ، واذا به ديجا .

ثم كانت هناك مجموعة من المناظر المرسومة خارج الموسم ، وتصور لقطات على ضفاف نهر ، عامرة باللون الأخضر الناضج في منتصف الصيف ، وبشمس حارة متعامدة . والتوقيع مونيه . ان فنسنت لم يشهد في مئات اللوحات التي رآها في حياته ماشاهده في واحدة من هذه الصور

المتوهجة من اضاءة وهواء طلق وشذى فواح . ان أغمق لون من الألوان التي استخدمها مونيه هو افتح اثنتي عشرة مرة من أفتح لون في الأعمال التي تعج بها جميع معارض هولندا . كما أن عمل الفرشاة هنا ينبري دون خجل ، فكل لمسة من اللمسات ظاهرة ، وكل لمسة تنفذ إلى إيقاع الطبيعة . وسطح اللوحة كثيف عميق يختلج بدوائر ثقيلة من التلوين الناضج الغني .

وتوقف فنسنت أمام صورة رجل يرتدي ملابسة الداخلية الصوفية ، ويحمل بين يديه دفة قارب صغير وعليه سيماء التركيز القوي المأثورة عن الجنس الحالي . سيماء رجل فرنسي يستمتع بعطلته بعد ظهر يوم أحد ، بينما زوجته تجلس في امتثال . ونظر فنسنت إلى اسم الفنان .

وقال بصوت عال — مونيه ثانية ؟ هذا غريب . فليس ثمة أدنى شبه بين هذا المنظر وبين المناظر الخلوية التي شاهدتها قبل قليل .

نظر ثانية فتبين انه كان مخطئاً . فاسم الرسام كان مانيه وليس مونيه : ثم تذكر قصة مانيه ولوحته « نزهة فوق العشب الأخضر » ولوحته « اوليمبيا » ، وكيف ان الشرطة اضطرت لى حزمهما بالأربطة خشية ان تقوم العامة بتمزيقهما بالسكاكين أو اغراقهما بالبصاق .

وذكرته رسوم مانيه بكتب اميل زولا ، دون ان يعلم سبباً لذلك . ففي كل منهما يظهر ذلك السعي الضاري نحو الحقيقة ، وذلك الاقتحام الجريء ، وذلك الشعور بأن الجمال انما يكمن في الشخصية ، بغض النظر عما قد يبدو فيها من وضاعة . وراح يمعن التأمل عن كثب في اسلوب التنفيذ الفني للعمل ، فرأى ان مانيه وضع ألواناً أساسية بعضها إلى جوار بعض دونما تدرج . وانه رسم كثيراً من التفاصيل دونما تدقيق ، وان

الألوان والخطوط والأضواء والظلال جميعاً لا تنتهي نهايات محددة منفصلة ، بل تتماوج بعضها نحو بعض تماوجاً .

قال فنسنت — مثلما تراها العين تتماوج في الطبيعة تماماً .

ورن في أذنه صوت موف وهو يقول له ذات مرة — اتراه مستحيلاً يا فنسنت أن تحزم أمرك في رسمك خطاً من الخطوط ؟

جلس من جديد ، وترك الرسوم تغيب عن نظره . وبعد شيء من التأمل فطن إلى إحدى الوسائل البسيطة التي أحدثت هذه الثورة الكاملة في فن الرسم . ان هؤلاء الرسامين عمدوا في لوحاتهم إلى تجسيم الهواء نفسه! وذلك الهواء الحي المتحرك المفعم أحدث شيئاً ما في الموضوعات التي تشاهد في اللوحات ! وقد عرف فنسنت من قبل ان الاكاديميين اغفلوا وجود الهواء اغفالاً تاماً ! فلم يكن بالنسبة اليهم إلا فراغاً أبيض يرسمون فوقه الأشياء الصلبة .

ويا لهؤلاء الرجال الجدد ! لقد اكتشفوا الهواء ! لقد اكتشفوا الضياء والتنفس والجو والشمس ، وشاهدوا الأشياء وقد صفيت من خلال جميع الطاقات اللانهائية التي تحيا في ذلك الفيض الدافق . وادرك فنسنت ان فن الرسم لن يعود إلى سابق عهده. فأما آلات التصوير واما الاكاديميون فسوف يقدمون صوراً طبق الأصل للأشياء ، وأما الرسامون الحقيقيون فسوف يبصرون كل شيء مصفى من خلال طبائعهم الخاصة ومن خلال الهواء الذي نظفته أشعة الشمس ، والذي يعملون في مناخه . فكأنما أبدع هؤلاء الرجال فناً جديداً .

هبط الدرج متعثراً . وكان ثيو في البهو الرئيسي ، فاستدار إلى شقيقه وعلى شفتيه ابتسامة ، وراح يتفحص وجهه متلهفاً .

قال – وبعد يا فنسنت ؟

فقال فنسنت وهو يزفر – اواه يا ثيو !

وحاول أن يتكلم فلم يستطع . وسدد نظره نحو الملحق في الأعلى ، ثم انثنى وجرى خارجاً من المعرض .

سار مصعدا في البوليفار العريض حتى وصل إلى بناية ثمانية الاضلاع عرف فيها مبنى الاوبرا . ولمح من بين جنبات المباني الحجرية قنطرة عن بعد ، فاتجه نحو النهر . وانزلق حتى بلغ حافة الماء ، وغمس أصابعه في السين . ثم عبر القنطرة دون أن ينظر إلى تماثيل الفرسان البرونزية ، ومضى في طريقه خلال متاهة الشوارع على الضفة اليسرى. وسار صاعداً بثبات إلى أعلى . ومر باحدى المقابر ، ثم انعطف ناحية اليمين فاذا به عند محطة ضخمة للسكك الحديدية . وفاته انه قد قطع نهر السين ، فسأل أحد رجال الشرطة أن يرشده الى شارع لافال .

قال له الشرطي :

– شارع لافال ؟ إنك يا سيدي موجود في الجانب الآخر من المدينة. وانت الآن في مونبارناس . وعليك أن تهبط التلة ، وتقطع السين ، ثم تسير صاعداً من جديد إلى مونمارتر .

قضى فنسنت ساعات عديدة ، وهو يخبط خبط عشواء في مدينة باريس ، غير مبال أين تقوده قدماه . وكانت تتوالى عليه شوارع مزدوجة الاتجاه ، عريضة نظيفة ذات محلات فخمة ، ثم ممرات قذرة وضيعة ، ثم شوارع متوسطة الحال ، تصطف فيها حوانيت خمر لا نهاية لها . ثم وجد نفسه مرة أخرى في قمة تل يقف فوق قوس نصر . ونظر ناحية

الشرق فرأى شارعاً عريضاً تحده لأشجار على جانبيه ، وتقع في كل من نهايتيه متنزهات صغيرة طويلة الشكل ، تنتهي بميدان فسيح في وسطه المسلة المصرية . أما في ناحية الغرب فرأى غابة شاسعة .

لم يعثر على شارع لافال إلا في وقت متأخر بعد الظهر . وأدى التعب الشديد إلى تخدير احساسه بالصداع . واتجه فوراً إلى موضع صوره . ورسوماته المحزومة ، فنشرها جميعاً أمامه على الأرض .

نظر إلى لوحاته محدقاً . يا إلهي ! وإذا بها قاتمة كئيبة يا إلهي ! وإذا بها ثقيلة ميتة عديمة الحياة . لقد كان يرسم من عصر سحيق عفا عليه الزمن، دون أن يدري .

حضر ثيو إلى المنزل ساعة الغسق ، فوجد فنسنت على جلسته الخرقاء . وركع إلى جوار شقيقه، وقد أخذت آخر خيوط النهار تتلاشى من الحجرة وظل ثيو صامتاً بعض الوقت .

ثم قال — أعرف كيف تشعر الآن يا فنسنت : انك مصعوق . فالأمر هائل : أليس كذلك ؟ اننا نقذف إلى المهملات بكل ما كان مقدساً حتى الآن في عرف الرسم .

والتقت عينا فنسنت الصغيرتان المتألمتان بعيني ثيو ، وتشبثتا بهما .

— ثيو ، لماذا لم تخبرني ؟ لماذا لم أعرف ؟ لماذا لم تأت بي إلى هنا منذ حين ؟ لقد تركتني أضيع ست سنوات طوالا على غير طائل .

— تقول إنها ضاعت ؟ هذا هراء : لقد عملت في مهنتك بنفسك ، ورسومك هي رسومك التي لا تشبهها رسوم أي انسان في العالم . ولو

أنك حضرت إلى هنا قبل أن يتبلور تعبيرك الخاص المتميز لصهرتك باريس على هواها .

— وكن ما الذي أفعله الآن ؟ انظر إلى هذه الخردة .

ركل بقدمه احدى لوحاته الكبيرة القاتمة ، واستطرد يقول :

— انها ميتة تماماً يا ثيو ، وتافهة .

— تسألني ماذا تفعل ، وسوف اجيبك . عليك ان تتعلم مسألة الضوء واللون من الانطباعيين . وهذا كل ما تحتاج إلى استعارته منهم ، لا غير . فلا يجوز لك ان تقلد ، ولا ان تغرق ، ولا ان تدع باريس تطغى عليك .

— ولكنني يا ثيو يجب ان اتعلم كل شيء من جديد ، فكل ما ارسمه خطأ .

— بل كل ما ترسمه صواب ، فيما عدا معالجتك الضوء واللون . والواقع انك فنان انطباعي منذ اللحظة التي أمسكت فيها بأول قلم رصاص في البوريناج . انظر الى رسوماتك ! انظر إلى لمسات فرشاتك ! هذا رسم لم يرسم مثله أحد قبل مانيه . انظر إلى خطوطك ! انك قلما تحدد خطاً حاسماً . وانظر إلى وجوهك واشجارك واشخاصك في الحقول ! انها جميعاً انطباعاتك . وهي خشنة غير متقنة ، وهي مصفاة بمصفاة شخصيتك . وذلك هو معنى كون المرء انطباعياً . ان لا يرسم كما يرسم الاخرون ، وان لا يكون عبداً للقواعد واللوائح . انك يا فنسنت تنتمي إلى جيلك ، وأنت فنان انطباعي ، سواء أعجبك ذلك أو لم يعجبك .

— اوه يا ثيو . انني لا أدري .

– ان عملك معروف في باريس لدى الفنانين الشبان ذوي الشأن . ولا أقصد بهم أولئك الذين تحظى اعمالهم باقبال المشترين ، بل الذين يزاولون التجارب الهامة ، وهم راغبون في التعرف اليك . وسوف تتعلم منهم بعض الاشياء الرائعة .

– تقول انهم يعرفون اعمالي ؟ الانطباعيون الشبان يعرفون اعمالي؟

انتصب فنسنت على ركبتيه ليرى ثيو بوضوح أكبر ، وتذكر ثيو أيامهما في زندرت حين كانا يلعبان فوق بلاط غرفة الأطفال .

– طبعاً . والا فما الذي تظن انني كنت افعله في باريس طوال هذه السنوات ؟ انهم يعتقدون ان لك عينا نفاذة وأصابع محترفة بارعة . وأنت الآن لست في حاجة إلى أكثر من تفتيح الوانك ، وان تتعلم كيف ترسم الجو طلقاً متألقاً . اليس من الأمور الممتعة ان يحيا المرء في وقت تحدث فيه مثل هذه المسائل الهامة ؟

– ثيو ، ايها العفريت العجوز ، ايها العفريت الكبير العجوز !

– هلم اذن . وانهض من هذه الجلسة على ركبتيك . وتزود بشيء من البشاشة . ولنرتد ملابسنا على خير ما يكون الهندام ، ونخرج لتناول عشائنا . سوف أصحبك إلى مطعم البراسيدي مونديال حيث يقدمون الذ اطباق الشاتوبريان في باريس . ولسوف اقيم لك مأدبة حقيقية ، وسوف افتح زجاجة شمبانيا ايها الغلام العجوز ، احتفاء باليوم العظيم الذي اجتمع فيه شمل باريس وفنسنت فان جوخ معاً .

– ٣ –

في الصباح التالي حمل فنسنت عدة الرسم وذهب إلى مرسم كورمان

وكان عبارة عن غرفة كبيرة في الطابق الثالث ، تحظى باضاءة قوية من الجانب الشمالي ، تأتيها من الشارع . وقد وقف في أحد طرفي الحجرة نموذج ذكر في حالة عري ، مواجهاً لباب الحجرة . وتناثر حوالي ثلاثين كرسياً وحاملاً أمامه لجلوس الطلاب . وقام فنسنت بتسجيل اسمه لدى كورمان . ثم اعطي واحداً من الحوامل .

وبعد ساعة من العمل ، انفتح باب القاعة ، ودخلت اليه امرأة ، وقد لف رأسها بضماد طبي ، ورفعت احدى يديها إلى فكها . فألقت على النموذج العاري نظرة مرتاعة وصاحت – يا إلهي . ثم خرجت تعدو .

التفت فنسنت إلى الرجل الجالس بجواره .

– ما الذي حدث لها حسب ظنك ؟

– اوه ، ان هذا يحدث كل يوم . فهي انما ارادت عيادة طبيب اسنان تجاوز هذا المكان . غير ان الصدمة التي تصيبهن جراء رؤية رجل عار ، تشفي ما بهن من وجع الاسنان . واذا لم ينتقل طبيب الاسنان من هذا المكان ، فسيؤدي به ذلك إلى الافلاس . انك جديد هنا ، اليس كذلك ؟

– نعم . ولم يمض على وجودي في باريس الا ثلاثة أيام .

– ما اسمك ؟

– فان جوخ . وما اسمك انت ؟

– هنري تولوز – لو تريك . هل تمت بأية قرابة لثيو فان جوخ ؟

– انه شقيقي .

– انت اذن فنسنت ! حسناً ، انني مغتبط بالتعرف اليك . ان شقيقك أفضل المتعاملين بالفن في باريس . فهو الوحيد الذي سوف يمنح الفنانين الشبان فرصة . بل انه يقاتل من أجلنا . واذا لقينا قبولاً لدى الجمهور الباريسي ذات يوم ، فسوف يرجع الفضل إلى ثيو فان جوخ . ونحن جميعاً نراه في منتهى الروعة .

– وكذلك اراه .

تفحص فنسنت الرجل عن كثب . كان لوتريك ذا رأس مفلطحة. وقد برزت تقاطيعه وانفه وشفتاه وذقنه خارج مستوى رأسه المنبسط . وله لحية سوداء غزيرة ، اتجهت في نموها إلى الأمام بدلاً من ان تنمو إلى أسفل .

وسأله لوتريك – ما الذي اتى بك إلى مكان تعيس كهذا المكان ؟

– لابد لي من مكان امارس فيه الرسم . فما الذي اتى بك انت ؟

– اللعنة علي اذا كنت اعلم . لقد عشت طوال الشهر الماضي في ماخور بحي مونمارتر ، ورسمت لوحات للفتيات هناك . وكان ذلك عملاً حقيقياً . أما الرسم في داخل مرسم ، فان ذلك من العاب الأطفال .

– بودي مشاهدة دراساتك لاولئك النسوة .

– اتود ذلك حقاً ؟

– هذا أكيد . ولم لا ؟

– معظم الناس يرونني مجنوناً لانني ارسم فتيات القاعات الراقصة والمومسات والمهرجين . ولكن المرء يجد في اولئك شخصيات حقيقية .

ـ أعرف ذلك . وقد تزوجت واحدة في لاهاي .

ـ مليح . ان عائلة فان جوخ هذه على ما يرام . دعني ار المخطط الذي رسمته للنموذج . هل تسمح ؟

ـ خذها كلها . لقد رسمت اربعة .

نظر لوتريك إلى المخططات وهلة ثم قال : ـ انني واياك متفقان يا صديقي ، فنحن نفكر تفكيراً متماثلاً . هل رأى كورمان هذه المخططات ؟

ـ لا .

ـ عندما يراها ، فسوف يكون ذلك آخر عهدك بهذا المرسم ، اعني فيما يختص بنقد عملك . لقد قال لي منذ أيام « انت تبالغ يا لوتريك . تبالغ دائماً . ففي كل دراسة من دراساتك اعثر على خط ينتمي إلى عالم الكاريكاتير » .

ـ وعندها اجبته انت قائلاً « ذلك يا عزيزي كورمان هو عالم الشخصية لا عالم الكاريكاتير » .

وانبعثت ومضة من الجد في عيني لوتريك السوداوين الحادتين كأطراف الابر ، وقال : ـ اما زلت راغباً في مشاهدة تلك اللوحات التي رسمتها للفتيات ؟

ـ أجل هذا مؤكد .

ـ هيا بنا اذن ، فان هذا المكان معرض للجثث على كل حال .

كان لوتريك ذا رقبة غليظة مكتنزة وكتفين وذراعين قويتين . وعندما نهض على قدميه اكتشف فنسنت ان صديقه الجديد انسان

كسيح . فلم يكن لوتريك حال وقوفه اطول منه حال جلوسه . وكان جذعه الغليظ يبرز نحو الأمام حتى ليوشك ان يشكل رأس مثلث عند وسطه ثم يسقط سقوطاً حاداً نحو الساقين الصغيرتين العاجزتين .

سارا يهبطان بوليفار كليشي ، وقد استند لوتريك بثقله على عصاه وكان يتوقف بين الفينة والفينة قليلاً ليستريح ، وربما اشار إلى ما يراه بديعاً في خطوط البنايات التي يبرز بعضها خلف بعض واجتازا كتلة واحدة من المباني في ذلك الجانب ، ثم استدارا صاعدين التل نحو البوت مونمارتر . وكان لزاما على لوتريك ان يكثر من وقفات الراحة .

– لعلك تتساءل يا فان جوخ عن مشكلة ساقي ، وذلك امر معتاد . حسناً ، سوف اخبرك .

– اوه ، ارجوك ! لا داعي لان تتحدث عن ذلك .

على انك ينبغي ان تعرف .

ثم انه خطا أمام عصاه جاعلاً اياها خلفه ، واستند اليها بكتفيه وواصل يقول : – ولدت مصاباً بلين العظام . وحدث عندما كان عمري اثني عشرة سنة ان انزلقت في ساحة الرقص فكسرت عظم فخذي الايمن . وفي العام الذي يليه سقطت في حفرة وكسرت الساق اليسرى . ومنذ ذلك الحين لم تنم ساقاي ولو بوصة واحدة .

– هل يشقيك هذا الامر ؟

– لا . فلو انني لم اصب بهذه العاهة ، لما أصبحت رساماً . ان والدي يحمل لقب كونت تولوز ، وكنت التالي في وراثة اللقب من

بعده . ولو أردت لحصلت على عصا الماريشالية ولركبت إلى جوار ملك فرنسا ، وذلك بافتراض ان لفرنسا ملك . ولكن قل لي بربك ، أي خير للمرء في ان يكون كونتاً اذا كان هو رساماً ؟

ـ نعم ، اظن ان أيام الكونتات قد ولت .

ـ هل نواصل السير ؟ ان مرسم ديجا يقع بالمناسبة أسفل هذا الدرب . انهم يزعمون انني انما انسخ اعماله ، وذلك لانه يرسم راقصات باليه وانا ارسم فتيات المولان روج . فليزعموا ما يروق لهم هذا هو بيتي وعنوانه ١٩ مكرر شارع فونتين . وهو بالطابق الارضي كما ترى .

فتح الباب ، واومأ لفنسنت بالدخول .

وقال ـ انني اعيش وحيداً ، اجلس،اذا وجدت مكانا للجلوس .

وجال فنسنت بنظره في المكان ، فرآه يغص باللوحات والاطارات والحوامل والكراسي والسلالم المتحركة ولفافات الأقمشة الجوخية، اضافة إلى طاولتين كبيرتين ، كانت احداهما محملة بزجاجات خمور نادرة وقناني تحتوي على سوائل ذات الوان متعددة ، والاخرى تحمل اكواماً من أخفاف الراقصات والشعور المستعارة ، والكتب القديمة ، وملابس النساء ، والقفازات ، والجوارب ، والصور المبتذلة ، والرسوم اليابانية الثمينة . ولم يكن في المكان إلاّ حيز ضئيل واحد وسط هذا الركام ، هو الحيز الذي يجلس لوتريك فيه حين يرسم .

وقال سائلاً ـ ما بالك يا فان جوخ ؟ الا تجد مكاناً للجلوس ؟ ما عليك الا ان تزيح هذه القمامة من حولك ، وتأتي بالكرسي قرب

النافذة . لقد اتسع هذا البيت لسبع وعشرين فتاة ، لم ادع واحدة منهن الا ونمت معها . الا توافقني على ان من الضروري ان تنام مع المرأة حتى تفهمها فهماً كاملاً ؟

— لى .

— هذه هي الرسومات . وقد عرضتها على تاجر في الكابوسين ، فقال « لوتريك ، لماذا هذا التركيز على القبح ؟ لماذا ترسم دائماً أكثر الناس وضاعة وانحلالاً ؟ ان هؤلاء النساء مقززات . مقززات تماماً ان الفسوق وفساد الخطيئة مكتوبين على وجوههن . فهل معنى الفن الحديث ابداع القبح ؟ وهل عميتم انتم الرسامين عن الجمال فما عدتم ترسمون الا حثالة العالم ؟ . » فقلت له « لا مؤاخذة ، اظن انني اشعر بمغص ، ولا اود ان افعلها فوق سجادتك البديعة » . هل الاضاءة على ما يرام يا فان جوخ ؟ هل تريد شراباً ؟ افصح عما تفضل ، فان لدي كل ما قد يخطر لك ببال .

راح يتطلع بين الكراسي والطاولات ولفائف القماش ، بحركات رشيقة ، وصب كأساً ناولها إلى فنسنت .

وصاح : — لنشرب نخب القبح يا فان جوخ . وعسى ان لا تتأذى بتلك الاكاديمية .

احتسى فنسنت شرابه ، وهو يدرس رسومات لوتريك السبعة والعشرين لفتيات ملهى مونمارتر . وأدرك ان الفنان رسمهن على النحو الذي رآهن فيه . وجاءت الرسوم موضوعية ، لا تنطق بموقف مسلكي أو تعليق اخلاقي . لقد التقط ما في وجوه الفتيات من بؤس وعناء وما فيهن من بهيمية جنسية قاسية ، ومن فساد وحشي ، ومن عزلة روحية .

وسأله فنسنت – هل تحب صور الفلاحين يا لوتريك ؟

– نعم ، اذا لم تتميع بافاضة العاطفة عليها .

– حسناً . انني ارسم الفلاحين . وانه ليذهلني ان ارى في هؤلاء النساء ما اراه في الفلاحين . انهن يمارسن فلاحة بالجسد ، ان الأرض والجسد شكلان مختلفان من المادة نفسها . الا توافقني ؟ ن عملك جيد يا لوتريك . لقد عبرت عن شيء جديد بالتعبير .

– الا ترى رسوماتي قبيحة ؟

– بل اراها بمثابة نقد نفاذ أصيل للحياة ، وهذا هو أرفع أنواع الجمال . ألا ترى ذلك ؟ أما لو انك افتعلت لهؤلاء النسوة فكرة أو غرضاً أو جعلت لهن أبعاداً عاطفية ، لأصبحن قبيحات ، لأن لوحاتك ستحمل الجبن والزيف . إلا أنك سجلت الحقيقة الكاملة مثلما رأيتها . وهذا هو ما يعنيه الجمال . أليس كذلك ؟

– يا يسوع المسيح ! لماذا لا يوجد في العالم أناس كثيرون على شاكلتك ، خذ كأساً آخر وتصرف كما تريد بهذه الرسومات ! خذ منها قدر ما تحب !

رفع فنسنت لوحة من اللوحات في الضوء . وجعل يحدس داخل عقله لوهلة ، ثم صاح :

– دومييه ! إنها تذكرني بدومييه .

سطع وجه لوتريك بالضياء .

– أجل ، دومييه . أعظمهم على الاطلاق . والشخص الوحيد الذي تعلمت منه . ياإلهي ! بأية روعة يمارس ذلك الرجل طاقة الكراهية !

– ولكن لماذا يرسم المرء ما يكره ؟ إنني انما أرسم ما أحب فقط .

– كل فن عظيم يا فان جوخ ينبثق من الكراهية . اوه ، ألاحظ الآن انك معجب باللوحة التي اقتنيها لجوجان .

– من هو الذي قلت انه رسم هذه اللوحة ؟

– بول جوجان . هل عرفته ؟

– لا .

– يجب أن تتعرف اليه اذن . ان ما تراه هو لوحة رسمها لامرأة من أهالي جزر المارتينيك ، حيث سافر إلى هناك برهة من الوقت . انه معتوه تماماً فيما يتعلق بموضوع الرجوع إلى البدائية ، ولكنه رسام ممتاز. لقد كانت له زوجة وثلاثة أطفال ووظيفة في البورصة تدر عليه مبلغ ثلاثة آلاف فرنك في العام . وقد اشترى رسومات بلغت قيمتها خمسة عشر ألف فرنك من بيسارو ومانيه وسيسلي . تصور انه رسم لوحة شخصية لزوجته يوم زفافهما ، وآنذاك كان جوجان يرسم أيام الاحاد ، في اطار نادي الفن التابع للبورصة . وذات مرة عرض إحدى لوحاته على مانيه ، فقال له أنها جيدة جداً . فأجاب جوجان – اوه ، ما أنا إلا واحد من الهواة . فقال مانيه – اوه ، لا ، ما من هواة إلا الذين يرسمون صوراً رديئة . ونفذت هذه الملاحظة إلى رأس جوجان كما تنفذ الخمرة الصافية ، فلم يعد يرسم أي شيء خال من التطرف . ومالبث أن هجر عمله في البورصة، وعاش مع أسرته في روين معتمداً على مدخراته حتى انقضى عام كامل ، ثم انه أرسل زوجته وأطفاله إلى منزل أهل زوجته في استوكهولم . وعاش منذ ذلك الحين يكسب عيشه بأساليب غير مفهومة .

— يبدو لي مثيراً للاهتمام .

— غير أن عليك أن تكون متنبهاً حينما تلقاه ، فهو يعشق تعذيب أصدقائه . قل لي يا فان جوخ . هل تود أن أصطحبك لاريك المولان روج والايليزيه مونمارتر ؟ إنني أعرف جميع الفتيات هناك . هل تحب النساء يا فان جوخ ؟ أعني أن تنام معهن ؟ إنني أحبهن . ماذا تقول ؟ هل تقضي ليلة هناك ذات يوم ؟

— لا مانع أبداً .

— رائع . اقترح أن نعود الآن إلى كورمان . أتريد مزيداً من الشراب قبل مغادرتنا ؟ اليك به . ثم خذ كأساً أخيراً فتفرغ الزجاجة . انتبه وإلا قلبت تلك الطاولة . لا تبال ، فان الخادمة ستجيء وتنظف هذا كله . أظن انني سأنتقل من هذا المنزل في القريب العاجل . إنني ثري يا فان جوخ ذلك ان والدي يخشى ان ألعنه لأنه خلفني في هذا العالم كسيحاً ، فهو يعطيني كل ما أريد. وعندما انتقل من مكان إلى آخر فانني لا أحمل إلا رسوماتي . وأنا استأجر المرسم فارغاً ثم آخذ في شراء الأشياء واحدة بعد الأخرى . وحالما أبدأ في الضجر من المكان ارتحل من جديد . وبالمناسبة أي نوع من النساء تفضل ؟ الشقراوات ؟ أم حمراوات الرؤوس ؟

لا تتجشم مشقة اغلاق الباب . انظر إلى السقوف المعدنية كيف تنحدر نحو بوليفار كليشي كأنها محيط اسود اللون . اوه ، يا للجحيم . لا حاجة بي إلى التظاهر أمامك . انني انما أستند إلى هذه العصا ، وأتوقف مشيراً إلى المشاهد الجميلة لأنني كسيح ملعون ولاقدرة لي على السير أكثر

من خطوات قليلة كل حين . حسناً ، اننا جميعاً كسيحون بمعنى من المعاني ، فلنمض في طريقنا .

— ٤ —

تراءى له الأمر هيناً . فكل ما عليه هو أن يلقي جانباً بحاملة الوانه ، ثم يشتري بعض الألوان الفاتحةويرسم كما يرسم الانطباعيون . فلما أقدم على المحاولة ، اذا به في نهاية يومه الأول يصاب بالدهشة وبشيء من الغيظ . وفي نهاية اليوم الثاني أحس بالضيق ، ثم تلا الضيق الكدر والغضب والخوف . أما في ختام الاسبوع الأول فبلغ به الأمر قمة الهياج . فها هو يعود مبتدئاً ، بعد أن قضى الشهور الطوال في تجارب دائبه مع الألوان. وهاهي لوحاته تخرج من تحت يديه قاتمة غامقة دبقة . وكان لوتريك الجالس إلى جوار فنسنت في مرسم كورمان يراقب الرسم ويسمع اللعنات وهي تتطاير مستنكفاً عن تقديم أية نصيحة .

ولكن لئن كان ذلك الاسبوع شاقاً على فنسنت ، فقد كان أشق ألف مرة على ثيو . ذلك أن ثيو كان روحاً لطيفة ، وكان رقيقاً في طباعه وعادات حياته. فهو انسان بالغ الاناقة في ملبسه وذوقه وبيته ومحل عمله ولم يكن له إلا نصيب ضئيل مما يتمتع به فنسنت من قوة وحيوية داهمة.

كانت الشقة الصغيرة في شارع لافال تتسع بالكاد لثيو ولأثاثه الرقيق من طراز لويس فيليب . ولم يمض اسبوع واحد حتى قلب فنسنت المكان إلى حانوت خردة . فهو يذرع غرفة الجلوس جيئة وذهاباً ، ويركل قطع الاثاث التي تعترض طريقه ، ويلقي هنا وهناك اللوحات والفرشايات وأنابيب الالوان الفارغة ، ويرقش الأرائك والمناضد بملابسة الوسخة،

ويكسر الصحون ، ويدلق الالوان ، ولا يدع عادة من العادات التي يحرص عليها ثيو في حياته ، إلا انتهكها .

وصاح ثيو قائلاً : — فنسنت ، فنسنت ، لا تكن تتارياً على هذا النحو .

كان فنسنت يدور في الشقة الصغيرة ، وهو يعض على نواجذه ويتمتم لنفسه . وارتمى بثقله على كرسي هش .

وزفر زفرة حادة وهو يقول : — لا فائدة . لقد بدأت متأخراً جداً . وأنا الآن أكبر سناً من أن أستطيع التغير . رباه . . لقد حاولت يا ثيو ! وقد شرعت خلال هذا الاسبوع برسم عشرين لوحة . ولكنني محكوم بأسلوبي ، ولا أستطيع أن أبدأ من جديد. لقد انتهيت يا ثيو ! فأنا غير قادر بعد ما رأيته هنا على العودة إلى هولندا ورسم قطعان الماشية . كما أنني في الوقت ذاته جئت متأخراً بحيث عجزت عن الانتظام ضمن الطابع الجديد الذي بلغته المهنة ، فما عساي أفعل يا رب ؟

وشب واقفاً ، وسار بخطوات متمايلة نحو الباب ، يلتمس شيئاً من الهواء الطلق ، ثم أغلقه بعنف ، وعاد ففتح الشباك ، وحملق برهة نحو مطعم باتاي ، ثم اغلق الشباك بقوة كادت أن تحطم الزجاج ، ومضى نحو المطبخ يريد أن يشرب ، فنثر نصف الماء على الأرض ، وعاد إلى غرفة الجلوس والماء يسيل من جانبي ذقنه .

— اذن ، ماذا ترى يا ثيو ؟ هل استسلم ؟ هل انتهى امري ؟ ألا تدل البوادر كلها على ذلك ؟

— فنسنت ، انك تتصرف تصرف الأطفال . فاهدأ واجلس لحظة واصغ إلى كلامي . لا ، لا ، لا تذرع الغرفة ! لأنني لا أستطيع أن أتكلم على هذا النحو . واخلع بحق السماء حذاءك الثقيل إذا كنت مصمماً على أن تركل ذلك الكرسي المذهب كلما مررت من جواره !

— ولكن يا ثيو ، حسبي انني تركتك تعولني ست سنوات كاملة . فما الذي عاد عليك من وراء ذلك في نهاية الأمر ؟ فيضاً من الرسومات ذات اللون الذي يشبه مرق اللحم ، وانساناً فاشلاً لا أمل فيه بين يديك .

— استمع إلي أيها الغلام العجوز . تذكر انك حين أردت أن ترسم الفلاحين ، لم تتوصل إلى سر الصنعة خلال اسبوع ، وانما كلفك الأمر خمس سنوات طوالاً . أليس كذلك ؟

— بلى ، ولكنها في ذلك الحين كانت البداية .

— وأنت اليوم في بدايتك مع الألوان ! ولربما استغرق الأمر خمس سنوات أخرى .

— أما من نهاية لذلك يا ثيو ؟ هل كتب علي أن أتردد على المدرسة طيلة حياتي ؟ إنني في الثالثة والثلاثين ، فمتى بحق الاله أبلغ مرحلة النضج ؟

— هذا هو شوطك الأخير يا فنسنت . لقد شاهدت كل ما أبدعه الرسامون في أوروبا . ان ما يحتويه الملحق عندي هو الصيحة الأحدث في عالم الفن . وأنت حالما تجعل ألوانك أفتح . . .

— اوه يا ثيو . هل تعتقد حقاً انني سأفلح في ذلك ، ألا تعتقد انني فاشل ؟

– كلا ، ولكنني أميل إلى الاعتقاد أنك مغفل . كيف تراه يخطر ببالك انك تستطيع في اسبوع واحد أن تمسك بزمام فنك بينما الفن يشهد أعظم ثورة في تاريخه ! قم يا رجل ، ودعنا نتمشى قليلاً على التل ونقوم بعملية تبريد لرؤوسنا ، لأنني إذا بقيت بصحبتك خمس دقائق أخرى في هذه الغرفة فسوف أتفجر .

في اليوم التالي قضى فنسنت ساعات بعد الظهر يرسم في مرسم كورمان حتى وقت متأخر ، ثم ذهب إلى ثيو في جوبيل . لقد هبط على الجو غسق نيساني مبكر ، وكانت صفوف العمارات ذات الطوابق الست المبنية بالحجارة ، تستحم في وهج مرجاني قرمزي منبعث من الأشعة الغاربة . وفي تلك الساعة تتناول باريس كلها اطباق المقبلات. وكانت المقاهي على رصيفي شارع مونمارتر تغص بالرواد الذين يتبادلون الأحاديث ، وقد انبعثت من داخل المقاهي أصوات الموسيقى الخفيفة التي تعزف لانعاش الباريسيين بعد عناء يومهم . وأخذ العمال يشعلون مصابيح الغاز ، والندل في المطاعم يفرشون الطاولات بالأغطية ، والموظفون في المخازن الكبيرة يشدون مصاريع النوافذ المصنوعة من الحديد المضلع ويفرغون الأرصفة من البضائع التي كانت ممدودة فوقها.

سار ثيو وفنسنت على مهل. وعبرا ساحة شاتودان بما فيها من ضوضاء العربات القادمة من ست شوارع تصب فيها،ثم مرا بكنيسة نوتردام دي لوريت وصعدا التل في طريقهما إلى شارع لافال .

– هل تود أن تتناول المقبلات يا فنسنت ؟

– نعم ، ولنجلس في موضع يمكننا منه أن نراقب جمهور الناس .

– سنذهب إلى مطعم باتاي في شارع ديزابيس . وهناك قد نلتقي ببعض أصدقائي .

كان مطعم باتاي يعج برواد كثيرين من الرسامين . ولم يكن في مقدمة المطعم غير أربع أو خمس طاولات . ولكن غرفتيه الداخليتين كانتا رحبتين . وكانت مدام باتاي تعمد دائماً إلى إجلاس الفنانين في إحدى الغرفتين، وتقود البورجوازيين إلى الغرفة الأخرى . وهي تعرف الطبقة التي ينتمي إليها المرء حالما يقع عليه بصرها .

وصاح ثيو : – جارسون . هات لي شراب كوميل ايكاواواو.

– ماذا تقترح أن أشرب أنا يا ثيو ؟

– جرب شراب الكوانترو . ينبغي أن تشرب عدة مشروبات على سبيل التجربة، حتى تنتقي شرابك الدائم .

وضع النادل أمامهما كأسي الشراب على طبقين صغيرين ، وارفق ذلك ببيان الثمن مكتوباً بحروف سوداء. واشعل ثيو سيجاراً كما أشعل فنسنت غليونه . وعبرت الرصيف مجموعة من نساء المغاسل يرتدين مآزر سوداء وقد حملن تحت أذرعهن سلالاً تحتوي على ملابس مكوية ، ثم مر عامل يحمل بيده سمكة مدخنة يؤرجحها من ذيلها ، ومر رسامون يرتدون ملابس مهلهلة ويحملون حواملهم الخشبية بما عليها من لوحات لم تجف بعد ، ومر رجال أعمال يرتدون قبعات الدربي السوداء ومعاطف رمادية مبرقعة، ومرت ربات بيوت يرتدين خفافاً قماشية في أقدامهن ويحملن زجاجة نبيذ أو لفافة لحم ، ومرت نساء فاتنات يرتدين تنانير طويلة واسعة تضيق عند الخصر ويضعن عل رؤوسهن قبعات صغيرة يزينها ريش في مقدمها . .

— هذا مهرجان بديع ، أليس كذلك يا ثيو ؟

— نعم . ان باريس لاتفيق حقاً إلا في ساعة تناول المقبلات .

— أتدري أنني كنت أتساءل بيني وبين نفسي . . ما الذي يجعل باريس رائعة على هذا النحو ؟

— لا أدري بصراحة . انه سر خالد . يتعلق ، حسب ظني ، بالشخصية الفرنسية . فثمة طابع من الحرية والتسامح هنا، وتقبل للحياة على علاتها . . . مرحبا، هاهو واحد من أصدقائي الذين أود أن تتعرف بهم . مساء الخير يا بول . كيف حالك .

— في أحسن حال . شكراً لك يا ثيو .

— بودي أن أقدم لك شقيقي فنسنت فان جوخ . هذا هو بول جوجان يافنسنت . اجلس يابول واشرب كأساً من الابسنث الذي لا غنى لك عنه .

رفع جوجان كأس الابسنث ، ومس الشراب بطرف لسانه، ثم أدخل لسانه وجال به في باطن فمه ، واستدار إلى فنسنت .

— كيف وجدت باريس يا سيد فان جوخ ؟

— لقد أحببتها كثيراً .

— يا سلام . ان هذا يدعو للعجب . مازال بعض الخلق يعجب بها . أما أنا فلا أراها إلا حاوية كبيرة من حاويات القمامة ، وفيها حثالة الحضارة .

— ثيو ، أنا لم أستسغ هذا الكوانترو كثيراً ، فهل تشير علي بشراب غيره ؟

فقال جوجان :

— جرب شراب الابسينث يا سيد فان جوخ ، فهو الشراب الوحيد الجدير بالفنان .

— ماذا تقول يا ثيو ؟

— ولماذا تسألني ؟ ان الامر إليك . جارسون ، هات كأساً من الابسنث للسيد . قل لي يا بول ، انك تبدو اليوم راضياً عن نفسك ، فماذا حدث ؟ هل بعت لوحة من لوحاتك ؟

— لا ، لم يحدث شيء تافه من هذا القبيل يا ثيو ، ولكنني مررت صباح اليوم بتجربة شائقة .

فغمز ثيو لفنسنت من طرف خفي .

— حدثنا عنها يا بول . جرسون ! هات كأساً ثانياً من الابسينث للسيد جوجان .

مس جوجان كأس الابسنث الجديد بطرف لسانه ، و بلل بالسائل باطن فمه ثم بدأ يتكلم .

— هل تعرف ذلك الزقاق المسدود المدعو امباس فيرنييه ، الذي يتفرع من شارع دي فورنو ؟ لقد حدث في الساعة الخامسة من صبيحة اليوم ان سمعت الام فوريل ، وهي زوجة سائق العربة تصرخ « النجدة ! زوجي شنق نفسه ! » . فوثبت من السرير ، وارتديت بنطالي — الذي هو كل ما أملك ! — وتناولت سكيناً وهرعت إلى أسفل فقطعت الحبل. وكان الرجل قد مات ، ولكنه مازال دافئاً ومازال متوهجاً ، واردت ان أحمله إلى سريره وإذا بالأم فوريل تصرخ بي « توقف ! ان علينا ان ننتظر الشرطة ! »

ان بيتي من الجانب الآخر يرتفع بمقدار خمس عشرة ياردة فوق موضع نوم بستاني السوق ، وقد صحت منادياً البستاني « هل أجد عندك بطيخة صفراء » ، فأجاب « مؤكد يا سيدي ، وهي بطيخة ناضجة » . وأكلت بطيختي في الافطار دون ان يخطر ببالي الرجل الذي شنق نفسه . وهكذا ترى ان الحياة لا تخلو من جانب حسن .

وقد كنت اليوم مدعواً على الغذاء ، فارتديت أفضل قميص من قمصاني ، وأنا توقع أنني سوف أبعث بقصتي الرجفة في أوصال جماعة أصدقائي ، ولكنني حين رويت لهم القصة ابتسموا بلا مبالاة كاملة ، ولم يبق منهم أحد إلا طلب مني أن أجلب له قطعة من الحبل الذي شنق الرجل به نفسه.

نظر فنسنت إلى بول جوجان عن قرب . كانت له رأس سوداء ضخمة أشبه برؤوس البرابرة ، وله أنف جسيم ينطلق من زاوية عينه اليسرى حتى يبلغ الركن الأيمن من فمه . وكانت عيناه واسعتين جاحظتين ذواتي شكل لوزي ، تسكنهما كآبة وحشية ، وقد اظلتهما من الأعلى عظام ناتئة ، وامتد تحتهما خدان طويلان ، تقاطعهما ذقن عريضة . لقد كان رجلاً عملاقاً ، ذا حيوية بهيمية كاسحة .

ابتسم ثيو ابتسامة خفيفة .

– بول ، أخشى أنك تستمتع بساديتك على نحو يزيد كثيراً عما هو طبيعي . ان علي ان ابرح المكان الآن ، لأن لدى موعداً على العشاء. هل ترافقني يا فنسنت ؟

فقال جوجان :

– اتركه معي يا ثيو . انني أريد أن أتعرف إلى أخيك هذا .

– حسن جداً . لكن لا تتخمه كثيراً بكؤوس الابسنت ، فهو غير معتاد عليها . جارسون ، هات الحساب !

وقال جوجان :

– ان أخاك هذا على ما يرام يا فنسنت ، لكنه ما يزال خائفاً من أن يعرض لوحات الفنانين الناشئين على انني أظن ان فالادون

– ولكنه يعرض في الملحق أعمال مونيه وسيسلي وبيسارو ومانيه.

– هذا صحيح . ولكن أين أعمال سوارت وجوجان وسيزان وتولوز لوتريك ؟ ان الأولين قد شاخوا الآن ، وبدأ أوانهم يفوت .

– أوه ، أنت تعرف تولوز لوتريك اذن ؟

– هنري ؟ طبعاً ! ومن الذي لا يعرفه ؟ انه رسام رائع ملعون ، ولكنه مجنون ، ويعتقد انه إذا ضاجع خمسة آلاف امرأة فسوف يعوض نفسه عن كونه رجلاً غير مكتمل . وهو يصحو كل صباح على مركب النقص الذي يتأكله لأنه محروم من الساقين ، ويعمد كل ليلة إلى اغراق هذا النقص بالشراب وبجسد امرأة . لكن الأمر يعاوده في الصباح التالي، فلو لم يكن مجنوناً لكان واحداً من أفضل رسامينا . عليناأن ننعطف من هنا . ان مرسمي في الطابق الرابع . انتبه إلى تلك الدرجة ، فان لوحها مكسور .

تقدم جوجان وأشعل مصباحاً ، فاذا بالمكان حجرة صغيرة على السطح يوجد فيها حامل الرسم وسرير نحاسي وكرسي . ورأى فنسنت في فجوة تقع بجوار الباب بعض الصور الفوتوغرافية الفجة البدائية .

– من واقع هذه الصور أتخيل انك لا ترى في الحب أمراً ذا بال.

– أين ستجلس ؟ على الكرسي أم على السرير ؟ هناك شيء من التبغ على الطاولة ان اردت تدخين غليونك . حسناً ، إنني أحب النساء ، شرط أن يكن بدينات وفاحشات . أما ذكاؤهن فيضايقني . وقد تمنيت دائماً أن آخذ لنفسي عشيقة سمينة ولكنني لم أحظ بواحدة . ومن أفاعيل النساء التي استهبلتني انني أصادفهن دائماً حوامل . هل قرأت قصة قصيرة نشرت في الشهر الماضي بقلم شاب صغير يدعى موباسان ؟ انه من مريدي زولا . وتدور قصته حول رجل يحب النساء البدينات ، ويجهز في بيته ليلة عيد الميلاد عشاء لشخصين ، ثم يخرج بحثاً عن رفيقة . ويقع على امرأة تلائمه كل الملائمة ، ولكنهما ما ان يشرعا في أكل اللحم المشوي حتى تداهم المرأة حالة الولادة ، واذا بها تلد طفلاً ذكراً ينط في وجه صاحبنا .

– ولكن هذا كله بعيد الصلة بقضية الحب يا جوجان .

استلقى جوجان على السرير ، ووضع ذراعاً مفتولة تحت رأسه ، وأطلق سحباً من الدخان في اتجاه الدعائم الخشبية غير المدهونة .

– أنا لم أقصد أنني لا أتأثر بالجمال يا فنسنت ، ولكنني ببساطة لا أحتفظ في وجداني بشيء منه . انني لا أعرف الحب كما ترى . ولو قلت كلمة « أحبك » فان ذلك سيؤدي إلى كسر أسناني كلها . ولكنني لا أفتقد الحب . وانما اردد مع يسوع « ان الجسد هو الجسد ، والروح هي الروح » . انني أستطيع بمبلغ صغير من المال أن أرضي جسدي ، فتظل روحي في سلام .

– لا شك أنك لا تعير هذه المسألة إلا أقل الاهتمام .

– كلا . ان اختيار المرأة للنوم في سرير المرء ليس أمراً قليل

الأهمية . إنني استشعر لذة مضاعفة مع المرأة التي تمتعها المضاجعة ، ولكنني أفضل اتصالاً سطحياً أجوف ، على أن أنخرط بعواطفي في هذه العلاقة . إنني أوفر عاطفتي لرسومي .

– لقد توصلت بدوري إلى هذه النتيجة متأخراً . لا ، شكراً ، لا أظنني قادراً على شرب المزيد من الابسنث . لا ، إطلاقاً ، استمر انت. ان شقيقي ثيو يقدر فنك تقديراً عالياً . هل أستطيع أن أرى بعض دراساتك ؟

قفز جوجان واقفاً .

– لا ، لا تستطيع . لأن دراساتي شخصية وخاصة ، شأن رسائلي . ولكنني أريك لوحاتي. ولو انك لا تستطيع أن تبصر كثيراً في هذا الضوء. حسناً ، لابأس اذا كنت تصر على ذلك .

جلس جوجان على ركبتيه ، وجذب كومة من اللوحات من تحت السرير وأخذ يركزها واحدة بعد الأخرى في مواجهة زجاجة الابسنث على الطاولة . وقد كان فنسنت يتوقع أن يرى ابداعاً غير عادي ، ولكنه إذ رأى أعمال جوجان أحس بحيرة ذاهلة . فالذي شاهده انما كان مجموعة مضطربة من الصور الغارقة في الشمس ، فيها أشجار لم يكتشفها أي عالم من علماء النبات بعد ، وفيها حيوانات لم يحلم كوفييه نفسه بوجودها ، وفيها رجال لا يمكن أن يبدعهم إلا خيال جوجان ، وفيها بحار لا يمكن ان تكون قد فاضت إلا من ثوران بركان ، وفيها سماء يستحيل ان يقيم فيها إيما اله . وقد رسم جوجان شخصيات سكان محليين عليهم طابع الخيال ، تقبع وراء عيونهم الساذجة البدائية أسرار المطلق . وكلها لوحات تنتمي إلى عالم الحلم ، وقد نفذت بألوان مشتعلة

من قرنفلي وبنفسجي واحمر مهزوز ، فجاءت بمثابة مناظر زخرفية صرفة ، مفعمة بانفجار نباتات وحيوانات وحشية تحت حرارة الشمس وضيائها .

تمتم فنسنت : — ان شأنك شأن لوتريك ، انتما الاثنان تطلقان طاقة الكراهية إلى أقصى ما في وسعكما .

وضحك جوجان : — ما رأيك في رسمي يا فنسنت ؟

— لا أدري بصراحة ، فأمهلني بعض الوقت . واسمح لي أن أعود في وقت آخر فأرى عملك ثانية .

— تعال وقتما تشاء . ان هناك اليوم شاباً واحداً في باريس يضارع برسومه رسومي ، هو جورج سوارت ، وهو بدوره بدائي . أما جميع المغفلين الآخرين في عموم باريس فهم متمدينون .

وسأله فنسنت : — جورج سوارت ؟ لا أعتقد أنني سمعت به .

— لا ، لم تسمع به ، فما من تاجر في المدينة يعرض لوحاته .وهو مع ذلك رسام عظيم .

— أود أن أجتمع به يا جوجان .

— سأصحبك اليه فيما بعد . ما رأيك ان نتعشى ونذهب إلى براون؟ هل تحمل نقوداً ؟ إنني لا أملك إلا حوالي فرنكين . والأفضل أن نأخذ هذه الزجاجة معنا . اذهب انت أولاً ، وسأحمل لك المصباح حتى تنزل نصف مسافة الدرج ، خشية أن تدق عنقك أثناء هبوطك .

— ٥ —

لم يذهبا إلى منزل سوارت إلا بعد أن أوشكت الساعة على بلوغ الثانية فجراً .

وسأل فنسنت : — ألا تخشى أن توقظه من نومه ؟

— كلا ورني . انه يعمل طوال الليل،ومعظم النهار . ويخيل إلي أنه لا ينام قط . هذا هو المنزل ، وهو ملك والدة جورج . وقد قالت لي ذات مرة « ولدي هذا جورج يريد أن يرسم . فليكن وليرسم ما شاء له الرسم . إنني أملك مالا يكفي كلينا . وما يهمني هو أن يظل سعيداً . » انه ولد نموذجي بالنسبة اليها ، فهو لا يشرب ، ولا يدخن ، ولا يشتم ، ولا يخرج في الليالي ولا يلاحق النساء ، ولا ينفق مالاً إلا على شيء واحد هو مواد الرسم . فليس له إلا خطيئة واحدة هي الرسم . وقد نمي إلى سمعي أن له عشيقة وابنا يعيشان في مكان قريب . ولكنه لا يأتي على ذكرهما أبداً .

قال فنسنت : — المنزل يبدو معتماً . فكيف لنا أن ندخل دون ايقاظ الأسرة كلها ؟

— جورج يشغل الطابق الأعلى . فاذا رأينا نوراً من الجانب الآخر للبناء ، رمينا حصوات على شباكه . انتظر ، فمن الأفضل أن تدعني أفعل ذلك ، لأنك اذا لم تحكم التسديد فربما سقطت الحصاة على نافذة الطابق الثالث فأيقظت أمه.

نزل جورج سوارت ليفتح الباب ، ورفع اصبعه إلى شفتيه محذراً، ثم قادهما صاعداً درج الطوابق الثلاث ، أدخلهما إلى شقته ، وأغلق الباب خلفه .

قال جوجان : — جورج ، أود أن تلتقي بفنسنت فان جوخ ، شقيق ثيو . انه يرسم على طريقة الهولنديين ، ولكن بصرف النظر عن ذلك ، هو شخص ظريف جداً .

كانت شقة سوارت هائلة الحجم ، تشغل مساحة الطابق بأسرها . رقد علقت على جدرانها لوحات ضخمة قيد الانجاز ، وثمة طاولة مربعة عالية نصبت أسفل مصباح الغاز ، وعليها لوحة لم تجف ألوانها بعد .

— تسعدني معرفتك يا سيد فان جوخ . أستأذن منك بضع لحظات قليلة ، وأرجو المعذرة . ما زال علي أن أملأ فراغاً مربعاً صغيراً بالألوان قبل أن يجف رسمي .

صعد حتى جلس فوق كرسي عال دون مسند ، وجثم فوق لوحته . وكان المصباح الغازي يضيء بشعاع ثابت أقرب إلى الصفرة . ورأى فنسنت ما يقرب من عشرين حقاً صغيراً للألوان تشكل خطا منتظماًفوق الطاولة . ومس سوارت أحد هذه الأوعية مساً رفيقاً بطرف فرشاة لم ير فنسنت في حياته فرشاة أصغر منها ، ثم بدأ يضع نقطاً صغيرة من اللون على اللوحة ، في دقة حسابية . وهو يعمل بهدوء دون عاطفة . وكان اسلوبه يتسم بالانعزال والاستغراق ، شأن العامل الميكانيكي . وقد رفع فرشاته في يده على نحو مستقيم الى أعلى ، وراح يمس بها وعاء اللون ثم يرسم نقطة في اثر نقطة في اثر نقطة على اللوحة ، ويصل عدد هذه النقاط الدقيقة إلى المئات .

وراقبه فنسنت في ذهول . ولم يلبث سوارت ان استدار على كرسيه . وقال : — ها قد فرغت ، وانتهيت من تجويف ذلك المربع .

وسأله جوجان : — هل تسمح يا جورج باطلاع فنسنت عليها ؟ فهو قادم من بلاد لا يرسمون فيها إلا الابقار والأغنام . ولم يكن يعلم بوجود ن حديث إلا منذ اسبوع واحد .

— تفضل واجلس على هذا الكرسي يا سيد فان جوخ .

صعد فنسنت فجلس على الكرسي ونظر إلى اللوحة المنشورة أمامه . ولم يكن لها شبيه في جميع ما رآه من قبل ، سواء في اللوحات الفنية أو في الحياة الحقيقية . كان منظراً يمثل جزيرة جراندجات . ويشتمل على كائنات بشرية ذات طبيعة معمارية ، رسمت بواسطة نقط لا نهاية لها من الالوان المتدرجة ، وانتصبت كأنها أعمدة في كاتدرائية قوطية . وكانت جميع محتويات اللوحة ، من عشب ونهر وقوارب وأشجار ، كلها مكونة من كتل من النقط الضوئية الغامضة المطلقة . وكانت اللوحة مرسومة بأسطع ما في الالوان من درجات ، هي افتح حتى من الالوان التي جرؤ على استخدامها مانيه أو ديجا بل وجوجان . إنها لوحة تمثل انسحاباً نحو رقعة من التناغم اللوني التجريدي. فاذا كانت لوحة حية ، فانها حياة غير حياة الطبيعة . أما الهواء فيها فهو هواء مليء بالضياء المتلألىء ، ولكنك لا تعثر فيه على أثر لتنفس الكائن . إنها حياة ساكنة منقولة عن حياة جياشة وقد خمد جيشانها إلى الأبد .

وقف جوجان إلى جانب فنسنت ، وضحك للتعبير الذي يتجلى على وجهه .

– لابأس يا فنسنت . ان لوحات جورج تبعث الصدمة في كل من يراها لاول مرة . دعنا من ذلك ! وقل ما رأيك ؟

– اعذرني يا سيد . فقد حدث لي في الأيام القليلة الماضية كثير من الامور الغريبة ، حتى انني لا أعرف سبيلي إلى التوازن . لقد دربت نفسي وفق التقاليد الهولندية ، ولم أكن أملك فكرة عما يريده الانطباعيون ، ثم اذا بي الآن أجد كل ما آمنت به من قبل قد أصبح منبوذاً .

قال سوارت بهدوء : — انني اتفهم هذا . ذلك ان منهجي يحدث ررة في فن الرسم بأسره ، ولذا فليس من المنتظر ان تلم به كله من نظرة واحدة . ان من المعلوم لديكم أيها السيد ان فن الرسم ما زال حتى زماننا الحاضر يعد شأناً قائماً على التجربة الشخصية للفنان . غير ان هدفي هو ان اجعله علماً مجرداً . ان علينا ان نتعلم كيف نودع احاسيسنا في مواضع تشبه بيوت الحمام ، ونتوصل إلى ترويض عقولنا على الدقة الحسابية . ان كل احساس بشري يمكن له ، بل يجب له ان يتمثل في تعبير مجرد ، سواء من حيث اللون أو الخط أو الدرجة اللونية . هل ترى اواني الالوان الصغيرة هذه على طاولتي ؟

— نعم ، لاحظتها .

— ان كل حق من هذه الاواني يشتمل يا سيد فان جوخ على عاطفة بشرية محددة . ويمكن بواسطة طريقتي في التركيب ان تجهز الالوان في المعامل وتباع في الصيدليات . وعندها لا لزوم لاجراء خلط الالوان في لوحة المزج كيفما اتفق ، فان ذلك الاسلوب ينتمي إلى ماض عفا عليه الزمن . وسوف يذهب الرسام من الآن فصاعداً إلى دكان الصيدلي ، ولا يفعل أكثر من ان يرفع الغطاء عن الاواني الصغيرة التي تحتوي على الالوان طلباً لما يريد . ان عصرنا هذا عصر العلم ، وأنا أريد ان اجعل من الرسم علماً . ينبغي ان يختفي الطابع الشخصي للرسم ، ويصبح الرسم في مثل دقة العمارة . هل تتابع ما اقول يا سيد ؟

قال فنسنت : — لا . أخشى انني لا أفهم هذا .

لكن جوجان فنسنت وقال :

– قل لي يا جورج . لماذا تصر على القول بأن هذا المنهج من بتكارك ؟ لقد توصل اليه بيسارو قبل ولادتك .

– هذه اكذوبة !

تدفق الدم في وجه سورات . وقفز من فوق مقعده ، وسار نحو النافذة مسرعاً ، ونقر بأطراف أصابعه على قاعدة النافذة ، ثم عاد كما تعود العاصفة .

– من الذي قال ان بيسارو توصل اليه قبلي ؟ انني اقول لك انه منهجي ، وانني أول من فكر فيه . لقد تعلم بيسارو أسلوب تنقيطه مني أنا . وقد اطلعت على تاريخ الفن منذ عهد الايطاليين الاوائل ، وبناء عليه اقول لك ان أحداً في العالمين لم يسبقني اليه ، فكيف تجرؤ ...!

عض على شفتيه بوحشية . وسار نحو سقالة من السقالات الموجودة في المرسم . وادار ظهره الاحدب نحو فنسنت وجوجان .

وقع فنسنت في حيرة مطبقة ازاء هذا التحول . ذلك ان الرجل الذي رآه من قبل منكباً على لوحته فوق الطاولة ، كان ذا ملامح معمارية دقيقة وباردة ، ذا عينين خاليتين من الانفعال ، وله طابع غير شخصي ، يشبه طابع عالم في مخبر . كذلك كان صوته بارداً اقرب إلى اصوات المدرسين ، وكانت عيناه حين ينظر إلى رسمه تكتسي ببرقع التجريد ذاته . أما الرجل الواقف عند الطرف الأقصى للمرسم فكان يعض على شفته السفلية الحمراء الغليظة التي تبرز من ثنايا لحيته الكثة ، ويعبث غاضباً بكتلة شعره البني المجعد الذي كان من قبل مرجلاً بأشد العناية .

قال جوجان وهو يغمز لفنسنت : — اوه .. هلم الينا يا جورج ، ان الجميع يعلمون انه منهجك أنت ، ولولاك ما عرفت طريقة التنقيط .

فسكن غضب سورات ، وعاد ادراجه إلى الطاولة . وخبت وقدة الغضب تدريجياً في عينيه .

وقال فنسنت : — سيد سورات ، كيف يمكن لنا ان نجعل الرسم علماً غير ذاتي ، اذا كان تعبير الفرد هو ما يكسبه القيمة في الاساس ؟

— انظر ! سوف اريك .

تناول سورات صندوق اقلام عن الطاولة ، وجلس القرفصاء فوق الأرض الخشبية العارية . وكان مصباح الغاز يلقي ضياء قاتماً والليل ساكن سكوناً مطبقاً . وركع فنسنت إلى أحد جانبيه ، وجوجان إلى الجانب الاخر . وكان سورات ما يزال منفعلاً ، فأخذ يتكلم بحدة .

قال : — ان جميع المؤثرات في الرسم يمكن حسب رأيي ان تتمثل في صيغ محددة . فلنفرض انني أريد ان ارسم منظراً في سيرك . فأضع هنا رجلاً يركب حصاناً عارياً ، وهنا المدرب ، وهنا القاعة والمتفرجون . ولنفرض أنني أريد ان اعبر عن المرح . ما هي العناصر الثلاثة في الرسم ؟ إنها الخط والدرجة واللون . مليح جداً . انني اذا أردت التعبير عن المرح فانني ارسم جميع خطوطي فوق خط الأفق هكذا ، ثم انني اجعل الواني المتألقة هي السائدة على هذا النحو ، كذا اجعل درجتي اللونية الدافئة سائدة على هذا النحو . فانظرا ! الا يعبر هذا عن المرح المطلق ؟

أجاب فنسنت : — حسناً ، انه قد يعبر عن المرح المطلق . لكنه لا يلتقط المرح في حد ذاته .

نظر سورات من الموضع الذي ركع عنده ، وكان وجهه واقعاً في الظل . ولاحظ فنسنت مبلغ وسامة الرجل .

— أنا لا أبحث عن المرح ذاته ، وانما عن جوهر المرح . هل أنت على اطلاع بفلسفة افلاطون يا صديقي ؟

— نعم .

— مليح جداً . ان ما ينبغي ان يتعلم الرسامون تسجيله ليس الشيء في ذاته ، وانما جوهر الشيء . فاذا رسم الرسام حصاناً ، فلا يجوز ان يكون حصاناً معيناً ، مما تصادفه في الطريق . ان آلة التصوير يمكنها التقاط الصور الفوتوغرافية ، أما نحن فيجب ان نذهب إلى ما وراء ذلك . وحين نرسم حصاناً يا سيد فان جوخ ما يجب ان نتوصل اليه هو مثال الحصان وفقاً لفلسفة افلاطون ، أي الروح المطلقة للحصان . واذا رسمنا رجلاً ، فلا يجب ان يكون حارس البناية وما له من ثؤلول في طرف انفه ، وانما نرسم الرجولة ، التي هي روح وجوهر جميع الرجال ، هل أنت معي يا صديقي ؟

قال فنسنت : — أنا معك . ولكنني لا اوا فقك .

— سنصل إلى الاتفاق فيما بعد .

نهض سورات من قرفصائه ، وخلع نفسه من ثوب عمله ، ثم مسح به صورة السيرك التي رسمها على الأرض .

— والآن سوف ابين كيف نعبر عن الهدوء . ولنفرض اننا

نرسم منظراً في جزيرة جراندجات . اننا نجعل جميع خطوطنا أفقية على هذا النحو . ونختار للدرجة اللونية مساواة تامة بين الدافىء والبارد على هذا النحو . وللون نفسه مساواة بين الغامق والفاتح على هذا النحو . هل تريان ؟

قال جوجان : — استمر يا جورج ، ولاتسأل أسئلة سخيفة .

— والآن نأتي إلى التعبير عن الحزن . وهنا نجعل جميع خطوطنا تتجه إلى أسفل .. هكذا .. ونجعل الدرجات اللونية الباردة هي السائدة .. هكذا .. ونجعل الالوان غامقة .. هكذا . فانظروا ! هذا هو جوهر الحزن ! يستطيع الطفل ان يقوم برسمه . ان الصيغ الرياضية لتقسيم فراغ اللوحة سوف توضع في كتيب صغير . وقد توصلت اليها منذ حين . وما على الرسام الا ان يقرأ الكتيب ، ويذهب إلى حانوت الصيدلي ويشتري اواني الالوان المعينة ويطبق القواعد . وسوف يغدو رساماً عالمياً وكاملاً . ويمكنه ان يرسم في ضوء الشمس أو في ضوء المصباح الغازي على حد سواء ، وهو قد يكون راهباً أو داعراً ، لا فرق ، وقد يكون ابن سبع أو سبعين ، وسوف تحقق جميع الرسوم الكمال المعماري غير الذاتي نفسه .

راح فنسنت يطرف بعينيه ، بينما أغرق جوجان في الضحك :

— انه يعتقد انك مجنون يا جورج .

مسح سورات الرسم الاخير بثوب العمل ، ثم قذف به إلى ركن مظلم .

وسأل — هل هذا صحيح يا سيد فان جوخ ؟

فقال فنسنت محتجاً : — لا . لا . لقد أطلقوا عليّ بدوري وصف الجنون مرات كثيرة ، حتى صرت أحب رنين هذه الكلمة . الا انني يجب ان اعترف بأن أفكارك في منتهى الغرابة .

قال جوجان : — هذا معناه نعم يا جورج .

سمعوا طرقاً حاداً على الباب ، فتأوه جوجان قائلاً : — يا إلهي . لقد ايقظنا أمك مرة أخرى ! وسبق لها ان هددتني بأنني اذا لم ابتعد عن هذا المكان في الليل فانها ستأتي بفرشاة الشعر وتجبرني على تمشيط شعري !

دخلت أم سورات إلى الحجرة . وكانت ترتدي ثوباً ثقيلاً وقلنسوة ليلية .

— جورج ، لقد وعدتني ان لا تعود إلى العمل طوال الليل . اوه . انه أنت يا بول . اهو أنت ؟ لماذا لا تدفع ايجار بيتك فيصبح في امكانك ان تجد لنفسك مكاناً تنام فيه في الليالي ؟

— لو أنك تؤويني هنا يا أم سورات لاعفيتني من دفع كل ايجار .

— لا ، متشكرة . يكفينا في العائلة فنان واحد . اليك هذه القهوة والكعك ، فلابد لك من طعام مادمت تعمل . سأنزل إلى أسفل واحضر لك زجاجة الابسنث التي تخصك يا بول .

— لعلك لم تكرعيها كلها أيتها الأم سورات ؟

— بول ، تذكر ما قلته لك عن فرشاة الشعر .

برز فنسنت من الظل . وقال سورات : — أمي ، هذا فنسنت فان جوخ ، وهو صديق جديد من اصدقائي .

فمدت الأم يدها إلى يده قائلة : — مرحباً بكل صديق من أصدقاء ولدي ، حتى لو كانت الساعة قد بلغت الرابعة صباحاً . ماذا تحب ان تشرب يا سيد ؟

— اذا لم اثقل عليك فسأشرب كأساً من شراب جوجان .

فصاح جوجان : — لا ، ليس من شرابي . ان الأم سورات عينت لي حصة محددة من الابسنث لا تتعدى زجاجة في الشهر . فاشرب شيئاً اخر ، فان حلقومك غير المتمدن لن يفرق بين الابسنث والشارتريز الأصفر .

جلس الرجال الثلاثة والأم سورات يتجاذبون الاحاديث حول قهوتهم وكعكهم حتى أرسلت شمس الفجر شعاعاً ضئيلاً من ضياء أصفر على النافذة الشمالية .

وقالت الأم سورات : — ينبغي ان ارتدي ملابس النهار . تعال يا سيد فان جوخ ذات مساء لتناول العشاء بصحبة جورج وصحبتي وسوف يسرنا ان نستضيفك .

وعند الباب الأمامي قال سورات لفنسنت : — أخشى ان أكون قد شرحت منهجي بشيء من الفجاجة . فتعال لزيارتي متى أحببت وسوف نعمل سوياً . وعندما تبدأ في فهم منهجي ، سوف تدرك ان الرسم لن يعود ما كانه من قبل قط . حسناً ، يجب ان اعود الآن إلى لوحتي . فمازال هناك فراغ صغير فيها ، يجب تجويفه قبل ان انام . أرجو ان تبلغ تحياتي إلى أخيك .

سار فنسنت وجوجان يهبطان الممرات الحجرية الخالية ، ثم صعدا التل إلى مونمارتر . والستائر مسدلة داخل الدكاكين ، والعربات

الريفية الصغيرة عائدة إلى الأرياف بعدما افرغت حمولتها من الخضروات والفواكه والأزهار في الأسواق المركزية .

قال جوجان : — لنذهب إلى قمة البوت ونشهد الشمس وهي توقظ باريس .

— اود ذلك .

وجاوزا بوليفار كليشي ، ثم توجها نحو شارع ليبك الذي يلتوي حول الملان دي جاليت ، ويشق طريقه الصعب صاعداً نحو تلة مونمارتر ، وكلما أمعنا في الصعود تناقص عدد المنازل ، وحلت محلها مساحات منبسطة من الأزهار والأشجار . وانتهى شارع ليبك سريعاً . واتخذ الرجلان طريقاً متعرجاً عبر الشجر .

قال فنسنت : — قل لي بصراحة يا جوجان ، مارأيك في سورات؟

— تعني جورج ؟ لقد خطر لي أنك ستسألني هذا السؤال . ان جورج يعرف عن الألوان أكثر مما عرف ايما رجل آخر منذ زمن ديلاكروا . وان له نظرياته الثقافية حول الفن . وهذا في نظري خطأ ، لأن الرسامين لا ينبغي أن يفكروا في العمل الذي يمارسون . ان عليهم أن يتركوا النظريات للنقاد . على ان جورج سوف يقدم في مسألة الألوان اسهاماً معيناً ، وربما ادت عمارته القوطية الى التعجيل بظهور ردود أفعال بدائية في الفن . إلاّ أن جورج معتوه ، ومعتوه تماماً، كما رأيت بأم عينك.

كان صعودهما حاداً ، ولكنهما ما ان بلغا القمة حتى كانت باريس بأسرها تنتشر أمامهما بحيرة من السقوف السوداء ، وعديداً من أبراج الكنائس المنبثقة وسط ضباب الليل . وكان نهر السين يقسم المدينة قسمين كأنه شلال متعرج من الضياء . وبدت البيوت كأنها تطفو من أعلى التلة

هبوطاً نحو وادي السين ، ثم تجاهد صعوداً من جديد نحو مونبارناس . وسطعت الشمس فأضاءت غابة فينسين من تحتها . أما في الجانب الآخر من المدينة فما انفك الظلام والنعاس مخيمين فوق غابة بولونيا وكانت معالم المدينة الثلاث وهي دار الاوبرا في الوسط وكنيسة نوتردام في الشرق وقوس النصر في الغرب . تقف ماثلة في الفضاء كأنها هضاب من الحجارة الملونة .

— ٦ —

خيمت السكينة على الشقة الصغيرة في شارع لافال . وحمد ثيو نجوم سعده التي جلبت له برهة من الهدوء. إلا أن ذلك لم يدم طويلاً . فقد كان المأمول أن يشق فنسنت طريقه بأناة ودقة بعد أن يأخذ في التحرر من مجموعة ألوانه القديمة . ولكنه شرع ، بدلاً من ذلك ، في تقليد أصدقائه الجدد . ونسي كل ما تعلمه آنفاً عن فن الرسم ، في غمار رغبته المحمومة لأن يغدو فناناً انطباعياً . وهكذا جاءت لوحاته بمثابة نسخ شنيعة عن لوحات سورات وتولوز لوتريك وجوجان ، في حين كان ظنه أنه يحرز تقدماً رائعاً .

وذات ليلة قال له ثيو : — اصغ إلي أيها الغلام العجوز ، ما اسمك؟

— فنسنت فان جوخ .

— أأنت واثق حقاً أنه ليس جورج سورات أو بول جوجان؟

— ما الذي ترمي اليه بحق الشيطان يا ثيو ؟

— هل تحسب حقاً انك يمكن أن تصبح جورج سورات ؟ وهل أنت عاجز عن ادراك انه لم يوجد منذ بدء الخليقة — والحمد لله — إلا

لوتريك واحد ، والا جوجان واحد ؟ وان من السخف ان تحاول أنت تقليد هؤلاء .

– أنا لا أقلدهم ، بل أتعلم منهم .

– بل انك تقلد . ارني أية واحدة من لوحاتك الجديدة ، فأقل لك مع من كنت تسهر في الليلة الماضية .

– ولكنني أتقدم على طول الخط يا ثيو ، فانظر بنفسك تر كيف أصبحت ألوان لوحاتي افتح كثيراً من ذي قبل .

– بل انك تنحدر يوماً بعد يوم . ورسوماتك تبتعد عن اسلوب فنسنت فان جوخ مع كل لوحة جديدة . ان عليك ان تفهم أيها الغلام العجوز ان الطريق أمامك ليس مفروشاً بالرياحين ، وانه لابد من العمل الشاق سنوات وسنوات حتى تبلغ اربك . فهل انت ضعيف الشخصية حتى لجأت إلى تقليد الآخرين ؟ ألا تستطيع أن تهضم هضماً جيداً ما عساهم يقدمون لك ولغيرك ؟

– ثيو ، أؤكد لك أن هذه اللوحات جيدة.

– وأؤكد لك أنها مريعة .

واستمرت بينهما هذه المعركة .

فكان ثيو يعود كل ليلة من المعرض إلى البيت منهكاً ، وقد بلغ منه التوتر العصبي مبلغه ، فيجد فنسنت في انتظاره على أحرّ من الجمر . وقد أعد لوحة جديدة . وقبل أن يتاح لثيو برهة لخلع قبعته ومعطفه ، كان فنسنت ينقض عليه انقضاضاً عنيفاً .

– والآن ، إليك هذه اللوحة قل لي إنها بدورها غير جيدة . قل

ي ان استخدامي للالو ان لم يحرز تقدماً! انظر إلى تأثير ضوء الشمس هنا! انظر إلى هذا ال . . .

وما كان أمام ثيو إلا أحد خيارين فإما ، أن يلفق كذبة ما فيضمن قضاء أمسية سارة مع شقيق أنيس ، أو أن يفصح عن الحقيقة فيظل تحت وطأة ملاحقة عنيفة في أرجاء البيت ، تدوم حتى الفجر . وكان ثيو متعباً إلى أبعد حد ، وليس في مقدوره أن يدفع ثمن قول الحقيقة . ولكنه مع ذلك تحامل على نفسه ونطق بها .

فقال بضيق :

– متى كانت آخر مرة زرت فيها حي دوران رويل ؟

– وأي شأن لذلك بما نحن فيه ؟

– أجب على سؤالي :

فقال فنسنت بلهجة الحمل الوديع :

– عصر الأمس .

– هل تدري يا فنسنت ان هناك حوالي خمسة آلاف رسام في باريس يحاولون تقليد ادوار مانيه ؟ وان معظمهم يقلده خيراً منك ؟

واشتعلت المعركة . غير ان ميدان اشتعالها كان أصغر كثيراً من أن يتيح لأي منهما فرصة للنجاة .

وعمد فنسنت بعد ذلك إلى حيلة جديدة ، فقد زج بأساليب جميع الانطباعيين الذين عرفهم في لوحة جديدة .

نظر إليها ثيو في تلك الليلة وتمتم يقول :

— شيء بديع . سوف نطلق على هذه اللوحة اسم « تلخيص » سوف نلصق قصاصة تعريف بكل شيء في اللوحة . فهذه الشجرة لجوجان ، وتلك الفتاة في الزاوية لتولوز — لوتريك ، أما شعاع الشمس فوق جدول الماء فهو — وفق تقديري — لسيسلي ، وأما اللون فهو لمونيه، وكذلك أوراق الشجر لبيسارو ، والهواء لسورات ، والشخص الماثل في وسط اللوحة لمانيه .

وانبرى فنسنت يقاتل قتالاً مريراً . فلقد عمل طوال نهاره عملاً شاقاً ، فلما عاد ثيو إلى البيت في المساء عاقبه كأنه طفل صغير . وكان ثيو مضطراً للنوم في غرفة الجلوس ، ولا مجال أمام فنسنت للرسم هناك في الليل . وقد خلفته مشاجراته مع ثيو على حال من الضيق والاضطراب لا تسمح له بالرقاد . فلقد قضى ساعات طويلة وهو يخطب أمام أخيه. وكان دأب ثيو أن يعاركه حتى يسقط نائماً لفرق ارهاقه ، ومازال ضوء الغرفة مشتعلاً وفنسنت يستخدم يديه أثناء الكلام متحمساً . ولم يكن لثيو معين على الصبر إلا علمه بأنهما سوف ينتقلان قريباً إلى شارع ليبيك ، وهناك تصبح له غرفة خاصة للنوم يزود بابها برتاج متين .

فلما تعب فنسنت من الجدل حول لوحاته الخاصة ، انتقل إلى موضوع آخر ، فراح يملأ ليل ثيو بمناقشات مضنية عن الفن ، وعن تجارة الفن ، وعن تعاسة الذين قدر لهم أن يكونوا فنانين .

واشتكى قائلاً :

— ثيو ، إنني لا أفهم حقاً . فها أنت مدير معرض من أهم المعارض في باريس ، وانت مع ذلك لا تعرض ولو لوحة واحدة من لوحات أخيك .

– ذلك ان فالادون لن يسمح بذلك .

– هل حاولت ؟

– ألف مرة .

– طيب . سنسلم ان لوحاتي ليست في المستوى المطلوب . فلماذا لا تعرض أعمالاً لسورات ؟ ولجوجان ؟ وللوتريك ؟

– لطالما توسلت إلى فالادون ، كلما جاءني أحدهم بلوحة جديدة ، أن يسمح لي بعرضها في الملحق

– هل انت صاحب الأمر في ذلك المعرض ، أم هو أحد سواك ؟

– انني – واسفاه – لست أكثر من عامل فيه .

– عليك في هذه الحالة ان تتخلى عنه . لأن الاستمرار فيه يحط من قدرك . الواضح انه يحط من قدرك . ولو كنت في مكانك ما تحملته ، ولتركتهم غير آسف .

– لنؤجل الحديث في الأمر صباحاً على مائدة الافطار ، فقد كان يومي متعباً ، وأريد الآن أن أخلد للنوم .

– لا أريد الانتظار حتى الافطار . أريد أن أتحدث في الأمر الآن حالاً . قل لي يا ثيو : أي جدوى في عرض أعمال مانيه وديجا ، اذا كانا قد اشتهرا وأقبل الناس على شراء أعمالهما : وانماينبغي أن تكافح الآن من أجل الشبان الجدد .

– اصبر علي . فقد أتمكن خلال السنوات الثلاث القادمة . . .

– كلا . نحن لا نستطيع أن نصبر ثلاث سنوات . ان علينا أن نأتي بحركة منذ الآن . أواه يا ثيو ، لماذا لا تلقي جانباً بوظيفتك وتعمد

إلى فتح معرض للفنون خاص بك وحدك ؟ فكر في الأمر وتخيل كيف يكون عندما تنتهي من فالادون ومن بوجورو ومن هينر .

– هذا يحتاج إلى مال يا فنسنت . وانا لم أدخر شيئاً .

– سنتدبر أمر النقود بطريقة ما .

– ولكنك تعلم ان الاستثمار في تجارة الفن بطيء الثمار للغاية

– ليكن بطيئاً . اننا سنعمل ليلاً ونهاراً حتى نقيم مشروعك كما ينبغي .

– وماذا عسانا نفعل في تلك الاثناء ؟ كيف نتدبر أمر طعامنا؟

– هل تريد التعريض بي لأنني لا أكسب قوتي بنفسي ؟

– اذهب إلى سريرك بحق الاله يا فنسنت ، فانني مرهق .

– لا أريد الذهاب إلى السرير ، وانما أريد الحقيقة . هل ذلك هو السبب الوحيد لامتناعك عن ترك محلات جوبيل ؟ اعني كونك مضطراً لاعالتي ؟ هيا ، أخبرني بالحقيقة . قل لي انني حجر طاحون حول عنقك، وانني ثقل يشدك إلى أدنى ، وانني اضطرك للاحتفاظ بوظيفتك ، وانك لولا هذا الهم لاصبحت حراً .

– يا لطيف ! صدقني انني لو كنت أكبر منك قليلاً ، او اقوى قليلاً ، لوجهت اليك ضربة ساحقة . اما ونحن على هذا الحال ، فالظاهر انني سأعمد إلى استئجار جوجان لكي ينوب عني في ذلك . اسمع يا فنسنت ، ان وظيفتي مرتبطة بمحلات جوبيل منذ القديم ، وهي كذلك الآن . وان نصف ما أتقاضاه من جوبيل هو ملك لك ، كما أن نصف لوحاتك ملك لي . قم عن سريري الآن ودعني أنم . وإلا استدعيت لك شرطياً .

وفي المساء التالي ناول ثيو فنسنت مغلفاً ، وقال :

– اذا لم يكن لديك ما يشعلك الليلة ، يمكننا الذهاب إلى هذه الحفلة .

– ومن هو صاحب الدعوة ؟

– هنري روسو . هلا القيت نظرة على البطاقة .

كانت بطاقة الدعوة تتضمن بيتين من الشعر البسيط ، مع شيء من الازهار المرسومة بخط اليد .

وتساءل فنسنت :

– ومن يكون ؟

– نحن ندعوه رجل الجمرك . وقد ظل يعمل جابياً للعوائد الجمركية في الاقاليم حتى بلغ الاربعين . وكان دأبه ان يرسم في أيام الآحاد ، كما كان جوجان . غير انه حضر إلى باريس قبل بضع سنوات ، واقام في حي العمال حول الباستيل . وهو انسان لم يتلق أي حظ من التعليم أو التوجيه طيلة أيام حياته ، ومع ذلك فانه يرسم ، ويكتب الشعر ، ويؤلف الموسيقى ، ويعطي دروساً في العزف على الفيولين لاطفال العمال ، ويعزف على البيانو ، ويعلم قلة من الرجال العجائز الرسم .

– وما الموضوعات التي يقبل على رسمها ؟

– غالباً ما يرسم حيوانات خرافية تخرج من غابات أشد خرافية ، واقرب غابة إلى الغابات التي يرسمها هي حديقة التأقلم الكائنة في

غابة بولونيا . انه انسان ريفي ، وهو يمثل البدائية الطبيعية ، وان كان بول جوجان يسخر منه .

– وما رأيك في اعماله يا ثيو ؟

– الحق انني لا أعرف . ولكن الجميع يعدونه رجلاً معتوهاً فاقد العقل .

– وهل تراه كذلك ؟

– انه طفل على نحو ما .. طفل بدائي .. ونحن سنذهب إلى الحفلة هذه الليلة ، فتتاح لك الفرصة لتحكم عليه بنفسك . وسوف تجد جميع لوحاته معلقة على الجدران .

– لابد انه يملك مالاً ، مادام يقيم الحفلات .

– بل هو على ما اظن افقر فناني باريس . ويبلغ من فقره انه يستأجر الفيولين الذي يستخدمه في دروسه ، لانه لا يملك من المال ما يكفي ليشتريه . على ان له غرضاً من اقامة هذه الحفلات . وسوف تكتشفه بنفسك .

كان البيت الذي يقيم فيه روسو مسكناً لعائلات العمال اليدويين . وكانت لروسو غرفة في الطابق الرابع . أما الشارع فكان غاصاً بالاطفال الصاخبين ، وكانت الروائح المختلطة من أبخرة الطبخ والغسيل ودورات المياه الكائنة في الرواق ، كثيفة على نحو يبعث على الاختناق .

فتح هنري روسو الباب على اثر طرقات ثيو . فاذا به رجل قصير بدين تماثل خطوط تكوينه خطوط فنسنت إلى حد كبير . وله أصابع

قصيرة ذات عقد ، ورأس يكاد يكون مربعاً . وله انف وذقن قصيران مكتنزان ، وعينان واسعتان ناطقتان بالبراءة .

قال بلهجة ناعمة دمثة :

ـــ انك تشرفني بحضورك يا سيد فان جوخ .

وقام ثيو بتقديم فنسنت . وقدم روسو اليهما كرسيين للجلوس . وكانت الغرفة مزينة بالالوان ، بل انها بهيجة . وقد اسدل روسو على النوافذ ستائره الريفية المصنوعة من قماش ذي مربعات ذات خطوط بيضاء وحمراء . وكانت الجدران مليئة بأسرها بصور حيوانات ضارية وغابات ومناظر طبيعية لا تصدق .

وقف اربعة من الصبيان قرب بيانو عتيق محطم في ركن الحجرة ، وهم يحملون في ايديهم آلات الفيولين ، ويستشعرون التوتر . وظهرت فوق المفرش الذي يغطي المائدة قطع الكعك المنزلي الصغيرة ، التي صنعها روسو ونثر فوقها حب الكراوية . وكانت الغرفة مليئة بعدد من المقاعد والكراسي الموزعة هنا وهناك .

وقال روسو :

ـــ أنت اول القادمين يا سيد فان جوخ . وسوف يشرفني الناقد جوييوم بيل باحضار جمهور كان مدعواً إلى حفلة اخرى .

تناهت إلى الاسماع جلبة قادمة من الشارع ، تحمل صيحات الاطفال وقعقعة عجلات العربة فوق حصى الشارع . وفتح روسو الباب على مصراعيه ، فسمعت اصوات نسائية عذبة قادمة من البهو ودوى صوت يقول :

– استمروا ، استمروا في صعودكم . واجعلوا يداً على الدرابزين والاخرى على انوفكم .

اعقبت هذه السخرية جلجلة من الضحك . واستدار روسو إلى فنسنت وابتسم بعد ان سمع ذلك بوضوح . وخيل لفنسنت انه لم يشاهد قط عينين صافتين بريئتين كهاتين العينين في جميع من عرف من الرجال . عينين متحررتين تماماً من كل اثر للخبث والتبرم .

واندفعت إلى الغرفة جمهرة مؤلفة من عشرة أو اثني عشر شخصاً . وقد ارتدى الرجال ملابس السهرة ، وارتدت النساء اثواباً فاخرة ، وانتعلن خفافاً أنيقة غالية ، وكسون سواعدهن بقفازات طويلة بيضاء . وجلبن إلى الغرفة شذى العطور الثمينة والمساحيق اللطيفة والحرير والاشربة المعتقة .

وصاح جويبوم بيل بصوته العميق الفخم .

– حسناً يا هنري . ها أنت ترى اننا حضرنا فعلاً . على اننا لا نستطيع ان نطيل مكوثنا لاننا مدعوون إلى حفلة راقصة عند الأميرة دي بروجلي . فهلا قمت الآن بتسلية ضيوفي ؟

اندفعت فتاة مخيفة فاحمة الشعر ذات ثوب من طراز امباير ، عاري الصدر حتى النهدين وقالت :

– اواه . انني اتوق إلى لقائه . تخيلوا ماذا يعني ان نكون في حضرة الرسام العظيم الذي تتحدث عنه باريس كلها . هل تتقدم وتقبل يدي يا سيد روسو ؟

وقال احدهم :

ـ خذي حذرك يا بلانش والا .. فان اولئك الفنانين هم كما تعلمين ..

ابتسم روسو وقبل يداها . وانسحب فنسنت نحو أحد الأركان . وتجاذب بيل وثيو بعض الحديث . وسار بقية افراد الجماعة داخل الغرفة ازواجاً وهم يعلقون على اللوحات المختلفة بنوبات من الضحك ويشيرون بأصابعهم إلى ستائر روسو وتحفه ،وينقبون في كل ركن من الغرفة بحثاً عما يبعث على اطلاق نكتة جديدة .

وقال روسو :

ـ اذا تكرمتم بالجلوس سيداتي وسادتي ،فان فرقتي الموسيقية سوف تعزف واحدة من مؤلفاتي ، وقد اهديتها إلى السيد بيل . وهي بعنوان أغنية رافال .

وصاح بيل :

ـ هلموا ، تعالوا جميعاً ! ان روسو سوف يقوم بتسليتنا . تعالي يا جيني ! وأنت يا بلانش ! وأنت يا جاك ! تعالوا واجلسوا ، لا تفتكم الفرصة الثمينة .

ووقف الصبية الاربعة المرتجفون أمام حامل موسيقى منفرد وشرعوا يجهزون آلاتهم للعزف . وجلس روسو إلى البيانو واغلق عينيه . ثم قال بعد هنيهة « جاهز » . وبدأ يعزف . كانت المقطوعة عبارة عن موسيقى ريفية تصويرية بسيطة . وحاول فنسنت ان يصغي ، الا ان

الضحكات المكتومة طغت على الموسيقى . وفي الختام صفقوا جميعاً بصخب . واتجهت بلانش إلى البيانو ، ووضعت يديها على كتفي روسو . وقالت :

— كان ذلك بديعاً أيها السيد ، كان بديعاً . اني لم اتأثر على هذا النحو العميق من قبل .

— انك تطريني يا سيدتي .

صاحت بلانش ضاحكة :

— هل تسمع هذا يا جوييوم ؟ انه يظن انني اثني عليه !

وقال روسو :

— سأعزف لكم مقطوعة اخرى الآن .

— بل غن لنا ، من وحي الشيء الذي تعزف ، واحدة من قصائدك ان لديك العديد من القصائد من وحي ذلك الشيء ، كما تدري .

ابتسم روسو ابتسامة طفولية ، وقال :

— حسن جداً يا سيد بيل . سوف اغني أغنية لذلك كما ترغب .

اتجه إلى طاولة ، وتناول رزمة من القصائد ، اختار احداها . ثم جلس إلى البيانو وبدأ يعزف . واحس فنسنت ان الموسيقى جيدة . كما احس من سماع الأبيات القليلة التي استطاع التقاطها انها بدورها ساحرة . الا ان تأثير الاثنتين معاً كان مضحكاً للغاية . وراح الجمع يقهقه صاخباً . وجعلوا يضربون جوييوم على ظهره ، وتعلوا صيحاتهم :

— آه يا جوييوم ، أنت كلب . ما أشد مكرك .

الضحكات المكتومة طغت على الموسيقى . وفي الختام صفقوا جميعاً بصخب . واتجهت بلانش إلى البيانو ، ووضعت يديها على كتفي روسو ، وقالت :

— كان ذلك بديعاً أيها السيد ، كان بديعاً . انني لم اتأثر على هذا النحو العميق من قبل .

— انك تطريني يا سيدتي .

صاحت بلانش ضاحكة :

— هل تسمع هذا يا جوييوم ؟ انه يظن انني اثني عليه !

وقال روسو :

— سأعزف لكم مقطوعة اخرى الآن .

— بل غن لنا ، من وحي الشيء الذي تعزف ، واحدة من قصائدك ان لديك العديد من القصائد من وحي ذلك الشيء ، كما تدري .

ابتسم روسو ابتسامة طفولية ، وقال :

— حسن جداً يا سيد بيل . سوف اغني أغنية لذلك كما ترغب .

اتجه إلى طاولة ، وتناول رزمة من القصائد ، اختار احداها . ثم جلس إلى البيانو وبدأ يعزف . واحس فنسنت ان الموسيقى جيدة . كما احس من سماع الأبيات القليلة التي استطاع التقاطها انها بدورها ساحرة . الا ان تأثير الاثنتين معاً كان مضحكاً للغاية . وراح الجمع يقهقه صاخباً . وجعلوا يضربون جوييوم على ظهره ، وتعلوا صيحاتهم :

— آه يا جوييوم ، أنت كلب . ما أشد مكرك .

وحين فرغ روسو من عزفه ، اتجه إلى المطبخ ، ثم عاد يحمل عدداً من فناجين القهوة السميكة الخشنة ، راح يوزعها على الضيوف . وعمد هؤلاء إلى التقاط بذور الكراوية المنثورة فوق الكعك ، وقذفها في قهوة بعضهم . وأما فنسنت فأخذ يدخن غليونه في الزاوية .

– هلم يا هنري ، وارنا اخر رسوماتك. فلهذا اتينا . لنراها هنا في مرسمك ، قبل ان تباع لمتحف اللوفر .

قال روسو :

– عندي عدد من اللوحات الجديدة الممتعة . سوف انتزعها من أجلكم عن الجدران .

ازدحم الجمع حول الطاولة ، وكل منهم يحاول ان يتفوق على الاخر في المبالغة بالاطراءات .

وشهقت بلانش قائلة :

– هذا ابداع سماوي . انني مصممة على وضعها في غرفة الاستقبال بمنزلي . ولا استطيع ان اعيش يوماً آخر دونها ! أيها المولى العزيز ، ما ثمن هذه التحفة الخالدة ؟

– خمسة وعشرون فرنكاً .

– خمسة وعشرون فرنكاً ؟ تصوروا ! خمسة وعشرون فرنكاً مقابل عمل فني عظيم ! هل تهديها الي ؟

– ذلك يشرفني .

وقال بيل :

– وعدت فرانسواز بجلب لوحة لها . هذه هي خطيبتي يا هنري ، وينبغي أن تكون هديتي لها اروع ما رسمته على الاطلاق .

– اعرف طلبك تماماً يا سيد بيل .

انتزع عن الجدار رسماً لحيوان غريب الخلقة يخرج من حرش تسكنه الجنيات ، وأخذ الجمع يعوي في وجه بيل .

– ترى ما هو هذا الحيوان ؟

– هو أسد .

– لا ليس أسداً ، بل نمر .

– لا هذا ولا ذاك . انه المرأة التي تقوم بغسل ثيابي ، او لا أعرفها ؟

وقال روسو بلهجة عذبة :

– هذه اللوحة أكبر قليلاً من اخواتها يا سيدي ، ولذا فانها ستكلفك ثلاثين فرنكاً .

– انها تساوي ذلك يا هنري . تساويه حقاً . وسيحل يوم يبيع فيه احفادي هذه اللوحة الفاتنة بثلاثين الف فرنك .

وصاح العديد من الجمع :

– اريد واحدة . اريد واحدة . يجب ان آخذ واحدة لاصدقائي . إنّ هذا أفضل عرض في المرسم .

وصاح بيل :

– هلموا جميعاً ، والا تأخرنا عن حفلة الرقص . وهاتوا لوحاتكم معكم فسوف نثير مظاهرة بهذه الاشياء لدى الأميرة دو بروجلي . إلى اللقاء يا هنري . لقد حظينا بوقت بالغ الروعة . هلا اقمت لنا حفلة أخرى في القريب العاجل ؟

وقالت بلانش وهي تفرد منديلها تحت انف روسو :

– وداعاً أيها المولى العزيز . ان انساك ما حييت ، فأنت باق في ذاكرتي إلى الأبد .

وصاح واحد من الرجال :

– دعيه وشأنه يا بلانش ، فالمسكين لن يغمض له جفن طيلة الليل .

احتشدوا وهم يهبطون الدرج في صخب ، صائحين بالنكات التي يوجهها بعضهم إلى بعض ، مخلفين وراءهم سحابة من العطر الثمين ما تلبث ان تمتزج بالنتن الذي يفوح من البناية .

وسار ثيو وفنسنت نحو الباب . وكان روسو واقفاً عند الطاولة ينظر إلى كومة النقود .

وسأل فنسنت اخاه بهدوء :

– هل تمانع في ذهابك إلى البيت منفرداً يا ثيو ؟ ذلك انني اريد ان ابقى واتعرف إلى الرجل .

انصرف ثيو . ولم ينتبه روسو إلى فنسنت وهو يغلق الباب ثم يستدير نحوه . وانما استمر يعد النقود على الطاولة .

– ثمانون فرنكاً ، تسعون فرنكاً ، مائة ، مائة وخمسة .

حانت منه التفاتة فرأى فنسنت يتطلع اليه ، وسرعان ما عاد إلى عينيه التعبير البسيط الاشبه بنظرة الاطفال . وازاح النقود جانباً ، ووقف هنالك يبتسم ببلاهة .

قال فنسنت :

– انزع عنك هذا القناع يا روسو ، فانني انا الاخر فلاح ورسام .

تقدم روسو نحو فنسنت ، مخلفاً وراءه الطاولة ، وشد على يده بحرارة .

– لقد اراني شقيقك ما صورته عن الفلاحين الهولنديين . انها صور جيدة . انها أفضل من رسوم ميليه . لقد تأملتها مرارا وتكراراً . وانني لمعجب بك يا سيدي .

– وانا أيضاً تأملت صورك يا روسو ، بينما كان أولئك الـ .... يجعلون من أنفسهم أضحوكة وانني معجب بك أيضاً .

– اشكرك . هل نجلس سوياً ؟ وهل تمانع في ان تملأ غليونك بتبغي ؟ لقد كسبت مائة وخمسة فرنكات يا سيدي ، وسأغدو قادراً على شراء التبغ والطعام والقماش والذي ارسم عليه .

جلسا على كرسيين متقابلين حول الطاولة ، وجعلا يدخنان في صمت ودود حافل بالتفكير .

– أظن أنك تدري أنهم يقولون عنك أنك رجل مجنون يا روسو .

– نعم ، أدري وقد علمت أن الناس في لاهاي يظنون بك الظن ذاته .

– نعم ، هذا هو الحال .

– فليظنوا ما يشتهون . فان رسومي سوف تعلق يوماً في متحف لوكسمبورغ .

– وسوف تعلق رسومي في متحف اللوفر .

ثم قرأ كل منهما أفكار الآخر ، فاذا بهما ينفجران معاً في ضحك تلقائي نابع من القلب .

وقال فنسنت :

– إنهم على حق يا روسو . فكلانا مجنون !

وسأله روسو :

– هل نذهب لنشرب نخب ذلك ؟

– ٧ –

طرق جوجان باب الشقة يوم الأربعاء التالي قرب موعد العشاء قائلاً :

– طلب مني أخوك أن أصحبك إلى مقهى الباتينول هذا المساء ، لأنه سيعمل في المعرض حتى وقت متأخر من الليل . ان لوحاتك هذه مثيرة للاهتمام . هل يمكنني القاء نظرة عليها ؟

– طبعاً . لقد رسمت بعضها في البرابانت ، وبعضها في لاهاي .

أخذ جوجان يحملق في الصور برهة طويلة. وقد استوقفته أشياء معينة فيها ، فكان يرفع يده أو يفتح فمه مرات عديدة ، كأنما يريد أن يقول شيئاً . وبدا غير قادر على تكوين آرائه.

وأخيراً قال :

– اعذرني على السؤال يا فنسنت . ولكن هل أنت على أي حال مصاب بالصرع ؟

كان فنسنت في تلك اللحظة يلبس معطفاً من فراء الغنم ، اشتراه من مخزن الملابس المستعملة ، وأصر على ارتدائه ، على غير مشيئة ثيو . فاستدار نحو جوجان وأمعن نظره فيه وتساءل :

– مصاب بماذا ؟

– بالصرع . أي تنتابك نوبات عصبية .

– كلا . على حد علمي . ولماذا تسأل هذ السؤال ؟

– حسناً . . هذه الصور التي رسمتها . . تبدو كما لو كانت موشكة على التفجر خارج اللوحة . وعندما أنظر إلى أعمالك . . يصيبني شعور بالاثارة العصبية ، لا يمكنني تحمله إلا بمشقة . وليست هذه هي المرة الأولى التي ينتابني فيها هذا الشعور . أحس أنه إذا لم تنفجر اللوحة ، فلسوف أصاب أنا بالانفجار . هل تعرف الموضع الذي يصيبني فيه أثر رسوماتك أكثر من سواه ؟

– لا ، فأين هو ؟

– أحشائي . ان داخلي كله يبدأ في الارتجاف . ويعتريني شعور بالاهتياج والتشوش ، فلا أتمكن من كبح جماح نفسي إلا بصعوبة .

– ربما أوحى لي ذلك ببيع رسومي بوصفها ملينات . ما رأيك لو تعلق واحدة منها في دورة المياه وتنظر اليها في ساعة معينة كل يوم ؟

– أتكلم جاداً يا فنسنت ، فأقول انني لا أظن نفسي قادراً على العيش مع رسوماتك ، وإلا اودت بي إلى الجنون خلال اسبوع واحد .

– هل نذهب الآن ؟

ساراً صعداً في شارع مونمارتر ، حتى بلغا بوليفار كليشي .

وسأله جوجان :

– هل تعشيت ؟

– لا . فهل تعشيت أنت ؟

– لا . ما رأيك أن نذهب إلى مطعم باتاي ؟

– فكرة حسنة . هل معك نقود ؟

– ولا سنتيماً واحداً . فما حالك أنت ؟

– مفلس كالعادة . وكنت أنتظر أن يأتي ثيو ليصحبني خارجاً .

– طظ ! أظن أننا لن نأكل .

– دعنا نصعد إلى المحل على حال ، ونر ما هو طبق اليوم .

سلكا شارع ليبيك صعدا حتى التلة ، ثم استدارا يميناً في شارع ديزابيس . وفي محل مدام باتاي شاهدا قائمة الطعام المكتوبة بالحبر ، معلقة على شجرة اصطناعية عند المدخل .

قال فنسنت :

– همممم . . ان طبق اليوم هو ضلع العجل بالبازيلاء ، وهو طبقي المفضل .

وقال جوجان :

– أما أنا فأكره لحم العجل ، ويسرني أننا لن نتعشى .

– يا له من قول ظريف خادع .

وعادا يتجولان هابطين الشارع ، ثم دخلا المتنزه المثلث عند سفح تل بوت وإذا بجوجان يقول :

– مرحبا ، هذا هو بول سيزان نائما على مقعد . ولا أفهم لماذا يستخدم هذا الغبي حذاءه بمثابة وسادة . هلم بنا نوقظه .

ثم خلع جوجان حزامه من بنطاله ، وطواه طيتين ، وانهال بضربة على قدمي الرجل النائم ، اللتين لا تغطيهما إلا الجوارب . فقفز سيزان من فوق المقعد صارخاً من الوجع :

– جوجان ، أيها السادي الجهنمي ! هل هذه فكرة معقولة للتنكيت ؟ لسوف تضطرني ذات يوم إلى تحطيم جمجمتك .

– بل هذا جزاء وفاق لتركك قدميك في الهواء . قل لي : لماذا تضع هذا الحذاء القذر تحت رأسك ؟ أم انه أفضل من لا وسادة على الاطلاق .

جعل سيزان يدلك باطن قدميه واحداً بعد الآخر ، ثم ارتدى حذاءه وهو يدمدم .

– أنا لا أستخدمه وسادة ، وإنما أضعه تحت رأسي حتى لا يسرقه أحد وأنا نائم .

واستدار جوجان نحو فنسنت قائلاً :

– قد يخيل اليك من طريقة كلامك انه فنان يتصور جوعاً ، ولكن والده

يملك بنكاً ويملك نصف بلدة اكس ان بروفانس . هذا هو فنسنت فان جوخ ، شقيق ثيو يا بول .

تصافح سيزان وفنسنت . وقال جوجان :

– من سوء حظك اننا لم نعثر عليك قبل نصف ساعة يا سيزان ، فلم يكن لك نصيب فيما تناولنا على العشاء . ان لدى باتاي أفضل طبق ذقته في حياتي من ضلع العجل بالبازيلاء .

فسأله سيزان :

– أكان طيباً حقاً إلى هذا الحد ؟

– طيب ؟ بل قل كان شهياً ! أليس كذلك يا فنسنت ؟

– بل انه كان كذلك .

– مادام الأمر هكذا ، أظن انني سأذهب لأنال شيئاً منه . فتعاليا وابقيا في صحبتي .

– لا أدري اذا كنت قادراً بعد على أكل شيء آخر . هل تستطيع أنت يا فنسنت ؟

لعل ذلك صعب . ولكن إذا كان السيد سيزان يصر . .

– كن لطيفاً يا جوجان . فأنت تعلم إنني أكره ان آكل وحدي . واطلب شيئاً آخر إذا كنت قد نلت كفايتك من لحم العجل .

– حسناً ، سأذهب اكراماً لخاطرك . هلم بنا يا فنسنت .

عادوا يصعدون شارع ديزابيس نحو مطعم باتاي .

وقال النادل :

– مساء الخير أيها السادة ، هل اخترتم طلبكم ؟

أجاب جوجان :

– نعم . هات لنا ثلاثة من طبق اليوم .

– حاضر . وأي نبيذ تريدون ؟

– اختر انت النبيذ يا سيزان ، فأنت أعلم بهذه الأشياء .

– دعنا ننظر . هناك سانت استيف ، وبوردو ، وسوترون ، وبونيه . .

وقاطعه جوجان سائلاً ببراءة .

– هل جربت نبيذ البومار من قبل ؟ أظن غالباً انه أفضل نبيذ لديهم .

وقال سيزان للنادل :

– هات لنا زجاجة من البومار .

التهم جوجان طبق الطعام في لمح البصر ، ثم التفت إلى سيزان الذي كان ما يزال في منتصف طعامه . وقال :

– بالمناسبة يا بول ، سمعت ان كتاب « لوفر » بقلم زولا قد بيعت منه آلاف النسخ .

فحدجه سيزان بنظرة مريرة سوداء ، وأزاح طعامه جانباً بامتعاض، والتفت إلى فنسنت :

– هل قرأت ذلك الكتاب يا سيدي ؟

– كلا ، ولكنني عرفت لتوي من كتاب جيرمينال .

قال سيزان :

– ان « أوفر » كتاب ردىء . وهو كتاب زائف . أضف إلى ذلك أنه أسوأ افاعيل الخيانة التي ارتكبت باسم الصداقة . ان الكتاب يتناول سيرة رسام ياسيد فان جوخ . وذلك الرسام هو أنا ! فاميل زولا هو أقدم أصدقائي . وقد ترعرعنا سوياً في اكس وذهبنا ، معاً إلى المدرسة . وقد حضرت إلى باريس لسبب واحد هو وجوده فيها . وكانت صلتنا اوثق من قرابة اخوين شقيقين . وظللنا طيلة حداثتنا نرسم الخطط معاً لكي نغدو فنانين عظيمين . والآن ، يفعل هذه الفعلة ضدي .

وسأله فنسنت :

– وماذا فعل ؟

– لقد سخر مني ، وهزىء بي ، وجعل مني أضحوكة باريس كلها . لقد كنت أفضي إليه يوماً بعد يوم بنظرياتي في الضوء ، ونظرياتي في تصوير المادة الصلبة تحت مظاهر السطح ، وأفكاري حول تثوير مجموعة الألوان . فظل يصغي إلي . وظل يشجعني ، وظل يستدرجني . وما كان غرضه طوال الوقت إلا أن يجمع مادة كتابه ، لكي يقول للناس أني أحمق مأفون .

وجرع كأس النبيذ أمامه ، واستدار إلى فنسنت من جديد لاتمام حديثه ، وقد اشتعلت عيناه الصغيرتان النكدتان بوميض الكراهية المحتدمة.

– ان زولا قد جمع في ذلك الكتاب بين ثلاثة من البشر يا سيد فان

جوخ ، هم أنا ، وبازيل ، وصبي فقير تعس كان ينظف بلاط مرسم مانيه . وهذا الصبي كان ينطوي على طموحات فنية ، لكنه في نهاية المطاف قام بشنق نفسه جراء يأسه . وتصورني زولا في صورة الانسان الحالم ، وإنني شخص آخر ضال تعس ، يتوهم انه يقوم بتثوير الفن ، ولكنه في حقيقة الأمر لا يرسم بالطريقة التقليدية لأنه لا يملك الموهبة الكافية لمزاولة الرسم من أساسه . ثم يجعلني زولا في كتابه أقوم بشنق نفسي بحبل يتدلى من المسمار الذي علقت فيه لوحتي الفضلى ، وذلك لأنني أدركت في النهاية ان ما حسبته عبقرية في نفسي لم يكن إلا هذا الجنون . ثم ان زولا يضع فوقي فناناً آخر من اكس ، وهو نحات مبتذل ، لا ينتج إلا أسوأ النفايات ذات الطابع الاكاديمي ، فيرفعه زولا إلى مقام الفنانين العظماء.

قال جوجان :

— هذا أمر مسل حقاً . لاسيما حين نذكر ان زولا كان أول من وضع أكاليل الغار على رأس ادوار مانيه وصورته في الرسم. وقد صنع اميل من أجل الرسم الانطباعي مالم يفعله رجل على وجه الأرض .

— نعم . لقد عبد مانيه ، لأن ادوار اطاح بالاكاديميين . ولكن عندما أجيء أنا وأريد تجاوز الانطباعيين ، فانه يدعوني أحمق معتوهاً. ان اميل ليس إلا شخصاً متوسط الذكاء وصديقاً مقيتاً . وقد اضطررت للامتناع عن الذهاب إلى بيته منذ وقت طويل . فهو يعيش كما يعيش البورجوازي اللعين . تكسو أرض بيته السجاجيد الثمينة وتستقر فوق رف الموقد المزهريات الفاخرة ، ويدور في الارجاء الخدم ،بينما يجلس زولا على مكتب من الخشب المحفور المنحوت ليكتب روائعة . اتفوه . . انه غارق في انتمائه إلى للطبقة الوسطى أكثر مما تجاسر ما نيه ان يفعل في يوم

من الايام . وقد كان الاثنان في حقيقتهما صنوين برجوازيين ، ولهذا السبب توافقا على طول الخط . اما انا فان اميل يراني غير جدير بأي انجاز هام . لماذا ؟ لمجرد أنني جئت من البلدة ذاتها التي جاء منها ، وعرفني فيها طفلاً صغيراً .

– ولكنني سمعت انه كتب لك نشرة التقديم والتعريف بأعمالك في معرض صالون المرفوضين قبل بضع سنوات . فماذا جرى لتلك النشرة ؟

– لقد مزقها اميل يا جوجان ، وذلك قبل ارسالها إلى الطباعة مباشرة .

وسأله فنسنت :

– لكن لماذا ؟

– لأنه كان خائفاً ان يظن النقاد انه انما يرعاني لأنني صديق قديم. ولو انطبع تلك النشرة لكنت الآن راسخ المكانة . ولكنه عمد ، بدلاً من ذلك ، إلى نشر « لوفر » . ولعمري ان هذا افتئات على الصداقة . ان تسعة وتسعين بالمائة من رواد الصالون المرفوضين يضحكون على رسوماتي. وبينما يقوم دوران – رويل بعرض أعمال ديجا ومونيه وأعمال صديقي جوييامان ، فانهم يرفضون تخصيص بوصتين من أجل أعمالي . بل ان شقيقك يا سيد فان جوخ خائف من أن يضعها في ملحقه . فلم يبق لي بين وكلاء الفنون كلهم في باريس من يضع لوحاتي في نافذته إلا الأب تانجي ، علماً بأن المسكين أقل حيلة من أن يبيع كسرة خبز لمليونير جائع .

وقال جوجان :

– هل بقي في تلك الزجاجة شيء من البومار يا سيزان ؛ شكراً لك . ان ما آخذه من ناحيتي على زولا ، انه يجعل النساء الغسالات في رواياته يتكلمن كما تتكلم الغسالات الحقيقيات ، ثم إذا به يستمر في الحديث بلهجتهن بعد أن ينتقل إلى شيء آخر .

– حسناً . لقد نلت كفايتي من باريس . وسوف أعود أدراجي إلى اكس وأقضي هناك ما تبقى من عمري . فهناك تلة تبرز من الوادي وتطل على ذلك الريف بأسره . وهناك ضياء صاف ساطع في بروفانس ، وهناك ألوان واي ألوان ! انني أعرف بقعة من الأرض عند قمة التل معروضة للبيع ، وهي مغطاة بأشجار الصنوبر . سوف أبني مرسماً هناك وأزرع بستاناً من أشجار التفاح ، وأقيم حول الأرض سوراً حجرياً عالياً ، اضع في اعلاه قطعاً من شظايا الزجاج حتى لا يصل إلي أحد من العالم . ولن أغادر بروفانس بعد ذلك أبداً . أبداً .

وغمغم جوجان وفمه قرب كأس البومار :

– ناسك .. اليس كذلك ؟

– نعم ، ناسك .

– ناسك اكس . ما ابدعه لقباً . دعونا نذهب الآن إلى مقهى باتينول ، فلابد ان عقد الجميع منتظم هناك في هذا الوقت .

– ٨ –

كان الجميع تقريباً هناك . جلس لوتريك وأمامه كوم مرتفع من الصحون ، يوشك ان يصل إلى مستوى ذقنه . وشغل جورج سورات بحديث هادىء مع انكوتان الرسام النحيف طويل القامة الذي

يحاول الربط ما بين اسلوب الانطباعيين وبين اسلوب الرسوم اليابانية . ووضع هنري روسو أمامه فنجاناً من القهوة واللبن ، ما يفتأ يغمس فيه كعكاً يتناوله من جيبه بين الحين والحين ، بينما انهمك ثيو في مناقشة جامية مع اثنين من النقاد الباريسيين الجدد .

كانت باتينول فيما مضى ضاحية تقع على مدخل بوليفار كليشي. وفي هذا المكان قام ادوار مانيه بتجميع مريديه الروحيين من حوله . واعتادت مدرسة باتينول قبل وفاة مانيه على الانعقاد مرتين اسبوعياً في المقهى . فاجتمع هناك في ذلك العهد كل من لوجرو ، وفانتان — لاتور ، وكوربيه ، ورينوار ، وابدعوا معاً نظرياتهم في الفن ، أما اليوم فان الشبان الناشئين هم الذين استولوا على هذه المدرسة .

لمح سيزان اميل زولا جالساً ، فسار نحو طاولة بعيدة ، وطلب فنجان قهوة ، وجلس معتزلاً الجمع . ومضى جوجان فقدم فنسنت إلى زولا ، ثم انثنى جالساً على كرسي بجوار تولوز — لوتريك . وهكذا مكث زولا وفنسنت منفردين على مائدتهما .

— شاهدتك يا سيد فان جوخ تدخل المكان مع بول سيزان . ولا شك انه قال لك شيئاً عني .

— نعم .

— وماذا قال ؟

— يبدو ان كتابك أصابه بجرح عميق .

تنهد زولا ، ودفع الطاولة قليلاً من أمام المقعد المفروش بطنافس الريش ، وذلك ليفسح مكاناً أوسع لكرشه الضخم .

– هل سمعت يوماً بعلاج يدعى علاج شيفينجر ؟ يقولون ان الانسان اذا امتنع عن تناول المشروبات اثناء طعامه ، فانه يخسر ثلاثين رطلاً من وزنه خلال ثلاثة شهور .

– لم اسمع به .

– لقد آلمني بالغ الالم أن أكتب ذلك الكتاب عن بول سيزان ، ولكن كل كلمة فيه حقيقية. انك رسام. فهل تستطيع ياترى ان تتناول الصورةالحقيقية لاحد اصدقائك، فتقوم بتزييفها، لالشيء إلا لأن الصورة الحقيقية لا تسره ؟ كلا ، انك لن تفعلها . ان بول ولد رائع . وقد كان اعز اصدقائي على مدى سنوات عديدة . غير ان اعماله هي ببساطة اعمال مضحكة . انك تعرف يا سيدي اننا في منزلي قوم متسامحون للغاية ، ولكنني حين يحضر اصدقاؤنا لزيارتنا ، اسارع الى لوحات سيزان فأخفيها في خزانة ، حتى لا يضحك منها الزائرون .

– لكن من المؤكد ان اعماله لا يمكن ان تكون سيئة إلى هذا الحد .

– بل اسوأ يا عزيزي فان جوخ ، اسوأ . الم تشاهد شيئاً منها ؟ هذا يفسر ميلك الى الشك فيما اقول . انه يرسم رسم طفل في الخامسة . صدقني انه في رأيي اصيب بالجنون المطبق .

– لكن جوجان يحترمه .

ومضى زولا قائلاً :

– ان مما يحطم قلبي ان ارى سيزان يبدد حياته على هذا النحو المجاني . ان عليه ان يذهب الى اكس ويتولى وظيفة ابيه في البنك ،

فبذلك يمكنه ان يجعل لحياته شأناً ما . أما اذا استمرت الاحوال على ما هي عليه .. فسوف يشنق نفسه ذات يوم .. تماماً كما تنبأت في « لوفر » . هل قرأت ذلك الكتاب يا سيدي ؟

– لم اقرأه بعد ، غير انني فرغت لتوي من قراءة « جيرمينال » .

– حقاً ؟ وما رأيك فيه ؟

– اعتقد انه خير ما كتب بعد عهد بلزاك .

– أجل . انه أفضل ما كتبت . وقد صدرت طبعته الاولى عن دار جيل بلاس في العام الماضي ، وحصلت لقاء ذلك على مبلغ محترم . كما بلغ عدد النسخ المبيعة الآن أكثر من ستين الفاً . فارتفع دخلي ارتفاعاً لم يبلغه في يوم من الأيام . وسوف اضيف الى منزلي في محلة « ميدان » جناحاً جديداً . هل تدري ان ذلك الكتاب كان سبباً في قيام اربعة اضرابات وثورات في مناطق المناجم في فرنسا ؟ ان «جيرمينال» سوف يؤدي إلى ثورة هائلة ، وعند ذلك قل سلاماً على الرأسمالية ! وانت ، ما هو نوع الاشياء التي ترسمها يا سيد ... يا سيد ... ما اسمك الذي ذكره جوجان ؟

– فنسنت . فنسنت فان جوخ . شقيق ثيو فان جوخ .

وضع زولا قلم الرصاص الذي كان يخربش به على حجر الرخام الممدود فوق الطاولة . وامعن النظر في فنسنت .

وقال :

– هذا شيء غريب .

– ماذا تعني ؟

– اسمك . لقد سمعت به من قبل .

– لعل ثيو ذكره أمامك .

– ذكره فعلاً . ولكن ذلك ليس كل ما في الأمر . انما كان بمناسبة .. آه .. « جيرمينال » ! هل اقمت يوماً في مناطق تعدين الفحم ؟

– نعم سبق لي ان عشت في البوريناج البلجيكية مدة عامين .

– البوريناج ! بيتي وازمس ! ماركاس !

كادت عينا زولا الكبيرتان تخرجان من وجهه المستدير الملتحي .

– اذن فانت المسيح الذي عاد ثانية .

فاحمر وجه فنسنت .

– ماذا تعني .

– اني مكثت في البوريناج خمسة أسابيع ، اجمع المادة لكتاب « جيرمينال » . وكان ذوو الاشداق السوداء يتحدثون عن رجل كالمسيح ، عاش يخدمهم بوصفه مبشراً بروتستانتياً .

– اخفض صوتك ، ارجوك .

طوى زولا يديه فوق كرشه وضغط عليه . وعاد يتحدث .

– لا تخجل يا فنسنت . فان ما حاولت ان تفعله هناك شيء مشرف . ولكنك اخطأت اختيار الواسطة . ذلك ان الديانة المسيحية لن توصل الناس إلى شيء . ولن يقبل بالبؤس في هذا العالم انتظاراً لوعد النعيم في الاخرة الا اصحاب الارواح الوضيعة .

– لقد اكتشفت ذلك متأخراً .

– انت قضيت عامين في البوريناج يا فنسنت . وكنت تعطي الناس طعامك ومالك وملابسك . وبلغ بك الجهد حافة الموت . فما الذي حصلت عليه بالمقابل ؟ لا شيء . بل انهم طردوك من الكنيسة واتهموك بالجنون . وعندما غادرت المنطقة ، لم تكن الاحوال فيها أفضل من اليوم الذي قدمت فيه .

– بل كانت اسوأ .

– أما واسطتي انا فسوف تبلغ هدفها . فالكلمة المكتوبة هي التي ستؤدي إلى الثورة . وكل عامل متعلم في مناجم فرنسا وبلجيكا اقبل على قراءة كتابي . وما من مقهى وما من كوخ حقير في المنطقة بأسرها الا ويحتفظ لديه بنسخة من « جيرمينال » ، قلبتها الأصابع مراراً وتكراراً . أما الاميون الذين لا يستطيعون القراءة فقد قرئت عليهم مرات عديدة . لقد حدثت اربعة اضطرابات حتى الآن ، وسوف تحدث عشرات الاضطرابات الاخرى . ان البلاد كلها في حالة انتفاضة . وسوف تؤدي « جيرمينال » إلى ايجاد مجتمع جديد ، في حين عجزت عقيدتك الدينية عن ذلك . ثم انني احصل على مكافأتي لقاء ذلك . اتدري ما هي ؟

– ما هي ؟

– فرنكات . الوف فوق الوف من الفرنكات . اتشرب كاساً معي ؟

كانت المناقشات على طاولة لوتريك قد أصبحت حامية ، حتى جذبت انتباه جميع الحاضرين .

ووجه لوتريك إلى سورات سؤالاً ، وهو يطرقع أصابعه واحداً اثر واحد :

ــ ما أخبار كتابك « منهجي » يا سورات ؟

تجاهل سورات هذا التعريض . وقد جلس هادئاً ، تتجلى في وجهه الفاتن بديع الملامح ، ذي التعبير الصامت كالقناع ، خلاصة الجمال الرجالي في اطلاقه ، وليس صورة رجل واحد وحسب . وقال :

ــ هناك كتاب جديد يتحدث عن موضوع انكسار الالوان ، وهو من تأليف امريكي يدعى اوجدين روود . واعتقد ان هذا الكتاب يتقدم على هيلمولتز وعلى شيفرال ، ولو انه اقل تشويقاً من كتاب سوبرفيل . غير ان بوسعكم قراءته والافادة منه .

قال لوتريك :

ــ انا لا اقرأ كتباً عن الرسم ، فذلك متروك للرجل العادي .

فلك سورات ازرار معطفه ذي المربعات البيضاء والسوداء ، وعدل وضع رباط عنقه الكبير الازرق المنقط ، وقال :

ــ ستظل انت بدورك رجلاً عادياً مادمت تلجأ للتخمين حين تختار الوانك التي تستخدمها .

ــ انا لا اخمن تخميناً ، ولكنني اختار الواني بوحي السليقة .

وتدخل جوجان مقرراً :

ــ ان العلم عبارة عن منهج يا جورج . ونحن حين دأبنا خلال

سنوات من العمل الشاق والخبرة على تخير الالوان التي يتطلبها عملنا ، فقد أصبحنا علميين بحكم تلك التجربة والخبرة .

– هذا ليس كافياً يا صديقي . لان الاتجاه العام لدى جيلنا ماض نحو الانتاج الموضوعي . أما أيام الالهام ، أيام التجربة والخطأ ، فقد ولت إلى الأبد .

وقال روسو :

– انا من ناحيتي لا استطيع قراءة هذه الكتب ، فهي تصيبني بالصداع . وحينئذ الجأ إلى الرسم طيلة النهار لاستطيع التخلص من وجع الرأس .

ضحك الجميع . والتفت انكوتان إلى زولا وقال :

– هل رأيت الهجوم على « جيرمينال » في هذه الجريدة المسائية ؟

– لا . ماذا يقول ؟

– الناقد يدعوك أشد الكتاب لا اخلاقية في القرن التاسع عشر .

– هذه هي صيحتهم القديمة . الا يجدون جديداً يقولونه ضدي ؟

قال لوتريك :

– هم على صواب يا زولا . انني اجد كتبك شهوانية فاحشة .

– مثلك جدير ان يتعرف إلى الفحش حينما يراه !

– لقد اصطادك هذه المرة يا لوتريك !

وهتف زولا منادياً :

– جرسون . هات لنا دورة من الشراب .

تمتم سيزان في اذن انكوتان :

– نحن في اوانها الآن ، فعندما يطلب اميل المشروبات فمعنى ذلك ان عليك ان تصغي إلى محاضرة منه تستغرق ساعة كاملة .

جاء النادل بالمشروبات . واشعل الرسامون غلايينهم وتجمعوا في حلقة ضيقة حميمة . وكانت مصابيح الغاز تنير الحجرة بأشعة حلزونية . واصوات الهمهمة القادمة من الطاولات الاخرى تصل خافتة متناغمة ..

قال زولا :

– انهم يقولون ان كتبي لا اخلاقية يا هنري ، للسبب ذاته اذ يسبغون هذا الوصف على رسوماتك . ان عامة الناس لا يستطيعون ان يستوعبوا حقيقة انه لا مجال للاحكام الاخلاقية في الفن . ان الفن لا يمكن ان يكون اخلاقياً أو غير اخلاقي . وقل الشيء ذاته عن الحياة . وانا لا ارى ان هناك كتباً أو رسومات يمكن وصفها بالفحش . وانما هناك كتب ورسومات فقيرة في تعبيرها أو في أدائها . ان رسم عاهرة بريشة تولوز – لوتريك لهو رسم اخلاقي لانه يستخرج الجمال الذي يكمن تحت مظهرها الخارجي . كما ان رسم فتاة قروية طاهرة بريشة بوجرو هو رسم لا اخلاقي ، لان الرسام يسبغ عليها ابعاداً عاطفية ويتخمها بحلاوة شكلية كفيلة بأن تحمل الناظر اليها على الغثيان .

اطرق ثيو وقال :

– حقاً ، ان الأمر كذلك .

وأدرك فنسنت ان الرسامين لا يحترمون زولا بسبب نجاحه ،

– فالواقع انهم يحتقرون مفاهيم النجاح المتعارف عليها – ولكن لانه يعمل من خلال واسطة تعبير تبدو لهم غامضة وصعبة . وهكذا راحوا يستمعون لكلماته باهتمام :

– ان العقل الانساني العادي يفكر وفقاً للثنوية : الضوء والظل ، والحلو والمالح ، والطيب والشرير . غير ان هذه الثنوية غير موجودة في الطبيعة ، فليس في العالم خير ولا شر ، وانما وجود وعمل . وعندما نصف فعلاً ما ، فاننا في الحقيقة نصف الحياة ، وعندما نطلق على ذلك الفعل اسماء – كالفحش أو الفسق – فاننا ندخل عالم التحامل الذاتي .

قال ثيو :

– ولكن ماذا تفعل الكتلة الكبيرة من الناس اذا عدمت المستوى الاخلاقي ؟

فقال تولوز لوتريك متمماً :

– الاخلاق مثل الدين ، مخدر يساعد على اغلاق عيونهم عما في حياتهم من تزييف .

وانبرى سورات قائلاً :

– ان حيادك الاخلاقي ليس الا الفوضوية بعينها يا زولا ، بل انها فوضوية . وقد جربها غيرك من قبل ، فلم يقيض لها النجاح .

قال زولا موافقاً :

– ان علينا بطبيعة الحال ، ان نتقيد بضوابط معينة ، فالصالح العام

يتطلب تضحيات من الافراد . وأنا لست ضد الأخلاقية، ولكنني ضد الحشمة التي تريد أن تبصق على لوحة الاوليمبيا ، وأن تسحق موباسان .

إن الأخلاقية كما أراها اليوم في فرنسا محصورة تماماً في نطاق المسائل الجنسية . فليضاجع الناس من يشتهون ، فانني أعرف أخلاقيات أسمى من هذه المسائل .

قال جوجان :

ـ هذا يذكرني بحفلة عشاء أقمتها منذ بضع سنوات . فقد قال لي أحد المدعوين : « أنت تعرف يا صديقي أنني لا أستطيع أن أصطحب زوجتي إلى حفلات عشائك حين تكون عشيقتك حاضرة » . فقلت له « حسناً . سوف أبعدها عن البيت طيلة المساء » . وهكذا كان . فلما انتهى العشاء ، وعاد الضيوف إلى بيوتهم قالت السيدة الشريفة التي كانت منقبل تتثاءب طوال السهرة لزوجها « دعنا نتبادل قليلاً من الحديث الظريف الفاحش قبل أن نفعل ما نحن فاعلون « . فأجابها زوجها » دعينا لا نفعل شيئاً غير الكلام ، فقد أفرطت في تناول الطعام هذا المساء .»

صاح زولا وسط الضحكات :

ـ هذه القصة تلخص الموضوع كله !

وقال فنسنت :

ـ لنترك ـ للحظة ـ مسألة النظريات الاخلاقية ، ولنرجع إلى اللا أخلاقية في الفن . ان أحدا قط لم يقل عن لوحاتي انها فاحشة مثلاً ، ولكنني كثيراً ما اتهمت باللاأخلاقية من جانب أخطر ، هو القبح .

قال تولوز ـ لوتريك :

– لقد أثرت القضية في وقتها يا فنسنت .

وقال جوجان موافقاً :

– نعم ، هذا هو جوهر الاتهام الجديد باللاأخلاقية الذي يردده الجمهور ضدنا .هل قرأتم الوصف الذي أطلقته صحيفة ميركور دوفرانس هذا الشهر ؟ لقد أسمتنا طائفة عبادة القبح .

وقال زولا :

– هذا النقد ذاته يثار في وجهي أيضاً . فأمس قالت لي إحدى الكونتيسات « عزيزي السيد زولا ، لماذا ينبطح رجل له هذه الموهبة غير العادية فيروح يقلب حجارة الطريق ليرى ما قد يزحف تحتها من أنواع الحشرات القذرة ؟ » .

وأخرج لوتريك جريدة قديمة كانت تتدلى من جيبة وقال :

– اسمعوا ماذا قال الناقد عن لوحاتي في آخر معرض بصالة المستقلين «ان تولوز – لوتريك جدير باللوم على ما نراه من افتتانه بتصوير المباهج الزائفة،والتسليات الخشنة والموضوعات الوضيعة . انهعديم الحس بجمال الملامح وبتناسق التكوين وبرشاقة الحركة . واذا كان حقاً يرسم بريشته العاشقة كائنات قصيرة بدينة سيئة التشكيل منفرة القبح ، فان المرء لا يفهم جدوى هذا الافساد . »

وتمتم فنسنت قائلاً :

– هذه آثار من أقوال فرانزهانز .

وقال سورات :

– حسناً ، ان الناقد على حق . فأنتم أيها الرجال اذا لم تكونوا قد

انحرفتم فعلاً ، فانكم على الاقل قد ضللتم الطريق . ان الفن ينبغي ان يكون معنياً بالأشياء المجردة ، كاللون والتشكيل والدرجة اللونية . وليس من شأنه أن يستخدم لتحسين الأحوال الاجتماعية ولا للبحث عن القبح . ان الرسم يجب أن يكون كالموسيقى ، مقطوع الصلة بعالم الحياة اليومية .

وقال زولا :

– في العام الماضي مات فكتور هيجو . وبموته ماتت حضارة كاملة، وهي حضارة الاشارات العذبة والمغالاة العاطفية والاكاذيب الفنية والملابسات اللطيفة . أما كتبي فهي تنتمي إلى الحضارة الجديدة ، حضارة القرن العشرين اللاأخلاقية . وكذلك هي رسوماتكم . وإذا كان بوجورو مازال يجرجر جثته حول باريس ، فانه غدا انساناً عليلاً يوم عرض ادوار مانيه لوحته « نزهة على العشب » ، ثم انه مات يوم أتم مانيه لوحته « اوليمبيا » ، أما الآن وقد ولى مانيه ، وكذلك دومييه ، فان لدينا اليوم ديجا ولوتريك وجوجان ، الذين يواصلون عملهم .

قال تولوز – لوتريك :

– ضع اسم فنسنت فان جوخ على القائمة .

وقال روسو :

– ضعه على رأس القائمة .

فقال زولا مبتسماً :

– مليح جداً يا فنسنت . لقد رسمت كاهناً لعبادة القبح . فهل تقبل هذه الرسامة ؟

أجاب فنسنت :

– آسفاً . أخشى انني قد ولدت فيها .

وقال زولا :

– لنقم اذن بصياغة بياننا أيها السادة . أولاً – اننا نعتقد ان الحقيقة جميلة كلها ، ولو بدا وجهها بشعاً للناظرين . ونحن نتقبل الطبيعة على علاتها ولا ننكر شيئاً منها . ويقيننا ان الحقيقة مهما كانت جارحة فانها أجمل من الكذب المزوق ، وان في تراب الأرض من الشاعرية أكثر مما في جميع صالونات باريس . ونحن نرى أن الألم خير ، لأنه أعمق الأحاسيس الانسانية كلها . ونحن نعد الجنس شيئاً جميلاً ، ولو جسدت صورته المومس والقواد . اننا نضع الشخصية فوق القبح ، والألم فوق العذوبة ، والحقيقة الصعبة القاسية فوق كل ما في فرنسا من ثروات . اننا نتقبل الحياة بكليتها دونما أحكام أخلاقية ، فلافضل للكونتيسة على المومس ، ولا للقائد على البواب ، ولا للوزير على الفلاح ، لأنهم جميعاً أجزاء من نظام الطبيعة ، متداخلون في نسيج الحياة .

وصاح تولوز – لوتريك :

– لنرفع كؤوسنا يا سادة ، لنشرب نخب التحرر من النظرة الاخلاقية ونخب ديانة القبح . فلعل ذلك يسهم في تجميل العالم واعادة تشكيله .

قال سيزان :

– طظ . .

وقال جورج سورات :

– ومني طظ أخرى . .

انتقل ثيو وفنسنت في مطلع حزيران يونيه إلى الشقة الجديدة في ٥٤ شارع ليبيك مونمارتر . وكان المنزل واقعاً على مسافة قصيرة قرب شارع لافال ، فليس عليهما إلا أن يصعدا طريق مونمارتر ، ويجتازا عدداً ضئيلاً من البنايات حتى بوليفار كليشي ، ثم يتبعا شارع ليبيك الملتوي صعدا ، مخلفين وراءهما المولان دولاجاليت ، فيبلغا الجزء الريفي من تل بوت .

وكانت شقتهما تقع في الطابق الثالث من المنزل ، وفيها ثلاث غرف وحجرة صغيرة ومطبخ . وغدت غرفة الجلوس مريحة بعد ان وضعت فيها خزانة ثيو الجميلة القديمة والمقاعد من طراز لويس فيليب . كما وضع فيها موقد كبير لوقايتهما من برد باريس . وكان ثيو ذا موهبة في ترتيب المنزل ، فهو يحب أن يكون كل شيء في مكانه . وكانت غرفته تجاور غرفة الجلوس . أما فنسنت فاتخذ من الحجرة الصغيرة مقاماً له ، ومن الغرفة الواقعة خلفها مرسماً ، وهي غرفة متوسطة الحجم ذات شباك واحد .

قال ثيو ، بينما هما يرتبان الاثاث ، ثم يعيدان ترتيبه مرة بعد الاخرى :

— لم تعد يا فنسنت في حاجة للذهاب إلى كورمان للرسم هناك.

— لا ، والشكر للسماء . غير انني محتاج إلى رسم بعض النماذج النسائية العارية .

وضع ثيو الاريكة بين الحجرة الصغيرة والغرفة التي تليها ، ثم تأمل الغرفة بعين فاحصة ، وقال :

– مضت مدة طويلة لم ترسم خلالها لوحة كاملة بالألوان . أليس كذلك ؟

– بلى .

– ولم لا ؟

– وما الفائدة قبل ان أتوصل إلى مزج الألوان المطلوبة . . ؟ أين تريد هذا الكرسي يا ثيو ؟ تحت المصباح أم بجوار النافذة ؟ على انني الآن مستعد بعدما أصبح لي مرسم خاص . .

صحا فنسنت في الصباح التالي مع شروق الشمس ، وأقام مسند لوحاته في المرسم الجديد ، ووضع قطعة من قماش الرسم داخل اطار ، وبسط على لوحة المزج مجموعة الالوان الجديدة الزاهية التي اشتراها ثيو من أجله ، وقام بتليين فراشيه . فلما آن اوان استيقاظ ثيو ، وضع وعاء القهوة على النار ، وخرج إلى الحلواني ليجلب الكرواسان الطازج الهش .

ولم يخف على ثيو أثناء الافطار ما يحتدم في نفس فنسنت من اهتياج عنيف . فقال :

– حسناً يا فنسنت . لقد داومت في المدرسة ثلاثة شهور . ولا أقصد بذلك معهد كورمان وانما مدرسة باريس ! وقد شاهدت أهم أعمال الرسم التي ظهرت في اوروبا خلال ثلاثمائة سنة . وها أنا الآن مستعد ! . .

ازاح فنسنت بقية افطاره جانباً . ونهض واقفاً وهو يقول :

– اظن انني سوف أبدأ . . .

– اجلس قليلاً . اتم افطارك . ان لديك متسعاً من الوقت . وليس

هناك ما ينبغي أن تقلق له سوف اشتري لك الألوان وقماش الرسم بالجملة ، لكي تكون لديك ذخيرة منه دائماً . ومن الأفضل أن تعالج أسنانك أيضاً ، فانني أريدك في صحة ممتازة . ولكنني أسألك بحق الاله ان تتناول عملك ببطء وعناية !

– لا تقل كلاماً فارغاً يا ثيو . هل علمت انني فعلت شيئاً في حياتي ببطء وعناية ؟

وعندما عاد ثيو إلى البيت في ذلك المساء ، وجد فنسنت وقد ساق نفسه إلى حمى السخط . فقد مضت عليه من قبل ست سنوات وهو يمارس حرفته فيحرز تقدماً مطرداً ، على الرغم من أنه كان يعمل في أقسى الظروف التي تحطم القلب . أما الآن ، وقد تيسر له كل شيء ، فانه فوجىء بعجز مهين .

لم يتمكن ثيو من تهدئته إلا بعد أن بلغت الساعة العاشرة ، ولكنه استعاد شيئاً من ثقته بنفسه حين خرجا لتناول طعام العشاء . أما ثيو فكان شاحباً ومرهقاً .

وكانت الاسابيع التالية جحيماً لكليهما . فكلما عاد ثيو من المعرض ، وجد فنسنت في حالة جديدة من أحواله العصبية التي لا تنتهي . ولم يكن هناك جدوى من القفل المتين الذي اتخذه، ثيو لغرفته ، لأن فنسنت كان يظل جالساً على سريره ، يحادثه ويجادله ، حتى ساعات الصباح الأولى . فاذا تهالك ثيو نائماً ، راح فنسنت يهزه من كتفيه حتى يوقظه.

وذات ليلة توسل ثيو قائلاً :

– توقف عن جيئتك وذهابك ، واجلس لحظة في هدوء . وكف عن شربك هذا الابسنت اللعين . واعلم ان جوجان لم يتوصل إلى مزج

ألوانه عن هذا الطريق . والآن استمع إلي أيها الابله الجهنمي . اعلم انك يجب أن تعطي نفسك مهلة سنة على الاقل قبل أن تبدأ — مجرد بدء — في النظر إلى عملك بعين ناقدة . ثم قل لي ، ما هي الفائدة التي تعود عليك من المرض الذي لابد أن يقودك اليه هذا النمط من الحياة ؟ انظر إلى نفسك وانت تزداد نحافة وعصبية . انك تعلم حتماً أنك لن تستطيع القيام بأفضل ما في وسعك وأنت على هذا الحال .

وأقبل صيف باريس بروائحه الحارة . وأخذت الشمس تشوي الشوارع . فلجأ أهل باريس إلى الليل . يجلسون في رحابه أمام مقاهيهم المفضلة ، يحتسون المرطبات الباردة حتى الساعة الواحدة والساعة الثانية. وتفجرت الزهور على تل مونمارتر ، في مظاهرة من الألوان . وتلون نهر السين في مجراه المتلألىء عبر المدينة وعبر الضفاف العامرة بالأشجار وبقع الحشائش الخضراء الرطبة .

وصار فنسنت يحزم حامل الرسم على ظهره كل صباح ويخرج بحثاً عن منظر يرسمه . لم يسبق له أن عرف في هولندا مثل هذه الشمس الحامية المتسمرة في الأعالي ، ولا رأى مثل هذه الألوان البدائية العميقة. وكان يعود من الرسم كل مساء لينضم إلى المناقشات الساخنة حول اللوحات المعروضة في ملحق جوبيل .

وذات يوم جاء إليه جوجان ليساعده في مزج بعض الألوان،وسأله:

— من أين تشتري هذه الألوان ؟

— ثيو هو الذي يشتريها بالجملة .

— ينبغي أن تتعامل مع الأب تانجي . فأسعاره أدنى الأسعار في باريس . وهو يعطي الفنان بالدين اذا كان الفنان مفلساً .

– من هو هذا الأب تانجي ؟ لقد سمعتك تذكره من قبل .

– الم تقابله حتى اليوم ؟ يا الهي ! ينبغي ان لا تتردد لحظة اخرى . انك والأب تانجي الرجلان الوحيدان اللذان صادفتهما في حياتي فوجدت شيوعيتهما تنبع من القلب حقاً . ضع قبعتك الجميلة المصنوعة من فراء الأرنب على رأسك ، فسوف نهبط إلى شارع كلوزيل .

وروى جوجان لفنسنت ، اثناء نزولهما إلى شارع ليبيك ، قصة الأب تانجي فقال :

– كان فيما مضى يعمل في الطلاء والتجصيص ، ثم جاء إلى باريس ، وعمل في بيت ادوار طحاناً للالوان ، ثم حصل على وظيفة بواب في احدى بنايات التل . وعنيت زوجته بأمر البناية ، بينما بدأ الأب يتاجر بالالوان في الحي . والتقى بيسارو ومونيه وسيزان ، فأحبوه ، وبدأنا جميعاً نشتري الواننا منه . واثناء الانتفاضة الاخيرة انضم إلى الشيوعيين . وبينما كان يقوم يوماً بواجب الحراسة وهو يحلم ، جاءت عصابة من فرساي واحتلت مركزه . ولم يهن على المخلوق المسكين ان يطلق النار على كائن بشري مثله . فألقى بغدارته . وحكم عليه بسبب هذه الخيانة بالاشغال لمدة عامين في السفن الشراعية في برست ، الا اننا تمكنا من اخراجه .

وادخر فرنكات قليلة ساعدته على افتتاح هذا الدكان الصغير في شارع كلوزيل . وقام لوتريك بدهان واجهة المحل باللون الازرق . وكان تانجي اول رجل يقوم بعرض لوحة من لوحات سيزان . ومنذ ذلك الحين صرنا جميعاً نورد اليه أعمالنا ، لا لانه مفلح في بيع اللوحات. اوه .. لا . ان الأب عاشق عظيم للفن ، ولكنه لا يستطيع بسبب فقره

ان يشتري اللوحات . لذا فانه يعرضها في دكانه الصغير حيث يعيش معها طيلة النهار .

— اتعني انه لا يبيع اللوحة ولو تلقى عرضاً ملائماً ؟

— يقيناً انه لا يبيعها . وهو لا يأخذ الا اللوحات التي يحبها ، واذا تعلق بلوحة فليس بوسع احد ان ينتزعها من الدكان . كنت في محله ذات يوم حين دخل اليه رجل حسن الهندام ، اعجب باحدى لوحات سيزان ، وسأل عن ثمنها . ولا شك ان أي بائع للفنون في باريس كان سيبتهج اذا باعها بستين فرنكاً . الا ان الأب تانجي راح ينظر إلى اللوحة برهة طويلة ، واخيراً قال « آه . نعم . هذه اللوحة . انها من أفضل أعمال سيزان . ولا يمكنني ان افرط فيها لقاء مبلغ يقل عن ستمائة فرنك » . فلما ركض الرجل خارجاً ، انزل الأب اللوحة من فوق الجدار ورفعها أمام ناظريه دامع العينين .

— ما الفائدة اذن من عرض أعمالك لديه ؟

— حسناً . ان الأب تانجي انسان غريب . وكل ما يعرفه عن الفن هو طحن الالوان . غير انه مع ذلك يملك حاسة لا تخطيء بما هو أصيل . فاذا طلب احدى لوحاتك فاعطه اياها ، لان ذلك سيكون مدخلك الرسمي إلى عالم الفن الباريسي . هذا هو شارع كلوزيل فدعنا ننعطف اليه .

كان شارع كلوزيل شارعاً مكوناً من كتلة واحدة من المباني ، غاصاً بالدكاكين الصغيرة التي يعلوها طابقان أو ثلاثة طوابق من المنازل ذات المصاريع البيضاء . ويقع دكان الأب تانجي مقابل مدرسة ابتدائية للبنين في الشارع .

كان الأب تانجي منكباً على بعض الرسوم اليابانية التي شاع ذوقها في باريس مؤخراً .

– ابانا . لقد أحضرت معي صديقاً هو فنسنت فان جوخ . وهو شيوعي متحمس .

قال الأب تانجي بصوت ناعم اقرب إلى اصوات النساء :

– يسعدني ان ارحب بكما في دكاني .

كان تانجي رجلاً ضئيلاً ذا وجه ممتلىء وعينين ودودتين كعيني كلب أليف . وقد ارتدى قبعة عريضة الحافة مصنوعة من القش ، تهبط حتى مستوى حاجبيه . أما ذراعاه فقصيرتان ، ويداه قصيرتان بدينتان ، ولحيته مهوشة ، وعينه اليمنى تنفتح نصف فتحة زائدة عن عينه اليسرى .

وسأل فنسنت بحياء :

– اانت شيوعي حقاً يا سيد فان جوخ ؟

– لا اعرف ما الذي تعنيه بكلمة شيوعي أيها الأب تانجي . ولكنني اعتقد ان كل انسان ينبغي ان يعمل قدر استطاعته في المهنة التي يحبها ، وان يحصل في المقابل على كل ما يحتاج اليه .

وضحك جوجان قائلاً :

– هذه هي المسألة ببساطة .

وقال الأب تانجي :

– آه يا بول . لقد عملت في بورصة العقود . ان النقود هي ما يحول الرجال إلى وحوش .

– نعم ، وكذلك خلو جيوبهم منها .

– لا ، ليس قلة المال وانما قلة الطعام واحتياجات الحياة .

وقال فنسنت :

– هذا صحيح أيها الأب تانجي .

قال تانجي :

– صديقنا بول يحتقر الرجال الذين يكسبون الاموال ، وهو يحتقرنا لاننا لا نستطيع ان نكسب شيئاً منها . غير انني أفضل ان أكون من الطبقة الثانية – ان أي رجل يعيش على أكثر من خمسين سنتيماً في اليوم هو لا شك نذل .

قال جوجان :

– اذن فقد هبطت علي الفضيلة بحكم الضرورة يا ابانا تانجي ، هل تتكرم باقراضي شيئاً قليلاً من الالوان انا اعرف انني مدين لك بفاتورة طويلة ، ولكنني غير قادر على العمل ان لم ..

– نعم يا بول ، سوف اقرضك ما تريد . ولو انني كنت أقل وثوقاً بالبشر ، وكنت انت أكثر وثوقاً بقليل لكان كلانا في حال أفضل . أين اللوحة الجديدة التي وعدتني بها ؟ لعلني ابيعها واسترد النقود التي اشتريت بها الالوان ؟

غمز جوجان بعينه لفنسنت قائلاً :

– سأحضر لك لوحتين يا ابانا ، لتعلقهما جنباً إلى جنب ، والآن هل تسمح لي بانبوبة من اللون الأسود ، وانبوبة من الأصفر ..

فاذا بصوت مفاجىء يقول :

– ادفع دينك اولاً ، تحصل على مزيد من الالوان .

التفت الرجال الثلاثة في وقت واحد ، فاذا بمدام تانجي تصفق الباب الذي يفصل بيتهم عن الدكان ، وتخرج اليهم . كانت امرأة ناحلة قوية على ضآلتها ، ذات وجه صارم نحيف وعينين مفعمتين بالمرارة . وهبت في وجه جوجان هبوب العاصفة .

– هل تظن اننا هنا في مؤسسة خيرية ؟ أم تظن اننا سنقتات من شيوعية تانجي ؟ ادفع فاتورتك أيها المحتال والا استدعيت لك الشرطة .

ابتسم جوجان ابتسامة آسرة ، وأخذ يد مدام تانجي وقبلها بكل ما اوتي من قدرة على التودد .

وقال :

– آه يا اكسانتيب ، كم أنت ساحرة في هذا الصباح .

لم تكن مدام تانجي تدري لماذا يدعوها هذا الرجل الوحشي الوسيم باسم اكسانتيب دائماً . ولكن ايقاع الاسم اعجبها،ودغدغ غرورها .

– لا تحسب نفسك قادراً على الالتفاف من حولي أيها المتسكع الافاق . انني افني حياتي وانا اعمل كالعبيد في طحن هذه الالوان القذرة ، فتجيء حضرتك وتسرقها .

– يا غاليتي اكسانتيب ، لا تكوني بهذه القسوة علي . ان لك روح فنان ، واني لارى ذلك مطبوعاً على قسمات وجهك المحبوب .

رفعت مدام تانجي مئزرها ومسحت به وجهها ، كأنما لتزيل عن الوجه روح الفنان ، وصاحت :

– افقف ، ان فناناً واحداً في العائلة يكفي . اعتقد انه قال لك انه يريد العيش على خمسين سنتيماً في اليوم . ولكن ، من أين تظن انه سيجلب تلك الخمسين سنتيماً اذا لم اكسبها انا ..

– باريس كلها تتحدث عن سحرك وعن قدراتك يا سيدتي العزيزة .

وانحنى أمامها ، واقبل على يدها المجعدة يقبلها مرة اخرى بشفتيه .. فما لبثت ان لانت .

– حسناً . انك افاق ومنافق . ولكنني سأسمح لك هذه المرة بقليل من الالوان على شرط ان تحاول تسديد فاتورتك .

– محبوبتي اكسانتيب ، سوف اقوم في مقابل هذا العطف برسم صورة شخصية لك . وسوف تعلق تلك الصورة ذات يوم في متحف اللوفر ، وتخلد ذكرانا معاً .

رن الجرس الصغير المثبت بالباب الأمامي ، ودخل إلى الدكان رجل أجنبي ، قائلاً :

– هذه الصورة المعروضة في النافذة .. اعني لوحة الطبيعة الصامتة.. من هو رسامها ؟

– بول سيزان .

– سيزان ؟ لم اسمع باسمه . اهي للبيع ؟

– آه ، لا ، للاسف فقد ...

قذفت مدام تانجي بمئزرها جانباً ، ودفعت تانجي عن طريقها ، وهرعت إلى الرجل بلهفة .

– نعم ، هي للبيع طبعاً . انها من ابدع لوحات الطبيعة الصامتة . اليس كذلك يا سيدي ؟ هل رأيت في حياتك مثل هذه التفاحات من قبل ؟ نحن سنبيعك اياها بسعر رخيص يا سيدي مادمت معجباً بها .

– بكم ؟

ووجهت المدام تانجي سؤالها إلى زوجها ، وقد ضمنته لهجة تهديد :

– بكم يا تانجي ؟

فازدرد تانجي ريقه قائلاً :

– بثلاثما ..

– تانجي !

– بمائتا ..

– تانجي !

– طيب . بمائة فرنك .

قال الرجل الأجنبي :

– مائة فرنك ؟ لرسام مجهول ؟ اعتقد ان هذا سعر باهظ . وقد هيأت نفسي لانفاق مبلغ في حدود خمسة وعشرين فرنكاً .

اخرجت مدام تانجي اللوحة من نافذة العرض ، وقالت :

– تأمل يا سيدي . انها لوحة كبيرة . وفيها اربع تفاحات . اربع تفاحات بمائة فرنك . فاذا كنت تنوي انفاق خمسة وعشرين فرنكاً فقط ، فلماذا لا تأخذ تفاحة واحدة ؟

تفحص الرجل اللوحة برهة ثم قال :

– نعم ، هذا ممكن . فاقطعي هذه التفاحة على طول اللوحة ، وسوف آخذها .

سارعت المدام إلى بيتها وجاءت بالمقص ، وقطعت التفاحة الاخيرة ولفتها في قطعة من الورق ، ثم سلمتها للرجل وأخذت منه الفرنكات الخمسة والعشرين . وغادر الدكان وهو يتأبط اللفافة .

وراح تانجي يئن متوجعاً .

– لوحة سيزان الاثيرة عندي . كنت قد وضعتها في النافذة ليراها الناس لحظة ثم ينصرفوا مغتبطين .

وضعت المدام اللوحة المشقوقة على المنضدة ، وقالت :

– اذا جاءك زبون في مرة قادمة وطلب منك صورة سيزان ولم يكن معه مال كاف ، فقص له تفاحة . وخذ منه أي ثمن يعرضه عليك انها على كل حال بضاعة بخسة ، وهو يرسم منها الكثير . وانت يا جوجان ، لا داعي لان تضحك ، فالقانون ذاته ينطبق عليك . سوف اتناول لوحاتك المعلقة على الجدار وابيع كل واحدة من فتياتك العاريات الهمجيات لقاء خمسة فرنكات للقطعة .

قال جوجان :

– حبيبة قلبي اكسانتيب . لقد التقينا متأخرين جداً في هذه الحياة . فلو انك كنت شريكتي في بورصة العقود لكنا اليوم قد ملكنا بنك فرنسا .

عادت المدام ادراجها إلى قواعدها في الداخل ، وقال الأب تانجي المنسنت :

ـ انت رسام يا سيدي ؟ آمل ان تشتري الوائك من هنا . ولعلك تريني بعضاً من صورك .

ـ سيسعدني هذا . ارى ان هذه الصور اليابانية بديعة . هل هي للبيع ؟

ـ نعم ، لقد أصبحت شائعة الانتشار في باريس منذ بدأ الاخوة غونكور يجمعونها . وقد أصبح لها تأثير كبير على رسامينا الشبان .

ـ هاتان الصورتان تروقان لي . بودي ان ادرسهما . فما ثمنهما ؟

ـ ثلاثة فرنكات للقطعة الواحدة .

ـ سآخذهما . ياالهي ، لقد نسيت اني انفقت آخر فرنك في جيبي هذا الصباح . هل معك ستة فرنكات يا جوجان ؟

ـ لا تكن مضحكاً .

اعاد فنسنت الصورتين فوق المنضدة معتذراً .

الا ان الأب دس الصورتين في يد فنسنت ، وظهرت على وجهه الاليف ابتسامة ودود خجول ، وقال :

ـ انت محتاج اليها في عملك .. فخذها .. ارجوك .. وسوف تدفع لي فيما بعد .

ـ ١٠ ـ

قرر ثيو إقامة حفلة لأصدقاء فنسنت . وهكذا أعد الشقيقان عدداً كافياً من البيض المسلوق ، وأحضرا برميلاً صغيراً من البيرة ، وملآ صوان عديدة بالحلوى والفطائر . وعجت غرفة الجلوس بدخان التبغ

الكثيف ، فكان جوجان يبدو ، وهو ينتقل في الغرفة من مكان إلى مكان ، ببدنه الضخم ، أشبه بعابرة المحيطات القادمة من خلال الضباب . وحط لوتريك في أحد الأركان ، وراح يكسع البيض في مسند المقعد الأثير لدى ثيو ، ويلقي بالقشور فوق السجادة . أما روسو فكان بالغ الانفعال بسبب رسالة معطرة تلقاها في ذلك اليوم من إحدى المعجبات ، تبدي رغبتها في لقائه . وروى هذه القصة للجميع مرة بعد أخرى وقد اتسعت عيناه بالحيرة . وكان سورات منشغلاً بأمر نظرية جديدة من ابداعه ، شرع يشرحها لسيزان الواقف قبالته مسمراً إلى النافذة . وانهمك فنسنت في صب البيرة من البرميل ، يقهقه تارة لسماعه قصص جوجان البدائية ، ويشارك روسو تارة أخرى تساؤله عمن قد تكون المرأة المعجبة ، ويناقش لوتريك تارة ثالثة في الاسلوب الأفضل لالتقاط التعبير ، أهو اسلوب الخطوط أم اسلوب التنقيط بالألوان . ثم إنه في النهاية ذهب إلى سيزان ، واستطاع أن ينقذه من بين براثن سورات .

لاشك أن الغرفة كانت تتفجر اضطراباً . فقد كان الرجال المتواجدون فيها كلهم شخصيات قوية ، ذوي فردية وحشية ، يحملون روح التمرد على المألوف والمقدس . وكانوا مغرمين بالجدل والعراك ، دأبهم أن يدافعوا عن نظرياتهم ويصبوا اللعنات على كل ما سواها . وكانت أصواتهم صاخبة خشنة ، والأشياء التي تثير استنكارهم في هذا العالم كثيرة لا تنتهي . ولاشك ان أي مكان ، ولو بلغت مساحته عشرين ضعفاً من غرفة ثيو ، كان سيضيق عن تلك القوة الديناميكية الكامنة في هؤلاء الرسامين المقاتلين الصاخبين .

وفي حين أدى هذا الضجيج إلى اشعال حماسة فنسنت وقابليته

للافصاح بالحديث والاشارة ، فانه أصاب ثيو بصداع مؤلم . لقد كانت الأصوات العالية كلها غريبة على طبيعته . وكان يحمل محبة عظيمة لجميع هؤلاء الرجال الذين ضمتهم الغرفة . أفلم يدخل من أجلهم معركة صامته طويلة الأمد مع أصحاب جوبيل ؟ ومع ذلك فقد اكتشف ان هذا الصخب الخشن الفظ الذي تنطوي عليه شخصياتهم لا ينسجم قط مع طبيعته . ذلك ان في جبلة ثيو قسط كبير من الانثوية ، حتى ان تولوز – لوتريك قال ذات مرة بأسلوبه الثقيل في المزاح :

– خسارة ان يكون ثيو أخاً لفنسنت . فلو كان امرأة لكان فنسنت نعم الزوجة .

كان ثيو ينفر من وضعه الذي يفرض عليه أن يبيع لوحات بوجرو ، وهو بالمثل لا يقبل لفنسنت ان يرسم شيئاً على غرارها. غير أنه كان يعلم انه يستطيع في مقابل بيعه لوحات بوجرو أن يقنع فالادون بعرض أعمال لديجا . وسوف يتمكن ذات يوم من اقناعه بعرض لوحة لسيزان ، ثم لجوجان أو لوتريك ، وأخيراً يتمكن في يوم غير بعيد أن يعرض لوحة لفنسنت فان جوخ .

نظر إلى الغرفة الصاخبة العامرة بالمناقشات الحامية والدخان الكثيف ، ثم انسل من الباب الامامي دون ان يراه أحد ، وسار صاعداً نحو التل ، وراح يقلب عينيه وحيداً في أضواء باريس التي تترامى أمامه .

وكان جوجان في جدال مع سيزان ، وقد حمل باحدى يديه قطعه من الخبز المحلي وبيضة مسلوقة ، وباليد الأخرى كوباً من البيرة . وكان يفخر على الجميع بأنه الرجل الوحيد في باريس ، الذي يستطيع أن يشرب البيرة دون ان يرفع الغليون عن فمه .

وكان يصيح :

-- ان لوحاتك باردة ياسيزان . باردة كالثلج . فما ان انظر إليها حتى أتجمد . وليس في الاميال العديدة من القماش الذي رسمت عليه لوحاتك مثقال أونصة واحدة من العاطفة .

وقال سيزان يفحمه :

– أنا لا أحاول رسم العواطف . فذلك متروك للروائيين . وإنما أرسم تفاحاً ومناظر طبيعية .

– أنت لا ترسم العواطف لأنك أعجز من أن تفعل . انك ترسم بعينيك . ذلك ماترسم به.

– وبماذا يرسم الآخرون ؟

نظر جوجان نظرة سريعة في الحجرة وقال :

– بجميع أنواع الأشياء . ان لوتريك مثلاً يرسم بطحاله ، وفنسنت بقلبه،وسورات بعقله (وذلك أمر سيء في مثل سوء رسمك بعينيك) . أما روسو فهو يرسم بخياله :

– وأنت يا جوجان ، بماذا ترسم ؟

– من ؟ أنا ؟ لا أعرف ، ولم أفكر في الأمر .

فقال لوتريك :

– سأقول لك . انت ترسم بعضوك .

قهقه الجميع للنكتة ، فلما صمتوا جلس سورات على ذراع اريكة وصاح .

– قد تستطيع أن تهزأ من رجل يرسم بعقله . إلا أن ذلك قد ساعدني على التوصل إلى اكتشاف كيف نجعل للوحاتنا أثراً مزدوجاً .

تأوه سيزان قائلاً :

– هل كتب علي أن استمع إلى هذا الهراء من جديد .

– اخرس أنت يا سيزان ! واجلس أنت يا جوجان في أي مكان ولا تقلب الغرفة كلها . وأنت يا روسو ، توقف عن ترديد هذه القصة اللعينة عن معجبتك . وناولني يا فنسنت بيضة وقطعة خبز . والآن اصغوا جميعاً إلي .

– ما الذي حدث يا سورات ؟ إنني لم أشاهدك بمثل هذه الحالة العصبية منذ اليوم الذي بصق فيه ذلك المتفرج على لوحتك في صالة المرفوضين !

– استمعوا إلي . أتدرون ما هو فن الرسم اليوم ؟ إنه الضوء : فما نوع ذلك الضوء ؟ هو ضوء متراكب . نقط من اللون ينساح بعضهافي بعض .

– هذا ليس الرسم . هذا هو التنقيط !

– بحق الاله يا جورج ، أأنت مصمم على الظهور علينا بمظهر المثقف ؟

– اخرس ! لنفرض أننا نبدأ العمل في لوحة ، فماذا نفعل أولاً ؟ اننا نبعث بها إلى أحد الحمقى ، فيضع حولها إطاراً ذهبياً شنيعاً ، فتكون النتيجة أن يقتل كل تأثير اردناه في اللوحة . ان اقتراحي بالتالي ، هو ان

لا نفلت اللوحة من يدينا قبل أن نضعها في اطار ، ونرسم الاطار نفسه ، حتى يصبح جزءاً لا يتجزأ من الصورة .

– ولكن يا سورات ، أرى أنك تختصر كثيراً . ألا تقول مثلاً أن كل لوحة سوف تعلق في غرفة . وان الغرفة إذا كانت مطلية بلون غير مناسب ، فان ذلك يقتل الصورة والاطار معاً .

– هذا صحيح . لماذا لا نطلي الغرفة لكي تلائم الاطار ؟

قال سورات :

– فكرة جيدة .

– فماذا عن البيت الذي يحتوي على الغرفة ؟

– ثم المدينة التي تحتوي على البيت ؟

– اوه يا جورج ، يا جورج ، ان الافكار التي تخطر لك هي ألعن الافكار !

– هذا هو ما ينجم عن الرسم بالعقل .

– أنتم لا تستطيعون أيها المعتوهون أن ترسموا بعقولكم ، إذ لا عقول لكم أصلاً !

– تفرجوا على وجه جورج ، هلموا جميعاً بسرعة ! لقد نجحنا هذه المرة في اثارة غضب رجل العلم . شيء بديع .

وتدخل فنسنت قائلاً :

– لماذا تعمدون دائماً إلى الاقتتال أيها الرجال . لماذا لا تحاولون ان تعملوا فريقاً واحداً ؟

فقال جوجان :

– انت شيوعي هذه الجماعة . اظن انك ستقول لنا ما الذي نحصل عليه إذا عملنا معاً .

قال فنسنت وهو يضع في فمه صفار بيضة :

– حسن جداً . سأقول لكم فعلاً . فقد فكرت في خطة معينة . اننا جماعة من النكرات . والحق ان مانيه وديجا وسيسلي وبيسارو لهم فضل تعبيد الطريق أمامنا ، اذ حصلوا على الاعتراف بهم وصارت أعمالهم تعرض في المتاجر الكبيرة . ولكن اذا كانوا هم رسامي الاحياء الكبرى ، فلم لا نصبح نحن رسامي الازقة والحارات ؟ ولم لا نعرض أعمالنا في المطاعم الصغيرة بالشوارع الجانبية ، حيث يأكل العمال؟ انني اقترح أن يساهم كل واحد منا بخمس لوحات مثلاً ، نقوم عصر كل يوم بوضعها في مكان جديد ، ونبيعها للعمال بأسعار تكون في مقدورهم . وبذلك تصبح أعمالنا تحت أنظار الجمهور بصورة دائمة ، هذا أولاً ، ونتيح افقراء باريس أن يشاهدوا الفن الجيد ويشتروا الصور الجميلة بأسعار رمزية .

– تنهد روسو ، وقال وقد اتسعت عيناه انفعالاً :

– حقاً ، هذا كلام مدهش .

ودمدم سورات قائلاً :

– ولكن رسم لوحة واحدة من لوحاتي يكلفني سنة كاملة ، فهل تظنون إني ارضى ببيعها لنجار قذر بخمسة سنتيمات ؟

– يمكنك ان تساهم بدراساتك الصغيرة .

– نعم ، ولكن ماذا لو رفضت المطاعم تعليق لوحاتنا ؟

– بل إنها ستقبل .

– لم لا ؟ إنها لا تخسر شيئاً، فضلاً عن أنها تزين المكان .

– كيف ستقوم بتسليم اللوحات ، ومن الذي سيتفق مع المطاعم؟

صاح فنسنت :

– لقد فكرت في ذلك كله : سوف نجعل من الأب تانجي مديراً لنا ، وهو الذي سيقوم بايجاد المطاعم وتعليق الصور وقبض النقود .

– حتماً . فهو الرجل المناسب .

– اصنع لنا معروفاً يا روسو ، واركض إلى محل الأب تانجي ، وابلغه انه مطاوب لعمل هام .

قال سيزان :

– احسبوني خارج هذا المشروع .

وسأله جوجان :

– ما الحكاية ؟ أأنت خائف من أن تنسخ لوحاتك البديعة إذا نظرت إليها عيون العمال ؟

– لا ليس هذا . وانما أنا عائد إلى اكس في نهاية الشهر :

وقال فنسنت :

– جرب ذلك مرة واحدة يا سيزان : فاذا لم ننجح ، فانك لن تخسر شيئاً .

– اوه . . فليكن .

قال لوتريك :

— وحينما نفرغ من المطاعم ، فعلينا أن نبدأ بالمواخير . إنني أعرف معظم صاحباتها . والزبائن هناك أيسر حالاً . وأظن أننا قد نحصل على أسعار أفضل .

أقبل الأب تانجي مهرولا ، وقد غمره الانفعال . لم يكن روسو قد أفاده إلا بفكرة ملخصة عن الموضوع . وكانت قبعته مائلة على جانب رأسه ، كما كان وجهه الصغير المكتنز مشعاً بالحماس اللاهف .

فلما سمع الخطة صاح :

— أجل ، أجل ، أعرف المكان المناسب . وهو مطعم نورفان ، وصاحبه صديق لي . ان الجدران هناك عارية ، وسوف يسره ان يزينها بالصور . فاذا فرغنا منه فانني أعرف مطعماً آخر في شارع بيين . اوه.. ان في باريس ألوفاً من المطاعم .

وتساءل جوجان :

— متى يبدأ أول معرض لنادي الشوارع الجانبية ؟

فقال فنسنت :

— لم لا نبدأ غداً ؟ فخير البر عاجله.

أخد تانجي ينط على قدم واحدة ، ثم إنه خلع قبعته ، وعاد فشدها على رأسه ثانية ، وقال :

— نعم ، نعم ، غدا ! أحضروا لي لوحاتكم في الصباح ، وسوف أعلقها في مطعم نورفان عصراً . فاذا جاء الناس لتناول عشائهم ، فسوف نهز مشاعرهم . وسوف نبيع الصور كما تباع الشموع المقدسة في عيد الفصح . ما هذا الذي تناولني إياه ؟ كأس بيرة ؟ عظيم . لنشرب أيها

السادة في صحة نادي المشاعية لفنون الشوارع الجانبية ، راجين أن يتكلل معرضه الأول بالنجاح .

- ١١ -

طرق الأب تا نجي باب فنسنت ظهر اليوم التالي . وقال :

– مررت بالجميع لابلاغهم انه اتضح لي ان مطعم نورفان هو الوحيد المستعد لعرض لوحاتنا ، ولكنه اشترط أن نتناول عشاءنا عنده.

– موافق .

– كذلك الآخرون وافقوا . ولكن لن يتيسر لنا أن نعلق اللوحات قبل الساعة الرابعة والنصف . فهل تستطيع ان تتواجد في محلي في الرابعة ؟ اننا سنذهب جميعنا معاً .

– سأكون هناك .

وعندما وصل الرسامون إلى الدكان الأزرق في شارع كلوزيل ، وجدوا الأب تانجي قائماً بتحميل اللوحات على عربة يدوية ، وكان الآخرون في الداخل ، يدخنون ويتحاورون حول الرسوم اليابانية .

وصاح الأب تانجي :

– والآن أصبحنا جاهزين .

فسأله فنسنت :

– هل أساعدك في دفع العربة أيها الأب ؟

– لا ، لا ، فأنا المدير .

وبدأ يدفع العربة إلى وسط الشارع مستهلاً المسيرة الطويلة صعدا . ومن ورائه سار الرسامون أزواجاً . ففي المقدمة جوجان ولوتريك ، اللذان كانا يتعمدان الظهور معاً لطرافة الصورة التي يقدمانها ، وكان سورات يسير مصغياً إلى روسو وهو يحدثه باهتياج عن رسالة معطرة ثانية وصلته لتوها بالبريد . وأخيراً سار فنسنت إلى جوار سيزان الذي كان عابساً ، تجري على لسانه كلمات من قبيل : الحشمة والوقار .

قال جوجان بعدما قطعوا شوطاً وهم يصعدون التل :

– انتظر يا ابانا تانجي ، ان هذه العربة ثقيلة بسبب حمولتها من التحف الفنية الخالدة ، فدعني أدفعها قليلاً .

صاح الأب ، وهو يهرول بالعربة صعدا :

– لا ، لا ، انا حامل لواء الالوان في هذه الثورة ، فلأكن انا من يسقط عندما تطلق الطلقة الاولى . كان منظراً شاذاً ، منظر اولئك الرجال بملابسهم المتنافرة الغريبة ، يسيرون وسط الشارع ، خلف عربة يدوية من النوع الشائع ، غير عابئين بنظرات المارة المتضاحكين . وانما واصلوا سيرهم وهم يضحكون ويتحدثون بمعنويات عالية .

صاح روسو :

– فنسنت ، هل اخبرتك بالرسالة التي وصلتني عصر اليوم ؟ انها معطرة كسابقتها ، وهي من السيدة نفسها .

وجاء مهرولاً الى جوار فنسنت ، يقص عليه التفاصيل التي لا تنتهي ، منفعلاً ، يحرك ذراعيه ويسهب في الرواية . وعندما فرغ اخيراً وعاد إلى مكانه مع سورات ، نادى لوتريك على فنسنت وقال :

– هل تعرف من هي سيدة روسو ؟

– كلا ، ومن أين لي ان اعرف ؟

جلجلت ضحكة لوتريك وهو يقول :

– انها جوجان ، يريد ان يلفق لروسو قصة غرام . فالمسكين لم يحظ في حياته بامرأة . وجوجان سوف يغذي اوهامه بالرسائل المعطرة طيلة شهرين ، ثم يضرب له موعداً ويرتدي ملابس امرأة ويقابله في احدى غرف مونمارتر المزودة بثقوب اختلاس النظر . وسوف نكون جميعاً حينذاك خلف الثقوب نتفرج على روسو يمارس الحب لاول مرة في حياته . سيكون مشهداً لا يقدر بثمن .

– جوجان ، انت شيطان مريد .

– اوه .. هون عليك يا فنسنت . انها نكتة ممتازة .

وصلوا بعد قليل إلى مطعم نورفان . وهو مكان متواضع محشور بين دكان خمور وبين مخزن لعلف الخيل . وكان المطعم مدهوناً من الخارج بطلاء أصفر ، أما الجدران الداخلية فدهانها أزرق فاتح . وقد وزعت فيه حوالي عشرين طاولة مربعة مغطاة بمفارش مخططة بمربعات من الأبيض والأحمر . وفي أقصى المكان قرب المطبخ ، كانت لصاحب المطعم مقصورة مرتفعة يجلس فيها .

طفق الرسامون ساعة كاملة يتجادلون حول ترتيب اللوحات فوق الحائط . وغدا الأب تانجي مرتبكاً ، وصاحب المحل غاضباً لان ساعة العشاء اقتربت وما زال المطعم في حالة من الفوضى . فقد رفض سورات ان يعلق لوحاته بتاتاً ، لان الجدران الزرقاء تقتل السماء في اللوحات . وأبى سيزان ان يسمح بتعليق طبيعته الصامتة إلى جوار ما دعاه « الملصقات التعسة» التي رسمها لوتريك . وامتعض روسو لانهم ارادوا ان يضعوا

لوحاته على الجدار الخلفي بجوار المطبخ . واصر لوتريك على تعايق احدى لوحاته الكبيرة في دورة المياه ، قائلاً :

– تلك اللحظة من النهار هي الاوفر تأملاً عند كل رجل .

اقبل الأب تانجي على فنسنت ، وقد قارب اليأس ، وقال :

– اليك . خذ هذين الفرنكين واضف اليهما ما تستطيع ، وخذ الجميع خارجاً إلى الشارع ، واذهب بهم إلى أحد المشارب . فاذا اتيحت لي ربع ساعة من الوقت ، فرغت من المهمة كلها .

وانطلت عليهم الحيلة . فلما عادوا إلى المطعم وجدوا المعرض قائماً ، وكفوا عن مجادلاتهم وجلسوا معاً على طاولة كبيرة تجاور الشارع . وقد وضع الأب تانجي على الجدران شارات كتب عليها : هذه الرسومات للبيع بأسعار متهاودة – المراجعة مع صاحب المطعم .

بلغت الساعة الخامسة والنصف ، ولكن تقديم العشاء لا يبدأ الا في السادسة . وراح الرجال يتململون كتلميذات المدارس . وكلما انفتح الباب الأمامي اتجهت العيون اليه في امل . غير ان زبائن نورفان لا يحضرون الا في تمام السادسة .

همس جوجان لسورات :

– انظر إلى فنسنت . انه متوتر الأعصاب كأنه النجمة الاولى في العرض .

وقال لوتريك :

– سأقول لك يا جوجان ما انوي ان افعله . انني انوي ان اراهنك على ثمن وجبة عشاء ، انني سأبيع لوحة من لوحاتي قبل ان تبيع انت .

– موافق .

وعاد لوتريك يقول :

– أما انت يا سيزان ، فأراهنك – بنسبة ثلاثة إلى واحد – الرهان ذاته .

احمر وجه سيزان للاهانة ، وضحك منه الجميع .

قال فنسنت :

– تذكروا .. سيكون الأب تانجي هو المسؤول عن البيع . فلا يحاول أحدكم ان يساوم المشترين .

وقال روسو :

– ما بالهم لا يأتون ؟ لقد تأخر الوقت .

كانت أعصاب الجماعة تزداد توتراً كلما اقترب عقرب الساعة من السادسة . وسرعان ما توقفت مشاحناتهم كلها ، ولم يعودوا يرفعون عيونهم عن الباب . وهيمن عليهم احساس بالاضطراب .

وتمتم سورات :

– لم اشعر هذا الشعور حين عرضت لوحاتي في صالة المستقلين ، في مواجهة نقاد باريس كلهم .

وهمس روسو :

– انظروا انظروا ، هذا رجل قد عبر الشارع ، وهو قادم في اتجاهنا . انه من زبائن المحل .

اجتاز الرجل مطعم نورفان ثم اختفى . ودقت الساعة فوق الحائط

ست دقات . وانفتح الباب مع الدقة السادسة ، ودخل عامل إلى المكان . وكانت ملابسه رثة . وقد ارتسمت خطوط التعب على كتفيه وظهره .

قال فنسنت :

ــ الآن ، سوف نرى ما يكون .

سار العامل متهالكاً نحو طاولة في الجانب الاخر من الغرفة . والقى بقبعته على مشجب ، ثم جلس واشرأب الرسامون الستة الى الأمام وهم يراقبونه . ونظر في قائمة الطعام . ثم طلب طبق اليوم ، وراح بعد لحظة يتناول حساءه بالملعقة . ولم يرفع عينيه قط عن طبقه .

قال فنسنت :

ــ انه أمر غريب .

دخل إلى المكان عاملان من عمال طرق المعادن . والقى اليهم صاحب المحل بتحية المساء ، فردا التحية متمتمين . ثم اتجها إلى اقرب الكراسي . وانهمكا على الفور في مشاحنة ضارية حول أمر قد حدث خلال النهار .

وامتلأ المطعم شيئاً فشيئاً برواده . وكان بينهم بعض النساء . وبدا كأن كل زبون يعرف طاولته المعتادة . فاذا جلسوا فأول ما يفعلونه هو قراءة الطعام ، فاذا قدم اليهم انصرفوا اليه بكليتهم ، فلم يرفعوا عيونهم عنه ، ثم يشعلون بعد الاكل غلايينهم ، ويتجاذبون الحديث ، ويفتحون جرائد المساء ويقرؤن .

وحوالي الساعة السابعة جاء النادل إلى الرسامين سائلاً :

ــ هل يرغب السادة في ان اقدم لهم عشاءهم الآن ؟

لم يجبه أحد . فسار مبتعداً . ثم دخل إلى المحل رجل وامرأة .

وبينما كان الرجل يلقي بقبعته على المشجب ، لاحظ لوحة لروسو تمثل نمراً يبرز من بين الأدغال ، فأشار يلفت نظر رفيقته اليها . وعند ذلك تحفزت عضلات جميع الرسامين الجالسين على الطاولة . أما روسو نفسه فوقف على قدميه تقريباً . ثم ان المرأة قالت كلاماً بصوت خفيض وضحكت . وجلس الاثنان وتناولا وجبتهما بشهية وقد تقارب رأساهما .

وفي الساعة الثامنة والنصف ، قام النادل بتقديم أطباق الحساء على طاولة الرسامين ، دون ان يستأذنهم . فلم يلمسها أحد منهم ، إلى ان بردت وعاد بها إلى المطبخ . واحضر اليهم طبق اليوم ، فأخذ لوتريك يرسم صوراً بشوكته فوق صلصة الطعام . ولم يقبل على الطعام الا روسو . ولكنهم جميعاً – بمن فيهم سورات – افرغوا ما في زجاجاتهم من نبيذ حامض . وغدا المطعم حاراً بسبب أبخرة الطعام ، تضاف اليها روائح الناس الذين عملوا نهارهم ونضحوا عرقاً تحت حرارة الشمس .

وراح الزبائن يدفعون حسابهم ، واحداً بعد الاخر ، ويردون تحية المساء لصاحب المحل وهم خارجون على عجل .

وقال النادل :

– انا آسف أيها السادة ، ولكن الساعة بلغت الثامنة والنصف ، موعد اغلاقنا .

انزل الأب تانجي اللوحات من فوق الجدران ، وحملها إلى

الشارع . ودفع العربة في طريقه إلى محله ، بينما الظلام يهبط رويداً رويداً .

— ١٢ —

في معارض الفن تلاشت إلى الأبد روح جوبيل القديم وفنسنت فان جوخ العم . وحلت محل تلك الروح سياسة تقوم على بيع الصور كما تباع غيرها من السلع الاخرى ، كالأحذية وسمك الرنجة مثلاً .

واصيب ثيو بضيق دائم بعد ان صارت مهمته تحقيق مزيد من الارباح عن طريق بيع اعمال فنية يهبط مستواها يوماً بعد يوم .

قال فنسنت :

— اسمع يا ثيو . لماذا لا تترك محلات جوبيل ؟

فقال ثيو منزعجاً :

— لان بقية أصحاب المحلات يماثلون أصحاب جوبيل سوءا . ثم انني مكثت في هذا العمل زمناً طويلاً . ومن الخير لي ان لا ابدل موقعي .

— بل يجب ان تبدلها . وانا مصر على ذلك . فأنت تزداد شقاء كل يوم في ذلك العمل . لا تبال بأمري ! فانني قادر اذا أردت ان اتدبر حياتي . وانت يا ثيو أفضل تجار الفن وأحبهم إلى الناس في باريس . لماذا لا تفتح محلاً لحسابك ؟

— اواه ، ياالهي ، هل لابد لنا ان نعود إلى ذلك كله من جديد ؟

— اسمع يا ثيو . ان لدي فكرة رائعة . سوف نفتح دكاناً للفنون

على نمط مشاعي . سنقدم نحن جميعاً لوحاتنا اليك ، ونعيش على قدم المساواة بأي مبلغ يأتيك . اننا نستطيع ان نسهم معاً في جمع رأسمال كاف لفتح دكان صغير للفنون في باريس ، وفي الوقت ذاته نستأجر منزلاً في الريف نعيش ونعمل فيه جميعاً . ففي الأمس القريب باع بورتييه لوحة للوتريك ، وباع الأب تانجي عدة لوحات لسيزان . وانا واثق اننا نستطيع ان نجتذب جمهور الشبان الذين يشترون الرسومات في باريس . ولن نحتاج في ذلك البيت بالريف إلى كثير من المال . فسوف نعيش معاً عيشة بسيطة ، موفرين على انفسنا أجرة العديد من المنازل في باريس .

– فنسنت . انني اعاني الآن صداعاً مريعاً ، فهلا تركتني اذهب لانام ؟

– كلا . ففي وسعك النوم يوم الأحد . اصغ الي يا ثيو ... إلى أين انت ذاهب ؟ حسناً ، اخلع ملابسك اذا احببت ، ولكنني . سأتحدث اليك على كل حال . ها انا ذا . سأجلس عند رأس سريرك . ما دمت غير سعيد في عملك بجوبيل ، وما دام جميع الرسامين الشبان في باريس راغبين ، وما دمنا قادرين معاً على جمع قليل من المال ...

في الليلة التالية حضر الأب تانجي ولوتريك إلى المنزل بصحبة فنسنت . وكان ثيو يأمل ان يقضي فنسنت فترة المساء خارج البيت . وكانت عينا الأب تانجي الصغيرتان ترقصان لفرط انفعاله ، وقال :

– سيد فان جوخ ، سيد فان جوخ . انها فكرة مدهشة ، وينبغي ان تنفذها . انني سوف اهجر دكاني واتحرك معكم إلى الريف . وهناك

اقوم بطحن الألوان وشد قماش اللوحات وتصنيع الأطارات ولا اريد أكثر من طعامي ومنامي .

وضع ثيو كتابه متنهداً .

— ومن أين لنا بالمال للبدء بهذا المشروع ؟ لنفتح الدكان ونستأجر البيت ونتولى اطعام الرجال ؟

صاح الأب تانجي :

— اليك . لقد احضرتها معي . وهي مبلغ مائتين وعشرين فرنكاً ، هي كل ما ادخرته . خذها يا سيد فان جوخ ، فانها ستساهم في تأسيس مستعمرتنا .

— لوتريك . انت رجل عاقل . فما رأيك في هذا الهذر كله ؟

— اعتقد انها فكرة جيدة ملعونة . اذ ما دامت الأمور على حالها الراهن ، فاننا لن نظل في حرب مع باريس كلها ، وانما فيما بيننا نحن الشبان ، فاذا ظهرنا في جبهة متحدة ...

— مليح جداً . انت من الأغنياء ، فهل ستدعمنا ؟

— آه .. لا .. فانها اذا كانت مستعمرة قائمة على الاعانات ، فقد فقدت مغزاها . انما سأساهم بمائتين وعشرين فرنكاً ، كما فعل الأب تانجي .

— انها فكرة مجنونة ! فلو انكم عرفتم أي شيء عن عالم الاعمال...

سارع الأب تانجي إلى ثيو ، وضغط على يده بشدة وقال :

— أتوسل اليك يا عزيزي السيد فان جوخ . لا تقل انها فكرة مجنونة . فهي فكرة مجيدة . يجب عليك .. ببساطة يجب عليك .

قال فنسنت :

ـ لا يمكنك التراجع الآن يا ثيو . لقد امسكنا بك ! وسوف نحصل على مزيد من المال ونجعلك مديرنا . سلام منك على محلات جوبيل . فقد تخلصت منها . وانت الآن مدير المستعمرة المشاعية للفنون .

غطى ثيو عينيه باحدى يديه وقال :

ـ ها انا اتصور نفسي مديراً لكم يا قطيع الحيوانات الضارية .

وعندما عاد ثيو في الليلة التالية إلى منزله وجده مكتظاً حتى باب الدار بالرسامين الذين تملكهم الانفعال . وكان جو المكان أزرق بسبب دخان التبغ الرخيص ، مشحوناً بالاصوات العالية الصاخبة . وقد جلس فنسنت ، ملك المهرجانات ، على طاولة هشة في وسط غرفة الجلوس . وكان يصيح :

ـ لا ، لا ، لن يكون هناك اجر نقدي ، ولا نقود اطلاقاً . نحن لن نرى النقود بعيوننا على مر العام . سيقوم ثيو ببيع الرسومات ، ونتلقى نحن طعامنا ومأوانا ولوازم الرسم .

قال سورات :

ـ وكيف سيكون الحال بالنسبة للرجال الذين لا تباع أعمالهم ؟ إلى متى سنظل نعولهم ؟

ـ لهم أن يظلوا معنا ما داموا راغبين في البقاء والعمل معنا .

دمدم جوجان قائلاً :

– مدهش . . سوف يجتمع على أبوابنا جميع الرسامين الهواة في اوروبا .

وصاح الأب تانجي ، وقد أبصر ثيو يدخل ويسند ظهره إلى الباب :

– ها هو السيد فان جوخ قد وصل . اهتفوا بثلاث مرحات لمديرنا.

– مرحى . . مرحى . . مرحى لثيو .

كان الجميع منفعلين إلى الحد الأقصى . فروسو يريد أن يعرف هل في وسعه الاستمرار باعطاء دروس الفيولين في المستعمرة، وانكوتان يقول انه مدين لصاحب المنزل بأجرة ثلاثة شهور ، فمن الخير أن يعثروا سريعاً على المنزل الريفي . وسيزان يصر على حفظ حق كل فرد في انفاق ماله الخاص . وفنسنت يصرخ « كلا . ان ذلك يقتل فكرة المشاعية . ان علينا أن نتشارك في كل شيء » . ولوتريك يريد أن يعرف هل يمكن ضم نساء إلى المستعمرة . وجوجان يلح على ضرورة الزام كل واحد برسم لوحتين في الشهر على الأقل .

وسورات يصيح :

– لن أجيء معكم اذن ، فأنا لا أنجز إلا لوحة كبيرة واحدة في السنة .

والأب تانجي يتساءل :

– وكيف سيكون الحال بالنسبة للمواد ؟ هل سأعطي لكل واحد الحصة ذاتها من الألوان والقماش كل اسبوع ؟

وفنسنت يصيح :

ـ كلا ، كلا بالطبع . فكل منا سيحصل على القدر الذي يحتاج إليه دون زيادة أو نقصان . كما هو الحال بالنسبة للطعام .

ـ نعم ، ولكن ماذا بالنسبة للنقود الفائضة بعد أن نبدأ في بيع لوحاتنا ؟ من الذي سيحصل على الأرباح ؟

ـ لا أحد يحصل على ارباح . فحالما نحصل على قدر صغير من المال ، سوف نفتح منزلاً في بريتاني ، ثم سنفتح منزلاً آخر في بروفانس. ثم سرعان ما تصبح لنا بيوت في جميع أنحاء البلاد ، وهكذا يتجول واحدنا من مكان إلى آخر .

ـ وماذا عن أجور السكة الحديدية ؟ هل نحصل عليها من الارباح؟

ـ حقاً . وما مقدار الاسفار التي تتاح للواحد منا ؟ ومن الذي يقرر هذه المسألة ؟

ـ ولنفرض أن عدد الرسامين الراغبين قد زاد عن طاقة استيعاب منزل معين في الموسم المطلوب ، فأي الناس سوف يستثنى من الدخول ؟ هل لديكم إجابة ؟

ـ ثيو ، ثيو . أنت مدير هذا المشروع . فأجب على تساؤلاتنا . هل في وسع كل انسان ان ينضم الينا ؟ وهل هناك حدود للعضوية ؟ وهل علينا أن نرسم وفقاً لنظام معين ؟ وهل سيكون لدينا نماذج بشرية في ذلك المنزل .

انفض الاجتماع عند الفجر ، بعد ان اقلق راحة الجيران المقيمين في الطوابق السفلى ، الذين لم يتوقفوا طيلة الليل عن الدق على سقوفهم بواسطة عصي المكانس . وأوى ثيو إلى فراشه قرابة الساعة الرابعة ،

إلا أن الأب تانجي وفنسنت وبعض أشد الشباب حماساً ، قد أحاطوا بسريره ، وجعلوا يحثونه على اشعار محلات جوبيل باعتزامه مبارحتها في أول الشهر .

واسبوعاً بعد اسبوع تزايدت حدة الاضطراب . وانقسم عالم الفنون في باريس إلى معسكرين : معسكر الرسامين المعروفين ، وهؤلاء جعلوا يتحدثون عن جنون الاخوين فان جوخ ، ومعسكر الرسامين الآخرين ، الذين راحوا يتحدثون حديثاً لا ينتهي عن التجربة الجديدة .

وكان فنسنت يتكلم ويشتغل كالمجانين طيلة الليل والنهار . فهناك آلاف التفاصيل التي يجب ترتيبها . وأولها : كيف يحصلون على المال ، وأين يستأجرون دكانهم ، وكيف يجري تقاضي الأسعار ، ومن هم الرجال المنتمون إلى المشروع ، ومن الذي سيدير المنزل في الريف . وكيف . وقد انزلق ثيو إلى هذه الدوامة الحماسية على غير ارادته غالباً. وظلت شقته في شارع ليبيك تكتظ بالزوار طيلة ليالي الاسبوع . وجاء رجال الصحافة بحثاً عن الاخبار ، كما جاء النقاد الفنيون لمناقشة الحركة الجديدة . وعاد إلى باريس رسامون من جميع أنحاء فرنسا لكي يشتركوا في هذه المنظمة .

ولئن كان ثيو هو الملك ، فان فنسنت كان رئيس الديوان الملكي . فهو يرسم خططاً تفوق الحصر ، ودساتير ، وميزانيات ، وذرائع لجمع المال ، ولوائح للقوانين والأنظمة ، وبيانات للصحف ، ونبذا موجهة إلى القارة الاوروبية لتعريفها بأغراض المستعمرة الفنية المشاعية . وقد استغرقته هذه الشواغل حتى نسي أن يمارس الرسم .

وتدفق على خزانة المنظمة ما يقرب من ثلاثة آلاف فرنك . فقد ساهم

الرسامون بآخر فرنك من مدخراتهم . وأقيم سوق مفتوح في بوليفار كليشي وتولى كل فنان الترويج للوحاته في تلك السوق . وجاءت الرسائل من اوروبا كلها متضمنة في بعض الاحيان اوراقاً نقدية متسخة وفرنكات مجعدة . وأقبل محبو الفن في باريس على الشقة ، يشهدون حماسة الحركة الجديدة ، ويضعون تبرعات مالية في الصندوق المفتوح ، قبل أن يغادروا المكان . وكان فنسنت هو أمين السر وهو أمين الصندوق .

وكان ثيو مصراً على ضرورة توفير مبلغ خمسة آلاف فرنك قبل ان يبدؤوا مشروعهم . وقد استأجر دكاناً في شارع ترونشيه ، الذي يتمتع في نظره بموقع ملائم . كما ان فنسنت اكتشف قصراً ريفياً قديماً في غابة سان جرمان انلاي ، يمكن استئجاره بمبلغ لا يذكر . وتدفقت على شقة شارع ليبيك اللوحات من الفنانين الراغبين في الالتحاق ، حتى لم يعد في الشقة أي متسع يتيح الحركة . وظل مئات ومئات من الناس يدخلون اليها ويخرجون منها . وكانوا يجادلون ، ويقاتلون ، ويشتمون ويأكلون ويشربون ، ويستخدمون أيديهم في الحديث . واذا بإشعار يصل إلى ثيو من مالك البناية ، يخطره باخلاء الشقة .

وفي نهاية الشهر كانت قطع الاثاث من طراز لويس فيليب قد غدت مزقاً .

ولم يعد فنسنت في ذلك الحين يلقي بالا حتى إلى موضع تشكيلته اللونية ، فهو منهمك في كتابة الرسائل ، ومقابلة الافراد ، وتفحص المنازل ، وبث الحماس في كل رسام جديد وكل هاو يلقاه . وهو يتكلم ويتكلم حتى يبلغ حد الارهاق . وحلت في عينيه قوة محمومة . وصار

يتناول طعامه عرضاً ،ولم يجد وقتاً للنوم تقريباً . لقد كان ماضياً في طريقه، يسير ، ويسير ، ويسير دون توقف .

وفي مطلع الربيع انتهوا من جمع الخمسة آلاف فرنك . وتقرر ان يبلغ ثيو مؤسسة جوبيل انه مستقيل اعتباراً من أول الشهر . وقد استقر عزمه على فتح الدكان في شارع برونشيه . كما دفع عربوناً صغيراً للمنزل في سان جرمان . وتحددت قائمة الاعضاء الذين ستفتتح بهم المستعمرة ، بمعرفة ثيو وفنسنت والأب تانجي وجوجان ولوتريك . واختار ثيو من بين أكوام اللوحات المكدسة في الشقة عدداً منها لعرضه الأول . ونشب بين روسو وانكوتان شجار مرير حول ايهما سيقوم بصنع الديكور الداخلي للدكان ، وأيهما يتولى الديكور الخارجي . ولم يعد ثيو يضيق ذرعاً بحرمانه من النوم ، اذ أصبح الآن متحمساً حماسة فنسنت في البداية، وراح يعمل عملاً محموماً لتنظيم كل شيء ، على أساس أن تفتتح المستعمرة في الصيف . وكثيراً ما تداول وفنسنت في أمر المنزل الثاني ، هل سيكون موقعه على ساحل الاطلنطي أو على ساحل المتوسط .

وذات ليلة من الليالي ، آوى فنسنت إلى سريره حوالي الساعة الرابعة صباحاً وقد هده التعب . فلم يوقظه ثيو ، وظل نائماً حتى الظهر ، ثم صحا منتعشاً ، وخطا داخل مرسمه ، وكانت اللوحة المعلقة على الحامل ترجع إلى أسابيع عديدة سابقة ، وقد جفت الألوان وتشققت فوق خشبة المزج ، وعلاها الغبار . وتبعثرت أنابيب الألوان في الاركان ، وارتمت الفرشايات متصلبة من اثر الطلاء القديم .

وانبعث من داخله صوت خافت يسأله :

— تمهل لحظة يافنسنت . هل أنت رسام ؟ أم منظم مشاعيات ؟

ثم حمل أكداس اللوحات المتنافرة إلى غرفة ثيو ، ووضعها فوق السرير ، ولم يستبق في المرسم إلا لوحاته . وراح يضعها — واحدة بعد واحدة — على الحامل ويتأملها وهو يقضم أظافره .

لقد أحرز تقدماً . وقد بدأت ألوانه تغدو فاتحة بالتدريج ، وتشق طريقها جاهدة نحو تألق شفيف . ولم تعد ألواناً تحاكي ألوان الآخرين ، ولا عادت تشي بأثر أصدقائه في لوحاته وأدرك لأول مرة أنه أخذ يطور لنفسه اسلوباً شخصياً مميزاً من التكنيك الفني ، وان ذلك الاسلوب لا يماثل أي شيء رآه من قبل. ولم يدر كيف واتاه ذلك الاسلوب وانعكس على لوحاته .

لقد قام بعملية اعتصار للانطباعية من خلال سليقته الخاصة ، وكان على وشك الوصول إلى اسلوب فريد في التعبير . ثم إذا به يتوقف فجأة عن الرسم .

ووضع على الحامل أحدث لوحاته . وكاد يصرخ دهشة أمام إحدى اللوحات . فلقد استطاع تقريباً، تقريباً ، أن ينفذ إلى صميم شيء ما ! وها هي لوحاته آخذة في الافصاح عن منهج محدد ، وعن هجوم جديد بالأسلحة التي صهرها خلال الشتاء الماضي .

ان الاسابيع المتوالية التي قضاها دون أن يعمل ، منحته رؤية واضحة لعمله السابق . واكتشف أنه نجح في تطوير تكنيك انطباعي من ابداعه الخاص .

نظر إلى نفسه في المرآة نظرة فاحصة . كانت لحيته بحاجة إلى تشذيب وشعر رأسه بحاجة إلى حلاقة . وكان قميصه قذراً وبنطاله يتدلى كالخرقة

المترهلة . فبادر يكوي بدلته بالمكواة ، ويرتدي قميصاً من قمصان ثيو ، ثم تناول ورقة من فئة الخمسة فرنكات من صندوق الخزنة ، وانصرف إلى الحلاق . وعندما فرغ من الحلاقة سار متأملاً إلى محلات جوبيل في بوليفار مونمارتر .

قال لثيو :

— ثيو ، هل يمكنك الخروج معي برهة قصيرة ؟

— ماذا جرى ؟

— هات قبعتك . هل في الجوار مقهى يمكن أن نجلس فيه دون أن يتطفل علينا أحد ؟

فلما جلسا في ركن قصي في آخر المقهى ، قال ثيو :

— هل تعرف يا فنسنت ان هذه هي المرة الأولى التي يتاح لي فيها ان أتحدث اليك ، خلال شهر كامل ؟

— أعرف يا ثيو . وأظن أنني تصرفت تصرف الحمقى .

— في أي شيء ؟

— قل لي بصراحة يا ثيو ، هل أنا رسام أم منظم مشاعيات ؟

— ماذا تعني ؟

— لقد شغلت شغلاً كبيراً بتنظيم هذه المستعمرة . فلم يعد لدي وقت للرسم . فما بالك حين نفتتحها ؟ أنني لن أحظى بلحظة واحدة.

— فهمت .

— ثيو ، انني أريد أن أرسم . وأنا لم أنهمك في ذلك سبع سنوات

طوالاً لأغدو في النهاية مدير منزل للرسامين الآخرين . الحقيقة يا ثيو أنني متعطش لفرشاياتي ، ومتعطش إلى الحد الذي أريد معه أن أهرب من باريس في أول قطار يغادرها .

– ولكن يا فنسنت ، بعد كل ما . .

– قلت لك انني كنت أحمق . هل يمكنك أن تتحمل اعترافاً سأفضي به اليك ؟

– وما هو ؟

– إنني معتل القلب من رؤيتي الرسامين الآخرين ، ومتعب من كلامهم ونظرياتهم ومشاجراتهم التي لا تنتهي . اوه ، لا داعي لهذا الابتسام ، فانني أسهمت بنصيب في تلك المشاجرات وهذه هي المسألة حصراً . أتدري ماذا كان موف يقول ؟ : « ان الفنان اما ان يرسم ، أو يتكلم عن الرسم ، وهو لا يستطيع أن يقوم بالأمرين معاً » . حسناً يا ثيو. وأنت . . هل كنت تعولني طوال سبع سنوات لمجرد أن تسمعني أبدع النظريات ؟

– لقد انجزت قسطاً طيباً من العمل في سبيل تأسيس المستعمرة يا فنسنت .

– نعم . أما وقد اوشكنا ان ننتقل إلى هناك ، فقد أدركت انني لا أريد ان اذهب . فليس من المحتمل اذا أقمت هناك ان اقوم بأي عمل . لا أدري يا ثيو هل استطيع ان أفهمك قصدي .. نعم ، استطيع طبعاً . عندما كنت وحيداً في البرابانت ولاهاي كنت أرى نفسي انساناً ذا أهمية آنذاك كنت رجلاً متوحداً احارب العالم بأسره .

وكنت في نظر نفسي فناناً ، بل كنت الفنان الوحيد على ظهر الأرض . فلكل شيء ارسمه قيمة كبيرة . وكنت اعلم انني املك قدرات عظيمة ، وان العالم سيقول في نهاية المطاف انه رسام رائع .

– والآن ؟

– ما أنا الا واحد بين كثيرين ، واسفاه . هناك مئات من الرسامين حولي . فلا انظر إلى نفسي من أي جانب الا تراءت لي عيوني مضخمة. تخيل جميع هذه اللوحات التعسة في شقتنا ، التي ارسلها أصحابها الرسامون طلباً للالتحاق بالمستعمرة . هؤلاء جميعاً يعتقدون انهم سيصبحون رسامين عظاماً . حسناً ، لعلني مثلهم تماماً . كيف لي ان أعرف ؟ وما الذي املكه لإسناد شجاعتي المزعزعة ؟ انني لم اكن أدري قبل قدومي إلى باريس ان في العالم حمقى لا أمل فيهم ، يغشون انفسهم طيلة العمر . أما الآن فقد رأيتهم بأم عيني . وهذا ما يؤلمني .

– لا شأن لك أنت بذلك .

– لعلك على صواب . ولكنني لن استطيع ابداً ان استأصل من قلبي جرثومة الشك الصغيرة . أما حين اخلو إلى نفسي في الريف ، فانني أنسى ان هناك آلافاً من اللوحات التي ترسم كل يوم . واتخيل ان لوحتي هي اللوحة الوحيدة ، وانها هدية جميلة اقدمها إلى العالم . بل انني لا انفك عن الرسم . ولو تبين لي ان عملي على غاية من الشناعة . ولكن هذا .. هذا الوهم الذي يعيش فيه الفنان ، يعينه على أمره . هل تفهم ما اعنيه ؟

– نعم .

- اضف إلى ذلك انني لست من رسامي المدن . واست انتمي إلى هذا المكان . انني رسام فلاح . وأنا راغب في العودة إلى حقولي ، واريد ان أعثر على شمس حامية ، إلى درجة تحرق معها كل شيء في كياني ، الا شهوة الرسم .

- اذن .. فأنت تريد ان .. تترك .. باريس ؟

- نعم . هذا ما يجب ان افعله

- وماذا بشأن المستعمرة ؟

- سوف انسحب . ولكنك يجب ان تواصل السير .

هز ثيو رأسه وقال :

- لا ، لن استمر دونك .

- لم لا ؟

- لا أعرف . فانا لم اكن لأفعل ما فعلته الا من أجلك ، ولانك أنت الذي اراده .

خيم عليهما الصمت بضع لحظات .

- أنت لم تقدم استقالتك بعد يا ثيو ؟

- كلا . ولكنني كنت سأقدمها في أول الشهر .

- اظن اننا نستطيع اعادة النقود التي جمعناها إلى أصحابها ؟

- نعم . ومتى تنوي ان تغادر ؟

- ليس قبل ان اتوصل إلى تشكيلتي اللونية الصافية .

- فهمت .

ـ وبعد ذلك سوف ارحل ، ربما إلى الجنوب . ولا أدري إلى أين ، فالذي يعنيني هو ان اخلوإلى نفسي ، فارسم وارسم وارسم ، منعزلاً بنفسي عن كل شيء .

القى بذراعه على كتف ثيو ، في مودة جامحة ، وقال :

ـ قل لي يا ثيو انك لا تحتقرني لانني تخليت على هذا النحو عن كل شيء ، بعد ان ورطتك فيه إلى هذا الحد .

ـ أنا احتقرك ؟ !

ابتسم ثيو بحزن لا نهائي ، ومد يده فربت بها على اليد الملقاة على كتفه قائلاً :

ـ كلا ، كلا ، ابداً بطبيعة الحال . انني افهمك ، واعتقد انك على صواب . حسناً أيها الغلام العجوز .. يحسن بك ان تنتهي من شرابك ، فانا أريد ان اعود ادراجي إلى جوبيل .

ـ ١٣ ـ

مضى فنسنت يعمل شهراً اخر ، ولكن على الرغم من ان خلطة ألوانه أصبحت الآن صافية فاتحة كألوان رفاقه ، فانه لم يتوصل وفق تقديره إلى شكل للتعبير يبعث على الرضا . وظن في بادىء الأمر ان السبب يعود إلى فجاجة رسومه ، فحاول ان يعمل بأناة ، وبأعصاب باردة . غير ان عملية طلاء اللوحة بالالوان كانت عذاباً له ، وكان النظر إلى اللوحة فيما بعد عذاباً أشد . وحاول ان يخفي عمل فرشاته في سطوح مستوية ، وحاول ان يجعل اللون في الفرشاة خفيفاً ولا

يشحنها بلطخات ثقيلة منه ، فلم يشعر بجدوى ذلك كله . وأحس مرة ثانية وثالثة انه بسبيله إلى تلمس واسطة للتعبير تتعدى كونها فريدة إلى كونها كفيلة بتمكينه من قول كل شيء على النحو الذي يريده . ولكنه مع ذلك لا يستطيع ان يحكم قبضته على تلك الواسطة .

وذات مساء تمتم وهو يرسم في الشقة :

– لقد اوشكت ان اقبض عليها هذه المرة . اوشكت ولم أدركها تماماً . آه لو أعرف ما الذي يحول بيني وبينها .

قال ثيو وهو يأخذ اللوحة من أخيه :

– اعتقد انني استطيع ان أخبرك عنه .

– حقاً ؟ ما هو ؟

– انه باريس .

– باريس ؟

– أجل . فقد كانت ساحة تدريبك . وأنت هنا تظل تلميذ مدرسة مهما طال مكوثك . هل تتذكر مدرستنا في هولندا يا فنسنت ؟ لقد تعلمنا فيها كيف يقوم الاخرون بالأعمال،وكيف ينبغي ان يقوموا بها ، ولكننا لم نقم بأنفسنا بفعل شيء .

– هل تعني انني لا اتجاوب مع الموضوعات المتوفرة هنا ؟

– لا ، وانما اعني انك لا تستطيع ان تنفصل انفصالاً قاطعاً عن معلميك . سوف اشعر بوحشة موجعة حين تغادر يا فنسنت ، ولكنني أرى انك يجب ان تذهب . لابد ان هناك في هذا العالم بقعة

تستطيع ان تستخلصها لنفسك وحدك . أين هي ؟ لا أدري ، فأنت من سوف يهتدي اليها . وكل ما ادريه انك يجب ان تفارق دار الدراسة، قبل ان تتمكن من بلوغ النضج .

– هل تعرف أيها الغلام العجوز ما هي البلاد التي فكرت فيها طويلاً خلال الفترة الاخيرة ؟

– لا .

– افريقيا .

– افريقيا ! احقاً تعني ؟

– أجل . كنت افكر طيلة هذا الشتاء البارد اللعين بالشمس الحارقة . ان ديلاكروا توصل إلى الوانه في افريقيا ، وربما استطعت بدوري ان اجد نفسي هناك .

قال ثيو متفكراً :

– افريقيا نائية جداً يا فنسنت .

– ثيو ، ان مرادي هو الشمس . انني اريدها بأقصى حرارتها المخيفة وكامل طاقتها . لقد ظللت طيلة الشتاء أشعر انها تجذبني جنوباً كأنها مغناطيس هائل . انني لم أكن أدري قبل مبارحة هولندا ان في العالم شمساً . أما الآن فانني أدري انه لا رسم بدون شمس . ولعل الشيء الكفيل بايصالي إلى النضج هو الشمس الحارة . لقد تجمدت اوصالي حتى العظام من الشتاء الباريسي ، ويخيل الي ان شطراً من ذلك البرد قد تسلل إلى تشكيلة الواني وإلى فرشاياتي . انني من الرجال

الذين لا يعرفون انصاف الحلول ، فاذا ظفرت بشمس افريقيا ، وراحت تطرد البرد من كياني وتشعل النار في خلطة الواني ...

قال ثيو :

– هممم ... يجب ان نفكر في هذا ، فربما كنت على صواب .

اقام بول سيزان حفلة وداع لجميع أصدقائه . وقد اشترى بواسطة والده قطعة أرض على التل مشرفة على ما حوذا من ارجاء اكس ، وكان مغادراً إلى هناك ليبني لنفسه مرسماً .

قال :

– اخرج من باريس يا فنسنت . وتعال إلى بروفانس . أما أنا فأحب اكس لانها منطقتي ، وأما أنت ففي وسعك ان تختار منطقة اخرى في الجوار ، علماً بان الشمس هناك أكثر حرارة وصفاء من أي مكان آخر في العالم . سوف تجد في بروفانس من الضوء. واللون النقي ما لم تر من قبل . انني سأمكث هناك حتى نهاية حياتي

قال جوجان :

– سأكون النازح الثاني عن باريس ، واعود إلى المناطق الاستوائية . وأنت يا سيزان ، اذا كنت تظن ان في بروفانس شمساً حقيقية ، فسوف تغير رأيك اذا جئت إلى جزر الماركيز . هناك تجد ضياء الشمس وسطوع اللون البدائيين كالبشر الذين يعيشون فيها .

وقال سورات :

– الحق انكم أيها الرجال جديرون بالانضمام إلى الاقوام الذين يعبدون الشمس .

قال فنسنت :

ـ أما أنا ، فاعتقد انني سأذهب إلى افريقيا .

تمتم لوتريك :

ـ مليح ، مليح . ها هو ديلاكروا صغير آخر بيننا .

وسأله جوجان :

ـ هل تعني ذلك يا فنسنت ؟

ـ نعم . واظن انني لن اذهب إلى هناك فوراً ، بل اتوقف زمناً في احدى مناطق بروفانس ، واعتاد على الشمس .

وقال سورات :

ـ أنت لا تستطيع ان تتوقف في مرسيليا ، فتلك المدينة تخص مونتيسيللي .

قال فنسنت :

ـ لا استطيع الذهاب إلى اكس لانها تخص سيزان ، ولا إلى انتيب اذ تولاها مونيه ، ولا إلى مرسيليا فهي مقدسة لدى فادا بلا ريب . فهل يقترح علي احد مكاناً اذهب اليه ؟

صاح لوتريك :

ـ انتظر ! أنا أعرف المكان المطلوب . هل خطرت لك آرل يوماً ؟

ـ آرل ؟ انها مستوطنة رومانية قديمة ، اليس كذلك ؟

ـ بلى . انها واقعة على نهر الرون ، وتبعد عن مرسيليا مسيرة

ساعتين . واذكر انني زرتها مرة . ان الالوان المتوهجة في الريف المحيط بها تجعل من المناظر الطبيعية الافريقية التي رسمها ديلاكروا مناظر مصابة بفقر الدم .

— هل تعني ان فيها شمساً ساطعة ؟

— شمس فقط ؟ انها شمس كفيلة بدفعك للجنون . ثم تعال هناك وتفرج على الآرليات أروع النساء في العالم . انهن مازلن يحتفظن بالقسمات الرقيقة الأصيلة الموروثة عن اسلافهن الاغريق ، فضلاً عن القامات الفارعة المتينة التي امتاز بها الغزاة الرومان . ومن الغريب حقاً بعد هذا ، ان ذن نكهة شرقية واضحة ، واحسب ان ذلك ناجم عن الفتح الاسلامي في القرن الثامن . ان فينوس الأصلية يا فنسنت وجدت أولاً في آرل ، أي ان النموذج الذي نقلت عنه كان امرأة آرلية .

فقال فنسنت :

— يبدو انهن فاتنات .

— هن كذلك . ثم هناك شيء آخر يستحق المشاهدة وهو المسترال.

— وما هو المسترال ؟

فأجاب لوتريك بابتسامة ملتوية :

— ستعرفه عندما تذهب إلى هناك .

— وكيف حال المعيشة ؟ اهي رخيصة ؟

— ليس هناك شيء تنفق مالك عليه غير الطعام والمأوى ، وهو

لا يكلف كثيراً . لم لا تذهب إلى هناك وتجرب المنطقة ، مادمت متلهفاً لمغادرة باريس ؟

تمتم فنسنت قائلاً لنفسه :

— آرل . آرل والآرليات . أشتهي أن ارسم واحدة منهن .

ان باريس قد اجهدت فنسنت . ففيها دأب على شرب كميات كبيرة من كؤوس الابسنث ، وتدخين غلايين عديدة من التبغ ، والارتباط أكثر مما ينبغي بالنشاطات الخارجية . حتى غص حلقه بهذه الحياة ، وأحس برغبة هائلة في انتزاع نفسه والذهاب إلى مكان يوفر له الهدوء ، ويتيح له الفرصة لتفريغ طاقته العصبية الجارفة في عمله الفني . ان الشمس الحامية هي ما يعوزه لكي يؤتي ثماره . وانه ليشعر في قرارة نفسه ان نقطة الذروة في حياته ، وكمال الطاقة المبدعة التي جاهد من أجل بلوغها ثماني سنوات طوالا ، لم تعد بعيدة المنال كثيراً . وكان يعرف ان جميع مارسمه حتى ذلك الحين ، ليس بذي قيمة . فلعل ثمة مسافة قصيرة بقيت ما بينه وبين ابداع تلك اللوحات القليلة التي ستمنح حياته مغزاها ومبررها .

لقد قال مونتيسيللي ذات مرة « علينا ان ننكب على العمل الشاق عشر سنوات ، لكي نتمكن في النهاية من رسم لوحتين أو ثلاث لوحات متقنة » .

ان فنسنت قد حظي في باريس بالامان والصداقة والحب . كما طابت اقامته دائماً بصحبة ثيو . فهذا الشقيق لم يسلمه إلى الجوع ، ولم يكلفه ان يطلب لوازم الرسم مرتين ، ولم ينكر عليه أي شيء هو في وسعه ، ولاسيما التعاطف المطلق .

وكان فنسنت يدري ان متاعبه سوف تبدأ منذ لحظة مبارحته باريس. فهو لا يستطيع بدون ثيو تدبير أمور معاشه في نطاق راتبه. ولسوف يضطر إلى قضاء نصف وقته بلا طعام، وإلى الاقامة في مقاهٍ صغيرة تعسة، وإلى تمزيق نفسه لأنه سيعجز أحياناً عن شراء الألوان، وسوف يجد الكلمات محتبسه في حلقه أحياناً، لأنه لايجد فيمن حوله روحاً ودودة يفضي اليها بذات نفسه.

قال تولوز – لوتريك في اليوم التالي:

– سوف تحب آرل، فهي هادئة، ولن يزعجك فيها أحد. وطقسها حار جاف، وألوانها بديعة، وهي المكان الوحيد في اوروبا الذي تستطيع فيه ان تجد الصفاء الياباني الكامل. إنها فردوس الفنان، ولو انني غير مشدود إلى باريس على هذا النحو، لذهبت بدوري اليها.

وفي المساء ذاته، ذهب ثيو وفنسنت إلى حفل موسيقي عزفت فيه كونسرتات لفاجنر. وعادا إلى المنزل مبكرين، حيث جلسا ساعة يستعيدان في هدوء ذكريات طفولتهما في زندرت. وفي الصباح التالي جهز فنسنت القهوة لثيو، فلما خرج هذا قاصداً عمله في محلات جوبيل، قام فنسنت بحملة نظافة لم تعرفها الشقة الصغيرة قبل ذلك اليوم. ثم عمد إلى الجدران فعلق عليها رسماً يمثل سمك القريدس البحري الأحمر، وصورة رسمها تمثل الأب تانجي بقبعته المستديرة من القش، ورسماً يمثل المولان دولاجاليت، ورسماً يمثل ظهر امرأة عارية، ودراسة تمثل الشانزيليزيه.

وعاد ثيو إلى البيت في ذلك المساء ، فوجد على الطاولة بغرفة الجلوس مذكرة تقول :

عزيزي ثيو :

ذهبت إلى آرل . وسأكتب لك فور وصولي هناك .

وضعت بعضاً من رسوماتي على الجدار حتى لا تنساني .

أشد على يدك مصافحاً

فنسنت

* * *

الكتاب السادس

آرل

– ١ –

اصلى شعاع الشمس الآرلية فنسنت بين عينيه ، فشقه وفتحه على مصراعيه . وشمس آرل عبارة عن كرة دوارة سائلة تتألف من نار صفراء ليمونية ، وتمضي كالقذيفة عبر سماء قاسية زرقاء ، فتملأ الجو بضياء يعشي العيون . لقد تحالفت الحرارة المفزعة والصفاء الحاد ، ليشكلا أمام فنسنت عالماً جديداً غير مألوف .

هبط من إحدى عربات الدرجة الثالثة في وقت مبكر من الصباح ، ونزل في الشارع المتعرج الموصل من المحطة إلى ساحة لامارتين ، وهو سوق تحده من أحد جانبيه ضفة نهر الرون . ومن الجانب الآخر عددمن المقاهي والفنادق الحقيرة . أما آرل نفسها ، فكانت إلى الامام مباشرة ، ملتصقة بجانب التل ، غافية تحت الشمس المدارية اللاهبة .

ولم يكن فنسنت مبالياً بالمنزل الذي سيحل فيه . فلم يكد يمر بالساحة ويبصر أول فندق ، واسمه فندق المحطة ، حتى دخل اليه واستأجر حجرة من حجراته . ووجد فيها سريراً نحاسياً مزعجاً ، وجرة مشقوقة في حوض ماء ، وكرسياً غريب الشكل . ثم احضر صاحب الفندق طاولة

بلا دهان . ولم يكن في الحجرة متسع لوضع مسند الرسم . على ان فنسنت كان ينوي ان يرسم في الخارج طيلة النهار .

ألقى بحقيبته فوق السرير . وانطلق خارجاً ليلقي نظرة على البلدة . وكان هناك طريقان يربطان بين ساحة لامارتين وقلب آرل . اولهما طريق دائري ناحية اليسار ، يستخدم لمرور العربات ، وهو يدور مع حافة البلدة ، ثم ينعطف تدريجياً نحو قمة التل ، ويمر في طريقه بالساحة الرومانية القديمة والمدرج الروماني . أما الطريق الآخر الأقصر ، وهو الذي سلكه فنسنت ، فانه يقود إلى متاهة من الشوارع الضيقة المرصوفة بالحجارة . وقد مضى فنسنت في صعود طويل حتى وصل إلى ساحة دولاميري المشوية من حرارة الشمس . ومر في أثناء صعوده ببعض الابهاء الحجرية الرطبة وبعض الاعمدة ذات الرؤوس الرباعية التي بدت كأنها هبطت لتوها من الأيام الرومانية الأولى ، دون أن تمسها يد . وكانت الأزقة مبنية على نحو ضيق ، يساعد على تجنب الشمس المجنونة ، وبلغ من ضيق ابعادها ان فنسنت كان في وسعه وهو سائر أن يمد يديه فيلمس بأصابعه صفي المنازل عن يمين ويسار . كذلك روعي في البناء تجنب رياح المسترال المروعة ، بأن أقيمت الشوارع على جانب التل ، ملتوية إلى درجة تبعث على الحيرة التي لا فكاك منها . فهي شوارع لا تستقيم مسافة تزيد على عشر ياردات . وكانت النفايات ملقاة في الشوارع ، والأطفال القذرون يقفون بأبواب منازلهم . وهناك طابع من الشؤم والنحس يخيم على كل شيء .

جاوز فنسنت ساحة دولاميري ، ثم سار في زقاق قصير نحو طريق السوق الرئيسي الواقع خلف البلدة ، وتمشى خلال المتنزه الصغير ، ثم

هبط التل متعثراً حتى بلغ ساحة المصارعة الرومانيةوراح يقفز من مدرج إلى مدرج كما يقفز الماعز ، حتى وصل أخيراً إلى القمة . وهناك جلس على مصطبة حجرية ، ودلى قدميه من فوق ارتفاع يبلغ مئات الاقدام ، وأشعل غليونه ، وراح يعاين الاملاك التي نصب نفسه سيداً ومالكاً لها.

كان مشهد البلدة من تحته ينساب مباشرة إلى الرون ، كأنه شلال من الألوان المتلألئة . وقد التصقت سطوح المنازل بعضها ببعض ، في تكوين متشابك . وكلها مسقوفة بقرميد كان فيما مضى أحمر طينياً ، ولكنه تحول بفعل الشمس المحرقة التي لا تخف وطأتها إلى خليط محير من كل لون ، بدءاً من افتح درجات الأصفر الليموني والأحمر الصدفي اللطيف ، حتى الأزرق اللافندري القارص ، والبني الترابي الطفلي .

وفي الأسفل كان نهر الرون المتدفق على عجل ، يشكل انحناءاً حاداً في قاع التل الذي تقع آرل فوقه ، ثم ينطلق هابطاً إلى البحر المتوسط . وكانت ضفتا النهر محاطتين برصيفين حجريين ، وبلدة ترنكوتاي أعلى الضفة الأخرى تلمع كأنها مرسومة بالألوان . وخلف ظهر فنسنت كانت تقع الجبال ، وهي عبارة عن سلسلة ضخمة تبرز شامخة وسط الضياء الأبيض الساطع . وأمامه يترامى مشهد بانورامي للحقول المحروثة ، والبساتين المزهرة ، وقمة رابية مونماجور المتعالية ، والوديان الخصيبة المحروثة بآلاف الاخاديد العميقة ، وكل هذه المشاهد تستحيل إلى نقطة نائية في اللانهاية .

غير ان الوان المنطقة الريفية هي التي حفزت فنسنت على ان يفرك عينيه المسحورتين . كانت زرقة السماء شديدة الحدة . فهي زرقة يبلغ من قسوتها وعنادها وصفائها انها توشك ان لا تكون زرقة على الاطلاق ،

وإنما شيء لا لون له على الاطلاق . اما خضرة الحقول الممتدة أسفل منه ، فهي الخلاصة المطلقة للون الأخضر وقد مسها الجنون . وأما اللون الأصفر الليموني المشتعل الذي هو لون الشمس ، واللون الأحمر الدموي الذي هو لون الأرض ، واللون الأبيض الصارخ الذي هو لون السحابة المنفردة فوق قمة مونماجور ، واللون الوردي الذي يولد في البساتين دون انقطاع . . . فكلها ألوان تستعصي على التصديق . وانه لحائر كيف له أن يرسمها ، وكيف له أن يحمل أي انسان على الايمان بوجودها ، هذا اذا استطاع أصلاً أن يمثل هذه الألوان في خلطة ألوانه . الليموني ، الأزرق ، الأخضر ، الأحمر ، الوردي ، إنها الطبيعة كلها ، وقد شاعت في خمس درجات من الظلال المعبرة التي تورث العذاب .

سلك فنسنت طريق العربات عائداً إلى ساحة لامارتين . فحزم المسند والألوان والقماش ، وانطلق في محاذاة الرون . ورأى أشجار اللوز ، التي بدأت تزهر في كل مكان . وأوجع عينهوهج الشمس الأبيض المنعكس على صفحة الماء . وكان قد ترك قبعته في الفندق ، . فنفذت الشمس إلى حمرة شعر رأسه تشعلها ، وتمتص منه برودة باريس التي عششت فيه، وكذلك التعب ، والاحباط ، والتخمة التي أثقلت روحه في حياة المدينة .

شاهد على مسافة كيلو متر من مسيرته على النهر جسراً صغيراً، تسير فوقه عربة تحت سماء زرقاء . وكان النهر أزرق كأنه البئر . والضفتان برتقاليتين يتخللهما العشب الأخضر . وثمة مجموعة من النسوة الغسالات يرتدين قفاطين سابغة وقبعات كثيرة الالوان ، وينشرن في ظلال شجرة منفردة ما حملن من ملابس قذرة .

ركز فنسنت المسند ، واستنشق نفساً طويلاً ، وأغلق عينيه . فما من رجل يستطيع أن يستوعب هذه الالوان وهو مفتوح العينين . واذ ذاك انحسر عن ذهنه كل ما قاله سورات عن التنقيط العلمي ، وماالقاه جوجان من خطب حول الخلفيات البدائية التي يفضلها لرسوماته ، ومانمقه سيزان من كلام عن اظهار ماتحت السطوح الصلبة ، ومارسمه لوتريك من خطوط لونيه وخطوط تعبر عن الكراهية الحاقدة .

لم يكن في المكان الا فنسنت .

ولم يعد إلى الفندق إلا في ساعة العشاء . فجلس على طاولة صغيرة في المشرب ، وطلب كأساً من الابسنث . وكان يحس بمبلغ من الانفعال والامتلاء لم يدعا الطعام يخطر بباله . ولاحظه رجل يجلس على طاولة مجاورة ، ورأى الألوان تلطخ فنسنت في يديه ووجهه وملابسه ، فانخرط في حديث معه .

قال :

– أنا صحفي باريسي ، جئت إلى هنا منذ ثلاثة شهور لجمع المواد لكتاب لي عن اللغة البروفنسالية .

وقال فنسنت :

– أما أنا فحضرت من باريس هذا الصباح .

– لاحظت هذا . أتنوي اطالة الاقامة ؟

– نعم ، أظن ذلك .

– حسناً . اسمع نصيحتي أو لا تسمعها . ان آرل هي موطن أشد حالات الجنون العنيف في الكون كله .

– ما الذي يحملك على هذا الرأي ؟

– هذا ليس رأياً ، ولكنه معرفة . لقد راقبت هؤلاء الناس مدة ثلاثة أشهر ، وأقول عن خبرة أنهم مشروخون . وحسبك أن تنظر إلى عيونهم . ولعمري ليس في هذه البرية التاراسكونية كلها شخص واحد يمكن أن تعده عاقلاً أو طبيعياً !

– انه قول غريب .

– ستوافقني الرأي خلال اسبوع واحد . ان الريف المحيط بآرل هو القطاع الأشد تمزقاً وبؤساً في مقاطعة بروفانس . وانت شهدت اليوم تلك الشمس في الخارج ، فهل يغيب عن بالك الاثر الذي تحدثه في هذا الشعب ، وهو يتعرض يوماً بعد يوم لوهجها الذي يعمي العيون ؟ أقول لك انها لا تبقي في رؤوسهم أدمغة الا احرقتها . ثم هناك المسترال. وأنت لم تجرب المسترال بعد ، فانتظر يا عزيز حتى تجربها . إنها تجلد هذه البلدة طوال مائتي يوم من العام ، بسوط مجنون . فاذا انت حاولت آن تسير في الشوارع قذفت بك إلى جدران البنايات . واذا خرجت إلى الحقول ، طرحتك ارضاً والقت بك في الاقذار . انها تلوي كل ما في داخلك ، حتى يخيل اليك انك لن تستطيع تحملها دقيقة أخرى . لقد شهدت تلك الريح الجهنمية تحطم النوافذ ، وتقتلع الأشجار ، وتطرح السياجات ، وتسوط البشر والحيوانات في الحقول ، حتى تخيلت انها ستمزقهم ارباً . انني لم أمكث هنا إلا برهة ثلاثة أشهر ، ومع ذلك فقد غدوت بدوري معتوهاً بعض الشيء ، وسوف أغادر غداً !

– ألا ترى حقاً انك تبالغ ؟ لقد صادفت بعض الآرليين اليوم فلم أجد بأساً فيهم .

– هذا صحيح لأنك لم تعرف إلا القليل . لكن انتظر حتى تتعرف اليهم جيداً . اسمع . هل تعرف ما هي وجهة نظري الخاصة فيهم ،

– كلا . ماهي ؟ هل تشرب معي قدحاً من الابسنث ؟

– شكراً . ان رأيي الخاص هوان ارل هي بلدة الصرع . انها تجلد نفسها حتى تبلغ نقطة حرجة من التوتر العصبي ، يخيل لك معها ان البلدة سوف تنفجر في نوبة حادة ويتصاعد من فمها الزبد .

– فهل ذلك ما يحدث فعلاً ؟

– كلا ، وهذا هو الغريب في الموضوع . ان هذه البلاد تبلغ دائماً حافة الذروة ولكنها لا تصل إليها . لقد ظللت أتوقع ، طيلة ثلاثة شهور ، أن تحدث فيها ثورة ، أو ينفجر بركان في ساحة دولاميري . وخيل لي أكثر من عشر مرات ان السكان سيصابون بالجنون فجأة ، ويقطع بعضهم أعناق بعض ! إلا أنهم ما يكادون يبلغون النقطة التي يغدو الانفجار فيها وشيكاً ، حتى تهدأ الريح وتموت يومين من الزمن ، وتشرق الشمس من وراء الغيوم .

ضحك فنسنت وقال :

– طيب ، ما دامت آرل لم تصل الى الذروة ، فمن الكثير ان تقول انها مصابة بالصرع ، اليس كذلك ؟

فأجاب الصحفي :

– بلى . ولكنني سأطلق عليها وصف المستصرعة .

– وما معنى ذلك الوصف بحق الشيطان ؟

– انني اكتب مقالة لصحيفتي في باريس عن هذا الموضوع . وقد اوحت لي بفكرتها هذه الدراسة الالمانية .

سحب من جيبه مجلة ، ونشرها على الطاولة أمام فنسنت .

« قام هؤلاء الأطباء بدراسة شملت حالات بضع مئات من المرضى الذين يعانون من امراض عصبية تشابه الصرع . الا انها غير مصحوبة بنوباته المعهودة . ويتبين للقارىء من الاطلاع على الرسوم البيانية المرفقة ، صورة المنحني الصاعد الذي يمثل العصبية والاضطراب ، أي ما يدعوه الأطباء التوتر المتبخر . لقد لوحظ في جميع هذه الحالات قاطبة ، ان أصحابها مروا بحمى متزايدة حتى بلغوا عمراً يتراوح ما بين الخامسة والثلاثين إلى الثامنة والثلاثين . وانهم أصيبوا في السادسة والثلاثين ، فجأة ، بنوبة من الصرع العنيف . وتتلو ذلك عادة بضع نوبات أخرى تقارب ستاً ، ثم ينتهي أمرهم خلال عام أو عامين . »

قال فنسنت :

– انها سن مبكرة جداً لموت الانسان . فالمرء لا يبدأ في امتلاك ناصية نفسه الا في تلك السن .

اعاد الصحفي المجلة إلى جيبه وقال :

– هل تنوي المكوث في هذا الفندق برهة من الوقت ؟ لقد كدت انتهي من كتابة مقالتي ، وسوف ابعث اليك بنسخة منها حالما تنشر . ان وجهة نظري هي التالية : ان آرل بلدة مستصرعة ، مرت عليها قرون ونبضها يتصاعد ، وهي تقترب من نوبتها الاولى التي لابد ان تحدث في وقت قريب . وعند ذلك سنشهد كارثة مرعبة ، من قتل وحرق واغتصاب وتخريب شامل ! فهذه البلاد يستحيل ان تظل على

هذه الحالة المعذبة العنيفة . ولابد لشيء أن يحدث ، وهو سيحدث حتماً . انني مغادر قبل ان يبدأ الناس يزبدون من افواهم ! وأنا انصحك ان ترحل بدورك .

قال فنسنت :

– شكراً لك . ولكنني أحب اقامي هنا . والآن ، اظن انني سأذهب الى غرفتي . هل سأراك في الصباح ؟ لا ؟ اذن مع السلامة وحظاً سعيداً . ولا تنس ان ترسل لي نسخة من المقاله .

– ٢ –

في كل يوم كان فنسنت يصحو قبل الفجر ، فيرتدي ملابسه ، ويسير على ضفة النهر بضعة كيلومترات ، أو يمضي داخل الريف ، حتى يجد البقعة التي تستحوذ على اهتمامه . ويعود كل ليلة بلوحة ناجزة ، لا مجال لاضافة خط واحد اليها . ولا يكاد يفرغ من تناول عشائه حتى يأوي إلى النوم .

لقد غدا آلة رسم عمياء ، تنتج لوحة مرسومة في اثر لوحة ، دون ان يدري ما الذي يفعله . وكانت بساتين الريف في ذلك الوقت من العام متفتحة البراعم ، فانتابه شوق وحشي إلى رسمها جميعاً . وهو لم يعد يفكر فيما يرسم ، وانما يرسم وكفى . فلقد اندفعت سنواته الثماني الطوال التي سلخها في العمل الشاق ، تعبر عن نفسها اخيراً بقدرة ظافرة . وكان يحدث احياناً ، ان يبدأ في رسم لوحة من اللوحات مع اضواء الفجر الاولى ، فلا يحل الظهر الا واللوحة تامة . وعند

ذلك يرجع إلى البلدة ، ليحتسي فنجاناً من القهوة ، ثم يعود ادراجه وقد حمل معه قماشة جديدة للوحة جديدة .

ولم يكن يدري اجاءت رسومه جيدة أم رديئة . وما كان هذا الأمر يعنيه ، فلقد كان ثملاً من معاقرة الالوان .

وهو لم يكن يتكلم مع انسان ، ولم يتكلم أحد معه . وانما راح يستخدم ما تبقى من طاقاته بعد الرسم ، لمكافحة المسترال . وانه ليضطر ان يعمل ثلاثة أيام في الأسبوع وقد دق اوتاداً في الأرض لتثبيت مسند اللوحات كي لا تجرفه الريح ومع ذلك فان المسند يتأرجح الى الأمام والخلف ، كأنه ورقة في مهب الريح . فاذا خيم الليل شعر كمن تلقى ضربة طرحته فاقد القوى .

ولم يكن يرتدي قبعة أبداً . ولذا احرقت الشمس الضارية اعلى الشعر في رأسه شيئاً فشيئاً . وصار حينما يستلقي إلى سريره النحاسي في الفندق الصغير يشعر كأن رأسه مغلف بكرة من النار لقد ضربته الشمس حتى اعمته ، فهو لا يفرق بين خضرة الحقول وبين زرقة السماء ، ولكنه ينظر إلى لوحته حين يعود إلى فندقه ، فيراها نسخة عما في الطبيعة من توهج وسطوع .

وذات يوم ، شرع يعمل في بستان من الأرض البنفسجية المحروثة ، يحيط بها سور أحمر وتنمو فيها شجرتان من أشجار الدراق ذوات الأزهار الحمراء تعلوهما سماء لها لون أزرق أبيض رائع .

وتمتم لنفسه :

— لعل هذا المنظر هو أفضل ما رسمت من المناظر الطبيعية .

وعندما عاد إلى فندقه وجد رسالة تبلغه ان انطون موف توفي في لاهاي . ولذا كتب تحت شجرة الدراق التي رسمها « تذكار موف وفنسنت وثيو » ، ثم ارسلها فوراً إلى منزل موف في ايلبومين .

في الصباح التالي عثر على بستان من أشجار البرقوق ، وقد تفتحت ازاهيره . وبينما كان منصرفاً إلى عمله ، عصفت ريح شديدة عاتية ، جعلت تنحسر حيناً وتطغى حيناً كأنها امواج البحر. وفيما بين انحسارها وطغيانها ، كانت الشمس تسطع ، والأزهار البيضاء كلها تتلألأ على الأشجار . وانهمك فنسنت في رسمه ، مخاطراً في كل دقيقة بسقوط اللوحة كلها على الأرض . وذكره ذلك بأيام شيفننجن ، حين كان يرسم اثناء المطر والعواصف الرملية ، وتناثر الرذاذ الذي تحمله العاصفة من المحيط ، وفوق وجهه وفوق مسند لوحاته . وجاءت حصيلة عمله في بستان البرقوق لوحة ذات تأثير أبيض ، مشوب بقدر كبير من الأصفر والأزرق والليلكي . ورأى فيها عندما فرغ شيئاً لم يتعمد ان يظهره ، الا وهو المسترال .

وتضاحك في نفسه قائلاً « سيحسب الناس انني كنت سكران حين رسمت هذه اللوحة . »

وعاوده سطر من رسالة ثيو التي استلمها في اليوم السابق . ذلك ان الخواجة تيرستيج كان في زيارة لباريس ، ووقف أمام لوحة من لوحات سيسلي قائلاً بصوت خفيض :

– لا استطيع منع نفسي من الاعتقاد بأن الفنان الذي رسمها كان سكران قليلاً .

وقال فنسنت في نفسه « فلو أتيح لتيرستيج ان يرى لوحاتي . الآرلية . لقال انها هلوسات الهذيان بعينها . »

أما اهالي آرل فأحتفظوا لانفسهم بمسافة كافية تبعدهم عن فنسنت ، اذ كانوا يبصرونه مندفعاً خارج المدينة قبل الفجر ، وعلى ظهره مسند لوحاته الثقيل ، وما من قبعة على رأسه ، يسير وقد مد ذقنه منطلقاً إلى الأمام ، وقد بدا في عينيه اضطراب محموم ، وكانوا يشاهدونه يعود في المساء وقد تحولت عيناه إلى حفرتين من نار ، وصار أعلى رأسه مجمراً كاللحم النيء ، وهو يضم تحت ذراعه لوحة لم تجف بعد ، ويشير بيديه محدثاً نفسه . ولذلك اطلقت البلدة عليه اسماً صار يعرفه به الجميع وهو « المهووس » .

قال لنفسه « لعلني رجل مجنون أحمر الرأس ، ولكن ماذا افعل ؟ »

وأما صاحب الفندق فراح يتحايل لتجريد فنسنت من كل فرنك يقدر عليه ، ولم يكن في وسع فنسنت ان يحصل على ما يأكله ، لان جميع الناس تقريباً يأكلون في بيوتهم . والمطاعم غالية . ولم يستطع فنسنت ان يعثر في أي مطعم على حساء جيد .

وقد سأل صاحبة مطعم :

– امن الصعب طبخ البطاطس يا مدام ؟

– مستحيل يا سيدي .

– فهل عندك طبق من الرز ؟

– ذلك طبق الغد .

– فهل عندك معكرونة ؟

ـ لم يكن متسع في موقد النار لطبخ المعكرونة .

وهكذا اقتنع انه لابد ان يقلع عن الاهتمام بأمر الطعام ، مكتفياً بالتقوت بما يصادف في طريقه . وقد ادت الشمس الحامية إلى امداده بالحيوية ، على الرغم من ضآلة الطعام الذي يتاح لمعدته ، اذ راح يقدم لها الابسنث والتبغ وهو يقرأ قصص تاتارين بقلم دوديه، بدلاً من ان يتناول طعاماً صحياً مناسباً . وادى التركيز على العمل أمام المسند ساعات وساعات إلى صقل الفجاجة التي كانت عالقة بأعصابه ، وصار في حاجة إلى منبهات . أما الابسنث فكان يبعث فيه التشوق إلى يوم جديد ، ثم ما تلبث رياح المسترال ان تجلد ذلك التشوق ، وما تلبث الشمس ان تصليه بنارها الحامية .

وتغلغل الصيف بأيامه اللاهبة ، فأحرق كل شيء . ولم يعد يرى حوله الا الذهب القديم ، والبرونز ، والنحاس ، تغطيها سماء لازوردية مخضرة بفعل الحرارة البيضاء . وكان ثمة لون من الأصفر الكبريتي في كل شيء تسقط عليه أشعة الشمس . وغدت لوحاته كتلاً من الأصفر الفاتح المشتعل . ومع علمه بأن اللون الأصفر لم يستخدم في الرسم الاوروبي منذ عصر النهضة ، فان ذلك لم يثنه عن استخدامه . كان اللون الأصفر ينبجس من أنابيب الطلاء إلى اللوحة ، ويستقر هناك . وصارت لوحاته منقوعة بالشمس ، محترقة بالشمس ، مدبوغة بالشمس المتأججة وآثار الريح .

وقد كان مقتنعاً ان ابداع لوحة جيدة ليس بأهون على المرء من العثور على جوهرة أو على لؤلؤة . ولم يكن راضياً عن نفسه ولا عن عمله ، على انه اوتي شعاعاً من امل بأن الأمور سوف تتحسن في

نهاية المطاف . بل ان هذا الامل كان يبدو له في بعض الأحيان اضغاث احلام . غير انه لم يستشعر الاحساس بكينونته الحية ساعة ، الا وهو مستغرق في عمله . فهو رجل لا يملك شيئاً من الحياة الشخصية . وما هو الا نظام آلي ، أو آلة راسمة عمياء ، يصب فيها طعاماً وشراباً والواناً في كل صباح ، فتنتج لوحة ناجزة بحلول الليل .

فلأي شيء كان ذلك كله ؟ للبيع ؟ لا ، قطعاً ! وانه ليعلم ان أحداً لا يبغي شراء صورة . فلماذا اذن كان في عجلة من أمره ؟ لماذا كان يدفع نفسه ويحثها على رسم عشرات وعشرات من اللوحات ، في حين تكدست تحت سريره النحاسي البائس ، واكتظ الفراغ بها اكتظاظاً ؟

إن الرغبة في النجاح قد فارقت فنسنت . فهو يعمل لأنه لابد له من العمل ، ولأن تلك يقيه من المعاناة العقلية ، ويلهي عقله . وهو رجل في وسعه أن يحيا بلا زوجة وبلا بيت وبلا أطفال ، وفي وسعه أن يحيا بلا حب وبلا صداقة وبلا صحة ، وفي وسعه أن يحيا بلا أمن وبلا راحة وبلا طعام ، بل ان في وسعه أن يحيا بلا اله . ولكنه عاجز عن الحياة بدون شيء هو أعظم منه ، وهو حياته نفسها — وذلك هو قوة الابداع وقدرة الابداع .

— ٣ —

حاول أن يستأجر نماذج للرسم ، إلا أن أهالي آرل رفضوا المثول أمام ريشته ، لأنه لا يرسمهم جيداً على حد زعمهم ، مما قد يؤدي إلى جعلهم أضحوكة إذا شاهد أصدقاؤهم تصاويرهم . وكان فنسنت عالماً

بأنه لو أقدم على رسمهم بأسلوب التجميل كما هو شأن بوجرو ، لما أصابهم الخجل ولرغبوا ان يمثلوا أمامه . ولذا فانه تراجع عن فكرة النماذج ؛ وراح يعمل من وحي التراب .

فلما نضج الصيف ، حلت على البلدة حرارة قوية متوهجة . وسكنت الرياح . فصار الضوء الذي يعمل فيه متراوحاً بين الأصفر الكبريتي الشاحب والأصفر الذهبي الفاتح . ولطالما فكر آنذاك برينوار وخطوطه الصافية الواضحة . لابد ان كل شيء بدا له على ذلك النحو في أجواء بروفانس الصافية ، مثلما هو الحال في الرسوم اليابانية .

وذات صباح باكر رأى فتاة ذات بشرة في لون القهوة الفاتحة ، وشعر في شقرة التبن ، وعينين رماديتين . وكانت ترتدي صدرية منقوشة بلون وردي خفيف ، يشف عن نهديها المتكورين الصغيرين الصلبين . لقد كانت امرأة بسيطة بساطة الحقول . وكان كل خط من خطوطها ينطق بالبكارة . أما أمها فهي هيكل محير ، يرتدي ملابس ذات ألوان صفراء مغبرة وزرقاء كالحة ، ويقف عالياً في شعاع الشمس ، أمام بقعة من الأزهار المتوهجة ذوات الألوان البيضاء الثلجية والصفراء الليمونية . وقد وافقت الاثنتان على المثول أمامه طوال بضع ساعات لقاء مبلغ ضئيل من المال .

وحين عاد إلى فندقه ذلك المساء ، وجد نفسه يفكر في الفتاة ذات البشرة في لون القهوة . وجافاه النوم . وكان على علم بوجود بعض البيوتات في آرل ، إلا أنها في معظمها بيوتات من الفئةالتي تتقاضى خمسة فرنكات ، ويرتادها رجال من السود المعروفين باسم (الزواف) ، الذين يؤتى بهم إلى آرل ليتدربوا هناك ويلتحقوا بالجيش الفرنسي .

شهور مرت على فنسنت دون أن يتحدث إلى امرأة ، إلا حين يطلب فنجان قهوة أو كيس تبغ ، وعادوته ذكرى مارجو وكلماتها الحبيبة وأصابعها الرقيقة التي كانت تجري على وجهه ، ثم تعقبها القبلات العاشقة.

وثب واقفاً على قدميه ، وحث خطاه عبر ساحة لامارتين ، حتى دلف إلى متاهة البيوت السوداء الحجرية . وصعد بضع هنيهات داخل البلدة ، فسمع جلبة كبيرة أمامه . وانطلق يجري إلى أن وصل إلى البوابة الأمامية لاحد بيوت الدعارة في شارع دي ريكوليت ، فشاهد رجال الشرطة يقلون اثنين من الزوافيين مقتولين على أيدي بعض السكارى الايطاليين ، وقد سقط طربوشاهما في بركة من الدم فوق أرض الشارع المبلط بالحجارة الخشنة . وكانت ثلة من الشرطة تقتاد الايطاليين إلى السجن ، ووراءهم جمهور ثائر يصرخ « اشنقوهم ! اشنقوهم ! ».

واغتنم فنسنت فرصة الضوضاء ، فانزلق إلى بيت دو توليرانس الواقع في رقم (١) شارع دي ريكوليت . ولقي ترحيباً من لوي مالك البيت الذي قاده إلى غرفة صغيرة على يسار البهو ، جلس فيها بعض الرجال والنساء يشربون الخمر ، وقال لوي :

– عندي بنت اسمها راشيل ، وهي ظريفة جداً . فهل يرغب السيد أن يجربها ؟ انك تستطيع اذا لم تعجبك ان تختار أية واحدة من الاخريات .

– هل في الوسع أن أراها ؟

جلس فنسنت على إحدى الطاولات وأشعل غليونه . وسمع أصوات ضحكات في البهو الخارجي ثم دخلت اليه فتاة تتراقص في مشيتها . وجلست بخفة على الكرسي الذي يواجهه ، وابتسمت له .

وقالت :

– أنا راشيل .

قال فنسنت متعجباً :

– غير معقول . فأنت مجرد طفلة .

إلا أنها ردت بافتخار :

– عمري ست عشرة سنة .

– ومنذ متى أتيت إلى هذا المكان ؟

– تعني عند لوي ؟ منذ سنة واحدة .

كان المصباح الزيتي الأصفر خلف ظهرها . وهكذا وقع وجهها في الظل ، فغارت بظهرها إلى الخلف حتى لامست الحائط ، ورفعت ذقنها إلى أعلى نحو الضوء ، حتى يتمكن فنسنت من رؤيتها .

رأى وجهاً مستديراً ممتلئاً ، وعينين واسعتين زرقاوين فارغتين ، وذقناً ورقبة مكتنزتين . وكان شعرها الأسود معقوداً فوق رأسها ، مما أضفى على وجهها مظهراً اضافياً من الاستدارة الكروية . ولم تكن ترتدي إلا ثوباً خفيفاً على جسدها وصندلاً في قدميها.

قال :

– أنت جميلة يا راشيل .

وإذا بابتسامة طفولية مشعة تغمر عينيها الفارغتين . ثم إنها استدارت نحوه سريعاً وأمسكت بيده بين يديها . وقالت :

– أنا مسرورة لأنني أعجبتك . وأنا أحب أن أعجب الرجال . لأن ذلك يجعل الأمور أظرف . ألا ترى ذلك ؟

– بلى ، فهل أعجبتك بدوري ؟

– أراك رجلاً مسلياً يا مهووس .

– مهووس ! أنت تعرفينني اذن .

– رأيتك في ساحة لامارتين لماذا تسير دائماً بسرعة ، وانت تحمل تلك الحزمة الثقيلة على ظهرك ؟ ولماذا لا ترتدي قبعة ؟ ألا تصليك حرارة الشمس ؟ ان عينيك محمرتان كلهما ألا توجعانك ؟

ضحك فنسنت من سذاجة الطفلة . وقال لها .

– أنت حلوة جداً يا راشيل . هل تنادينني باسمي الحقيقي اذا أخبرتك به ؟

– وما هو ؟

– فنسنت .

– لا . ان اسم المهووس يعجبني أكثر من الاسم الآخر . هل تستاء اذا دعوتك مهووساً ؟ وهل يمكن أن تطلب لي شراباً ؟ ان لوي العجوز يراقبني في البهو .

– اطلبي زجاجة خمر ، على ان لا تكون من النوع الفاخر ، لأنني لا أملك مالاً وفيراً .

وحين وصلت الزجاجة سألته راشيل :

– هل ترغب أن تشربها في غرفتي ؟ ان المكان هناك أكثر إلفة .

– هذا يسرني جداً .

صعدا بضع درجات إلى أعلى ، ودخلا حجرة راشيل المؤثثة بسرير

ضيق هزاز ، وخزانة زينة ، وكرسي ، وبضع قلادات من طراز جوليان معلقة على الجدارن . وكان فوق خزانة الزينة دميتان ممزقتان مهشمتان .

قالت راشيل :

ـ هاتان الدميتان جاءتا معي من المنزل . انظر اليهما يا مهووس واحملهما بيديك . هذا جاك وهذه كاترين . وهما رفيقاي اللذان كنت العب واياهما لعبة « بيت بيوت » . آوه يا مهووس، لاتقف هكذا مستغرباً .

كان فنسنت واقفاً يبتسم ببلاهة ، حاملاً دمية في كل يد من يديه حتى توقفت راشيل عن الضحك . واستعادت جاك وكاترين منه ، والقت بهما فوق الخزانة ، ثم قذفت بصندلها نحو زاوية بالغرفة ، وخرجت من ردائها . وقالت :

ـ اجلس يا مهووس ، وسوف نلعب « بيت بيوت » . وتكون أنت بابا وأنا ماما . هل تحب لعبه « بيت بيوت » .

ـ راشيل ، اذا ثابرت على مناداتي بالمهووس ، فان لدي اسماً أطلقه عليك .

صفقت راشيل بيديها ، ودفعت نفسها إلى أحضانه .

ـ اوه . . قل لي ، ما هو ذلك الاسم . انني أحب أن تطلق علي أسماء جديدة !

ـ سوف أدعوك الحمامة .

خيم شيء من الأسى والحيرة على عيني راشيل الزرقاوين ، وقالت :

– لماذا أنا حمامة يا بابا؟

ربت فنسنت على مؤخرتها المستديرة بلطف وقال :

– لأنك أشبه بالحمامة ، فلديك كما لديها عينان وديعتان وجسد صغير ممتلىء .

– وهل هو شيء ظريف أن يكون المرء حمامة ؟

– نعم . ان الحمائم جميلة جداً ومحبوبة ، كما هو شأنك أنت .

استندت راشيل قليلاً ، وقبلته في اذنه ، ثم قفزت من فوق السرير ، وأحضرت كأسين من الماء لمزج خمرتهما.

قالت له أثناء احتسائها جرعات الخمر الأحمر ، الذي كانت تشربه وقد دخل انفها في القدح ، كما يفعل الأطفال :

– يا لأذنيك الصغيرتين المضحكتين ما أغربهما .

– هل تروقان لك ؟

– نعم ، فهما طريتان مستديرتان كأذني الدمية .

– خذيهما اذن .

ضحكت راشيل ضحكة عالية . ورفعت كأسها إلى شفتيها . ثم عاودتها النكتة ثانية فجعلت تقهقه . وسقطت قطرات من النبيذ على جسدها واتخذت مسيلاً فيه . وقالت :

– انت ظريف يا مهووس . ان الجميع يتحدثون عنك كما لو كنت مجنوناً . ولكنك لست بالمجنون . ام هل تراك مجنوناً ؟

– إلى حد ما .

— هل ستصبح حبيبي ؟ فمنذ أكثر من شهر لم يكن لي حبيب . هل ستأتي لتراني كل ليلة ؟

— أخشى انني لا أستطيع الحضور كل ليلة يا حمامة .

— لم لا ؟

— أحد الأسباب انني لا أملك المال .

أخذت تعبث بأذنه اليمنى ، فتشدها وتلويها لاهيه ، ثم قالت :

— اذا لم تكن لديك خمسة فرنكات يا مهووس ، فهل تقطع اذنك وتعطيني اياها ؟ إنها تروق لي . وسوف أضعها على خزانتي والعب بها كل ليلة .

— وهل ستسمحين لي باستردادها اذا جئتك بالفرنكات الخمسة فيما بعد ؟

— اوه يا مهووس ، انت في منتهى الظرف واللطف . وأتمنى لو كان كثير من الرجال الذين يفدون الينا هنا في مثل ظرفك .

— ألا تعجبك حياتك هنا ؟

— اوه . . بلى . ان اوقاتي ممتعة ، وأنا أحب كل شيء . . ما عدا الزوافيين .

وضعت كأس الخمر جانباً ، والقت بذراعيها حول عنقه برقة . ووجد نفسه يقبل باطن شفتها السفلى الحريري .

— هل ستعود إلى رؤيتي ثانية يا مهووس ؟ ام انك ستنساني وتختار واحدة أخرى من الفتيات ؟

— سأعود ثانية يا حمامة .

– وهل نلعب الآن لعبة « بيت. بيوت » .

عندما غادر المكان بعد نصف ساعة ، شعر بعطش شديد لا يرويه إلا عدد لا حصر له من جرعات الماء البارد الصافي .

– ٤ –

توصل فنسنت إلى استنتاج مفاده ان الالوان تتشرب بمزيد من الزيت كلما كان طحنها أكثر نعومة . وقد رأى ان الزيت ما هو الا واسطة لحمل اللون ، ولا أهمية له في حد ذاته ، لاسيما وان فنسنت لا يمانع في ان تكون لوحاته خشنة المظهر . ولذلك قرر ان يعتمد على نفسه في تحضير الوانه ، بدلاً من شراء الوان مطحونة في باريس على الحجر طوال ساعات لا يعلمها الا الله . لذلك طلب ثيو من الأب تانجي ان يرسل إلى فنسنت كمية من اللون الأصفر بدرجاته الثلاث ، وكذا الالوان الخضراء والقرمزية والاوكسيد البرتقالي والأزرق . الكوبالتي والأزرق اللازوردي . وقام فنسنت بطحنها في غرفته الصغيرة بالفندق ، وبذلك حصل على الوان أقل كلفة ، فضلاً عن كونها أزهى وأكثر ثباتاً .

بعد ذلك شعر بعدم الارتياح إلى القماش الذي يستخدمه للرسم اذ كانت طبقة الجص الرقيقة التي تغلف سطح القماش غير قادرة على امتصاص زخم الوانه ، لذا أرسل اليه ثيو لفائف من القماش الخام ، فكان فنسنت يقوم ليلاً بجبل الجص في اناء صغير ، ثم يكسو به القماشة التي يعتزم استخدامها للرسم في اليوم التالي .

وكان قد اكتسب حساسية خاصة ، زرعها فيه جورج سورات ،

نحو نوع الاطار الذي سيوضع فيه عمله . وهكذا أرفق أولى لوحاته الآرلية التي ارسلها إلى ثيو بتعليمات محددة حول نوع الخشب ولون الدهان الذي يناسب اللوحة . الا انه لم يستطع ان يشعر بالسعادة حتى أصبح يصنع بنفسه اطرا للوحاته . واشترى لتلك الغاية رقائق من الخشب البسيط من دكان البقال ، وقصها وفقاً للمقاييس التي ارادها ، ثم دهنها بألوان تناسب موضوع اللوحة .

وهكذا أصبح يصنع الوانه ، ويجهز مساند لوحاته ، ويجصص أقمشتها ، ويرسم الصور ، وينجز الاطارات ، ويدهنها بنفسه .

وتمتم لنفسه بصوت عال :

— لم يبق الا ان أشتري لوحاتي بنفسي ، فيتحقق لي الاكتفاء الذاتي المطلق .

هبت رياح المسترال من جديد . وتراءت الطبيعة كلها في حالة هياج ، وكانت السماء خلوا من الغيوم . وأشعة الشمس الساطعة مصحوبة بجفاف حاد وبرد قارس . وعمد فنسنت إلى رسم حياة صامتة داخل غرفته ، هي عبارة عن ابريق قهوة من الخزف الأزرق ، وفنجان ذي لون أزرق ملوكي وذهبي ، كما رسم جرة لبن ملونة بمربعات من الأزرق الفاتح والأبيض ، ورسم جرة من طراز ايطالي ذات لون أزرق مشرب بالوان حمراء وخضراء وبنية ، ورسم اخيراً برتقالتين وثلاث ليمونات .

وحين تلاشت الرياح عاد إلى الخروج وقام برسم منظر على نهر الرون ، وهو منظر جسر ترانكوتاي . فجعل لون السماء ولون النهر بلون حمرة الابسنث ، واضفى على لون المراسي ظلاً من الليلكي ،

واختار للاشخاص المستندين بأكواعهم على سور الجسر لوناً مسوداً ، وللجسر الحديدي لوناً أزرق غامقاً ، على خلفية من البرتقالي الغامق الذي يخالط الأسود ، ولمسة من الأخضر الغامق . لقد كان فنسنت يحاول التوصل إلى التعبير عن انكسار القلب المطلق ، الذي من شأنه ان يحطم قلب من يراه تماماً .

لقد استبدل السعي إلى اعادة تصوير الأشياء كما تراها عيناه ، بسعي اخر قوامه استخدام الالوان عمداً للتعبير عن نفسه بقوة أعظم . وأدرك صحة ما قاله له بيسارو في باريس « ينبغي لك ان تكون جريئاً في مبالغتك بالتأثير باستخدام الالوان ، سواء عن طريق ما تؤدي اليه من التناغم أو التناقض » . وقد وجد شيئاً مشابهاً في مقدمة موباسان لقصة « بيير وجان » ، حين يقول « ان للفنان حرية في المبالغة ، لكي يبدع في قصته عالماً أجمل وأبسط وأكثر قدرة على تعزية النفس » .

وقضى يوماً شاقاً في عمل دؤوب بين الحقول التي تزرع بالحنطة ، تحت شمس عمودية . وكانت النتيجة لوحة تمثل حقلاً محروثاً ، حقلاً ضخماً من الطين البنفسجي المقلوب ، يمتد حتى خط الأفق ، وثمة زارع بذار يرتدي ملابس ذات لون أزرق وأبيض . وهناك عند الأفق حقل من الحنطة القصيرة الناضجة ، وتعلو ذلك كله سماء صفراء وشمس صفراء .

كان فنسنت يدرك ان النقاد الباريسيين قد يظونه متعجلاً في عمله ، ولكنه ما كان ليوافقهم على هذا الظن . اليس ما يدفعه إلى العمل على هذا النحو هو عاطفته واخلاص مشاعره للطبيعة ؟ فاذا كانت العواطف في بعض الأحيان تغدو من القوة بحيث ينهمك في

عمله دون ان يدري انه يعمل ، واذا كانت ضربات فرشاته تتدفق أحياناً كما تتدفق كلمات الخطبة في سياقها وتناسقها ، فلابد ان أياماً ستأتي ، تغدو فيها الأوقات مثقلة خالية من الوحي ، وعليه ان يطرق الحديد وهو حام ، وان يحصد القضبان التي تم صهرها وطرقها .

حزم مسند لوحاته على ظهره ، وسلك طريقه إلى الفندق مارا بمونماجور . وسار سيراً سريعاً حتى بلغ رجلاً وابنه في الطريق . وكان يعرف الرجل الذي يدعى رولان العجوز ، وهو موزع البريد في البلدة . وسبق له ان جلس إلى جوار رولان في المقهى ، ورغب في مجاذبته اطراف الحديث ، ولكن الفرصة لم تسنح .

قال :

– نهارك سعيد يا سيد رولان .

فقال رولان :

– آه .. هذا أنت ، الرسام . نهارك سعيد . لقد صحبت ولدي إلى نزهة في عصر هذا الاحد .

– كان يوماً رائعاً . اليس كذلك ؟

– آه .. نعم .. الطقس يغدو بديعاً عندما تتوقف رياح المسترال الشيطانية عن الهبوب . هل رسمت لوحة في هذا اليوم يا سيد ؟

– نعم .

– أنا رجل جاهل يا سيد ، لا أعرف شيئاً عن الفن . ولكنني سأتشرف اذا سمحت لي بالقاء نظرة .

– بسرور .

جرى الصبي أمامهما لاهياً ، وسار فنسنت ورولان جنباً إلى جنب. واثناء نظر رولان إلى اللوحة ، قام فنسنت بدراسته . كان رولان يلبس قبعة رجل البريد الزرقاء ، وله عينان رقيقتان متسائلتان ، ولحية طويلة مربعة متموجة تمتد حتّى تغطي رقبته وياقة السترة الزرقاء الغامقة التي يرتديها رجل البريد . لقد احس فنسنت تجاه رولان بمثل الاحساس الذي ساوره قبلاً تجاه الأب تانجي ، فكلاهما يتميز بالنعومة والاقبال على الناس وكان رولان اليفاً على نحو عاطفي ، حتّى ان وجهة الريفي البسيط بدا متنافراً مع اللحية اليونانية الفخمة التي تحيط به .

وكرر رولان القول :

ــ أنا رجل جاهل يا سيدي ، فاعذرني لما سأقول . ان حقول حنطتك مفعمة جداً بالحياة . كذلك الحقل الذي مررنا به والذي شهدتك تعمل أمامه .

ــ هل أحببت اللوحة اذن ؟

ــ لا استطيع ان احكم على ذلك . وكل ما ادريه انها تجعلني أحس بشعور ما هنا .

واشار بيده إلى صدره .

صمتا هنيهة عند سفح جبل مونماجور . كانت الشمس تغرب والغسق الأحمر ينتشر فوق الدير القديم ، والأشعة تسقط على جذوع واوراق الصنوبر النامية بين كتلة من الصخور ، فتكسو تلك الجذوع والاوراق بنار برتقالية ، بينما ترامت بقية أشجار الصنوبر في المدى ، بلونها الأزرق العميق. تحت سماء لازوردية زرقاء ضاربة إلى الخضرة .

وكان الرمل الأبيض وطبقات الصخر البيضاء تحت الأشجار موشاة بالزرقة .

قال رولان :

— هذا مشهد مفعم بالحياة أيضاً . أليس كذلك يا سيدي ؟

— وسوف يظل حياً يا رولان ، بعد ان يقدر لنا الرحيل .

ساراً معاً يتجاذبان اطراف حديث هادىء ودود . ولم يكن في كلام رولان ما يزعج الانسان . فهو رجل يتميز ببساطة الوجدان وبساطة الأفكار مع عمقها في آن معاً . وكان يعول نفسه وزوج وأربعة من الأطفال بمبلغ مائة وخمسة وثلاثين فرنكاً في الشهر . وقد انقضت عليه خمسة وعشرون عاماً وهو يعمل بالبريد ، دون ان يحصل على ترقية ، ولم يزدد راتبه الا زيادة طفيفة جداً .

قال :

— حين كنت في سن اليفاعة يا سيد ، كنت افكر في الله ومازلت اراه في ذلك الحقل الذي رسمته ، وفي غروب الشمس عند جبل مونماجور ، ولكنني حين افكر في البشر ... وفي العالم الذي صنعوه ...

— أفهم هذا يا رولان . ولكن شعوري يتزايد بأن علينا ان لا نحكم على الرب من خلال العالم الذي يصنعه البشر . انه عالم يشبه دراسة للفنان لم تكتمل بعد . وما الذي يسع المرء فعله ازاء دراسة خائبة ، اذا كان المرء مغرماً بالفنان ؟ لن تجد ما تنتقده ، وانما تمسك لسانك . على ان لك الحق في ان تتمنى عليه شيئاً أفضل .

صاح رولان :

– نعم ، هذا هو الأمر . ان نتمنى شيئاً أفضل قليلا .

– ان علينا ان نشاهد اعمالاً أخرى ابدعتها اليد ذاتها ، قبل ان نحكم على المبدع .

خيم الغسق على الطريق الريفي الملتوي . ونفذت أشعة النجوم الاولى خلال ملاءة الليل السوداء. وكانت عينا رولان البريئتان العذبتان تلتمسان وجه فنسنت . وقال رولان :

– أنت تعتقد اذن ان ثمة عوالم أخرى غير هذا العالم يا سيدي ؟

– لا أعرف يا رولان . اقد اقلعت عن التفكير في مثل هذا الأمر حينما انهمكت في عملي . غير ان هذه الحياة تبدو غير مكتملة .. اليس كذلك ؟ وتخطر لي احياناً انه اذا كانت القطارات والعربات وسائط لنقلنا من مكان إلى مكان على هذه الأرض ، فان التيفوئيد والسل بدورها وسائط لنقلنا من هذا العالم إلى عالم آخر .

– آه .. أنتم الفنانون تدققون الفكر في الأشياء .

– رولان ، هل تسدي إليَّ معروفاً ؟ اسمح لي ان ارسم صورتك. فان أهالي آرل لا يمثلون أمامي لارسمهم .

– هذا يشرفني يا سيدي . ولكن لماذا ترغب في رسمي ؟ انني لست رجلاً قبيحاً .

– أنت رائع يا رولان ، ان في عينيك ولحيتك شيئاً سماوياً .

– اتراك تهزأ بي يا سيدي ؟ !

– على العكس . انني في منتهى الجد .

ـ هل تزورنا وتشاركنا العشاء مساء الغد . ان مائدتنا متواضعة للغاية ، لكننا سنسعد كثيراً بقدومك .

كانت مدام رولان سيدة قروية طيبة ، اعادت إلى ذهنه إلى حد ما ذكرى مدام دينيس . وكان على المائدة ملاءة من القماش المخطط باللونين الأحمر والأبيض . ووعاء صغير من طبيخ البطاطس ، وخبز مصنوع في المنزل ، وزجاجة من النبيذ الحامض . وقام فنسنت بعد العشاء برسم مدام رولان وهي تتحدث إلى زوجها .

وكان رولان يقول :

ـ كنت في اثناء الثورة من الجمهوريين . غير انني اليوم أرى اننا لم نكسب شيئاً ، وسواء كان حكامنا ملوكاً أو وزراء ، فاننا نحن الفقراء لا نحصل الا على القليل . مع انني حسبت اننا حين نصبح جمهورية سنتقاسم الثروة بالتساوي .

ـ آه .. كلا يا رولان .

ـ حاولت طيلة حياتي ان افهم يا سيدي ، لماذا يستأثر البعض بالمال دون الاخرين ، ولماذا يكدح البعض ويجلس الاخرون متعطلين . لعلني لست من العلم بحيث استطيع ان افهم . فهل تعتقد انني لو كنت متعلماً افهمت ذلك يا سيدي على نحو أفضل ؟

سدد فنسنت نظرة سريعة إلى رولان ، ليرى ان كان الرجل مازحاً . ولكنه لم يعثر في وجهه الا على النظرة الساذجة ذاتها .

قال فنسنت :

ـ نعم يا صديقي . معظم الناس المتعلمين يفهمون هذه القضايا

جيداً ، ولكنني جاهل مثلك ،ولن استطيع ابداً ان افهمها ولا ان اتقبلها .

— ٥ —

كان يستيقظ في الرابعة فجراً ، ويسير طيلة ثلاث ساعات أو أربع حتى يصل إلى البقعة المقصودة ، ثم يستغرق في الرسم حتى حلول الظلام . ولم يكن يسره ان يقطع مسافة عشرة كيلومترات أو اثنتي عشر كيلومتراً وهو وحيد على طريق العودة إلى مقره ، لكنه كان يطرب اذ يتحسس تحت ذراعه ملمس اللوحة المبتلة التي فرغ منها في يومه .

كان ينجز سبع لوحات كبيرة في سبعة أيام ، فما يحل اليوم الاخير من أيام الأسبوع حتى يشعر انه هلك من شدة التعب . لقد كان الصيف صيفاً مجيداً ، غير ان فنسنت يحس انه استنفد نفسه . وهبت رياح المسترال عنيفة تحمل معها سحباً من الغبار الذي هبط على الشوارع فبيضها . وهكذا اضطر فنسنت إلى المكوث هادئاً . وراح ينام مدة ست عشرة ساعة متوالية .

ولم يحصل من هذا النوم على الراحة المنشودة ، لان نقوده نفدت يوم الخميس، في حين لم تصل رسالة ثيو التي تنطوي على مبلغ الخمسين فرنكاً حتى ظهر الاثنين . ولم تكن تلك غلطة ثيو ، فهو ما برح يرسل خمسين فرنكاً كل عشرة أيام ، بالاضافة الى جميع لوازم الرسم . غير ان فنسنت كان جامح الرغبة في ان يكسو لوحاته الجديدة بالاطارات فاشترى منها عدداً لا تتحمله ميزانيته . وهكذا عاش تلك الأيام الأربعة

على ثلاثة وعشرين فنجاناً من القهوة ورغيف خبز واحد استدانه من الخباز .

ثم انتابه رد فعل عنيف ضد أعماله . وخطر له ان لوحاته لم تكن تساوي الفضل الذي اسداه ثيو اليه . وتمنى لو يستطيع كسب المال حتى يرد لشقيقه الديون . وراح ينظر إلى لوحاته واحدة بعد واحدة ، ويلوم نفسه لأنها لم تكن لتساوي الكلفة التي كلفتها . وهب ان احدى تلك الأعمال جاءت على مستوى لابأس به ، لقد كان حرياً ان يشتري مثلها من شخص آخر بسعر أقل .

خلال الصيف كله كانت أفكار لوحاته تتدفق عليه دون توقف . فلم يكن لديه وقت للتفكير أو الشعور ، على الرغم من انفراده لنفسه . وكان منطلقاً كالقاطرة البخارية . أما الآن فصار دماغه أشبه بالعصيدة البائتة . وهو لا يملك ولو فرنكاً واحداً ليرفه عن نفسه بوجبة من الطعام أو بزيارة إلى راشيل . واستقر رأيه على ان كل ما رسمه خلال ذلك الصيف كان رديئاً ورديئاً جداً .

ثم قال لنفسه « مهما يكن الأمر ، فان قطعة من القماش الفارغ هي أقل قيمة منها بعد ان املأها بريشتي . ولست ادعي شيئاً أكثر من ذلك . ان لي الحق في الرسم ، ولدي المبرر للرسم . »

وكان على اقتناع بان مجرد بقائه في آرل ، يؤدي إلى تحرير فرديته . ان الحياة قصيرة . وهي تمضي سريعاً . وعليه ان يرسم ، مادام يمتهن الرسم .

وحدث نفسه قائلاً « ان أصابع الرسام في يدي تصبح ألين من ذي قبل ، حتى ولو انها تكسرت قطعاً . »

ثم تناول قائمة طويلة من الالوان ، وبعث بها إلى ثيو . وخطر له فجأة ان كل لون فيها غريب على ما اعتاد سادة الفن الهولندي أمثال موف وماريس وفايزنبروخ ان يستخدموه في رسوماتهم . لقد أصبحت قطيعته تامة مع التقاليد الهولندية ، بعد ان اقام في آرل .

وصلت نقوده يوم الاثنين ، وعثر على مكان تناول فيه وجبة جيدة لقاء فرنك . وهذا المكان عبارة عن مطعم غريب ، يهيمن عليه اللون الرمادي ، فأرضيته بالقار الرمادي كأنها رصيف شارع . وورق الجدران رمادي ، والستائر الخضراء مسدلة دائماً ، وثمة ستارة خضراء كبيرة مرخاة على الباب لمنع الغبار .

بعد اخلاده إلى الراحة مدة تربو على أسبوع ، قرر ان يقوم ببعض الرسوم الليلية . واختار ان يرسم المطعم الرمادي اثناء تناول الزبائن وجبتهم ، وحركة النادلات جيئة وذهاباً . كما قام من موقعه بساحة لامارتين برسم سماء الليل الدافئة الكثيفة ، بلونها الأزرق المخضر ، وهي مرصعة بآلاف النجوم البروفنسالية اللامعة ، كما خرج إلى الطرقات ورسم أشجار السرو تحت شعاع القمر . ورسم مقهى دونوي الذي كان يظل مفتوحاً طيلة الليل لايواء السابلة حين لا يملكون مالاً يدفعونه للمبيت ، أو حين يبلغ بهم السكر حده .

رسم المقهى من الخارج في ليلة واحدة ، ومن الداخل في الليلة التالية ، وحاول ان يعبر عن العواطف الانسانية الرهيبة بواسطة استخدام الأحمر والأخضر . فاستخدم الأحمر الدموي والأصفر الغامق في رسم الداخل ، مع طاولة البليياردو الخضراء في وسط المكان . وعمد إلى تصوير أربعة مصابيح صفراء ليمونية ترسل أشعة برتقالية وخضراء .

وعجت اللوحة بالصدام والتناقض بين اغرب درجات الأحمر والأخضر التي لون بها قطاع الطرق الصغار النائمين . وكان بذلك يحاول ان يعبر عن فكرة مفادها ان ذلك المقهى كان مكاناً يمكن للمرء فيه ان يدمر ذاته أو ينزلق إلى الجنون أو يرتكب احدى الجرائم .

وزاول أهالي آرل تسليتهم المستديمة بمراقبة مهووسهم ، وملاحظة حركاته الجديدة ، اذ يظل طوال الليل يرسم في الشوارع ثم يقضي النهار كله نائماً .

وفي مطلع الشهر الجديد ، فوجيء فنسنت بمالك الفندق يبادره بطلب رفع أجرة الغرفة ، بل ويضيف إلى ذلك قراراً بتقاضي أجرة تخزين يومية ، لقاء استخدام فنسنت خزانة صغيرة لحفظ اللوحات . فكره فنسنت الفندق ، وثارت ثائرته حيال جشع صاحبه . ووجد في المطعم الرمادي الذي أكل فيه مقاماً مناسباً له ، لكن نقوده ما كانت كافية للأكل هناك أكثر من يومين أو ثلاثة أيام من عشرة . وكان الشتاء على الأبواب ، وليس من مرسم يعمل فيه . وقد كانت حجرة الفندق حقيرة وضيعة ، كما ان الطعام الذي كان مضطراً لتناوله في المطاعم الرخيصة بدأ يسمم معدته من جديد .

ان عليه ان يعثر لنفسه على منزل دائم وعلى مرسم .

وذات مساء ، بينما كان برفقة رولان العجوز يقطعان ساحة لامارتين ، ابصر عبارة « للايجار » مكتوبة على منزل أصفر يقع على مرمى حجر من الفندق . وكان المنزل يتألف من جناحين تتوسطهما ساحة ، وهو يواجه الساحة والبلدة القائمة على التل . ووقف فنسنت ينظر إلى المنزل في توق وكآبة .

وخاطب رولان قائلاً :

– من المؤسف انه أكبر مما ينبغي . فمثل هذا البيت هو مطلبي .

– ليس ضرورياً ان تستأجر البيت كله يا سيدي . ان في وسعك مثلاً ، ان تستأجر هذا الجناح الأيمن .

– حقاً ؟ وكم غرفة تعتقد انه يتضمن ؟ وهل يكون ايجاره غالياً ؟

– ربما يشتمل على ثلاث أو أربع غرف . وسيكلفك مبلغاً ضئيلاً لا يزيد على نصف أجرة الفندق . فاذا رغبت فسوف احضر غداً ونذهب سوياً لرؤيته اثناء وقت غدائي . ولعلني اعينك على الحصول عليه لقاء ايجار معتدل .

وفي الصباح التالي غدا فنسنت شديد الاهتياج ، حتى انه لم يستطع ان يفعل شيئاً غير ذرع ساحة لامارتين جيئة وذهاباً ودراسة البيت من جميع جوانبه . فوجده متين البنيان ، تدخله الشمس دون عائق ، واكتشف فنسنت بعد مزيد من التدقيق ان للبيت مدخلين منفصلين ، وان الجناح الايسر مسكون فعلاً .

وجاءه رولان بعد وجبة الغداء . ودخلا سوية الى الجناح الايمن من البيت . فواجهتهما في الداخل ردهة افضت بهما إلى غرفة كبيرة ، تتصل بها غرفة أصغر منها . وكانت الجدران مدهونة باللون الأبيض ، كما كانت القاعة والدرجات المؤدية إلى الطابق الثاني مرصوفة بطوب أحمر نظيف . وفي الأعلى كانت هناك غرفة أخرى كبيرة وملحق صغير . وكلها مبلطة بقرميد أحمر مصقول . وكان الدهان الأبيض يكسو الجدران هنا أيضاً ، فيعكس الشمس النظيفة اللامعة .

وكان رولان قد ارسل رسالة إلى المالك ، فوجداه في انتظارهما في الغرفة العلوية . وانخرط المالك ورولان في محادثة لبضع لحظات بلهجتهما البروفنسالية السريعة التي لم يفهم فنسنت منها الا أقل القليل . ثم استدار ساعي البريد إلى فنسنت قائلاً :

— الرجل مصر على ان يعرف مدة الايجار .

— قل له انها مدة مفتوحة .

— هل توافق على مدة ادناها ستة شهور ؟

— اوه ، نعم ، نعم .

— الأجرة في تلك الحالة هي خمسة عشر فرنكاً في الشهر .

خمسة عشر فرنكاً ! ايجار منزل بطوله وعرضه ! اي ثلث المبلغ الذي يدفعه للفندق . انه مبلغ يقل حتى عن أجرة المرسم الذي استأجره في لاهاي . فسرعان ما سحب النقود من جيبه .

— خذ ! بسرعة ! اعطه اياها . لقد استأجرنا البيت .

— هو يريد ان يعرف متى تنوي الانتقال إلى هنا .

— اليوم . في هذه اللحظة .

— ولكنك يا سيدي لا تملك اثاثاً . فكيف تريد الانتقال ؟

— سأشتري فراشاً وكرسياً يا رولان . انك لا تعرف معنى ان تقضي حياتك في غرف الفنادق التعسة . ينبغي ان احصل على هذا المكان فوراً !

— كما ترغب يا سيدي .

انصرف مالك المنزل ، وعاد رولان إلى عمله . أما فنسنت فراح يخرج من غرفة ويدخل أخرى ، صاعداً الدرج هابطاً عنه ، منقباً كل بوصة من مملكته مرة تلو مرة . وكان مبلغ الخمسين فرنكاً الذي ارسله ثيو قد وصل في اليوم السابق ، فمازال في جيب فنسنت مبلغ يقارب ثلاثين فرنكاً . ولذا انطلق خارجاً ، واشترى فراشاً رخيصاً وكرسياً وحملهما إلى المنزل الأصفر . وقرر ان تكون الغرفة الواقعة في الطابق الاول غرفة نومه ، والغرفة العلوية مرسماً له . والقى بالفراش على البلاط القرميدي الأحمر . وحمل الكرسي إلى مرسمه ، ثم عاد إلى الفندق عودته الاخيرة .

واذا بالمالك يضيف أربعين فرنكاً فوق الفاتورة متعللاً ببعض الحجج الواهية ، وأبى ان يسمح لفنسنت بأخذ لوحاته ما لم يدفع المبلغ . فاضطر فنسنت إلى الذهاب لدائرة الشرطة بغية الحصول على لوحاته ، ومع ذلك لم يحصل عليها الا بعد دفع نصف تلك المستحقات الوهمية .

وفي ساعة متأخرة من عصر اليوم نفسه عثر على تاجر لا يمانع في بيعه موقداً صغيراً ، وآنيتين ومصباح كيروسين ،وذلك مقابل ثمن مؤجل. وقد بقي في حوزة فنسنت ثلاثة فرنكات . فاشترى بنا وخبزاً وبطاطس وقليلاً من اللحم ليصنع لنفسه حساء . ولم يستبق في جيبه سنتيماً واحداً. وحين بلغ المنزل جعل من الغرفة الصغيرة في الطابق السفلي مطبخاً لطعامه .

وعندما خيم الليل فوق ساحة لامارتين والمنزل الأصفر ، قام فنسنت بعمل القهوة والحساءفوق الموقد الصغير . ولم تكن لديه طاولة ، ولذا وضع صحيفة فوق الفراش ، ووضع عليها إناء الحساء . وراح يأكل وقد

جلس القرفصاء فوق البلاط . ولما كان قد نسي شراء سكين وشوكة ،فقد استخدم ذراع فرشاته لالتقاط قطع اللحم والبطاطس من الإناء . وهكذا تذوق في طعامه أثراً خفيفاً من طعم الدهان .

انتهى من طعامه ، ورفع مصباح الكيروسين ، وصعد الدرجات إلى الطابق الثاني . وكانت الغرفة خالية موحشة ، ليس فيها إلا المسند الصلب الماثل أمام الشباك تحت ضياء القمر . ووراء الشباك تراءت حديقة ساحة لامارتين المعتمة .

نزل لينام على الفراش ، ولما أفاق في الصباح فتح النوافذ ورأى خضرة الحديقة والشمس البازغة والطريق الملتوية التي تتجه إلى البلدة . ونظر إلى الطوب الأحمر النقي في أرضية الحجرة ، وإلى الجدران البيضاء الخالية من أية بقع ، والى الشارع . ثم صنع لنفسه فنجان قهوة ، وجعل يتمشى وهو يشرب القهوة من الإناء ، ويفكر في كيفية تأثيث المنزل ، وفي الصور التي سيعلقها على الجدران ، وفي الساعات السعيدة التي سيقضيها في بيت حقيقي يخصه .

ووصلته في اليوم التالي رسالة من صديقه بول جوجان ، تفيد بأنه رهن الاحتجاز في مقهى حقير ببلدة بونتافن في بريتانيا ، وقد برح به المرض وهده الفقر . ويقول في رسالته « لا أستطيع أن أخرج من هذا الجحر لأنني غير قادر على دفع فاتورتي ، وقد عمد المالك الى حجز لوحاتي تحت القفل والمفتاح. ولعمري ليس بين صنوف البلايا التي ابتليت بها البشرية ما يثير جنوني أكثر من نقص المال ، على أنني صرت أشعر أن قدري هو أن أظل شحاذاً مستديماً » .

جلس فنسنت يقلب الفكر في أمر الرسامين على هذه الأرض . إنهم يحيون مرهقين ، مرضى مفلسين ، يزدريهم الناس ويسخرون منهم ، ويظلون معذبين حتى يوم الممات فلماذا ؟ وأية جريمة اقترفوها ؟ وما الخطايا التي تبرر نبذهم ومطاردتهم ؟ وكيف يمكن لهذه الأرواح المضطهدة أن تقدم فناً جميلاً ؟ أما فنان المستقبل . . آه . . فسوف يكون رساماً ورجلاً مختلفاً عن كل ما وجد قبله . ولن يعيش في المقاهي البائسة ، ولن يتردد على دور البغايا التي يرتادها « الزواف » .

يا لتعاسة هذا المسكين جوجان . إنه يتعفن في جحر قذر في بريتانيا ، يقعده المرض عن العمل ، وهو محروم من صاحب معين ومن فرنك في جيبه يكفيه وجبة الطعام والطبيب المعالج . إن فنسنت ليرى فيه رساماً عظيماً وانساناً عظيماً . فاذا قدر لجوجان أن يموت أو أن يتوقف عن العمل ، فيا لها من مأساة تصيب عالم الرسم .

أدرك فنسنت على الفور ما يتعين عليه أن يفعله . إن المنزل الأصفر يكفي رجلين اثنين على سعة ، ويوفر لكل منهما غرفة نوم ومرسم . فاذا ما جهزا طعامهما معاً ، وطحنا ألوانهما ، وراعيا نقودهما ، فان في وسعهما أن يعيشا على مبلغ المائة وخمسين فرنكاً التي تأتيه شهرياً ، لأن أجرة المنزل واحدة في الحالتين ، والزيادة في الطعام طفيفة جداً . وما أروع أن يحظى من جديد بصديق معه ، وهو صديق رسام يتكلم لغته ذاتها ويفهم مهنته . ويالها من أمور مدهشة تلك التي يستطيع جوجان أن يعلمه اياها عن الرسم .

أنه لم يدرك من قبل كم كان وحيداً . وهب أنهما لم يتدبرا أمر معيشتهما بمبلغ المائة وخمسين فرنكاً ، فلعل ثيو يرسل اليهما خمسين فرنكاً اضافية مقابل لوحة من جوجان كل شهر .

نعم ! نعم ! يجب أن يستقدم جوجان اليه هنا في آرل . وسوف تقضي شمس بروفانس الحارة على ما عشش فيه من مرض ، مثلما حدث في حالة فنسنت . وسرعان ما سوف يصبح لهما مرسم شائع الذكر في كل مكان . وسيكون مرسمهما أول مرسم على الاطلاق في منطقة الجنوب وسوف يحافظان على تقاليد ديلاكروا ومونتيسيللي ، وسوف يغمران رسومهما بضياء الشمس وبالألوان، ويوقظان العالم على الطبيعة العربيدة . ينبغي انقاذ جوجان !

استدار فنسنت فوراً ، وانطلق في جري كجري الكلاب ، يعدو على نفس واحد نحو ساحة لامارتين ، حتّى دلف إلى المنزل الأصفر ، وصعد درجات الطوب الأحمر ، وبدأ يخطط توزيع غرف المنزل ، وهو على غاية من الانفعال ، قائلاً لنفسه : « سيكون لي ولبول غرفتا نوم هنا في الطابق العلوي ، وسنستخدم الغرف في الطابق الأرضي للرسم وسوف اشترى سريرين وفراشاً وملابس نوم وكرسيين وطاولتين . فيغدو المنزل منزلاً حقيقياً . وسوف أزين البيت كله بزهور عباد الشمس وبأشجار البساتين المزهرة . آه يا بول ، يا بول ، يا لها من بهجة أن أراك معي ثانية ! » .

– ٦ –

لم يكن الأمر بالسهولة التّي توقعها ، على الرغم من عدم ممانعة ثيو في اضافة خمسين فرنكاً على الراتب الشهري ، مقابل لوحة من جوجان في كل شهر . فما زالت هناك مسألة أجرة القطار ، وهي غير متيسرة لثيو ولا لجوجان . اضف إلى ذلك ان جوجان كان في حالة من المرض

لا يستطيع حيالها أن يتحرك ، وكان مثقلاً بالديون التي تجعل خروجه من بونتافن أمراً عسيراً ، وهو سقيم القلب الى حد يحول بينه وبين التحمس لأي مشروع جديد . وهكذا تبودلت رسائل كثيرة على جناح السرعة بين آرل وباريس وبونتافن .

وكان فنسنت في ذلك الحين شديد العشق لمنزله الأصفر . وقد اشترى لنفسه طاولة وخزانة ذات أدراج .

وكتب إلى ثيو يقول « اعلم انني سأصبح في نهاية العام رجلاً آخر . لكن لا تظن انني سأبرح هذا المكان آنذاك . لا أبداً . بل سأقضي بقية حياتي في آرل ، وأغدو رسام الجنوب . ويجب أن تأتي إلى هنا دائماً لقضاء اجازاتك . »

كان ينفق أقل المال على المتطلبات الاساسية للحياة ، وينفق الباقي بسخاء على ما يحتاجه المنزل . وصار يقف يومياً في مواجهة خيار بين نفسه وبين المنزل الأصفر . هل يشتري لحماً للغداء أو يشتري تلك الجرة الخزفية ؟ وهل يشتري حذاء أم يبتاع ذلك اللحاف الأخضر لسرير جوجان ؟ هل يوصي النجار بصنع اطار من خشب الصنوبر للوحته الجديدة أم يشتري تلك الكراسي ذات المقاعد من القش ؟

وحظي المنزل دائماً بالأفضلية .

ذلك أن المنزل الأصفر منحه احساساً بالسكينة ، اذ هو يعمل فيه لتأمين المستقبل . وكان قبل هذا سادراً مع الدوامة . يتجول هنا وهناك دونما قصد أو معنى ، أما الآن فلن يتزحزح . واذا قدر له أن يمضي فسوف يجد رسام آخر مايهمه في المكان . ان فنسنت يؤسس مرسماً ثابتاً سوف

يتوارثه الرسامون جيلاً بعد جيل ، لكي يفسروا الجنوب ويصوروه للناس . وقد تملكته فكرة رسم ديكورات للمنزل تكافىء المال الذي أعاله به أخوه طوال السنوات التي لم يكن منتجاً خلالها .

وانخرط في العمل بطاقة متجددة . وكان قد تعلم أن النظر إلى شيء فترة طويلة يساعد على نضج الفنان ويمنحه فهماً أعمق . وهكذا تردد على جبل مونماجور خمسين مرة لدراسةالحقل الواقع عند سفحه . وكانت رياح المسترال تجعل من الصعب عليه أن يربط بين لمسات فرشاته وبين أحاسيسه ، فقد كان مسند اللوحات في مهب الريح يهتز أمامه بعنف . ودأب على العمل من السابعة صباحاً حتى السادسة مساء دون أن يتحرك . واذا بالنتيجة لوحة في اليوم !

قال رولان في مساء يوم من أواخر الخريف ، وهما يجلسان في مقهى لامارتين :

– سيكون الغد يوماً لاهباً . وبعده يحل الشتاء .

سأله فنسنت :

– وكيف يكون الشتاء في آرل ؟

– حقيراً . هطولات من المطر ، وريح مزعجة ، وبرد قارس. إلا أن الشتاء قصير في هذه البلاد . لا يستديم إلا قرابة شهرين .

– معنى ذلك ان الغد سيكون آخر أيامنا الجميلة . انني أعرف البقعة التي أريد رسمها . تخيل يا رولان حديقة خريفية فيها شجرتا سرو ذواتا لون أخضر غامق ، وشكل يشبه شكل القناني ، وفيها ثلاث شجرات كستناء تكتسي أوراقها لون التبغ واللون البرتقالي .

وفيها أيضاً شجيرة سدر ذات أوراق ليمونية وجذع بنفسجي ؛ وفيها شجيرتان حرشيتان صغيرتان بأوراق حمراء دموية وقرمزية أرجوانية ، وفيها شيء من الرمال وشيء من العشب ، وفيها سماء زرقاء .

– آه يا سيدي . عندما تأخذ في وصف الأشياء أدرك انني قضيت حياتي كلها أعمى .

وفي الصباح التالي استيقظ فنسنت مع طلوع الشمس ، عالي الهمة . فشذب لحيته بالمقص ، ومشط من شعره ما أبقت له الشمس الآرلية دون أن تحرقه ، وارتدى بدلته الوحيدة الكاملة ، ثم لبس طاقيته الباريسية الصغيرة المصنوعة من فرو الأرنب ، كأنما يريد ان يقول للشمس وداعاً .

وبرهنت نبوءة رولان على صوابها . فقد أشرقت الشمس كرة صفراء من اللهب . ولم يكن للطاقية حافة أمامية ، ولذا دخلت الشمس في عينيه . وكانت الحديقة الحريفية تبعد مسافة ساعتين سيراً على الاقدام على الطريق بين آرل وتاراسكون . وتقع الحديقة منزوية على جانب أحد التلال . وغرز فنسنت مسنده في حقل قمح محصود خلف الحديقة وإلى جوارها . وألقى بطاقيته إلى الأرض ، وخلع سترته الأنيقة . وثبت اللوحة على المسند . وعلى الرغم من ان الوقت مابرح صباحاً باكراً ، فان الشمس لفحت أعلى رأسه وقذفت أمام ناظريه حجاباً من النار المتراقصة التي اعتادها .

راح يدرس المنظر أمامه بعناية ، ويحلل الالوان التي يتشكل منها ، ويضع التصميم العام في ذهنه . فلما وثق انه استوعب المنظر ،

غمد إلى فرشاياته فجهزها للعمل ، وفك الأغطية عن أنابيب الالوان ، ونظف السكين التي كان ينشر بها الالوان السميكة على اللوحة . ثم القى على الحديقة نظرة ثانية ، ووضع خطوط الصورة على قماش اللوحة أمامه ، ومزج بعض الالوان على لوح المزج ، ورفع فرشاته وهو يهم بالعمل .

واذا بهاتف من خلفه يسأل :

— الا بد لك ان تبدأ بهذه السرعة يا فنسنت ؟

فدار فنسنت حول نفسه .

— ما زال الوقت مبكراً يا عزيزي . وأمامك النهار بطوله .

حملق فنسنت في المرأة وهو يستشعر حيرة مطلقة . فاذا بها صبية ، وان تجاوزت الطفولة . وكانت عيناها في زرقة سماء كوبالتية في ليلة آرلية . وكان شعرها الذي أسدلته كتلة كبيرة منسابة حتى أسفل ظهرها ، أصفر ليمونياً في لون الشمس . وكانت تقاطيعها أرق حتى من تقاطيع كاي فوس ، لكن فيها شيئاً من استواء النضج الذي منحته اياها أرض الجنوب . أما لونها فكان ذهبياً محترقاً ، وأما أسنانها خلف شفتيها الباسمتين فبيضاء بياض زهر الدفلى اذا نظر اليه المرء من خلال دالية حمراء قانية . وقد ارتدت ثوباً طويلاً أبيض مشدوداً على خطوط جسمها ، وما من حزام عليه الا ابزيم فضي مربع عند الجنب . ولبست صندلاً بسيطاً في قدميها . وكان جسدها عفياً مكتنزاً . وهو مع ذلك ينساب تحت النظر في تموجات نقية مشتهاة .

قالت :

ـ لقد ظللت بعيدة عنك زمناً طويلاً يا فنسنت .

ثم جعلت نفسها بين فنسنت وبين مسند اللوحة ، واستندت بظهرها إلى القماشة البيضاء فحجبت عن عينيه مرأى الحديقة . والتمعت الشمس فوق شعرها الأصفر الليموني ، وأرسلت موجات من اللهب إلى أسفل ظهرها . وابتسمت المرأة له ابتسامة عاشقة من أعماق قلبها ، حتى انه مسح بيده على عينيه ليتحقق انه لم يصب بمرض مفاجيء أو بسنة من النوم .

وقالت المرأة :

ـ أنت لا تدري يا فتاي العزيز الغالي . وكيف لك ان تدري وقد ظللت بعيدة عنك ذلك الزمن كله .

ـ من أنت ؟

ـ أنا صديقتك يا فنسنت . بل خير اصدقائك في هذا العالم .

ـ وكيف عرفت اسمي ؟ انني لم اشاهدك قبل اليوم .

ـ آه صحيح .. ولكنني رأيتك مرات ما أكثرها .

ـ ما اسمك ؟

ـ مايا .

ـ مايا وحسب ؟ اهذا كل شيء ؟

ـ هذا كل ما ابوح به اليك يا فنسنت .

ـ لماذا لحقت بي إلى هنا في الحقول ؟

ـ للسبب ذاته الذي دفعني إلى اللحاق بك عبر أوروبا كلها .. وهو ان اظل إلى جوارك .

– أنت تخلطين بيني وبين شخص آخر ، فأنا لست الرجل الذي تقصدين حتماً .

وضعت المرأة يدا بيضاء ندية على شعره الأحمر الذي أحرقته الشمس ، ومسدته إلى الخلف بلطف ، ونزلت نداوة يدها ونداوة صوتها الناعم الخفيض برداً وسلاماً على قلبه .

– ليس هناك الا فنسنت فان جوخ واحد ، ولا يمكن ان اخلط بينه وبين أحد في العالمين .

– ومنذ متى تعرفينني وفق ما تقولين ؟

– منذ ثماني سنوات يا فنسنت .

– منذ ثماني سنوات كنت في ..

– نعم يا عزيزي ، في البوريناج .

– أنت تعرفينني اذن .

– رأيتك أول مرة في عصر أحد أيام الخريف المتأخرة ، وأنت تجلس فوق عجلة حديدية صدئة أمام منجم ماركاس ...

– ارقب عمال المنجم ساعة انصرافهم .

– نعم ، عندما نظرت اليك للمرة الاولى رأيتك تجلس هناك بلا عمل . وكنت موشكة على مغادرة المكان ، ثم شاهدتك تتناول من جيبك غلاف رسالة قديمة وقلم رصاص ، وتأخذ في رسم خطوط على الغلاف . عند ذلك نظرت من خلف كتفك لارى ماذا صنعت . فلما رأيته .. وقعت في الحب .

– وقعت في الحب ؟ وقعت في حبي أنا ؟

ـ نعم يا فنسنت العزيز ، يا فنسنت الطيب ، في حبك أنت .

ـ لعلني كنت آنذاك في حال غير بالغة السوء ، فلم تأنفي معها من النظر الي .

ـ لم تكن آنذاك نصف ما أنت عليه اليوم من حسن المنظر .

ـ مايا ، ان صوتك يرن في اذني رنيناً غريباً . ولم يسبق لامرأة ان خاطبتني بمثل هذا الصوت الا مرة واحدة في عمري .

ـ تعني صوت مارجو . وقد أحبتك يا فنسنت ، كما أحبك الآن .

ـ هل عرفت مارجو ؟

ـ لقد مكثت في البرابانت عامين . وكنت اتبعك إلى الحقول كل يوم . كما راقبتك وأنت تعمل في غرفة الاصطبل خلف المطبخ . وكنت سعيدة لان مارجو أحبتك .

ـ وعندئذ لم تعودي تحبينني .

فلامست عينيه بأطراف أصابعها الندية ، وقالت :

ـ بل ظللت أحبك . ولم انقطع عن حبك منذ أول يوم .

ـ الم تغاري من مارجو ؟

ابتسمت المرأة ، وقد غشي وجهها شيء من الحزن والحنان . وقالت :

ـ لا لم اغر من مارجو ، لان حبها كان مفيداً لك . لكنني لم ستحسن حبك لكاي ، فقد ادى إلى جرحك .

ـ وهل عرفتني عندما كنت واقعاً في هوى أورسولا .

– ذلك كان قبل زمني .

– لو عرفتني آنذاك لما أحببت ذلك .

– لا .

– كنت حمق

– لابد للمرء أحياناً ان يكون أحمق في البداية ، ليصبح حكيماً في النهاية .

– لكن اخبريني : لماذا لم تأتِ الي قبلا ، مادمت قد أحببتني ونحن في البرابات ؟

– لم تكن مهيأ لي يا فنسنت .

– وهل أنا مهيأ الآن ؟

– نعم .

– ومازات تحبينني حتى الآن . . . اليوم . . . في هذه اللحظة .

– الآن . . . اليوم . . . في هذه اللحظة . . . وإلى الأبد .

وكيف يسعك أن تحبيني هذا الحب ؟ وأنت لو نظرت إلى لثة أسناني لوجدتها متآكلة ، ولو نظرت إلى أسناني لوجدتها مستعارة بكاملها ، ولو نظرت إلى شعري لوجدته محترقاً فوق رأسي ، ولو نظرت إلى عيني لوجدتهما حمراوين كعيني المصاب بالسفلس . ان وجهي ليس إلا عظاماً ناتئة . وانني لقبيح . بل أنا أقبح الرجال ! وفضلاً عن ذلك فان أعصابي مبعثرة ، وجسدي أعجف ، وكل ما في داخلي مسمم من أعلى الرأس حتى أخمص القدم . فكيف يمكن لك أن تحبي حطام رجل من هذا القبيل؟

ـ هل لك أن تجلس يا فنسنت .

جلس فنسنت على عصاه ، وركعت المرأة على ركبتيها في الطمي الناعم بالحقل . إلا أن فنسنت صرخ قائلاً :

ـ لا تركعي ، لئلا توسخي ثوبك الأبيض . دعيني أضع سترتي تحتك .

أوقفته المرأة بلمسة متناهية في خفتها من يدها ، قائلة :

ـ لطالما وسخت ثيابي وأنا أتبعك يا فنسنت . لكنه لم يلبث أن عاد نظيفاً كما كان .

ثم قبضت على ذقنه بكف يدها البيضاء القوية ، وراحت تمسد بأطراف أصابعها الشعرات القليلة الباقية خلف أذنه .

ـ أنت لست قبيحاً يا فنسنت . أنت جميل . لقد ارهقت وعذبت هذا الجسد المسكين الذي يضم روحك . إلا أنك لا تستطيع أن تؤذي تلك الروح . وهي ما أحبه فيك . وعندما تنتهي إلى تدمير نفسك بهذه الافعال الوجدانية التي تقوم بها ، فان روحك سوف تبقى . . . بلا نهاية. ومعها يبقى حبي لك .

كانت الشمس قد ارتفعت ساعة أخرى في السماء . وصبت حرارة ضارية فوق فنسنت والمرأة .

قال فنسنت :

ـ اسمحي لي أن أصحبك إلى مكان رطب . ان هناك عند الطريق القائم أسفل التل بعض أشجار السرو ، وسوف تشعرين براحة أكبر في الظل .

– أنا سعيدة هنا لوجودي معك . ولا تضيرني الشمس ، لأنني تعودتها .

– أأنت في آرل منذ زمن بعيد ؟

– حضرت إلى آرل معك يوم قدمت من باريس .

قفز فنسنت غاضباً ، وركل كرسيه الصغير ، وقال :

– أنت ضرب من الخداع ! أرسلك بعضهم إلي ليسخر مني ، بعد أن أخبرك بماضي ، ودفع لك مالاً لتجعلي مني أضحوكة . اغربي عني فلن أكلمك بعد الآن !

إلا أن المرأة تلقفت غضبه بابتسامة عينيها .

– لا ، ما أنا بالخداع يا عزيزي . وإنما أنا أكثر شيء في حياتك حظاً من الحقيقة . ولن تستطيع أبداً أن تقتل حبي لك .

– هذا كذب أنت لا تحبينني . وانك تهزئين بي . وأنا سأكشف لعبتك كلها .

أمسك بها بين ذراعيه بخشونة ، فمالت نحوه مترنحة : وظل يقول :

– سوف اوذيك إذا لم تغربي عن وجهي وتتوقفي عن تعذيبي !

– هلم آذني يا فنسنت . فقد آذيتني من قبل . ووقوع الأذى بالانسان جزء من الحب .

– حسن جداً . إليك دواؤك إذن !

جذب اليه جسدها ، وهبط بفمه إلى فمها ، غائصاً بأسنانه في شفتيها بعنف كأنما يسحقها.

ففتحت له شفتين طريتين دافئتين ، وتركته يعب من حلاوة فمها. وقد استسلم جسدها بأسره إليه ، في خضوع كامل ونهائي .

ثم قذف فنسنت بها بعيداً عنه ، وقام متعثراً إلى عصاه .وغاصت المرأة في الرمل إلى جواره ، ووضعت أحد ذراعيها على ساقه وأراحت رأسها فوقه . فجعل يربت على شعرها الطويل الجزل ذي اللون الأشقر الليموني .

وسألته :

– هل اقتنعت الآن ؟

ومرت لحظات عديدة قبل أن يقول فنسنت :

– أنت موجودة في آرل منذ قدومي . فهل علمت بأمر الحمامة؟

– راشيل طفلة عذبة.

– ولا اعتراض لديك ؟

– أنت رجل يا فنسنت ، وتحتاج إلى امرأة . ومادام الوقت آنذاك لم يكن قد حان بعد لقدومي اليك ومنحك ما منحت ، فقد كنت مضطراً للذهاب حيث تستطيع . أما الآن . . .

– الآن . . . ماذا ؟

– ينبغي أن لا تفعل ذلك قط .

– أتعنين أنك سوف . . .

– طبعاً يا فنسنت العزيز . فأنا أحبك .

– لماذا أحببتني ؟ ان النساء واجهنني دائماً بالاحتقار .

— ذلك أنك لم تخلق للحب . ولكن لمهمة أخرى .

— مهمة ؟ باه ! بل كنت أحمق . فما الجدوى وراء هذه المئات من الرسومات ؟ ومن ذا يريد أن يملكها ؟ ومن ذا الذي سيقدم لي كلمة تقريظ غير منكورة ، ويقول إنني فهمت الطبيعة أو صورت جمالها.

— سيقولها العالم كله ذات يوم يا فنسنت .

— ذات يوم . ياله من حلم . وما أشبهه بحلم التفكير في أنني سأغدو رجلاً جيد الصحة ذات يوم ، وسيكون لي بيت وعائلة وعائد نقدي من رسوماتي يكفي متطلبات معيشتي . لقد مضت علي ثماني سنوات طوال وأنا أرسم . وخلال ذلك الزمن كله لم يرغب كائن من كان في شراء صورة من الصور التي رسمتها . أجل ، لقد كنت أحمق .

— أعرف هذا . ولكن يا لمثلك من أحمق مجيد . ان العالم سوف يدرك بعد ذهابك ما الذي حاولت ان تقوله . ولسوف تباع بالملايين لوحاتك التي لا تجد الآن من يشتريها بمائة فرنك . آه . انت تبتسم . لكنني أقول لك ان تلك هي الحقيقة . سوف تعلق لوحاتك في المتاحف بأمستردام ولاهاي وباريس ودريسدن وميونيخ وبرلين وموسكو ونيويورك . ولن تقدر لوحاتك بثمن ، لأنها لن تكون معروضة للبيع . وسوف تكتب الكتب عن فنك يا فنسنت ، وتستوحي حياتك القصص والمسرحيات . وسوف يكون اسم فنسنت فان جوخ مقدساً عند كل اثنين من البشر يحبان الرسم ويتحدثان عنه .

— لولا انني مازلت أحس مذاق فمك في فمي ، لقلت انني حالم، او انني جننت .

— تعال يا فنسنت . اجلس بجانبي . وضع يدك في يدي .

كانت الشمس متعامدة فوقهما . وقد غرق جانب التلة والوادي في ضباب أصفر كبريتي . واستلقى فنسنت إلى جوار المرأة ، بين خطوط الحراثة في الحقل . لقد مضت علية ستة شهور طوال وهو لا يجد من يكلمه غير رولان وراشيل . فكان في داخله فيض من الكلام . ونظرت المرأة عميقاً في عينيه ، فبدأ يتكلم . حدثها عن اورسولا وأيام عمله موظفاً في محلات جوبيل . وحدثها عن نضالاته وعن خيباته وعن حبه لكاي وعن الحياة التي حاول أن يبنيها مع كريستين . وحدثها عن آماله في فن الرسم ، وعن الالقاب التي أطلقت عليه ، وعن الضربات التي تلقاها ، ولماذا شاء أن تكون رسوماته خشنة ، وعمله غير كامل ، وألوانه متفجرة. وحدثها كيف أصبح جسده محطماً بفعل الارهاق والمرض .

وكلما أطال في الحديث ، ازداد اضطراباً . وتطايرت الكلمات من فمه كما تتطاير الألوان من الانابيب . وانتفض جسده منفعلاً . فأخذ يتكلم بيديه ، ويومىء بذراعه وكتفيه ، ويسير أمامها جيئة وذهاباً وهو يتشنج تشنجات عنيفة . وتسارع نبضه ، وفار دمه ، وحركت فيه الشمس المحرقة عاطفة محمومة النشاط .

أما المرأة فأنصتت له بهدوء ، دون أن تفوتها كلمة من كلماته . وعرف من نظرة عينيها انها تفهمه . وقد استوعبت كل ما أراد قوله ، وظلت في موضعها ، لا يزايلها الشغف والاستعداد لسماع المزيد منه ، ولفهمه ، ولتلقي فيوض نفسه التي يعجز عن اختزانها .

ثم وقف فجأة . وأخذ يرتعش اضطراباً . وأحمر وجهه وعيناه ، وارتجفت أطرافه . فجذبته المرأة من أسفل اليها .

قالت :

– قبلني يا فنسنت .

فقبلها في شفتيها اللتين لم تعودا باردتين . واستلقيا جنباً إلى جنب فوق تراب الحرث الغني المتكسر . وبادرت المرأة تقبل عينيه ، وأذنيه ، وفتحتي أنفه ، ومنحدر شفته العليا ، ورطبت داخل فمه بلسانها الحلو الناعم ، وخللت بأصابعها شعر رقبته حتى كتفيه .

لقد أيقظت قبلاتها أوجع العواطف التي عرفها طيلة حياته . واذا بكل بوصه في جسده تؤلمه ألماً فظاً ، هو ألم الجسد الذي لا يمكن ارواؤه بالجسد وحده . لم يسبق لامرأة ان وهبته نفسها وهي تقبله قبلات الحب. ثم ضم جسدها اليه .

قالت :

– تمهل .

وفكت بيدها الابزيم الفضي ، فكان لون جسدها ذهبياً محترقاً كلون وجهها . كان عذرياً ، وكل نبضة فيه عذراء . ولم يعلم من قبل ان جسد المرأة يمكن ان يكون لذيذ التكوين إلى هذا الحد ، ولا هو علم ان الحب يمكن أن يكون بهذا النقاء وبهذه الروعة وهذا اللفح الحار .

قالت :

– انت ترتجف ياعزيزي . فضمني اليك . ولا ترتجف يا عزيزي ويا حلوي الغالي . ضمني قدر ما تشتهي .

كانت الشمس تنزلق نحو الجانب الآخر من السماء . والأرض لاهبة بفعل أشعة النهار القائظة ، فواحة بروائح الأشياء التي زرعت فيها ، والأشياء التي ترعرعت والأشياء التي حصدت وماتت من جديد . فواحة

برائحة الحياة ، بعبيرها الغني الحاد كلما خلقت وكلما عادت إلى المادة التي خلقت منها .

اضطرمت عاطفة فنسنت أشد وأشد . واحتدمت كل جارحة من جوارحه بألم كان يتغلغل فيه حتى يبلغ ذروة من الذرى . وفتحت المرأة له ذراعيها ، وفتحت دفأها . وتلقت منه ذلك الرجل الذي كانه ، وأخذت إليها كل ما فيه من احتدام بركاني ، ومن عاطفة قاهرة كانت تمزق أعصابه وتفجر جسده ساعة بعد ساعة .

ونام بين ذراعيها وقد غلبه الاعياء .

فلما استيقظ إذا به وحيد . وقد غربت الشمس . وإذا بكعكة صلبة من الطين لاصقة بالحد المتعرق الذي دفنه في طمي الأرض . وكانت التربة رطبة ، ولها رائحة دواب الأرض . وارتدى سترته وقبعته ، وحزم مسند الرسم على ظهره ، ووضع قماش اللوحة تحت ذراعه ، وسار في الطريق المعتم إلى البيت .

وبلغ المنزل الأصفر ، فألقى بالمسند وباللوحة على فراشه في غرفة النوم، وخرج ليشرب فنجاناً من القهوة . وأسند رأسه بين يديه على الطاولة الباردة ذات الكسوة الحجرية . وأخذ يسترجع ما حدث له في ذلك النهار .

وتمتم لنفسه قائلاً : « مايا ، مايا ، ألم أسمع بهذا الاسم في مكان ما من قبل ؟ انه يعني . . يعني . . . عجباً ، ماذا يعني ؟

وشرب فنجاناً آخر من القهوة ، وبعد ساعة عبر ساحة لامارتين إلى المنزل الأصفر . وهبت ريح باردة في الجو ، وشم فيها رائحة المطر .

ولم يخطر بباله أن يشغل مصباح الكيروسين حينما انزل الحامل عن ظهره . ولذا اشعل عود ثقاب وأضاء المصباح على الطاولة . فأنار اللهب الأصفر الغرفة . وانجذب ناظره إلى بقعة من اللون فوق الفراش. ونهض ذاهلاً ، فسار إلى اللوحة وتناولها بيده .

وهناك رأى في وميض الضوء المدهش حديقته الخريفية بما فيها من شجرتي السرو الخضراوين الغامقتين اللتين يماثل شكلهما شكل القناني البللورية ، وثلاث شجرات الكستناء ذوات الأوراق بلون التبغ ولون البرتقال ، وشجيرة السدر بأوراقها الليمونية الفاتحة وجذعها البنفسجي ، والشجيرتين الحرشيتين وأوراقهما الحمراء الدموية والقرمزية الارجوانية ، وظهرت في مقدمة اللوحة بعض الرمال والحشائش ، وإلى الأعلى سماء زرقاء تسبح فيها كرة من النار الصفراء الكبريتية.

وقف يحدق في اللوحة بضع لحظات . ثم علقها بلطف فوق الجدار ، وعاد إلى حشيته ، وجلس عليها متربعاً ، ونظر إلى رسمه وابتسم.

قال بصوت مرتفع « مليحة . لقد نفذت بصورة حسنة . »

— ٧ —

دخل الشتاء . وصار فنسنت يقضي الايام في مرسمه الدافىء البهيج. وكتب اليه ثيو يخبره ان جوجان نزل باريس يوماً واحداً وكان في حالة من الانحطاط الذهني . وقد عارض فكرة الذهاب إلى آرل بكل قواه. ولم يكن المنزل الأصفر تبعاً لأفكار فنسنت مجرد مشروع إقامة يخص رجلين اثنين ، وإنما مرسم دائم لجميع الفنانين في الجنوب . ولذا دأب على إعداد الخطط المحكمة لتوسيع مركز ادارته حالما يقوم جوجان بتسيير

نظام العمل . وبموجب خططه يحل كل رسام راغب في الاقامة معهما على الرحب والسعة ، وعليه في مقابل هذه الضيافة ان يرسل لوحة من لوحاته كل شهر إلى ثيو . فاذا صار لدى ثيو العدد الكافي من لوحات الانطباعيين وجب ان يترك محلات جوبيل وان يفتح معرضاً مستقلاً للفنون في باريس .

وأوضح فنسنت في رسائله بجلاء ، ان جوجان سيكون مدير المرسم ورئيس جميع الرسامين العاملين فيه . وجهد فنسنت في توفير كل فرنك ممكن من أجل تأثيث غرفة جوجان . كما طلى غرفته الخاصة بلون بنفسجي فاتح ، وكان لون الأرضية أحمر قرميدياً . وابتاع لفراشه ملاءات ووسادات بلون ليموني فاتح مخضر ، وابتاع مفرشاً قرمزياً ، وقام بدهن السرير الخشبي والكراسي بلون الزبدة الطازجة . وطلى منضدة الزينة بلون برتقالي ، والحمام بلون أزرق ، والباب بلون ليلكي . وعلق عدداً من لوحاته على الجدار ، كما استغنى عن مصراعي الشباك ، وقلب المنظر بأسره إلى لوحة واحدة ، ليرى شقيقه ثيو كم كانت غرفةفنسنت مريحة . ورسم تلك اللوحة بلمسات مسطحة على طريقة الرسومات اليابانية .

أما غرفة جوجان فكانت أمراً آخر . ولم يشأ فنسنت أن يشتري أثاثاً رخيصاً لغرفة من سيكون مدير المرسم . وأكدت له مدام رولان أن ثمن السرير الذي يريده من خشب الجوز قد يبلغ ثلاثمائة وخمسين فرنكاً ، وهو مبلغ يستحيل عليه أن يجمعه . ومع ذلك شرع يشتري للغرفة أدوات أصغر ، تاركاً نفسه في حالة عوز .

وكلما خلا جيبه من المال ، ولم يكن في مقدوره استئجار النماذج

البشرية لرسوماته ، وقف أمام المرآة وراح يرسم نفسه مرة بعد مرة . وقد جاءته راشيل ومثلت أمامه ليرسمها ، وكانت مدام رولان تمثل أمامه مرة في الاسبوع ، اذ تأتيه عصراً بصحبة أطفالها . كما رسم مدام جينو زوج صاحب المقهى الذي يتناول فيه مشروباته ، وهي جالسة بزيها الآرلي . وآنذاك خط هيكلها على اللوحة بضربات سريعة في ساعة من الزمن . وجعل خلفية اللوحة ليمونية شاحبة ، والوجه رمادياً ، والثياب سوداء يتخللها ازرق بروسي خام . وأجلس المرأة على كرسي مستعار ، ذي خشب برتقالي ، وقد استندت بكوعيها على طاولة خضراء .

كذلك استطاع اقناع فتى من العساكر الزوافيين بالمثول للرسم مقابل مبلغ ضئيل . وهو فتى ذو وجه صغير ورقبة كرقبة الثور ، وعين كعين النمر . رسم فنسنت له صورة نصفية ، أظهرت زيه الأزرق ، زرقة الأواني المطلية ، وقد وشاه وشي برتقالي محمر حائل ، وطبعت فوق الصدر نجمتان ليمونيتان شاحبتان . وصور على رأسه البرونزي الماكر قبعته الحمراء ، على خلفية خضراء . وكانت النتيجة توليفة وحشية من الدرجات اللونية المتضاربة شديدة الخشونة ، التي هي سوقية بل وصارخة جداً ، ولكنها تلائم الشخصية موضوع الرسم .

وكان يجلس في شباكه ساعات وساعات ، وبيده قلم رصاص وورقة محاولاً ان يصقل براعته ليغدو قادراً أن يرسم بخطوط قليلة هيكل رجل أو امرأة أو صبي أو حصان أو كلب ، ويجعل الرأس والجسد والسيقان كلها متناسقة بعضها مع بعض . وقام أيضاً برسم نسخ للكثير من الرسومات التي أنجزها في ذلك الصيف . إذ خطر له انه اذا انتج خمسين رسماً في العام يساوي كل منها مائتي فرنك ، فلن يكون محابياً لنفسه اذا أكل وشرب باحساس من يملك الحق في طعامه وشرابه.

لقد تعلم في ذلك الشتاء بضعة أمور جيدة ، منها ان الفنان يجب أن لا يلون البشرة باللون الأزرق البروسي ، لأن ذلك يجعلها أشبه بالخشب، ومنها ان الوانه لم تكن راسخة كما ينبغي لها ، ومنها أن أهم عنصر في رسم مناطق الجنوب هو التناقض بين اللونين الأحمر والأخضر ، واللونين البرتقالي والأزرق ، واللونين الكبريتي والليلكي ، ومنها انه كان يريد في تصاويره أن يقول شيئاً مريحاً مثلما تفعل الموسيقى ، ومنها انه كان ميالاً إلى رسم الرجال والنساء محاطين بشيء من السمو الذي ترمز اليه الهالة ، وانه كان يسعى إلى إضفاء ذلك الشيء بواسطة تضمين تلاوينه اشعاعاً وذبذبة معينة ، ومنها — أخيراً — ان اولئك الذين اوتوا موهبة الفقر ، سيمكثون في فقرهم إلى الأبد .

في تلك الفترة توفي أحد الأعمام من أسرة فان جوخ وأوصى لثيو بميراث صغير . ولما كان فنسنت شديد الرغبة في مجيء جوجان اليه في آرل ، فقد قرر ثيو أن يخصص نصف ذلك المال لتأثيث غرفة نوم جوجان ولارساله إلى أخيه. وسر فنسنت بذلك كثيراً . وبدأ في وضع الديكورات للمنزل الأصفر . واحتاج إلى اثني عشر لوحاً من الخشب ليرسم عليها نباتات عباد الشمس الآرلية البديعة ، ويجعل منها سيمفونية من اللونين الأزرق والأصفر .

غير ان جوجان لم يهتز ، حتى بعدما علم انه سيحصل على أجرة القطار دون أن يدفع قرشاً . ولأمر ظل غامضاً على فنسنت ، فضل جوجان البقاء متسكعاً في بونتافن . أما فنسنت فكان متلهفاً لاتمام الديكورات وتجهيز المرسم قبل وصول الرئيس.

حل الربيع . وأخذ صف شجيرات الدفلى في الساحة الخلفية بالمنزل

الاصفر يترعرع بجنون ، ويزهر بصخب ، حتى ليوشك أن يخيل لمن يراه انه مصاب باختلال حركي في جهازه العصبي . واكتظت الأغصان بالأزهار اليانعة وبأكوام من الأزهار الذابلة على حد سواء ، وكانت خضرة الشجيرات تجدد نفسها بصورة مستمرة في طفرات قوية لا تكل .

حزم فنسنت المسند على ظهره مرة أخرى ، وخرج إلى الريف بحثاً عن نباتات عباد الشمس التي سيرسمها على ألواح الديكور . وكانت الأرض في الحقول المحروثة ناعمة الألوان ، بينماالسماء أشبه بزهرة زرقاء توشيها غيوم بيضاء . وقام برسم بعض نباتات عباد الشمس في أماكن وجودها ، ساعة الشروق أو ساعة الضحى ، وحمل بعضها الآخر معه إلى المنزل ورسمها في داخل مزهرية خضراء .

وكسا الجزء الخارجي من المنزل بمعطف أصفر طازج ، مما أثار اهتمام سكان ساحة لامارتين .

وهل الصيف وقد فرغ من العمل في المنزل . ومع الصيف جاءت الشمس المتأججة ورياح المسترال العاصفة ، والقلق المتفاقم في الجو ، والمشهد العذب المشوه المقهور الذي يبدو عليه الريف والبلدة الحجرية المستقرة في حضن التل .

ومع ذلك كله جاء بول جوجان .

وصل آرل قبل الفجر ، وانتظر طلوع الشمس في مقهى صغير من المقاهي التي تفتح طوال الليل . وقد تأمله صاحب المقهى ثم صاح :

ـ أنت الصديق ! لقد عرفتك .

ـ عم تتكلم بحق الشيطان ؟

– السيد فان جوخ اراني الصورة التي بعثت بها اليه ، وهي تشبهك كثيراً يا سيدي .

ذهب جوجان لايقاظ فنسنت . والتقيا لقاء قلبياً صاخباً . وقام فنسنت يري جوجان المنزل ، ويساعده في تفريغ حقيبته ، ويسأله عن أخبار باريس . وتحدثا حديثاً حميمياً بضع ساعات .

– هل تنوي العمل اليوم يا جوجان ؟

– هل تحسبني كارولاس دوران ، حتى أهبط من القطار فاذا بي أتناول لوح المزج ، وأديرك نحو ضوء الشمس ، وأشرع في رسمك ؟

– انما كنت اسأل .

– لا تسأل أسئلة سخيفة اذن .

– سأجعل من يومي عطلة أنا الآخر . هلم بنا ، سوف أريك البلدة.

قاد جوجان إلى أعلى التل عبر ساحة دولاميري ، ثم سارا في شارع السوق في ظاهر البلدة . وكان العساكر الزوافيون يلعبون الرياضة في الحقل خارج الثكنات ، وطرابيشهم الحمراء تلتمع تحت الشمس . وسار فنسنت في طريق داخل المتنزه الصغير أمام المدرج الروماني . وكانت النساء الآرليات يتسكعن في نزهتهن الصباحية . وسبق لفنسنت ان اشاد بجمالهن كثيراً أمامجوجان . وقال يسأله :

– ما رأيك في الآرليات يا جوجان ؟

– لا أطيق الاقتراب منهن البته .

– انظر إلى لون بشرتهن ، لا إلى أشكالهن يا رجل . انظر إلى ما فعلته الشمس بألوانهن .

— كيف البيوتات هنا يا فنسنت ؟

— ليس هنا إلا المحلات التي يرتادها الزوافيون ، وتتقاضى المرأة خمسة فرنكات .

عادا إلى المنزل الأصفر ليقوما ببعض الترتيبات المعيشية . وعلقا في المطبخ صندوقاً وضعا فيه نصف ما يملكان من نقود ، بما يكفي تلبية حاجاتهما إلى التبغ والى المصاريف الطارئة ، وبمايغطي أجرة المنزل . ووضعا في أعلى الصندوق قطعة من الورق وقلما لتسجيل كل مبلغ يخرجانه من الصندوق . ووضعا في صندوق آخر بقية نقودهما مقسمة إلى أربعة أجزاء ، للانفاق على طعامهما كل اسبوع .

— أنت طباخ جيد ، أليس كذلك يا جوجان ؟

— بل ممتاز . فقد كنت بحاراً .

— اذن فأنت من يتولى الطبخ فيما بعد . أما الليلة فسوف أطبخ الحساء على شرفك .

فلما صب الحساء ، لم يستطع جوجان أن يستسيغه .

— لا أعرف كيف مزجت هذه الخبيصة يا فنسنت . وفي وسعي القول انك ربما فعلت ذلك بالطريقة ذاتها التي تمزج بها ألوان لوحاتك .

— وما عيب ألوان لوحاتي ؟

— يا زميلي العزيز . انك ما زلت تتخبط في الانطباعية الجديدة . والأفضل لك أن تتوقف عن نهجك الحالي ، فهو لا يناسب طبيعتك .

ازاح فنسنت وعاء حسائه جانباً .

– وأنت تحكم على ذلك منذ النظرة الأولى ، أليس كذلك ؟ حقاً إنك ناقد عظيم .

– حسناً ، انظر بنفسك تر . فما أنت بأعمى . أم أنت أعمى ؟ هذه الألوان الصفراء الفاقعه مثلاً ، انها على غاية من سوء التناسق.

نظر فنسنت الى ألواح الخشب التي رسم عليها ازهار عباد الشمس.

– أهذا كل ما يخطر لك قوله عن أزهاري ؟

– لا يا زميلي العزيز ، يمكنني أن أجد الكثير مما يستأهل النقد.

– في هذه الأزهار ؟

– نعم ، بالنسبة إلى تناغمها مثلاً ، انها رتيبة وناقصة .

– هذه كذبة !

– اوه ، اجلس يا فنسنت . وكف عن النظر إلي كأنك تريد أن تقتلني . اني أكبر منك سناً بكثير ، وأكثر نضجاً . وأنت مازلت تبحث عن نفسك . فما عليك إلا أن تصغي إلي ، وسوف أعطيك دروساً مفيدة.

– آسف يا بول ، إنني في حاجة إلى مساعدتك حقاً .

– اذن فان أول ما يتعين عليك فعله هو أن تغسل دماغك من كل ما فيه من قمامة . لقد رحت تثني طوال النهار على ميسونييه ومونتيسللي . وهما لا يساويان شيئاً . ومادمت تعجب بهذا النوع من الرسم ، فلن ترسم لوحة جيدة قط .

مونتيسللي كان رساماً عظيماً . وقد عرف عن الألوان مالم يعرفه أي رسام في زمنه .

– بل كان سكيراً معتوهاً ، ولا شيء غير ذلك .

قفز فنسنت واقفاً ، وحدق في جوجان عبر الطاولة . ووقع اناء الحساء على الأرضية الحمراء القرميدية وتهشم .

– لا تقل هذا عن « فادا » ! إنني أحبه قدر ما أحب أخي تقريباً ! وإن جميع ذلك اللغو عن كونه سكيراً ومعتوهاً ليس إلا من قبيل الثرثرة الحاقدة . فما من سكير يستطيع أن يرسم لوحات مونتيسللي . لأن العمل العقلي الذي يستلزمه مزج الألوان الستة الأساسية ، وكذلك الجهد والحساب الدقيق ، والاضطلاع بالتفكير في مائة قضية خلال نصف ساعة من الزمن ، كل ذلك يتطلب عقلاً صحيحاً . بل عقلاً رصيناً . فاذا انت كررت هذه الثرثرة عن « فادا » ، فانك تغدو شريراً شأن تلك المرأة الهمجية التي صدر عنها هذا اللغو .

– تاراتاتتاني . . طرطور يا طاقيتي .

ارتد فنسنت ، كأنما القي على وجهه كوب من ماء بارد . واختنقت كلماته وانفعاله الشديد في داخله . وحاول أن يتخفف من غضبه فلم يستطع . فسار نحو غرفة نومة ، ثم خبط الباب خلفه بعنف .

– ٨ –

لما أصبح الصباح صارت المشاجرة منسية . شربا القهوة معاً ، واتجه كل منهما إلى طريق بحثاً عن منظر يرسمه . وعاد فنسنت في المساء مجهداً مما أطلق عليه موازنة ستة ألوان أساسية ، فوجد جوجان قد سبقه إلى تجهيز العشاء فوق الموقد الغازي الصغير . وتبادلا حديثاً هادئاً فترة قصيرة ،

ولكن الحديث تحول إلى سيرة الرسم والرسامين ، وهو الموضوع الوحيد الذي يتشاطران الاهتمام به .

ونشبت المعركة من جديد .

فالرسامون الذين هم محل اعجاب جوجان ، يحتقرهم فنسنت . والرسامون الذين هم محل وله فنسنت ، منبوذون عند جوجان . لقد كان الاثنان على خلاف حول كل مسألة تتعلق بمهنتهما. ولئن كان في وسعهما أن يناقشا أية مواضيع أخرى بهدوء ومودة ، فان الرسم كان بالنسبة إلى كليهما هو الطعام وهو الشراب في هذه الحياة . وكل منهما يقاتل عن أفكاره حتى آخر نقطة في قواه العصبية . وكان جوجان يملك ضعف ما يملكه فنسنت من قوة الجسد ، ولكن فنسنت اوتي من الحماسة الجارفة ما جعلهما متكافئين .

بل ان مجادلاتهما كانت تتخذ طابعاً عنيفاً مكهرباً ، حتى حيال المواضيع التي كانت موضع اتفاق بينهما . فما يفرغان من جدال إلا وقد أنهكا رأسيهما ، حتى كأنهما بطاريتانافرغتا من شحنتيهما .

صرح جوجان لفنسنت قائلاً :

— لن تصبح فناناً يا فنسنت ، إلا اذا صرت قادراً على تأمل الطبيعة في مجاليها ، ثم العودة الى مرسمك ، ورسمها في المرسم بأعصاب باردة .

— لا أريد أن أرسم بأعصاب باردة يا أهبل . وإنما بأعصاب حامية ! ولهذا جئت الى آرل .

— غير أن كل ما قمت به من عمل هنا ، إنما هو نسخ ذليل عن الطبيعة . وينبغي لك أن تتعلم كيف ترتجل عملك .

– ارتجل ؟ يا إلهي الرحيم . !

– وثمة شيء آخر ، هو أنه كان يحسن بك أن تفيد من كلام سورات . ان الرسم فن مطلق يا ولدي . وليس فيه متسع لقصصك ولأخلاقياتك التي تضمنه اياها . .

– أأنا اضمنه قضايا أخلاقية ؟ انك مجنون .

– واذا كنت ترمي الى الوعظ يا فنسنت ، فارجع إلى الكنيسة . لأن الرسم ليس إلا اللون والخط والتشكيل ، لا غير . وقد يمكن للفنان ان يعيد تصوير ما في الطبيعة من زخرف ، على أن لا يتعدى ذلك .

شخر فنسنت قائلاً :

– أتتكلم عن الفن الزخرفي ؟ إذا كان هو كل ما تستمده من الطبيعة فأحرى بك أن ترجع ثانيه إلى بورصة العقود .

– لو فعلت هذا ، فسوف آتي لسماع مواعظك الكنسية في صباح ايام الأحد . قل لي أنت يا زعيم ، ما الذي تستمده من الطبيعة ؟

– استمد عنها الحركة يا جوجان ، واستمدمنها ايقاع الحياة .

– مليح ، لقد فرغنا .

– انني اذ أرسم شمساً ، فانما أهدف الى أن أجعل الناس يحسونها دوارة بسرعة مخيفة ، وهي تشع موجات الضوء والحرارة بقوة هائلة . واذ أرسم حقل حنطة ، فانما أهدف الى جعل الناس يحسون ان الذرات الكائنة في حبة القمح تتدافع لكي تبلغ نموها وتفجرها النهائي. وإذ أرسم تفاحة ، فانما أهدف الى جعل الناس يحسون ان عصير تلك التفاحة مندفع

من قلبها ليخرج من جلدتها ، وان البذور تجاهد للخروج إلى العالم الخارجي لكي تؤتي ثمرتها من جديد !

— كم مرة أفهمتك يا فنسنت ان الرسام لا يصح أن تكون له نظريات .

— خذ هذا المنظر لكوم من العنب يا جوجان وتأمله ! إن هذه الاعناب تكاد تتفجر وتنبجس في عينك . واليك هذا النهر الصغير ، ادرسه ، تجد انني أردت أن أجعل الناس يحسون بآلاف الأطنان من الماء التي صبت في ضفتيه . ثم إنني إذ ارسم لوحة رجل ، فانني أهدف إلى جعلهم يحسون دفق حياته بأسرها ، وجميع مارآه ومافعله وماقاساه!

— ما الذي تريد بحق الشيطان أن تصل اليه ؟

— إلى ما ذكرته لك يا جوجان . إلى أن الحقول التي تطلع الحنطة، والمياه التي تندفع في النهير ، والعصير الذي يمور داخل حبات العنب ، والحياة التي تفصح عنها صورة الرجل وتتدفق بها ، كل ذلك في جوهره واحد يماثل بعضه بعضا . ان الوحدة القائمة في الحياة هي وحدة الايقاع . انه الايقاع الذي نرقص عليه جميعاً ، سواء كنا بشراً ، او تفاحاً ، أو أنهراً ، أو حقولاً محروثة ، أو عربات وسط السنابل ، أو بيوتاً ، أو خيولاً أو شمساً في السماء . ان المادة التي تعمرك يا جوجان سوف تتفتت غدا وتدخل في تركيب شجرة عنب ، لأنك والعنب شيء واحد . انني إذ ارسم فلاحاً يعمل في الحقل أهدف الى جعل الناس يحسون ان الفلاح ينساب في باطن الأرض ، مثلما هو حال الحنطة ، وان التربة تنساب صعوداً في الفلاح . انني اهدف إلى جعلهم يحسون ان الشمس تصب في الفلاح وفي الحقل وفي الحنطة وفي الحرث وفي الخيول . وان هذه العناصر

بدورها تصب في الشمس من جديد . واذا انت بدأت في استشعار الايقاع الكوني الذي يتحرك كل شيء في الأرض وفقاً له ، عندئذ تبدأ في فهم الحياة . وتعرف ان الله واحد .

– معك حق يا زعيم .

كان فنسنت في قمة انفعاله ، يرتعش من حمى حماسته . فاذا بكلمات جوجان تصفعه على وجهه . وعندها وقف يحملق في بلادة ، وما زال فمه مفتوحاً .

– ماذا تعني بقولك : معك حق يا زعيم ؟

– اعني ان الوقت قد حان لذهابنا إلى المقهى وشرب كأس من الابسنث .

وفي نهاية الأسبوع الثاني قال جوجان :

– دعنا نذهب هذه الليلة إلى مبغاك الذي حكيت لي عنه . فلعلني أجد فيه بنتاً سمينة ظريفة .

– عليك ان تبتعد عن راشيل ، فهي لي .

سارا في متاهة الممرات الحجرية ودخلا مبغى توليرانس . وحالما سمعت راشيل صوت فنسنت هرعت من الردهة والقت نفسها بين ذراعيه . وقدم فنسنت جوجان إلى لويس .

فقال لويس :

– سيد جوجان ، انك من الفنانين . ولعلك تعطيني رأيك في لوحتين اشتريتهما من باريس في العام الماضي .

– يسرني ذلك . من أين اشتريتهما يا ترى ؟

– من محلات جوبيل في ساحة الاوبرا . انهما معلقتان هنا في الصالون الأمامي . فهل تدخل يا سيدي ؟

قادت راشيل فنسنت إلى غرفة على اليسار ، واجلسته على كرسي بجوار احدى الطاولات ، وجلست على ركبتيه .

دمدم فنسنت يقول :

– مرت ستة شهور وأنا ارتاد هذا المحل ، دون ان يسألني لويس رأيي في صورتيه .

– هو لا يراك فناناً يا مهووس .

– لعله على حق .

قالت راشيل عابسة :

– أنت لم تعد تحبني .

– لاي سبب تقولين هذا يا حمامة ؟

– لانك لم تحضر لتراني منذ عدة أسابيع .

– كنت مشغولاً بترتيب المنزل تمهيداً لمجيء صديقي .

– أنت اذن تحبني ، ولو كنت بعيداً عني .

– ولو كنت بعيداً عنك .

لوت اذنيه الصغيرتين المستديرتين ، ثم قبلتهما واحدة بعد الاخرى

– هل تعطيني اذنيك الصغيرتين العجيبتين ، لتثبت لي صدق حبك ؟ لقد وعدتني من قبل ان تفعل .

– اذا استطعت انتزاعهما من مكانهما ، فهما لك .

– آه يا مهووس ، انهما أشبه بأذنين مخيطتين في رأسك ، كما هو حال اذني دميتي .

وسمعا صرخة من الغرفة المواجهة للقاعة ، وجلبة شخص يصيح ضاحكاً أو متوجعاً . فألقى فنسنت براشيل جانباً ، وجرى عبر القاعة ودخل الصالون .

كان جوجان مرتمياً على الأرض متشنجاً والدموع تنهمر من عينيه . وقد جلس لويس إلى جواره يحدق فيه والمصباح بيده ، وقد مسه الخبال . وانحنى فنسنت فوق جوجان وراح يهزه .

– بول ، بول ، ماذا حدث ؟

حاول جوجان ان يتكلم فلم يستطع . ثم قال لاهثاً بعد حين :

– فنسنت ... اخيراً ... برئت ساحتنا ... انظر ... انظر ... إلى أعلى على الجدار ... الصورتين ... اللتين اشتراهما لويس من جوبيل ... لتعليقهما في صالون مبغاه ... ان اللوحتين هما من أعمال بوجرو .

وقام يتعثر في سيره ، ماضياً إلى باب الخروج . فصاح فنسنت وهو يحث الخطى وراءه :

– انتظر لحظة . إلى أين أنت ذاهب ؟

– إلى مكتب التلغراف . يجب ان ابرق هذه الأنباء فوراً إلى نادي باتينول .

حل الصيف بقيظه الفظيع اللاهب . وتفجر الريف بمظاهرة من الالوان ، فكانت الخضراء والزرقاء والصفراء والحمراء حادة

إلى درجة تصدم العين . والشمس تحرق حتّى النخاع ، كل شيء تلامسه . وكان وادي الرون يلتمع بموجة اثر موجة من الحرارة الجارفة. ولفحت الشمس الرجلين الرسامين ، وهرستهما وخبصتهما خبص العجينة ، واستنزفت كل ما فيهما من مقاومة . وجاءت رياح المسترال تصفع جسديهما ، وتجلد أعصابهما ، وتزلزل رأسيهما فوق عنقيهما حتّى خيل اليهما انهما سيتفجران أو يسقطان صريعين . وظلا ، مع ذلك ، يخرجان كل صباح مع طلوع الشمس ، ويعملان حتّى تطغى زرقة الليل الزاعقة على زرقة النهار الصائحة .

أما فيما بين فنسنت وجوجان ، اللذين كان أولهما بركاناً حقيقياً ، وثانيهما مرجلا يغلي دون توقف ، فكانت ثمة معركة ضارية تتأهب للاندلاع . وكلما عز عليهما النوم في الليل ، بسبب الارهاق ، ولم يتمكنا من الاخلاد للسكينة ، بسبب توترهما العصبي ، وجه كل منهما طاقته العصبية بأجمعها تجاه الاخر . وزاد الطين بلة ان نقودهما شحت . وما من وسيلة متيسرة للتسلية . وهكذا وجدا في المشاققة متنفساً لعواطفهما المكبوتة . فجوجان لا يمل قط من استفزاز فنسنت وإثارة حفيظته ، فاذا بلغ فنسنت ذروة هياجه القى في وجهه بتلك العبارة « معك حق يا زعيم » .

— فنسنت ، لا عجب في عدم قدرتك على الرسم . انظر إلى الفوضى الضاربة في هذا المرسم . وإلى الاختلاط الحاصل في علبة الوانك . يا إلهي ! لو لم يكن مخك الهولندي ملذوعاً بلذعة دوديه ومونتيسللي ، لربما فكرت في تنظيف المرسم وفي ادخال شيء من النظام إلى حياتك .

– هذا لا يعنيك يا جوجان . فالمرسم مرسمي . ولك ان تفعل بمرسمك أنت ما تشاء .

– مادمنا نتحدث في الموضوع ، فلابأس ان أخبرك ان دماغك مشوش تشوش علبة الوانك . انك معجب بكل رسام من رسامي طوابع البريد في أوروبا ، ومع ذلك ، فأنت عاجز ان ترى ان ديجا ...

– ديجا ! ما الذي رسمه ديجا مما يستحق ان يقارن بعمل من أعمال ميليه ؟

– ميليه ! ذلك المائع ! ذلك ال ... !

كان فنسنت يصاب بالخبال حين يستمع إلى هذا التحقير ينصب على ميليه الذي يعده معلمه ووالده الروحي . وعندئذ يهب كالعاصفة خلف جوجان، من غرفة إلى غرفة . ويهرب جوجان . والمنزل صغير . وفنسنت يصرخ في اثره ، ويلقي عليه الخطب ، ويهز قبضتيه في وجه جوجان القوي .

كان – كلاهما – يعمل كالعفاريت للوصول بنفسيهما . وبموهبتيهما إلى نقطة الاثمار . وراحا يكافحان يوماً بعد يوم ، للسيطرة على الوانهما الملتهبة ، كما راحا يتشاجران ليلة بعد ليلة حول ذواتيهما المختلفتين . وهب انهما كانا في غير حالة الشجار العنيف ، لقد كانت مناقشاتهما الودية متفجرة إلى حد يتعذر معه استدعاء النعاس . ووصلت النقود من ثيو . فأنفقاها فوراً على التبغ والابسنث . وكان الجو حاراً إلى حد لا يشتهى معه الطعام . وحسبا أن الابسنث قد يهدىء أعصابهما ، ولكنه لم يفعل الا العكس .

وهبت عاصفة كاسحة فظيعة من رياح المسترال. فألجات الرجلين

إلى المنزل . ولم يتمكن جوجان من العمل في ذلك الجو ، ولذا جعل يقضي وقته في استفزاز فنسنت ودفعه إلى حالة من الفوران . ذلك ان جوجان لم يصادف في حياته كلها رجلاً كفنسنت ، تثور ثائرته إلى هذا الحد ، دفاعاً عن مجرد أفكار .

قال له بعد مضي اليوم الخامس من أيام المسترال ، بعد ان عذبه إلى درجة هان معها الاعصار العاصف في الخارج عن العاصفة الدائرة داخل المنزل الأصفر :

— من الخير لك ان تهدأ يا فنسنت .

— وأنت ؟ الا تهدأ ؟

— أنا رجل ألف كثيراً ان يرى عدداً ممن عاشروه وجادلوه يصابون بالجنون .

— اتهددني ؟

— لا ، ولكنني أحذرك .

— وفر عليك تحذيراتك .

— مليح . ولكن لا تلمني اذا حدث شيء .

— اواه يا بول يا بول . لنتوقف عن هذا الشجار الأبدي . انني أعرف أنك رسام يفوقني . وأعرف أنك تستطيع ان تعلمني الشيء الكثير . ولكنني لن أسمح لك باهانتي . هل تسمع ؟ لقد كدحت طيلة تسع سنوات ، وقد أصبح لدي ، وحق المسيح ، ما أقوله في هذا الميدان الضاري ، ميدان الرسم ! فاعترف بذلك الآن . أليس لدي ما اقوله ؟ تكلم يا جوجان .

– معك حق يا زعيم !

انحسرت عاصفة المسترال . وتجاسر الآرليون على الخروج إلى الشوارع من جديد . وعادت الشمس القادحة . وخيم على آرل مرض من أمراض الحمى المستعصية . وشغلت الشرطة بجرائم العنف . وسار الناس في الشوارع وفي عيونهم اضطراب متأجج . ما من ضحكة على وجه ولا كلمة على لسان . كانت سطوح المنازل الحجرية تغلي تحت الشمس . ووقعت حوادث ومشاجرات وطعن بالسكاكين في ساحة لامارتين . وفاحت رائحة الكارثة في الجو . لقد كانت آرل محتقنة إلى حد يصعب معه تحمل المزيد من الضغط .

واستعاد فنسنت في ذهنه حديث الصحفي الباريسي .

وسأل نفسه « على أي وجه من الوجهين ستكون النهاية ؟ بزلزال ؟ أم بثورة ؟ »

وظل على الرغم من ذلك كله يرسم في الحقول دون ان يغطي رأسه بقبعة . كان في حاجة إلى ذلك القيظ الأبيض الذي يعمي العيون ، ويحول العواطف المخيفة التي تعتمل في داخله إلى عصارة . وأصبح دماغه بوتقة مشتعلة تنتج لوحة ملتهبة في أعقاب لوحة .

وازداد احساسه حدة مع كل لوحة من هذه اللوحات ، ان لسنواته التسع الطوال التي قضاها في العمل ، تحولت خلال هذه الأسابيع القليلة المشحونة بالعمل الأضافي ، إلى قوة سوف تتوجه في لحظة واحدة رساماً كاملاً مجيداً . لقد فاق رسمه في هذا الصيف جميع رسوماته السابقة في الصيف الفائت . ولن يقيض له بعد اليوم

ان يبيع مثل هذه الرسومات التي تعبر بصورة مطلقة عن جوهر الطبيعة وجوهر نفسه معاً .

كان يرسم ابتداء من الساعة الرابعة فجراً ، حتى يسرق الليل منه المشهد الذي يراه . وكان يبدع لوحتين بل وثلاث لوحات في اليوم الواحد . وانه ليريق في الرسم الواحد عاماً كاملاً من دم قلبه ، لانه يضع في ذلك الرسم مزقاً من صميم كيانه . لم يكن يعنيه مقدار الزمن الذي يمكثه على الأرض . وانما يعنيه العمل الذي قام به في أيام حياته . فالزمن بالنسبة اليه يقاس بالرسومات التي انجزها ، لا بأوراق التقويم التي يقلبها .

لقد أدرك ان فنه بلغ احدى الذرى ، وان تلك البرهة كانت أعلى نقطة في حياته ، واللحظة التي جهد للوصول اليها طيلة سنواته الماضية . وما كان يدري هل تطول أم تقصر . فكل ما كان يدريه ان عليه ان يرسم صوراً أثر صور ... ويزداد رسماً لوحة بعد لوحة . فهذه الذروة من حياته ، وهذه النقطة في اللانهاية ، يجب التمسك بها واسنادها ودفعها قدماً حتى ينتهي من ابداع جميع تلك الصور التي حبلت بها روحه .

هكذا مرت أيامهما في تلك الآونة .. يرسمان طيلة النهار ، ويتعاركان طيلة الليل ، لا ينامان اطلاقاً ، ولا يأكلان الا القليل ، وانما يتخمان بالشمس وبالالوان ، وبالتبغ والابسنث ، ويتمزقان نهب عناصر الابداع ونهب اندفاعهما إلى الابداع . ويمزق واحدهما الآخر بنوبات غضبهما وعنفهما ، وما تفتأ حدتهما في تصاعد .

كانت الشمس تضربهما ، ورياح المسترال تجلدهما . والالوان

في الطبيعة تسمل عيونهما . وشراب الابسنث يملأ أحشاءهما الفارغة بالحمى الورمة .

قام جوجان برسم فنسنت اثناء انكباب الاخير على رسم طبيعة صامتة . وحدق فنسنت في الصورة . ففهم للمرة الاولى بجلاء ، ما الذي يعتقده جوجان في شخصه .

قال :

– هي صورتي فعلاً . ولكنها صورتي وقد أصبت بالجنون .

وفي تلك الليلة قصدا المقهى . وطلب فنسنت كأس ابسنث خفيفاً . وعلى حين غرة قذف بالكأس وما فيه نحو رأس جوجان . وتفادى جوجان الرمية . ثم أمسك بفنسنت بين ذراعيه ، وحمله عبر ساحة لامارتين . ووجد فنسنت نفسه في السرير فنام من فوره .

في الصباح التالي قال في هدوء شديد :

– عزيزي جوجان . اذكر – على نحو مشوش – انني اعتديت عليك في الليلة الماضية .

فقال جوجان :

– انني اسامحك عن طيب خاطر ، من كل قلبي . الا ان مشهد الأمس قد يتكرر ثانية . ولو انك أصبتني ، فربما أدى ذلك إلى فقدان سيطرتي على نفسي ، وربما خنقتك . لذا اسمح لي ان اكتب إلى شقيقك واخبره انني سأغادر هذا المكان عائداً إلى باريس .

– كلا ! كلا ! لن تفعل ذلك يا بول . اتترك المنزل الأصفر ، وقد اعددت كل شيء فيه من أجلك ؟

راحت العاصفة تتفاقم طيلة ساعات النهار . وكافح فنسنت كفاح المستميت الاحتفاظ بجوجان . ورفض جوجان كل فكرة من هذا القبيل . فجعل فنسنت يتوسل ، ويداهن ، ويسب ، ويهدد ، بل وبلغ حد البكاء . واثبت في تلك المعركة انه الأقوى . فقد خيل اليه ان حياته بأسرها تتوقف على بقاء صديقه في المنزل الأصفر . فلما اسدل الليل ستوره كان جوجان مرهقاً ، واستسلم ليحظى بشيء من الراحة .

غير ان كل غرفة من غرف المنزل الأصفر كانت مشحونة مائجة بتوتر مكهرب . ولم يستطع جوجان ان ينام . ولكنه أغفى قليلاً قرب الفجر .

واستيقظ على احساس غريب ساوره وهو نائم . فشاهد فنسنت يقف منحنياً على سريره ، ويحدق فيه في الظلمة .

فتساءل مقطباً :

— ما حكايتك يا فنسنت ؟

فسار فنسنت إلى خارج الغرفة ، وعاد إلى سريره ، واستغرق في نوم ثقيل .

وفي الليلة التالية انتبه جوجان من منامه على الاحساس الغريب ذاته . واذا بفنسنت منحن على سريره ، يحدق فيه في الظلمة .

— اذهب إلى سريرك يا فنسنت .

فاستدار فنسنت خارجاً .

وفي مساء اليوم التالي انخرطا في شجار وحشي بشأن الحساء . وصاح جوجان :

ـ لقد أضفت إلى الحساء شيئاً من الالوان يا فنسنت ، من وراء ظهري .

ضحك فنسنت . وسار نحو الحائط وكتب بالطباشير :

اني القديس راشد

ذو النهى والعقل راشد

ومرت عليه بعد ذلك بضعة أيام وهو شديد الهدوء . يبدو عليه الاكتئاب وسوداوية المزاج . ولا يكاد يكلم جوجان اطلاقاً . بل انه لم يتناول فرشاة الرسم مرة واحدة . ولم يزاول القراءة . واكتفى بالجلوس على كرسي محملقاً في الفراغ أمامه .

وفي عصر اليوم الرابع ، اثناء هبوب المسترال بصورة لعينة ، طلب من جوجان ان يرافقه في مسيرة . قائلاً :

ـ لنذهب إلى المتنزه .. لانني أريد ان أخبرك شيئاً .

ـ الا يمكنك ان تخبرني به هنا ، ونحن مرتاحان .

ـ لا ، لا استطيع ان اتكلم وأنا جالس . ينبغي ان امشي .

ـ مليح جداً ، مادام ذلك ضرورياً .

سلكا طريق العربات الذي يتلوى على الجانب الأيسر من البلدة . وبلغ من عنف المسترال ان وجدا أشجار السرو في المنتزه وقد الوت بها الريح حتى كادت تلامس الأرض .

وهناك قال جوجان لفنسنت ، وهو يصيح في اذنه ، والريح تتخطف كلماته قبل ان يلتقطها فنسنت :

ـ ما الذي تريد ان تخبرني به ؟

ـ بول . لقد فكرت طويلاً في الأيام القليلة الماضية . وظفرت بفكرة مدهشة .

ـ معذرة اذا كنت على حذر من أفكارك المدهشة .

ـ لقد فشلنا جميعاً بوصفنا رسامين . هل تدري لماذا ؟

ـ ماذا ؟ لم اسمع كلمة واحدة مما تقول . فازعق في اذني .

قال فنسنت بصوت مرتفع :

ـ هل تعلم لماذا فشلنا جميعاً بوصفنا رسامين ؟

ـ لا . لماذا ؟

ـ لان كلا منا يرسم على حدة !

ـ ماذا بحق الشيطان ؟

ـ ان واحدنا يرسم أشياء معينة على نحو جيد ، وأشياء اخرى على نحو رديء . ويحشر هذه وتلك في اللوحة ذاتها

ـ لقد علقتني بكلماتك يا زعيم .

ـ هل تذكر الرسامين الشقيقين الهولنديين ؟ وكيف كان أحدهما بارعاً برسم المناظر الطبيعية والثاني بارعاً في رسم الأشخاص . لقد رسما بعد ذلك لوحاتهما معاً . وكان الأول يرسم المناظر الطبيعية والثاني يرسم الأشخاص في اللوحة ذاتها ، وهكذا أصابا النجاح .

ـ ماذا تريد ان تقول بجملة مفيدة ؟

ـ ماذا ؟ لا استطيع سماعك . اقترب مني .

ـ قلت : استمر في كلامك !

– بول ، هذا ما ينبغي ان نفعله : أنت ، وأنا ، وسورات ، وسيزان ، ولوتريك ، وروسو . يجب ان نعمل جميعاً في اللوحة ذاتها ، فيضع كل منا فيها الشيء الذي يتقنه . فيتولى سورات الجو ، وتتولى أنت المنظر الطبيعي ،وسيزان السطوح ،ولوتريك الأشخاص ، وأنا الشمس والقمر والنجوم . فاذا عملنا معاً أصبحنا فناناً واحداً عظيماً . ماذا تقول ؟

– تاراباتاتيّي .. طرطور يا طاقيّي .

وانفجر في ضحك وحشي خشن . ونثرت الريح هزأه على وجه فنسنت كما تنثّر زبد البحر .

وحين التقط جوجان أنفاسه صاح :

– اذا لم تكن هذه هي أعظم فكرة في الوجود ، فأنا لا أفهم شيئاً . اعذرني فانني أريد ان انبح .

وعاد يقهقه ثانية وهو يهبط الممر ، وقد أمسك بأمعائه بين يديه ، واستخفه مرح بالغ .

أما فنسنت فوقف ساكناً تماماً .

وخرت عليه من السماء اسراب من طيور سوداء . آلاف من طيور سوداء تنعق في وجهه وتنقر جلده . وجعلت تحلق حوله وتصطدم به وتغمره وتطير عبر شعر رأسه وفي داخل أنفه واذنيه وعينيه ، دافنة اياه في غيمة سوداء كثيفة خانقة من الأجنحة الرفافة .

وعاد اليه جوجان وقال :

– هلم بنا يا فنسنت . دعنا نذهب إلى ماخور لويس . فانني أحس بالحاجة إلى احتفال على شرف فكرتك النفيسة .

تبعه فنسنت إلى شارع دي ريكوليت صامتاً .

وهناك صعد جوجان إلى الطابق العلوي بصحبة إحدى الفتيات .

وجلست راشيل في حجر فنسنت ، على كرسي بغرفة القهوة . وسألته :

– ألن تصعد معي إلى أعلى يا مهووس ؟

– لا .

– لم لا ؟

– ليست معي خمسة فرنكات .

– أتعطيني اذنك بدلاً عن الفرنكات ؟

– نعم .

وعاد جوجان بعد لحظات . فسار الرجلان هابطين التل نحو المنزل الأصفر . وازدرد جوجان طعام العشاء . ثم نهض منصرفاً إلى الباب الأمامي دون كلام . ولم يكد يقطع ساحة لامارتين حتى سمع وراءه وقع خطى يميزها جيداً بقصرها وسرعتها واضطرابها.

فاستدار نحوه . وإذا بفنسنت يهجم عليه وفي يده موس حلاقة مفتوحة.

وقف جوجان ثابتاً ، ونظر إلى فنسنت .

فتوقف فنسنت على مسافة قدمين لا أكثر . وحملق في جوجان في العتمة . ثم طأطأ رأسه ، واستدار ، وراح يعدو نحو البيت .

ذهب جوجان إلى فندق . واستأجر غرفة ، أغلق بابها عليه ، وأوى إلى النوم .

دخل فنسنت إلى المنزل الأصفر ، وسار صاعداً على الدرجات الحجرية الحمراء ، قاصداً غرفة نومه . وهناك تناول المرآة التي طالما استخدمها أثناء قيامه برسم نفسه مرات عديدة ، ووضعها على طاولة الزينة المستندة إلى الحائط .

نظر في المرآة إلى عينيه المطبقتين على احمرارهما .

لقد حلت النهاية . لقد انتهت حياته . وهذا ما ينطق به وجهه . وخير له أن يضع بيده حداً لتلك الحياة .

رفع الموس . وأحس بقشعريرة حدها القاطع على جلد عنقه. وخاطبته الأصوات تهمس له قصصاً غريبة :

وألقت الشمس الآرليه جداراً من النار التي تعشي العيون ، ما بين عينيه وبين زجاج المرآة .

ومد يده بالموس ، فقطع أذنه اليمنى .

ولم يستبق إلا شيئاً ضئيلاً من شحمة الأذن .

ثم ألقى بالموس . وضمد رأسه بالمناشف ، إلا أن الدماء نزفت على الأرض .

رفع أذنه من الحوض ، وغسلها بالماء ، ولفها في قطع متتالية من ورق الرسم . ووضع اللفافة في جريدة .

ارتدى قبعة اسبانية فوق الضماد الكثيف . وهبط الدرجات إلى الباب

الأمامي . واخترق ساحة لامارتين ، وصعد التل ، وقرع جرس منزل توايرانس رقم ١ .

فتحت خادمة باب المنزل . فقال :

– ارسلي راشيل لتراني .

خفت اليه راشيل في لحظة واحدة .

– اوه . . . أهذا انت يا مهووس ؟ ماذا تريد ؟

– جلبت لك شيئاً .

– لي ؟ أهي هدية ؟

– نعم :

– ما ألطفك يا مهووس .

– حافظي عليها جيداً : إنها تذكار مني .

– أي تذكار ؟

– افتحي ، وسوف ترين .

فتحت راشيل اللفافات . وحدقت برعب في الاذن . ثم سقطت مغشياً عليها فوق العتبة.

استدار فنسنت عائداً أدراجة . هبط التل . عبر ساحة لامارتين . أغلق باب المنزل الأصفر خلفه . اوى إلى فراشه .

وحين عاد جوجان في السابعة والنصف من صباح اليوم التالي وجد حشداً من الناس متجمعاً في مقدمة المنزل ، ووجد رولان يصفق على يديه في أسى .

قال رجل من الواقفين ، يرتدي قبعة من القش تشبه البطيخة .

– ما الذي فعلته برفيقك يا سيد ؟

كانت لهجته قاطعة قاسية .

– لا أعرف .

– اوه ، بل تعرف جيداً . لقد مات .

مضت برهة طويله قبل أن يتمكن جوجان من لم شتات نفسه . وتراءى له أن الحشد يحدجه بنظرات تكاد تمزقه ارباً ، وتطبق على خناقه.

قال أخيراً :

– لنصعد إلى الأعلى يا سيد . وهناك نستطيع أن نبين الأمور .

كانت المناشف المنقوعة بالدم ملقاة على أرض الغرفتين السفليتين ؛ وقد لطخ الدم الدرجات التي تقود إلى غرفة نوم فنسنت . وفي السرير استلقى فنسنت ملفوفاً بالملاءات مكتوماً كأنه ثور ذبيح. وبدا فاقد الحياة فمد جوجان يده في رقة متناهية يتحسس الجسد المسجى . فاذا به دافيء. ومن هنا استعاد جوجان جميع قواه بغتة ، وارتدت اليه روحه .

قال لمفتش الشرطة بصوت خفيض :

– لتتعطف يا سيدي بايقاظ هذا الرجل بأشد العناية . واذا سألك عني فأخبره انني غادرت إلى باريس ، لأن رؤيته إياي قد تؤدي إلى موته .

بعث مفتش الشرطة في طلب طبيب وعربة اسعاف . وحملوا فنسنت إلى المستشفى . وراح رولان يعدو إلى جوار العربة لاهثاً .

- ٩ -

كان الطبيب فيليكس ري ، وهو الطبيب المقيم في مستشفى آرل، رجلاً قصيراً بدين الجسم ، له رأس ثماني الشكل ، برز في أعلاه شعر أسود بنبات طالع من الأرض . وقد عكف على اسعاف جرح فنسنت، ثم وضعه في سرير داخل غرفة كالزنزانة ، اخليت من جميع ما فيها . وأغلق الباب خلفه حينما غادر الغرفة .

وعاد في ساعة الغروب ليفحص نبض مريضه ، فصحا فنسنت . وحدق في الزنزانة لحظة ، واجال نظره في الجدار الأبيض ، ثم نظر خارج النافذة إلى السماء الزرقاء المغبشة بغبشة المساء . وعاد يتطلع وئيداً إلى وجه الدكتور ري :

قال برقة :

- مرحباً .

فرد عليه الدكتور ري :

- مرحباً .

- أين أنا ؟

في مستشفى آرل .

- اوه .

عرت وجهه ومضة من الألم : ورفع يده إلى موضع أذنه اليمنى المفقودة . فأوقفه الدكتور ري قائلاً :

- يجب أن لا تلمسها .

– نعم . . . أتذكر . . . الآن . .

– انه جرح نظيف ظريف يا شيخ . وسوف أنهضك على قدميك في غضون أيام قلائل .

– أين صديقي ؟

– عاد إلى باريس .

– . . . فهمت . . . هل لي أن أدخن غليوني ؟

– ليس الآن يا شيخ .

قام الدكتور ري بتطهير الجرح بالمحاليل ، ثم لفه بالضمادات . وقال :

– هي حادثة قليلة الاهمية للغاية . والانسان ، بعد كل حساب ، لايسمع بواسطة هذه الكرنبات التي ألصقها على جانبي رأسه . انك لن تشتاق إليها .

– أنت رؤوف جداً يا دكتور . لماذا أرى الغرفة عارية من كل أثاث ؟

– أوعزت باخلائها من أجل وقايتك .

– ممن ؟

– من نفسك .

– . . . نعم . . . فهمت . . .

– حسناً . يجب أن أذهب الآن . سوف أرسل المشرفة ومعها العشاء. حاول أن لا تتحرك ، لأن الدم الذي نزفته أضعف جسدك .

حين استيقظ فنسنت في الصباح ، وجد ثيو يجلس إلى جوار سريره ، وقد شحب وجهه وتجعد ، واحتقنت عيناه بالحمرة .

قال فنسنت :

– ثيو .

ازاح ثيو كرسيه . وركع على ركبتيه عند السرير ، وأمسك بيد فنسنت . ثم بكى دون تحفظ ولا خجل .

– آه يا ثيو . . . دائماً . . . حين أصحو . . . وأحتاج اليك . . . أجدك إلى جواري . . . .

لم يقو ثيو على الكلام .

– كان أمراً قاسياً عليك أن تتجشم قطع هذه المسافة كلها إلى هنا. كيف عرفت بخبري ؟

– أبرق لي جوجان أمس . ولحقت بقطار المساء .

– كان جوجان على خطأ في تجشيمك هذه التكاليف كلها . لابد أنك قضيت الليل كله جالساً ياثيو .

– نعم يا فنسنت .

خيم عليهما الصمت برهة من الوقت .

– تحدثت إلى الدكتور ري يا فنسنت . إنه يقول ان ما جرى لك كان ضربة شمس . اذ كنت تعمل في الشمس دون ارتداء قبعة على رأسك . أليس كذلك ؟

– بلى .

شد فنسنت على يد أخيه برفق . وحاول ثيو أن يبتلع الغصة التي جاشت في حلقه .

– عندي أخبار لك يا فنسنت . ولكن أظن من الأفضل تأجيلها بضعة أيام .

– أهي أخبار سارة يا ثيو ؟

– أظنك سترتاح اليها .

جاء الدكتور ري متفقداً .

– كيف هو مريضي هذا الصباح ؟

– دكتور ، هل في وسع شقيقي أن يخبرني أخباراً سارة ؟

– أعتقد أن لا مانع . لكن انتظر قليلاً . دعني أتفحص هذا . نعم . عظيم ، عظيم . سوف يشفى سريعاً .

وحالما غادر الطبيب الغرفة ، توسل فنسنت إلى أخيه ملحاً في طلب الأخبار .

قال ثيو :

طيب . لقد . . . لقد . . . قابلت فتاة .

– أكمل يا ثيو ، أكمل .

– نعم ، هي فتاة هولندية تدعى جوهانا بانجر . وأعتقد أنها تشبه والدتنا في كثير من صفاتها .

– هل تحبها يا ثيو ؟

– أجل . لقد داهمتني وحدة مريرة بعد رحيلك عن باريس يا فنسنت . ذلك اننا بعدما أقمنا سوياً طيلة عام ...

– كانت عشرتي صعبة عليك يا ثيو ، وأخشى أنني اريتك وقتاً عصيباً .

– اوه يا فنسنت ، لو تعرف كم مرة تمنيت لو أعود إلى الشقة في شارع ليبيك فأجد حذاءك عند المنضدة ، وأجد لوحاتك التي لم تجف فوق سريري . غير أننا يجب أن لا نكثر من الكلام . انك ينبغي أن تستريح . فنحن باقيان هنا معاً .

مكث ثيو في آرل يومين . ولم يغادرها إلا بعد أن أكد له الدكتور أن فنسنت سيتماثل للشفاء سريعاً . وان الطبيب سيعنى بأخيه عناية الصديق فضلاً عن عناية الطبيب .

وكان رولان يحضر كل مساء حاملاً معه الزهور . وكان فنسنت يعاني أثناء الليل وطأة الهلوسات . فعمد الدكتور ري إلى رش وسادته وفراشه بالكافور ليتغلب على ارقه .

في نهاية اليوم الرابع ، رأى الطبيب أن فنسنت في تمام العقل ، فرفع القفل عن باب الغرفة ، وأمر باعادة الاثاث اليها .

سأله فنسنت :

– هل يسعني أن أنهض وارتدي ملابسي يا دكتور ؟

– نعم ، إذا شعرت بالعافية . ويستحسن أن تمر بمكتبي بعد أن تستنشق شيئاً من الهواء الطلق .

كان مستشفى آرل يتألف من طابقين ، وهو مقام على أرض مربعة ،

ويتوسطه فناء داخلي مليء بأزهار فاقعة الألوان وبنبات السرخس ، وتتخلل الفناء ممرات مرصوفة بالحصي . وقد طاف فنسنت بها متمهلاً بضع دقائق ، ثم ذهب إلى مكتب الدكتور ري بالطابق الأرضي .

وسأله الطبيب :

– كيف تشعر بعد أن وقفت على قدميك ؟

– مليح جداً .

– قل لي يا فنسنت ، لماذا فعلت ذلك ؟

– ظل فنسنت برهة صامتاً ، ثم أجاب :

– لا أعرف .

– بماذا كنت تفكر حين أقدمت على فعلتك ؟

– لم . . . أكن . . . أفكر يادكتور .

قضى فنسنت الأيام القليلة التالية وهو يستعيد قواه . وذات صباح، بينما كان يتجاذب والدكتور ري أطراف الحديث في غرفة الطبيب ، أمسك بموس كانت موضوعة فوق المغسلة وفتحها ، وقال :

– أنت في حاجة إلى حلاقة يادكتور . فهل تحب أن أحلق لك؟

تراجع الدكتور ري إلى ركن الغرفة ، وقد مد راحة يدة لوقاية وجهه .

– لا ! لا ! ألق بالموس بعيداً .

– ولكنني حلاق بارع يا دكتور ، وفي مقدوري ان أحلق لك حلاقة جيدة .

– فنسنت ! انزل تلك الموس من يدك !

ضحك فنسنت ، وطوى الموس ، واعادها إلى المغسلة قائلاً :

– لا تخف يا صديقي . لقد انتهى الأمر الآن .

في نهاية الأسبوع الثاني اذن الدكتور لفنسنت ان يرسم . وذهبت احدى المشرفات إلى المنزل الأصفر لتأتي بالمسند والقماش . وجلس الدكتور ري أمام ريشة فنسنت على سبيل تسليته . وعمل فنسنت ببطء ، شيئاً قليلاً كل يوم . وحين فرغ منها قدمها هدية إلى الطبيب ، قائلاً :

– اود ان تحتفظ بها تذكاراً مني يا دكتور . فهي الطريقة الوحيدة التي اعبر فيها عن عرفاني ازاء عطفك .

– هذا جميل منك يا فنسنت . وهو يشرفني .

أخذ الطبيب اللوحة إلى المنزل ، واستخدمها في تغطية شق قائم في الجدار .

مكث فنسنت في المستشفى أسبوعين آخرين . ورسم الفناء تحت أشعة الشمس . وصار يلبس قبعة عريضة من القش أثناء عمله . واستغرق رسم حديقة الأزهار الأسبوعين بطولهما .

قال الدكتور ري وهو يصافحه عند بوابة المستشفى الأمامية :

– يجب ان تمر بي كل يوم . وعليك ان تتذكر : لا خمر ، ولا انفعالات ، ولا عمل في الشمس من دون تلك القبعة .

– اعدك بذلك يا دكتور . واشكرك لكل ما فعلت .

– سأكتب لشقيقك انك معافى تماماً .

اكتشف فنسنت ان مالك المنزل كتب عقداً لاخراج فنسنت من المنزل ، كي يسكن فيه تاجراً من تجار التبغ . وكان فنسنت شديد التعلق بالمنزل الأصفر الذي هو بمثابة جذره الوحيد في تربة بروفانس . وسبق له ان رسم كل بوصة فيه ، من الداخل ومن الخارج ، وجعله مكاناً لائقاً بالسكنى . وما زال يعده محل اقامته الدائم ، على الرغم من الحادث الذي وقع . ولذا كان مصمماً على التصدي للمالك حتى النهاية المرة .

وكان في بداية الأمر خائفاً من النوم منفرداً في المنزل ، خشية الأرق الذي لم يعد يجدي في التغلب عليه حتى الكافور . وقد زوده الدكتور ري بعقار بروميد البوتاسيوم لايقاف الهلوسات المفزعة التي لا تحتمل . واختفت تبعاً لذلك الأصوات التي كانت تهمس في اذنيه القصص الغريبة ، ولكنها عاودته في كوابيسه الليلية .

وظل ضعيفاً لا يقوى على الخروج للعمل بعيداً عن المنزل . وعاد اليه صفاء عقله شيئاً فشيئاً . كما تحسنت قوة دمه وانفتحت شهيته مع كل يوم جديد . وتناول وجبة غداء سارة بصحبة رولان في المطعم ، يسودها الانشراح التام ، ولا تشوبها الخشية من عارض جديد . وبدأ يعمل بحماس في اتمام لوحة لامرأة رولان لم يكن قد فرغ منها وقت الحادث . وقد أعجبه أسلوبه في التدرج باللون الأحمر من درجته الوردية إلى البرتقالية ، وفي تصعيد الألوان الصفراء حتى بلوغ الدرجة الليمونية ، وفي اضفاء الأخضر الفاتح والأخضر الغامق .

تحسنت صحته كما تحسن عمله تحسناً بطيئاً . وقد كان على علم

ن قبل ان في وسع الانسان ان يشفى اذا انكسر ذراعاه ورجلاه ، ولكنه ذهل إلى حد ما ، حين شفي من الكسر الذي أصاب دماغه .

وفي عصر أحد الأيام ذهب ليسأل عن صحة راشيل . وقال لها :

— يا حمامة ، انني آسف لما سببته لك من متاعب .

— لا عليك يا مهووس . يجب ان لا يزعجك ما حدث . فمثل هذه الأشياء تحدث كثيراً في البلدة .

وجاء أصدقاؤه يزورونه ويؤكدون ان جميع الناس في مقاطعة بروفانس مصابون أما بالحمى أو بالهلوسات أو بالجنون .

قال رولان :

— ما أصابك غير مستهجن يا فنسنت . فنحن جميعاً هنا في رية تاتارين حثالة من المختلين .

وقال فنسنت :

— مليح ، مليح . ان كلا منا يفهم الآخر كأننا أعضاء في الأسرة ذاتها .

مرت أسابيع قليلة أخرى . وغدا فنسنت قادراً على العمل طيلة النهار داخل المرسم . ولم تعد تخطر بباله أفكار الجنون والموت . وبدأ يحس انه في حالته الطبيعية تقريباً .

واخيراً خرج إلى الخلاء ليرسم . وكانت الشمس تصلي بلهيبها اللون الأصفر البهيج الذي يزين سنابل الحقول . ولكن فنسنت لم

يستطيع ان يظفر بالتقاط ذلك اللون . لقد اعتاد ان يأكل بانتظام ، وأن ينام بانتظام ، وان يتجنب الاضطراب والحماس الشديد .

وشعر انه في حالة طبيعية ، إلى حد تعذر معه الرسم .

وقد سبق للدكتور ري ان قال له :

— أنت عصبي كبير يا فنسنت . ولم تكن انساناً طبيعياً في يوم من الأيام . والحقيقة انه ما من فنان سوي الأعصاب ، والا لما كان فناناً . والرجال العاديون لا يسعهم ان يبدعوا أعمالاً فنية . انهم يأكلون وينامون ويزاولون أعمالاً عادية ، ثم يموتون . أما أنت فمفرط الحساسية تجاه الحياة وتجاه الطبيعة . وهذا هو السبب في قدرتك على ترجمة ما تحسه لسائر الناس أمثالنا . غير انك اذا لم تأخذ حذرك فان فرط الحساسية هذا سوف يؤدي بك إلى الدمار ، لأن ضغطه ما يلبث ان يحطم الفنان ذات يوم .

لقد علم فنسنت انه اذا أراد ان يمسك بزمام اللون الأصفر العالي الذي يهيمن على لوحاته الآرلية ، فلابد له ان يكون متوفز العاطفة ، منحوت العصب بمبرد خشن ، ولن يبلغ الابداع الذي بلغه آنفاً الا اذا أباح لنفسه الوصول إلى تلك الحال . غير ان ذلك الطريق كان يفضي إلى الهلاك .

وتمتم لنفسه قائلاً :

— ما الفنان الا رجل متمايز بعمله . فما أغباني اذا اخترت البقاء حياً دون ان ارسم ما أريد .

ولذا عاد يسير في الحقول دونما قبعة ، ممتصاً أشعة الشمس ، سكران بالألوان الجنونية في السماء ، وبكرة اللهب الصفراء ، وبالحقول الخضراء والأزهار المتفجرة الواناً . وسمح لرياح المسترال ان تصفعه ، ولسماء الليل الدامسة ان تخنقه ، ولأزهار عباد الشمس ان تجلد خياله حتى نقطة التفجر . ومع تصاعد الإثارة على هذا النحو ، فقد شهيته للطعام ، وبدأ يعيش على القهوة والابسنث والتبغ . وصار يقضي الليالي سهران في فراشه ، تتراءى لعينيه الحمراوين حمرة الدم تلك الألوان العميقة التي يعج بها الريف . ثم ما يلبث ان ينهض أخيراً فيحزم حامله على ظهره وينطلق إلى الحقول .

استعاد قواه واحساسه بالايقاع الكوني الكامن في الطبيعة ، كما استعاد مقدرته على تدبيج لوحة كبيرة خلال ساعات معدودات ، واغراقها بأشعة الشمس الوهاجة المتلألئة . وشهد كل يوم من أيامه لوحة جديدة من ابداعه ، وتصاعداً جديداً في ميزانه العاطفي ، وفي تلك الأيام انجز رسم سبع وثلاثين لوحة دون توقف .

وذات صباح صحا من نومه وما زال يحس بالنعاس . ولم يقو على العمل . فجلس على كرسي ، وحدق في الحائط . ولم يكد ينهض من جلسته طوال النهار . وقد عاودته الأصوات التي تجيء اذنيه وتروي له حكايات غريبة شاذة . فلما أسدل الليل أستاره قام يقصد المطعم الرمادي ، وهناك جلس على طاولة صغيرة . وطلب حساء . فحملت اليه النادلة طبق الحساء . واذا بصوت يقرع اذنه محذراً اياه .

القى باناء الحساء على الأرض ، فتحطم قطعاً متناثرة . وصاح :

ـ أنت تحاولين تسميمي ! لقد دسست السم في ذلك الحساء .

وهب واقفاً ، وقلب الطاولة . وهرع بعض الزبائن هاربين نحو الباب ، ووقف الآخرون يحدقون فيه فاغرين افواهم .

وصاح ثانية :

ـ أنتم جميعاً تحاولون تسميمي ! وتريدون ان تغتالوني ! غير انني رأيتكم وأنتم تضعون السم في ذلك الحساء .

جاء شرطيان من الخارج ، وحملاه معاً ، وصعدا به التل إلى المستشفى .

وعاد إلى هدوئه التام بعد أربع وعشرين ساعة ، وتداول مع الدكتور ري في الأمر . وسمح له ان يعمل قليلاً كل يوم ، ويقوم بمسيرات على الاقدام في الريف ، ثم يعود إلى المستشفى حيث يتناول عشاءه وينام . وكان يتعرض في بعض الأحيان لحالات من الضيق العقلي يصعب وصفها ، ويتعرض في أحيان أخرى للحظات يحس فيها ان عينه المتطلعة أوشكت تكشف ستر الزمن والظروف المفروضة .

واذن له الدكتور ري ان يرسم كما يشاء . ورسم فنسنت كرماً من أشجار الخوخ إلى جانب طريق ؛ وقد ظهرت جبال الالب في خلفية اللوحة ؛ ورسم كرماً من الزيتون ، بما للزيتون من أوراق في لون الفضة القديمة ، الضاربة إلى خضرة تقابلها زرقة معينة ، وجعل أرض الكرم أرضاً محروثة برتقالية اللون .

وعاد فنسنت إلى المنزل الأصفر بعد ثلاثة أسابيع . وقد تألبت عليه البلدة في ذلك الحين ، ولا سيما ساحة لامارتين . ذلك ان الأذن

المقطوعة والحساء المسموم كانا أشد من اصطبار الناس . وكان الآرليون يؤمنون ايماناً راسخاً ان الرسم يؤدي بالرجال إلى الجنون . وهكذا صاروا يحدقون في فنسنت كلما مر بهم ، ويرفعون أصواتهم بالتعليقات ، بل ان بعضهم كان يعمد إلى الناحية الأخرى من الشارع كي لا يقترب منه .

وامتنعت جميع المطاعم في البلدة عن السماح له بوضع قدمه داخلها .

ودأب أطفال آرل على التجمع أمام المنزل الأصفر والقيام بألعاب تهدف إلى تعذيبه .

كانوا يصرخون :

– يا مهووس ! يا مهووس ! هيا اقطع اذنك الثانية .

– اغلق فنسنت نوافذه . الا ان صيحات الأطفال وضحكاتهم كانت تصل اليه .

– يا مهووس ! يا مهووس !

– يا مجنون ! يا مجنون !

ثم نظموا أغنية صغيرة جعلوا ينشدونها تحت شباكه :

هذا المهووس المجنون
من قطع الاذن اليمنى
مهما ناداه الداعون
لم يلق اليهم اذنا

فلجأ فنسنت إلى الخروج ليهرب منهم . ولكنهم صاروا يتبعونه عبر الشوارع ، وإلى الحقول جمهوراً جذلاً من الصبية المغنين الضاحكين .

وأخذ عددهم يزداد يوماً بعد يوم ، إذ يتجمعون أمام المنزل الأصفر. فلجأ فنسنت إلى حشو أذنيه بالقطن . وكان يعمل في انتاج نسخ من لوحاته . الا أن كلمات الأطفال كانت تنفذ من بين الشقوق والجدران، وتقتحم دماغه .

وازدادوا جرأة فيما يفعلون . فصاروا يتسلقون أنابيب التمديدات الصحية كصغار القردة ، ويجلسون على أفاريز الشبابيك ، ويمدون أبصارهم الى داخل الغرفة صائحين من وراء ظهره :

– يا مهووس ، اقطع أذنك الأخرى . نحن نريد أذنك الأخرى !

تعاظمت الضوضاء في ساحة لامارتين . ووضع الصبية سقالات يستطيعون بها أن يصعدوا إلى الطابق الثاني ، وقد حطموا النوافذ وأخذوا يحشرون رؤوسهم بينها ، ويرجمون فنسنت بما حملوا في أيديهم . فيصيح الجمهور في الأسفل مشجعاً مردداً أغنياتهم وصيحاتهم .

– اعطنا الأذن الأخرى . نريد الأذن الأخرى !

– يا مهووس ! هل تأخذ شيئاً من الحلوى ! إليك بها ، ولكنها مسمومة !

– يا مهووس ! هل تريد حساء ؟ اليك به ، ولكنه مسموم !

هذا المهووس المجنون
من قطع الأذن اليمنى
مهما ناداه الداعون
لم يلق إليهم اذنا

وكان الصبية الذين حطوا على أفاريز الشبابيك يقودون الجمهور السفلي في انشودة يهزجون بها سوياً ، بصوت يتعالى مع كل ترديده :

– يا مهووس ، عن اذنك ، الق لنا الآن بأذنك .

تراجع فنسنت من خلف مسند لوحاته ، ونظر فرأى ثلاثة صبية يجلسون على افريز الشباك ويغنون . فاندفع نحوهم غاضباً . وانزلقوا هابطين على السقالة . بينما زمجر الجمع المحتشد في الأسفل . ووقف فنسنت خلف الشباك ناظراً اليهم .

وانقض عليه سرب كثيف من الطيور السوداء من السماء ، آلاف من الطيور السوداء من السماء، تنعق في وجهه وتنقر جلده . حتى اسودت بها ساحة لامارتين ، والغربان تحز عليه وتضربه وتملأ الحجرة ، وتغمره، وتطير داخل شعر رأسه وداخل أنفه وفمه وعينيه ، دافنة اياه في غيمة سوداء كتيمة من الاجنحة الرفافة .

قفز فنسنت إلى افريز الشباك وصاح بهم :

– انصرفوا ! أيها الشياطين ، انصرفوا ! اتركوني في سلام كرامة للرب !

– يا مهووس ، عن اذنك ، الق لنا الآن باذنك .

– انصرفوا ! اتركوني وشأني ! هل تسمعون ؟ دعوني وحدي .

ثم تناول حوض الغسيل من فوق المنضدة ، وقذف به نحوهم على الأرض ، فتهشم الحوض فوق بلاط الشارع . فأعماه الغضب وأخذ يركض وهو يتناول كل ما تصل إليه يداه ، فيقذف بهنحوهم في ساحة لامارتين ، فيسقط مهشماً . ثم أمطرهم بجميع ما في المنزل من كراسيه،

ومسند لوحاته ، ومرآته ، وطاولته ، وملابس نومه ، واوحات زهور عباد الشمس التي كانت معلقة علىالجدران . وكانت تومض في ذهنه، مع كل أداة القاها ، صورة ايامه في المنزل الأصفر ، وتضحياته من أجل شراء هذه الأدوات المتواضعة واحدة بعد الأخرى ، وقد أمل أن يؤثث بها بيت حياته كلها .

وحين أخلى الغرفة من كل ما فيها ، وقف عند النافذة ، وكل عصب فيه يضطرب . ثم مال نحو الافريز ، ووجهه معلق في اتجاه رصيف الساحة .

— ١٠ —

نظمت عريضة مكتوبة على الفور في ساحة مارتين ، وقعها تسعون رجلاً وامرأة من السكان :

الى رئيس البلدية تارديو :

نحن الموقعون أدناه مواطنو بلدة آرل ، لما كنا مقتنعين كلياً ان المدعو فنسنت فان جوخ ، المقيم في ساحة لامارتين رقم ٢ ، هو مجنون خطر ، وغير أهل للتجول بحرية ، جئنا طالبين منكم بصفتكم رئيس بلديتنا ، ان تحتجزوا هذا الرجل المجنون في مكان مغلق .

كانت انتخابات المجلس البلدي وشيكة في آرل . ولم يشأ رئيس البلدية تارديو ان يخيب آمال هذا العدد الغفير من الناخبين ، وهكذا أمر مفتش الشرطة بالقاء القبض على فنسنت .

وجدته مفرزة الشرطة مستلقياً على الأرض تحت افريز الشباك .

وحملوه إلى السجن . ووضعوه في زنزانة رهن القفل والمفتاح . وعينوا حارساً عند الباب لمراقبته .

فلما عاد فنسنت إلى وعيه ، طلب مقابلة الدكتور ري لكنهم رفضوا طلبه . وطلب ورقة وقلماً ليكتب لأخيه ثيو ، ورفضوا طلبه.

لكن الدكتور ري لم يلبث طويلاً حتى حصل على اذن بدخول السجن . قال :

— حاول أن تسيطر على غضبك يا فنسنت ، وإلا فانهم سيدينونك بكونك مجنوناً خطيراً ، وتكون تلك نهايتك . أضف إلى ذلك أن الاحتداد القوي لن يكون له إلا أمر واحد وهو مفاقمة حالتك . سوف أكتب إلى أخيك ، وسوف نخرجك — وهذا الكلام بيننا — من هذا المكان .

— أتوسل إليك يا دكتور . لا تدع ثيو يأتي إلى هنا . انه على وشك الزواج . وسوف يفسد هذا الأمر كل شيء .

— سوف أشير عليه أن لا يأتي . وأعتقد أن لدي خطة جيدة لتدبير أمورك .

وعاد الدكتور ري بعد يومين . ومازال الحارس واقفاً بباب الزنزانة. قال :

— اسمع يا فنسنت . قبل قليل شاهدت السلطات تنقل حاجياتك من المنزل الأصفر . وقد أودعها المالك داخل قبو في أحد المقاهي ، وارتهن لوحاتك تحت القفل والمفتاح . وقال انه لن يفرج عنها حتى تدفع قيمة الاجرة المتأخرة .

ظل فنسنت صامتاً .

– وما دمت لا تستطيع بالتالي العودة إلى ذلك المنزل ، فمن الخير لك ان تجرب خطتي . اذ لا مجال للجزم في أمر نوبات الصرع التي تنتابك، متى تجيء ومتى لا تجيء . فاذا أنت نعمت بالسكينة والهدوء والمحيط الذي يسر خاطرك ، ولم تتعرض للاضطراب ، فقد تكون النوبة التي أصابتك هي آخر نوباتك . ولكن اذا حدث العكس فقد تعاودك كل شهر أو شهرين . ولهذا ، فان ضرورات حمايتك وحماية من حولك.. تقتضي منك الاستماع لنصحي ، والدخول إلى . . . .

– مصحة عقلية ؟

– نعم .

– انت اذن ، تعتقد انني . . . ؟

– كلا يا عزيزي فنسنت ، لست كذلك . انك ترى بنفسك انك لا تقل عني عقلاً . إلا أن نوبات الصرع ، مثلها مثل جميع أنواع الحميات الأخرى ، تخرج الرجل عن طوره . فاذا حلت بك ازمة عصبية، فان من البديهي ان ترتكب اموراً غير عقلانية . ولهذا السبب ينبغي ان تكون داخل مستشفى ، حيث تلقى العناية اللازمة .

– هكذا اذن .

– وهناك مكان جيد في سانت ريمي ، لا يبعد عنا إلا مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً . وهو يدعى سان بول دو موزول . وهم يستقبلون هناك مرضى في الدرجة الأولى وفي الثانية وفي الثالثة . وتتكلف الدرجة الثالثة مبلغاً وقدره مائة فرنك في الشهر . وهو مبلغ يمكن تدبيره. ان

المكان كان في السابق ديراً مقاماً في مواجهة سفح التلال . انه مكان جميل يا فنسنت ، وهو هادىء ، هادىء للغاية . وسيكون لك طبيب يفيدك بنصحه ، وراهبات يعتنين بك . وسيكون الطعام بسيطاً وصحياً . وبذلك كله تستعيد صحتك .

– وهل سيسمحون لي بالرسم ؟

– يا سلام ، طبعاً يا شيخ . سيكون مسموحاً لك أن تفعل كل ما تريد ، شريطة أن لا يسبب لك الاذى . انه وضع يشبه كونك في مستشفى ، تحوطه أرض شاسعة . واذا انت عشت بهدوء على ذلك النحو مدة عام ، فقد تشفى من مرضك تماماً .

– وكيف سأخرج الآن من الجحر الذي أنا فيه ؟

– لقد تحدثت إلى مفتش الشرطة . وهو موافق على السماح لك بالذهاب إلى سان بول دو موزول ، على أن أتولى أنا اصطحابك اليه.

– وتقول انه مكان ظريف حقاً ؟

– انه فاتن يا فنسنت . وستجد فيه أكداساً من المناظر التي تشتهي رسمها .

– شيء ظريف جداً . ومبلغ المائة فرنك ليس بالمبلغ الكبير. لعل هذا ما يلزمني حقاً كي تهدأ أعصابي .

– هو ذلك طبعاً . وقد كتبت إلى أخيك أخبره عنه . وقلت إنه وضعك الحالي لا يناسبه السفر البعيد، وليست باريس مرغوبة بالتأكيد . ولذلك فان من رأيي أن سان بول هو أنسب مكان على الاطلاق .

– مليح . مادام ثيو موافقاً . . . فأي شيء يناسبني ان كان يجنبه مزيداً من متاعبي .

– انني أتوقع رده في كل ساعة . وسأعود اليك حالماً يصلني الجواب .

لم يكن أمام ثيو خيار آخر . فأرسل موافقته ، وارفقها بالمال اللازم لتغطية احتياجات أخيه وهكذا صحب الدكتور ري فنسنت في عربة سارت بهما إلى المحطة ، ومن هناك استقلا القطار إلى تاراسكون . ثم ركبا خطاً حديدياً فرعياً ، يتثنى صاعداً نحو واد أخضر خصيب ، يؤدي إلى سان ريمي .

واستأجر فنسنت والدكتور ري عربة قطعت بهما مسافة كيلومترين صعوداً على تل شديد الانحدار ، وتخترقا البلدة النائمة ليصلا الى سان بول دو موزول . وأفضى بهما الطريق الى أخدود يحد سلسلة من الجبال السوداء القاحلة . وشاهد فنسنت على مقربة منه اسوار الدير ذات اللون البني المسود .

توقفت العربة . ونزل فنسنت والدكتور ري . وشاهدا على يمين الطريق ساحة مستديرة متسعة يقع فوقها معبد فيستا وقوس نصر من الآثار القديمة .

قال فنسنت :

– ليت شعري ، كيف وصل هؤلاء البشر إلى هنا ؟

– كانت هذه المنطقة مستوطنة رومانية هامة . وآنذاك كان النهر الذي تراه هناك في الأسفل ، يملأ هذا الوادي كله ، ويصل

حتّى موطىء قدميك تماماً . فلما انحسر النهر زحفت البلدة إلى الأسفل شيئاً فشيئاً فوق التل . ولم يبق من معالم تلك الفترة الآن الا هذه الاثارة البائدة والا الدير .

– هذا مثير للاهتمام .

– هلم بنا يا فنسنت ، فالدكتور بيرون في انتظارنا .

خلفا الطريق وراءهما ، وسارا عبر دغل من أشجار الصنوبر نحو بوابة الدير . وجذب الدكتور ري مقبضاً حديدياً فسمع رنين جرس عال . وجاء من يفتح البوابة بعد لحظات قلائل ، ثم ظهر الدكتور بيرون .

قال الدكتور ري :

– كيف حالك يا دكتور بيرون ؟ لقد اتيتك بصديقي فنسنت فان جوخ كما اتفقنا في مراسلاتنا . ويقيني أنك ستعنى به عناية طيبة .

– نعم يا دكتور ري ، سوف نعنى به .

– سامحني يا دكتور اذا كنت على عجلة من أمري ، فالوقت بالكاد يكفيني للحاق بالقطار العائد إلى تاراسكون .

– طبعاً يا دكتور ري ، افهم ذلك .

وقال الدكتور ري :

– مع السلامة يا فنسنت . كن سعيداً ، وسوف تتحسن حالتك .

انني سأتي لزيارتك كلما استطعت . واعتقد أنك ستصبح بعد عام رجلاً معافى تماماً .

– شكراً لك يا دكتور . أنك بالغ العطف . مع السلامة .

– مع السلامة يا فنسنت .

استدار وسار عبر أشجار الصنوبر .

قال الدكتور بيرون وهو يقف جانباً :

– هل تدخل يا فنسنت ؟

سار فنسنت وراء الدكتور بيرون .

وأغلقت بوابة مصحة المجانين من ورائه ..

* * *

الكتاب السابع

سان ريمي

ـ ١ ـ

كان الجناح المخصص لنوم النزلاء أشبه بغرفة انتظار من الدرجة الثالثة في قرية حية ـ ميتة . وكان دأب أولئك المجانين ان يظلوا دائماً مرتدين قبعاتهم ونظاراتهم ومعاطف السفر ، وان يحملوا عصيهم ، كأنما هم على سفر وشيك .

أقبلت الأخت ديشانيل ، ومعها فنسنت ، عبر الغرفة التي تشبه ممراً طويلاً ، وأشارت بيدها إلى سرير شاغر وهي تقول :

ـ ستنام هنا يا سيدي وفي الليل يمكنك ان تسدل الستائر حولك فتخلو إلى نفسك . فرتب أمورك الآن ، ثم تعال إلى مكتب الدكتور بيرون ، لأنه راغب في مقابلتك هناك .

كان نزلاء الغرفة الأحد عشر جالسين حول موقد غير مشتعل ، ولم يسترع انتباههم وصول فنسنت ، ولا تبادلوا حياله أي تعليق . وعادت الأخت ديشانيل أدراجها عبر الغرفة الطويلة الضيقة ، وهي تخب بجلبابها الأبيض المنشى وقبعتها وطرحتها السوداوين .

انزل فنسنت حقيبته ، ونظر حوله . كان هناك صفان من الأسرة على جانبي الغرفة ، وهما صفان مائلان ينحدر موضع الاقدام فيهما عن موضع الرأس بزاوية مقدارها خمس درجات . ولكل سرير اطار يحيط به ، تتدلى منه ستائر قذرة ذات لون بين البني والأصفر . أما سقف الغرفة فهو من دعائم خشبية خشنة . وكانت الجدران بيضاء جيرية . وفي وسط الغرفة موقد يتصل جانبه الأيسر بأنبوب مضلع . وثمة مصباح وحيد يتدلى فوق الموقد تماماً .

وعجب فنسنت من هذا الهدوء التام المخيم على الرجال . اذ هم لا يتبادلون حديثاً . ولا يقرأون ولا يمارسون ألعاب التسلية . وأنما هم جالسون متكئين على عصيهم ينظرون إلى الموقد .

شاهد فنسنت صندوقاً معلقاً على الجدار فوق رأس سريره ، غير أنه آثر ان يستبقي ملابسه في حقيبة سفره . ووضع غليونه وتبغه وكتاباً من كتبه في الصندوق ، ثم زلق حقيبته تحت السرير، وخرج إلى الحديقة . ومر في طريقه بصف من الغرف المعتمة العطنة ، مغلقة ومهجورة .

كما كان فناء الدير مهجوراً . وثمة صنوبرات ضخمة تنمو تحتها حشائش برية تختلط بأعشاب عالية . وتعلو جدران المكان حاجزة في داخله مربعاً ساكناً من ضياء الشمس .

استدار فنسنت إلى اليسار ، وطرق باب البيت المخصص لإقامة الدكتور بيرون وعائلته .

كان الدكتور بيرون فيما مضى من أطباء البحرية في مرسيليا ،

ثم أصبح بعد ذلك طبيب عيون . وأصيب بحالة شديدة من حالات النقرس ، فسعى إلى العمل في مصحة عقلية وسط هدوء الريف .

قال الطبيب وهو يقبض بكل يد من يديه على زاوية من مقعده :

– لابد أنك تعرف يا فنسنت انني كنت في السابق ممن يعنون بصحة الجسد . وانني الآن أصبحت أعنى بصحة الروح . أنها مهنة واحدة على كل حال .

– هل في وسعك يا دكتور ، وأنت الخبير بالأمراض العصبية ، ان تشرح لي لماذا قطعت اذني ؟

– ليس هذا بالأمر الغريب في حالات الصرع يا فنسنت . لقد مرت بي حالتان مشابهتان . ان أعصاب السمع تصبح شديدة الحساسية ، والمريض يحسب انه باقدامه على قطع اذنه الخارجية ، يستطيع ان يوقف الهلوسات التي تثقل عليه .

– اوه ... لقد فهمت . فما هي العلاجات التي سأتعاطاها ... ؟

– العلاجات ؟ ... آه .. يجب ان تستحم بالماء الساخن مرتين في الأسبوع على الأقل . وهذا شيء أصر عليه كثيراً . وان تمكث في الحمام ساعتين . وسيكون لذلك أثره في تهدئتك .

– وماذا غير ذلك يا دكتور ؟

– ان تمكث هادئاً كل الهدوء . فلا تثر نفسك ، ولا تعمل ، ولا تقرأ ، ولا تجادل ، ولا تنزعج .

– أدرك ذلك . انني أضعف من ان أزاول العمل .

– اذا كنت لا ترغب في المشاركة في الشعائر الدينية التي تقام

في سان بول ، فسوف أبلغ الراهبات ان لا يلححن عليك . واذا أحتجت إلى شيء ، فتعال الي .

– شكراً لك يا دكتور .

– العشاء في الخامسة . ستستمع إلى الجرس . حاول ان تتأقلم مع نظام المستشفى يا فنسنت بأسرع ما يمكن . ان ذلك يعجل في شفائك .

جلس فنسنت على سريره في الجناح ، وما زال زملاؤه جالسين حول الموقد هادئين . ومر بعض الوقت ، ثم سمع ضجة في غرفة أخرى . واذا بالرجال الأحد عشر ينهضون في هيئة التصميم العبوس ، ويهرعون خارجين من الجناح . فما كان من فنسنت الا ان لحق بهم .

كانت الغرفة التي يأكلون فيها ذات أرضية ترابية ، وليس لها شبابيك . وقد وضعت فيها طاولة خشبية واحدة طويلة خشنة ، صفت على جانبيها بعض المقاعد . وكانت الراهبات يقدمن الطعام . وهو طعام عفن المذاق ، بدأنه بالحساء أولاً ، ومعه خبز أسود . وترحم فنسنت كثيراً على مطاعم باريس ، حين وجد في الحساء بعض الصراصير ثم قدمن طبقاً من فراخ الدجاج والبازيلاء والفاصولياء والعدس . فأكل رفاقه بكل ما اوتوا من عزم ، وهم يتناولون قطع الخبز الأسود عن الطاولة فيمسحونها بأيديهم ثم يلتهمونها بألسنتهم .

انتهت الوجبة . وعاد الرجال إلى كراسيهم المعروفة حول الموقد ، وأخذوا يهضمون طعامهم بمنتهى التركيز . فلما انتهت فترة العشاء قاموا ، واحداً أثر الاخر ، فخلعوا ملابسهم واسدلوا الستائر وأووا إلى النوم . حدث ذلك كله دون ان يسمعهم فنسنت ينبسون ببنت شفة .

كانت الشمس في لحظة غروبها . ووقف فنسنت في النافذة ، يتطلع نحو الوادي الأخضر . فشاهد سماء رائعة يوشحها اللون الليموني الشاحب ، وفي مقابلها الصنوبرات الجنائزية ماثلة في أشكال تذكر المرء بالدانتيل الأسود الفاخر . الا ان المشهد لم يحرك شيئاً في نفس فنسنت . ولم يبعث فيه ادنى رغبة حتى لرسمه .

ظل واقفاً بالنافذة إلى ان رشح الغسق البروفنسالي الثقيل من خلال السماء الليمونية ، وامتص لونها . ولم يحضر أحد إلى الجناح فيوقد المصباح . ولم يكن في الظلمة ما يفعله الانسان ، غير التفكير في حياته .

خلع فنسنت ملابسه واوى إلى السرير . واستلقى مفتح العينين على اتساعهما ، محدقاً في الدعائم الخشنة التي ترفع السقف . وأنزلق جسده تبعاً لانحدار وضع السرير . وكان قد حمل معه من آرل كتاب ديلاكروا ،فتحسس الصندوق حتى عثر عليه ، وضم جلدة الكتاب نحو قلبه في الظلام . ذلك ان استشعارها اعاد اليه الثقة . فهو لا ينتمي إلى هؤلاء المجانين الذين يحيطون به ، وأنما ينتمي إلى المعلم العظيم الذي نفذت كلمات حكمته وطمأنينته عبر جلدة الكتاب لتصل إلى قلب فنسنت الموجوع .

ونام بعد مضي وقت ، ولكنه استيقظ على أنين خفيض في السرير الذي يليه . ثم تعالى الأنين شيئاً فشيئاً ، حتى انقلب إلى صياح وإلى فيض من الكلمات العنيفة .

– اغرب عني ! لماذا تلاحقني ! لا تتبعني ! انني لم اقتله ! وليس في وسعك استغفالي . أعرف من تكون . أنت البوليس السري !

مليح ، ابحث عني اذا استطعت ! أنا لم أسرق ذلك المال ! لقد قتل نفسه يوم الأربعاء ! اغرب عني ! اتركني وحدي كرامة للرب !

قفز فنسنت من سريره وازاح الستارة . فأبصر صبياً أشقر الشعر يبلغ الثالثة والعشرين ، يمزق ملابس نومه بأسنانه واذ أبصر الصبي فنسنت ، جلس على ركبتيه ، ومد يديه بحماسة أمامه . وهو يقول :

— يا سيد مونيه لا تأخذني بعيداً . انني لم أفعل ذلك . صدقني ! أنا لست لوطياً ! وأنما محام . سوف اتولى جميع قضاياك يا سيد مونيه ، ولا أطلب منك الا التجاوز عن اعتقالي !يستحيل ان أكون من قتله يوم الأربعاء ! فليس معي نقود ! انظر ! لا نقود هنا !

راح يمزق الأغطية عن سريره ، وينبش السرير في نوبة عصبية جنونية ، وهو يصيح بلا توقف ضد البوليس السري والاتهامات الباطلة الموجهة اليه . ولم يعرف فنسنت ماذا يفعل . كان جميع النزلاء يغطون في نوم عميق .

أسرع فنسنت إلى السرير التالي . وازاح الستارة وجعل يهز الرجل النائم . ففتح الرجل عينيه وحملق في فنسنت ببلادة .

قال فنسنت :

— انهض وساعدني على تهدئته . فأنا أخشى ان يوقع بنفسه أذى .

شرع الرجل في السرير يزبد عند الجانب الأيمن من فمه . ثم صدر عنه فيض من الأصوات المشوشة الغامضة .

وعاد فنسنت يقول :

ـ أسرع ، فلابد من رجلين اثنين لحمله إلى أسفل .

أحس بيد تلامس كتفه . فالتفت حوله . واذا برجل من المسنين يقف خلفه .

قال الرجل :

ـ لا جدوى من الاستعانة بهذا ، فهو مخبول ، لم ينطق بكلمة واحدة منذ حضر إلى هنا . تعال ، وسوف نهدىء من روع الولد .

كان الصبي الأشقر قد حفر بأظفاره حفرة في الحشية ، ثم اقعى فوقها على ركبتيه ، وهو ينبش القش والحشوة . وحين أبصر فنسنت ثانية بدأ يصرخ هاذياً بعبارات قانونية . وهو يضرب بيديه على صدر فنسنت .

ـ نعم ، نعم ، قتلته ! قتلته ! لكن ليس من أجل اللواط ! أنا لم ارتكب ذلك يا سيد مونيه . لم يحدث ذلك يوم الأربعاء الماضي . لقد فعلتها من أجل نقوده ! انظر ! ان المال معي ! وقد خبأت المحفظة في الحشية ! وسأخرجها لك ! على ان تأمر البوليس السري بالكف عن ملاحقتي ! انني استطيع ان انال حريتي حتى لو كنت القاتل ! وسأتلو عليك النصوص القانونية التي تسند دعواي ... انظر ! سوف اخرج النقود من الحشية !

قال الرجل العجوز لفنسنت :

ـ خذ بذراعه الآخر .

ثم رفعا الولد ، وانزلاه عن السرير . ولكن هذيانه استمر مدة ساعة . واخيراً غلبه الاعياء ، وغطست كلماته في همهمة مكتومة ، وسقط في نوم محموم . واقترب الرجل الأكبر من فنسنت قائلاً :

ـ كان الولد يدرس المحاماة . وارهق دماغه بالدرس . وتنتابه هذه الهجمات مرة كل عشرة أيام . غير انه لا يؤذي أحداً . ليلة سعيدة لك يا سيدي .

عاد الرجل الأكبر إلى سريره ، ونام من فوره . وذهب فنسنت ثانية إلى النافذة التي تشرف على الوادي . ما زال دون شروق الشمس وقت طويل ، ولا شيء يلوح للناظر الا نجمة الصبح . فتذكر الصورة التي رسمها دوبيني انجمة الصبح . وكيف أودعها كل ما في الكون الأعلى من سكينة وجلال شاملين . وكذا أودعها أحساس الفرد الضئيل الذي يقف أسفلها متأملا ، فيشعر بانكسار القلب .

ـ ٢ ـ

في الصباح التالي خرج الرجال بعد تناول الافطار إلى الحديقة . ومد فنسنت بصره إلى ما وراء السور البعيد ، فرأى التلال المهجورة القاحلة ، ميتة منذ الزمن الذي شهد عبور الرومان أول مرة . ورنا فنسنت إلى النزلاء وهم يلعبون لعباً واهناً بكرات البولنج . وجلس على مقعد حجري وصوب بصره إلى الأشجار الكثيفة المغطاة باللبلاب ثم إلى الأرض المكسوة بنبات العناقية ذي الأزهار الزرقاء . واسترعى انتباهه مرور الراهبات المنتميات لمذهب سان جوزيف دوبينا ، وهن في طريقهن إلى المعبد الروماني القديم ، بأرديتهن البيضاء والسوداء ، وعيونهن الغائرة في محاجرهن ، يحملن المسابح ويتمتمن بصلوات الصباح .

وحين مرت ساعة على الرجال وهم يلعبون بالكرات لعبهم

الأخرس ، عادوا إلى سكنهم في جناحهم الرطب ، وجلسوا حول الموقد المطفأ . وأحس فنسنت بالرعب حيال هذه البطالة المطلقة . ولم يستطع ان يستوعب لماذا لم تكن لديهم ولو جريدة قديمة فيقرؤونها .

نفد صبره ، فخرج ثانية إلى الحديقة وراح يتمشى . وخيل اليه ان كل شيء في سان بول يؤذن بالموت ، حتى الشمس نفسها .

وكانت بنايات الدير مصممة على الطراز الرباعي التقليدي . ففي الشمال موقع جناح مرضى الدرجة الثالثة ، وفي الشرق منزل الدكتور بيرون والمعبد والدير ، وفي الجنوب مباني نزلاء الدرجتين الأولى والثانية ، وفي الغرب حوش المجانين الخطرين ، يحيط به جدار طويل من الطين الميت . ولذا فان منفذ الخروج الوحيد هو البوابة المغلقة بقضبان الحديد ، لاسيما وان الجدران تعلو إلى ارتفاع اثنتي عشرة بوصة ، وهي ناعمة زلقة .

عاد فنسنت إلى مقعد حجري قرب عليقة من الورد البري ، وجلس هناك . وراح يحاول ان ينسجم مع نفسه ويفهم على نحو واضح لماذا حضر إلى سان بول . الا ان شعوراً رهيباً بالخيبة والرعب أمسكا بخناقه وحالا بينه وبين التفكير . ولم يعثر في قلبه على رجاء ولا على توق .

قام متعثراً نحو جناحه . وحالما دخل رواق المبنى سمع نباحاً مستغرباً يشبه نباح الكلب . وقبل ان يبلغ باب الجناح ، تغير الصوت فصار عواء ذئب .

سار فنسنت في الجناح بطوله . ثم رأى في الركن البعيد الرجل

العجوز الذي كلمه في الليلة الماضية .كان وجه الرجل متجهاً نحو الجدار شاخصاً إلى السقف . وكان يعوي بكل ما في رئتيه من قوة ، وقد ارتسمت على وجهه نظرة بهيمية . وانتقل الرجل من عواء الذئب إلى صوت آخر من نداءات الوحوش في الغابة. فتردد صداها الجنائزي، وغمر الغرفة كلها .

قال فنسنت يخاطب نفسه « اية حديقة للحيوان هذه التي حبست فيها ؟ »

أما الرجال حول الموقد فلم يعيروا الأمر انتباهاً . وعلا عواء الحيوان في ركن الغرفة حتى بلغ درجة اليأس .

قال فنسنت بصوت مرتفع :

– لابد ان أفعل شيئاً لأجله .

غير ان الولد الأشقر نهاه عن ذلك قائلاً :

– من الخير ان تدعه وشأنه . فلو كلمته فسوف يستشيط غضباً . على انه سيتوقف من تلقاء نفسه بعد ساعات قلائل .

كانت جدران الدير سميكة ، ومع ذلك فان فنسنت ظل طوال برهة الغداء يسمع صيحات الوحوش المختلفة التي صدرت عن ذلك المحزون ، يتردد صداها في الصمت الشاسع . وقضى عصر اليوم في ركن قصي من الحديقة ، محاولاً ان يهرب من صيحات العويل المجنونة .

في ذلك المساء نفسه ، وبينما كانوا على مائدة العشاء ، نهض شاب مصاب بالشلل في جنبه الأيسر ، فسحب سكيناً ، رفعها فوق قلبه ممسكاً بها بيده اليمنى ، ثم صاح :

– لقد حان الوقت ! سأقتل نفسي !

فنهض جاره الجالس على يمينه متضجراً ، وقبض على ذراع المشلول ، وقال :

– ليس اليوم يا ريمون . فانه يوم الأحد .

– بل اليوم ! لن أعيش بعد الآن ! انني ارفض الحياة ! فاترك ذراعي ! أريد ان اقتل نفسي .

– اجلها إلى الغد يا ريمون . إلى الغد . فاليوم غير مناسب .

– اترك ذراعي ! سوف اغرس هذا السكين في قلبي ! قلت لك لابد ان اقتل نفسي !

– اعرف هذا . أعرف هذا . ولكن ليس الآن ، ليس الآن .

وأخذ السكين من يد ريمون،وقاده عائداً به إلى الجناح وهو يبكي من شدة القهر .

التفت فنسنت إلى الرجل المجاور ، الذي كانت عيناه الحمراوان ترمقان أصابعه المرتجفة أثناء محاولته رفع الحساء إلى فمه . وسأله :

– ما شأن هذا الرجل ؟

خفض الرجل المصاب بعقابيل الزهري ملعقته وقال :

– لم يمر يوم واحد في العام كله دون ان يحاول ريمون الانتحار .

– ولماذا يحاول محاولته هنا ، لماذا لا يسرق السكين ويقتل نفسه بعد ان ينام الجميع ؟

– لعله لا يريد ان يموت يا سيد .

في الصباح التالي ، وبينما كان فنسنت يراقبهم وهم يلعبون بكرات البولينج ، سقط أحد الرجال فجأة على الأرض ، وأصيب بنوبة تشنجية .

وصاح أحدهم :

– أسرعوا . إنها نوبة صرعه .

– احملوه من يديه ورجليه .

وتطلب الأمر أربعة منهم حتى حملوه . وبدا كأن المصروع المتلوي ينطوي على قوة اثني عشر رجلاً . ووضع الشاب الأشقر يده في جيبه ، فأخرج منها ملعقة ، دسها بين أسنان الرجل المنبطح . وصاح بفنسنت :

– يا هذا أسند رأسه .

صدرت عن الرجل المصروع سلسلة من التشنجات إلى أعلى وإلى أسفل . وقد تصاعدت حدتها أكثر فأكثر . وكانت عيناه تدوران في محجريهما ، والزبد يرغي من حافتي فمه .

وصاح فنسنت :

– لماذا تضع تلك الملعقة في فمه ؟

– كي لا يعض لسانه .

ما لبث الرجل المرتعد ان سقط في غيبوبة بعد نصف ساعة . وحمله فنسنت مع رجلين آخرين إلى سريره . وهكذا انتهت الحكاية ، ولم يذكرها أحد بعد ذلك .

وبانقضاء فترة اسبوعين ، كان فنسنت قد شاهد كل فرد من رفاقه الأحد عشر ، يتعرض للحالة الخاصة المميزة من حالات اختلال العقل: ومنها حالة المجنون الصاخب الذي يمزق ملابسه من فوق جسده ويحطم كل ما تقع عليه يده ، وحالة الرجل الذي يعوي كالحيوان ، وحالة الرجلين المصابين بجنون السفلس ، وحالة مجنون الانتحار ، وحالة المصابين بالفالج الهستيري الذين يعانون اختلاطاً من الثورة ووهم العظمة، وحالة الصرع ، وحالة مرضى الورم اللمفاوي المصابين بهوس الاضطهاد، وحالة الشاب الأشقر الذي لاحقه البوليس السري .

لم يمر يوم دون ان يصاب واحد منهم بمس ، ولم يمر يوم دون أن يدعى فنسنت لتهدئة مجنون اصابته النوبة . لقد كان مرضى الدرجة الثالثة ملزمين بأن يعمل بعضهم لبعض طبيباً وممرضاً . ذلك أن بيرون لا يمر بهم إلا مرة واحدة في الاسبوع . ومستخدمو المصح لا يعتنون إلا بنزلاء الدرجتين الأولى والثانية . وهكذا تقارب نزلاء الدرجة الثالثة بعضهم إلى بعض ، وساعد كل منهم الآخر في لحظة أصابته ، ودأبوا على صبر طويل . وقد عرف كل منهم ان دوره آت في القريب ، وانه لابد محتاج إلى المساعدة والعطف من جيرانه .

كانت تلك اخوة المجانين .

وسر فنسنت اذ قدر له أن يجيء ذلك المكان . فقد أدت رؤيته حقيقة حياة المصابين بالجنون إلى أن يفقد فزعه الغامض تدريجياً ، ويتغلب على خوفه من الجنون . وشيئاً فشيئاً صار يعد الجنون مرضاً كسائر الأمراض . وفي اسبوعه الثالث صار يرى ان زملاءه ليسوا أبعث على الخوف من مرضى السل أو مرضى السرطان .

وأصبح كثيراً ما يجلس إلى المخبول ، الذي لا يعرف التحدث إلا بأصوات غير مترابطة . ولكن فنسنت شعر ان ذلك الشخص كان يفهمه ويسر لأنه يتكلم إلى إنسان آخر . أما الراهبات فكن لا يتحدثن إلى النزلاء إلا للضرورة . واقتصر نصيب فنسنت من الكلام العقلاني على المحادثة التي يجريها مع الدكتور بيرون مرة كل اسبوع ، وتستغرق خمس دقائق .

قال له يوماً :

— قل لي يادكتور . لماذا لا يتبادل النزلاء حديثاً ؟ إن بعضهم يخيل لي وهو معافى انه يملك ذكاء يؤهله للحديث .

— ليس في وسعهم ان يتحدثوا يا فنسنت ، لأنهم اذا تحدثوا تجادلوا واذا تجادلوا ثارت أعصابهم وأصيبوا بنوباتهم . وهكذا تعلموا ان الطريقة الوحيدة التي تعينهم على الحياة هي الاخلاد إلى الهدوء التام .

— ولكنهم سيموتون في جميع الأحوال ، أليس كذلك ؟

هز بيرون كتفيه قائلاً :

— إنها وجهة نظر يا عزيزي فنسنت .

— ولكن لماذا لا يقرؤون على الأقل ؟ أعتقد أن الكتب . . .

— القراءة تخض عقولهم يا فنسنت . وأول مانعرفه هو أنهم يتعرضون في أعقابها بالتالي إلى هجمة حادة . كلا يا صديقي ، إنهم يجب أن يعيشوا في عالمهم المغلق . ولا حاجة بك للأسف عليهم . ألا تتذكر ما قاله درايدن « هناك متعه في الجنون دون ريب ، لا يعرفها إلا المجانين»

انقضى شهر من الزمن ، ولم تساور فنسنت خلاله أدنى رغبة في

استبدال المشفى بمكان آخر ، ولا لاحظ لدى أي من الآخرين رغبة محددة في الهرب . وعرف أن ذلك ناجم عن احساسهم بأنهم محطمون إلى درجة لا يصلحون معها للحياة خارج الأسوار .

وكان الجناح عابقاً برائحة الرجال المتآكلين ، لذلك حرص فنسنت على الحفاظ على تماسك روحه ، استعدادا لليوم الذي ستعاوده فيه الرغبه والقدرة على الرسم . كان رفاقه يعيشون خاملين في بطالتهم ، لا يفكرون إلا في وجباتهم الثلاث . ولكن فنسنت ، وهو الحريص على ضبط نفسه وفقاً لنظام يقيه خطر هذا الاستسلام ، أبى أن يأكل أي طعام رديء أو تالف . واقتصر على تجرع شيء من الحساء وازدراد كسرات من الخبز الأسود . وقد أرسل ثيو اليه طبعة الأعمال الكاملة لشيكسبير في مجلد واحد فقرأ « ريتشارد الثاني » و « هنري الرابع » و « هنري الخامس » ، لكي ينمي عقله للأيام وللأماكن القادمة .

وكافح كفاحاً باسلاً ، من أجل أن يمنع تجمع الأسى في قلبه كما يتجمع الماء في المستنقع .

كان ثيو في ذلك الحين قد تزوج . وثابر وزوجه جوهانا على الكتابة إلى فنسنت . وكانت صحة ثيو ضعيفة . وذلك أمر كان يشغل ذهن فنسنت أكثر مما تشغله ذاته . وكتب إلى جوهانا يناشدها ان تقدم إلى ثيو وجبات طعام هولندي مغذ ، بعد أن اغتذى بأكل المطاعم عشر سنوات .

وكان فنسنت على علم بأن العمل بالنسبة اليه خير تسلية تفوق ماعداها ، ولو قيض له ان ينغمس فيه بكل قواه ، فقد يكون ذلك خير علاج لحالته . أما الرجال في الجناح فلم يكن لديهم ما ينقذهم من ميتة عفنة ، في

حين يملك فنسنت موهبة الرسم التي قد تخرجه من المصح انساناً معافى سعيداً .

في ختام الاسبوع السادس خصص الدكتور بيرون لفنسنت حجرة صغيرة ليجعل منها مرسماً . وهي حجرة غطيت جدرانها بورق رمادي ضارب للخضرة ، وعلقت على نوافذها ستارتان من القماش الأخضر البحري المزين بورود باهتة . وهاتان الستارتان ، وكذا الكرسي ذو المساند ، من مخلفات نزيل ميسور الحال كان قد توفي في المصحة . وكانت الحجرة مطلة على الحرية وعلى حقل قمح مزروع فوق أرض منحدرة ، تحول دونهما قضبان سوداء غليظة في الشباك .

وقام فنسنت من فوره برسم المنظر الطبيعي الذي رآه من النافذة . فرسم في واجهة اللوحة الامامية حقل قمح عصفت به الرياح فدمرته وآمالت سيقانه على الأرض ، ورسم السور الحجري الذي يحده ، ممتداً على المنحدر . ورسم بعض الأكواخ والتلال من وراء عدد من أشجار الزيتون ذات الاوراق الرمادية . وجعل في أعلى اللوحة سحابة ضخمة مرسومة باللونين الرمادي والأبيض غارفة في زرقة السماء.

عاد إلى الجناح ساعة العشاء جذلان . ان طاقته لم تفارقه . وهاهو يعود إلى الطبيعة وجهاً لوجه من جديد . وهاهو تشوقه للعمل قد رفعه وحدا به إلى الابداع .

لم تستطع مصحة المجانين ان تقتله اذن . بل انه في طريقه إلى الشفاء . وسوف يغادر المصحة في غضون شهور قليلة ، وتكون له حرية العودة إلى باريس إلى اصدقائه القدامى . ان حياته ستبدأ مرة أخرى . فكتب

إلى ثيو رسالة طويلة هائجة يطلب فيها ألواناً وقماشاً للرسم وفرشايات وكتباً شيقة :

أشرقت الشمس صفراء حارة في الصباح التالي ، وحمل فنسنت مسند لوحاته إلى الخارج ، ورسم أشجار الصنوبر والشجيرات والممرات . وجاء رفاق المهجع ينظرون من وراء كتفه إلى ما يعمل ، ولكنهم حافظوا على الهدوء والاحترام التام .

وتمتم فنسنت لنفسه قائلاً « إنهم يتمتعون بأخلاق أفضل من أخلاق أفاضل الناس في آرل » .

وقصد الدكتور بيرون في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم ، فخاطبه قائلاً :

– أشعر يادكتور انني على ما يرام ، وأرجو أن تأذن لي في الذهاب خارج الأسوار كي أرسم .

– حقيقة انك تبدو أفضل حالاً يا فنسنت . لقد أفادتك الحمامات وأفادك الهدوء . ولكن ألا ترى ان من الخطر قليلاً ان تخرج إلى الخارج سريعاً على هذا النحو ؟

– الخطر ؟ لماذا ، لا طبعاً . وكيف ؟

– هب انك . . . تعرضت لنوبة . . . في الحقول . . . ؟

ضحك فنسنت وقال :

– لن تعاودني أية نوبات يادكتور . لقد سئمت النوبات . وأشعر الآن انني أفضل حالاً مما كنت قبل تعرضي للنوبة الأولى .

– لا يا فنسنت ، انني خائف . . .

— أرجوك يادكتور . ألا تقدر مبلغ سعادتي اذا ذهبت حيث أشاء ورسمت ما أشتهي من مناظر ؟

— طيب . مادام العمل هو ما تحتاج اليه . . .

وهكذا فتحت البوابه أمام فنسنت . وحزم مسند لوحاته فوق ظهره وخرج بحثاً عن المناظر . وكان يقضي أياماً بطولها في التلال خلف المصحة. وشغلت خياله أشجار السرو الكائنة في ارباض سان ريمي . فقد اشتهى أن يجعل منها شيئاً ما ، مثلما استوحى نباتات عباد الشمس في السابق. وقد أدهشة أن أحداً لم يرسم أشجار السرو كما رآها فنسنت، اذ وجد فيها من جمال الخطوط والمقاييس مايضارع جمال مسلة مصرية ، وافتتن بهذه الطرطشات السوداء وسط الطبيعة المشمسة من حوله.

لقد عاودته العادات القديمة التي سار عليها أثناء اقامته في آرل .صار يخرج كل صباح مع شروق الشمس ، وفي يديه قماشة بيضاء ، فلا تغرب الشمس حتى ينقشها بمناظر الطبيعة . وما كان بوسعه أن يشعر بقواه وقدراته إذا هي تناقصت . فهو يحس نفسه أقوى في كل يوم ، وأكثر حساسية ، وأشد ثقة بنفسه .

ومادام قد أصبح سيد نفسه من جديد ، فلا خوف اذا تناول طعامه على مائدة المصحة . وهكذا صار يلتهم طعامه بشراهة ، ولا يأنف حتى من حساء الصراصير . ذلك انه يحتاج إلى الطعام لتغذية قواه العاملة . وليس ثمة مايخيفه الآن ، لأنه ملك زمام نفسه تماماً .

وفي أعقاب ثلاثة شهور على وجوده في المصحة ، عثر على بقعة من أشجار السرو ، جاءت عزاء لنفسه عن جميع المتاعب ، وعوضته عما

كابد من معاناة في سابق أيامه . كانت أشجاراً باسقة، تقع أمامها أرض منخفضة تعمرها نباتات العوسج والشجيرات الحرشية . وإلى الخلف منها بعض التلال البنفسجية ، والسماء خضراء وردية ، يعلوها قمر في دور التناقص . وقد لون دغل العوسج في مقدم اللوحة تلويناً كثيفاً . مع لمسات من الأصفر والبنفسجي والأخضر .

فلما نظر إلى لوحته في تلك الليلة ، عرف انه خرج من الحفرة التي تردى فيها، وانه وقف ثانية على أرض صلبة، ووجهه ناظر إلى عين الشمس.

وفي غمار الفرحة التي افعمت فؤاده، رأى نفسه رجلاً حراً من جديد.

وأرسل ثيو إليه بعض النقود الإضافية . فحصل فنسنت على اذن بالذهاب إلى آرل واسترداد لوحاته . وقابله الناس في ساحة لامارتين بحفاوة ، إلا أن مشهد المنزل الأصفر ولد في نفسه الداء الدفين ، حتى خيل إليه أنه سيصاب بالاغماء . ولم يذهب لزيارة رولان والدكتور ري كما نوى قبلاً . وإنما ذهب للعثور على مالك المنزل الذي يحجز اوحاته.

لم يعد فنسنت إلى المصحة في تلك الليلة حسب الوعد الذي قطعه بيرون . وقد عثر عليه في اليوم التالي بين تاراسكوني وسان ريمي متردياً في حفرة ووجهه إلى الأرض .

— ٣ —

ظلت الحمى مدة ثلاثة أسابيع سحابة متلبدة فوق عقله . وما كان أشد صبر زملائه في الجناح عليه ، بعدما كان من عطفه عليهم نظراً لتكرر النوبات التي تهاجمهم . وحين شفي إلى الحد الذي أتاح له ادراك ما حدث ، طفق يقول لنفسه « شيء فظيع . شيء فظيع . »

وحدث في نهاية الاسبوع الثالث . وقد صار قادراً على التمشي والرياضة في تلك الغرفة العقيمة الاشبه بالممر . ان جاءت الراهبات بمريض جديد ، سار بصحبتهن في هدوء تام ، حتى السرير المخصص له ، وما كدن ينصرفن حتى انفجر في نوبة هائلة من نوبات الغضب . وأخذ يشق ملابسه ويمزقها نتفاً صغيرة ، وهو لا يتوقف عن الصياح بأعلى صوته . كذلك أغار على فراشه يقطعه ارباً ، وعلى الصندوق المثبت في الحائط يحطمه تحطيماً ، وعمد إلى ستائر السرير فانتزعها وقذف بها ، وإلى الاطار الذي علقت فيه الستائر فحطمه ، وانهال ركلاً على حقيبته حتى صارت كتلة غير ذات شكل .

وكان دأب المرضى ان لا يقتربوا من قادم جديد . وأخيراً قدم حارسان ، وسحبا المجنون إلى الخارج ، واغلقا عليه باب زنزانة في أسفل الممر . وظل يعوي كالوحش الضاري طيلة اسبوعين . وفنسنت يسمعه في الليل والنهار . ثم توقفت الصيحات كلية . وشاهد فنسنت الحراس يدفنون الرجل في المقبرة الصغيرة خلف المعبد .

داهمت فنسنت نوبة فظيعة من الاحباط النفسي . فكلما عادت صحته إلى الحالة السوية ، واستطاع عقله أن يفكر تفكيراً رزيناً ، أدرك مبلغ حمقه اذ يستمر في الرسم متكبداً في ذلك الثمن الفادح اتماء لا شيء . غير انه في الوقت ذاته لا يستطيع أن يحيا دون أن يعمل .

لقد نفحه الدكتور بيرون بشيء من اللحم والنبيذ الذي اقتطعه من مائدته الخاصة ، في حين أبى عليه أن يقترب من مرسمه . ولم يبال فنسنت بذلك طيلة فترة نقاهته ، حتى إذا عادت اليه عافيته ووجد نفسه محكوماً بالبطالة المفروضة على رفاقه ، ثارت ثائرته .

قال :

— دكتور بيرون : ان عملي لازم لشفائي . فاذا فرضت علي هذه البطالة التي يتمرغ فيها هؤلاء المجانين ، فسوف أغدو واحداً منهم .

— أعرف ذلك يا فنسنت . ولكن العمل المنهك الذي زاولته كان السبب في تعرضك للنوبة الاخيرة . ويجب أن أقيلك من تلك الاثارة .

— كلا يا دكتور ، لم يكن العمل هو السبب ، وإنما كان ذهابي إلى آرل . هناك ما كدت أرى ساحة لامارتين والمنزل الأصفر حتى عاودني الداء فاذا أنا لم أذهب اليها مرة أخرى فلن أتعرض لشيء . أرجوك يا دكتور . اسمح لي بالذهاب إلى مرسمي .

— تلك مسؤولية لا أرغب في تحملها . لكنني سأكتب إلى أخيك. فاذا أعطى موافقته ، سمحنا لك بالعمل ثانية .

وصل رد ثيو ، يحث الدكتور بيرون على السماح لفنسنت أن يرسم ، ويحمل في الوقت ذاته مجموعة من الاخبار المنعشة . فثيو في الطريق إلى أن يصبح أباً . وهذا النبأ أدخل إلى نفس فنسنت من السعادة والقوة ما أعاده إلى حالته الأولى قبل أن يتعرض للهجمة الأخيرة .

وهكذا جلس على الفور يكتب لثيو رسالة متوهجة.

« هل تدري يا ثيو ما الذي آمله ؟ آمل ان تحظى بعائلة تمثل لك ما تمثله لي الطبيعة والأرض والعشب والسنابل الصفراء والفلاحون . ان الطفل الذي يتشكل في أحشاء جوهونا سوف يمنحك أحساساً بالحقيقة يتعذر مثله على المرء حين يحيا في مدينة كبيرة . وأنت الآن تستشعر بلا ريب ذاتك العميقة ، مادمت تقول ان جوهانا تحس بتنامي الطفل تنامياً سريعاً . »

عاد إلى مرسمه من جديد ، فرسم المشهد أمامه من وراء النافذة

ذات القضبان . وهو مشهد حقل القمح ، يعمل فيه حصاد صغير ، وتعلوه شمس كبيرة . وجاءت اللوحة بأجمعها صفراء ، ما عدا الحائط الذي يسور الحقل،وينحدر مع انحدار الأرض،بزاوية سحيقة حادة،ما عدا الخلفية المؤلفة من تلال يوشيها لون بنفسجي خفيف .

واستجاب الدكتور بيرون لرغبة ثيو ، فسمح لفنسنت ان يخرج خارج أسوار المستشفى ليرسم . وانهمك فنسنت يرسم أشجار السرو التي تنبثق من الأرض كالنوافير وتصب في سطح الشمس الصفراء . وقام برسم نساء يجمعن ثمار الزيتون . فجعل الأرضية بنفسجية ، تتشح بأصفر مغر في البعيد ، وجعل جذوع الأشجار برونزية وأوراقها رمادية مخضرة ، وجعل النسوة الثلاث والسماء بلون وردي غامق .

وكان يتوقف ، وهو في طريقه إلى العمل ، فيتحدث إلى الرجال الذين يعملون في الحقول . وهو يشعر في قرارة نفسه أنه أقل قدراً منهم .

قال لأحدهم ذات مرة :

ـ اذا تأملت ترى انني أقوم بحرث لوحاتي مثلما تحرثون أنتم حقولكم .

لقد بلغ ذلك الخريف البروفنسالي الأخير ذروة من ذرى الجمال الطبيعي . فأخرجت الأرض كل ما في جعبتها من الألوان البنفسجية ، وتأججت الأعشاب المحترقة من حول شجيرات الورد الصغيرة في الحديقة ، وتجلت روعة التناقض بين السماوات الخضراء ودرجات اللون المختلفة في ورق الأشجار الأصفر .

وفي ذلك الخريف الأخير استعاد فنسنت قواه الكاملة . ولاحظ ان عمله في تقدم مضطرد . وان أفكاراً مبدعة تتدفق في ذهنه من

جديد . واسعده ان يفسح لها المجال كي تتبلور . وأتاح له مكوثه الطويل في هذا الريف أحساساً مفعماً به . ورآه مختلفاً في طبيعته عن ريف آرل . ذلك ان التلال التي تحيط بالوادي عملت على صد معظم الأثر الذي يرافق رياح المسترال . كما كانت الشمس أرحم كثيراً بالعيون . ولم يعد فنسنت راغباً في مغادرة المصحة بعد ان ألف الريف القريب من سان ريمي . لقد كان قبل ذلك يصلي طوال شهور أقامته الأولى راجياً ان يمر العام دون ان يمنى بتحطيم عقله ، أما وقد أصبح مشدوداً إلى عمله ، فانه لم يعد يدري أهو في مستشفى أم في فندق . وعلى الرغم من شعوره ان صحته صارت على ما يرام ، فقد آثر البقاء في هذا الريف الذي يعرفه على الانتقال إلى مكان آخر يحتاج إلى ستة أشهر أخرى حتى يتعرف إلى أرضه الغريبة .

وكانت الرسائل الواردة من باريس تحفظ عليه ارتفاع معنوياته . فهي حافلة بالأخبار التي تتحدث عن شؤون أخيه ، وتروي كيف تقوم زوجه باعداد الطعام الطيب الذي رد اليه صحته خلال برهة يسيرة ، وكيف أنها لا تعاني المتاعب في حملها . كما كان ثيو يرسل اليه التبغ والشوكولاته والألوان والكتب ، مع نحو عشرة فرنكات كل أسبوع .

وتلاشت ذكرى النوبة التي أصابت فنسنت عقب رحلته إلى آرل ، وجعل يؤكد لنفسه حيناً بعد حين انه لو لم يعد أدراجه إلى تلك البلدة الملعونة ، لوفر لنفسه ستة شهور من الصحة والعافية . وحينما جفت لوحتاه المرسومتان عن أشجار السرو و كرم الزيتون ، غسلهما بالماء الممزوج بقليل من النبيذ ليزيل أثر الزيت عن العجينة ، ثم أرسلهما إلى ثيو . وعندما كتب اليه ثيو يزف نبأ عرض عدد من

لوحاته في صالة المستقلين ، تلقى ذلك النبأ دون سرور ، لأنه لبث يشعر أنه لم يقم بأفضل أعماله بعد . وكان يؤثر الانتظار حتى يبلغ درجة اجادة تقنيته .

أكدت له الرسائل الواردة من ثيو ان عمله ماض في الرقي بخطى مرموقة . وقرر فنسنت أنه حين تنقضي سنة المعالجة في المستشفى ، سوف يستأجر بيتاً في قرية سان ريمي ويواصل رسم هذه المناطق الجنوبية . وخالجته من جديد تلك البهجة الجزيلة التي عمرت قلبه في زمنه الأول في آرل ، قبل قدوم جوجان ، حينما كان فنسنت يرسم نباتات عباد الشمس على الواح الخشب .

لكنه لم يلبث في عصر أحد الأيام ان شعر أثناء عمله في الحقول ، ان عقله بدأ يضيع . وفي وقت متأخر من تلك الليلة عثر عليه حراس المصحة ، وقد ابتعد عن مسند لوحاته مسافة بضعة كيلو مترات وكان جسده يتخذ وضعاً ملتفاً حول جذع شجرة من أشجار السرو .

— ٤ —

رجعت حواسه إلى حالتها الطبيعية في نهاية اليوم الخامس . وكان أشد ما آلمه ان رفاقه المرضى كانوا مقتنعين ان مسألة النوبة هي من المسائل التي لا مفر منها .

حل الشتاء . ولا عزم في نفس فنسنت يحمله على مغادرة الفراش . وفي ذلك الأوان كان الموقد في وسط الجناح يتوهج ساطعاً ، يجلس حوله الرجال في صمت متجمد من الصباح حتى الليل . كانت شبابيك الجناح صغيرة عالية . وحرارة الموقد تملأ المكان فتنتشر رائحة العطن الكثيفة . والراهبات يطفن هنا وهناك وهن يتمتمن بصلواتهن ويتحسسن

مسابحهن وصلبانهن وقد اشتد تباعدهن بما ارتدين من قلنسوات واردية سوداء . ولاحت التلال القاحلة في الخارج ماثلة كأنها رؤوس الموتى .

وكان فنسنت يستلقي يقظان على سريره المائل . ويستذكر : ترى ما الذي تعلمه من تلك اللوحة التي رسمها موف في شيفننجن ؟ ان يكابد اقداره دونما شكوى ، وان يعاين الالم دونما مرارة ... أجل ، ولكن في ذلك مخاطرة بالتعرض للدوار . انه اذا استسلم لذلك الالم وتلك العزلة ، كان كمن يسعى إلى حتفه . ان في حياة كل انسان ساعة ينبغي له فيها ان يطرح عناءه جانباً كأن العناء رداء قذر .

مرت الأيام ، لا يوم يختلف عن يوم . واقفر عقله من الأفكار والآمال . وترامى إلى سمعه حديث الراهبات عن عمله . كن يتساءلن أهو يرسم لأنه مجنون ؟ أم هو مجنون لأنه يرسم ؟

وكان زميله المخبول يجلس إلى جواره على جانب السرير ، وينهنه بالبكاء ساعات وساعات . وكان فنسنت يستشعر ما في صداقة هذا الكائن من دفء ، ولا يطرده من صحبته . وكثيراً ما تحدث اليه ، بسبب عدم وجود انسان آخر يصغي إلى حديثه .

قال له ذات يوم ، أثناء مرور راهبتين قربهما :

– انهن يعتقدن ان عملي أدى بي إلى الجنون . وأعرف من جانبي ان هناك شيئاً من الحق في ان الرسام مستغرق غاية الاستغراق فيما تراه عيناه ، وانه بالتالي غير مسيطر بما فيه الكفاية على بقية نواحي حياته . ولكن هل يجعله ذلك انساناً غير مؤهل للعيش في هذا العالم ؟

لم يزد المخبول على ان سال لعابه .

وانما استمد فنسنت قوة اعانته على مبارحة السرير ، من سطر

قرأه أخيراً في كتاب ديلاكروا . فقد قال ديلاكروا « لم اكتشف الرسم الا بعد ان سقطت أسناني وانقطعت أنفاسي . »

وظل فنسنت بضعة أسابيع ، لا تساوره الرغبة حتى في الخروج إلى الحديقة . وقنع بالجلوس في الجناح إلى جوار الموقد، يطالع الكتب التي ارسلها ثيو اليه من باريس فاذا اعترت النوبة جاراً من جيرانه ، لم يتجشم عناء رفع البصر ، ولا القيام من فوق الكرسي . لقد صار الجنون هو العقل ، وغير السوي هو السوي . ولقد انقضت عليه برهة طويلة لم يعاشر فيها البشر الأصحاء . حتى فارقته النظرة التي ترى في زملائه أناساً محرومين من العقل .

قال له الدكتور بيرون :

– أنا آسف يا فنسنت . ولكنني لا استطيع بعد اليوم ان آذن لك بالخروج خارج الأسوار .

– فهل تسمح لي بالعمل في مرسمي ؟

– انني أنصحك بالامتناع عن ذلك .

– هل تفضل ان أقدم على الانتحار يا دكتور ؟

– طيب . اعمل في مرسمك ، على ان لا تجاوز ساعات قليلة في اليوم .

لكن الخمول الذي هيمن عليه ، لم يبارحه حتى بعد مرأى المسند والفرشايات . فكان يجلس على الكرسي الوثير من طراز مونتيسيللي ، ويحملق من خلال القضبان الحديدية ناظراً إلى حقول القمح المحصودة .

ومرت أيام قلائل . واذا بهم يستدعونه إلى مكتب الدكتور بيرون ليوقع على استلام رسالة مسجلة . فلما شق الغلاف ، وجد

شيكاً مالياً قيمته أربعمائة فرنك محرراً لاسمه . وذلك أكبر مبلغ من المال اتيح له ان يملكه مجتمعاً. وعجب من ثيو،لماذا أرسل اليه هذا المبلغ.

« عزيزي فنسنت :

اخيراً ! بيعت احدى لوحاتك بمبلغ أربعمائة فرنك ! إنها لوحة « كرم العنب الأحمر » التي رسمتها في آرل في الربيع الماضي . وقد اشترتها انا بوك شقيقة الرسام الهولندي المعروف .

مبروك ، أيها الصبي العجوز ! سوف نبيعك قريباً في جميع أنحاء أوروبا ! استخدم النقود المرفقة للعودة إلى باريس اذا وافق الدكتور بيرون على ذلك .

التقيت مؤخراً برجل بهيج هو الدكتور جاشيت ، الذي يملك منزلاً في بلدة (اوفير لواز) ، وهي لا تبعد عن باريس الا مسيرة ساعة واحدة . وسبق لهذا الرجل ان استضاف جميع الرسامين المشهورين منذ عهد دوبيني ، ومارسوا الرسم في منزله . وهو يدعي انه يفهم حالتك فهماً دقيقاً ، وانه مستعد للعناية بك متى رغبت في القدوم إلى اوفير .

سأكتب لك رسالة أخرى غداً

ثيو »

عرض فنسنت الرسالة على الدكتور بيرون وزوجه . فقرأها بيرون متفكراً ، ثم تناول الشيك . وقدم التهاني لفنسنت على ثروته الطيبة . وانصرف فنسنت هابطاً إلى الممر ، وقد أخذت ذرات دماغه الرخوة تنتظم من جديد . لتشكل حياة ثابتة ، بنشاط محموم . وحين بلغ في سيره نصف الطريق داخل الحديقة تذكر انه حمل معه الشيك ، ولكنه ترك رسالة ثيو في مكتب الطبيب ، فاستدار وعاد اليه مسرعاً .

هم ان يطرق الباب ، فاذا به يسمع اسمه يذكر داخل الغرفة . فتردد لحظة وهو محتار .

وسمع مدام بيرون تسأل زوجها :

ــ لماذا تظن والحال كذلك ، أنه فعل ما فعل ؟

ــ لعله ظن ان ذلك يفيد حالة أخيه .

ــ وهل تراه قادراً على التضحية بمبلغ كهذا ؟

ــ اعتقد أنه رأى الأمر يستحق ذلك ، اذ يعيد فنسنت إلى حالته الطبيعية .

ــ فأنت لا تعتقد أدنى اعتقاد ان القصة قد تكون حقيقية ؟

ــ وأنى لي ان اعتقد بذلك يا عزيزتي ماري ؟ ان تلك المرأة حسب الرسالة شقيقة فنان معروف . فكيف يمكن لشخص في العلمين عنده ذرة من التمييز ، ان ... ؟

تحرك فنسنت .

وفي ساعة العشاء وصلته برقية من ثيو ، تقول :

« رزقنا بولد اسميناه باسمك . جوهانا وفنسنت في تمام الصحة . »

انقلب فنسنت بين عشية وضحاها إلى رجل معافى ، على اثر بيع اللوحة وكذا الانباء المدهشة الواردة من ثيو . وفي الصباح ذهب الى مرسمه باكراً ، فغسل فرشاياته ، وأخرج لوحاته ودراساته التي أدار وجهها من قبل إلى الحائط ، وقال لنفسه :

« إذا استطاع ديلاكروا ان يكتشف الرسم بعد أن سقطت أسنانه وانقطعت أنفاسه ، فانني أستطيع بدوري أن أكتشف الرسم بعد أن فقدت أسناني وفطنتي . »

ثم انكب على العمل في ثورة صامته . فرسم نسخة عن لوحة ديلاكروا « السامري الطيب » ، ونسختين عن لوحتي ميليه « البذار » و « العزاق » . وتملكه التصميم على أخذ سوء حظه الراهن بنوع من برود أهل الشمال . ألم يكن عالماً منذ البداية ان حياة الفن مجلبة للتمزق؟ فما له الآن يأخذ في الشكوى في هذه المرحلة المتأخرة ؟

ومر اسبوعان تامان على اليوم الذي استلم فيه الشيك بمبلغ اربعمائة فرنك ، فاذا به يتلقى رسالةمرفقاً بها نسخة من عدد كانون الثاني يناير من مجلة « ميركور دو فرانس » . ولاحظ أن ثيو أشار بقلمه إلى مقالة تحت عنوان « المعزولون » . فراح فنسنت يقرأ : « ان ما يميز جميع أعمال فنسنت فان جوخ هو فرط قوتها ، وعنف تعبيرها . إنها تشف عن إيجابيته المطلقة تجاه الجوهر الأساسي للأشياء ، وعن تبسيطه المتهور غالباً للأشكال . وعن رغبته الجريئة في النظر إلى قرص الشمس وجهاً لوجه ، وعن العاطفة المتقدة في رسومه وألوانه ، وفي ذلك كله تكمن بجلاء شخصية قوية ، شخصية ذكر ، شخصية جسورة تبلغ في بعض الأحيان مبلغ الوحشية ، وترق أحياناً فتغدو في منتهى اللطف .

« إن فنسنت فان جوخ يمثل الخط الصاعد لفرانز هالز . ان واقعيته تسمو على الحقيقة التي عبر عنها أسلافه النفر العظام من صغار مواطني هولندا ، الذين كانوا يتمتعون بصحة جسدية وتوازن عقلي بالغين . وما يميز لوحاته هو الدراسة الصادقة للشخصيات ، والبحث الدؤوب عن جوهر كل موضوع ، والحب العميق الذي يكاد يماثل حب الأطفال للطبيعة وللحقيقة.

فهل سيحظى هذا الفنان الضليع ذو الروح المتوهجة بمتعة العرفان واعادة الاعتبار اليه من قبل الجمهور ؟ لا أظن ذلك ، فهو من البساطة ،

ومن الدهاء ، في وقت معاً ، إلى الحد الذي لا تفهمه روحنا البرجوازية المعاصرة ولن يفهمه الفهم الصحيح إلا اخوانه الفنانون . »

ج . البير اورييه »

لم يطلع فنسنت الدكتور بيرون على هذه المقالة .

غير أن جميع قواه وشبقه للحياة عاودته ثانية . فرسم صورة للجناح الذي ينام فيه ، ورسم المشرف على مباني المصحة ، ثم رسم زوجة المشرف ورسم نسخاً أخرى من أعمال ميليه وديلاكروا ، وملأ أيامه ولياليه بالعمل المشوش .

وراح في غضون ذلك يراجع تاريخ مرضه مراجعة متأنية ، فتبين بوضوح أن النوبات التي تعتريه ذات طبيعة دورية ، فهي تداهمه مرة كل ثلاثة أشهر ، وهو اكتشاف مفيد ، لأنه إذا عرف الموعد المتوقع لحلول النوبة ، فسوف يغدو قادراً على العناية بنفسه . واذا ذاك ، يتوقف عن العمل ، ويلجأ إلى السرير ، ويوطن نفسه لوعكة قصيرة . ثم ينهض بعد أيام قلائل ، كأنه لم يتعرض لأكثر من اصابة برد خفيفة .

ومنح نفسه قبل نهاية الشهر الثالث ثمانياً وأربعين ساعة مسبقة ، أوى خلالها إلى السرير وهو في كامل الصحة والمعنويات ، وأسدل الستائر من حوله حتى لا تجيء اليه الراهبات اللواتي أصابهن مس التدين الزائد منذ مطلع الشتاء ، فيعكرن سكينة عقله .

وحل اليوم الموعود للنوبة . وانتظرها فنسنت بفارغ صبر ، بل باشتياق . غير ان الساعات مرت دون أن يجد جديد .. وأصيب بالدهشة ، ومن بعدها بخيبة الأمل كذلك مر اليوم الثاني . ومازال يحس انه على ما يرام . فلما قارب اليوم الثالث على الانقضاء دون حادث . بدأ

يضحك من نفسه ، قائلاً في سره « لقد كنت أهبل » . وكانت آخر نوبة أصابتني خاتمة النوبات وكان الدكتور بيرون على خطأ . وليس علي خوف من الآن فصاعداً . لقد أضعت وقتي في الفراش مستلقياً على هذا النحو ، ولسوف أنهض في صباح الغد وأتوجه إلى العمل . »

لكنه في سكون تلك الليلة ، قام من سريره بهدوء والجميع نيام ، وسار بقدميه الحافيتين على أرض الجناح المبلطة بالحجارة ، واتجه إلى صومعة يخزن فيها الفحم . فجثأ على ركبتيه ، وغرف ملأ يديه من تراب الفحم ، ولطخ بها وجهه وهو يقول :

« هل ترين يا مدام دينيس ؟ لقد تقبلوني الآن . إنهم يفهمون انني واحد منهم . وقد كانوا قبل الآن غير واثقين بي ، أما الآن فأنا من ذوي الأشداق السوداء . وسوف يسمح لي عمال المناجم أن أحمل لهم كلمة. »

عثر عليه الحراس هناك بعد الفجر بقليل . وكان يهمس بصلوات غير مفهومة ، ويكرر مقاطع متناثرة من الانجيل ، يجيب بها على الأصوات التي كانت تصب في أذنيه قصصاً غريبة .

استمرت هلوساته الدينية أياماً عديدة . فلما عاد إلى عقله طلب من إحدى الراهبات أن تدعو الدكتور بيرون ليراه .

قال فنسنت :

– أعتقد يا دكتور أنه كان في مقدوري أن أتجنب هذه الهجمة، اولا أنني أتعرض لهستيريا دينية جانحة اراها تتمثل في الراهبات .

هز الدكتور بيرون كتفية ، واستند منحنياً على السرير ،وقد أزاح الستائر خلف ظهره .

– ماذا أستطيع أن أفعل يا فنسنت ؟ ان هذا ما يحدث لهن كل

شتاء . ولا شأن لي به ، كما انه ليس في وسعي التدخل . فالراهبات ينهضن بعمل جيد على الرغم من كل شيء .

قال فنسنت :

– لنسلم بذلك جدلاً . ولكن من العسير للغاية أن يظل المرء عاقلاً وسط المجانين ، دون أن يتعرض للوثة دينية في هذا المكان . اما الآن وقد انقضى موعد الهجمة التي . . .

– لا تخادع نفسك يا فنسنت . ان تلك الهجمة محتومة عليك .ان جهازك العصبي يعمل بموجب نظام معين ، يتصاعد حتى يصل إلى النوبة كل ثلاثة شهور. ولو لم يكن موضوع هذاءك دينياً ، لكان من طبيعة أخرى

– اذا اصابتني نوبة أخرى يادكتور ، فسوف أطلب من أخي أن يخرجني من هذا المصح .

– كما ترى يا فنسنت .

عاد إلى العمل في مرسمه في أول يوم حقيقي من أيام الربيع ورسم المنظر ذاته وراء شباك المرسم ، منظر الحقل المحروس وسيقان القمح الصفراء . واظهر التناقض ما بين البنفسجي الخفيف الذي هو لون الأرض المحروثة . وبين الأصفر الذي هو لون بقع سيقان القمح المحصودة التي تظهر في خلفيتها التلال :

وكانت أشجار اللوز قد بدأت تزهر في كل مكان وعادت السماء من جديد تكتسي باللون الليموني الشاحب ساعة الغروب .

إلا أن هذا الانبعاث الخالد للطبيعة من حول فنسنت ، لم يبعث فيه حياة جديدة . وقد أصبح يشعر للمرة الأولى ، منذ اعتاد على معاشرة رفقائه ، ان هذيانهم المجنون ونوباتهم الدورية تحطم أعصابه وتمزق

أحشاءه . ولم يعد يجد مخرجاً من الغم الذي يصيبه جراء رؤيته هذه المخلوقات الفئرانية العاكفة على صلواتها من أرديتها البيضاء والسوداء . وصارت مجرد رؤيتهن أمامه تبعث رعشة الخوف في أوصاله . فكتب إلى أخيه يقول :

« ثيو :

لن أكون سعيداً لمغادرة سان ريمي . فما زال أمامي قدر كبير من العمل المرغوب هنا . ولكنني اذا تعرضت لهجمة جديدة ذات طابع ديني ، فسيكون ذلك نتيجة خطأ في المصحة لا في أعصابي . وان نوبتين أو ثلاث نوبات أخرى كفيلة بقتلي .

« كن مستعداً . اذا أصابتني نوبة دينية أخرى ، فسوف أغادر هذا المكان إلى باريس حالما أغدو قادراً على القيام من سريري . وقد يكون من الخير لي أن أجيء إلى مناطق الشمال من جديد ، فهناك يستطيع المرء أن يثق بقدر معين من صحته العقلية.

« قل لي : ما أخبار الدكتور جاشيت الذي حدثتني عنه قبلاً ؟ وهل سيتولى حالتي بعنايته الشخصية ؟ »

وأجاب ثيو على هذه الرسالة قائلاً انه تحدث إلى الدكتور جاشيت ثانية ، واراه بضعة من لوحات فنسنت . فأصبح الدكتور جاشيت متشوقاً لقدوم فنسنت إلى اوفير واشتغاله بالرسم في بيته . وأضاف ثيو :

« انه متخصص يا فنسنت ، لا في الأمراض العصبية وحدها ، وانما في الرسامين أيضاً . وانا واثق انك ستكون تحت رعايته بين خير الايدي. فما عليك الا أن تبرق لي متى رغبت في القدوم ، وسوف أستقل أول قطار إلى سان ريمي . »

وفدت حرارة الربيع المبكر إلى الجو . وبدأت الزيزان تصدح في الحديقة . وقام فنسنت برسم رواق الدرجة الثالثة ، والممرات والأشجار

في الحدائق ، وكذا صورته في المرآة . وكانت احدى عينيه على الرسم والأخرى على التقويم .

وكان الموعد المتوقع لنوبته الثانية هو أيار مايو .

سمع أصواتاً تصيح عليه في الدهاليز الخالية . فراح يجاوبها ، فيرتد إلى أذنيه صدى صوته كأنه نداء عدو خبيث . وقد عثروا عليه بعد ذلك في الكنيسة فاقد الوعي . ولم يتخلص من الهلوسات الدينية التي ألوت بدماغه إلا بعد منتصف أيار مايو .

أصر ثيو على الحضور إلى سان ريمي لاخراجه . أما فنسنت فكان راغباً في القيام بالرحلة منفرداً ، على أن يصحبه أحد الحراس حتى يركب القطار في تاراسكون . وكتب إلى أخيه :

« عزيزي ثيو :

أنا لست رجلاً قاصراً ، ولم أصبح بعد وحشاً خطراً . فدعني أثبت لك ولنفسي أنني كائن سوي . فاذا استطعت أن أنتزع نفسي من هذه المصحة معتمداً على قواي الذاتية ، وان ابدأ حياة جديدة في أوفير ، فلعلني أغدو قادراً على قهر هذا الداء الذي أصابني .

« سوف أتيح لنفسي فرصة أخرى . وانني أشعر بالثقة في انني سأغدو انساناً راشداً من جديد اذا ابتعدت عن بيت المجانين هذا . ويبدو من ماكتبته لي أن اوفير ستكون مكاناً هادئاً وجميلاً . واذا اعتنيت بنفسي ، وعشت تحت أنظار الدكتور جاشيت ، فلي ملء اليقين بأنني سأتغلب على مرضي .

« سوف أبرق لك قبل أن يغادر قطاري محطة تاراسكون . فاستقبلني في محطة ليون . انني أريد أن أغادر مكاني يوم السبت ، لكي أقضي الأحد في البيت برفقتك ورفقة جوهانا والولد الصغير . . »

* * *

الكتاب الثامن

اوفــير

ـ ١ ـ

في تلك الليلة لم يجد ثيو إلى النوم سبيلاً جراء قلقه . وقصد محطة ليون قبل ساعتين من الموعد المتوقع لوصول قطار فنسنت . أما جوهانا فكانت ملزمة بالمكوث في البيت مع وايدها. فوقفت في شرفة شقتهما الكائنة في الطابق الرابع بجادة سيتيه بيجال ، تمد بصرها من خلال أوراق الشجرة الكبيرة السوداء التي تغطي واجهة البيت ، وترقب بلهفة مدخل جادة سيتيه بيجال ، علها ترى عربة تنعطف قادمة من شارع بيجال .

ان المسافة بين محطة ليون ومنزل ثيو مسافة بعيدة . وخيل لجوهانا ان الوقت الذي قضته في الانتظار لا نهاية له . وبدأت تتخوف من احتمال ان يكون ثمة أذى وقع لفنسنت في القطار . ولكن احدى العربات المفتوحة ظهرت أخيراً وهي تنعطف من شارع بيجال ، واومأ لها من داخل العربة وجهان باسمان ، ولوحت لها يدان . فمدت رقبتها كي تتزود بنظرة من وجه فنسنت .

كانت جادة بيجال عبارة عن شارع مسدود ، ينتهي بساحة حديقة وركن بارز من منزل حجري . ولم يكن ثمة الا بنايتان طويلتان

على كل جانب من جانبي الشارع الذي يوحي بالثراء والجلال . وكان منزل ثيو هو المنزل رقم (٨) ، وهو أقرب البيوت إلى الطرف المسدود . ويقوم فوق حديقة صغيرة ، وله رصيف خاص به ؛ وخلال ثوان قليلة وصلت العربة أمام الشجرة السوداء والمدخل .

وصعد فنسنت الدرج وهو يسير على كعبي قدمه ، في صحبة ثيو . وكانت جوهانا تحسب أنها ستلقى انساناً معوقاً ، الا ان الرجل الذي لف ذراعيه حولها كان يتمتع بلون الأصحاء ، وقد علت البسمة وجهه ، وظهرت على ملامحه أمارات العزم العظيم .

وكان أول خاطر خطر لها ان فنسنت يبدو على غاية ما يرام ، بل انه يبدو أشد قوة من ثيو .

لكنها لم تجرؤ على النظر إلى أذنه .

وصاح فنسنت وهو يرفع يدها وينظر اليها باستحسان :

– جميل يا ثيو . لقد اخترت لنفسك زوجة رائعة دون شك .

وضحك ثيو قائلاً :

– شكراً يا فنسنت .

لقد اختار ثيو زوجته على غرار أمه . اذ كان لجوهانا ما لآنا كورنيليا من عينين عسليتين رقيقتين ، ومن احاطة بالأمور في عطف وحنان كاملين . وها هي تزدان بلمسة خفيفة تنبيء بما سيكون لها من سلطان الأمومة في المستقبل ، على الرغم من ان طفلها ما زال في شهوره الأولى . وكانت ملامحها بسيطة طيبة ، ووجهها بيضاوياً أقرب إلى البلادة ، وشعرها عبارة عن كتلة بنية اللون مسرحة إلى الخلف

ببساطة من فوق جبين هولندي مرتفع ، وقد اتسع حبها لثيو فاستوعب فنسنت .

جذب ثيو أخاه إلى غرفة النوم ، حيث كان الوليد نائماً في مهده . ونظر الرجلان إلى الطفل الراقد صامتين والدموع تترقرق في عيونهما . وقدرت جوهانا أنهما قد يؤثران الخلوة معاً برهة من الوقت ، فانسحبت على اطراف أصابعها نحو الباب . وهمت بوضع يدها على المغلاق ، واذ بفنسنت يلتفت نحوها مبتسماً ويقول وهو يشير نحو الغطاء المحبوك فوق المهد :

– لا تكثري أغطية الدانتيل فوقه يا أختي الصغيرة .

أغلقت جوهانا الباب خلفها في هدوء . وشعر فنسنت ، حين عاد يتأمل الطفل ، بتلك الغصة الأليمة ، التي يكابدها الانسان العقيم الذي لم يخلف ذرية وراءه فاذا مات مات ذكره معه .

واستشف ثيو خواطر أخيه ، فقال :

– ما زال الوقت أمامك يا فنسنت . وسوف تعثر يوماً على امرأة تهواك وتشاطرك هموم حياتك .

– آه ، كلا يا ثيو ، لقد فات الأوان .

– أتدري اني صادفت امرأة منذ عهد قريب ، تلائمك كل الملائمة ؟

– حقاً ! ومن هي ؟

– هي النموذج الذي وصفه تورجنييف في روايته « الأرض العذراء » . هل تذكرها ؟

– تقصد تلك التي تعمل في صفوف العدميين ، وتحمل أوراق المصالحة عبر الحدود ؟

– أجل . ينبغي ان تكون زوجك من هذا الطراز يا فنسنت . انسانة تجرعت مرارة الحياة حتى الثمالة ...

– ... وما الذي ترجوه مثلها مني ، أنا الرجل ذو الأذن الواحدة ؟

استيقظ فنسنت الصغير ، ونظر اليهما ، ثم ابتسم .

رفع ثيو الطفل خارج مهده ، ووضعه بين ذراعي فنسنت .

قال فنسنت وهو يحتضن الطفل إلى قلبه :

– أنه ناعم دافىء ، كجرو صغير .

– انتبه أيها الأخرق . ليس هكذا حمل الوليد .

– أخشى انني أكون أكثر انسجاماً مع طبيعتي ، حين احمل فرشاة الرسم .

تناول ثيو الطفل ، وحمله إلى أعلى صدره ، حتى لامس خصلات شعر الطفل الكستنائية برأسه الحاني عليه . وبدا في نظر فنسنت كأن الوالد والولد منحوتان من طينة واحدة .

فقال يختتم الموقف :

– حقاً أيها الصبي ثيو . كل رجل يعمل بالأداة التي تيسرت له . أنت تنجب طفلاً من لحم ودم ... وأنا ابدع بواسطة الرسم .

– كما تقول يا فنسنت . كما تقول .

تقاطر على بيت ثيو في تلك الليلة عدد من أصدقاء فنسنت ،

مرحبين بعودته . وكان اوربيه أول القادمين . وهو شاب وسيم ذو خصلات متهدلة ، ولحية نامية على جانبي ذقنه ، جرداء في وسطها . اقتاده فنسنت إلى غرفة حيث كان ثيو قد علق لوحة بريشة مونتيسيللي ، تمثل طاقة زهور .

قال فنسنت بعد ان استقر بهم المجلس :

— قلت في مقالتك يا سيد اوربيه انني كنت الرسام الأوحد الذي أدرك الخصائص اللونية للأشياء وأعطاها طابع العناصر المعدنية والجواهر الكريمة . فهلا نظرت إلى هذه اللوحة لمونتيسيللي ؟ لقد رسمها قبل ان تطأ قدمي باريس بسنوات .

وانقضت ساعة في هذه المناقشة ، حتى عدل فنسنت عن محاولته اقناع اوربيه ، وقام — بدلاً عن ذلك — فأهداه لوحة من لوحات السرو التي رسمها في سان ريمي ، تقديراً لمقالته .

وجاء تولوز — لوتريك لاهثاً ، وقد ارهقه صعود درجات ست طوابق ، وان كان كدأبه دائماً ، فياضاً بالمرح وبذاءة اللسان .

صاح وهو يصافح فنسنت :

— فنسنت ، مررت لتوي بحفار قبور وأنا أصعد الدرج ، فهل يلتمسني أم يلتمسك ؟

— بل يلتمسك يا لوتريك ! فهو لا يستطيع ان يحصل على عمل عندي .

— سأعقد وإياك رهاناً صغيراً يا فنسنت . انني اراهن أن أدرج اسمك فوق اسمي في كتابه .

— موافق . وما الرهان ؟

– عشاء في مقهى اثينا ، وسهرة في الاوبرا .

قال ثيو بابتسامة واهنة :

– ليتكم يا رفاق تقتصدون قليلاً في هذه النكات التي تتحدث عن الموت .

ظهر في الباب الأمامي رجل غريب ، نظر نحو لوتريك ، ثم غطس في كرسي عند ركن بعيد . وانتظر الجميع ان يبادر لوتريك إلى التعريف به ، ولكن لوتريك استطرد في احاديثه غير ملتفت إلى الرجل .

وسأله فنسنت :

– الا تقدم صديقك الينا ؟

فضحك لوتريك قائلاً :

– هذا ليس صديقي ، بل حارسي .

ورانت عليهم برهة صمت اليم . وقال لوتريك :

– الم تسمع يا فنسنت بما حدث لي ؟ لقد أصبت باختلال عقلي دام مدة شهرين . وقالوا ان سببه الافراط في تعاطي الكحول . ولذا فانني الآن لا اشرب الا الحليب . وسوف ارسل لك بطاقة لحفلتي القادمة التي سأعرض فيها صورة لي وأنا احلب بقرة من موضع غير الموضع المألوف .

قدمت اليهم جوهانا المرطبات . وهم يتحدثون جميعاً في آن معاً ، وقد تلبد جو الحجرة بدخان التبغ الكثيف . واعاد ذلك إلى ذهن فنسنت ذكرى أيامه الخوالي في باريس . ووجه سؤالاً إلى لوتريك :

– كيف حال جورج سورات يا ترى ؟

– جورج ! اتقصد القول انك لا تعلم بما حدث له ؟

قال فنسنت :

– لم يكتب لي ثيو شيئاً عنه . فما الأمر ؟

– جورج يموت بسبب السل . والطبيب يقول انه لن يبقى على قيد الحياة بعد عامه الحادي والثلاثين .

– السل ! وكيف ؟ لقد كان جورج قوياً عفياً .. فكيف بحق ال ...

قال ثيو :

– السبب الافراط في العمل يا فنسنت . هل مر عامان على لقائك الأخير معه ؟ لقد انكب على عمله كالعفريت ، قانعاً بساعة أو بساعتين من النوم يومياً ، منهمكاً إلى حد الاحتدام في العمل طيلة الساعات الأخرى ، حتى عجزت عن انقاذه حتى تلك الوالدة العجوز الطيبة أمه .

قال فنسنت متفكراً :

– وهكذا سوف يرتحل جورج في القريب .

وجاء بعد ذلك روسو ، حاملاً إلى فنسنت حقيبة مليئة بالكعك المعمول في المنزل . وكذا جاء الأب تانجي مرتدياً قبعة القش المستديرة نفسها ، واهدى إلى فنسنت رسماً يابانياً ، مع خطبة جميلة حول مبلغ السرور الذي عم الجميع لرجوعه إلى باريس .

وفي الساعة العاشرة أصر فنسنت على النزول إلى الشارع ، حيث

اشترى رطلاً من الزيتون . وآلى على الجميع ، بمن فيهم حارس لوتريك ، ان يأكلوه .

– لو انكم رأيتم في حياتكم شجر الزيتون الأخضر الفضي الذي ينبت في بروفانس ، لظللتم تأكلون الزيتون حتى آخر أيامكم ..

وقال لوتريك :

– بمناسبة الحديث عن كروم الزيتون يا فنسنت ، قل لي كيف وجدت النساء الآرليات ؟

في الصباح التالي حمل فنسنت عربة الطفل هابطاً برفقة جوهانا إلى الشارع ، ليتيح للطفل ساعة شمس على الرصيف الخاص بالبناية . ثم عاد فنسنت إلى الشقة ووقف مشمراً عن أكمام قميصه ، وهو ينظر إلى الجدران . إنها مغطاة بلوحاته . ففي غرفة الطعام علقت لوحته « آكلو البطاطس » فوق طنف الموقد . وفي غرفة الجلوس لوحة « منظر طبيعي من آرل » ، و « منظر ليلي على نهر الرون » ، وفي غرفة النوم « الكروم المزهرة » . وثمة اكوام ضخمة من صور بلا اطارات ، موضوعة تحت الأسرة وتحت الأريكة وتحت الخزانة ، وأكوام كثيفة في الغرفة الاضافية. ولطالما شعرت المرأة التي تستأجرها جوهانا للتنظيف بالاحباط جراء ذلك.

وبينما كان فنسنت ينقب عن شيء في مكتب ثيو ، وقعت يده على رزم كبيرة من الرسائل المربوطة بخيط غليظ . وكم أدهشه أن يكتشف أنها كانت رسائله المرسلة إلى ثيو . فلقد حفظ ثيو كل سطر كتبه أخوه اليه منذ عشرين سنة ، حين فارق فنسنت زندرت وذهب للعمل في محلات جوبيل بلاهاي . ويبلغ عدد تلك الرسائل حوالي سبعمائة رسالة . وتساءل فنسنت لأي سبب من الاسباب حرص ثيو على حفظ هذه الرسائل .

ثم عثر في ادراج أخرى على جميع الرسومات التي أرسلها إلى ثيو طوال السنوات العشر الأخيرة ، مرتبة وفق تاريخ ورودها . فهذه صور عمال المناجم وأزواجهم المنحنيات على جبل الترابة ، ويرجع عهدها إلى أيام البوريناج . وهذه صور عمال الحفر وعمال البذار في الحقول القريبة من ايتن . وهذه صور الرجال والنساء العجائز في أيام لاهاي . وهذه صور عمال العزق في منطقة جيست وصور صيادي السمك في شيفننجن، وهذه صور آكلي البطاطس وصور النساجين في نيونن ، وهذه مناظر المطاعم والشوارع في باريس . وهذه رسوم زهرات عباد الشمس النامية ومخططات الكروم في آرل . وهذا منظر الحديقة في مصحة سان ريمي.

صاح قائلاً « سوف أقيم معرضاً لا يشاركني فيه أحد . » !

ثم انتزع جميع اللوحات التي كانت معلقة على الجدران ، وألقى بحزم الرسومات التخطيطية، وشد أكداس اللوحات غير المؤطرة من تحت قطع الاثاث كلها ، وشرع يصنفها بأشد العناية وفق أزمنتها . وانتقى بعد ذلك الرسوم التخطيطية واللوحات الزيتية الأكثر تعبيراً عن روح المكان الذي كان مسرح عمله . بعد ذلك عمد إلى حوالي ثلاثين دراسة من دراساته الأولى التي تمثل البورنيين خارجين من المناجم أو منحنيين على المواقد البيضاوية أو جالسين على عشائهم في أكواخهم الصغيرة ، وألصقها بجدران البهو الذي يفضي اليه مدخل البيت . وقال محدثاً نفسه بصوت مرتفع « هذه هي غرفة الاعمال المرسومة بقلم الفحم » . ثم استعرض أنحاء المنزل ، فرأى أن غرفة الحمام هي التالية في ترتيب قلة الاهمية ، فاستعان بكرسي صعد عليه ليلصق على الجدران الأربعة صفاً مستقيماً من الدراسات التي رسمها في ايتن وصور بها فلاحي البرابانت . وقال « وهذه طبعاً ، هي غرفة الاعمال المرسومة بقلم النجارين » .

وانتقل بعد ذلك إلى المطبخ ، وهنا علق دراساته المرسومة في لاهاي وشيفننجن ، بما في ذلك مناظر كثبان الرمال وسفن صيد الاسماك وهي تسحب إلى الشاطىء . وقال « الغرفة الثالثة خاصة بالأعمال المرسومة بالألوان المائية » .

أما في الغرفة الاضافية الصغيرة فعلق لوحة آكلي البطاطس التي صور فيها أصدقاءه عائلة دي جروت. وتلك هي أول لوحة زيتية عبر فيها عن نفسه تعبيراً شافياً . وقد الصق عشرات الدراسات حولها مما صور به النساجين في نيونن والفلاحين في ثيابهم السوداء ، وساحة المقبرة خلف كنيسة والده ، وبرجها الرشيق المستدق .

ثم انثنى إلى غرفة نومه ، فعلق فيها رسومه الزيتية التي ترجع إلى فترة باريس ، وهي الرسوم التي جعلها على جدران ثيو بشارع ليبيك، في الليلة التي ارتحل فيها إلى آرل . وانتقل إلى غرفةالجلوس فحشد فيها كل ما يمكنه حشده من اللوحات الصارخة المرسومة في آرل . وانتقل إلى حجرة نوم ثيو ، فوضع فيها الرسوم التي ابدعها أثناء اقامته في المصحة بسان ريمي .

بذلك فرغ من مهمته ، فقام بتنظيف البلاط ، وارتدى قبعته ومعطفه ، وهبط إلى أسفل البناية ، ودفع عربة سميه الوليد تحت شمس سيتيه بيجال ، وقد تأبطت جوهانا ذراعه وسارت إلى جانبه يتحدثان الهولندية .

وبعد الثانية عشرة بقليل ، برز ثيو من شارع بيجال ، ولوح لهما مغتبطاً ، ثم أقبل يعدو نحوهما ، حتى وصل إلى عربة الطفل فأخذه بين يديه في حركة ناطقة بالمحبة . وتركوا العربة عند البواب وصعدوا إلى

الشقة وهم يتحادثون أحاديثهم المفعمة بالحيوية. فلما بلغوا الباب استوقفهم فنسنت قائلاً :

– والآن ، سوف أصحبكما يا ثيو وجو إلى معرض فان جوخ ، فتمالكا نفسيكما لخوض هذه المحنة .

فسأله ثيو :

– تقول معرضاً يا فنسنت ؟ أين ؟

قال فنسنت :

– ما عليكما إلا أن تغمضا عيونكما.

ثم فتح الباب لهما ، ودخل ثلاثتهم إلى الردهة . وذهل ثيو وجوهانا وهما يحملقان في الجدران .

قال فنسنت :

– حين كنت أقيم في ايتن ، قال لي والدي ذات مرة ان الشيء الجيد لا يمكن أن يتأتى عن الشيء الرديء . وأجبته في حينه ان ذلك ليس ممكناً وحسب ، ولكنه في عالم الفن أمر محتوم . واذا انتما شاهدتما الآن ما سوف أريكما اياه ، أيها الأخ والأخت العزيزان ، فسوف تقرآن قصة رجل بدأ بداية فجة كبدايات الأطفال المرتبكين ، ثم وصل بعد عشر سنوات من العمل الدائب إلى . . . ما ستحكمان عليه بنفسيكما.

وقادهما وفقاً للتسلسل الزمني من غرفة إلى غرفة . ووقفوا جميعاً أمام المعروضات وقوف الزوار في معرض للفنون ، ينظرون إلى هذا

العمل الذي هو حياة رجل بأجمعها . واستشعروا ذلك التقدم البطيء الموجع الذي حققه الفنان ، وتعثره في الطريق إلى نضج التعبير ، والفورة التي حدثت له في باريس ، والتفجرات العاطفية التي طرأت على صوته في آرل ، فاستجمعت كل الآفاق التي راودها في سنوات كده . . . ثم بعد ذلك . . . الحطام . . . لوحات سان ريمي . . . والعناء الحرج الذي لقيه في كفاحه للحفاظ على وهج ابداعه ، وبعد ذلك الانحدار البطيء .. فالانحدار . . والانحدار . . . ثم الانحدار . . .

اقد نظروا إلى المعروضات بعيون الغرباء العابرين . ورأوا في خلال نصف ساعة من الزمن خلاصة الحياة التي عاشها انسان على هذه الأرض.

بعد ذلك قدمت لهما جوهانا غداء مطهياً على طريقة أهالي البرابانت ، واغتبط فنسنت بأن أتيح له من جديد أن يتذوق نكهة الطعام الهولندي . ثم جلس وأخيه يدخنان غليونيهما ويتجاذبان أطراف الحديث ، بعد أن نظفت جوهانا المائدة .

ــ ينبغي يا فنسنت أن تحرص على مراعاة كل ما يطلبه الدكتور جاشيت منك .

ــ أجل يا ثيو ، سأفعل .

ــ لأنه اختصاصي في الأمراض العصبية . فاذا نفذت تعليماته فلا ريب انك ستحرز الشفاء .

ــ أعدك بهذا .

– وجاشيت يمارس الرسم أيضاً . وهو يعرض أعماله كل عام في صالة المستقلين ، تحت اسم ب . فان رايسل.

– وهل رسمه جيد يا ثيو ؟

– كلا . ليس لي أن أقول انه جيد . على انه من أولئك الرجال الذين اوتوا عبقرية في التعرف إلى أصحاب العبقرية . وقد جاء إلى باريس وهو يبلغ العشرين لدراسة الطب ، ونشأت صداقةبينه وبين كوربيه ومورجيه وشانفليري وبرودون . واعتاد أن يرتاد مقهى أثينا الجديد ، ثم سرعان ما صار صديقاً حميماً لكل من مانيه ورينوار وديجا ودوران وكلود مونيه . كما استضاف كلاً من دوبيني ودوميه ، ليرسما في بيته ، وذلك قبل سنوات من وجود ما يطلق عليه الانطباعية .

– حقاً !

وقد رسم الرسامون كل ما لديه من مقتنيات ، سواء في حديقته أو في حجرة جلوسه . وقصدهفي اوفير كل من بيسارو ، وجوييامان ، وسيسلي ، وديلاكروا، وزاولوا الرسم عنده . وسوف تجد على جدرانه لوحات بريشة سيزان ولوتريك وسورات أيضاً . وأضيف أخيراً انه ليس بين الرسامين الكبار الذين اشتهروا منذ منتصف القرن من لم يكن صديقاً للدكتور جاشيت .

– ياه ! تمهل علي لحظة يا ثيو ، فأنت تخيفني . اذ أين أنا من هذه الصحبة المرموقة .هل رأى الرجل أي عمل من أعمالي حتى الآن ؟

– يا غبي ، ولماذا تراه متشوقاً إلى هذا الحد لاستقبالك في اوفير ؟

– أجل ، لماذا ؟

– لقد كان رأيه في آخر معرض للمستقلين ، ان رسوماتك التي صورتها عن ليالي آرل هي أفضل اللوحات قاطبة . بل انني أقسم لك أنه حين شاهد الواح عباد الشمس التي رسمتها لجوجان والمنزل الأصفر ، طفرت الدموع إلى عينيه ، والتفت إلي قائلاً « سيد فان جوخ ، ان شقيقك فنان عظيم و أنا لم أر في تاريخ الفن كله شيئاً يماثل الأصفر الذي لون به أزهار عباد الشمس هذه . ان هذه اللوحات وحدها يا سيدي سوف ترفع أخاك إلى مقام الخالدين . »

حك فنسنت رأسه وابتسم . وقال :

– مليح . اذا كان هذا هو ما يشعر به الدكتور جاشيت حيال زهرات عباد الشمس التي رسمتها ، فلا ريب أنني وإياه سنكون متفاهمين.

– ٢ –

كان الدكتور جاشيت في انتظارهما في محطة القطار . وهو رجل ضئيل الجسم عصبي المزاج خفيف الحركة قلق الهيئة ، يسكن في عينيه حزن شفيق . وقد هز يد فنسنت مصافحاً اياه بحرارة وهو يقول :

– أجل ، أجل . ستجد هذا المكان قرية تناسب ذوق الرسام الحقيقي . وسوف تحب هذه الاقامة . ألاحظ أنك جلبت مسند لوحاتك. هل أحضرت الكفاية من الألوان ؟ يجب أن تبدأ في الرسم على الفور . سوف تتناول العشاء في ضيافتي بالمنزل عصر هذا اليوم . موافق ؟ هل اصطحبت بعض لوحاتك الجديدة ؟ أخشى أنك لن تجد في هذه المنطقة ذلك اللون الأصفر الآرلي ، غير أن هناك أشياء تعوض عنه . يجب أن تأتي إلى منزلي لترسم . سوف أقدم لك مزهريات ومناضد رسمها الجميع

منذ عهد دوبيني حتّى لوتريك . كيف حالك ؟ تبدو لي بصحة جيدة . هل ترى أنك ستحب المكان هنا ؟ نعم ، نعم ، سوف نعتني بك . ونجعل منك رجلاً صحيحاً معافى !

أطل فنسنت من فوق رصيف المحطة على غيضة من الأشجار التي ينعطف نحوها نهر الواز الأخضر بواديه الخصيب . وهرول فنسنت قليلاً ليقف على جانب المحطة ويبصر المشهد على اتساعه . وتحدث ثيو إلى الدكتور جاشيت بصوت خفيض ، قائلاً :

– أتوسل اليك ان تراقب أخي مراقبة دقيقة . فاذا لاحظت عليه أية أعراض توحي بأن ساعة محنته ازفت فأبرق إلي فوراً . يجب أن أكون إلى جانبه عندما . . . ينبغي أن لا يسمح له ب . . . . فهناك من يقول ان...

قاطعه الدكتور جاشيت وهو يتراقص في مشيته فيرفع قدماً وينزل أخرى ، ويحك لحيته الصغيرة بشده بواسطة ابهام يده :

– اسكت ! اسكت ! انه مجنون طبعاً . فماذا تنتظر منه ؟ ان جميع الفنانين مجانين . وهذا خير ما فيهم . وانا احبهم على علاتهم . وأتمنى أحياناً ان اغدو بدوري مجنوناً ! « ما من روح ممتازة تخلو من جنون يخالطها » ! اتعرف من قائل هذه العبارة ؟ انه ارسطو .

– أعرف يا دكتور . ولكنه مازال في شرخ الشباب ، لم يتجاوز سبعة وثلاثين عاماً . ومازال الشطر الأفضل من حياته أمامه .

نزع الدكتور جاشيت طاقيته الغريبة البيضاء عن رأسه بحركة خاطفة ، وتخلل بيده شعر رأسه مرات عديدة ، دونما غرض مفهوم . ثم قال :

– دعه لي . فأنا أعرف كيف أعالج الرسامين . سوف اجعل منه رجلاً معافى خلال شهر واحد . سوف اهيىء له الأسباب ليرسم . وفي ذلك شفاؤه . سوف اجعله يرسم شخصي الآن فوراً ، عند عصر هذا اليوم . سوف احول انتباهه عن مرضه . فاطمئن .

عاد اليهما فنسنت ، وهو يستنشق أنفاساً طويلة من هواء الريف النقي . وقال لثيو :

– ينبغي ان تأتي بجو والوليد إلى هنا . ان من الجناية ان ينشأ الأطفال في المدن .

صاح جاشيت :

– نعم . نعم . يجب ان تأتي ذات يوم من أيام الأحد ، وتقضي النهار بطوله معنا .

– شكراً . هذا يسرني . هوذا قطاري قادم . مع السلامة يادكتور جاشيت . شكراً لعنايتك بشقيقي . وأنت يا فنسنت ، اكتب لي كل يوم .

أمسك الدكتور جاشيت بمرفق فنسنت ، ودفعه أمامه ، وتلك عادة من عاداته حين يسير برفقة أحد . وطفق يتدفق بحديث عصبي مستفيض ، وصوته يعلو ، وهو يتكلم مندفعاً ، ويجيب بنفسه على تساؤلاته ، ويغرق فنسنت في حوار مصحوب بتناثر اللعاب .

فقال :

– هذا هو الطريق إلى القرية . ذلك الطريق الطويل الماثل أمامنا مباشرة . ولكن تعال . سوف أصحبك إلى ذلك التل واشرف بك

على مشهد حقيقي . أنت لا تبالي بحملك مسند اللوحات فوق ظهرك ؟ تلك على يسارنا كنيسة الكاثوليك . هل استرعى انتباهك ان الكاثوليك ينشؤون كنائسهم دائماً فوق تل ، لكي ينظر الناس اليهم في عليائهم ؟ يا للزمن .. يا للزمن . لابد انني آخذ في الشيخوخة ، فهذا المرتفع يبدو لي أكثر وعورة بين العام والعام . هذه هي حقول قمح ظريفة ، أليس كذلك ؟ ان اوفير محاطة بها . يجب ان تأتي ذات يوم وترسم هذا الحقل . أنه ليس في صفرة حقول البروفنسال بطبيعة الحال ... نعم . وهذه على اليمين هي المقبرة ... لقد أقمناها هنا في قمة التل ، مطلة على النهر والوادي ... أتحسب الموتى يعبؤون كثيراً بالمكان الذي يرقدون فيه ؟ ... لقد منحناهم أجمل بقعة في وادي الواز بأسره ... هل ندخل اليها ؟ ... أنك تظفر من داخلها بأوضح منظر للنهر .. بل ان في وسعنا ان نرى حتى بوانتواز ... نعم ، هذه هي البوابة مفتوحة ، ما عليك الا ان تدفعها ... هكذا ... والآن أليس المنظر ساراً ... لقد بنينا الأسوار لصد الرياح ... نحن هنا ندفن الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء .

أزلق فنسنت المسند عن ظهره ، وسار مبتعداً قليلاً عن الدكتور جاشيت ، هارباً من كلماته المتدافعة . كانت المقبرة مقامة فوق قمة التل تماماً ، ولها شكل مربع دقيق . ويقع جزء منها على المنحدر . وقد ذهب فنسنت ناحية الحائط الخلفي حيث استطاع ان يرى وادي الواز بأجمعه يترقرق في الأسفل . ويشق النهر الأخضر الرطيب طريقه في رشاقة ، بين ضفتين من خضرة يانعة . وشاهد فنسنت إلى يساره سطوح بيوت القرية المسقوفة بالقش ، وعلى مسافة قريبة وراءها شاهد منحدراً آخر يتربع قصر على أعلاه . كانت المقبرة مليئة بأولى

أزهار الربيع ، تحت أشعة شمس ايار مايو الصافية ، تعلوها سماء زرقاء لطيفة . لكن تمام السكينة وجمالها أنما يأتي من وراء القبور .

قال فنسنت :

– هل تدري يا دكتور جاشيت ، لقد كان خيراً لي انني سافرت إلى الجنوب . ذلك انني الآن أرى الشمال على نحو أفضل . انظر إلى وفرة اللون البنفسجي هناك على ضفة النهر القصوى ، حيث قصرت الشمس ان تلفح الخضرة في تلك المواضع .

– نعم ، نعم ، إنه بنفسجي ، بنفسجي ، ذلك هو اللون هناك بنفسه . . .

وتمتم فنسنت :

– ويالرزانته ، ويا لهدوئه وسكينته .

ثم أنهما عادا أدراجهما إلى أسفل التل ، مجتازين حقول القمح والكنيسة ، وسلكا الطريق المستقيم على يمينهما ، حتى قلب القرية .

قال الدكتور جاشيت :

– معذرة لأنني لا استطيع استضافتك في منزلي . ذلك أنه ليس لدينا ، للاسف ، متسع للضيوف . لكنني سأصحبك إلى نزل مناسب . وسوف تجيء في كل يوم إلى منزلي لترسم وتحس بأنك في بيتك .

ساق الدكتور فنسنت من مرفقه ، دافعاً اياه إلى ما وراء قرية الماري ، هابطين إلى حافة ضفة النهر حيث يقع نزل صيفي . وتحدث جاشيت إلى صاحب النزل ، فوافق هذا على تأجير غرفة لفنسنت ، بالأضافة إلى تقديم الطعام ، لقاء ستة فرنكات في اليوم .

وصاح جاشيت :

– سأتيح لك الآن فرصة لترتيب شؤونك ، ولكن تذكر ان تأتي للغداء في الساعة الواحدة . وان تحضر معك مسند لوحاتك . ينبغي ان ترسم صورتي . وهات معك بعض لوحاتك الجديدة . سيكون لنا حديث مستفيض . موافق ؟

وحالما توارى الدكتور عن النظر ، تناول فنسنت حاجياته وسار نحو الباب الأمامي . فسأله صاحب النزل :

– انتظر لحظة . إلى أين أنت ذاهب ؟

أجاب فنسنت :

– أنا عامل ، لا رأسمالي . وليس في مقدوري ان ادفع ستة فرنكات في اليوم .

عاد أدراجه إلى الساحة ، وعثر على مقهى صغير يواجه قرية الماري ويدعى « رافو » ، وهناك حصل على الغرفة والطعام لقاء ثلاثة فرنكات ونصف الفرنك لا غير .

كان مقهى رافو ملتقى للفلاحين والعمال الذين يعملون حول اوفير . وفي مؤخرة المقهى مشرب صغير للخمر ، وضعت خلفه طاولة بلياردو ذات غطاء أخضر قذر ابلاه الدهر . وكانت هذه الطاولة موضع فخر رافو ومحط بهجته . وثمة باب في المؤخرة يفضي إلى مطبخ خلفي . وخارج هذا الباب سلالم تصعد ملتوية إلى طابق ذي ثلاث غرف نوم . وشاهد فنسنت من شباك غرفته برج الكنيسة الكاثوليكية وملمحاً صغيراً من سور المقبرة بلونه البني النظيف المتجعد تحت شعاع شمس اوفير الناعمة .

حمل مسند لوحاته ، وبعض الألوان والفرشايات ، ولوحة تمثل امرأة من آرل ، وشد رحاله إلى جاشيت . وسار على امتداد الطريق الذي سلكه وهو قادم من المحطة إلى مقهى رافو ، حتى وصل إلى الساحة ، ومن هناك كان الطريق ينسل نحو الغرب ثانية ، ويعلو مرتفعاً آخر . وبعد مسيرة قصيرة توقف عند بقعة تتفرع منها ثلاثة طرق . فأما الطريق إلى اليمين فهو يؤدي إلى التل خلف القصر ، وأما الطريق إلى اليسار فيترامى إلى أسفل ، ويخترق حقول البازيلاء حتى يبلغ ضفة النهر . وقد أبلغه جاشيت ان يسلك الطريق الأوسط الذي يمتد حول محيط التل . فسار فنسنت متمهلاً ، يفكر في الدكتور الموكل بالعناية به . ولاحظ أثناء السير كيف بدأت الأكواخ المسقوفة بالقش تخلي مكانها لدارات مترفة ، وكيف تغيرت طبيعة المنطقة الريفية بأكملها .

جذب فنسنت مقبضاً نحاسياً متدلياً من جدار حجري مرتفع . فهرع الدكتور جاشيت أثر رنين الجرس . وقاد فنسنت صعداً عبر ثلاث طبقات من الدرجات الحجرية الوعرة ، فاذا بهما في حديقة أزهار مرتفعة . وكان المنزل مؤلفاً من ثلاثة طوابق متينة البنيان . وطوى الدكتور ذراع فنسنت وأمسك بمرفق كوعه ودفعه نحو ساحة المنزل الخلفية التي يربي فيها البط والدجاج والديكة الحبشية والطواويس وطائفة من القطط مختلفة الأنواع .

وبعد ان روى جاشيت تاريخاً مفصلاً عن حياة هذه الدواجن ، قال :

– هلم بنا يا فنسنت إلى غرفة الجلوس .

كانت حجرة الجلوس في مقدمة المنزل واسعة عالية السقف ، وليس لها مع ذلك الا نافذتان اثنتان صغيرتان تطلان على الحديقة . وعلى الرغم من اتساع الحجرة فقد زحمتها قطع الأثاث والتحف الأثرية وطرف الزينة . فما يكاد الفراغ المتاح يكفي حركة الرجلين نحو المنضدة في وسط الحجرة . كما كانت الغرفة معتمة بسبب صغر حجم النافذتين ، ولاحظ فنسنت ان جميع ما في الحجرة مصطبغ باللون الأسود .

راح جاشيت يهرول هنا وهناك ، يلتقط الأشياء ويلقي بها بين يدي فنسنت ، ثم يأخذها منه قبل ان يؤتى مهلة كافية للنظر اليها .

– انظر . هل ترى لوحة طاقة الزهر على الحائط ؟ لقد استخدم ديلاكروا هذه المزهرية لحفظ الزهور . فتحسسها . الا تحس إنها هي ذاتها التي رسمها ؟ هل ترى هذا الكرسي ؟ انه الكرسي الذي جلس كوبريه عليه قرب النافذة عندما رسم الحديقة . وهذه الأطباق ، أليست بديعة ؟ لقد أحضرها ديمولان من اليابان هدية لي . وقام كلود مونيه برسم هذا الطبق في لوحة من لوحات الطبيعة الصامتة . إنها موجودة في الطابق العلوي ، فتعال معي لأريك اياها .

وعلى مائدة الغداء التقى فنسنت بنجل جاشيت واسمه بول ، وهو صبي نشيط وسيم يبلغ الخامسة عشرة . ولما كان جاشيت رجلاً مريضاً مصاباً بسوء الهضم ، فقد كانت وجبة الغداء عنده على خمسة ادوار . ولذا فان فنسنت ، وهو المعتاد على طبق العدس والخبز الأسود في سانت ريمي ، شعر بالضيق بعد الدور الثالث ، ولم تعد له حيلة في الاستمرار .

صاح الدكتور :

– أما الآن ، فينبغي ان ننهض إلى العمل . سوف ترسم صورتي . وسأجلس أمامك كما أنا . مليح ؟

– أخشى يا دكتور انه لابد لي من معرفة أعمق بشخصك ، والا فان اللوحة لن تجيء معبرة كما ينبغي .

– لعلك محق ، لعلك محق . ولكنك سترسم شيئاً آخر ولا ريب ؟ وسوف تتيح لي أن أرى كيف تعمل ؟ إنني متلهف لمراقبتك .

– رأيت في الحديقة منظراً أود أن أرسمه .

– مليح ! مليح ! سوف أركز لك مسند لوحاتك . احمل يا بول مسند السيد فنسنت إلى الحديقة . سوف ترينا أين نقيمه لك. وسوف أقول لك هل سبق لأي رسام آخر أن رسم البقعة ذاتها .

راح الدكتور يهرول في دوائر صغيرة حول فنسنت أثناء انهماكه في الرسم ، ويشير بيده في هيام وحيرة وذهول ، ويصب في مسمعه سيلا مستمراً من النصائح ، تتخللها مئات صيحات الاعجاب الحادة .

– أجل ، أجل . لقد ظفرت بالمطلوب هذه المرة . نحن أمام بحيرة قرمزية . ولكن انتبه وإلا افسدت هذه الشجرة . آه ، نعم ، نعم ، ، لقد ظفرت بها الآن . لا ، لا ، لا تضع مزيداً من اللون الكوبالتي . فنحن لسنا في بروفانس . الآن فهمتك . تمهل ، تمهل يا فنسنت . ضع نقطة من الأصفر في تلك الزهرة . نعم . نعم ، على هذا النحو . كيف تصبح الأشياء حية في يدك . ان فرشاتك لا تشتمل على حياة ساكنة . لا ، لا ' أرجوك . كن منتبهاً . لا تكثر من هذا . آه ، نعم ، نعم ، الآن تجلى لي الأمر . هذا رائع .

صمد فنسنت قدر استطاعته أمام تشنجات الدكتور وخطبه الطويلة ، وأخيراً استدار نحو جاشيت المتراقص قائلاً :

– صديقي العزيز ، ألا ترى أن ما تأخذ به نفسك من انفعال واهتياج قد يضر بصحتك . انك طبيب وتعرف ولا ريب أهمية الهدوء لصحة الانسان .

غير أنه لم يكن في مقدور جاشيت الاخلاد للهدوء أثناء قيام أحد بالرسم .

وحين انتهى فنسنت من دراسته التخطيطية ، دخل البيت بصحبة جاشيت ، وأراه لوحه « امرأة من آرل » . فنظر إليها الدكتور من طرف عينه مستهيناً بها . وبعد مناقشة طويلة مستفيضة بينه وبين نفسه ، حول مزاياها وعيوبها ، صرح قائلاً :

– لا ، لا أستطيع أن أوافقك عليها . لا أوافقك عليها تمام الموافقة . ولا أفهم ما الذي أردت أن تقوله بها .

أجاب فنسنت :

– لم أحاول أن أقول شيئاً معيناً . ولكن بوسعك اذا أحببت أن تعد هذه الفتاة تلخيصاً للنساء الآرليات . وقد حاولت ببساطة أن أعبر عن شخصيتها بوساطة الألوان .

قال الدكتور مكتئباً :

– اسفاً . إنني لا أستطيع تقبلها .

– هل تمانع في طوافنا بالبيت لألقي نظرة على مجموعة اللوحات التي تقتنيها ؟

– بل تفضل وتأمل على مهلك . أما أنا فسأمكث مع هذه السيدة وأرى هل يتعذر علي تقبلها حقاً .

جاس فنسنت خلال أرجاء المنزل ساعة كاملة ، ومعه بول الطيع ، يقوده من غرفة إلى غرفة . وعثر فنسنت أثناء جولته على لوحة لجوييامان ملقاة في أحد الأركان ، تمثل امرأة عارية تستلقي على سرير . وكان من الجلي ان اللوحة متروكة مهملة ، حتى أصابها التشقق . وبينما كان فنسنت يتفحصها ، جاء الدكتور جاشيت يهرول منفعلاً ، ويتدفق بفيض من الأسئلة حول لوحة « امرأة من آرل » .

فسأله فنسنت :

– هل أفهم من هذا انك ظللت تنظر إليها طيلة هذا الوقت ؟

– نعم . نعم . لقد تجلت لي ، تجلت لي . لقد بدأت أشعر بها .

– معذرة يا دكتور جاشيت لجراءتي ، ولكن هذه لوحة رائعة من لوحات جوييامان . واذا لم تزودها باطار في القريب العاجل فسوف تتلف.

لكن جاشيت لم يسمعه مجرد سماع . وإنما استطرد يقول :

– قلت لي أنك تأثرت في رسمك بجوجان . . . ولكنني أخالفك في ذلك . . . فذلك التنافر بين الألوان يقتل عنصر الانوثة فيها . . . لا لم أقصد يقتل . . . وإنما . . . طيب . . . طيب ، سأذهب لأنظر إليها مرة أخرى . . . إنها تتراءى لي ، شيئاً فشيئاً . . . إنها توشك أن تقفز من اللوحة إلي .

قضى جاشيت بقية عصر اليوم وهو يحوم حول الآرلية ، مومئاً إليها ، ملوحاً بذراعيه ، مخاطباً نفسه ، موجهاً عشرات الأسئلة مجيباً بنفسه

عليها ، متخذاً آلاف الأوضاع . فاذا به يمسي بعد هبوط الليل وقد استولت الآرلية على سويداء قلبه . وخيمت عليه سكينة هائئة .

ثم قال وهو يقف أمام اللوحة في إعياء وادع :

– ما أصعب البساطة .

– نعم .

– إنها جميلة . جميلة . وإنني لم أستشعر مثل هذا العمل في الشخصية قبل اليوم .

– إذا أعجبتك اللوحة يادكتور فهي لك . وكذلك المنظر الذي رسمته في الحديقة عصر اليوم .

– ولكن لماذا تهب لي هذه الصور يا فنسنت ؟ إنها عظيمة القيمة.

– قد تغدو مضطراً في القريب العاجل إلى العناية بصحتي ، ولن يكون في حوزتي نقود أدفعها لك . ولذا فانني أسدد لك ديوني باللوحات.

– ولكنني لا أبذل عنايتي لك مقابل نقود يا فنسنت ، ولكن من أجل الصداقة .

– لتكن ، هذه الصور مني اذن عربون صداقة .

– ٣ –

من جديد رتب فنسنت أمور حياته ليكون رساماً . فصار يأوي إلى الفراش في الساعة التاسعة ، بعد أن يقضي وقتاً في مشاهدة العمال يلعبون البليارد وتحت ضوء مصباح كئيب في مقهى رافو . وكان يستيقظ في الساعة الخامسة ، والطقس جميل ، يغمره ضياء الشمس اللطيف ، وتزينه خضرة

الوادي يانعة . غير أن فترات مرضه وانقطاعه الجبري عن العمل أيام سان بول ، كانت لها ضريبتها . وإذا به يحس بفرشاة الرسم تنزلق من يده .

أرسل إلى ثيو طالباً منه ارسال دراسات بارج الستة المرسومة بالفحم، كي يكتسب مرانة من نسخها ، لأنه كان يخشى الوقوع في أخطاء صارخة إذا لم يعد إلى دراسة النسب والأجساد العارية . وراح يبحث في أرجاء اوفير عله يجد مسكناً صغيراً يقيم فيه اقامة دائمة . وتساءل في سره ، ترى هل كان ثيو على صواب حين خطر له وجود امرأه في مكان ما في هذا العالم ، قد تشاطر فنسنت حياته . ثم بسط أمامه عدداً من اللوحات التي رسمها في سان ريمي ، متلهفاً لوضع لمسات جديدة عليها بغية ضبطها وتصحيحها .

إلا أن هذا النشاط المفاجىء لم يكن إلا ظاهرة مؤقتة ، وانعكاساً لطاقة حيوية ما زالت أقوى من الدمار .

إن عزلته الطويلة في المصح ، أعقبها احساس عسير بتباطؤ الزمن . فالأيام تمر كأنها الاسابيع . وهو يحس بالضياع دون أن يدري كيف يملأ فراغها ، لاسيما وهو لا يملك عافية تسمح له بالرسم طيلة الوقت، بل ولا يملك الرغبة في أن يفعل . وقبل الحادث الذي طرأ عليه في آرل لم يكن أي يوم من الأيام طويلاً بما فيه الكفاية لإنجاز العمل . أما الآن فالأيام تبدو بلا نهاية .

وتضاءل عدد المناظر التي تثير فيه شهوة الرسم ، أضف إلى ذلك انه ما يكاد يبدأ في العمل حتى يشعر بفتور غريب ، يبلغ مبلغ عدم الاكتراث لقد هجرته تلك الشهوة المحمومة لأن يرسم بدم ملتهب في كل دقيقة

من النهار . وصار يقوم برسم مخططات يمارسها على طريقة شغل الفراغ . ولم يعد يبالي هل تنتهي اللوحة قبل حلول الليل أو لا تنتهي .

ظل الدكتور جاشيت صديقه الوحيد في اوفير . وكان جاشيت يقضي معظم أيامه في عيادة استشاراته الطبية في باريس ، ويجيء في الليل غالباً مقهى رافو ليرى الجديد من الصور . وكان فنسنت يتساءل دائماً عن سر تلك النظرة الحزينة في عيني الدكتور ، التي تنم عن قلب محطم تماماً. ولذلك ألقى عليه السؤال :

– لماذا أنت غير سعيد يا دكتور ؟

– آه يا فنسنت . لقد كدحت سنوات طويلة . . . ولم أفعل إلا خيراً قليلاً . ان الطبيب لا تقع عيناه إلا على الألم ، والألم ، والألم .

قال فنسنت :

– كم يسعدني لو نتبادل اسمينا .

فاستضاء الحزن الماثل في عيني الدكتور بلهفة ذاهلة وقال :

– آه ، كلا يا فنسنت . ان اجمل شيء في العالم هو ان يكون المرء رساماً . لقد تمنيت طيلة حياتي ان أغدو فناناً . . . لكنني ، وأنا الطبيب الموزع بين مرضاي الكثيرين المحتاجين إليّ ، ما كنت أستطيع أن أجد فراغاً إلا بمقدار ساعة هنا وساعة هناك . . .

ثم ركع الدكتور جاشيت على ركبتيه ، وجذب كوماً من اللوحات من تحت سرير فنسنت . ورفع أمام عينيه صورة زهرة عباد شمس صفراء متوهجة .

– لو انني رسمت لوحة واحدة كهذه اللوحة يا فنسنت ، لعرفت

لحياتي مغزى مقنعاً . ولكنني قضيت سني حياتي في شفاء الناس من اوجاعهم . . . وقد ماتوا في نهاية الأمر على كل حال . . . فأي فارق فيما صنعت ؟ أما لوحاتك هذه التي صورت فيها زهور عباد الشمس . . . ففيها شفاء لقلوب الناس . . . وسوف تدخل الغبطة اليهم . . . عبر قرون وقرون من الزمان . . . وهذا هو السبب في نجاح حياتك ، ولهذا ينبغي لك أن تكون رجلاً سعيداً .

بعد أيام قلائل عكف فنسنت على رسم لوحة شخصية للدكتور ، بطاقيته البيضاء وسترته الرسمية الزرقاء ، وجعل خلفية اللوحة زرقاء مخضرة . ورسم الرأس بدرجة لونية خفيفة فاتحة ، والأيدي أيضاً بلون بلدي خفيف ، أما وضع الجسم ، فقد اختار فنسنت للدكتور ان يقف منحنياً على طاولة حمراء ينظر في كتاب أصفر ، وأمامه نبات قفاز الثعلب بأزهاره الارجوانية . وحين فرغ فنسنت مناللوحة سره أن يرى أنها تشبه اللوحة التي رسمها لنفسه في آرل ، قبل قدوم جوجان .

وتحمس الدكتور لصورته إلى درجة التعصب . وكال لفنسنت سيلاً من الثناء والاعجاب لم يسمعه في حياته كلها . وأصر جاشيت على فنسنت أن يرسم له نسخة أخرى من اللوحة . فوافق فنسنت على ذلك ، وفرح الدكتور فرحاً لا مزيد عليه .

وصاح :

– يجب أن تستخدم آلة الطباعة الموجودة في سقيفتي يا فنسنت . سوف نذهب إلى باريس ونأتي بجميع لوحاتك ونطبع منها نسخاً على الحجر . ولن يكلفك هذا سنتيماً واحداً . هلم بنا ،فسوف أريك ورشتي .

كان لابد لهما الوصول إلى السقيفة ان يصعدا سلماً ثم يدفعا باباً

متحركاً . وحين دلفا إلى المكان وجده فنسنت مكتظاً حتى سقفه بأدوات سحرية غريبة ، حتى خيل إليه انه حشر في ورشة أحد المشتغلين القدامى بالخيمياء من عهد العصور الوسطى .

وبينما هما يهبطان الدرج عائدين أدراجهما ، لاحظ فنسنت أن لوحة المرأة العارية لجوبيامان مازالت على حالها من الاهمال . فقال :

— دكتور جاشيت . لابد لي من الإصرار على وجوب تأطير هذه اللوحة . فالواقع أنك باهمالها تتلف تحفة عظيمة .

— نعم ، نعم ، إنني أنوي تأطيرها . قل لي متى يمكننا الذهاب إلى باريس وإحضار رسوماتك ؟ انك ستطبع منها نسخاً على قدر ما تريد. وسوف أمدك بجميع المواد اللازمة .

انزلق ايار مايو في هدوء ، مخلفاً وراءه حزيران يونيه . وقام فنسنت برسم الكنيسة الكاثوليكية فوق التل . غير أنه شعر بالضيق في منتصف ساعات العصر ، فلم يبال باتمامها . ثم أنه استطاع بقوة مثابرة شديدة ان يرسم حقل قمح ، وهو منبطح على الأرض ، يكاد رأسه يلامس سيقان القمح . وقام أيضاً برسم لوحة كبيرة لمنزل مدام دوبيني ، ولوحة أخرى لمنزل أبيض بين الأشجار ، تعلوه سماء ليلية ، وتشع من نوافذه أضواء برتقالية ، وتحيط به خضرة داكنة ولمسة من اللون الوردي القاتم ، وتظهر في اللوحة أخيراً شجرتان من أشجار الكمثرى ، وشحهما المساء بلونه الأسود ، ووقفتا بارزتين تحت سماء ضاربة إلى الصفرة .

لكن رسمه غدا محروماً من العصارة . فهو يعمل بحكم العادة ، اذ لا يجد ما يفعله غير ذلك . لقد اكتسب قوة اندفاع مرعبة في السنوات

العشر التي قام خلالها بمجهوده الهائل ، ولبثت تلك القوة تدفعه الآن دفعاً خفيفاً إلى الأمام . فلم تعد تهزه المناظر الطبيعية التي كانت تؤجج انفعاله في الماضي ، وأنما يعبرها لا مبالياً ، يتمتم لنفسه وهو يسير على الطرقات حاملاً مسند لوحاته فوق ظهرة « سبق ان رسمت هذا مرات عديدة . وليس عندي ما أضيفه حوله . واذن فلماذا أكرر نفسي ؟ لقد كان الأب ميليه محقاً عندما قال : خير لي ان أصمت من ان أعبر عن نفسي تعبيراً ضعيفاً . »

ان غرامه بالطبيعة لم يمت . وكل ما في الأمر أنه ما عاد يستشعر تلك الرغبة الطاغية في ان يلقي بنفسه في غمار مشهد من المشاهد ليعيد ابداعه . أنه يحس بنفسه رماداً . وقد انقضى شهر حزيران يونيه بأكمله دون ان يرسم الا خمس لوحات . وكان يعاني اجهاداً يستعصي على القول . ويشعر أنه فارغ مستنزف جاف كأنما ذهبت شرارات صغيرة مع كل واحدة من المئات تلو المئات من الرسوم واللوحات التي تدفقت من وجدانه في السنوات العشر الماضية .

واذا كان قد استمر في العمل ، فمرجع ذلك أخيراً إلى أحساسه بأن عليه ان يرد لثيو ثمار ما أنفقه عليه في سنوات الاستثمار . ومع ذلك ، فانه حينما يستذكر ، وهو منهمك في احدى اللوحات ان منزل ثيو طافح أصلا بكميات من اللوحات ، تنوف على ما يمكن للمرء ان يفلح في بيعه ، ولو عاش حياته عشر مرات ، فقد كان يصاب بغثيان خفيف ، ويدفع عنه مسند لوحاته مشمئزاً .

وكان يعلم ان موعد نوبته القادمة يحل في تموز يوليو ، عند نهاية فترة الأشهر الثلاثة . ولذا انتابه القلق ، خشية ان يفعل فعلة مجنونة

وهو تحت وطأة الهجمة ، فيصبح منبوذا في القرية . ومما كان يزيده توتراً ، أنه لم يرتب مع ثيو ترتيبات مالية محددة حين غادر باريس ، ولم يكن يعلم بالتالي مبلغ المال الذي سيرسل اليه . كذلك كانت عينا الدكتور جاشيت بما يعتمل فيهما دائماً من ذهول وحزن ممض ، باعثاً على اثارة الغثيان ومفاقمته يوماً بعد يوم داخل فنسنت .

وزاد الطين بلة مرض طفل ثيو .

وأوشك فنسنت ان يفقد عقله قلقاً على الطفل المسمى باسمه . وتحمل ذلك قدر ما يستطيع ، ثم استقل قطاراً إلى باريس . وأدى وصوله المفاجىء إلى سيتيه بيجال لزيادة الارتباك . فقد كان ثيو يبدو شاحباً عليلاً ، وبذل فنسنت قصارى جهده لمواساته .

واعترف ثيو في نهاية الأمر قائلاً :

– ليس ما يقلقني هو مرض الطفل وحسب .

– ماذا اذن يا ثيو ؟

– أنه فالادون . فقد هددني أنه سيطلب مني الاستقالة .

– كيف هذا يا ثيو ؟ كيف يستطيع ! لقد مضى عليك في محلات جوبيل ست عشرة سنة !

– أعرف هذا . لكنه يتذرع بأنني أهملت المهنة الأصلية وجنحت إلى الانطباعيين . والواقع انني لا ابيع الكثير من أعمالهم ، فاذا اتفق لي بيع شيء منها كانت أثمانها زهيدة . ويدعي فالادون ان محلي كان خاسراً طوال العام الماضي .

– ولكن هل يستطيع حقاً ان يفصلك ؟

ـ لم لا ؟ ان حصة الشريك فان جوخ بيعت بكاملها منذ حين .

ـ وماذا ستفعل يا ثيو ؟ هل تفتح محلاً خاصاً بك ؟

ـ وكيف اتمكن ؟ وقد أنفقت القليل الذي ادخرته على زواجي وعلى الطفل .

ـ لو أنك لم تبدد آلاف الفرنكات على اعالتي ...

ـ أرجوك يا فنسنت . لم يكن لهذا أي أثر على الأمور ، فأنت تعلم انني ...

ـ ولكن ما الذي ستفعله يا ثيو ؟ وهناك جو والطفل الصغير .

ـ نعم . صحيح ... لا أعرف ... وما يهمني في اللحظة الحاضرة هو صحة الطفل .

مكث فنسنت في نواحي باريس أياماً . وتجنب الشقة قدر الامكان ، حتّى لا يزعج الطفل . وقد زادته باريس كما زاده اصدقاؤه القدامى اضطراباً . وصار يشعر بحمى بطيئة قابضة تتملكه . فلما أصاب فنسنت الصغير شيئاً من الشفاء ، استقل القطار عائداً إلى هدوء اوفير .

على ان الهدوء لم يجده فتيلاً . فقد أخذت أسباب القلق تمزقه . ماذا سيحل به اذا فقد ثيو عمله ؟ هل يلقى به في الشوارع كأنه شحاذ دنيء ؟ وما الذي سيحل بجو وبالطفل ؟ وكيف يكون الحال لو مات الطفل ؟ أنه يعلم ان صحة ثيو الواهنة لن تتحمل الصدمة . ومن ذا الذي سيعولهم جميعاً أثناء بحث ثيو عن وظيفة جديدة ؟ ومن أين لثيو القوة لهذا البحث ؟كان يجلس ساعات في مقهى رافو المعتم . فيعيد ذلك إلى ذهنه مقهى لامارتين وما يعبق فيه من روائح البيرة الرخيصة والتبغ

الحريف . ويقوم إلى طاولة البلياردو ، يلعب بعصاها محاولاً ، على غير هدى ، ان يضرب الكرات التي حال لونها . ولم يكن لديه مال يشتري به شراباً ، ولا مال يشتري به الواناً وقماشاً . وليس في وسعه ان يطلب من ثيو شيئاً في تلك اللحظة الحرجة . وكان خائفاً حتى الموت من ان يفعل شيئاً جنونياً عندما تصيبه النوبة في تموز يوليه ، فيكبد ثيو المسكين مزيداً من الأسى ومزيداً من النفقات .

حاول ان يعمل فلم يفلح . لقد رسم كل ما أراد ، وقد قال كل ما أراد . ثم ان الطبيعة لم تعد تثير فيه حوافز الابداع . وان خير ما ما فيه قد مات .

ومرت الأيام . وحل منتصف تموز يوليه بقيظه اللاهب . واذا بثيو يرسل إلى أخيه مبلغ خمسين فرنكاً ، استطاع ان يقتطعها من معيشته ، ولم يفته ذلك على الرغم من المشكلات التي عصفت برأسه ، من ناحية فالادون ، ومن ناحية النفقات المطلوبة للطبيب الذي يعالج الطفل . وسلم فنسنت المبلغ إلى رافو . مقدراً أنه سيكفيه حتى نهاية تموز يوليه تقريباً . ولكن ... ماذا بعد ذلك ؟ أنه لا يستطيع ان يتوقع مزيداً من ثيو .

استلقى على ظهره تحت الشمس الحامية في حقول القمح بجوار المقبرة الصغيرة . ثم قام يتمشى في محاذاة ضفاف الواز ، وهو يشم رائحة الماء البارد والخضرة التي تحد ضفتيه . وذهب بعد ذلك إلى بيت جاشيت للغداء ، فملأ أمعاءه بطعام لا يسيغه ولا يهضمه . وبينما كان الدكتور يهذي متحدثاً بحماس عن رسومات فنسنت ، قال فنسنت لنفسه « لست أنا من يتحدث عنه . وهذه الصور لا يمكن ان تكون

صوري ، فأنا لم ارسم شيئاً قط . بل انني لا أتعرف إلى توقيعي تحت اللوحات . ولست اتذكر انني وضعت لمسة من فرشاة على أية واحدة منها . ولابد ان رجلاً آخر هو الذي رسمها . »

فلما ذهب إلى غرفته واستلقى هناك قال لنفسه « لنفرض ان ثيو لم يفقد عمله . وأنه ما زال قادراً على ان يزودني بمائة وخمسين فرنكاً في الشهر . ما الذي سأفعله بحياتي ؟ لقد ظللت حياً طيلة هذه السنوات الأخيرة التعسة لانني كنت مدفوعاً إلى الرسم ، وكان لابد لي ان اعبر عما كان يضطرم في داخلي . أما الآن ، فلم يعد هناك ما يضطرم في داخلي ، وما أنا الا محارة فارغة . ترى هل اتشبث بحياة خاملة ، كما تفعل تلك الأرواح البائسة في سان بول ، في انتظار حادثة تمحوني عن ظهر الأرض ؟ »

فاذا فرغ من تساؤلاته حول نفسه ، راح يعاني القلق لمصير جوهانا والطفل .

« لنفرض ان قواي ومعنوياتي رجعت الي ، وانني أريد ان ارسم ثانية . كيف يسعني ان آخذ المال من ثيو ، في حين أنه محتاج اليه لإعالة جو والطفل ؟ ينبغي ان لا ينفق ذلك المال علي ، وإنما ينفقه على ارسال عائلته إلى الريف ، حيث يكتسبون صحة وعافية . لقد حملني على ظهره عشر سنوات طوالا . اليس ذلك كافياً ؟ الا انزل واترك الفرصة لفنسنت الصغير ؟ لقد قلت كلمتي ، وجاء الدور للطفل الآن ليقول كلمته » .

تلك كانت هموم نفسه . ولكن الشيء الذي كان قابعاً في أساس تلك الهموم هو خشيته الطاغية مما قد تفعله به نوبة الصرع القادمة .

أنه الآن عاقل ومدرك ، وفي وسعه ان يفعل بحياته ما يريد ، فماذا يكون حاله اذا اسلمته النوبة التالية إلى الجنون المطبق ؟ وماذا يكون حاله اذا تحطم عقله تحت ضغط النوبة ؟ وماذا يكون حاله اذا أصبح معتوهاً سائل اللعاب عديم الجدوى ؟ ماذا يفعل ثيو المسكين عند ذاك ؟ ايودعه احدى المصحات التي تضم الضائعين ؟

ذهب إلى الدكتور جاشيت ، فأهدى اليه لوحتين اخريين ، وجعل يتسلل اليه تسلل الدودة ، بحثاً عن الحقيقة . وقال الدكتور :

— لا يا فنسنت . ولقد انتهى عهدك بالنوبات . وسوف تظل بعد اليوم متمتعاً بصحتك في تمامها . ولكن المصابين بالصرع ليسوا جميعاً محظوظين مثلك .

— ما الذي يحدث لهم في نهاية المطاف يا دكتور ؟

— يحدث أحياناً ، لمن يصابون بعدد من النوبات ، ان يفقدوا عقولهم تماماً .

— افلا يحتمل شفاؤهم بعد ذلك ؟

— كلا . إنهم ينتهون . وهم قد يعيشون في المصحات سنوات أخرى . ولكنهم لا يعودون إلى صوابهم ابداً .

— كيف يمكن للمرء ان يعرف يا دكتور ، ما إذا كانوا سيشفون من نوبتهم المقبلة ، وأنها ستشرخ دماغهم ؟

— ما من وسيلة لمعرفة ذلك يا فنسنت . ولكن تعال قل لي : لماذا نناقش هذه المسائل السقيمة ؟ هلم بنا إلى الورشة ، لنطبع بعض المطبوعات الحجرية .

لم يغادر فنسنت غرفته في مقهى رافو طيلة الأيام الأربعة التالية . وكانت مدام رافو تحمل إليه الحساء كل مساء .

وكان ما ينفك يتحدث إلى نفسه قائلاً « أنا الآن معافى وعاقل . ومسيطر على مصيري . ولكن إذا داهمتني النوبة القادمة . . . وإذا هي شرخت جمجمتي . . . فلن أملك من الوعي آنذاك ما يؤهلني لقتل نفسي وعند ذلك أسقط في الضياع . آه يا ثيو ، يا ثيو ، ماذا ينبغي أن أفعل ؟

ذهب في اليوم الرابع ساعة العصر إلى بيت جاشيت . وكان الدكتور في غرفة الجلوس . وسار فنسنت إلى الحجرة الصغيرة التي ترك فيها قبل أيام لوحة جوييامان العارية . وأمسك باللوحة ، وقال :

– قلت لك سابقاً أن تؤطر هذه اللوحة .

نظر إليه الدكتور جاشيت في دهشة .

– أعرف هذا يا فنسنت . وسوف أوصي النجار في اوفير أن يصنع لها إطاراً خشبياً في الاسبوع القادم .

– بل الآن ! اليوم ! في هذه الدقيقة !

– وكيف ذلك يا فنسنت . هذا كلام فارغ !

حدق فنسنت في الدكتور لحظة ، وخطا نحوه خطوة منذرة بالتهديد، ثم وضع يده في جيب سترته . وخيل للدكتور جاشيت ان فنسنت قبض على مسدس وصوبه إليه من داخل الجيب . فصاح :

– فنسنت !

ارتجف فنسنت . وخفض عينيه ، ونزع يده من جيبه ، ثم خرج يعدو من المنزل .

في اليوم التالي حمل مسند اللوحات وقطعة قماش ، وسار عبر الطريق الطويل إلى المحطة ، ثم صعد التل متجاوزاً الكنيسة الكاثوليكية ، وجلس في حقل القمح الأصفر الذي يواجه المقبرة .

وعند الظهر القائظ ، بينما كانت الشمس اللاهبة تضرب رأسه بشواظها ، انقضت عليه من السماءفجأه أسراب من طيور سوداء ، زاحمت الجو وحجبت الشمس ، وغمرت فنسنت بستار كثيف من الليل ، وراحت تقتحم شعر رأسه وعينيه وأنفه وفمه ، حتى دفنته في سحابة سوداء من الاجنحة القوية الخانقة الرفافة.

واصل فنسنت عمله . فرسم الطيور فوق حقل القمح الأصفر . ولم يعرف إلى متى ظل يضرب بفرشاته ، ولكنه حين تبين أنه فرغ من اللوحة ، كتب في أحد الأركان « غربان فوق حقل قمح » ، ثم حمل المسند واللوحة عائداً إلى رافو ، وهناك ألقى بجسده على السرير ، وأخلد للنوم .

في اليوم التالي خرج ثانية ، ولكنه غادر ساحة دولاميري من ناحيتها الاخرى . وتسلق التل مخلفاً وراءه القصر . وشاهده فلاح يجلس بين اغصان احدى الأشجار . وسمعه الفلاح يقول :

– هذا مستحيل ! هذا مستحيل !

ثم هبط من فوق الشجرة بعد حين ، وسار في الأرض المحروثة خلف القصر . كانت هذه المرة هي النهاية . ولقد عرف ذلك منذ المرة الأولى في آرل ، لكنه لم يستطع آنذاك أن يضع الخاتمة النظيفة .

أراد أن يقول كلمة الوداع . فقد كان العالم الذي عاش فيه عالماً

طيباً على الرغم من كل شيء . وكان جوجان على صواب بقوله « إذا كان السم موجوداً ، فان الترياق موجود » . ان فنسنت اذ يفارق العالم . الآن يريد أن يقول له وداعاً . وداعاً لجميع الأصدقاء الذين ساعدوه في تشكيل حياته . وداعاً لاورسولا التي كان لازدرائها اياه أثره في التحول عن الحياة التقليدية إلى حياة المنبوذين . وداعاً لمنديس داكوستا الذي غرس فيه الايمان بأنه لابد سيعبر عن ذات نفسه أخيراً ، فيكون في ذلك التعبير مبرر وجوده . وداعاً لكاي فوس التي قالت له « لا ، أبداً! أبداً ! » فانحفرت عبارتها على صفحة روحه بحروف من نار . وداعاً لمدام دينيس ولجاك فيرني ولهنري ديكراك ، الذين ساعدوه على محبة المستضعفين في الأرض . وداعاً للمبجل بيترسين الذي أحاطه بالحنان ، متجاوزاً عن ملابسه البشعة وسلوكه الفظ . وداعاً لأمه وأبيه اللذين أحباه بكل جوارحهما . وداعاًلكريستين التي شاءت الأقدار أن تكون زوجه الوحيدة بين سائر النساء . وداعاً لموف الذي كان أستاذاً له خلال بضعة أسابيع حلوة . وداعاً لفايزنبروخ ولدي بوك اللذين كانا صديقيه الاولين بين الرسامين . وداعاً لأعمامه فنسنت وجان وكورنيليوس وماريوس وسترايتر ، الذين وصموه بوصف النعجة السوداء بين آل فان جوخ . وداعاً لمارجو ، المرأة الوحيدة التي أحبته وحاولت قتل نفسها في سبيل حبه . وداعاً لجميع أصدقائه الرسامين في باريس ، بمن فيهم لوتريك، الذي أودع مشفى المجانين ثانية ليقضي فيه أيامه الباقية ، وجورج سورات الذي مات في سن الحادي والثلاثين متأثراً بافراطه في العمل ، وبول جوجان الذي انتهى إلى التسول في بريتاني ، وروسو الذي تأكله العفونه في جحر قريب من الباستيل ، وسيزان الذي انسحب إلى نسكه المرير على قمة تل في بلده اكس . وداعاً للأب تانجي ورولان ، اللذين رأى

في بساطة روحيهما كيف يكون الفقراء ملح الأرض ، وداعاً لراشيل وللدكتور ري اللذين منحاه عطفاً كان في حاجة إليه . وداعاً لاوريبه وللدكتور جاشيت ، اللذين آمنا دون سائر الناس انه رسام عظيم . ووداعاً بعد ذلك كله لأخيه الطيب ثيو ، الذي طال عناؤه كما طالت محبته، وكان خير أخ وأعز أخ يمكن أن يخطر ببال انسان .

غير أن الكلمات لم تكن واسطة فنسنت المختارة للتعبير . فليرسم « وداعاً » بالريشة واللون .

كلا ، ان الوداع يستعصي على الرسم .

أدار وجهه عالياً نحو الشمس . شد المسدس ، مسدداً إياه في اتجاه القلب . ضغط على الزناد تهاوى على الأرض دافناً وجهه في طين الأرض الخصيب اللاذع ، تراباً آخر يعود إلى أحشاء أمه.

— ٤ —

قام بعد أربع ساعات مترنحاً يتعثر ، وسار حتى ظلام المقهى — . ولحقت به مدام رافو إلى غرفته ، وشاهدت الدم على ملابسه ، فخرجت تركض فوراً إلى الدكتور جاشيت .

دخل الدكتور جاشيت الغرفة ، وقال وهو يئن :

— آه يا فنسنت ، ما الذي فعلته يا فنسنت !

— أعتقد أنني أخطأت التصويب . فما قولك ؟

فحص جاشيت الجرح ، ثم قال :

— آه يا فنسنت ، يا صديقي القديم البائس ، كم تراك كنت تشعر

بالتعاسة حتى فعلت ما فعلت !لماذا لم تخبرني ؟ لماذا تريد أن تفارقنا ونحن جميعاً مولعون بحبك ؟ ألا تفكر في الصور الجميلة التي مازلت جديراً بأن ترسمها للعالم ؟

– هل تتعطف وتناولني الغليون من جيب سترتي ؟

– طبعاً يا صديقي .

حشا الغليون تبغاً ، ووضعه بين أسنان فنسنت .

قال فنسنت :

– أشعله لي من فضلك .

– طبعاً يا صديقي .

نفث فنسنت الدخان من غليونه في هدوء . وقال الدكتور :

– فنسنت . اليوم هو الأحد . وأخوك ليس في المحل ، فما عنوان منزله ؟

– هذا ما لن أعطيك إياه .

– ولكن يا فنسنت ، هذا ضروري ! ينبغي أن نصل إليه عاجلاً !

– بل ينبغي أن لا نعكر صفوه يوم عطلته الاسبوعية . فهو متعب ومثقل النفس ، وفي حاجة إلى الراحة .

عبثاً حاول الدكتور جاشيت ، بكل ما أوتي من أساليب الاقناع ، أن ينتزع منه عنوان سيتيه بيجال ، فظل يعالج جرحه حتى هزيع متأخر من الليل ، ثم ذهب إلى منزله ليصيب شيئاً من الراحة ، بعد أن أوكل إلى ولده أمر العناية بالجريح .

ظل فنسنت مستلقياً طوال الليل مفتوح العينين ، لا ينطق بكلمة إلى بول . وإنما هو دائب على حشو غليونه ونفث الدخان .

وصل ثيو إلى محل جوبيل في الصباح التالي ، فوجد برقية جاشيت في انتظاره . فاستقل أول قطار إلى بونتواز ، ثم اندفع في إحدى العربات إلى اوفير .

– أهلاً ثيو .

ركع ثيو على ركبتيه بجوار السرير ، وأحاط فنسنت بذراعيه كالطفل الصغير . ولم يستطع أن ينبس ببنت شفة .

وحينما وصل الدكتور ، انتحى ثيو به جانباً في الممر . لكن جاشيت هز رأسه بأسى . وقال :

– لا أمل يا صديقي . لست قادراً على اجراء عملية لاستخراج الرصاصة ، لأنه أضعف من أن يتحمل العملية . ولولا أنه مقدود من حديد ، لمات هناك في الحقول .

ظل ثيو نهاره الطويل جالساً بجوار سرير فنسنت ، ممسكاً بيده . فلما خيم الليل ، وتركا وحدهما في الغرفة ، شرعا يتحدثان بهدوء عن طفولتهما في البرابانت .

– هل تذكر الطاحونة في ريزويك يا فنسنت ؟

– كانت طاحونة قديمة ظريفة ، أليس كذلك يا ثيو ؟

– كنا نسير على الدرب بجوار الجدول ، ونرسم الخطط لحياتنا.

– وعندما كنا نلعب وسط السنابل العالية في الصيف ، كنت تمسك يدي . مثلما تمسك بها الآن تماماً . أتذكر يا ثيو ؟

– أجل يا فنسنت .

– عندما كنت في المشفى في آرل كنت كثيراً ما أفكر في أيام زندرت . لقد كانت طفولتنا معاً عذبة يا ثيو ، كنا نلعب في الحديقة خلف المطبخ ، في ظلال شجر السنط ، وربما صنعت لنا أمنا فطائر الجبن للغداء .

– كأن هذا جرى منذ عهد طويل .

– . . . نعم . . . حقاً . . . ان الحياة طويلة . اوصيك يا ثيو ، كرامة لخاطري عندك ، ان تعنى بنفسك . وان تحافظ على صحتك . يجب أن تفكر في جو وفي الصغير . خذهما إلى مكان في الريف حتى يكتسبا صحة وقوة . ولا تبق في وظيفتك عند جوبيل يا ثيو . فقد أخذوا حياتك كلها . . . دون أن يعطوك شيئاً مقابلها .

– سوف أفتح معرضاً صغيراً للرسم يا فنسنت . وسيكون عرضي الأول خاصاً بأعمال رجل واحد هي الأعمال الكاملة لفنسنت فان جوخ. بذلك الترتيب ذاته الذي نسقته في الشقة . . . بيديك أنت .

– آه ، مليح ، أعمالي ... لقد غامرت بحياتي من أجلها ... وأوشكت أفقد عقلي .

خيم على الحجرة سكون عميق مأثور عن ليل اوفير .

ومرت الساعة الواحدة صباحاً ، والتفت فنسنت بعدها بقليل إلى ثيو ، وهمس له :

– أتمنى لو أموت الآن يا ثيو .

فما مرت دقائق قليلة ، حتى أغمض عينيه .

وشعر ثيو ان اخاه فارقه إلى الأبد .

— ٥ —

وصل روسو ، والأب تانجي ، واوربيه ، واميل برنار من باريس لحضور الجنازة .

كانت أبواب مقهى رافو مغلقة ، والستائر مسدلة . ووقفت عند الباب العربة السوداء الصغيرة بحصانيها الأسودين في الانتظار .

وسجي جثمان فنسنت فوق طاولة البليلاردو .

وهناك اجتمع كل من ثيو ، والدكتور جاشيت ، وروسو ، والأب تانجي ، واوربيه ، وبرنار ، ورافو ، وقد ران عليهم الصمت .

وعجز كل منهم عن النظر في وجه الاخر .

ولم يخطر ببال أحد ان يستدعي قسيساً .

ودق سائق عربة الموتى على الباب الأمامي . وقال :

— حان الوقت يا سادة .

وصاح جاشيت :

— بالله عليكم ، لا تدعوه يذهب على هذا النحو !

وجاء بجميع لوحات فنسنت من الغرفة ، ثم أرسل ابنه بول راكضاً إلى المنزل ، ليأتي ببقية لوحاته . وعمل ستة من الرجال في وضع اللوحات على الجدران .

ووقف ثيو وحيداً إلى جوار التابوت .

واذا بلوحات فنسنت ، المفعمة بضياء الشمس تحيل المقهى الكئيب إلى كاتدرائية مشعة .

وتجمع الرجال ثانية حول طاولة البلياردو . ولم يستطع أحد منهم ان يتكلم ، الا جاشيت .

قال :

– لا يتطرقن الينا اليأس ، نحن أصدقاء فنسنت . ان فنسنت ليس ميتاً . ولن يموت . وسوف يظل العالم ، على مدى الزمن ، يستمد ثروة متجددة من حب فنسنت ومن عبقريته ومن الجمال العظيم الذي ابدعته ريشته . انني انظر إلى رسوماته كل ساعة ، فأرى فيها ايماناً جديداً ومعنى جديداً للحياة . لقد كان عملاقاً ... وكان رساماً عظيماً ... وفيلسوفاً عظيماً . وقد سقط شهيداً في سبيل حبه للفن .

حاول ثيو ان يشكره ، فتلعثم :

– ... أنا ... أنا ...

لكن العبرات خنقته ، فلم يستطع ان يواصل .

واسدل الغطاء فوق نعش فنسنت .

ورفعه اصدقاؤه الستة فوق طاولة البلياردو وحملوه إلى خارج المقهى الصغير . ووضعوه برفق داخل العربة .

وساروا خلف العربة السوداء ، هابطين الطريق المغمور بضوء الشمس . ومروا بأكواخ القش وبالدارات الريفية الصغيرة .

وعند محاذاة المحطة ، استدارت العربة يساراً ، وبدأت صعودها

البطيء نحو أعلى التل . ومروا بالكنيسة الكاثوليكية ، ثم انعطفوا خلال حقل القمح الأصفر .

ووقفت العربة السوداء عند باب المقبرة .

وسار ثيو خلف النعش الذي حمله الرجال الستة إلى القبر .

وكان الدكتور جاشيت قد اختار مرقد فنسنت واستراحته الأخيرة تلك البقعة التي وقفا عليها ذاتها ، في اليوم الأول ، حين أشرفا على وادي الواز الأخضر البديع .

وحاول ثيو ، مرة اخرى ، ان يتكلم ، فلم يستطع .

وانزل الحاضرون النعش إلى القبر ، ثم جرفوا التراب ، واهالوه إلى أسفل .

واستدار الرجال السبعة ، وغادروا المقبرة ، وساروا يهبطون التل .

وبعد أيام قلائل ، عاد الدكتور جاشيت ليزرع عباد الشمس في كل ناحية حول القبر .

وعاد ثيو إلى البيت في سيتيه بيجال . وهناك عاش تحت وطأة هذا الفقد الأليم الذي صبغ كل ثانية من ثواني الليل والنهار بأسى لا سبيل الى التعزي عنه .

وإذا بدماغه يتحطم تحت هذا الضغط .

وأودعته جوهانا داخل مصحة الأمراض العقلية في اوتريخت ، حيث ترنت مارجو من قبل .

وفي أعقاب ستة شهور تقريباً على وفاة فنسنت ، توفي ثيو . ودفن في اوتريخت .

ومرت الأيام ، وبينما كانت جوهانا تقرأ في الانجيل طلباً للسلوان، صادفت هذه العبارة في اصحاح صموئيل :

« ولم يفترقا ، حتى في الموت » .

وهكذا نقلت جثمان ثيو إلى اوفير ، وعملت على دفنه بجوار اخيه .

وكلما أرسلت شمس اوفير الحامية أشعتها فوق المقبرة الصغيرة وسط حقول القمح ، رقد ثيو هانئاً في الظلال الظليلة ، تحت أزهار عباد الشمس المزروعة تذكاراً لفنسنت .

* * *

ملاحظة

ربما تساءل القارىء « كم تبلغ نسبة الحقيقة في هذه الرواية ؟ » . والجواب ان الحوار الذي يتخللها وضع بعد عملية اعادة تخيل . أضف إلى ذلك ان ثمة استطرادات قليلة ابدعها الخيال المحض ، ومن ذلك مشهد مايا الذي لابد ان يكون القارىء قد أدرك خياليته . وقد عمدت في مناسبة واحدة أو مناسبتين إلى تصوير وقائع صغيرة كنت مقتنعاً باحتماليتها على الرغم من انني لم استطع توثيقها ، ومثالها اللقاء القصير بين سيزان وفان جوخ في باريس . وعمدت أيضاً لاستخدام بعض الافتراضات الهينة توخياً للسهولة ، ومثالها استخدام الفرنك وحدة للنقد خلال رحلة فنسنت في اوروبا . كما انني حذفت عدة مقاطع غير ذات بال من القصة الكاملة .

وفيما عدا هذه الاباحات الفنية ، فان الكتاب صحيح بكليته .

ومصدري الأول هو المجلدات الثلاثة التي تضمنت رسائل فنسنت فان جوخ إلى شقيقه ثيو (طبعة هوتون ميغلين ١٩٢٧ — ١٩٣٠) . غير ان الجزء الأكبر من مادة الكتاب هي التي جمعتها بتجوالي في اثر فنسنت عبر هولندا وبلجيكا وفرنسا .

ايرفنج ستون

الفهرس

المقدمة : لندن	٥
الكتاب الأول : البورِيناج	٤٥
الكتاب الثاني : ايتن	١٧٣
الكتاب الثالث : لاهاي	٢٤١
الكتاب الرابع : نيونن	٣٧٧
الكتاب الخامس : باريس	٤٤٥
الكتاب السادس : آرل	٥٨١
الكتاب السابع : سان ريمي	٦٨٧
الكتاب الثامن : اوفير	٧٢١
ملاحظة	٧٦٧

٣٠٠٠ ط١ /٦/١٩٩٦

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

سعر النسخة داخل القطر

٤٠٠ ل.س

في ا